الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عباس لغرور خنشلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

توظيف تاريخ الجزائر لخدمة الاستعمار

"إميل فليكس غوتييه Émile-Félix Gautier أنموذجًا"

أطروحة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في التاريخ

تخصص نصوص ووثائق تاريخ الجزائر المعاصر

إعداد الطالب: حسين كندري

إشراف: أ.د عبد السلام عكاش

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
نوي بن مبروك	أستاذ	رئيساً	جامعة عباس لغرور خنشلة
عبد السلام عكاش	أستاذ	مشرفاً ومقرراً	جامعة محمد الشريف مساعدية سوق أهراس
عمر عبد الناصر	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة 08 ماي 1945 – قالمة –
سيدي محمد رامي	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة عباس لغرور خنشلة
عبد المنعم هامل	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة عباس لغرور خنشلة
العربي غانم	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة باتنة 1 – الحاج لخضر–
عبد العزيز راجعي	أستاذ محاضر أ	مشرفا مساعدا	جامعة عباس لغرور خنشلة

السنة الجامعية: 2025-2026

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عباس لغرور خنشلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

توظيف تاريخ الجزائر لخدمة الاستعمار

"إميل فليكس غوتييه Émile-Félix Gautier أنموذجًا"

أطروحة دكتوراه الطور الثالث (ل.م.د) في التاريخ

تخصص نصوص ووثائق تاريخ الجزائر المعاصر

إعداد الطالب: حسين كندري

إشراف: أ.د عبد السلام عكاش

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
نوي بن مبروك	أستاذ	رئيساً	جامعة عباس لغرور خنشلة
عبد السلام عكاش	أستاذ	مشرفاً ومقرراً	جامعة محمد الشريف مساعدية سوق أهراس
عمر عبد الناصر	أستاذ	عضوا مناقشا	جامعة 08 ماي 1945 – قالمة –
سيدي محمد رامي	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة عباس لغرور خنشلة
عبد المنعم هامل	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة عباس لغرور خنشلة
العربي غانم	أستاذ محاضر أ	عضوا مناقشا	جامعة باتنة 1 – الحاج لخضر–
عبد العزيز راجعي	أستاذ محاضر أ	مشرفا مساعدا	جامعة عباس لغرور خنشلة

السنة الجامعية: 2025-2026


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى كل معلم أفنى حياته في سبيل ازدهار الجزائر
- إلى من ينير درب الحياة ويحارب ظلمات الجهل
- إلى كل طالب علم يسعى لرؤية بلده شامخاً
- إلى كل من رفع سلاح العلم والقلم في بلادنا

أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وعرفان

أحمد الله تعالى الذي وفقني لإتمام هذا العمل؛ فالحمد لله الذي تتمُّ بنعمته الصالحات، وبه تتم المقاصد.

وبعد، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

أقدم جزيل شكري وامتناني للأستاذ المشرف على البحث الأستاذ الدكتور «عبد السلام عكاش»، وكذا الأستاذ المشرف المساعد «راجعي عبد العزيز» على النصائح التي قدموها لي خلال إنجاز البحث.

كما أشكر عمال مكتبة جامعة الجزائر 1 والمكتبة الوطنية الجزائرية والأستاذة «كريمة دريش» من مخبر "الزمان، الأماكن، اللغات، جنوب أوروبا، البحر الأبيض المتوسط TELEMMe" بجامعة «أكس أون بروفونس» على ما قدموه لي من تسهيلات في جمع المادة العلمية، كما لا أنسى تقديم جزيل الشكر لكلِّ من ساهم من قريب أو بعيد في إتمام هذه الدراسة. فشكراً جزيلاً، وجزاكم الله خير الجزاء.

مقدمـــــة

تهتم معظم شعوب ودول العالم بتدوين تاريخها وتاريخ الشعوب الأخرى، وقد جاء هذا الاهتمام نتيجة إدراك الأمم لضرورة حفظ ماضيها وذاكرتها. ولم يكن الهدف من هذا التدوين مجرد ذكر أخبار الماضي وأحداثه على شكل قصص، بل كان لفهم طبيعة الإنسان من خلال دراسة ماضيه. كما أن التاريخ من شأنه أن يعزز اللحمة الوطنية إذا تم توظيفه بشكل إيجابي، لكنه قد يؤدي إلى نتائج معاكسة إذا استُخدم من قبل أقلام تحمل خلفيات استعمارية.

بدأ تدوين تاريخ الجزائر بطرق أكاديمية وبأدوات علمية حديثة على يد مؤرخين فرنسيين خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، حتى تشكلت مدرسة تاريخية استعمارية واضحة المعالم لها منهجها الخاص، وتبلورت هذه المدرسة خصوصًا بعد افتتاح جامعة الجزائر سنة 1909، وقد بدأ اهتمام المستعمر بفهم الشعب الجزائري من خلال دراسة ماضيه منذ بداية الاحتلال، عبر تشجيع السلطات للدراسات والأبحاث التاريخية وتقديم الدعم المادي لها.

ومن هذا المنطلق برزت عدة مؤلفات فرنسية تناولت تاريخ الجزائر منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى فترة الاحتلال الفرنسي، مع الإشارة إلى أن فترة ما قبل التاريخ والتاريخ القديم لم تكن من ضمن اهتمامات المصادر التاريخية العربية. وهذا يبيّن أحد جوانب إضافات الدراسات التاريخية للمدرسة الاستعمارية، التي تركت لنا كمّاً كبيراً من الدراسات، غطت مختلف الجوانب، والتي لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها عند تناول مختلف مراحل تاريخ الجزائر.

غير أنَّ الإشكال الأساسي الذي يواجه كلَّ من يكتب تاريخ الجزائر بالاعتماد على تلك الكتابات هو كونها مثقلة بالخلفيات الأيديولوجية الاستعمارية. ولعلَّ من أهم المؤرخين الفرنسيين الاستعماريين الذين يجسدون المدرسة الاستعمارية وتوجهاتها بأوضح صورها «إميل فيليكس غوتييه»، الذي ترك كمًّا كبيرًا من الدراسات والأبحاث حول جغرافية الجزائر وسكانها وتاريخها في مختلف العصور.

لذلك، ارتأينا في هذا البحث دراسة هذا النموذج بالعرض والتحليل والنقد، ومنه جاء عنوان الأطروحة على الشكل التالي:

«توظيف تاريخ الجزائر لخدمة الاستعمار، إميل فليكس غوتييه Émile-Félix Gautier أنموذجا»

إشكالية الدراسة:

إنَّ إشكالية هذه الدراسة تتركز بشكل عام في تحليل توجهات الكتابة التاريخية الاستعمارية في تدوين مختلف مراحل تاريخ الجزائر في الفترة الممتدة من 1880م إلى 1962م، باعتبار أنَّ هذه الفترة شهدت كثافة في نشاط التأليف والتدوين الفرنسي في الجزائر، خاصةً مع بروز العديد من المؤسسات العلمية والهيئات الأكاديمية؛ إذ ساهمت هذه المؤسسات في بروز مؤلفات عديدة عن مختلف مراحل تاريخ الجزائر، من بينها مؤلفات «إيميل فيليكس غوتييه»، المدرِّس في جامعة الجزائر.

لذا تتمحور الإشكالية التي تعالجها الدراسة حول تقصي حدود التزام «إميل فيليكس غوتييه» بالحياد والموضوعية التاريخية، ومعرفة ما إذا كانت مؤلفاته قد وظّفت لتمرير خلفيات أيديولوجية تخدم المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر وتضمن استمراريته.

هذه الإشكالية تندرج ضمنها تساؤلات فرعية هي:

- ما المقصود بالأسطوغرافيا وما الغاية منها؟ وهل هناك أسطوغرافيا استعمارية وأسطوغرافيا غير استعمارية؟
- متى ظهرت الأسطوغرافيا الاستعمارية الفرنسية الخاصة بالجزائر؟ وبم تتميز؟
- كيف تجلت معالم المشروع الفكري والتاريخي لإميل فليكس غوتييه في أبرز مؤلفاته حول تاريخ الجزائر؟
- ماهو تصور المؤرخ إميل فليكس غوتييه مختلف المحطات والمراحل التاريخية للجزائر؟
- هل اهتم «غوتييه» بمرحلة محددة من تاريخ الجزائر؟ وما الأسباب التي جعلته يركز عليها دون غيرها؟
- ما هي الإشكالات المركزية التي توقفت عندها كتابات غوتييه التاريخية؟

هل تحظى كتابات غوتييه بقيمة علمية تؤهلها للاعتماد في تدوين تاريخ الجزائر؟ وما هي الآليات المنهجية للتعامل معها حين تكون المصدر الأوحد للمعلومة؟

حدود الدراسة:

تمتد الفترة الزمنية للدراسة من عام 1903م إلى عام 1939م. حيث يمثل عام 1903م بداية «إميل فليكس غوتييه» التأليف عن الجزائر، بينما يمثل عام 1939 تاريخ توقفه عن الكتابة، الذي تبعه وفاته في عام 1940م.

كما شهدت هذه الفترة أيضًا ظهور الدراسات التاريخية الأكاديمية الفرنسية، خاصة بعد إنشاء المدارس العليا في الجزائر وتأسيس مختلف الهيئات العلمية المعنية بدراسة تاريخ الجزائر، وعلى رأسها جامعة الجزائر، حيث كان لهذه المؤسسات أثر كبير في تكثيف نشاط البحث والتقصي عن تاريخ الجزائر بمراحله المختلفة. ومع ذلك، اقتضت متطلبات البحث التاريخي تجاوز هذا الإطار الزمني بالعودة إلى بدايات المدرسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وتحديداً ما قبل الاحتلال الفرنسي، وذلك بهدف إدراك طبيعة الكتابة الاستعمارية بشكل عام، وتحديد التحولات التي طرأت على هذه المدرسة بعد الاحتلال بظهور الهيئات والمؤسسات العلمية المختصة في البحث التاريخي.

أسباب اختيار الموضوع:

إنَّ موضوع الكتابة التاريخية في الجزائر من الموضوعات المهمة، باعتباره يهتم بتقييم ونقد ما كُتب عن تاريخ الجزائر بمختلف مراحله. وباعتبار أنَّ هذا التاريخ قد لقي اهتماماً كبيراً من قِبل الفرنسيين، سواء قبل احتلال الجزائر أو بعده، كان لزاماً علينا إيلاء الأهمية لهذه الدراسات، من حيث تحليل مضمونها وإبراز أهدافها الحقيقية.

لذلك اخترنا في البداية إنجازَ دراسةٍ بعنوان: «**توظيف تاريخ الجزائر لأجل خدمة الاستعمار، دراسة في الأستوغرافيا الاستعمارية (1870–1930)**». لكن بعد إجرائنا دراسةً مُعمَّقةً لمضامين هذا العنوان، وجدنا أنَّه يعالج جميعَ الكتابات التاريخية الفرنسية التي صدرت في الحقبةِ سالفة الذكر، سواء

كانت هذه المؤلَّفات كتبا أو مقالات أو رحلات جغرافية لمستكشفين فرنسيين، بالإضافة إلى الوثائق الأرشيفية والمراسلاتِ التي كُتِبت عن تاريخِ الجزائر.

هذا التعدّد والتنوُّع جعلانا نواجه عدّة صعوبات في التعامل مع هذا الكمّ الهائلِ من المراجعِ والكتب، وأدركنا صعوبة الإحاطةِ بجميعها. ومن جهةٍ أخرى، لاحظنا أنَّ أغلب مؤلِّفيها لم يهتمّوا بمرحلةٍ معيّنة من تاريخِ الجزائر، بل نجدهم قد ألّفوا عن مراحلَ مختلفة، من التاريخ القديم إلى التاريخِ المعاصر، وهو ما سيشكّل عائقًا أمام التعامل مع تعدُّد المؤلَّفات وتنوّعِ المراحلِ التي عالجتها؛ لأنَّنا وضعنا في بدايةِ تصوّرِنا لموضوعِ الدراسةِ تقسيمَ الكتاباتِ حسبَ المدّةِ التاريخيةِ التي عالجتها، أي دراسةَ ما كُتِبَ عن تاريخِ الجزائرِ القديم، ثم الوسيط، فالحديث، وأخيرًا المعاصر.

غير أنَّنا وجدنا تكرار ذكر أسماء المؤرخين ونظرتهم لتاريخ الجزائر، فمثلاً المؤرخ «شارل أندري جوليان» إذا تكلَّمنا عن نظرته لتاريخ الجزائر في القديم، سنجد أنفسنا نعيد الحديث عنه في فترة التاريخ الوسيط والحديث وكذا المعاصر، هذا الإشكال جعلنا نقرّر تصنيف الأعمال وفق المؤلفين، أي وضع خطة تُبنى فصولها على أساس معالجة آراء كل مؤرخ على حدة، لكننا وجدنا أنفسنا قد وقعنا مرة أخرى في إعادة المعلومات، خاصة في جانب معالجة آراء المؤرخين الفرنسيين حول مختلف مراحل تاريخ الجزائر، حيث وجدنا العديد منهم ألَّفوا العديد من الكتب والمقالات التي تتعلق بمختلف الحقب التاريخية التي مرَّت عليها الجزائر.

ومن هذا المنطلق، وتفادياً لتكرار المعلومات وإعادة نقل ما كتبه هؤلاء المؤرخون عن تاريخ الجزائر، أي أن تصبح الدراسة وصفية فقط، قررنا تغيير عنوان الدراسة إلى:

«توظيف تاريخ الجزائر لخدمة الاستعمار، إميل فليكس غوتييه Émile-Félix Gautier أنموذجا»

وهذا التغيير جاء نتيجة عوامل ذاتية وأخرى موضوعية هي:

الأسباب الذاتية:

- معرفة ما كتب عن تاريخ الجزائر باللغة الفرنسية وأهم مؤرخي الاستعمار الفرنسي.
- الرغبة في التعرف على نظرة المؤرخين الفرنسيين إلى تاريخ الجزائر بصفة عامة.
- الميول الشخصية لتاريخ الجزائر وما كتب عنه في مختلف المؤلفات.
- إدراكنا الشخصي لأهمية الكتابات التاريخية الفرنسية ودورها في تدوين تاريخ الجزائر.
- الدعم الذي وجدناه من المشرف من خلال تبسيطه لنا للموضوع وتشويقه لنا للدراسة والبحث أكثر فيها.

الأسباب الموضوعية:

- قلة الدراسات والأبحاث باللغة العربية التي تهتم بمعالجة طبيعة الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر.
- كثرة الإنتاج وغزارة المؤلفات الفرنسية التي كُتبت عن تاريخ الجزائر، وغياب دراسة نقدية تحليلية لها.
- العمل على إبراز نماذج مهمة من مؤرخي المدرسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، خاصة «إميل فيليكس غوتييه»، وذلك بالنظر لحجم المؤلفات والكتب التي ألفها عن تاريخ الجزائر بمختلف مراحله.
- أنَّ «إميل فليكس غوتييه» يُعدُّ ممثلاً للنظرة الأكاديمية الفرنسية في الجزائر؛ إذ تولى مهام التدريس في جامعة الجزائر، وقدم لنا مصادر مهمة خاصة عن مرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر باعتباره مان كثير الاحتكاك بمسؤولي الإدارة الفرنسية.
- تبيان طبيعة هذه الكتابات التاريخية، والتعريف بها، وتحديد منهجها في معالجة ماضي الجزائر، سواء قبل الاحتلال الفرنسي أو إبان فترة الاحتلال، وتحديد المراحل التاريخية التي اهتمت بها من تاريخ الجزائر وأسباب هذا الاهتمام.

الدراسات السابقة:

إنَّ البحث في موضوع الكتابة التاريخية في الجزائر لم يلقَ اهتماماً كبيراً، مقارنةً بدراسة هذا التاريخ والكشف عن أحداثه. وباعتبار أنَّ هذه الدراسة تهتم بالشق الأول فقط، خاصةً البحث في الكتابات التاريخية الفرنسية، ارتأينا تقديم الدراسات التي تناولت هذا الجانب.

- الدراسة الأولى هي أطروحة دكتوراه للأستاذ «عبد الحميد برقية» بعنوان: «**الاستشراق الفرنسي والجزائر فيما بين 1879 –1962 دراسة تاريخية فكرية**»، وهي أطروحة نوقشت في جامعة قالمة سنة 2021 – 2022.

تعالج هذه الأطروحة مفهوم الاستشراق بصفة عامة والنشاطات الاستشراقية الفرنسية في الجزائر، وهي تتشارك مع دراستنا في الفصل الرابع المعنون بـ: «الدراسات التاريخية والأثرية في الجزائر»، حيث عالج الطالب بصفة عامة ما كُتب عن تاريخ الجزائر من التاريخ القديم إلى فترة التاريخ المعاصر، كما قدَّم لنا تعريفاً موجزاً لأهم المؤسسات العلمية التي أسسها مؤرخو المدرسة الفرنسية والنشاطات التي قامت بها هذه المؤسسات في مجال البحث التاريخي والأثري على حد سواء.

ودراستنا هذه ستختلف عما أورده الطالب؛ حيث سنعالج موضوعاً مختلفاً ومن زاوية مختلفة، فبينما ركَّز الطالب على معالجة الاستشراق والجهود التي بذلها المستشرقون الفرنسيون في كتابة تاريخ الجزائر بصفة عامة بذكر مؤسسات الاستشراق وأهم المستشرقين، فإننا في هذه الدراسة سنخصِّص الحديث عن الكتابات التاريخية الفرنسية من حيث الكتب والمقالات التي تحدَّثت عن تاريخ الجزائر.

الدراسة الثانية للأستاذ «أمحمد صدوقي» بعنوان: «**النشاطات التاريخية والأثرية الفرنسية في الجزائر ودورها في تجسيد المشروع الاستعماري 1830 – 1930**»، وهي أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر مسجلة في جامعة الجزائر 2 «أبو القاسم سعد الله حالياً» في السنة الجامعية 2019 – 2020، وهي كذلك تعالج مختلف الأبحاث والدراسات التاريخية التي أُنجزت في الفترة الممتدة بين 1830 و1930.

وهي تشترك مع دراستنا في محورين، الأول جاء في الفصل الأول من الأطروحة بعنوان: «**منطلقات البحث التاريخي والأثري الفرنسي في الجزائر**»، حيث عالج فيه الأستاذ «صدوقي» الأسس

التي دفعت بالفرنسيين للبحث في تاريخ الجزائر مثل إشكالية أصول السكان ونفي التحضر عن المجتمع الجزائري، أما المحور الثاني الذي تشترك فيه هذه الدراسة مع أطروحتنا فجاء في الفصل الخامس بعنوان: «**آليات وأبعاد ارتباط النشاطات التاريخية والأثرية بالمشروع الاستعماري الفرنسي وسبل الرد عليه**»، إذ خُصِّصَ لتبيان أبعاد الدراسات التاريخية والأثرية الفرنسية في الجزائر لإثبات تخلف المجتمع الجزائري وخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي.

ودراستنا هذه تختلف تماماً عن الطرح الذي أنتجه الأستاذ «صدوقي»، حيث ستكون الدراسة بعيدة كل البعد عن الوصف العام لمؤلفات المؤرخين الفرنسيين في تاريخ الجزائر، بل سنركز على دراسة نماذج محدَّدة من المدرسة التاريخية الفرنسية، ونعالج نظرتهم لتاريخ الجزائر بمختلف مراحله، ونحدَّد القضايا والإشكالات التي عالجوها في مختلف مؤلفاتهم.

- الدراسة الثالثة هي للأستاذ «غرينة عبد النور»، الأولى هي أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر بعنوان: «**المجتمع الجزائري في الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية، حالة الشرق الجزائري إبَّان الفترة الاستعمارية 1880 – 1962**»، عن جامعة الجزائر 2، نوقشت في السنة الجامعية 2017 – 2018، أمَّا الثانية فهي مذكرة ماجستير في تاريخ الأوراس الحديث والمعاصر بعنوان: «**الأوراس في الكتابات الفرنسية إبَّان الفترة الكولونيالية 1840 – 1939**»، نوقشت في جامعة الحاج لخضر باتنة خلال السنة الجامعية 2009 – 2010.

حيث عالج الطالب في أطروحة الدكتوراه مختلف الكتابات الأنثروبولوجية الفرنسية عن منطقة الأوراس، أما رسالة الماجستير فهي تتحدث عن مؤلفات الفرنسيين عن الأوراس بصفة عامة، سواء كانت هذه المؤلفات عبارة عن دراسات اقتصادية أو اجتماعية أو أنثروبولوجية، ولم يخصص للدراسات الفرنسية التاريخية للأوراس إلا مبحثاً واحداً في الفصل الثالث من الرسالة.

لذا فدراستنا تختلف عما عالجه الطالب، سواء في أطروحة الدكتوراه أو في رسالة الماجستير؛ رغم اشتراكهما مع موضوعنا في قضية تشابه الرؤية الاستعمارية للمجتمع الجزائري واعتباره متخلفاً، فبحثنا هذا لن يركز في حديثه على الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية عن منطقة الشرق الجزائري، كما أنَّ هذه

الدراسة لن تعالج ما كتبه الفرنسيون عن المجتمع الجزائري فقط، بل ما كُتب عن تاريخ الجزائر منذ فترة ما قبل التاريخ إلى فترة الاحتلال الفرنسي.

الدراسة الرابعة، والتي تشترك مع بحثنا هذا، هي رسالة الماجستير للأستاذ «أوحاشي طاهر» بعنوان: «**العهد الروماني في الجزائر (40 – 430 م). نقد الأسطوغرافيا الكولونيالية الفرنسية**»، نوقشت هذه الرسالة في جامعة الجزائر خلال السنة الجامعية 2015 – 2016، وهي رسالة تعالج الدراسات التاريخية الفرنسية لتاريخ الجزائر القديم، وتحديداً العهد الروماني.

وبذلك فهذه الرسالة تتقاطع مع موضوعنا في دراسة هذه الفترة التاريخية، إذ تحدَّث الأستاذ «أوحاشي» عن نظرة المؤرخين الفرنسيين كالمؤرخ «إميل فليكس غوتييه» لتاريخ الجزائر القديم، غير أنَّ دراستنا لن تكون عما كتبه هذا المؤرخ عن فترة التاريخ القديم فقط، بل ستعالج ما كتبه من دراسات عن تاريخ الجزائر القديم والحديث والمعاصر، كما أنَّ رسالة الأستاذ «أوحاشي» خُصِّصت للأسطوغرافيا الاستعمارية والوطنية على حد سواء، وهي بذلك تختلف عن دراستنا المخصّصة للأسطوغرافيا الاستعمارية فقط بتحليل مضمونها وتحديد أهدافها.

أهمية الدراسة:

إنَّ هذه الدراسة تعالج جانباً مُهِمّاً، يتمحور حول طبيعة الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر ومكانة هذه الدراسات في تدوين تاريخ الجزائر، من الفترة القديمة إلى فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، والأهداف التي سعت إدارة الاحتلال الفرنسي لتحقيقها، خاصَّةً تلك المتعلقة بتبرير الاستعمار الفرنسي للجزائر، والنفي المطلق لوجود الدولة الجزائرية قبل مجيء الفرنسيين، واعتبار سُكَّانِها همجيين لا يَرْقَوْنَ إلى النظام في حياتهم، كما أنَّ هذه الدراسة تبيّن حجم الإنتاج العلمي للمدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر وتبرز مدى اهتمام الفرنسيين بدراسة تاريخ الجزائريين وطبائعهم وعاداتهم؛ وهذا من أجل تسهيل مهمة تثبيت أركان الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وتكوين شعب جزائري خاضع لفرنسا.

أهداف الدراسة:

- التعريف بالأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر ودورها في تدوين تاريخ الجزائر.
- دراسة نماذج لمؤرخي المدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر، وخاصة «إميل فيليكس غوتييه»، والتعرف على جهوده في تدوين تاريخ الجزائر، والعمل على تحديد أهداف دراساته التاريخية.
- تتبع مسار تطور الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي، والتركيز على فترة الحكم المدني للجزائر، وخاصة بعد تأسيس جامعة الجزائر.
- معرفة الدوافع التي جعلت نموذج دراستنا يهتم بتدوين تاريخ الجزائر منذ الفترة القديمة إلى فترة الاحتلال الفرنسي.
- الكشف عن الطرق التي اتبعها المؤرخون الفرنسيون بصفة عامة، و«إميل فليكس غوتييه» بصفة خاصة، في دراساتهم لتاريخ الجزائر من أجل تبرير استمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر واستغلال خيراتها لصالح الاقتصاد الفرنسي.
- تحديد مجالات اهتمام المدرسة التاريخية الفرنسية بتاريخ الجزائر، هل كان مقتصراً على إطار زماني محدد كدراسة تاريخ الجزائر القديم فقط؟ أم أن الكتابة التاريخية الفرنسية اهتمت بتدوين تاريخ الجزائر بصفة عامة؟ وإذا كان الاهتمام مركزاً على فترة محددة، ما هو سبب هذا الاهتمام وهذا التركيز عليها بصفة خاصة؟

منهج الدراسة:

إنَّ تعدد المواضيع التي تعالجها دراستنا هذه من جهة، وتنوع مصادر ومراجع البحث من جهة أخرى، أدى إلى تنوع المناهج المستخدمة فيه حسب كل فصل، باعتبار أنَّ موضوعنا ذو أبعاد تاريخية وثقافية واجتماعية وسياسية، وهو ما يؤدي إلى اختلاف طرق التعامل مع المادة التاريخية من كتب ومقالات وأبحاث علمية مختصة.

لذا ففي الفصل الأول من الدراسة اعتمدنا على المنهج التاريخي السردي بالدرجة الأولى، باعتبار أن هذا الفصل يهتم بوصف طبيعة الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر، وذكر رواد المدرسة التاريخية الكولونيالية، وأبرز مؤلفاتهم عن الجزائر وتاريخها، مع الإشارة إلى أبرز مؤلفاتهم والغايات الأساسية من

تأليفها، سواء صدرت قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر أو بعده، كما اعتمدنا على المنهج التحليلي والمنهج المقارن خاصةً خلال معالجتنا لبدايات ظهور الاسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر لإبراز أوجه التشابه بين مختلف الكتابات التاريخية الفرنسية التي صدرت في الخمسين سنة الأولى من بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر، والمؤلفات التي ظهرت بعد تحول الحكم الفرنسي في الجزائر من العسكري إلى المدني.

في حين غلب المنهج البيبليوغرافي على الفصل الثاني بالنظر لما يقتضيه من وصف مختلف الكتب والمقالات والدراسات التاريخية التي ألفها نموذج الدراسة لمختلف مراحل تاريخ الجزائر، أما الفصل الثالث والفصل الرابع، وكذا الفصل الخامس، فاعتمدنا على المنهج التحليلي الاستقرائي المقارن في معالجتنا لمختلف التصورات والقضايا التي ناقشها «غوتييه» عن تاريخ الجزائر، والإشكالات التي سعى إلى إثباتها عن الشعب الجزائري خاصة وشعوب شمال إفريقيا عامة.

الخطة المتبعة:

إنَّ موضوع الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر من المواضيع الهامَّة، والتي تتطلب اهتماماً بالغاً من أجل التعريف بطبيعة هذه الكتابة، وتحديد أهدافها في خدمة الاحتلال الفرنسي، ولذلك اجتهدنا في توثيق هذه الكتابة والعمل على نقدها بشكل موضوعي، ومن هنا جاءت خطة الدراسة في مقدّمة ثم خمسة فصول يتضمن كل واحد منها محاور وعناصر، ثم خاتمة، وسنورد فيما يلي مضمونها:

فالمقدمة: عبارة عن تمهيد للموضوع وطرح للإشكالية وعرض لخطة الدراسة وتعريف بمصادر ومراجع البحث وصعوباته.

أما الفصل الأول فجاء بعنوان: «**نشأة وتطور الأسطوغرافيا الكولونيالية في الجزائر**»، ويندرج ضمنه ثلاثة محاور هي: «**مفهوم الأسطوغرافيا الكولونيالية**»، عرّفنا فيه بمدلول كلمة الأسطوغرافيا بصفة عامة، والأسطوغرافيا الكولونيالية بصفة خاصة. أمّا المحور الثاني فخصصناه لـ: «**الأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر قبل 1830**»، تحدثنا فيه عن بدايات الكتابات التاريخية الفرنسية في الجزائر، وتطرقنا أيضاً إلى أنواع هذه الكتابات وخصائصها بصفة عامة، مع إبراز نماذج لها والمواضيع التي تناولتها.

أما المحور الثالث فاخترنا الحديث فيه عن: «**تطور الأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر (1830–1962)**»، من خلال ذكر التغيرات التي عرفتها الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر بعد الاحتلال، عبر التطرق إلى نماذج من مؤلفات المؤرخين الفرنسيين خلال الفترة سالفة الذكر. وقد اخترنا هذا التوجه من منطلق تقديم دراسة تُعنى بعرض نماذج من مؤلفات المؤرخين الفرنسيين، خاصة ذات التوجه الكولونيالي، وتجنب إجراء دراسة تركز فقط على الجانب الببليوغرافي، بل تسعى إلى إبراز دراسات تاريخية لقيت انتشاراً كبيراً في تلك الفترة الزمنية.

الفصل الثاني حول «**التعريف بإميل فيليكس غوتيه ومؤلفاته**»، وقسمناه إلى محورين؛ حيث خصصنا المحور الأول لـ: «**التعريف بإميل فيليكس غوتيه**»، تطرقنا فيه إلى مولد نموذج دراستنا ومساره الدراسي، والرحلات التي قام بها في جزيرة مدغشقر، ثم في الجزائر وغرب إفريقيا إلى غاية وفاته بفرنسا.

أما المحور الثاني الموسوم بـ: «**دراسة ببليوغرافية وصفية لمؤلفات إميل فليكس غوتييه**»، قدّمنا فيه تعريفاً بمؤلفات نموذج بحثنا، سواء كانت تقارير أو مقالات أو كتباً أو مقالات صحفية، حيث بدأنا بالتعريف بالتقارير باعتبارها وثائق أرشيفية غير منشورة، ثم انتقلنا إلى التعريف بالكتب وفق تنظيمها حسب تاريخ صدورها، أي ترتيبها من أقدم الكتب صدوراً إلى أحدثها، كما قدّمنا وصفاً عاماً لهذه الكتب من حيث تاريخ النشر وعدد الصفحات، مع إبراز مضمون كل كتاب. واختتمنا هذا الفصل بالإشارة إلى المقالات التي كتبها نموذج دراستنا في مختلف المجلات العلمية، حيث لجأنا إلى تبويبها وفق المجالات التي صدرت فيها، مع اعتماد ترتيب يقوم على ذكر المجلات التي نُشر فيها أكبر عدد من المقالات إلى أقلها عدداً، ثم ذكر المقالات الصحفية.

أمّا الفصل الثالث فيتناول «**توجهات إميل فليكس غوتييه في تدوين تاريخ الجزائر**»، وقسّمناه إلى ثلاثة محاور؛ جاء المحور الأول حول «**منهج غوتييه في تدوين التاريخ**»، تطرقنا فيه إلى الآراء التي أبداها نموذج دراستنا في مختلف المصادر العربية لتاريخ الجزائر وشمال إفريقيا، ثم بيّنا المنهجية التي تبناها «غوتييه» في تدوين التاريخ، كالاعتماد على الجغرافيا البشرية. أمّا المحور الثاني فخصّصناه لـ «**آراء غوتييه في تاريخ الجزائر قبل الاحتلال**»، ووضّحنا فيه الآراء التي تبناها نموذج البحث حول تاريخ الجزائر من

فترة ما قبل التاريخ إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي، وتطرقنا بصورة خاصة إلى آرائه في مرحلة التاريخ الإسلامي، مع شرح أسباب تبنّيه لنظرة تشاؤمية لهذه المرحلة. في حين تناولنا في المحور الثالث «**مواقفه من الاحتلال الفرنسي وسياسته في الجزائر (1830–1940)**»، وبيّنا فيه السبل التي اتبعها «غوتييه» لتبرير الاحتلال الفرنسي ودعم سياسته العنصرية بمختلف مظاهرها.

أما الفصل الرابع فيتناول «**إشكالية غياب الأمة وتعدد مكونات المجتمع الجزائري في نظر إميل فيليكس غوتييه**»، وقسمناه إلى ثلاثة محاور؛ جاء أولها حول «**غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري**»، حيث تحدثنا فيه عن التوجهات التي تبناها نموذج دراستنا في مسألة إنكاره لعنصر الالتحام بين مكونات المجتمع الجزائري، خاصة الانقسام بين البدو والحضر، وبين العرب والبربر، بالإضافة إلى تأكيده على الانقسامات بين البربر أنفسهم والعرب كذلك. أما المحور الثاني فخصصناه للحديث عن «**مسألة أصول الجزائريين وإشكالية العداء بينهم**»، وبيّنا فيه كيف عمل الباحث على إثبات تباين أصول المجتمع الجزائري، والتوجهات التي تبناها للتأكيد على الأصول الأوروبية للمجتمع القبائلي، وكذا مجتمع الطوارق في الصحراء، ووضح أيضًا تأثير هذه الانقسامات على تحقيق أواصر الترابط بينهم، وإشكالية ادعائهم للنسب الشريف.

في حين جاء المحور الثالث بعنوان «**قضية اختلاف لغة الجزائريين وتدينهم القشوري**» وضحنا فيه كيف بين «غوتييه» مدى انحطاط مستوى لغة المجتمع الجزائري، سواء كانت لغة عربية أو بربرية، وكيف دعا إلى إلغاء هاتين اللغتين وتعويضهما باللغة الفرنسية باعتبارها، حسب رأيه، لغة علم، ووضحنا كذلك رأيه في مستوى تدين المجتمع الجزائري ودفاعه المستميت عن تدني مستوى تدينهم وتأثرهم الكبير بالديانات الوثنية، كما قدمنا دراسة نقدية لمختلف الإشكاليات التي أوردها نموذج دراستنا وبينا حجم المغالطات التي وقع فيها في مختلف كتبه ومقالاته.

أما الفصل الخامس فيتناول «**إشكالية التخلف الحضاري للجزائر وحتمية خضوعها للاستعمار في تصور إميل غوتييه**»، وقسمناه أيضًا إلى ثلاثة محاور؛ جاء المحور الأول حول «**العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الإنتاج الحضاري**»، حيث تكلمنا فيه عن التوجهات التي أوردها نموذج

دراستنا في مسألة إثبات تخلف الجزائريين الحضاري، وتأثير الجانب الطبيعي على حياة الإنسان الجزائري، ومدى التخلف الذي تعرفه الجزائر في جميع المجالات، خاصة الجانب الاقتصادي والاجتماعي. أما المحور الثاني فخصصناه لـ «**غياب الشعور الوطني واستحالة تحقيق الوحدة السياسية**»، وتناولنا فيه الإثباتات التي قدمها «غوتييه» للتأكيد على انعدام تاريخ يثبت وجود شعور وطني للجزائريين عبر التاريخ، وكيف نفى تكوين الجزائريين لأي دولة أو أمة عبر الزمن، بالإضافة إلى توضيح حجم المبالغة التي وقع فيها بخصوص انعدام الشعور السياسي للجزائريين وغياب تنظيمات سياسية خاصة بهم.

في حين جاء المحور الثالث والأخير لهذا الفصل مخصصاً لمناقشة إشكالية «**حتمية خضوع الجزائر والجزائريين لسلطة أجنبية**»، وخصصناه لإبراز الاستنتاجات التي توصل إليها «غوتييه» من أبحاثه في تاريخ الجزائر، والمتعلقة أساساً بإثبات حتمية التبعية الجزائرية للأجانب، وعدم قدرتها على تسيير شؤونها الداخلية إلا بإشراف استعمار أجنبي، وهذا الاستعمار يجب أن يكون أوروبياً، بالنظر لما تحمله الثقافة الأوروبية من تحضر وتقدم واحترام للقانون، كما بينا أيضاً مدى التحريف الذي وقع فيه نموذج دراستنا في مسألة نفيه القاطع لأي فرضية تقوم على استقلال الجزائر أو تأسيس دولة جزائرية دون إشراف قوة أجنبية، واختتمنا هذا الفصل بنقد توجهات «غوتييه» الفكرية عن المجتمع الجزائري والدولة الجزائرية، ومدى التطرف الذي وقع فيه في سبيل إثبات أحقية الفرنسيين في السيطرة على الجزائر وعلى باقي مستعمراتها في قارة إفريقيا.

كما تضمنت هذه الدراسة خاتمة حوت مجموعة من النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها من خلال بحثنا عن الكتابة التاريخية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر، ومدى ارتباط هذه الكتابات بمختلف أنواعها بالمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر بصفة خاصة وفي بلاد المغرب وقارة إفريقيا بصفة عامة، كما قمنا بتزويد هذه الدراسة بمجموعة من الملاحق ذات الصلة بالمؤلفات الأساسية التي اعتمدنا عليها في تحليل ودراسة أفكار «غوتييه» وتوجهاته المتطرفة في تدوين تاريخ الجزائر.

وهذه الدراسة تعالج موضوع الأسطوغرافيا الاستعمارية الكولونيالية في الجزائر، مع التركيز على نموذج «إميل فيليكس غوتييه»، وطبيعة كتاباته التاريخية، وسر اهتمامه بتدوين تاريخ الجزائر، وسعيه

الحثيث إلى جعل فكرة الاستعمار الفرنسي للجزائر مقبولة في أذهان المجتمع الجزائري، وبالتالي خدمة مصالح الفرنسيين، وخاصة بعد انتقال الحكم في الجزائر من يد القادة العسكريين إلى يد المستوطنين.

مصادر ومراجع الدراسة:

باعتبار أنَّ البحث يركز على دراسة الأسطوغرافيا الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، فإنَّ جل المصادر المستخدمة ستكون لمؤرخين فرنسيين بالدرجة الأولى، مع الاستعانة بمصادر جزائرية لنقد ما كتبه هؤلاء المؤرخون. وينطبق الشيء نفسه على المراجع؛ حيث كانت بالدرجة الأولى فرنسية، من أجل مقارنة ما ورد فيها عن تاريخ الجزائر بمراجع جزائرية أخرى.

أ – المصادر:

- **الوثائق الأرشيفية:**

نقصد بالوثائق الأرشيفية هنا مجموعة التقارير والدراسات التي أنجزها نموذج دراستنا أو لها ارتباط وثيق به، ومن بين الوثائق الأرشيفية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة نذكر:

- التقارير التي كتبها «إميل فليكس غوتييه» بالآلة الراقنة خلال الحرب العالمية الأولى كضابط ترجمة في المهمة التي قام بها إلى مصر بإشراف من الحكومة العامة الفرنسية، وهذا التقرير كتبه في الجزائر يوم 5 نوفمبر 1917 وقدمه للحاكم العام للجزائر، وهو تقرير موجود بالأرشيف الوطني لما وراء البحار «بإيكس أون بروفانس»، وهذه التقارير تابعة لمصالح الحكومة العامة الفرنسية في الجزائر «G.G.A» تحت الرقم: GGA 10H 75، وهي مهمة باعتبار أنَّ «غوتييه» أنجزها في إطار مشاركة فرنسا في الحرب العالمية الأولى، وتكشف لنا رؤية المؤرخ للشعوب العربية بصفة عامة، كما أنَّه يقارن فيها بين السياسة الفرنسية في صحراء الجزائر والسياسة الإنجليزية في الصحراء المصرية.

بالإضافة إلى هاذين التقريرين تضمنت نفس العلبة تقريرا آخر أنجز سنة 1921 بعنوان: «ملاحظات مأخوذة خلال درس الجغرافيا للسيد غوتييه، أستاذ في كلية الآداب في الجزائر، سنة 1921».

«Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921.»

وهذا التقرير مهم باعتباره تضمن الخصائص الطبيعية للصحراء الإفريقية، مع إجراء مقارنة بينها وبين صحراء شبه الجزيرة العربية، كما أشار إلى الوقائع التي شهدتها مصر وبلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى، والصعوبات التي واجهها الإنجليز في مواجهة القوات العثمانية في مصر، وحدد فيه الفروق بين سياسة فرنسا وبريطانيا في المستعمرات. كما خصّص «غوتييه» جانباً مهمّاً من التقرير للتطرق إلى الجغرافيا البشرية في الجزائر، خاصّة منطقة الأوراس والقبائل.

- سجل محاضر أساتذة جامعة الجزائر، وهو عبارة عن سجل مكتوب بخط اليد يضم الاجتماعات التي عُقِدت في كلية الآداب في جامعة الجزائر من 13 ماي 1899 إلى 15 جانفي 1930، وهو سجل موجود أيضاً في الأرشيف الوطني لما وراء البحار ضمن السلسلة التابعة للحكومة العامة في الجزائر تحت الرقم: GGA 44S 2، وهذا السجل اعتمدنا عليه في التعريف بنموذج دراستنا بشكل أكبر، خاصة في الكشف عن نشاطاته بعد انضمامه للجامعة ومشاركته في مختلف مجالسها العلمية.

الكتب:

تعددت المصادر المرتبطة بهذه الدراسة نتيجة تعدد وتشعب مواضيعها، فبينما ركزنا في الفصل الأول على المصادر المتعلقة بتدوين تاريخ الجزائر سواء التي ظهرت قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر أو بعده، ومن بين المصادر الأساسية لدراستنا نذكر:

- **مؤلفات المؤرخ «إميل فليكس غوتييه»:**

باعتبار دراستنا تركز على مؤلفات هذا المؤرخ، كان لزامًا الاعتماد بشكل مباشر على كل المؤلفات التي كتبها عن الجزائر بصفة عامة، ومن بين الكتب الأساسية التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة نذكر: «كتاب ماضي شمال إفريقيا: القرون المظلمة»، وكتاب «قرن من الاستعمار: دراسة مفصلة»، بالإضافة إلى كتاب «الجزائر والمتروبول»، و«كتاب الصحراء الجزائرية»، وغيرها من المؤلفات التي كتبها نموذج دراستنا حول تاريخ الجزائر منذ العصور القديمة إلى فترة الاحتلال الفرنسي.

كما اعتمدنا على العديد من المقالات التي كتبها في مختلف المجلات، سواء باللغة الفرنسية أو الإنجليزية. وهذه الكتب والمقالات المختلفة تُعد مصدراً أساسياً كشف لنا نظرة المؤرخ للمجتمع الجزائري والمنهجية التي اتبعها في تدوين تاريخ الجزائر من فترة ما قبل التاريخ إلى فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وهذه المصادر المكتوبة منها ما هو متوفر بصيغة إلكترونية، ومنها ما هو مطبوع وموزع في مختلف المكتبات الجامعية والوطنية، حيث عثرنا على كتب نموذج دراستنا في الموقع الإلكتروني للمكتبة الوطنية الفرنسية Gallica – BnF، وهو موقع حصلنا منه على أغلب الكتب التي ألفها نموذج بحثنا، بالإضافة إلى الموقع الإلكتروني «المكتبة الرقمية ليون» الذي حملنا منه مجموعة لا بأس بها من كتب «غوتييه».

كما تمكنا من العثور أيضاً على مؤلفات «إميل فليكس غوتييه» في المكتبة الوطنية الجزائرية ومكتبة جامعة الجزائر 1، بالإضافة إلى مكتبة أرشيف ما وراء البحار «بأكس أون بروفانس» ومكتبة «البيت المتوسطي للعلوم الإنسانية MMSH» بمدينة «أكس أون بروفانس».

بالإضافة إلى ذلك، ارتكزت دراستنا على المصادر الأساسية المرتبطة بنموذج دراستنا، اعتمدنا أيضاً على مجموعة أخرى من المصادر التي ساهمت في إنجاز هذا البحث، ولا سيما في الفصل الأول؛ حيث عرفنا بعدة مصادر ذات صلة بموضوع الكتابات الفرنسية عن الجزائر، سواء كانت خاصة بممثلي الدولة، أو برحالة ومغامرين زاروا الجزائر إبّان فترة الحكم العثماني أو عهد الاحتلال الفرنسي. أمثال: «**جان ميشيل فونتير دي بارادJean-Michel Venture De Paradis** »، و«**أدريان بربروجر Adrien Berbrugger**»، وكذا مؤلفات «**نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de**

Nicolay»؛ وذلك بغرض التعمق في خصائص الكتابة الفرنسية في الجزائر، والمقارنة بينها وبين توجهات نموذج دراستنا «إميل فليكس غوتييه».

بالإضافة إلى هذه المصادر اعتمدنا أيضاً على مجموعة أخرى من المصادر التي تتحدث بشكل خاص عن تاريخ الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي؛ لذا اعتمدنا أيضاً على العديد من المصادر، سواء كانت خاصةً بممثلي الدولة، أو خاصةً برحالة ومغامرين زاروا الجزائر إبان فترة الحكم العثماني أو فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. كما اعتمدنا أيضاً على مؤلفات لمؤرخين فرنسيين آخرين أمثال: «**ستيفان غزال Stéphane Gsell**»، و«**شارل أندريه جوليان Charles-André Julien**»، ومؤلفات «**إرنست مرسييه Ernest Mercier**»، ومؤلفات «**لويس رين Louis Rinn**»، وهذا بهدف نقد توجهات نموذج دراستنا، وكشف المغالطات التاريخية التي سعى إلى إثباتها عن الجزائر والمجتمع الجزائري.

- **المجلات باللغة الفرنسية:**

علاوة على تركيزنا لدراسة كتب الأساسية التي سنحلل من خلالها توجهات المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، لجأنا أيضاً إلى الاستعانة بالمجلات التي كانت تصدرها سلطات الاحتلال الفرنسي؛ إذ تتضمن هذه المجلات مقالات عديدة لنماذج الدراسة، مما استوجب علينا الرجوع إليها وتحليل مضامينها. ومن أبرز هذه المجلات نذكر:

- **المجلة الإفريقية:** صدرت المجلة في الجزائر باللغة الفرنسية، وهي تتضمن مقالات مهمة عن تاريخ الجزائر منذ القدم إلى فترة الاحتلال الفرنسي، وهي من المصادر الأساسية لأي بحث في تاريخ الجزائر.
- **مجلة الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة:** تتضمن هذه المجلة دراسات تاريخية وأثرية قيمة لمؤرخين فرنسيين كتبوا عن تاريخ الجزائر.
- **النشرة الفصلية لما قبل التاريخ الإفريقي:** تتضمن دراسات وأبحاث عن تاريخ شمال إفريقيا خاصة فترة ما قبل التاريخ.

- **نشرة جمعية الجغرافيا والآثار لمدينة وهران:** تتضمن هي الأخرى مقالات عن تاريخ الجزائر بصفة عامة، وتركز الدراسة على مدينة وهران ومنطقة الغرب.
- **مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية:** التي تصدر عن جمعية تاريخ مستعمرات فرنسا، وهي مجلة تتضمن مقالات عديدة عن تاريخ الجزائر.

ب – المراجع:

كما زوّدنا دراستنا بمجموعة من المصادر والمراجع، سواء الفرنسية منها أو المترجمة إلى اللغة العربية، أو التي كُتبت باللغة العربية عن تاريخ الجزائر، وهذه المراجع استُخدمت بالدرجة الأولى للمقارنة بينها وبين نماذج الدراسة وتحديد مدى التزامها بالموضوعية، وهو ما يفتح المجال لتنوع المصادر والمراجع، نذكر من بينها:

- كتب المؤرخ «حسين مؤنس» مثل: كتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس وكتاب فتح العرب للمغرب.
- كتب «أبو القاسم سعد الله»: تاريخ الجزائر الثقافي، تاريخ الحركة الوطنية، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، محاضرات في تاريخ الجزائر «بداية الاحتلال».
- كتاب «محمد الصغير غانم»: مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم، بالإضافة إلى كتاب: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، وكتاب: مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب.
- كتب «يحي بوعزيز»: موجز تاريخ الجزائر، ثورات القرن التاسع عشر والعشرون، ثورة المقراني والشيخ الحداد، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية.
- كتب «شارل أندري جوليان»: تاريخ شمال إفريقيا، شمال إفريقيا تسير، تاريخ الجزائر المعاصر ج 1، 1827 – 1871.
- كتب «شارل روبير آجيرون»: كتاب تاريخ الجزائر المعاصر ج 2، كتاب الجزائريون المسلمون وفرنسا ج 1 + ج 2.

- كتب «محفوظ قداش»: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ج 1+ ج2، وكتاب: الجزائر في العصور القديمة.
- مؤلفات «محمد البشير الشنيتي» مثل: كتاب أضواء على تاريخ الجزائر القديم، وكتاب: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق.م 40 م).

وغيرها من المراجع ذات الصلة بموضوع دراستنا، خاصة القواميس والمعاجم اللغوية التي اعتمدنا عليها لتقديم تعريف لكلمة الأسطوغرافيا، وكذا المراجع التي اعتمدنا عليها بصورة خاصة في الفصول الثلاثة الأخيرة من أجل نقد توجهات «إميل غوتييه» في تدوين تاريخ الجزائر، وكشف حجم المغالطات التاريخية التي وقع فيها، وتفسير أسباب تبنيه للتوجه الكولونيالي المتطرف في مختلف كتبه ومقالاته التي خصصها لدراسة تاريخ الجزائر وطبيعة مجتمعها.

وهذه المراجع ساعدتنا بصورة خاصة في نقد توجهات «إميل فليكس غوتييه» وكشف المغالطات التي وقع فيها، وهي مراجع مهمة باعتبارها تكشف لنا طبيعة السياسة الفرنسية في الجزائر وما نتج عنها من آثار سلبية على المجتمع الجزائري.

6 – صعوبات الدراسة:

ككل دراسة وبحث، اعترضتنا مجموعةٌ من الصعوبات المتعلقة بجمع المادة العلمية الخاصة بنموذج دراستنا؛ إذ إن تعدد هذه المادة وكثرتها جعلا من الصعب العثور على جميع مؤلفات الباحث، سواء أكانت كتبًا أم مقالات أم تقارير، وهو ما اضطرنا إلى التنقل بين العديد من المكتبات داخل الوطن وخارجه لجمع هذه المادة العلمية.

علاوة على ذلك وجدنا صعوبةً في دراسة مختلف مؤلفات الباحث من كتبٍ ومقالات، خاصةً أنَّ نموذج بحثنا يربط في منهجيته بين الجانب الجغرافي والجانب التاريخي؛ إذ يجمع بين دراسة الطبيعة الجغرافية لمنطقة البحث وطبيعة السكان وتاريخهم، وهذا ما دفعنا إلى تحليل مختلف المؤلفات، سواء كانت تاريخية أم جغرافية أم اقتصادية، لفهم أفكار الباحث بشكلٍ أفضل.

إضافةً إلى ذلك، واجهتنا صعوبةٌ أخرى تمثّلت في تشعّب موضوع الدراسة، خاصةً في الفصل الأول، باعتباره يعالج إطارًا زمنيًا يمتد من حقبة ما قبل الاحتلال الفرنسي إلى غاية استقلال الجزائر. وهو ما دفعنا إلى دراسة نماذج محدّدة من مختلف أنواع الكتابة التاريخية الفرنسية، بهدف تحديد خصائص كل نوع، وتجنّب السرد الشامل للمؤلفات الصادرة حول الجزائر في الفترة المذكورة، والتركيز بدلًا من ذلك على نماذج من المدرسة الكولونيالية الفرنسية في الجزائر.

كما واجهتنا عدة صعوبات في الفصلين الرابع والخامس؛ فوجدنا صعوبة كبيرة في تقسيم عناصرهما نظراً للتشابك والتداخل الكبير بينهما؛ لأن نموذج دراستنا يربط كثيراً بين أفكاره وتوجهاته؛ فمثلاً عند حديثه عن فكرة تباين عناصر ومكونات المجتمع الجزائري يربط بينها وبين فكرة حتمية الصراع بين هذه المكونات، ويربطها أيضاً بحتمية خضوعها للهيمنة الأجنبية وفشلها في تحقيق دولة مستقلة، لذا سعينا إلى تجزئة هذه الإشكاليات إلى عدة عناصر من أجل التحكم في الموضوع أكثر، وتقديم دراسة تهتم أكثر بالجانب النقدي للكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر.

الفصل الأول:

نشأة وتطور الاسطوغرافيا الكولينيالية في الجزائر

أولاً: مفهوم الاستوغرافيا الكولينيالية

ثانياً: الاسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر قبل 1830

ثالثاً: تطور الأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر 1830–1962

تمهيد

بدأ اهتمام الفرنسيين والأوروبيين عامةً بالجزائر منذ مطلع القرن السابع عشر، من خلال كتابات الأسرى والرحالة والقناصل؛ حيث سجّلت تلك المؤلفات ملاحظات أصحابها حول المجتمع الجزائري، ونظام الحكم، ومختلف العادات والتقاليد والجوانب الدينية. غير أنَّ الاهتمام الفرنسي الفعلي بتاريخ الجزائر تبلوَر بعد عام 1830، حين وجد العسكريون أنفسهم -في بداية الاحتلال- أمام شعبٍ يجهلون خلفياته، فكان لزاماً عليهم فهمه لبسط السيطرة عليه وحكمه. ومن هنا برزت الكتابات الأولى التي كانت في جوهرها تقارير لضباط الجيش، قبل أن تتطور لتأخذ طابعاً أكاديمياً، لا سيما بعد تأسيس جامعة الجزائر. وفي كلتا الحالتين، كان الفرنسيون يكتبون عن مجتمعات تختلف عنهم حضارياً ودينياً وثقافياً، برؤية غربية محمّلة بخلفيات مسبقة تجلّت في نتاجهم الفكري. ونستعرض في هذا الفصل التمهيدي تعريف الأسطوغرافيا الاستعمارية وتطورها قبل الاحتلال وبعده.

أولاً:

مفهوم الأسطوغرافيا الكولينيالية

1 – تعريف الأسطوغرافيا

1 – 1 – التعريف اللغوي للاسطوغرافيا

«الأستوغرافيا» أو «الأسطوغرافيا»، «**Historiographie**» كلمة معربة عن الكلمة اللاتينية «**Historiographus**»، التي اشتقت من الكلمة الاغريقية «**Historiographos**».

وهذه الكلمة مقسمة إلى جزئين الأول هو «**Historio**» مأخوذ من كلمة «**Histoire**»، والتي تعني التاريخ أو التأريخ، وكلمة **Histoire** مأخوذة من الكلمة الاغريقية «**Istoria**» التي يقصد بها البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة الذي يهم كل مواطن في دولة المدينة،

بالتعرف على البلاد وعاداته ومؤسساته، لكنه أصبح يعبّر عن معرفة الأحداث القديمة (نثال، 1983، الصفحات 16-17). أمَّا الجزء الثاني من الكلمة فهو «**graphe**»، والتي تعني كتابة أو علم، إذاً فكلمة الأسطوغرافيا «**historiographie**» تعني علم التاريخ. (Zeller, 2021, p. 7)

- وكلمة الأسطوغرافيا وردت في معاجم اللغات الأجنبية وفق عدة معاني نذكر أبرزها:

- أنَّها تعني ذلك الشخص الذي عينه الملك لكتابة التاريخ الفرنسي «مؤرخ فرنسي»، وهو مختص بتأريخ حياة الملوك. (L'Académie française, 1798, p. 1587)
- وتعني الأسطوغرافيا أيضاً الكاتب أو المؤلف المسؤول عن تدوين تاريخ عصره، أي كاتب تاريخي، كما يقصد بها أيضاً مجموعة الأعمال الخاصة بمؤرخين في فترة أو موضوع معين، كتاريخ أباطرة بيزنطة أو التاريخ الثوري. (L'Académie française, 1932, p. 3842).
- كما تعني كتابة التاريخ أو دراسة عمل المؤرخ (Oxford University , 1993, p. 416) ، وهي أيضاً تشير إلى دراسة طريقة كتابة التاريخ والتاريخ المكتوب، أي كتابة التاريخ. (Oxford University, 2010, p. 831)

- علاوة على ذلك وردت كلمة التأريخ في معاجم اللغة العربية وفق عدة معان نذكر منها:

- التأريخ يعني تعريف الوقت، حيث يقال أرخت الكتاب ليوم كذا، أي وَقَتَّهُ، وبين وقته وحدَّد تاريخه. *(السخاوي، 2017، صفحة 89)*.
- وتعني الإعلام بالوقت وتاريخ شيء ما أو الوقت الذي ينتهي إليه أو ما وقع في هذا الوقت من حوادث. *(حسين عواد، 1974، صفحة 115)*.
- كما تعني أيضاً التوقيت، فنقول أُرِّخَ كتابك، أي متى كتب، فالتأريخ يقصد به تحديد الشهر في أصلها ثم اتسعت دلالته. *(الجواليقي، 1990، صفحة 222)*.

1 – 2 – التعريف الاصطلاحي للأسطوغرافيا

هناك اختلاف كبير في ضبط تعريف دقيق لكلمة الأسطوغرافيا (علم التأريخ). نذكر منها:

- هناك من يرى بأنَّها علم يبحث عن حوادث البشر في الزمن الماضي. وغايته زمن وقوع تلك الحوادث ومتابعة العناصر والعوامل التي ساهمت في صناعته. (صائب، 2008، صفحة 14)

- ومنهم من عرف علم التاريخ بأنَّه يهتم بتاريخ الأفكار، وتحليل أعمال المؤرخين، ووضع أعمالهم في سياقها لمعرفة توجهاتهم الاجتماعية. (Offenstadt, Dufaud, & Mazurel, Mars 2006, p. 59).
- وهو أيضاً علم يهتم بدراسة تاريخ الكتابة التاريخية بتقديم نظرة عامة وموجزة عن هذه الكتابة من عصر النهضة إلى وقتنا الحاضر. (Cheng, 2012, p. 1) ، في حين يؤكد المؤرخ «عبد الله العروي» بأنَّ مصطلح الاسطوغرافيا يقابله في اللغة العربية التاريخيات، والتي تعني في مجالها الضيق مجموع النتائج التي توصل إليها الدارسون للكتابات التقليدية مثل الحوليات والمذكرات والأخبار، أمَّا في معناها الواسع فتعني دراسة طرق البحث والاستقصاء في شؤون الماضي. (العروي، 2005، صفحة 97)
- كما تعني أيضاً المعرفة التي يتوصل إليها الباحث أو التعلم بواسطة البحث، أي الاستقصاء في البحث على المعلومات وطلب الحقيقة. (هرنشو، 1937، الصفحات 10 – 11). والتأريخ هو الخطاب المكتوب والحقيقي الذي حمله الناس عن ماضيهم، لأنَّه يمثل أفضل شهادة يمكن أن يحصل عليها الإنسان من الثقافات المختلفة وعن ثقافته أيضاً. (Carbonell, 1981, p. 4)

2 – مفهوم الاستوغرافيا الكولينيالية

ذكرنا فيما سبق أنَّ الأسطوغرافيا تهتم بدراسة منهجية وطرق تدوين المؤرخين لتاريخ منطقة محدَّدة أو قضية معينة ومعرفة توجهاتهم ونظرتهم لهذه الأحداث والقضايا، لذلك لابد من بروز أسطوغرافيا ذات توجهات مختلفة، ومن بينها نذكر الأسطوغرافيا الاستعمارية «الكولينالية»، فما هو مفهومها يا ترى وما هي خصائصها؟ وهي التساؤلات التي سنحاول الإجابة عليها في هذا المحور.

2 – 1 – التعريف اللغوي للاستعمار

إنَّ مصطلح الاستعمار بالعربية أو «colonialisme» بالفرنسية يحمل كل منهما دلالته الخاصة.

فكلمة الاستعمار في معاجم اللغة العربية مأخوذة من الفعل استعمر، يستعمر، استعمار، والتي تعني:

- فرض السلطة والاستغلال، فنقول استعمرت فرنسا مصر والسودان، واستعمرت فرنسا تونس والجزائر والمغرب، ونقول أيضاً حطم الاستعمار اقتصاد الدول التي استعمرها. (الفوزان، حسين، و محمد فضل، صفحة 46).
- ويعني الاستعمار أيضاً تعني عمارة الأرض فنقول: «**استعمر الله عباده في الأرض**»، أي طلب منهم عمارتها والسكن فيها، واستعمرت دولة بلاد غيرها، أي جعلتها مستعمرة لها. (معلوف، صفحة 529)
- واستعمر الأرض يقصد بها في قوله تعالى «**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**» أمدها بما يعوزها من الأيدي العاملة، واستعمرت دولة دولة أخرى فرضت عليها سيادتها واستغلتها. (مجمع اللغة العربي، 2004، صفحة 627)

- كما وردت كلمة «**colonialisme**» في قواميس اللغات الأجنبية وفق المعان التالية:

- حيث وردت في اللغة الإنجليزية بصيغة مستعمرة «**Colony**»، كما وردت بصيغة «**Colonialism**» التي تعني ذلك البلد الذي تسيطر عليه دولة أكثر قوة. (Cambridge University, 2011, p. 73)
- وأطلقت كذلك على الأماكن التي أنشأها المستوطنون كمستعمرات جديدة في مختلف الأماكن بداية القرن الثامن عشر ميلادي (Oxford University, 2002, p. 132)، وهي سياسة تقوم على الاستحواذ على المناطق المستعمرة والحفاظ عليها. (Oxford University , 1993, p. 161)
- أمَّا في اللغة الفرنسية فوردت بصيغة «**Colonisation**» التي تعني انشاء مستعمرة كإنشاء فرنسا أول مستعمرة في كندا، (Larousse universel, 1922, p. 485) وردت بصيغة «**Colonisateur**» التي تشير إلى الدولة أو الشعب الذي أستعمر شعبا أو أمَّة أخرى، (Le Larousse, p. 364) وتعني الكلمة أيضاً استعمار بلد أو انشاء مستعمرات فيه. (l'Académie Française, 1878, p. 336).

2 – 2 – التعريف الاصطلاحي للاستعمار

أمَّا من الناحية الاصطلاحية فكلمة الاستعمار فتعني:

- الاستيلاء على الأرض التي كانت في حالتها الطبيعية واستغلالها وتطويرها، سواء في الزراعة أو التعدين. (Pervillé, 1975, p. 338)
- النزعة التي قادتها الدول الكبرى لفرض سيطرتها على بلدان أخرى بمختلف الوسائل من أجل تغيير هوية هذه البلدان واستغلال ثرواتها لإقامة العديد من المشاريع لخدمة الدولة المسْتَعْمِرة. (الكافي، 2003، صفحة 45)
- الاستعمار هو سيطرة دولة على دولة أخرى من خلال استخدام القوة الصناعية المتفوقة لإخضاع شعب الدولة المحتلة واستغلالها اقتصاديا لتحويل دينهم وأخلاقهم وسلوكاتهم وعاداتهم وفق نمط الشعب الغالب الْمُسْتَعمِر. (الميداني، 2000، صفحة 54)
- الاستعمار ظاهرة تاريخية متعددة الأبعاد ومتنوعة الأهداف وهي وليد شرعي للنظام الرأس مالي منذ بداية القرن السادس عشر وامتد ليصبح منظومة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. (مالكي، 1994، صفحة 14)

إذًا، فكلمة الأسطوغرافيا الاستعمارية يُقصد بها دراسة وتحليل المؤلفات التي كتبها مؤرخو الدول التي قادت الحركة الاستعمارية من القارة الأوروبية إلى بقية أنحاء العالم، ومن بين هذه الدول الدولة الفرنسية، التي اجتاحت جيوشها عددًا من دول العالم، وبالتالي بروز عدة مؤرخين فرنسيين سعوا إلى دراسة تاريخ المناطق التي احتلوها، والجزائر من بين الدول ركَّز عليها الفرنسيون في أبحاثهم، وسنتطرق فيما يلي لنماذج من الكتابات التاريخية الكولينيالية التي ظهرت عن الجزائر، سواء قبل الاحتلال الفرنسي أو بعده.

ثانياً:

الأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر قبل 1830

من المؤكد أنَّ الاهتمام الفرنسي بالكتابة والتأليف عن الجزائر لم يظهر مباشرةً بعد تمكن الجيش الفرنسي من احتلال مدينة الجزائر وبدء التوغل في المناطق الداخلية؛ ولذلك ارتأينا في هذا المحور تناول الإرهاصات الأولى للكتابات الفرنسية عن الجزائر قبل سنة 1830.

حيث تشير المراجع إلى أنَّ بداية الاهتمام الفرنسي بالجزائر وتاريخها كانت مع بدايات العلاقات العثمانية الفرنسية، إذ برزت عدة جهود للبحث في الجزائر والتعرّف عليها بشكل أعمق، مما ساهم في تعدد وتنوع المؤلفات الفرنسية التي وُضعت إبان تلك المرحلة. وسنعالج هذه المؤلفات وفقًا لطبيعة مؤلفيها، حيث صنفناها إلى قسمين متباينين: أولهما كتابات ممثلي الدولة الفرنسية من قناصل وسفراء، وثانيهما كتابات الرحالة والمغامرين الذين زاروا الجزائر.

1 – مؤلفات الرحالة

تعد كتب الرحالة، الذين جاؤوا إلى الجزائر من أقدم المؤلفات التاريخية التي تحدَّثت عن الجزائر وأوضاع المجتمع خاصَّة في العهد العثماني ومن بين هؤلاء نذكر:

- الرحالة «**نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay**» الذي زار الجزائر سنة 1550 رفقة السفير الفرنسي «**أرومون غاربيال دو لوتز Aramon, Gabriel de Luetz**» في إطار جولتهم إلى الدولة العثمانية، حيث طاف «نيكولاس دي نيكولاي» بالعديد من المناطق الساحلية كمدينة عنابة وبجاية والجزائر، ورغم أنَّه لم يستقر في المنطقة لمدة طويلة، إلاَّ أنَّه قدَّم لها وصفاً دقيقاً بالاستناد لما كتبه «الحسن الوزان» والرحالة والمؤرخ الإيطالي «**باولو جي وفيو Paolo Giovio**» (Cresti, 1982, pp. 6-7)

ومن أبرز الكتب التي ألَّفها الرحالة «**نيكولاس دي نيكولاي**» كتاب «**الكتب الأربعة الأولى عن رحلات وتجوال الشرق Les quatre premiers livres des navigations et**

pérégrinations orientales» الذي طبع سنة 1568 في حوالي 321 صفحة، يتضمن هذا الكتاب وصفاً دقيقاً للمناطق التي زارها هذا الرحالة، سواء في الجزائر أو بلاد المشرق.

ففي زيارته لمدينة الجزائر، قدَّم «دي نيكولاي» وصفاً دقيقاً لقصر الحاكم «حسن باشا بن خير الدين» وهيئته الشخصية؛ إذ أشار إلى وجود نافورة كبيرة داخل القصر تتوسطها بركة أسماك صغيرة. كما ذكر أنَّ الحاكم يرتدي رداءً أبيض من قماش «الداماسك» (الدمشقي)، ووصف بدقة أزياء جميع الموظفين والقائمين على القصر.

وبالإضافة إلى الجانب الوصفي، نقل الرحالة انطباعاته الشخصية عن المجتمع والسلطة بـ«رؤية استعلائية»؛ حيث زعم أنَّ «هذه الأمَّة هي الأكثر ميلاً للنهب والسرقة في العالم». كما استعرض نمط حياة سكان المدينة، وطرازها المعماري، والسلع الرائجة في أسواقها، مسلطاً الضوء على ما أسماه «الأحوال المزرية» للأسرى الأوروبيين ومعاناتهم.

وعلاوة على ذلك، فصَّل المؤلف في هذا الكتاب طبيعة الأسلحة والتحصينات الدفاعية لمدينة الجزائر، ووصف المدن الساحلية الممتدة من الجزائر العاصمة إلى عنابة، مبيناً خصائص كل مدينة ونظام تحصيناتها، مع التحذير من المخاطر الملاحية التي تواجه البحارة قبالة تلك السواحل، لا سيما في فصل الشتاء. (De Nicolay, 1568, pp. 2–14)

- الطبيب والرحالة «**بايسونيل جان أندري Peyssonnel, Jean-André**» الذي ألف كتاب بعنوان: «**رحلة في مقاطعة تونس والجزائر وسواحل بربارية تحت أمر الملك سنة 1724 و1725**.»

«Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie, fait par ordre du Roi en 1724 et 1725»

أُلِّف هذا الكتاب سنة 1724 و1725 بعد تعيينه مراسلا لأكاديمية العلوم ثم طبيبا في منطقة شمال إفريقيا، كما شارك في تأليفه أيضاً «**ريني ديسفونتين René Desfontaines**» في سنة 1783 و1786، وهو أستاذ مختص في علم النبات وعضو أكاديمية العلوم، تم ارساله إلى الجزائر وتونس لإنجاز

دراسة عن طبيعة الزراعة في المنطقة والباتات الموجودة فيها، تم طبع هذا الكتاب عدة مرات وهذه الطبعة خاصَّة بسنة 1838، صدرت في حوالي 969 صفحة. (كشرود، 2017، الصفحات 49-51)

وهو عبارة عن ملاحظات ورسائل سجلها المؤلفان خلال رحلتهما إلى الجزائر، إذ قسماه الى جزأين، خُصّص الجزء الأول من الصفحة 1 إلى الصفحة 485، للرسائل التي بعثها «باسيونيل أندري» إلى «الأب بنيون» مستشار الدولة، وهي 13 رسالة تحدَّث فيها عن ايالة تونس فقدم لها وصفاً جغرافيا ووضع حكومتها وأخلاق السُّكَّان وطرق عيشهم وعاداتهم.

كما قدَّم في هذه الرسائل قصة الرحلة التي قام بها إلى إيالة الجزائر ومدنها خاصَّة مدينة قسنطينة ومدينة الجزائر، حيث قدَّم وصفاً دقيقاً لأماكن البحرية وشوارعها، كما تكلَّم أيضاً في هذه الرسائل عن حكومة الجزائر وطرق تنظيمها، كما وجه رسالة إلى السيد «**ديلاسيل Delisele**» الذي يشتغل مقيما في أكاديمية العلوم الفرنسية قدَّم فيها وصف لجغرافية تونس وموريتانيا القيصرية، ورسالة أخرى للسيد «**شيراك** Chirac» المشرف على الحديقة الملكية للنباتات في باريس، بين فيها أخلاق وعادات وطريقة عيش وملابس والطب الممارس لدى العرب البدو ولدى البربر. (Desfontaines, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie, fait par ordre du Roi en 1724 et 1725, 1838)

أمَّا الجزء الثاني الخاص بالرحلة التي قام بها «ديسفونتين» فَقَسَّمَهُ إلى 10 فصول، خصّص الفصول الأربع الأولى للرسائل التي تتحدث عن إيالة تونس، من حيث وصف العاصمة والمناطق الداخلية للدولة، كما بين طبيعة أخلاق السُّكَّان ونمط حياتهم وكذا انتاجهم الزراعي، أمَّا من الفصل الخامس إلى الفصل العاشر فتحدث عن تفاصيل رحلته إلى الجزائر والمدن التي زارها مثل معسكر وتلمسان وقسنطينة، كما تكلَّم عن النباتات التي تنمو في كل من تونس والجزائر، والفوائد التي تجنيها الدولة من تجارة المرجان، وأهمية احتلال جزيرة «طبرقة Tabarque» التي تقع قبالة السواحل الشمالية الغربية لتونس بالنسبة للفرنسيين. (Desfontaines, Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger, 1838)

2 – مؤلفات الممثلين الدبلوماسيين للدولة الفرنسية

كان لبداية العلاقات الفرنسية الجزائرية أواخر القرن السادس عشر ميلادي الأثر الكبير في بداية تزايد اهتمام الفرنسيين بالجزائر بالنظر للمعاهدة التي تم توقيعها، والتي تعرف تاريخيا باسم معاهدة الأطراف الثلاث، والتي أسست لبداية تبادل ممثلي الدولة بين الجزائر وفرنسا، وسنطرق فيما يلي لنماذج هذه المؤلفات وخصائصها.

فبتوقيع معاهدة 28 أفريل 1579 بين «حسن باشا»، وقنصل وحاكم مدينة مرسيليا؛ التي نصت على تعيين «**فرنسوا جيجيوتو François Guighigotto**» كممثل لها في الجزائر عوض «**موريس سارون Maurice Sauron**»، (Plantet, 1889, pp. 1 – 2) بدأ الفرنسيون يولون اهتمام أكبر للجزائر، فظهرت بذلك كتب للمثلي السلطة الفرنسية في الجزائر.

ومن بين هذه المؤلفات نذكر ما كتبه المستشرق «**بوتي دو لاكروا Petis de Lacroix**» الذي ألف كتاب في شكل مذكرات بعنوان: «**مذكرات عن الجزائر سنة 1695 Un mémoire sur Alger en**»، وهو عبارة عن ملاحظات سجلها عما شاهده في مدينة الجزائر التي زارها في إطار الارسالية التي بعثها الملك لويس الرابع عشر لعقد معاهدة مع الجزائر.

حيث وصف «**بوتي دو لاكروا**» مدينة الجزائر بصفة عامة، والظروف العامة التي ساهمت في إعلان التبعية للخلافة العثمانية، ليبين بعدها طريقة انتقال الحكم في الجزائر إلى نظام الدايات، وقدم لنا تفصيلاً دقيقاً لتقسيمات الجزائر الإدارية في مرحلة الدايات، وكذا أجهزة الحكم في مدينة الجزائر والبايلكات، ليختتم مقاله هذا بتقديم وصف دقيق لحصون وقلاع مدينة الجزائر، وعدد السفن التي تملكها، والصراعات الداخلية التي شهدها هذا المستشرق بين قادة الجيش الانكشاري على الحكم بعد اغتيال الداي شعبان خوجة سنة 1695. (بلعمري، 2019، الصفحات 125 – 135)

كما صدر كتاب للقنصل الفرنسي «**لوجيي دي تاسي Laugier de Tassy**» بعنوان: «**تاريخ مملكة الجزائر مع الوضع الحالي لحكومتها وقواتها البرية والبحرية ومواردها وشرطتها والقضاء السياسي والتجارة**».

«Histoire du royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, de ses forces de terre & de mer, de ses revenus, police, justice politique & commerce».

ألّف هذا الكتاب سنة 1725 في حوالي 416 صفحة، قسَّمه المؤلف إلى كتابين، حيث خصّص «الكتاب الأول لمملكة الجزائر **Du Royaume D'Alger**»، قسَّمه إلى 11 فصلاً عالج في الفصل الأول ثورات المملكة منذ العهد الروماني إلى العهد العثماني، أمَّا في الفصل الثاني إلى الفصل السادس فتحدث فيها عن سُكَّان المملكة من العرب واليهود والأتراك والمسيحيين، في حين جاء الفصل السابع مخصّصا للحديث عن ديانة المملكة، والفصل الثامن لأخلاق الجزائريين وعاداتهم، ومن الفصل التاسع إلى الفصل الحادي عشر فبين انقسام الجزائر في تسييرها إلى ثلاث حكومات صغيرة هي: حكومة الشرق، حكومة الوسط، وحكومة الغرب.

أمَّا القسم الثاني من هذا الكتاب فجاء بعنوان: «**مدينة الجزائر La Ville D'Alger**» فقسَّم إلى 21 فصلاً تحدَّث فيها بشكل مفصَّل عن وضع المدينة ومكانتها في المملكة، كما تحدَّث عن مبانيها وحماماتها الساخنة، لينتقل بعدها للحديث عن المناطق الريفية المحيطة بمدينة الجزائر، كما وضَّح في هذا القسم من الكتاب نظام الدولة السياسي والعسكري والقضائي والمالي وبين أيضاً حجم أسطولها البحري وأسلحته والأرباح التي يتحصل عليها هذا الاسطول من بيع الغنائم وافتداء الأسرى، ليختتم كتابه هذا بتبيان طبيعة العلاقات والمصالح التي تربط الجزائر مع القوى الإفريقية والأمراء المسيحيين. (De Tassy, 1725)

كما أصدر نفس المؤلف كتاب آخر عن الجزائر سنة 1725 بعنوان: «**تاريخ مملكة الجزائر، دبلوماسي فرنسي في الجزائر سنة 1724.**»

«Histoire du royaume d'Alger: un diplomate françai à Alger en 1724»

وقد خصَّص المؤلف هذا الكتاب للحديث عن مدينة الجزائر، مبيناً وضع حكومتها وقواتها البرية والبحرية، كما قدَّم وصفاً دقيقاً لتجارة الدولة ومداخيلها ونظم سلطتها. فضلاً عن ذلك، كشف

الكتاب عن عادات المجتمع الجزائري وتقاليده خلال الفترة التي قضاها المؤلف هناك، ليوضح بعدها حقيقة الأسطول الجزائري الذي كان يُنظر إليه بوصفه «كابوساً».

فبينما كانت جلُّ المصادر التي سبقت هذا المؤلف تتحدث عن اختفاء السفن واستعباد طواقمها والمسافرين، رسم «**لوجيي دي تاسي Laugier de Tassy**» صورةً تناقض جذرياً التصورات الأوروبية السائدة عن الأسطول الجزائري؛ مؤكداً أنَّ النشاط البحري (القرصنة) الذي يقوم به هذا الأسطول لا يختلف في جوهره عن نشاط «فرسان مالطا». (Jacques, 1994, pp. 111-112)

بالإضافة إلى ذلك، أُلِّف كتاب آخر في نهاية القرن الثامن عشر ميلادي من طرف «**جان ميشيل فونتير دي بارادي Jean-Michel, Venture de Paradis**» بعنوان: «**الجزائر في القرن الثامن عشر Alger au XVIIIe siècle**»، وتم تحقيق هذا الكتاب من طرف «أ. **فاجنان E. Fagnan**» وطبع سنة 1898 في حوالي 186 صفحة.

استعرض المؤلف في كتابه موقع مدينة الجزائر الجغرافي وأصل تسميتها، كما فصَّل في طبيعة تحصيناتها العسكرية وتخطيطها العمراني من حيث حالة المنازل والأزقة. وانتقل بعدها لتحليل هيكلية «حكومة الداي»، مقدماً شرحاً وافياً للمهام الموكلة لكبار الموظفين، ولا سيما في سلكي الإفتاء والقضاء.

كما تناول التقسيمات الإدارية لولاية الجزائر وآليات جباية الضرائب فيها وفي الأقاليم التابعة لها، مسلطاً الضوء على طبيعة العلاقة بين السلطة العثمانية ومنطقة القبائل، وتحديداً منطقتي «فليسة» و«زواوة»، مع الإشارة إلى تميزهما بخصوصية سياسية حالت دون خضوعهما التام للسيطرة المباشرة.

وفي الجانب الاجتماعي، حلَّل المؤلف التركيبة السكانية للمدينة، متطرقاً إلى فئات «المزابيين» و«البسكريين» وأهل «جيجل»، والوظائف الاقتصادية والاجتماعية المسندة لكل طائفة. كما حدد المسافات الفاصلة بين العاصمة والمدن الكبرى كعنابة وقسنطينة ومعسكر، واصفاً طرق الإمداد ومدة التنقل بينها.

أما اقتصادياً، فذكر المؤلف واقع الصناعة والتجارة، لا سيما دباغة الجلود وصناعة الملابس، مع التركيز على آليات التجارة الخارجية ونظام الجمركة، وخصوصاً التبادل التجاري مع مدينة «مرسيليا».

وختاماً، أوضح الكتاب نظام تجنيد الجنود (اليولداش) القادمين من الأناضول، مبيناً رواتبهم، ونظام سكنهم في الثكنات، وطريقة توزيعهم العسكري، وغيرها من القضايا التي رسمت ملامح النظامين السياسي والعسكري للدولة. (De Paradis, , Alger au XVIIIe siècle, 1898)

كما ألف «**جان ميشيل فونتير دي بارادي**» كتاباً آخر بعنوان: «**قاموس مختصر لقواعد اللغة البربرية**»

«**Grammaire et Dictionnaire Abrégés de la Langue Berbére** »

صَدَر هذا الكتاب عام 1844م في نحو 270 صفحة، ويتضح من عنوانه أنَّه مخصَّص لدراسة اللغة الأمازيغية؛ حيث أكَّد المؤلف أنَّ هذه اللغة استمدت الكثير من مفرداتها من اللغات التي تأثرت بها، ولا سيما العربية التي كان السكان يستخدمون حروفها الأبجدية في تدوين لغتهم. كما استعرض قواعد هذه اللغة وطرق تصريف أفعالها مقارنةً باللغة الفرنسية، ووضع قاموساً لغوياً ثلاثياً ترجم فيه المفردات الشائعة من الأمازيغية إلى العربية والفرنسية، مع التركيز على «النقل الحرفي» (Transliteration) للمعاني والحروف الأمازيغية من الرسم العربي إلى اللاتيني وفق النطق المحلي.

واختتم المؤلف كتابه بوصف المسالك الحيوية في منطقة شمال إفريقيا، كالعلاقة الرابطة بين «تافيلالت» و«تمبكتو»، ومنها إلى «السنغال» عبر الصحراء؛ كما وصف الطريق الواصل بين «تمبكتو» و«وادي نون» (Ouad-Noun) وصولاً إلى مدينة «أكادير». وفضلاً عن ذلك، قدَّم وصفاً لسكان هذه الحواضر وطرق عيشهم وطبيعة علاقتهم بسلطان المغرب. (De Paradis, 1844.)

وعليه، نقول أنَّ التقارير والكتب الصادرة عن ممثلي السلطة الفرنسية ركزت بشكل أساسي على وصف مدينة الجزائر؛ من حيث تحصيناتها العسكرية، وهيكلة نظام الحكم فيها، وتوزيع الجيش العثماني؛ وهو ما يكشف جلياً أنَّ اهتمامها انصبَّ على رصد القدرات العسكرية والقتالية للدولة، تمهيداً لتحقيق غايتها المحورية المتمثلة في احتلال الجزائر.

وفي سبيل ضمان تجسيد هذه الغاية على أرض الواقع، عمدت فرنسا إلى إرسال بعثات سرية تحت غطاء الجاسوسية، لتحديد الزمان والمكان المناسبين لشنّ حملة عسكرية تُمكنها من بسط سيطرتها على الجزائر، وسنورد فيما يلي نماذج لهذه المشاريع السرية.

3 – مؤلفات الأسرى والجواسيس

ظهر هذا النوع من الكتابات استجابةً لتنامي الأطماع الفرنسية في احتلال الجزائر، والسيطرة على سواحلها بصفة خاصة. وعلى الرغم من أنَّ هذه المؤلفات اتسمت بطابع استكشافي عسكري، ولم تكن تهدف بالأساس إلى تدوين تاريخ الجزائر في العهد العثماني، إلا أنها قدمت رصداً لجانبٍ من أوضاع البلاد وأحوال سُكانها؛ حيث تُشير المصادر والمراجع التي تناولت الأطماع الفرنسية إلى أنَّ بذور هذه النوايا الاستعمارية تعود إلى عهد الملك لويس السادس عشر؛ ومن أبرز المؤلفات التي كتبها الأسرى الفرنسيون في الجزائر نذكر:

3 – 1 – تقارير دي كارسي

عُيِّن «دي كارسي» قنصلاً لفرنسا في الجزائر سنة 1782م، وهو المنصب الذي مكث فيه ثماني سنوات؛ أتاحت له التعرف عن كثب على جوانب عديدة من المجتمع الجزائري، والوقوف على أوضاع الدولة الداخلية والخارجية. وبحكم جولاته في مختلف الموانئ والمدن الجزائرية، تمكّن من إنجاز تقرير مفصّل يُعدُّ من أهم التقارير العسكرية التي استند إليها الفرنسيون لاحقاً في مشروع احتلال الجزائر.

قدَّم «دي كارسي» تقريره الأول في 7 ماي 1782م بقصر فرساي، وتألف من 18 صفحة، أبرز فيه ضرورة تحطيم القوة الجزائرية، مقترحاً خطة عسكرية تقضي بإنزال الجيش الفرنسي في الناحية الغربية للمدينة، ثم الزحف براً نحوها بفرقتي المشاة والمدفعية، وفرض حصار بري للاستيلاء عليها من الخلف. (قندوز، 2018، صفحة 69)

أمَّا التقرير الثاني فقد صدر سنة 1791م، أي بعد نحو عقد من الزمان، ولم يخرج في فحواه عن الطابع العام للمشروع الأول. تضمّن هذا التقرير 17 صفحة، ركز فيها «دي كارسي» بشكل أعمق على الجانب العسكري والعلاقات الجزائرية الفرنسية (السياسية والاقتصادية)، ورسم خطة لتدمير مدينة الجزائر عبر تجهيز قوة قوامها 3000 إلى 4000 جندي لمهاجمة المدينة برّاً، على أن يكون الإنزال في «سيدي فرج» ثم الالتفاف حولها من ناحية البحر؛ حيث ذكر في تقريره: «**إنَّ الفكرة الرائجة هي أنَّ أنسب مكان للإنزال هو (سيدي فرج) الذي يبعد ثلاثة فراسخ عن مدينة الجزائر**».

وهو ما يسهّل حسب رأي «دي كارسي» وصول القوات إلى (حصن الإمبراطور) الذي يشرف على المدينة من الناحية الجنوبية في غضون أربع ساعات من السير عبر السهول. كما اقترح أن يكون الإنزال الأول تمويهياً عند «كاب ماتيفو» (برج تامنفوست) شرقاً، بينما يكون الإنزال الرئيسي غرباً في «سيدي فرج»، بهدف تدمير تحصينات المدينة والاستيلاء على الخزينة المحفوظة في القصبة. (بن عتو، 2016 – 2017، الصفحات 123 – 124)

3 – 2 – مذكرات «تيدنا Thédnat»

وضع «تيدنا Thédnat» مذكراته سنة 1785م عقب تخلصه من الأسر في الجزائر، مضمناً إياها عصارة ما عاينه وعايشه سواء في بلاط مدينة معسكر أو في مدينة الجزائر. وتتضمن هذه المذكرات معلومات قيمة عن المجتمع الجزائري في القرن الثامن عشر، كما رسمت صورة واضحة لسياسة وأخلاق «الباي محمد الكبير» في معسكر، وتحدثت عن المهام المسندة لمنصب «الخزندار» الذي تولاه «تيدنا» منذ وصوله إلى معسكر، كما قدم شرحاً مفصلاً للحملات التي كان يقودها الباي لجمع الضرائب في المقاطعة التابعة له. (أحميدة، 2004، الصفحات 213 – 216)

وتتميز هذه المذكرات عن غيرها من الكتابات الفرنسية بنقلها الأمين للمعاملة الحسنة التي كان يتلقاها الأسرى الأوروبيون بصفة عامة من قبل الحكام العثمانيين، لدرجة أنَّ «تيدنا» تفاجأ بهذه المعاملة وصرح قائلاً: «**لم نتعرض لسوء من قبل خاطفينا، كما كنا نعتقد... لقد عاملونا بإنسانية تماماً خلال الأيام الأربعة التي استغرقناها للوصول إلى الجزائر**». (Marcel, 1948, p. 158)

ويؤكد «تيدنا» لاحقاً أنَّ باي معسكر «الباي محمد الكبير» كان يعامل الأسرى باحترام وإنسانية؛ فبمجرد وصوله إلى قصر الباي وجد مجموعة من المسيحيين الذين أخبروه بأنَّ الباي سيعينه في منصب (الخزندار)، وهو ما وصفه «تيدنا» بالأمر المدهش قائلاً: «**كل ما قاله لي هؤلاء الشباب كان لغزاً بالنسبة لي، ولم يؤدِّ إلا إلى إدهاشي أكثر.. قلت: ما كل هذا؟ أين هذه الهمجية واللاإنسانية التي تنسبها أوروبا لهذا الشعب الذي أنتمي إليه الآن؟**». (Marcel, 1948, p. 164)

كما تضمنت المذكرات تقارير سرية تتحدث عن السبل المثلى لاحتلال الجزائر، مؤكدة امتلاك فرنسا للإمكانات العسكرية التي تؤهلها لاستغلال خيرات البلاد. وقد شدد «تيدنا» على ضرورة استغلال

الفجوة بين الجزائريين والأتراك، زاعماً أنَّ السكان لن يتحركوا للدفاع عنهم، (الميلي م.، 1964، صفحة 280)

لذلك اقترح «تيدنا» توجيه الحملة العسكرية إلى ميناء «تنس» غرب الجزائر، ثم فرض حصار بحري على مدينة الجزائر، مقدراً حاجة الحملة لما بين 30 ألفاً إلى 35 ألف جندي. (محجوبي ، 2020، صفحة 90)

3 – 3 – تقارير «بوتان Boutin»

في 18 أفريل 1808م، بعث «نابليون بونابرت» بمذكرة إلى وزير الحربية الفرنسية «ديكري»، أمره فيها بدراسة إمكانية شنّ حملة عسكرية على الجزائر، سواء عن طريق البحر أو البر. كما وجّهه إلى اختيار رجل مناسب للبحث عن الوثائق وجمع المعلومات اللازمة، واشترط نابليون في هذا الموفد أن يجمع بين الخبرة الميدانية البحرية والمهارة في الهندسة العسكرية للقيام بمهمة استطلاعية دقيقة في مدينة الجزائر.

وبناءً على ذلك، وقع الاختيار على ضابط الهندسة العسكرية «**بوتان Boutin**»، الذي توجه إلى الجزائر متنكراً بزيٍّ مدني تحت غطاء زيارة أحد أقاربه، وهو القنصل «**ديبوا تانفيل Dubois Thainville**» (شويتام، 2011، صفحة 176)؛ وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته، وصل «بوتان» إلى مدينة الجزائر، حيث مكث فيها حتى السابع عشر من جويلية 1808م. وخلال هذه الفترة، شرع في التجول في أزقة المدينة وشوارعها، مُعدّاً الرسومات التمهيدية والمخططات والخرائط العسكرية اللازمة. (بوعزيز، الجزائر القديمة والوسيطة الجزائر الحديثة، 2009، صفحة 92).

حمل مشروع «بوتان» عنوان «**الاستعمار**»، وقد أكد فيه على نقطتين أساسيتين؛ الأولى: اختيار الموقع الملائم لإنزال القوات بالقرب من العاصمة، والثانية: طبيعة المقاومة التي قد تواجهها هذه القوات عند الإنزال. وبناءً عليه، اقترح إنزال القوات الفرنسية في (شبه جزيرة سيدي فرج)؛ لكونها منطقة مكشوفة وخالية من الحصون الدفاعية. كما نبه إلى المخاطر البحرية التي قد تعترض الحملة، وحدد الفترة ما بين 10 ماي و10 جوان كأنسب وقت للتنفيذ؛ تفادياً للعواصف البحرية والأحوال الجوية القاسية. (Boutin, 1830, pp. 223 – 234)

أمَّا النقطة الثانية التي اعتبرها «بوتان» جوهرية لضمان نجاح غزو الجزائر، فهي تعداد القوات العسكرية؛ حيث أكَّد أنَّ الدولة الجزائرية لا يمكنها حشد أكثر من ستين ألف جندي، خاصَّة إذا نجحت فرنسا في إثارة نزاع عسكري بين الجزائر وتونس. أما بخصوص القوة الفرنسية اللازمة للحملة، فقد اقترح أن يتراوح عددها ما بين 35 و40 ألف عسكري. (سعد الله أ.، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال"، 1982، صفحة 21)

كما شدّد «بوتان» على ضرورة التزام الجيش، في مسار زحفه نحو مدينة الجزائر، بالطريق الممتد من «سيدي فرج» وصولاً إلى قلعة مولاي حسن المعروفة بـ (حصن الإمبراطور) واحتلالها؛ كونها تمثل نقطة استراتيجية محورية، وموقعاً مهيمناً يشرف على كافة تحصينات المدينة ودفاعاتها. (Boutin, 1830, p. 223)

وعليه، نقول أنَّ الإسطوغرافيا الفرنسية التي سبقت الاحتلال ركزت بالدرجة الأولى على استكشاف سواحل الدولة، ورصد قدراتها العسكرية، وتعداد الجيش العثماني المرابط فيها، فضلاً عن تحليل طبيعة العلاقة بين الجزائريين وحكامهم؛ وذلك بشكل أعمق من اهتمامها بتدوين تاريخ المنطقة أو أحوال معيشة سكانها.

وما ورد في هذا الصدد ظلَّ محصوراً في عددٍ محدود من المؤلفات؛ لذا يمكن القول إنَّ هذه المصادر الفرنسية ـــوالأوروبية بصفة عامةـــ التي كُتبت عن الجزائر في العهد العثماني، لم تخرج عن إطار البحث عن مواطن ضعف الدولة الجزائرية؛ بغرض استغلالها لخدمة الأطماع الاستعمارية. ومن ثَمَّ، فإنَّ التعامل مع هذه المصادر يقتضي توخي الحيطة والحذر الشديدين تجاه ما تورده من معلومات، لا سيما تلك المتعلقة بالأسطول البحري الجزائري.

ثالثاً:

تطور الاسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر 1830 – 1962

تجمع المصادر والمراجع التي تحدَّثت عن الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر أنَّها مرة بمرحلتين، وسنحاول فيما يلي التطرق لخصائص هاتين المرحلتين.

1 – الكتابة التاريخية الفرنسية 1830 – 1879

تميزت هذه المرحلة بالسيطرة التامة للقادة العسكريين في الجيش الفرنسي على تدوين تاريخ الجزائر، بالإضافة إلى مؤلفات المترجمين والموظفين الإداريين والقضائيين. كما عرفت هذه المرحلة تأسيس العديد من الهيئات العلمية والمجلات الثقافية بهدف البحث في تاريخ الجزائر منذ أقدم العصور وصولاً إلى فترة الاحتلال. وسنحاول فيما يلي إبراز نماذج من الدراسات الفرنسية التي ظهرت في هذه الفترة، مع توضيح خصائص كل نوع منها.

1 – 1 – مؤلفات القادة والضباط العسكريين

منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر أوكلت مهمة تسيير شؤون الدولة إلى مجموعة من الضباط العسكريين، ولذلك فإنَّ جل ما صدر من مؤلفات خاصة بتاريخ الجزائر، ألفها، أو شارك في تأليفها هؤلاء الضباط.

ومن هذا المنطلق جاءت مؤلفات القادة العسكريين في شكل مذكرات عن فترة حكمهم في الجزائر؛ حيث يندرج ضمن هذا الصنف تلك التقارير والمذكرات التي ألفها قادة الجيش خلال توسع الغزو في المدن الداخلية. وسنخصّص الحديث فيما يلي لنموذج من هذه الكتابات، حيث اخترنا مذكرات الجنرال «**برتران كلوزيل Bertrand Clauzel**» باعتباره تولى منصب الحاكم العام للجزائر في البدايات الأولى للاحتلال، ولما يتميز به من دفاع مستميت عن فكرة استعمار الجزائر وضرورة احتفاظ فرنسا بها.

ومن بين المؤلفات التي كتبها هذا الحاكم نذكر **كتاب**: «**ملاحظات الجنرال كلوزيل عن بعض اعمال قيادته في الجزائر**»:

«**Observation du Général Clauzel sur Quelques Actes Son Commandement à Alger**»

صدر هذا الكتاب سنة 1831 في حوالي 163 صفحة.

تضمَّن هذا الكتاب مقدِّمةً شرح فيها «كلوزيل» أسباب نشره لهذه الملاحظات، حيث قال: «**أهدف إلى إظهار المزايا التي يَعِدُ بها استعمار الجزائر بالنسبة لفرنسا**». كما استعرض في هذه المقدِّمة ظروف توليه القيادة في الجزائر بتاريخ 2 سبتمبر 1830م، والتعليمات التي حملها معه، بالإضافة إلى التوصيات التي قدّمها بشأن ضرورة احتفاظ فرنسا بالجزائر كمستعمرة؛ معتبراً إياها تعويضاً لفرنسا عن بقية المناطق التي تحتلها. (Clauzel, Observation du Général Clauzel sur Quelques Actes Son Commandement à Alger,, 1831, pp. 5 – 9)

وبالإضافة إلى ذلك، تحدَّث «كلوزيل» في كتابه عن أهمية احتلال مدينة الجزائر والنقاط الرئيسية على الساحل، مبيناً أنَّ ذلك يتطلب 10 آلاف جندي ونفقات طائلة. كما أوضح أنَّ على فرنسا إجراء فحصٍ دقيقٍ لكافة الوسائل الكفيلة بتحسين البلاد والاستفادة من مواردها بما يخدم مصلحة فرنسا والأهالي معاً، وذلك عبر تعليم أبناء السكان مجاناً في المؤسسات الفرنسية؛ بهدف تليين طباعهم.

وأصرَّ في حديثه على جعل الجزائر منفذاً لفائض سكان فرنسا ومورداً لتجارتها وصناعتها وزراعتها التجريبية، مع العمل على إشراك المستوطنين في أعمال التحصين لصد هجمات السكان المجاورين، وذلك لتثبيت فكرة الاحتلال عبر توسيع النفوذ الفرنسي نحو المديّة، والبدء في إجراء اتصالات مع باي تونس لتوجيه ضربة عسكرية لمن تبقى من الأتراك أو العرب غير الخاضعين في إقليم قسنطينة، والاتفاق على تعيين «الأمير سيدي مصطفى» بايًا على قسنطينة، و «الأمير أحمد» بايًا لمدينة وهران، مقابل تعهدهما بدفع مبالغ مالية للحكومة الفرنسية. (Clauzel, Observation du Général Clauzel sur Quelques Actes Son Commandement à Alger,, 1831, pp. 5 - 44)

واختتم «كلوزيل» كتابه بالإشارة إلى المخاطر التي واجهته في سبيل تثبيت الاحتلال، ومنها مواجهته للتوسع الذي قام به ملك المغرب الأقصى «مولاي علي» في غرب الجزائر؛ عبر إرسال ممثلين عنه للمنطقة استجابة لطلب السكان الحماية لمواجهة هجمات القبائل التي لم تعد تعترف بسلطة باي وهران «حسن».

كما أكَّد على أنَّ الاستسلام للقدر هو عقيدةٌ لدى جميع المسلمين، وأنَّ نبوءات قديمة أعلنت منذ الأزل عن غزو المسيحيين لإفريقيا، معتبراً أنَّ استغلال ذلك سيُسهّل استسلام السكان، خاصَّة إذا تجنب الفرنسيون الطابع الاستبدادي والعنيف في هيمنتهم.

وختم بوصف الجزائر بأنها تشبه المناطق الاستوائية تقريباً، فإذا ما استُصلحت زراعياً ستنتج محاصيل مفيدة للغاية، ويمكنها أن تحل محل جميع مستعمرات فرنسا في جزر الهند الشرقية والغربية، مبيناً أنَّ حجم النفقات التي أنفقتها فرنسا في الجزائر ستعود عليها بفوائد مضاعفة. (Clauzel, Observation du Général Clauzel sur Quelques Actes Son Commandement à Alger,, 1831, pp. 45 – 163)

كما ألَّف هذا الحاكم كتاب «**توضيحات الماريشال كلوزيل Explication du Marichal Clauzel**»، طبع سنة 1837 في حوالي 250 صفحة.

قدّم «كلوزيل» في هذا الكتاب شرحاً لأربع قضايا دافع من خلالها عن نفسه ضد الاتهامات التي وُجهت إليه بشأن طريقة حكمه للجزائر؛ حيث استعرض وجهة نظره في النظام الذي اتبعه في تسيير البلاد. فدافع في البداية عن فكرة الاحتفاظ بالجزائر، منتقداً الفرنسيين الداعين للتخلي عنها، ومبيناً أنَّ على فرنسا مواكبة الحركة الاستعمارية التي بدأتها كل من بريطانيا وروسيا. ثم انتقل في حديثه إلى وصف طبيعة نظام الحكم العثماني، حيث اعتبر أنَّ سيطرتهم على المنطقة كانت قائمة على قهر سكانها وإثارة التنافس والبغضاء بينهم، لتدمير كل شعور بالوحدة أو المصالح المشتركة.

كما أوضح أنَّ بقاء الفرنسيين متمركزين في الساحل جعل احتلال باقي المناطق أمراً صعباً، لأن ذلك ثبّت لدى الجزائريين شعوراً بضعف الفرنسيين فأخذوا يحتقرونهم؛ ولذلك رأى وجوب حكم العرب «بالعدل والقسوة معاً» عبر توسيع مناطق السيطرة. وهو ما جعله يؤكد على ضرورة توجيه حملة

عسكرية إلى مدينة «معسكر» لجعلها مركزاً للقوات الفرنسية، باعتبارها مدينة محصنة والسيطرة عليها ستسمح بالتوغل أكثر في البلاد والقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، الذي حاصرهم في وهران وامتدت سلطته حتى أبواب مدينة الجزائر. (Clauzel, Explication du Marichal Clauzel, 1837, pp. 7 – 20)

اقترح «كلوزيل» بعد ذلك على الحكومة الفرنسية في باريس السيطرة على قسنطينة وتلمسان، محذراً من أنَّ التخلي عنهما سيؤدي إلى خسارة إفريقيا؛ خاصة وأنَّ الفرنسيين قدّموا تأكيدات للأتراك والكراغلة بمساعدتهم وإنقاذهم من «الأمير عبد القادر»، ومنع تدخل ملك المغرب في المنطقة بعد إرساله ممثلين عنه إلى تلمسان. وأشار إلى الصعوبات التي واجهته كحاكم عام لضمان بقاء هذه المدينة تحت السلطة الفرنسية، وتعيين «مصطفى بن إسماعيل» ممثلاً له فيها.

أمَّا فيما يخص قسنطينة، فقد أوضح أنَّ الحملة عليها تتطلب تزويده بـ 30 ألف جندي من القوات الفرنسية، و5 آلاف من القوات المحلية النظامية، و4 آلاف من القوات المحلية غير النظامية، على أن يتوجه 3 آلاف منهم نحو «قالمة» لاتخاذها نقطة انطلاق لاحتلال قسنطينة. كما انتقد في كتابه تقاعس الإدارة الفرنسية في الاستجابة لطلباته، مؤكداً أنَّ هذا التقاعس وتبادل الاتهامات بين المسؤولين ساهما في فشل الحملة، مما أدى إلى ازدياد قوة «أحمد باي» ومحاربته للفرنسيين في قالمة وعنابة.

واختتم «كلوزيل» كتابه بإبراز سلبيات نظام تسيير الجزائر من وجهة نظره، مشيراً إلى استقلال الإدارة المدنية في فرنسا وسعيها لفرض أوامرها على الحاكم العام، وهو ما اعتبره أمراً غير منطقي لكون الجزائر خاضعة للحكم العسكري؛ فالحاكم العام –في نظره– لا يشارك في الحكم إلا من خلال التوقيع فقط. لذا طالب المسؤولين في فرنسا بمنحه نوعاً من الحرية في الإدارة، نظراً لاختلاف الظروف عن فرنسا، ولأنَّ مقتضيات الميدان تفرض على الحاكم إصدار قرارات سريعة دون انتظار موافقة الحكومة. (Clauzel, Explication du Marichal Clauzel, 1837, pp. 20 – 77)

وفي ختام كتابه، قدّم «كلوزيل» مجموعةً من الرسائل التي كان يتبادلها مع مسؤولي الإدارة الفرنسية في كلٍّ من الجزائر وباريس؛ رغبةً منه في الدفاع عن نفسه ضد الاتهامات التي وُجهت إليه باستغلال منصبه كحاكم عام لجمع ثروته الشخصية والسيطرة على عقارات وممتلكات بأسعار زهيدة.

ودعم «كلوزيل» حججه بمجموعة من الوثائق التي حاول من خلالها إبراز شخصيته بصورة «المدافع عن شرف فرنسا» وعن سياسة الاستيطان، في مواجهة الداعين للتخلي عن الجزائر أو الاكتفاء باحتلال المدن الساحلية؛ مؤكداً أنَّ الاكتفاء بالساحل لن يحقق لفرنسا أيَّ نفع استراتيجي، بخلاف توطيد الاحتلال عبر السيطرة على مدينتي قسنطينة وتلمسان. كما شدد على أنَّه سخر كافة الموارد المتاحة لتحقيق هذه الغاية، نافياً استغلال منصبه إلا في إطار دعم المستوطنين والموالين لفرنسا من الأهالي والكراغلة. (Clauzel, Explication du Marichal Clauzel, 1837, pp. 77-240)

إذن؛ فالجنرال «كلوزيل» يشرح لنا من خلال مؤلفاته واقع الصراع الذي دار بين الفرنسيين أنفسهم بشأن جدوى الاحتفاظ بالجزائر، مؤكداً ضرورة حشد فرنسا لكافة مواردها للاستبقاء على هذه المستعمرة، سواء عبر استخدام «الأساليب اللينة» لاستمالة الجزائريين، أو من خلال القوة العسكرية الغاشمة لفرض الاحتلال والقضاء على أي تهديد للمصالح الفرنسية في الشرق والغرب على حد سواء. كما يكشف هذان الكتابان عن الأطماع الفرنسية في ثروات الجزائر، ومدى اطلاع القادة العسكريين على الأوضاع الداخلية وما تكتنزه البلاد من إمكانات اقتصادية هائلة.

وبناءً على ذلك، يمكن القول أنَّ مؤلفات قادة الجيش الفرنسي لم تخرج عن طابع التفاخر بالمنجزات الاستعمارية، ومحاولة تبرير أعمال القمع والمجازر المرتكبة ضد الجزائريين بدعوى القضاء على «التخلف والهمجية»؛ حيث نلاحظ أنَّ «الجنرال كلوزيل» -على سبيل المثال- أصرَّ على وصف الجزائريين بـ«البربرية»، معتبراً أنَّ على فرنسا تمدينهم وتعليمهم، ليس بغرض النهوض بهم، بل لتسهيل عملية السيطرة عليهم وإخضاعهم.

1 – 2 – مؤلفات موظفي الإدارة الفرنسية

بالإضافة إلى المؤلفات التي وضعها قادة الجيش الفرنسي غداة غزوهم للجزائر وقمعهم للثورات التي اندلعت فيها، ظهرت أيضاً مؤلفاتٌ لموظفي الإدارة الفرنسية؛ ولا سيما المسؤولين عن الترجمة في مختلف مصالح إدارة الاحتلال، والضباط الإداريين المكلفين بتسيير الشؤون الإدارية، خاصة في البلديات المختلطة.

فبالنسبة لحركة الترجمة الفرنسية في الجزائر، وجدنا أنَّها ظهرت عقب عزم الفرنسيين على احتلال الجزائر وتوجيه حملة عسكرية ضدها، وهو ما ساهم في ظهور مجموعة من المترجمين والمرشدين العسكريين بالجزائر شهر جانفي من سنة 1830، حيث قامت وزارة الحربية تحت إشراف الجنرال «**دي لوفردو De Loverdo**» بتكليف «**دي كليرمونت تونار De Clermont Tonner**» بتشكيل هذه اللجنة بقيادة الجنرال «**ديسبري Desprès**». ومشاركة حوالي خمسة وتسعون مترجماً. (قروجي، 2015، الصفحات 55 – 56)

ولما انتهت تحضيرات البعثة في أول ماي 1830 تجمعت في «طولون **Toulon**». و«**مرسيليا Marseille**». لتنطلق هذه اللجنة من المترجمين مع الحملة الفرنسية المتوجهة للجزائر لتحطّ بشواطئ «سيدي فرج» في 14 جوان من السنة نفسها. (Laurent Charles Féraud, 1876, pp. 55 – 58.)

وبعد احتلال الجزائر واستيلاء الفرنسيين على الحكم، تم هؤلاء المترجمين تولي العديد من المناصب الهامَّة، حيث تولَّى المترجم «**دوبينيوز D'Aubignose**». ملازماً عاماً على رأس الشرطة، كما ترأس «**جيرارد Gérardin**» مصلحة أملاك الدولة (الدومين) (**Domaines de l'Etat**)، في حين أوكلت مهمة دراسة موارد وإيرادات البلد لـ«**أوسيب دي سال Eusèbe de Salles**». كما تقلّد الضابط المترجم «**جون ميرانت Jean Mirante**» منصب مدير شؤون الأهالي في الحكومة العامة بالجزائر. (قروجي، 2015، صفحة 58)

ولضمان الاستمرارية ومواصلة المهام التي قامت بها هذه اللجنة، صدر بتاريخ 3 نوفمبر 1845، وتحديداً في النشرة الرسمية للحكومة (رقم 125). مرسوم وزاري يقضي بإنشاء سلك للمترجمين العسكريين الموجّهين خصيصا إلى مصلحة الجزائر (**Service de l'Algérie**). ليتم فيما بعد بإلحاقهم بوزارة خاصَّة بالجزائر والمستعمرات التي تأسست يوم 24 جوان 1858. (Laurent Charles Féraud, 1876, pp. 106 – 143)

أمَّا فيما يخص الضباط الإداريين فاستعانت فرنسا بالعديد من الضباط، الذين لهم دراية ومعرفة كبيرة بلغة وعادات المجتمع الجزائري ومن أبرز هؤلاء الذين خصّصنا لهم جانبا من البحث والدراسة المرتبطة

ببحثنا هذا هو ضابط الإدارة «**ارنست مرسييه Ernest Mercier**» الذي أهتم كثيراً بالبحث عن تاريخ الجزائر وعادات وطبائع المجتمع الجزائري ومن أبرز الأبحاث التي ألَّفها، نذكر:

- كتاب «**الجزائر سنة l'Algérie en 1880**»، يحتوي على 280 صفحة، طبع سنة 1880.

خُصِّصَ للحديث عن ظروف احتلال فرنسا للجزائر والطرق التي اتبعتها فرنسا في تسيير المجتمع الجزائري، كما تحدَّث أيضاً عن الأوضاع الاقتصادية للجزائر منذ بداية الاحتلال إلى غاية سنة 1880، خاصَّة التجارة والصناعة ومختلف المشاريع العمومية، وأشار أيضاً في هذا الكتاب إلى حجم السُّكَّان، سواء كانوا أوروبيين أو يهود أو جزائريين، مع الإشارة إلى وضعية التعليم الفرنسي والعدالة والأمن، خاصَّة في جانب حماية الأوروبيين، وبين أيضاً حجم المشاريع التي تعتزم إدارة الاحتلال الفرنسي انشائها في الجزائر. (Mercier E. , L'Algérie en 1880, 1880)

- كتاب «**الجزائر والمسألة الجزائرية دراسة تاريخية، إحصائية واقتصادية**» L'Algérie et les questions algériennes, étude historique, statistique et économique».

صدر هذا الكتاب سنة 1880، وهو كتاب مكمّل لكتابه السابق «الجزائر سنة 1880»، حيث تحدَّث في هذا الكتاب أيضاً عن الاستعمار الفرنسي للجزائر والتغيرات التي شهدتها المنطقة في ضل الهيمنة الفرنسية، خاصَّة في مجال تعداد السُّكَّان والنظم الإدارية والقضائية.

كما تحدَّث أيضاً عن الوضع العام للجزائر بعد صدور قرار 19 مارس 1879 الذي عين بموجبه «**ألبرت غريفي Albert Grévy**» كحاكم عام في الجزائر، والإجراءات التي قام بها في فترة حكمه والثورات التي عرفتها الجزائر خاصَّة ثورة الأوراس سنة 1879، وما قامت به الإدارة الفرنسية من تحريات لكشف أسباب هذه الثورة، لينتقل بعدها لإبراز مجموعة من القضايا المتعلقة بالإدارة الفرنسية، كمسألة الحدود مع تونس وسياسة الفرنسيين مع الجزائريين، خاصَّة نظام الضرائب وملكية الأراضي. (Mercier E. , L'Algérie et les questions algériennes, étude historique, statistique et économique, 1883)

- كتاب «**تاريخ شمال إفريقيا البربرية منذ أقدم العصور إلى غاية الغزو الفرنسي**»
«Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie). Depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830».

صدر سنة 1888 في ثلاث أجزاء، وهو كتاب خصّصه للحديث عن تاريخ شمال إفريقيا منذ العصور القديمة خاصَّة فترة الاحتلال الروماني والبيزنطي، كما تحدَّث فيه عن فترة الفتوحات الإسلامية والدول التي ظهرت في هذه المنطقة خلال فترة التاريخ الوسيط، ثم فترة الوجود العثماني خاصَّة في الجزائر وصولاً إلى الاحتلال الفرنسي.

- كتاب «**حال المرأة المسلمة في شمال إفريقيا**» La condition de la femme musulmane dans l'Afrique septentrionale».

طبع سنة 1895، تحدَّث فيه عن عدة مسائل تخص المرأة الجزائرية، كالزواج والعادات المرتبطة به وطبيعة العلاقة بين الزوجين، سواء في المدينة أو الريف، إذ أكَّد أنَّ سُكَّان الريف يتعاملون بخشونة مع زوجاتهم ويحملونهم مسؤولية كل شيء، أمَّا الرجال فنجد أنَّهم في الريف يهتمون فقط بزراعة الحبوب، ليختتم المؤلف كتابه هذا بإيراد بعض التصرفات المنشرة في المجتمع الجزائري، والتي يرى بأنَّها مقززة ومهينة لمكانة المرأة، كمسألة منعها من الميراث ومسألة تعدد الزوجات. (Mercier E. , la condition de la Femme Musulmane dans l'Afrique septentrionale, 1895)

- كتاب حول: «**مسألة الأهالي في الجزائر مع بداية القرن 20**» **La question indigène en Algérie au commencement du XXe siècle**»

طُبع سنة 1901، وتحدَّث «ارنست مرسييه» في هذا الكتاب عن وضع الجزائر في أواخر الحكم العثماني وظروف الاحتلال الفرنسي، ليشير بعدها إلى الثورات التي اندلعت في المنطقة لمواجهة الفرنسيين، خاصة ثورة «الأمير عبد القادر»، والمعاهدات التي وقَّعها مع الفرنسيين. كما أشار إلى «ثورة المقراني» سنة 1871، ليُبيِّن بعدها التحولات التي أجرتها إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر، خاصة في الجانب الإداري والقضائي وملكية الأراضي، بالإضافة إلى نسبة التمثيل النيابي للجزائريين، والتدابير المقترحة لاستقرار الأمن. ثم ينتقل للحديث عن الدين في الجزائر، وسبب تعصُّب السكان وكُرههم للمسيحيين،

ودور المرابطين في المجتمع؛ حيث أكَّد على ضرورة الاستعانة بهم لتيسير المجتمع والتحكُّم فيه. (Mercier E. , La question indigène en Algérie au commencement du XXe siècle, 1901)

- كما اهتمَّ المؤلف أيضًا بدراسة واقع المجتمع الجزائري وعاداته؛ إذ وجدنا في الدراسة التي أنجزناها حول « **اثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال مؤلفات المؤرخ ارنست مرسييه**» أنَّ هذا المؤرخ، من خلال كتبه والمقالات التي نشرها، سعى إلى الكشف عن ذهنية الجزائريين وطريقة تفكيرهم، من أجل تسهيل مهمة الإدارة الفرنسية في بسط نفوذها المطلق على الشعب، والقضاء على الثورات، وتسخيرهم لخدمة مصالح المستوطنين. (كندري و عكاش، 2024، الصفحات 492-518)

1 – 3 – مؤلفات اللجان العلمية والثقافية

أسَّسَ الاحتلال الفرنسي في الجزائر العديد من الهيئات والجمعيات العلمية والثقافية، التي استهدفت بالدرجة الأولى التعرّف على الشعب الجزائري والسيطرة عليه؛ وهو ما ساهم في تنوّع هذه اللجان والجمعيات وتعدُّد مهامها. لذا، سنحاول فيما يلي إبراز أهم هذه الجمعيات التي أسسها الفرنسيون في الفترة الممتدة ما بين 1830 و1870.

1 – 3 – 1 – لجنة استكشاف الجزائر

تأسست هذه اللجنة يوم 14 أوت 1837 من طرف وزارة الحربية الفرنسية، وضمت 21 شخص ترأسها «**بوري دي سانت فانسن Bory De Saint Vincent**»، (صدوقي، لجنة استكشاف الجزائر العلمي، بين نشاطاتها البحثية وارتباطاتها الاستعمارية 1837 – 1842، 2021، الصفحات 108 – 109)، كما ضمَّت الجمعيةُ عددًا من الباحثين العسكريين، نذكر منهم: «**إدموند بيليسيه دي رينو Edmond Pellissier de Reynaud**» و«**كاريت Carette**»، و«**دوماس Dumas**»، و«**سانت أرنو Saint Arnaud**»، و«**تيرملي Trumelet**»، و«**أوغيست وارنيي Auguste Warnier**»، و«**لويس لاموريسيير Louis Lamoricière**»، و«**الماريشال راندون Maréchal Randon**»، و«**أدريان بربروجر Adrien**

Berbrugger»، وغيرهم من الموظفين. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، صفحة 81)

كُلِّفت هذه اللجنة بمهام البحث في مختلف العلوم بالجزائر، كالفيزياء والجيولوجيا وعلوم النبات والطب، بالإضافة إلى التاريخ وعلم الآثار والجغرافيا؛ وذلك بغرض التعرف بدقة على الطبيعة الجزائرية وظروف الاستيطان فيها، وتحديد الإمكانات اللازمة لاستغلال مواردها بما يخدم مصالح الاستعمار الفرنسي. وفي مجال التاريخ –على سبيل المثال– قامت اللجنة بترجمة العديد من الأمهات والكتب إلى اللغة الفرنسية؛ كالتّرجمة التي أنجزها «**بيليسيه دي رينو**» لكتاب «تاريخ القيرواني» (لابن أبي دينار)، الذي يتناول تاريخ بلاد المغرب الإسلامي منذ أقدم العصور إلى عهد الدولة الموحدية. (برقية، 2021 – 2022، صفحة 105)

كما قامت هذه اللجنة بإعداد العديد من التقارير والخرائط الطبوغرافية لوصف سكان الجزائر، وتحديد أحوال تجارتهم وتوزيعهم الجغرافي. وعلاوة على ذلك، عكفت اللجنة على دراسة لهجات السكان وعاداتهم وقوانينهم، وصولاً إلى تفاصيل ملابسهم وأثاثهم وأسلحتهم، فضلاً عن رصد أحوال تجارتهم وزراعتهم بدقة. (تونسي، الأهداف الاستعماريّة للاستشراق الفرنسي في الجزائر، 2025، الصفحات 162 – 163)

ومن أبرز البحوث التي أنجزتها هذه الجمعية، نذكر كتاب «حوليات جزائرية» (**Annales Algériennes**) للجنرال الفرنسي «**إدموند بيليسيه دي رينو Edmond Pellissier de Reynaud**»، الصادر سنة 1854م في ثلاثة أجزاء. وقد تُرجمت هذه الأجزاء إلى اللغة العربية ونُشرت عن دار «الأصالة» بالجزائر العاصمة بدعم من وزارة المجاهدين، وذلك ضمن الاحتفالات بالذكرى الخمسين للاستقلال.

تحدث «**بيليسيه دي رينو**» في هذا الكتاب، عن أسباب الحملة الفرنسية، والمواجهات العسكرية بين القوات الفرنسية والجيش العثماني. كما استعرض الكتاب التوسعات الفرنسية والمقاومات الشعبية التي واجهها الاحتلال، لا سيما ثورتي «الأمير عبد القادر» و«الشيخ بومعزة». وبالإضافة إلى

ذلك، أرَّخ المؤلف في أجزائه الثلاثة لسير الحكام العامين الذين تداولوا السلطة في الجزائر، مبرزاً السياسة الإدارية والعسكرية لكل منهم. (Reynaud, 1854).

1 – 3 – 2 – الجمعية التاريخية الجزائرية

تأسست «الجمعية التاريخية لمدينة الجزائر» في السابع من أفريل عام 1856م، تحت إشراف «**الماريشال راندون Maréchal Randon**»، وتولى رئاستها «**أدريان بربروجر Adrien Berbrugger**». هدفت الجمعية إلى دراسة وجمع كافة المعلومات المتعلقة بتاريخ شمال إفريقيا، وبالأخص الجزائر، بدءاً من أقدم العصور التاريخية وصولاً إلى نهاية العهد العثماني. (رحمون، 2021، الصفحات 204 – 205.)

كما قامت الجمعية ذاتها بنشر دورية عُرفت بـ «**المجلة الإفريقية**» (**Revue Africaine**)، التي اهتمت بنشر المخطوطات المحلية والعربية والوثائق الأصلية، فضلاً عن البحث في تاريخ الجزائر بمختلف عصوره. وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة في شهر أكتوبر عام 1856م، حيث كانت تصدر بصفة دورية كل شهرين، قبل أن تتحول إلى مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر ابتداءً من عام 1888م. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، صفحة 95)

تضمّنت «المجلة الإفريقية» عدداً كبيراً من المقالات المخصّصة للبحث في تاريخ الجزائر، منذ صدور عددها الأول وحتى العدد الأخير سنة 1962م. وقد اشتملت الدورية على مقالات تناولت تاريخ الجزائر قبل عام 1830م، بلغ عددها 156 مقالاً، أمَّا المقالات المخصّصة لتاريخ الجزائر في فترة ما بعد الاحتلال، فقد بلغ عددها 123 مقالاً، (بن عيسى، بن يوب، و قناش، 2022، الصفحات 21–43) كما تضمنت المجلة أيضاً مجموعة من المقالات الخاصة بجغرافية الجزائر وآثارها، وتراجم للعديد من الشخصيات. (هلايلي، 2005، صفحة 152)

إذاً فالجمعية التاريخية الجزائرية منذ تأسيسها قامت بإنجاز العديد من الأبحاث والدراسات الخاصة بالجزائر خاصَّة ودول المغرب بصورة عامة، وهذا باعتبار أنَّ هذه الجمعية منذ تأسيسها كانت تهدف إلى:

- دراسة تاريخ شمال إفريقيا في مختلف مراحله وتوحيد نشاط أعضائها لتحقيق هذه النتيجة. (Berbrugger A. , 1856, pp. 10-12)
- طبع كل الأبحاث والدراسات التي يؤلفها أعضاء هذه الجمعية.
- الحفاظ على الاثار الرومانية واستخدام كل الوسائل من اجل ذلك «أقواس النصر، البنايات، الأعمدة»
- نشر المذكرات والأعمال الموجودة في الأرشيف ومختلف الأعمال العلمية. (Société historique algérienne, 1904, p. 206;209)

غير أنَّ هذه الأهداف المعلنة كانت تُخفي وراءها جملةً من الغايات الخفية؛ كجمع الوثائق المتعلقة بملكية الأراضي لانتزاعها من الجزائريين الذين لا يحوزون عقوداً رسمية. كما عمدت الجمعية إلى التركيز على دراسة الآثار الرومانية لمحاولة ربط تاريخ المنطقة بروما (الإرث اللاتيني)، مع توجيه النقد اللاذع للتاريخ الإسلامي وتصوير المسلمين بمظهر «الغزاة»؛ وذلك لشرعنة الاحتلال الفرنسي كـ«وريث» شرعي للحضارة الرومانية. (صاحبي، 2023، الصفحات 403 – 404).

1 – 3 – 3 – الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة

تأسست هذه الجمعية في الثالث من ديسمبر عام 1852م، بمشاركة نخبة من الأعضاء، يتقدمهم العقيد «**كروليCreuly**» من سلاح المهندسين، بالإضافة إلى «**بروسيلار Brosselard**»، و«**شربونو Cherbonneau**»، و«**شوانسييه Choisnet**»، و«**ليون رينييه Léon Renier**» الذي كان له دورٌ بارز في دعمها. كما برز «ارنست مرسييه Ernest Mercier» كأحد أهم أعضائها وتولى رئاستها سنة 1894م، وهو ما عزز دور مجلتها الخاصة التي حملت منذ عام 1864م عنوان: «**مجموعة الإشعارات والمذكرات للجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة**». وقد هدفت الجمعية منذ نشأتها إلى حفظ الآثار القديمة للمنطقة، وتعزيز دراسة تاريخ وجغرافيا شمال إفريقيا بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة. (Jugue, 1905, pp. 463-466)

أنشأت هذه الجمعية في بدايتها «**حولية جمعية الآثار لمقاطعة قسنطينة**»، حيث صدر عددها الأول سنة 1853م، متضمناً جملة من البحوث والدراسات التاريخية والأثرية؛ ومنها مقال بعنوان: «**لمحة**

عن الآثار في منطقة قسنطينة»، وتقرير حول «**بقايا آثار الاحتلال الروماني في منطقة فليفلة بسكيكدة**». (Société archéologique, historique et géographique du département de Constantine, 1853, pp. 14-83)

كما ظهرت العديد من البحوث التي تُعنى بالجانب الأثري للمنطقة، كالدراسة التي أنجزها السيد «ماكسيميليان فوي Maximilien Foy» حول «ضريح إمدغاسن»، حيث قدّم وصفاً شاملاً وعميقاً له باعتباره أحد أكبر النصب الأثرية في نوميديا. وفي السياق ذاته، أنجز السيد «شربونو Cherbonneau» دراسةً متخصصة حول النقوش العربية المنتشرة في إقليم قسنطينة. (Renier, 1858, pp. 91-92)

1 – 3 – 4– أكاديمية هيبون

تأسست هذه الجمعية في بدايتها تحت مسمى «**جمعية البحث العلمي والتأقلم**»، ثم عُدّل اسمها في 15 مارس 1865م ليصبح «**أكاديمية هيبون**»، (Letourneux, 1865, p. 42) وذلك بإشراف نخبة من الضباط العسكريين والشخصيات المدنية؛ أمثال «الفيكونت دي جانتيس Le vicomte de Gantés»، و «دوكيرلي Dukerley» رئيس الأطباء بالمستشفى العسكري، و«فونتين Fontaine» كبير صيادلة المستشفى العسكري، وغيرهم من الموظفين الذين انتظموا رسمياً في جمعية عام 1863م بعد صياغة قانونها الأساسي. والذي نصَّ على أنَّ الجمعية تُعنى بتعزيز الدراسات التاريخية والأثرية وتطوير التاريخ الطبيعي، فضلاً عن العمل على «تأقلم» مختلف الأنواع الحيوانية والنباتية الأجنبية في الجزائر. (Jugue, 1905, p. 467)

قُسّمت الأكاديمية إلى أربعة أقسام: خُصّص الأول للدراسات الأثرية، والثاني للتاريخ الطبيعي، بينما اهتم الثالث بـ«تأقلم الأوروبيين» مع المنطقة، في حين خُصّص الرابع للفنون والآداب وإنشاء مكتبة. كما أصدرت الأكاديمية مجلةً خاصة بها، ظهر عددها الأول في شهر جانفي عام 1865م تحت عنوان: «**نشرة أكاديمية هيبون**» «Bulletin de l'Académie d'Hippone». (Delamarche, 1865, pp. V-VII)

واصلت هذه النشرة صدورها بشكل دوري إلى غاية سنة 1921، ثم أصبحت تصدر متفرقة، حيث كانت تصدر تقريبا كل ثلاث إلى خمس سنوات بين 1921 إلى 1935، بينما جاء المجلد الأخير للمجلة من سنة 1936 إلى 1961.

اهتمت «نشرية أكاديمية هيبون» بعدة مواضيع نوجزها فيما يلي:

- **علم الآثار الرومانية:** اهتمت النشرة بإجراء دراسات تفصيلية لآثار مدينة «هيبو»، وفسيفسائها، والنقوش اللاتينية المتواجدة فيها.
- **التاريخ الكنسي:** أنجزت عدة أبحاث حول القديس أوغسطين، وبدايات المسيحية في إفريقيا.
- **علم المسكوكات:** قامت النشرة بتحليل العملات القديمة التي عُثر عليها في منطقة عنابة.
- **العلوم الطبيعية:** ركزت أيضا على: علم النبات، والجيولوجيا، والأرصاد الجوية في منطقة عنابة، بالإضافة إلى انجاز دراسات عن الحيوانات والحشرات التي تعيش في الجزائر.
- **حالة المواقع الأثرية:** وثقت نشرة «أكاديمية هيبون» حالة بعض المعالم قبل أن تتضرر بفعل الزمن أو التوسع العمراني، وسَجّلت العديد من النقوش الليبية واللاتينية.

1 – 3 – 5 – الجمعية الجغرافية والأثرية لإقليم وهران

تأسست هذه الجمعية في 19 جوان عام 1878م، تحت مسمى «**الجمعية الجغرافية لإقليم وهران**»، حيث ركزت اهتمامها على المنطقة الغربية للجزائر والجنوب الغربي، بالإضافة إلى منطقة المغرب الأقصى والصحراء الكبرى. أصدرت الجمعية نشرةً رسمية خاصة بها تُعنى بدراسة جغرافية المناطق المذكورة والتعرف على شعوبها بشكل أعمق. وفي عام 1881م، عُدّل اسمها ليصبح «**الجمعية الجغرافية والأثرية لمدينة وهران**». ومن أبرز أعضائها نذكر المستشرق «**رينيه باصيه René Basset**»، وتلميذه «ألفريد بيل Alfred Bel». (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، صفحة 97)

أصدرت هذه الجمعية مجلةً بعنوان: «**نشرة الجمعية الجغرافية والأثرية لمقاطعة وهران**» في 17 أوت 1878م؛ بهدف المساهمة في الدعاية للمشروع الاستعماري الفرنسي و«رسالته الحضارية» في الجزائر خاصة، وشمال إفريقيا عامة. تضمنت المجلة عدة أقسام شملت تقارير الأعمال الإدارية، ومذكرات معمقة حول نشاطات الأعضاء، بالإضافة إلى إحصائيات متنوعة حيال الموانئ والزراعة والديمغرافيا والاقتصاد.

كما خصصت الجمعية قسماً للملاحظات الجوية الصادرة عن مرصد «فورت سانتا كروز»، الذي أسسه «المقدم ديرين» سنة 1898م بحصن «سانتا كروز» في وهران. استمرت المجلة في الصدور حتى عام 1961م، حيث حمل عددها الأخير الرقم (237)، قبل أن يُعاد إصدارها سنة 1965م بإشراف وزير التربية الجزائري آنذاك «أحمد طالب الإبراهيمي».

بالإضافة إلى ذلك أصدرت الجمعية دورية أخرى بعنوان «نشرة آثار إفريقية» (Bulletin d'Antiquités Africaines) التي تأسست سنة 1882م، لكنها توقفت عن الصدور سنة 1885. (Benkada, 2000, pp. 115-120)

1 – 4 – مؤلفات الرحالة والمفكرين والأدباء

تعددت الرحلات التي قام بها الفرنسيون إلى الجزائر بهدف استكشافها، والتعرف عن كثب على مواردها وإمكانات استثمارها، لا سيما بعد الاحتلال؛ حيث شجعت الإدارة العسكرية الفرنسية هذه الرحلات، ودعمت الرحالة الفرنسيين بكافة الوسائل اللازمة.

ومن بين هؤلاء الرحالة، نذكر «أدريان بربروجر Adrien Berbrugger» الذي زار الجزائر ومكث فيها خمس سنوات، طاف خلالها بالعديد من الحواضر والأقاليم بحكم ملازمته لتحركات الجيش الفرنسي؛ كونه كان عضواً بارزاً ونشيطاً في «**اللجنة العلمية لاستكشاف الجزائر**». كما تولى منصب مدير مكتبة الجزائر العاصمة فور تأسيسها سنة 1835م. (سعد الله أ.، الحركة الوطنية الجزائرية 1830 – 1900، 1992، صفحة 90).

ألف «**أدريان بيربروجر**» العديد من الكتب حول الجزائر ومن بين مؤلفاته نذكر:

- كتاب «**ضرورة استعمار كاب ماتيفو (برج البحري حاليا)**. **De la Nécessité De Coloniser Le Cap Matifou**»

صدر هذا الكتاب سنة 1845م في نحو 26 صفحة، تناول فيه الكاتب أهمية استعمار فرنسا لمنطقة «كاب ماتيفو» (برج البحري حالياً). ولتحقيق ذلك، قام بعدة رحلات لجمع ملاحظاته الميدانية، أبرزها رحلة عام 1837م التي استغرقت ثلاثة أشهر؛ مما مكّنه من دراسة المنطقة بعمق. وقد أوضح أن

التسمية المحلية المعروفة لدى السكان هي «برج تامنفوست»، والتي تعني –حسب تقديره– «الأيادي الثمانية»، وهي التسمية التي اشتق منها الفرنسيون كلمة (Matifou).

كما شرح المؤلف المسالك البحرية والبرية المؤدية إلى «ماتيفو» مبرزاً أهميتها الجغرافية، مع الإشارة إلى وجود العديد من الآثار الرومانية بها. وأكّد أن العثمانيين أدركوا قيمة الموقع الاستراتيجية فشيّدوا فيه حصناً سنة 1660م، داعياً إلى ضرورة إعادة تحصينه نظراً لموقعه المتميز وجودة تربته، وصلاحيته للدفاع عن مدينة الجزائر ضد أي اعتداء بحري. لذا، اقترح إنشاء طريق بري يربط المنطقة بالعاصمة عبر «الحميز» (Hamiz)؛ لاستغلالها في جذب المستوطنين القادمين من فرنسا وأوروبا، خاصة وأن مدينة الجزائر لم تعد تستوعب المزيد من الوافدين.

كما أشار إلى أنَّ الاهتمام بهذه المنطقة سيكشف عن كنوز أثرية رومانية ويوفر مواد بناء جاهزة، فضلاً عن مؤهلاتها السياحية الطبيعية. وخلص المؤلف إلى ضرورة الإسراع في احتلال هذا الموقع وتعميره، مُرفقاً بكتابه خريطة توضح موقع «كاب ماتيفو» بالنسبة للعاصمة، وأخرى تفصيلية للمنطقة. (Berbrugger L. A., De la Nécessité De Coloniser Le Cap Matifou, 1845, pp. 1 – 22)

- ❖ كتاب «**القبائل الكبرى في عهد الرومان La Grande Kabilie sous les Romains**»، الذي طبع سنة 1853 في حوالي 39 صفحة، وكتاب «**العصور العسكرية في منطقة القبائل Les Epoques Militaire de la Grande Kabilie**» الذي طبع سنة 1857 في حوالي 316 صفحة.

وكلا الكتابين –كما نلاحظ من عنوانيهما– مخصّصان لمنطقة بلاد القبائل؛ إذ تناول في الكتاب الأول جغرافية المنطقة وطبيعتها، مبرزاً أقسامها وسمات سكانها، ولا سيما نزعتهم نحو الاستقلال ومقاومة الأجنبي. ثم انتقل للحديث عن التسميات التي عُرفت بها المنطقة، وأسماء القبائل المستقرة فيها. كما فصّل القول في السيطرة الرومانية على المنطقة والحروب التي خاضتها روما ضد السكان، خاصة إبان ثورة «فيرموسFirmus» سنة 372م، وثورة «جيلدون Gildon» سنة 398م. وعلاوة على ذلك، استعرض تاريخ المنطقة في عصر «الدولة الزيانية»، مشيراً إلى دور قبيلة «بني عبد الواد» في تأسيس الدولة

وطرد «بني مرين» من مدينة تلمسان. (Berbrugger L. A., La Grande Kabilie sous les Romains, 1853, pp. 3 – 39)

أمَّا الكتاب الثاني فخصّصه لإجراء دراسة عسكرية لمنطقة القبائل، حيث قسَّمه إلى أربعة عهود، فبدأ حديثه بوصف شعب المنطقة بأنَّه بقي في حالته البدائية على شواطئ البحر منذ القدم، وحافظ على استقلاله إبَّان الاحتلال الروماني. وأشار إلى الثورات التي عرفتها المنطقة، كثورة «تاكفاريناس Tacfarinas» التي اندلعت سنة 17م، والتي أكَّد أنَّها كانت ضد الملك بطليموس، وثورة فيرموس سنة 372م التي وصفها بأنَّها ثورة دينية وليست سياسية. كما تحدَّث عن ثورة «جيلدون Gildon» سنة 398م، مؤكداً أنَّها استمرار لثورة «فيرموس»، وأنَّ الرومان استطاعوا القضاء عليها بسهولة.

ليتكلَّم بعدها عن الصراع الذي عرفته المنطقة في عهدي الاحتلال الوندالي والاحتلال البيزنطي، لينتقل بعدها لتبيان مراحل الغزو الفرنسي لمنطقة القبائل منذ بداية الاحتلال إلى سنة 1857م. كما أشار إلى أنَّ فرنسا تستعد لتوجيه حملتها في فصل الربيع لإخضاع المنطقة بشكل نهائي، بعد أن تمكنت القوات الفرنسية بقيادة «الجنرال بيجو Thomas Robert Bugeaud» من مواجهة خليفة الأمير عبد القادر وطرده من المنطقة. كما دعا القوات الفرنسية إلى الاستفادة من الحروب والحملات التي شنها الرومان على المنطقة، ونصحهم بضرورة معاملة السكَّان بقوة السلاح حتى يستسلموا للفرنسيين.

ولكي يوضِّح لنا المؤلف فكرة السيطرة على المنطقة بشكل أعمق، تحدَّث أيضاً عن العهد العثماني، حيث تساءل عن سر نجاحهم في السيطرة لأكثر من ثلاثة قرون رغم قلة عددهم؛ وهو السؤال الذي أجاب عنه بقوله: إنَّ السكَّان كانوا يعانون من نقص عسكري من حيث السلاح والانضباط مقارنة بالعثمانيين. ودليل ذلك أنَّ المساعدة التي قدَّمها المسيحيون للسكان بتعليمهم «علم المعارك»، جعلتهم يهزمون الأتراك ويفرضون عليهم احترام استقلالهم. وتوضيحاً لرأيه هذا، تكلَّم المؤلف بإسهاب عن البدايات الأولى لوصول «الإخوة بربروس» إلى سواحل الجزائر، والعلاقات التي ربطتهم بسكان منطقة القبائل، وكيف ساهموا معهم في تأسيس إيالة الجزائر.

ليخلص المؤلف في نهاية الكتاب، إلى أنَّ سكان المنطقة اعتادوا الحرية ويرفضون كل أجنبي، وحتى إذا قدموا له يد المساعدة في البداية، فسيثورون ضده إذا أدركوا أنَّه يريد الاستقرار في منطقتهم. كما

أشار إلى وجود نبوءة قديمة تزعم أنَّ الفرنسيين سيسيطرون على المنطقة وينشرون فيها الحضارة والتألق، ويقضون على خشونة السكان وبربريتهم. (Berbrugger L. A., Les Epoques Militaire de la Grande Kabilie, 1857)

إذن، فقد حاول الرحالة «أدريان بربروجر» في كتبه تحليل ذهنية سكان الجزائر، ولا سيما سكان منطقة القبائل، من منظور العمل على فهم سيكولوجيتهم لتسهيل السيطرة الفرنسية على المنطقة؛ ذلك أنَّ القوات الفرنسية وجدت منذ بداية الاحتلال مقاومة شديدة من طرف سكان هذه المنطقة. ويركز عمله هذا على دراسة السبل المثلى لغزو المنطقة وفرض الإدارة الفرنسية عليها.

كما أنَّ أعمال هذا المؤرخ، باعتباره عضواً في «لجنة استكشاف الجزائر»، تُعبِّر بصورة واضحة عن النزعة العنصرية للفرنسيين في مؤلفاتهم، وسعيهم الدائم لتشويه الحكم العثماني والفتوحات الإسلامية، مقابل مدحهم لأعمال الفرنسيين والرومان باعتبارهم «أصحاب حضارة»، وأنَّ استعمارهم جاء لإخراج السكان من بربريتهم وجهلهم.

بناءً على ذلك، يمكن القول أنَّ الإسطوغرافيا الفرنسية التي ظهرت في الجزائر في الفترة الممتدة من 1830 إلى سنة 1879م، تميزت بتركيزها الشديد على التعرف على الجزائر ودراسة سكانها وذهنياتهم وأخلاقهم، سواء في فترة الاحتلال الفرنسي أو الفترات السابقة له؛ وذلك من أجل تسهيل مهمة تواصل الفرنسيين بهم، وفرض منطق الاحتلال عليهم من خلال التأكيد على أنَّه جاء لـ «تحضير» السكان وإخراجهم من همجيتهم، وأنَّ هذا الاحتلال ليس إلا قضاءً وقدراً ذكرته النبوءات القديمة، لذا وجب على السكان الاستسلام لهذا القدر والرضا بحكم الفرنسيين الذين ادعوا أنهم سيرعون مصالحهم.

كما سعى هؤلاء المؤلفون إلى إثبات أنَّ القوة العسكرية الفرنسية لا تُقهر ولا سبيل للجزائريين لمواجهتها، لأنَّها قوات ستستمر في التدفق لإخضاع الجميع. إضافة إلى ذلك، فإنَّ جُلَّ هذه الكتابات كانت تهدف إلى جرد ثروات الجزائر والمنتوجات الفلاحية التي يمكن إنتاجها؛ لذا فإنَّ هذه الدراسات تهدف بالأساس إلى خدمة مصالح فرنسا والمعمرين، ولا تخدم المجتمع الجزائري كما ادعى مؤرخو المدرسة الاستعمارية.

2 – الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر 1879 – 1962

بعد سيطرة المؤلفين العسكريين على أغلب الكتابات التاريخية في الجزائر منذ بداية الاحتلال، ظهر في سنة 1879 دور جديد لهذه الكتابة التاريخية، خاصّةً مع ظهور المعاهد العلمية والجامعة الفرنسية في الجزائر، وغيرها من الدراسات والبحوث التي تولّى زمامَ كتابتها مؤرخون لهم دراية واسعة بشؤون البحث. وسنتحدث فيما يلي عن نماذج من الدراسات الفرنسية التي ظهرت في هذه الفترة، وإلى غاية الاستقلال، والدور الذي لعبته في الكتابة التاريخية.

فبصدور قرار 20 ديسمبر 1879 الذي نص على انشاء ثلاث مدارس تحضيرية للتعليم العالي لتدريس الحقوق والعلوم والآداب، (Abid, L'école de Médecine d'Alger 150 ans d'histoire : de 1857 à 2007, 2006, pp. 9- 10)، بالإضافة إلى مدرسة الطب التي كانت تنشط في الجزائر منذ تأسيسها بتاريخ 4 أوت 1857، (بغداد، التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، 2015، صفحة 168) ظهرت عدة لجان علمية تحت إشراف أساتذة جامعيين فرنسيين، وسنتكلم فيما يلي عن دور هذه الجمعيات والمدارس والجامعات في تطور الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر.

2 – 1 – لجنة ترجمة الكتب العربية

تأسست لجنة ترجمة الكتب العربية التي ظهرت سنة 1894 بدعم من الحاكم العام «**جول كامبون Jules Cambon**»، حيث تمّ تشكيلها من أساتذة فرنسيين مختصين في اللغة العربية، بهدف ترجمةِ مجموعة من الكتب العربية في الفلسفة والنحو والتاريخ، تحت إشراف الحاكم العام «بيرسفيل». (برقية، 2021 – 2022، الصفحات 105- 106).

ومن بين الكتب التي ترجمتها هذه اللجنة نذكر: كتاب «ابن مسكويه»، و «حيّ بن يقظان»، بالإضافة إلى تحقيق ونشر بعض المؤلفات من قبل «محمد بن أبي شنب»، ككتاب «الدراية للغبريني»، و«البستان لابن مريم»، و«بغية الرواد ليحيى بن خلدون». كما ترجم «ابن شنب» أيضًا رحلة «ابن عمار» ورحلة «الورثلاني». كما أشرفت هذه اللجنة على طباعة كتاب «تعريف الخلف» لأبي القاسم الحفناوي، وتولّت نشر أعمال «لوسياني» الذي اهتمّ بنشر آثار رجال الدين، مثل «السنوسي» و«عبد

الرحمن الأخضري». (سعد الله أ.، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، 2007، صفحة 25)؛ وساهمت اللجنة أيضا في ترجمة «باقار» عملا لمؤلف مجهول عن مورفولوجيا الفعل في اللغة العربية، وقام سيكار بترجمة رجز في النحو لحسن العطار المصري، سماه بحثا في النحو العربي. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، صفحة 99).

كما يجب أن نذكر أيضًا ما قام به «**دومنيك لوسياني Dominique Luciani**» من نشاطات في هذه الجمعية ومشاريعها؛ حيث قام بترجمة كتاب «توحيد الباري» للمهدي بن تومرت، وذلك سنة 1903. كما ترجم أيضًا مجموعةً من الأعمال من اللغة العربية والبربرية المكتوبة بالحروف العربية، منها: كتاب «المرونق في المنطق»، و«الدرة البيضاء في الفرائض» «لعبد الرحمن الأخضري»، وكتاب «العقيدة الصغرى» «لمحمد بن يوسف السنوسي»، وكتاب «بغية الباحث عن جميل الوارث» للسرجي، وكتاب «الجوهرة في علم اللاهوت» «لإبراهيم اللقاني»، وكتاب «الحوض» في علم الفقه، وهو مكتوب بالبربرية بحروف عربية، لمؤلفه «محمد بن علي بن إبراهيم السوسي». (بكوش، 2009 – 2010، الصفحات 256 – 257)

2 – 2 – مدرسة الآداب

تعدّ مدرسة الآداب من أبرز مؤسسات التعليم العالي التي ظهرت في الجزائر، إلى جانب مدارس الحقوق والعلوم والطب. وسنخصّص حديثنا لمدرسة الآداب، التي تأسست بموجب قرار 20 ديسمبر 1879 السابق الذكر؛ حيث قُسِّمت إلى جزأين: أولهما مشابه لكلية الآداب في فرنسا، والثاني مشابه لمدرسة اللغات الشرقية. وكانت هذه المدرسة تُدرِّس التاريخ والفلسفة واللغة العربية واللهجات الجزائرية، بالإضافة إلى الأدب الفرنسي، كما كانت تدرِّس أيضًا الأدب الفارسي وتاريخ شعوب الشرق، وتمنح المدرَّسَ تعليمًا تحضيريًا للحصول على شهادات، مثل: شهادة الدراسات التاريخية، ودبلوم اللغة العربية، وشهادة اللغة القبائلية، ودبلوم اللهجات البربرية. (Paoli, 1905, pp. 416 – 417).

ركّزت مدرسةُ الآداب في نشاطها على الاستشراق وجعلته مجالها الرئيسي، والذي شمل عدة نواحٍ في نشاطها، خاصّة اللغة العربية والقضايا الإسلامية، بالإضافة إلى التاريخ والاقتصاد المتعلق بالجانب الإفريقي بصفة عامة، والجزائري بصفة خاصة، من خلال استكشاف المنطقة للتعرف على لغة السكان

وفولكلورهم، والعمل على اكتشاف الصحراء والطرق الرابطة بين شمال إفريقيا ومدن ممالك إفريقيا، وخاصة مدينة «تمبكتو».

كما ركّزت المدرسة على الأعمال الأثرية الخاصة بالجزائر بهدف إعادة بناء جغرافيتها القديمة، من خلال الكشف عن المدن الرومانية القديمة، مثل شرشال وتيبازة والأوراس، وإنشاء خرائط أبرزها: الأطلس الأثري للجزائر. إضافة إلى ذلك، قامت المدرسة بتصنيف المصادر المكتوبة والمخطوطات، ووضع فهارس لها، والعمل على ترجمتها وطبعها. (Doutté, 1905, pp. 438- 446)

أصبحت المدرسة بعد تأسيسها تشرف على اصدار «المجلة الإفريقية» إلى غاية استقلال الجزائر، وأصدرت أيضت «مجلة مدرسة الجزائر» سنة 1880 التي صدر منها عدد واحد فقط، كما أصدرت مجلة دورية سنة 1882 تحمل اسم «**نشرية المراسلات الإفريقية BULLETIN DE CORRESPONDANCE AFRICAINE**».

اهتمّت هذه المجلة بالعديد من المجالات، نذكر منها: التاريخ القديم لإفريقيا، خاصّة الكتابات الأثرية، سواء كانت رومانية أو أمازيغية. كما ساهمت في نشر التقارير والمراسلات التي أعدّها الباحثون الفرنسيون المختصون في الآثار، خاصّة الآثار الرومانية، ونشرت أيضًا العديد من الأعمال المترجمة من اللغة العربية والأمازيغية المكتوبة بالحروف العربية إلى اللغة الفرنسية.

توقفت المجلة عن الصدور سنة 1888، رغم الدور الكبير الذي قامت به في خدمة مصالح الفرنسيين، من خلال نشر مقالات تاريخية وأبحاث وكشوف جغرافية، مكنتها من إنجاز دراسات ببليوغرافية عن الآثار واللغة في الجزائر وتونس والمغرب، بالإضافة إلى الصحراء، خاصّة مدينة «تمبكتو» في «السنغال». (صدوقي، المدرسة التحضيرية العليا: مدرسة الآداب والحقوق أنموذجا (1879- 1909)، 2022، صفحة 649 652).

كما أنشأت المدرسة أيضاً «**جمعية الجغرافيا لمدينة الجزائر**» بتاريخ 3 في فري 1896 التي ترأسها في البداية العقيد «**دو بولينياك Colonel De Polignac**»، (Polignac, 1896, pp. 1-2) وأصدرت هذه المدرسة أيضاً سنة 1898 «**نشرية الجمعية الجغرافية لمدينة**

الجزائر Bulletin de la Sociéte Géographie d'Alger»، واستمرت في الصدور إلى سنة 1933.

ضمّت الجمعية عدة أساتذة وباحثين في الآثار والتاريخ والاقتصاد، بهدف نشر ودراسة المسائل المتعلقة بالجغرافيا والعلوم ذات الصلة، وتقديم المساعدة بكل الوسائل لكل الأبحاث التي تخدم مصالح فرنسا ومستقبل الأراضي التي تمارس نفوذها فيها، خاصّة تلك المتعلقة بالموارد والثروات التي تزخر بها «الجزائر».

كما اهتمّت الجمعية بالمعارف المتعلقة بالاستعمار والهجرة، وتعزيز السفر بما يساهم في فتح آفاق جديدة للتجارة والصناعة، وتساهم أيضًا في نشر كل المعلومات المتعلقة بالجغرافيا التجارية والصناعية والبحرية. (Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1903, p. XXVI)

ونتيجة تعدد مجالات نشاط الجمعية وأهدافها، قرر المشرفون عليها تقسيم جهودها إلى ثلاث أقسام: أولها قسم فني يهتم بفحص ودراسة العلوم الجغرافية ونشرها، أمَّا القسم الثاني فَيَختصُ بكل ما هو متعلق بالتجارة والصناعة، أمَّا القسم الثالث والأخير فيهتم بمسألة الاستعمار والهجرة. (كريمي، 2023، الصفحات 516 – 517).

اهتمّت المجلة أيضًا بالبحث الجغرافي لصحراء الجزائر وإفريقيا، واعتمدت في بحوثها على العسكريين بالدرجة الأولى، حيث نشرت تجاربهم، كما نشرت تقارير البعثات العلمية. بالإضافة إلى ذلك، اهتمّت المجلة بالبحث في تقاليد المجتمع الجزائري، خاصّة أبحاث «**جوزيف ديبارمي Joseph Desparmet**» الذي اختص بالأنثروبولوجيا في منطقة «متيجة»، وتطوّر الحركة الوطنية والنفسية الجزائرية من خلال النصوص الشعبية والفولكلور. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، صفحة 97).

ومن أبرز الذين تولوا رئاسة هذه المدرسة منذ تأسيسها وكان لهم دور كبير في مهامها، نذكر «إميل ماسكري Émile Masqueray». بالنظر إلى عدد الكتب التي ألّفها عن الجزائر، مثل: ترجمته لكتاب «تاريخ أبي زكريا» سنة 1878، وتأليفه لكتاب «مقارنة بين مفردات لهجة الزناغا السنغالية

والمفردات المقابلة لها في لهجات الشاوية»، ونشره أيضًا «مذكرة بشأن أولاد داود من جبال الأوراس» سنة 1879.

كما كتب «ماسكري» مقالًا عن «أنقاض قديمة من خنشلة (ماسكيولا) في بيسيراني»، نشره في المجلة الإفريقية في جزأين: الأول سنة 1878، والجزء الثاني سنة 1879. ومن كتبه الأخرى: «تشكيل المدن لدى السكان المستقرين في الجزائر: القبائل في جرجرة، الشاوية في الأوراس، بني مزاب» سنة 1886، بالإضافة إلى إصداره لقاموس لغوي بعنوان «قاموس فرنسي– طوارقي (لهجة تايتوق)» سنة 1893، وكتاب «تذكارات ورؤى من إفريقيا» الذي صدر سنة 1894. (Bernard, Biblographie Des Ouvrages et Articles Publiés Par M. Emile Masqueray, 1894, pp. 371-373)

كما يجب أن نشير أيضًا إلى مؤلفات «**رينيه باصيه René Basset**»، الذي تخصص في دراسة لغة وثقافة الجزائريين. ومن بين أبرز مؤلفاته: كتاب «حكايات شعبية بربرية» طُبع سنة 1887، كما ألف في هذه السنة كتاب «دليل اللغة القبائلية (لهجة الزواو): القواعد، الببليوغرافيا، مختارات من النصوص والمعجم».

ومن كتبه الأخرى: «دراسة عن زناتة وادي ميزاب ورقلة وادي ريغ» طُبع سنة 1893، و«تقرير عن الدراسات البربرية والإثيوبية والعربية 1887–1891» طُبع سنة 1892، و«دراسة حول اللهجات البربرية» سنة 1894، و«دراسة عن منطقة زناتة الأوراس والمغرب الأوسط» سنة 1895، بالإضافة إلى كتاب «حكايات أمازيغية جديدة، مجمعة ومترجمة ومعلقة» طُبع سنة 1897، و«بحث حول ديانة البربر» سنة 1910. كما شارك في تأليف كتاب «موسوعة الإسلام: معجم جغرافية الشعوب الإسلامية واثنوغرافيتها وسيرتها» سنة 1913. (Institut des hautes études marocaines, 1925, pp. 465-503)

ومن بين الذين ساهموا كذلك في دراسة تاريخ الجزائر، نذكر «**ستيفان غزال Stephane Gsell**»، وكذلك «سي اعمر أو سعيد بوليفة Ammar ou Saïd Boulifa»، اللذين قاما بدور كبير في تنشيط دور المدرسة في الجزائر.

فالمؤرخ «ستيفان غزال» يعد من أبرز المؤرخين الذين اهتموا بدراسة ماضي شمال إفريقيا وآثارها. ومن أبرز مؤلفاته:

- كتاب «المعالم الأثرية في الجزائر» الذي طُبع سنة 1901 في مجلدين، وبرز فيه أهم مواقع آثار الجزائر، إذ تحدّث عن آثار السكان القدماء والآثار الفينيقية والبونية، كما تناول بالتفصيل أنواع الآثار الرومانية والبيزنطية وميزات كل نوع منها.
- كتاب «التاريخ القديم لشمال إفريقيا» في 8 مجلدات، صدر المجلد الأول سنة 1913 والمجلد الثامن سنة 1928، وقد تمت ترجمة هذه المجلدات من طرف محمد التازي مسعود بإشراف أكاديمية المملكة المغربية سنة 2007. تناولت هذه المجلدات تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور حتى الاحتلال الروماني ونهاية مملكة موريتانيا.

أمّا «سعيد بوليفة» فهو جزائري من النخبة التي تلقت تعليمًا فرنسيًا، وتولى تدريس اللغة الأمازيغية لعدة سنوات. كما ترك العديد من المؤلفات باللغة الفرنسية، أبرزها:

- كتاب «مجموعة من القصائد القبائلية: نصوص زواوة»، وهو عبارة عن ترجمة وتعليق ودراسة عن المرأة القبائلية والعادات المرتبطة بالزواج، طُبع سنة 1904.
- كتاب «نصوص بربرية بلهجة الأطلس المغربي» صدر سنة 1908.
- كتاب «السنة الأولى للغة القبائلية لهجة زواوة»، كتاب خاص بالمترشحين للحصول على شهادة الكفاءة في القبائلية، صدر سنة 1910.
- «معجم المصطلحات فرنسي–قبائلي» طُبع سنة 1913.
- أما أبرز مؤلفاته في مجال التاريخ: كتاب «جرجرة عبر التاريخ: من العصور القديمة إلى عام 1830: تنظيم واستقلال زواوة (منطقة القبائل الكبرى)» الذي صدر سنة 1925، وتناول فيه تاريخ منطقة القبائل منذ فترة ما قبل التاريخ، وطبيعة سكانها، وعلاقتهم بالشعوب التي استقرت أو احتلت المنطقة منذ العهد القرطاجي حتى العهد التركي.

إذاً، فالبحث التاريخي الفرنسي في هذه المرحلة يكتسي طابع البحث العلمي، بالنظر إلى المجهودات الفرنسية في دعم الأساتذة المكلفين بالدروس، خاصّة في مدرسة الآداب ومدرسة الحقوق. وهو

ساهم في تعدد الدراسات والأبحاث الفرنسية المتخصّصة في تاريخ الجزائر. ومن أبرز نتائج هذه الجهود عقد مؤتمر الاستشراق، الذي سعت فرنسا من خلاله إلى تأكيد مقولة «الجزائر فرنسية». لذا سنتطرق فيما يلي إلى دور هذا المؤتمر في دعم الدراسات التاريخية الفرنسية في الجزائر.

2 – 3 – مؤتمر المستشرقين في الجزائر

عُقد مؤتمر الاستشراق بتاريخ 19 أفريل 1905 بمدينة الجزائر العاصمة، تحت إشراف الحاكم العام «شارل جونار Charles Jonnart» وبرئاسة «رينيه باصيه René Basset»، مدير المدرسة العليا للغات. شارك في هذا المؤتمر 500 عضو من مختلف البلدان والتخصصات، خاصّة في مجالات الآثار الرومانية والفن الإسلامي واللغات الشرقية والأنثروبولوجيا والتاريخ. (تونسي، الأهداف الاستعماريّة للاستشراق الفرنسي في الجزائر، 2025، صفحة 164)

ومن بين العرب الذين شاركوا في فعاليات المؤتمر، كان هناك ثلاثة جزائريون فقط: «محمد بن أبي شنب»، و«عبد الحليم بن سماية»، والقاضي «شعيب بن علي». (صدوقي، النشاطات التاريخية في الجزائر ودورها في تجسيد المشروع االستعماري (اطروحة دكتوراه)، 2022، صفحة 204)

استمر المؤتمر على مدار أسبوع كامل، واختتم يوم الأربعاء 26 أفريل 1905.خصّص المؤتمر للحديث عن مجموعة من القضايا؛ لذلك قُسِّمت أعمال المؤتمر إلى 7 لجان هي: المجموعة الأولى الهند وإيران، المجموعة الثانية اللغات السامية، المجموعة الثالثة اللغات الإسلامية، المجموعة الرابعة مصر، اللغات الإفريقية، مدغشقر، المجموعة الخامسة الشرق الأقصى، المجموعة السادسة اليونان والشرق، المجموعة السابعة الاثار الإفريقية والفن الإسلامي. (Congrès international des orientalistes, 1905, pp. 6-11)

خرج المؤتمر بمجموعة من الأعمال بلغ عددها 140 عملًا، بين مخطوطات تمت ترجمتها وطُبعت، مثل كتاب «سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس»، «لمحمد بن جعفر بن إدريس الكتاني»، وكتب أخرى تهتم بالتاريخ والأدب والجغرافيا والفلسفة. كما عالج المؤتمر أيضًا قضايا وشؤون محلية خاصةً بالجزائر، مثل اللغات البربرية وطقوس المجتمع ومعتقداته. (صدوقي، اللغة

العربية في سياقات مؤتمر الاستشراق العالمي المنعقد بالجزائر، أفريل 1905 بين اسهامات رواد المدرسة الاستعمارية وردود الفعل الوطنية اتجاهها، 2020، الصفحات 233-238)

ومن أبرز هذه البحوث التي صدرت عن المؤتمر حول الجزائر، نذكر أعمال المجموعة الثالثة التي ترأسها «محمد بن أبي شنب» وتم تخصيصها لـ:

- ❖ دراسة وترجم كتاب «أخبار الأئمة الرستميين في تيهرت» لابن الصغير، الذي يُعتبر من أبرز المصادر التي أرّخت للدولة الرستمية. قدَّم المؤرخ «أدولف موتيلنيسكي Adolphe Motylinski» هذا الكتاب، وقدم وصفًا للمخطوطة، مشيرًا إلى أنها تتضمن النص الكامل، ولا توجد نسخة أخرى مكتوبة باللغة المزابية.

كما أبرز القيمة التاريخية لهذا المخطوط، الذي كُتب في أواخر حكم الدولة الرستمية، أي سنة 190 هـ، مشيرًا إلى أنه لا يتمتع بالقيمة التاريخية الكبيرة التي بلغها كتاب «أبي زكرياء»، نظراً لأن كتابة «ابن الصغير» تحمل الطابع القصصي أكثر من السياسي.

لينتقل «مونتلينسكي» بعدها، للحديث عن المعلومات التاريخية الواردة في المخطوط حول الدولة الرستمية، مع إجراء مقارنة وإيراد تعليقات حول صحة هذه المعلومات. كما أشار إلى الصراعات التي جرت على الحكم بين أبناء «أفلح بن عبد الوهاب» في أواخر حكم الدولة لمدينة «تيهرت». ثم قام المؤلف بنشر مضمون المخطوط باللغة العربية، تلاه بترجمة فرنسية له. (Motylinski, 1907, pp. 3-132)

- ❖ الدراسة التي قام بها «أ. روبرت A. Robert» حول الفلكور الشعبي الجزائري، مؤكّدًا أنَّ هدفها فهم طريقة تفكير الجزائريين من خلال دراسة أخلاقهم وعاداتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم، معتمدًا في ذلك على ملاحظاته الشخصية لاستبعاد كل ما لم يتم التحقق منه أو المبالغة فيه. كما أبرز الباحث عادات الجزائريين وطقوسهم في حفلات ختان الأطفال، وعمليات البذر والحرث، وطرق حل النزاعات الخاصة بملكية الأراضي. وأشار إلى الأساطير المنتشرة بين السكان ومظاهر الاحتفالات، خاصةً ما يعرف محليًا بـ«الزردة» عبر المناطق المختلفة في الجزائر.

كما تناول المؤلف نمط حياة السكان وطريقة عيشهم، وكيف يقومون بحصاد القمح وطحنه، والمعتقدات المنتشرة بينهم، خاصةً عند بناء منازلهم أو رغبتهم في حماية أبنائهم، حيث يعمدون إلى رسم يد مفتوحة باللون الأزرق، أو وضع أساور، أو تعليق تمائم من الورق بعد أن يكتبوا عليها بعض الكلمات الصوفية للحماية من الأرواح الشريرة .ليختتم المؤلف دراسته بالإشارة إلى بعض العادات الأخرى المعروفة لدى الجزائريين، والتي يحافظون على ممارستها خاصةً في الأعياد والمناسبات الدينية، مثل يوم عاشوراء وعيد الأضحى وغيرها من الاحتفالات. (Robert, 1905, pp. 561 -578).

لذلك نقول أنَّ مدرسة الآداب منذ نشأتها، عكفت على إرساء دراسات معمقة حول المجتمع الجزائري؛ إذ لم يقف طموحها عند التوثيق التاريخي فحسب، بل امتد لتشريح الذهنية الجزائرية وفهم أنماط تفكيرها، وذلك في مسعى جوهري لتمكين المصالح الاستعمارية وترسيخ حضورها.

وأمام هذه الحيوية، سارعت الإدارة الفرنسية لإضفاء صبغة قانونية على نشاط هذه المدرسة وغيرها من المدارس التي أُنشئت في الجزائر. وعليه، قرر الفرنسيون إنشاء جامعة تجمع هذه المدارس وتشرف على أنشطتها، ولذلك أصبح من الضروري التوقف عند الدور الذي اضطلعت به هذه المؤسسة في دعم وتشجيع البحوث المتعلقة بالتاريخ، وهو ما سنعرضه فيما يلي.

2 –4 – جامعة الجزائر

بعد ما حققت الإدارة الفرنسية ما كانت تصبو إليه من تأسيس المدارس العليا، برزت فكرة تأسيس جامعة الجزائر، والتي تجسدت بإعلان تحويل المدارس العليا إلى جامعة الجزائر في 30 ديسمبر 1909. أمّا المدارس العليا نفسها، فتم تحويلها إلى كليات تابعة للجامعة، مما جعلها تشبه الجامعات الفرنسية في منح الشهادات دون الحاجة إلى التنقل إلى فرنسا لإجراء الامتحانات. (بغداد، التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية، 2015، صفحة 171)

ومن هذا المنطلق بدأت جامعة الجزائر عملها في تكوين الطلبة، ومنحهم شهادات الليسانس والدكتوراه في مختلف التخصّصات، لذا سنورد فيما يلي دور كل كلية تابعة للجامعة، مع التركيز على كلية الآداب بالنظر لعلاقتها المباشرة بتدريس التاريخ في الجامعة والبحث فيه.

2 -4 -1- كلية الحقوق

تعد سنة 1857 بداية الاهتمام الفرنسي بتدريس الحقوق في الجزائر من خلال تأسيس مدرسة القانون، كمُلحقة بالقصبة، تشرف على برنامج الأهلية وتحضير الطلبة لامتحان البكالوريا وشهادة الكفاءة في الحقوق، وخصّص لها مبلغ 50 ألف فرنك فرنسي. ثم صدر قانون 12 ديسمبر 1879، الذي سمح بإعطاء دروس على مستوى الليسانس، مع ضرورة إجراء الطلبة الامتحانات في إحدى الكليات فيما وراء البحار، لاسيما في «أكس أون بروفنس AIX-EN-PROVENCE» أو «مونبوليي MONTPELLIER». « (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, p. 56) ؛ وبصدور قانون 05ديسمبر 1885 تم الترخيص لمدرسة الحقوق بالجزائر بإجراء امتحانات الليسانس لطلابها بالجزائر.

لم ينصبَّ اهتمام هذه المدرسة على المنظومة القانونية الغربية فحسب، بل اتسع ليشمل دراسة القانون الإسلامي والقانون العرفي، وهو توجهٌ تُوّج في عام 1889 بالشروع في منح شهادة متخصصة في الدراسات التشريعية. ومع صدور القانون المؤرخ في 30 ديسمبر 1909، ارتقت المدرسة لتصبح «كلية الحقوق»، محتفظةً بهذا الكيان الأكاديمي الرصين لعقود من الزمن، حتى جاء عام 1957 ليشهد تحولاً نوعياً آخر؛ حيث صدر مرسوم في 26 أوت من العام نفسه، الذي قضى بتوسيع آفاقها العلمية لتتحول رسمياً إلى «كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية بالجزائر». (Ait Si Said, 1997, p. 258).

ورغم استقلال هذه الكلية بإصدارها الشهادات وإجراء الامتحانات للطلبة في الجزائر، دون التنقل إلى فرنسا، إلاَّ أنَّها بقيت وفية لخدمة مصالح الادارة الفرنسية التي تسعى لإدماج القضاء الجزائري وفق القوانين الفرنسية من خلال القضاة، الذين يتم تكوينهم في الشؤون الإسلامية خاصَّة مسائل الزواج والطلاق والمواريث. (خميلي، التعليم العالي في استراتيجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1879 – 1962) (أطروحة دكتوراه)، 2016 – 2017، صفحة 113)

ومن أبرز الذين نشطوا في كلية الحقوق نذكر: «لويس برينييه Louis Jack Bresnier» الذي اهتم بدراسة معاملات الجزائريين وفق الشريعة الإسلامية، مثل عقود البيع ومواثيق الدّيون، وكذلك عقود الزواج ومعاهدات الصلح وفض المنازعات وأحكام الميراث، خاصّةً ميراث المرأة والحالات التي

يواجهها الورثة في تقسيم التركة. (تونسي، الأهداف الاستعماريّة للاستشراق الفرنسي في الجزائر، 2025، صفحة 176)

ولم تقتصر إسهامات «لويس برينييه» على الجانب القانوني فقط، بل نشر أيضا العديد من الدراسات التي وثّقت ملامح من تاريخ الجزائر، وثقافة شعبها، ومن أبرز هذه المؤلفات نذكر:

- ترجمة ما «كتبه محمد بن بلقاسم الزاوي» عن «**حملة الباي محمد الكبير على شلالة**»، نشر في المجلة الافريقية المجلد رقم لسنة 1860، من الصفحة 175 إلى 186. وهو مقال مخصص لإبراز الظرف التي جعلت باي وهران محمد الكبير يقود حملة عسكرية على منطقة الشلالة – تابعة لولاية البيض حاليا-؛ والنتائج التي ترتبت عن هذه الحملة. (Bresnier, Expédition de Chellala par la Bey d'Oran, Mohammed El-Kebir, 1860, pp. 175-186)
- ترجمة وتحقيق كتاب «**الأجرومية**» الذي ألفه «أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي»، وهذا الكتاب عبارة عن متن في الإعراب، إذ قام «برينييه» بتحقيق وترجمة النص العربي مع إضافة بعض الشروح، وطبعه لأول مرة سنة 1846. (لشهب و جويبة، 2024، صفحة 319)
- كتاب «دروس عملية ونظرية في اللغة العربية»، طبع لأول مرة سنة 1846 ثم أعاد طبعه سنة 1855، في: 668 صفحة، وهو عبارة عن تدريبات لغوية نظرية وتطبيقية في مبادئ اللغة العربية. وتضمن أيضا شرح لقوانينها من خلال أمثلة تطبيقية، وتبسيط للصعوبات التي تواجه القارئ الأوروبي في تعلمها. (Bresnier, Cours pratique et théorique de langue arabe, 1855, pp. IX-XVI)

ولذلك، نقول أنَّ كلية الحقوق قدَّمت خدمة كبيرة لإدارة الاحتلال من خلال اطلاعها على النصوص الفقهية والتشريعات الإسلامية، وكان أساتذتها يعملون على ترجمة وشرح هذه النصوص ونشر المقالات والبحوث، لخدمة القضاء الفرنسي الذي استولى بالتدرج على صلاحيات القضاء الإسلامي.

2 -4 -2- كلية الطب والصيدلة

مدرسة أنشئت في العهد الاستعماري على أرض الجزائر، وبدأت نشاطها سنة 1833، يشرف على التدريس فيها أساتذة عسكريون في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة. كانت هذه المدرسة تقدّم دروسًا للطلبة الأوروبيين فقط، إلاّ أن مذكرة لوزير الحرب، صادرة بتاريخ 10 جوان 1833، سمحت بقبول الطلبة الأتراك والجزائريين المسلمين واليهود فيها. (Abid, L'école De Médecine D' Alger 150 Ans D'histoire: De 1857 à 2007, 2006, p. 10)

اقتصرت الدروس المقدمة في هذه المدرسة على علم التشريح والفسيولوجيا الوصفية، وأُوقفت الدراسة بها في سنة 1835 بقرار من «الجنرال كلوزيل». وفي عام 1854، صوت المجلس البلدي للجزائر العاصمة على قرار يقضي بإعادة فتحها، وفعلاً تم فتحها رسميًا بمرسوم مؤرخ في 4 أوت 1857، الذي أقر المواد التي يتم تدريسها في هذه المدرسة وشروط الالتحاق بها. (Rouland, 1857, pp. 131-134)

غير أنَّها لم تبدأ نشاطها الفعلي حتى 1859، وبصدور قانون 20-12-1879 المنشئ للمدارس العليا بالجزائر، تحولت المدرسة إلى مدرسة عليا للطب والصيدلة، ثم تحولت إلى كلية للطب والصيدلة تابعة لجامعة الجزائر بموجب وبموجب القانون المؤرخ في 30-12-1909، كما أسَّست هذه الكلية مجلة خاصَّة بها هي «مجلة الطب والجراحة في شمال إفريقيا» سنة 1922، والتي تغيَّر اسمها إلى «المجلة الطبية الجزائرية» بعد سنة 1927، كما أسَّست الكلية معاهد تابعة لها مثل: معهد الطب والصحة لما وراء البحار، معهد التقنيات النفسية والبيومترية، ومعهد طب الاسنان، وهو ما ساهم في تقدم نشاطات هذه الكلية مما دفع بالإدارة الفرنسية إلى انشاء فروع لهذه الكلية في كل من مدينة قسنطينة وهران سنة 1958. (Abid, L'école De Médecine D' Alger 150 Ans D'histoire: De 1857 à 2007, 2006, pp. 18-20)

2 –4 –3– كلية الآداب

تحولت المدرسة العليا للآداب هي الأخرى إلى كلية تابعة لجامعة الجزائر. تولى رئاستها «إميل ماسكري Émile Masqueray»، الذي يعدّ من أبرز المستشرقين الذين بحثوا في الجوانب الدينية والصوفية لبعض المناطق الجزائرية. وقد قال إنّ كل تاريخ شمال إفريقيا تاريخ ديني.

عند افتتاح مدرسة الآداب، عُيّن «ماسكري» أستاذًا للتاريخ والآثار القديمة في شمال إفريقيا، ثم تولّى إدارتها حتى وفاته سنة 1894م. كتب أبحاثًا عدة عن الجزائر، وأنشأ نشرةً سمّاها «المراسل الإفريقي». كما كلّفته إدارة الاحتلال بمهمّات بين السنوات 1875–1878م، حيث قام برحلة إلى الأوراس ثم إلى ميزاب، وكتب عن تاريخهم وعن الحياة الدينية وعن اللهجات الأمازيغية.

ومن أبرز المؤلفات التي كتبها «ماسكري» عن المجتمع الجزائري نذكر:

- ترجمة كتاب «تاريخ أبي زكرياء Chronique d'Abou Zakaria» لمؤلفه «يحي بن أبي بكر أبو زكريا الورجلانيَ»، ترجمه سنة 1878، وهو كتاب يتكوَّن من 410 صفحة يتحدَّث عن أخبار أئمة الدولة الرستمية وانجازاتهم.

- كتاب «**مقارنة بين مفردات لهجة زنقة السنغالية والمفردات المقابلة لها في لهجتي الشاوية وبني مزاب** « Comparaison d'un vocabulaire du dialecte des Zenaga du Sénégal avec le vocabulaires correspondants des dialectes des Chawia et des Beni Mzab»

طُبع هذا الكتاب سنة 1879، ويقع في حوالي 60 صفحة. وهو قاموس لغوي يقارن بين اللهجات المنتشرة في كل من السنغال والميزاب والشاوية، كما يبين أوجه التشابه والاختلاف بينها.

- ألف سنة 1893 «قاموس مزدوج فرنسي – تارقي لهجة تيتوك»، وهو عبارة عن معجم لغوي يتضمن كلمات بلغة التوارق، مكتوبة بحروف التيفيناغ، ثم بحروف لاتينية، تليها ترجمة معناها باللغة الفرنسية.

- كتاب «تشكيل المدن بين السُّكَّان المستقرين في الجزائر (قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب)».

« Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouïa de l'Aourâs, Beni Mezâb»

- كتاب «مذكرة بخصوص أولاد داود في جبال الأوراس»

« Note concernant les Aoulad-Daoud du Mont-Aurès (Aourâs)»

- كتاب «ذكريات ومشاهدات في إفريقيا Souvenirs et visions d'Afrique».

2- 5 - لجنة الاحتفال بمئوية الاحتلال

بدأت فكرة التحضير للاحتفالات المئوية لاحتلال فرنسا للجزائر منذ سنة 1923، عندما أصدر الحاكم العام للجزائر السيد «ث. ستيغ Th. Steeg» مرسومًا حكوميًا بتاريخ 23 ديسمبر 1923 لتشكيل لجنة مهمتها إعداد برنامج الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر. إلا أن هذه اللجنة لم تجتمع نهائيًا، مما دفع الرأي العام الفرنسي للتحرك لإقامة هذه الاحتفالات، فأقدمت الإدارة الفرنسية على تشكيل لجنة مكلفة بالإعداد لها، وهو تم فعلاً بتاريخ 25 مارس 1928. (Mercier G. , 1931, pp. 24-40)

بدأت هذه اللجنة عملها بتخصيص مبالغ مالية كبيرة لإظهار القوة العسكرية لفرنسا وتجسيد الروح الصليبية للاحتلال. لذلك، تم تكليف الحاكم العام «بيير بورد Pierre Bord» بالإشراف على التحضيرات، حيث رصدت السلطات الفرنسية ميزانية ضخمة للاحتفالات بلغت 93 مليون فرنك فرنسي. (بن حامد ، 2020، صفحة 158)

شملت الاحتفالات معارض للصور واستعراضات عسكرية، وإقامة نصب تذكارية لقادة الجيش الفرنسي، وإنشاء عدة منشآت جعلت الاحتفالات تستمر لمدة ستة أشهر كاملة، ابتداءً من شهر جانفي وحتى 5 جويلية 1930. كما طُبعت كتب وحوليات من قبل لجنة النشر، المكلفة بطبع كل الأعمال التي يُنجزها الباحثون الفرنسيون، وقد قُدّر عددها بحوالي 50 كتابًا متخصّصًا في المالية والتشريع والاقتصاد السياسي والعلوم والاستعمار والآثار والتاريخ والفنون. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، 1998، الصفحات 88-89)

ومن أبرز ما نتج عن هذه الاحتفالات الفرنسية من دراسات وأبحاث تاريخية متعلقة بالجزائر نذكر:

- انعقد المؤتمر الوطني الثاني للأبحاث التاريخية في الجزائر ما بين 14 و16 أفريل 1930، برئاسة «بيير بورد Pierre Bord» الحاكم العام، وبمساعدة «غوستاف مرسييه Gustave Mercier». وقد انطلقت أشغال المؤتمر يوم 14 أفريل 1930، واختُتمت بإصدار كتابٍ يتضمَّن الأبحاث التي تم استعراضها فيه، ومن بينها نذكر:

- **التاريخ القديم**: قدَّم الأستاذ «ألبرتيني Albertini» مدير الاثار في الجزائر مداخلة عن «أوستراكون بيزنطي في منطقة تبسة»، والأستاذ «ليسشي Leschi» تحدَّث عن «آخر حاكم وثني في شمال إفريقيا»
- **التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث**: مداخلة السيد «كانار Canard» بعنوان: «شخصية من رواية عربية بيزنطية»، والأستاذ «كارليا Charliat» بعنوان: «البحرية التجارية في عهد لويس 14 خاصَّة في بلاد الشام». (Société Historique Algérinne, 1932, pp. 9-10)
- **تاريخ شمال إفريقيا**: مداخلة السيد «كازيناف Cazenave» أستاذ في ثانوية الجزائر بعنوان: «مؤرخ إسباني لشمال إفريقيا»، والأستاذ «ميرسيول Mersiol» بعنوان: «إيالة الجزائر من خلال مذكرات ألماني في القرن 18 ميلادي»، ودراسة الأستاذ «جورج يافر Jorge Yver» عن «مسألة قسنطينة سنة 1837».

كما أصدر الأستاذ «ألفريد بيل Alfred Bel» مقال حول «أجزاء من القبيلة العربية 'بني هديل' في أسطورة القديسين»، ومقال «ملاحظات في علم الاجتماع الديني»، ومداخلة «غابريال إسكي Gabriele Esquer» بعنوان: «سياسة استرجاع اتجاه الجزائر (1827 – 1830).

- **التاريخ الحديث والمعاصر**: مداخلة السيد «مارسيل ماريون Marcel Marion» حول «كتيبة مرسيليا في 21 جانفيو السيد «هـ.كوي H.Koht» حول «تداعيات غزو الجزائر

على السياسة الاسكندنافية. (Société Historique Algérinne, 1932, pp. 9-11)

- انعقد كذلك المؤتمر الخامس للآثار يوم 14 أفريل 1930، برئاسة الحاكم العام «بيير بورديس Pierre Bordes»، وبمساعدة «ستيفان غزال Stephane Gsell».

تركَّزت مداخلات هذا المؤتمر على فترة ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا، ومن ذلك المداخلة التي قدَّمها «بوتش غيمبرا» حول «روابط حضارات العصر الحجري الحديث بين شمال إفريقيا وإسبانيا»، ومداخلة الأستاذ «أوبير ماير» حول «الفن الصخري في شمال إفريقيا»، ومداخلة الأستاذ «ألفريد بيل» عن الحفريات التي قام بها لتسليط الضوء على «عصور النخاسة في الإسلام». (صدوقي، النشاطات التاريخية في الجزائر ودورها في تجسيد المشروع االستعماري (اطروحة دكتوراه)، 2022، صفحة 120).

- إصدار كتاب: «**تاريخ ومؤرخو الجزائر** Histoire et historiens de l'Algérie»، والَّذي شارك في تأليفه العديد من أساتذة جامعة الجزائر، صدر هذا الكتاب سنة 1931 في حوالي 430 صفحة، وهذا الكتاب يتضمن العديد من الدراسات حول تاريخ الجزائر مع مقدِّمة للأستاذ «ستيفان غزال Stéphane Gsell»

ومن أبرز البحوث التي تضمنها هذا الكتاب نذكر:

- بحث الأستاذ «ريغاس ماوريس Reygasse Maurice» حول «العصور الحجرية في شمال إفريقيا (البربرية).
- بحث «ايلي ليبلانك Ely Leblanc» حول «مشكل البربر، دراسة اثنوغرافية فزيائية».
- دراسة حول «الجزائر في العصور القديمة» للأستاذ «ألبرتيني Albertini».
- دراسة الأستاذ «ج. زيلر J.Zeiller» حول «التاريخ القديم لإفريقيا المسيحية، تقدمها لمدة مائة عام».

بحث الأستاذ «وليام مرسييه Willem Marçais» عن «قرن من الأبحاث حول ماضي الجزائر المسلمة.

- بحث حول «احتلال واستعمار الجزائر «للأستاذ «جورج يافر».
- دراسة الأستاذ «غابريل إسكي» حول «مصادر تاريخ الجزائر». (Alazard, Albertini, & Bel, 1931)

2 – 6 – المعاهد الجامعية

بالإضافة إلى الدور الذي قامت به الجامعة في دراسة الجزائر وشعبها، تم تأسيس مجموعة من المعاهد التابعة لها، والتي ساهمت أيضًا في دعم أنشطة البحث التاريخي في الجزائر. وسنتطرق فيما يلي إلى أبرز هذه المعاهد والدور الذي قام به كل منها في خدمة مصالح الإدارة الفرنسية في الجزائر.

1 – معهد الجيولوجيا

اهتمت سلطات الاحتلال الفرنسي بالجانب الجيولوجي للجزائر، حيث ظهرت العديد من الدراسات حول التكوينات الجيولوجية للبلاد. ومن أوائل هذه الدراسات، نذكر ما قام به «الكابتان روزي Capitaine Rozet» حول المناطق الساحلية القريبة من الجبال في الجزائر ووهران. كما أنجز «بوبلاي فورنيسي Boblaye Fournissait»، سنة 1838 دراسة عن جيولوجيا منطقتي عنابة وقسنطينة، وقاد أيضًا «رينو Renou» سلسلة من الاستكشافات بين سنتي 1840 و1843، استطاع من خلالها إنجاز جرد عام للموارد المعدنية للمناطق التي احتلها الفرنسيون. (Savornin, 1931, pp. 105-107)

وفي الفترة الممتدة من سنة 1850 إلى 1889، توسع البحث الجيولوجي الفرنسي في الجزائر بشكل أكبر تحت إشراف إدارة المناجم، وبقيادة العديد من المهندسين الفرنسيين مثل «دوبوك Duboco»، و«هاردوين Hardouin»، و«جاكوب Jacob»، والجغرافي «نيكيز Nicaise»، و«بييردون Pierredon»، وغيرهم من الباحثين الذين كلفتهم إدارة الاحتلال الفرنسي بإعداد خريطة جيولوجية لمدينتي الجزائر ووهران.

كما أُجريت العديد من الأبحاث والدراسات خلال هذه الفترة حول جيولوجيا مدينة قسنطينة، بإشراف كبير المهندسين «تيسوTissot»، لتقوم الإدارة الفرنسية سنة 1882 بتأسيس هيئة رسمية مختصة في الجيولوجيا بدلاً من هيئة التعدين، وهي هيئة المسح الجيولوجي، (Savornin, 1931, p. 167)، والتي مكّنت الباحثين الفرنسيين من إعداد خريطة تفصيلية للجزائر وشمال الصحراء عام 1889. (Savornin, 1931, pp. 119-122)

وعقب تأسيس مدرسة العلوم بشكل رسمي سنة 1888، عملت هذه المدرسة على تشجيع الأبحاث والدراسات المرتبطة بالجانب الطبيعي للجزائر، وتطوير الدراسات الجيولوجية للمنطقة، خاصة بعد انعقاد المؤتمر الأول للجمعية الجيولوجية الفرنسية في الجزائر، ربيع سنة 1896، والذي حضره العديد من العلماء في مجالات الجيولوجيا والحفريات ورسم الخرائط. وقد تُوِّج هذا الاجتماع لاحقًا بإعداد الطبعة الثالثة المصححة لكتاب «الجزائر وشمال الصحراء» سنة 1900، بإشراف الباحث «بويان Pouyanne»، وبمشاركة «هنري جاكوب Henri Jacob» و«إميل فيشر Émile Ficheur». (Durand-Delga, 1991, pp. 5-6)

وبعد تأسيس جامعة الجزائر بشكل رسمي سنة 1909، نشطت الأبحاث الجيولوجية الفرنسية أكثر في الجزائر، نتيجة انتقال العديد من أساتذة السوربون إلى البلاد لإجراء أبحاثهم في المنطقة. نذكر من بينهم «جورج فلامان Georges Barthélemy Médéric Flamand» نائب مدير هيئة المسح الجيولوجي، وكذا «بريفز Brives»، و«ريبلين Réplelin»، و«جنتيل Gentil»، الذين تولوا مهام إعداد خرائط طبوغرافية للدائرة العسكرية، بلغ عدد صفحاتها بين سنتي 1895 و1914 حوالي 60 صفحة.

وبالإضافة إلى هذه الأنشطة، عملت هيئة المسح الجيولوجي، بإشراف كلية العلوم، على تشجيع الأبحاث والدراسات العلمية في شكل أطروحات دكتوراه حول الخصائص الطبيعية للجزائر، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تضاعفت الجهود العلمية في المناطق الجنوبية للبلاد للبحث والتنقيب عن البترول.

ومن بين الرسائل الجامعية التي ظهرت، نذكر الأطروحة التي قدّمها «لويس جلانجود Louis Glangeaud» سنة 1932 عن منطقة الجزائر الساحلية، مرفقة بخريطة جيولوجية للشمال الغربي للجزائر. كما قام مجموعة من الباحثين بإعداد خريطة سنة 1952، تتضمن مسحًا شاملًا للجزائر من الجوانب الطبوغرافية والجيولوجية والمعدنية. (Durand-Delga, 1991, pp. 6-10)

وبالنظر إلى ما قام به الباحثون الفرنسيون في تنشيط البحث الجيولوجي في الجزائر، أسست إدارة الاحتلال يوم 15 سبتمبر 1942 «المعهد التطبيقي للتنقيب المنجمي»، تحت وصاية كلية العلوم وبإشراف كل من مصلحة المناجم والخرائط، ومديرية المناجم لما وراء البحار، ومديرية المناجم لمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء.

وقد اهتم هذا المعهد بالبحوث الجيولوجية في الجزائر بشكل خاص، وفي المناطق التي احتلها الفرنسيون في قارة إفريقيا بشكل عام، من خلال البحث عن الثروات الباطنية لهذه الأراضي. كما يوفر المعهد تدريبًا تطبيقيًا لمدة سنة لكل من حصل على شهادة معادلة الأهلية، ليتم بعد ذلك توظيفهم في مختلف المناطق التابعة للاحتلال الفرنسي ضمن مجال تخصصهم. (خميلي، التعليم العالي في استراتيجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1879 – 1962) (أطروحة دكتوراه)، 2016 – 2017، الصفحات 133-134)

2 – المعهد الجغرافي

تأسس هذا المعهد رسميًا بتاريخ 10 أفريل 1921، كمعهد تابع لكلية الآداب بجامعة الجزائر، بعد موافقة مجلس الجامعة ووزير التربية العمومية والفنون. (Republique Française, 1921, p. 4566)

عُرف هذا المعهد، حتى قبل تأسيسه، باهتمام كبير من الإدارة الفرنسية، حيث شجّعت الباحثين والأساتذة في كلية الآداب على الاستكشاف الجغرافي للجزائر، وأنشأت في هذه الكلية قسمًا خاصًا بالدراسات الجغرافية. كما كانت الشهادات التي تمنحها كلية الآداب تحمل عنوان: «دبلوم الدراسات التاريخية والجغرافية.

ومن أبرز الذين كان لهم دور كبير في نشاط المعهد «أوغستين برنارد Augustin Bernard»، خاصة بعد تعيينه محاضرًا في جامعة الجزائر، حيث كرّس جهوده لدراسة سكان البدو ونمط حياتهم في الجزائر. ومن بين مؤلفاته نذكر:

- مقال «**تطور البداوة في الجزائر**» ألّفه بالاشتراك مع «ن. لاكروا N. Lacroix»، طبع سنة 1906 في مجلة «الحوليات الجغرافية Annales de géographie»
- ألف أيضاً مع «ن. لاكروا» كتاب «**اختراق الصحراء 1830– 1906**»، طبع سنة 1906 في حوالي 220 صفحة.
- كتاب بعنوان: «**تحقيق حول سُكَّان الريف للسُكَّان الأهالي في الجزائر**»، طبع سنة 1920 في حوالي 150 صفحة.
- إعادة طبع كتاب «**الجزائر**» للمؤلف «وال ماوريس Wahl Maurice» الذي ألّف سنة 1853، كما قام «أوغستين برنارد» بتصحيح الكتاب وإضافة معلومات جديدة له ضمن الطبعة الرابعة لهذا الكتاب سنة 1903.
- كما نشر المؤلف سنة 1937 مجلدين جغرافيين؛ الأول خاص بشمال إفريقيا والمجلد الثاني خاص بالصحراء وغرب إفريقيا، وشارك مع أستاذ كلية العلوم «و. فيشر» في إنجاز التقسيم الجغرافي للجزائر ومناطقها الطبيعية. (خميلي، جامعة الجزائر بين الاهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين الجزائريين 1909- 1956 (مذكرة ماجستير)، 2008 - 2009، صفحة 61)

كما ساهم في نشاط هذا المعهد عدد من الباحثين الفرنسيين، نذكر منهم «جون ديسبوا Jean Despois»، الذي اهتم بدراسة الجهة الشرقية للجزائر وجزء من تونس، حيث تميزت أبحاثه بالربط بين الجغرافيا والإنسان، وهي ميزة فريدة اختصت بها المدرسة الفرنسية في الربع الأول من القرن العشرين.

ومن أبرز الاعمال التي ألَّفها «جون ديسبوا»، إنجاز سلسلة من الدراسات المفصَّلة عن الجغرافيا البشرية لمنطقة فزان سنة 1946، ومنطقة الحضنة سنة 1953، ومنطقة جبال عمور سنة 1957. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, pp. 143-144)

إذًا، أرادت سلطات الاحتلال الفرنسي، من خلال إنشاء هذا المعهد، الكشف عن مظاهر التطور الاقتصادي والاجتماعي في الجزائر بشكل خاص وشمال إفريقيا بشكل عام، وإجراء عدة أبحاث في المناطق الصحراوية، خاصة الصحراء الكبرى، من أجل الكشف عن ثروات المنطقة واستغلالها بما يخدم مصالح الاقتصاد الفرنسي. وبالإضافة إلى ذلك، مكّن تأسيس هذا المعهد الفرنسيين من تنفيذ عدة عمليات كشف طبوغرافي لتحديد مسار الطريق الرابط بين شمال الجزائر وإفريقيا الغربية.

3 – معهد الدراسات الاستشراقية

تأسس هذا المعهد 8 جانفي 1934 لدراسة الإسلام والثقافة العربية خاصَّة دول شمال إفريقيا، (Marçais, institut d études orientales d'Alger, Samedi 20 Septembre 1947, p. 1). كما اهتم المعهد بالبحث المعمق عن الثقافة الإسلامية واللغة العربية وآدابها، مثل الدراسة التي أنجزها «السيد كارنير M.Carnerd»، على صيغة فعل المبالغة «فعالي» في اللغة العربية، ودراسة التي انجزها السيد «هـ. بيير H.Pérès»، حول الكتاب العرب المعاصرين، بالإضافة إلى دراسات أخرى حول التاريخ الإسلامي، كالدراسة أنجزها «روبرت برونشفيغ Robert Brunshvig» عن الدولة الحفصية التي حكمت تونس منذ القرن الثالث عشر. (Marçais, institut d études orientales d'alger, Samedi 27 septempre 1947, p. 1)

قُسِّم هذا المعهد إلى أربعة أقسام، هي: قسم التاريخ والآثار، الذي يهتم بدراسة فترة ما قبل التاريخ في منطقة الصحراء، كما اهتم أيضًا بالحضارة الإسلامية في إسبانيا وشمال إفريقيا، بالإضافة إلى دراسة مختلف النقوش الأثرية الموجودة في هذه المناطق. أما القسم الثاني، فمخصّص للغات، خاصة اللغات السامية واللهجات المنتشرة في شمال إفريقيا، سواء كانت عربية أم أمازيغية.

في حين اختص القسم الثالث بالآداب والفلسفة، واهتم بشكل خاص بدراسة المخطوطات وأقدم النصوص الإسلامية، وصولًا إلى دراسة نصوص ومقالات معاصرة من الشرق والغرب. أما القسم الرابع، فخاص بالعلوم الاجتماعية والقانون، وقد خُصّص لدراسة إثنوغرافيا المجتمع الأمازيغي، وعادات وتقاليد مجتمع شمال إفريقيا بشكل عام، بالإضافة إلى دراسة الجغرافيا البشرية والتشريعات القانونية في الجزائر وتونس والمغرب. (Mélia, 1950, pp. 204-205).

4 – معهد الدراسات الصحراوية

تأسس هذا المعهد بموجب المرسوم الرئاسي بتاريخ 20 جويلية 1937، (la République française, 1937, p. 8338)، ضمَّ هذا المعهد عدة تخصّصات من كليات الطب والصيدلة، والحقوق، والعلوم، والآداب، بهدف اكتشاف الصحراء وإمكاناتها الاقتصادية، بالإضافة إلى تخصصات: الأنثروبولوجيا، وفترة ما قبل التاريخ، واللغويات. (Hardy, 1942, p. 8).

ضبطت نشاطات هذا المعهد في مرسومه التأسيسي، وفق ثلاث مهمات أساسية هي: «التوثيق – الاستكشاف – النشر، كما ضمَّ هذا المعهد حوالي 50 عضواً من الضباط والمهندسين، بالإضافة إلى الأطباء والمبشرين والباحثين في مختلف العلوم، خاصَّة علم النبات والجيولوجيا. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, pp. 163-165)

مَوَّل المعهد العديد من الأنشطة البحثية الفرنسية في الصحراء الجزائرية ودول الساحل الإفريقي، كما ساهم في ظهور العديد من الدراسات في مختلف المجالات نذكر منها:

- **علم الآثار:**
  - الدراسة التي أنجزها «غاي جوليان Guey Julien»، بعنوان: «ملاحظات حول الحدود الرومانية في نوميديا والصحراء الكبرى في القرن الرابع»؛ وهي مزيج من الدراسة الأثرية والتاريخية، وقد صدر هذا المقال سنة 1940.
  - الأبحاث التي قام بها «ألفريد ميرلين Alfred Merlin»، بعنوان: «ملاحظات حول نقوش طرابلس».
- **الجغرافيا والجغرافيا البشرية:**

- الدراسات التي أنجزها «روبرت كابوت-ري Robert Capot-Rey» عن الصحراء، من بينها دراسة بعنوان: «حركة السكان في منطقة الجنوب»، صدرت سنة 1940، وبحث حول: «مشاكل الواحات الجزائرية سنة 1944». كما ساهم، رفقة الدكتور «ماركيسMarcais»، في إنجاز دراسة حول: «استخدام سكان الصحراء للمحراث». (Despois, 1958, p. 525)
- نشر «كابوت راي» بحثاً آخر حول: «مشاكل الصناعة في الجزائر» سنة 1948، وبحث عن «مشاكل شمال إفريقيا من خلال بعض الأبحاث الحديثة» سنة 1950، كما أنجز بحثا حول «منابع المياه المعدنية في الصحراء الفرنسية»، سنة 1957. (Jean, Pierre , & Françoise , 1978, pp. 74-77)

➢ **الدراسات التاريخية:**

- دراسة باللغة الإنجليزية أنجزها «تورنبول باتريك Turnbull Patrick» عنوانها: «اكتشاف الصحراء، قصة عظيمة عن اكتشاف الصحراء الفرنسية» طبعة سنة 1940.
- دراسة «ريغاس ماوريس Reygasse Maurice» بخصوص: «حضارات ما قبل التاريخ في الصحراء الشرقية، العلاقات البدائية مع العالم المتوسطي.» سنة 1940. (Institut de recherches sahariennes, 1942, pp. 192,195)
- دراسة «مارتن.هـ Martin.H» خصصها لدراسة: «قبائل الساحل الموريتاني ووادي الذهب، ج1: أولاد بوسباع» طبعت سنة 1941.
- الدراسة التي أنجزها كل من «لافورج.ب Laforgue.P» و «موني.ر Mauny.R» عن: «مساهمة في عصور ما قبل التاريخ لمنطقة تشيث (موريتانيا). طبعت سنة 1942. (Institut de recherches sahariennes, 1943, pp. 207,209)

➢ **الدراسات الاثنوغرافية:**

- دراسة «أندري باسييه André Basset»، وتتمحور حول: «اللغة البربرية في الجهة الجنوبية» سنة 1941.

- دراسة «كانتينو.ج Cantineau.J »، بخصوص «الناطقون بالعربية في الجهة الجنوبية» سنة 1941.
- دراسة «جورج مارسييه Georges Marçais» بعنوان: «المزابيون والبربر عبدة الجزائر» سنة 1941. (Institut de recherches sahariennes, 1943, pp. 206,208)
- كما موَّل معهد الدراسات الصحراوية العديد من المهام الاستكشافية للصحراء، من أبرزها مهمة فزان بين سنتي 1944 و1945، التي ضمّت 12 عالما، ساهموا في دراسة المنطقة بشكل مفصّل، خاصة في الجوانب الإثنوغرافية والجيولوجية، إضافة إلى دراسة تاريخ المنطقة ولغاتها وآثارها.
- بالإضافة إلى تنظيم مهمة إلى «تاسيلي ناجر» سنة 1949 برئاسة الأستاذ «ف. برنارد F. Bernard»، وأسفرت عن اكتشافات جُمعت في ثلاث مجلدات. كذلك موّل المعهد مهمة إلى «تشاد»، وتحديدًا إقليم «بوركو» (Borkou) سنة 1956، نتج عنها إصدار مذكرات حول: «زهور تبستي»، ودراسة عن «الجغرافيا البشرية لإقليم بوركو». (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, p. 164)

5 – المعهد العالي للدراسات الإسلامية 1946

تأسس هذا المعهد الجامعي في شهر أكتوبر سنة 1946، ويشرف على التدريس فيه أساتذة من كلية الحقوق وكلية الآداب، بالإضافة إلى أساتذة التعليم الثانوي الذين يدرّسون في الثانويات الفرنسية الإسلامية. ويقدّم المعهد دروسًا في الثقافة العربية الإسلامية لكل من حصل على شهادة البكالوريا من المدارس الثانوية التابعة للدراسات الفرنسية الإسلامية، كما يسمح لغير الحاصلين على البكالوريا بدخول المعهد بعد اجتيازهم امتحان القبول. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, pp. 169-170)

يُدَرَّس في هذا المعهد باللغة العربية عدة تخصصات، هي: الفلسفة الإسلامية، اللغة العربية وآدابها، البلاغة والعروض، الشريعة الإسلامية، علم الكلام، تفسير القرآن الكريم، شرح الحديث النبوي

الشريف، ترجمة النصوص الأدبية والصحفية، النصوص القانونية والنصوص الإدارية، بالإضافة إلى تدريبات علمية في القواعد وعلم الأصوات.

أما فيما يخص التدريس باللغة الفرنسية، فيُقَدَّم في المعهد دروس عن: الحضارة الفرنسية، تمارين خاصة باللغة الفرنسية، تاريخ وجغرافية العالم الإسلامي، القانون الإداري والتشريعات المالية، القانون المدني، خاصة قانون الأسرة والميراث، الاقتصاد السياسي، التشريع الجزائري، التشريع الإسلامي المقارن، القانون الدستوري، الإجراءات المدنية وقوانين التنفيذ، بالإضافة إلى تقديم تمارين عملية لطرق التدريس. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, p. 170)

كما يضمن المعهد للطلاب ثلاث خيارات للدراسة، هي:

- **الخيار القانوني**: يختص بدراسة القضايا الإسلامية تحديدًا، ويهدف إلى تدريب القضاة المسلمين – وفق ما يخدم مصالح الإدارة الفرنسية–.
- **الخيار الأدبي**: يدرس فيه الطلاب اللغة العربية وآدابها، بالإضافة إلى الشريعة الإسلامية، ويهدف هذا الخيار إلى تكوين معلمي المرحلة الابتدائية والثانوية.
- **الخيار المختلط**: يمزج بين دراسة العلوم الإسلامية والقانون، ويهدف إلى تهيئة موظفي الخدمة المدنية للإدارة العامة والمترجمين الفوريين. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, pp. 170-171)

6 – معهد الإثنولوجيا

أسس هذا المعهد بموجب قرار 31 مارس 1956، كمعهد تابع لجامعة الجزائر، (Republique Française, 1956, p. 3336) ، بهدف تنظيم وتنسيق البحوث والدراسات المتعلقة بإثنولوجيا منطقة شمال إفريقيا في مجالات محددة، وهي: الأنثروبولوجيا الطبيعية، ما قبل التاريخ، التاريخ البدائي والتاريخ الحالي.

كما أنجز المعهد أبحاثًا حول الظروف المادية والبشرية للبنية الأنثروبولوجية، وعلم الأوبئة والطفيليات، والجغرافيا البشرية، والديموغرافيا، بالإضافة إلى دراسة أساليب الحياة والعلوم المرتبطة بشمال إفريقيا، خاصَّة علم الاثنوغرافيا وعلم الاجتماع.

تستغرق الدراسة في هذا المعهد سنتين للحصول على الدبلوم، إذ يجتاز الطلبة اختبارًا كتابيًا يتضمن كتابة أطروحة يختارها الطالب بعد موافقة مدير الدراسة. كما يدرس الطلاب في المعهد ثلاثة أقسام: الاثنولوجيا العامة، علم آثار ما قبل التاريخ، والتكنولوجيا المقارنة والأنثروبولوجيا الاجتماعية. (Gouvernement Générale d' Algérie, 1959, p. 187)

2 – 7 – تأسيس المكتبة الوطنية وأرشيف الجزائر

تعود فكرة إنشاء مكتبة فرنسية في الجزائر إلى السنوات الأولى من الاحتلال، إذ ارتبطت بالفيلسوف والباحث «جنتي دي بواسييه» سنة 1832، لكن التأسيس الرسمي تم عام 1835 في عهد الجنرال «كلوزيل»، على يد كاتبه الخاص «أدريان بربروجر Adrien Berbrugger»، الذي تمكن من جمع حوالي 700 مخطوط من مختلف مناطق الجزائر، خاصَّة بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة، حيث حصل على آلاف المخطوطات المزخرفة باللغة العربية والفارسية. (ريسلير، 2016، صفحة 384).

لم يُخصَّص لهذه المخطوطات مكان مناسب، فوضعت أولًا في ثكنة عسكرية بالعاصمة، ثم نُقلت إلى باب عزون سنة 1838، حيث فتحت أبوابها للجمهور الفرنسي. ومع ذلك، تغيّر مقر المكتبة عدة مرات حتى سنة 1863، حين نُقلت مقتنياتها إلى قصر «الداي مصطفى باشا» (قصر الرياس) بالقصبة، وظل هذا المقر إلى غاية سنة 1958، حين نُقلت المكتبة إلى مبنى في شارع فرانس فانون قرب قصر الحكومة. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي 1830 - 1954، 1998، الصفحات 340-350)

أمَّا بالنسبة لمؤسسة الأرشيف في الجزائر، فلم يختلف وضعها كثيرًا عن المكتبة الوطنية الجزائرية، حيث كلفت الإدارة الفرنسية «بروسبير جيرارد Prosper Gérardin» بإدارة الأرشيف. وفي سنة 1860، تم تأسيس «دائرة الأرشيف» وجعلها تحت وصاية الحكومة العامة مباشرة، كما تم تعيين

«ألفونس ليموس دي فودوراد Alphonse Lemoce de Vaudoura» أمينًا للمكتبة والأرشيف بتاريخ 26 يوليو 1860، في وزارة الجزائر والمستعمرات. (Esquer, Les archives algeriennes et les sources de l'histoire de la Conquete, 1912, pp. 1-6)

وفي الفترة الممتدة من 1861 إلى 1908، عرفت مؤسسة الأرشيف الفرنسي في الجزائر تراجعًا كبيرًا، خاصَّة بعد وفاة «إيلي دي بريموداي Elie de la Primaudaie»، الذي خلف «دي فودوراد» في مصلحة الأرشيف، حيث تم إهمال مصلحة الأرشيف الجزائري. وفي عام 1906، تم تعيين «راؤول بوسكيه» أمين الأرشيف وعالم الخطوط القديمة، لكنه لم يمكث في منصبه سوى عامين، ومع ذلك استطاع إقناع الحاكم العام « شارل جونار Charles Jonnart»، بتوقيع مرسوم 6 أبريل 1908، الذي أنشأ قسم الأرشيف في مكتب الحاكم العام، واتخاذ جزء من الطابق الأرضي لمبنى الحاكم العام مقرًا له .فبدأت بعد ذلك عمليات نقل السجلات، بما في ذلك سجلات الاستيطان والغابات والمحاسبة والتجارة وغيرها. (Esquer, Les archives algeriennes et les sources de l'histoire de la Conquete, 1912, pp. 6-15)

أمَّا في الفترة الممتدة من سنة 1908 إلى 1942، فقد شهدت مصلحة الأرشيف الفرنسي في الجزائر تغييرات كبيرة، بفضل تنظيم وفهرسة الوثائق حسب كل مصلحة، خاصَّة بعد تولي «غابرييل إسكي Gabriel Esquié»، مهام أمين الأرشيف ومدير المكتبة الوطنية في 29 ديسمبر 1908، واستمر في هذا المنصب حتى عام 1942.

كما بذل «غابريال إسكي» جهودًا كبيرة لتزويد الأرشيف بقاعة مخصصة للقراءة، مما استدعى توفير مكتبة لاستيعاب الجمهور وتوظيف شخصين لمساعدته، هما كاتب وموظف استقبال. كما نجح بفضل نشاطاته في الحصول على مبنى خاص بالأرشيف سنة 1933، بعد تغيير مقر الحكام العام للجزائر. ووضع خطة لتصنيف الوثائق في هذا القسم إلى قسمين: قسم للوثائق التي تعود إلى ما قبل الغزو، وقسم آخر للوثائق التي صدرت بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر. (Dion, 2017, p. 309)

وفي 16 مارس 1942، تولى «إميل ديرمنغيم Émile Dermenghem» مهامه كمسؤول عن الأرشيف، بعد أن تم تعيين «غابريال إسكي» مديرًا للمكتبة الوطنية، وظل في هذه المهام إلى غاية تقاعده في 3 جانفي 1962. ورغم بروز مشكلة عدم كفاية المبنى، التي كانت تشكل عقبة متكررة أمام تنظيم الأرشيف، إلا أن «إميل ديرمنغيم» بذل جهودًا معتبرة في تجميع العديد من الفهارس، منها فهرس سلسلتي المراسلات العامة «E وEE» وسلسلة «H» الخاصة بشؤون المسلمين والصحراء، وكذا سلسلة «L» الخاصة بالاستعمار، والتي كتبها بخط يده. كما قام أيضًا بوضع فهارس المؤلفين لثلاثين ألف عمل جمعتها الإدارة الفرنسية. (Boyer, 1971, pp. 523-525)

هاتان المؤسستان ساهمتا بشكل كبير في تشجيع الدراسات التاريخية في الجزائر، من خلال تقديم الدعم المادي للباحثين الفرنسيين، بما توفرانه من وثائق ومصادر للبحث في تاريخ الجزائر. ومن أبرز الشخصيات الفرنسية التي تولت مهمة الإشراف على المكتبة الوطنية واستفادت بشكل كبير من تأسيس مصلحة الأرشيف في الجزائر، نذكر الباحث الفرنسي «غابريال إسكي Gabriel Esquer»، الذي ألَّف العديد من الكتب، أبرزها:

- كتاب «**بدايات إمبراطورية: الاستيلاء على الجزائر Les Commencement d'un Empire, La Prise D'Alger**» الذي طبع سنة 1923 في الجزائر في: 477 صفحة، قسَّمه المؤلف إلى مقدِّمة و14 فصلاً.

حيث خصّص «إسكي» المقدِّمة لإبراز أهمية كتابه، وذكر فيها المؤلفات التي أُلّفت عن مرحلة بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

أما فصول الكتاب، فتناول فيها المؤلف مسألة ديون التجار اليهود بكري وبوشناق، بدءًا من البدايات التاريخية لهذه المسألة وتأثيرها على العلاقات الجزائرية الفرنسية. كما أشار إلى المفاوضات بين فرنسا والجزائر بشأن هذه الديون، وما تبعها من بروز حادثة المروحة والتجهيزات التي قامت بها الحكومة الفرنسية لإنجاح حملة احتلال الجزائر. وتطرق المؤلف أيضًا إلى المناقشات والتجهيزات العسكرية التي أُعدت في فرنسا، إضافة إلى المحادثات التي أجراها الفرنسيون مع إنجلترا.

(Esquer, Les commencements d'un empire: la prise d'Alger, 1923, pp. 1-205)

ووضَّح لنا «غابريال إسكي» في كتابه هذا أيضاً المسار الذي ابتعته الحملة منذ انطلاقها من ميناء طولون جنوب فرنسا مرورا بجزيرة «بالما»، ثم الأنزال البحري الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج، وتحدث أيضاً عن المعارك التي خاضها الجيش الفرنسي ضد الجيش العثماني في سواحل سيدي فرج، ثم معركة سطاوالي، لينتقل بعدها لتبيان مضمون معاهدة الاستسلام، وانتقال السلطة إلى «الجنرال دي بورمون». (Esquer, Les commencements d'un empire: la prise d'Alger, 1923, pp. 207-464)

- نشر أيضاً مقال في المجلة الإفريقية بعنوان: «**بدايات الإدارة المدنية في الجزائر Les Débuts de L'administration Civile a Alger**»، ثم نشره في شكل كتاب سنة 1912 ضمن: 40 صفحة.

تناول في هذه الدراسة البدايات الأولى للإدارة المدنية الفرنسية في الجزائر، بدءًا من 1 ديسمبر 1831، تاريخ تأسيس أول إدارة مدنية برئاسة «البارون بيشون Le Baron Pichon».

كما شرح المشاكل التي واجهت تسيير هذه الإدارة، خاصَّة في ظل الصراع الفرنسي بين منح الصلاحيات للحاكم العام العسكري والفصل بين مهامه ومهام المكلف بتسيير الإدارة المدنية. كما بيَّن «غابريال إسكي» المساعي التي بذلها «البارون بيشون» لترسيخ الإدارة المدنية، خاصَّة في مدينة الجزائر، منذ تعيينه مسؤولًا عنها وحتى صدور مرسوم 12 مايو 1833، الذي جعل الحاكم العام للجزائر المسؤول المباشر عن المندوب المدني. (Esquer, Les Débuts de L'administration Civile a Alger, Le Personel, 1912, pp. 3-40)

- كتاب «**الأرشيف الجزائري ومصادر تاريخ الغزو Les Archives Algériennes et les Sources de l'Histoire de la Conquête**»، الذي طبع سنة 1912، ضمن 63 صفحة.

خصّصه للحديث عن نشأة مصلحة الأرشيف في الجزائر، والتطورات التي عرفتها هذه الإدارة منذ بداية الاحتلال، كما خصّص «إسكي» كتابه هذا لتقديم وصف لأبرز الكتب والوثائق الارشيفية الخاصة بمرحلة الغزو الفرنسي للجزائر، من سنة 1830 إلى 1890. (Esquer, Les archives algeriennes et les sources de l'histoire de la Conquete, 1912, pp. 1-63)

بالإضافة إلى الكتب السابقة الذكر، ألَّف «غابريال إسكي» (Gabriel Esquer) العديد من الكتب والمقالات الخاصة بمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر، امتدت من 1830 إلى 1961، حتى وفاته.

ومن بين أهم هذه المؤلفات، الكتب الخاصة بمراسلات قادة الجيش الفرنسي في الجزائر، مثل: مراسلات «الدوق دو ريفيقو Duc de Rovigo»، التي نشرها في أربعة أجزاء، إذ صدر الجزء الأول والثاني سنة 1914، بينما نُشر الجزء الثالث والرابع سنة 1924. كما نشر أيضًا مراسلات «الماريشال كلوزيل» في جزئين سنة 1948، والتي تضم كل المراسلات التي بعثها الحاكم العام «كلوزيل» في الفترة من سنة 1835 إلى 1837.

خلاصة

من خلال ما سبق ذكره، يمكن القول إنَّ الأسطوغرافيا التاريخية تهتم بالدرجة الأولى بتحليل طبيعة الكتابات التاريخية التي تركها المؤرخون في مختلف مراحل التاريخ. أمَّا الأسطوغرافيا الاستعمارية، فتركز على تحليل وتفسير نظرة مؤرخي فترة الاحتلال الأوروبي لقارات إفريقيا وآسيا وأمريكا، وكشف التوجهات التي اتبعتها هذه الكتابة في ترسيخ فكرة الاستعمار الأوروبي لهذه الشعوب.

وقد بيَّنا ذلك من خلال التطرق إلى نماذج من الكتابات التاريخية الكولونيالية الفرنسية عن الجزائر، سواء قبل الاحتلال أو بعده. إذ لوحظ أن هذه الكتابات، رغم اختلاف أنواعها وتوجهات مؤلفيها، كانت تهدف في جوهرها إلى دراسة المجتمع الجزائري والتعرف على نقاط قوته وضعفه بشكل مفصَّل، بهدف تمكين الفرنسيين من إدارته وفق ما يخدم مصالحهم فقط.

كما نؤكد أنَّ الأسطوغرافيا الفرنسية، سواء قبل الاحتلال أو بعده، غلب عليها الطابع الوصفي لجغرافية المنطقة وعادات وتقاليد سُكَّانها، انطلاقًا من غاية فهم الشعب ودراسة ذهنيته، كما اهتمت بمعرفة نقاط ضعف الجزائر الساحلية لتسهيل عملية الاحتلال. ولا شك أن التقارير التي أعدها جواسيس الإدارة الفرنسية خير دليل على ذلك، فقد اعتمدت فرنسا على هذه التقارير بشكل كبير خلال عملية الإنزال، وبعد توقيع معاهدة الاستسلام، حيث عمد الفرنسيون إلى احتلال المناطق التي لديهم معلومات أفضل عنها، فاحتلوا مدينة وهران سنة 1830، ثم مدينة عنابة سنة 1832. ويُظهر ذلك الدور الكبير الذي لعبته الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر قبل الاحتلال في تسهيل مهمة الغزو، والتوغل في الأراضي الجزائرية، واحتلال المدن الساحلية، وجعلها نقاط انطلاق نحو المناطق الداخلية والجنوبية.

أمَّا الأسطوغرافيا الفرنسية بعد الاحتلال، وفي الفترة الممتدة من 1830 إلى 1870، فقد تميزت بسيطرة الضباط العسكريين وموظفي الإدارة العسكرية الفرنسية، وركزت بشكل خاص على دراسة أسباب مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي، وسعت في الوقت نفسه إلى توسيع الهيمنة الفرنسية على بقية المدن. كما ظهرت في هذه الفترة العديد من الكتابات التي حرصت على دراسة الجانب الاثنوغرافي للمجتمع الجزائري وفهم دينه بشكل أفضل.

أما في الفترة الممتدة من 1870 إلى غاية الاستقلال سنة 1962، فقد برزت نزعة علمية أكبر، مع ظهور هيئات علمية ومؤسسات بحثية أدارها أساتذة جامعيون. ومع ذلك، لم تختلف هذه الكتابات في غايتها عن الكتابة التاريخية في عهد الإدارة العسكرية، إذ كانت تهدف أساسًا إلى خدمة مصالح الاستعمار الفرنسي وضمان استمرار هيمنته الكاملة على ثروات الجزائر.

ومن بين الذين ساهموا بشكل كبير في ترسيخ فكرة الهيمنة الفرنسية على الجزائر، ولعبوا دورًا مهمًا في تفعيل دور الجامعة الفرنسية والمشاركة في فعاليات لجنة الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر، كان لهم دور بارز في النشاطات البحثية والاستكشافية في مختلف معاهد جامعة الجزائر، وإصدار العديد من المؤلفات حول تاريخ الجزائر، نذكر منهم «**إميل فليكس غوتييه** Emile-Félix Gautier». وسنتطرق في الفصول الموالية إلى مختلف أعماله، ونظرته لمراحل تاريخ الجزائر، والإشكالات التي أوردها في مؤلفاته عن المجتمع الجزائري، وهي المحاور الأساسية لدراستنا.

الفصل الثاني:

التعريف بإميل فليكس غوتييه

وبـمؤلفاته

أولاً: نبذة عن حياة بإميل فليكس غوتييه

ثانياً: دراسة بيبليوغرافية وصفية لمؤلفات إميل فليكس غوتييه

تمهيد

تمثّل حياة «إميل فيليكس غوتييه» نموذجًا لرجل وُلد في ظل ازدهار الاستعمار الفرنسي، ومات في ظلّ الظروف نفسها؛ إذ لم يكن يتصوّر أن يأتي يوم تفقد فيه الدول الاستعمارية مستعمراتها. ولتبرير الواقع الاستعماري الذي فرضته هذه الدول على الشعوب المستعمَرة بالقوة، عكفت الأقلام الاستعمارية على تقديم تفسيرات علمية وتبريرات مكسوّة بطابع أكاديمي. وهذا ما تجسّده حياة مؤلفنا «إميل فليكس غوتييه»، الذي واكب الاستعمار الفرنسي في توسعه في مدغشقر، كما زار إفريقيا الغربية الفرنسية، ومصر، والسودان، في مهام استكشافية علمية، ونشط كذلك في جامعة الجزائر التي كانت تمثّل معقل الأيديولوجيا الاستعمارية.

وقبل الدخول في دراسة وتحليل مؤلفات «إميل فيليكس غوتييه» ومنهجه وخلفياته الإيديولوجية، من المهم في البداية استعراض حياته (biographie). لأجل فهم عصره والظروف التي أثرت فيه، بعدها نقوم بعرض بيبليوغرافي(bibliographie) للكتب والمقالات التي نشرها في مختلف المجلات.

أولاً:

التعريف بإميل فليكس غوتييه

1 – مولده ونشأته

لا تقدّم لنا المراجع التي تناولت حياة المؤلف «إميل فيليكس غوتييه Emile-Félix Gautier» معلوماتٍ كثيرة عن طفولته أو عن المراحل الدراسية التي مرّ بها حتى التعليم الثانوي؛ إذ وجدنا أنَّ كل ما كُتب عن شخصيته أنه من أصل «أوفيرني Auvergnat»، وُلد يوم 29 أكتوبر 1864 ببلدة «كليرمون فيران Clermont-Ferrand». (Maurice, 1942, p. 180).

أبوه صيدلي اسمه «ألفنوسو أغست غوتييه Alphonse Auguste Gautier»، وأمه «أنطوانيت كلودين دوشيه Antoinette Claudine Duché». (Comité des travaux historiques et scientifiques, 2022)

تحصّل «غوتييه» على شهادة البكالوريا سنة 1881، ثم انتقل إلى المدرسة العليا سنة 1884 لدراسة التاريخ، وعمره لا يتجاوز 20 سنة. وبقي في هذه المدرسة لمدة ثلاث سنوات، تحصّل خلالها على شهادة الليسانس في التاريخ، ثم اشتغل بعد ذلك مدرسًا للتاريخ والجغرافيا في «ثانوية كوتونس Collège de Coutances». وفي سنة 1887 قدّم طلبًا للانضمام إلى مجمع المؤرخين بفرنسا، لكن طلبه قوبل بالرفض. (Courtois, 1940, p. 336)

لذلك قرّر «غوتييه» الحصول على إجازة من التعليم، استغلّها للذهاب إلى ألمانيا، حيث استقر في مدينة «نانسي Nancy». وقد أتاحت له هذه الإقامة الحصول على شهادة في تدريس اللغة الألمانية، كما مكّنته من الاحتكاك بالمؤرخين الألمان والمشاركة في مؤتمر للمؤرخين عُقد سنة 1891. وبعد هذا المؤتمر انتقل إلى مدينة باريس لطلب إجازة أخرى من التعليم، استغلّها للسفر إلى جزيرة مدغشقر. (Larnaude, E.-F. Gautier (1864-1940), 1940, pp. 75-76)

2 – سفره إلى مدغشقر ونشاطاته فيها

بعد أن تمكّن الفرنسيون من احتلال جزيرة مدغشقر وفرض الحماية عليها سنة 1883، سمحت سلطات الاحتلال للعلماء والباحثين بالانتقال إلى هذه الجزيرة، وكان «إميل فيليكس غوتييه» من الذين أُسندت إليهم مهمة استكشافها. لذلك انتقل إليها يوم 3 جوان 1892، بتعليمات واضحة تنصّ على ضرورة بذل كل الجهود لعبور المناطق التي لا تزال مجهولة للفرنسيين في مدغشقر. (Larnaud, 1940, p. 162)

وقد دفعه ذلك إلى الاتصال بالرؤساء المحليين للجزيرة للحصول على إذنٍ منهم لعبور مناطقهم، حتى لو كان ذلك مقابل شراء هذا الإذن. ليتجه سنة 1893، نحو المنطقة الغربية لمدغشقر، وتحديدًا إلى «مينابي Ménabé» لاستكشافها، غير أن قافلته لم تتمكن من الوصول إلى المدينة في المحاولة الأولى،

بعد تعرّضها لهجوم اللصوص. فأعاد المحاولة مرة ثانية، وتمكّن خلالها من استكشاف المنطقة الغربية وعبورها مرتين بشكل كامل. (Larnaud, 1940, pp. 162-163)

أمضى «غوتييه» أكثر من ثلاث سنوات في استكشاف مدغشقر، مشيًا على الأقدام لمسافة تتجاوز 3000 كلم، وهو ما أتاح له تأليف العديد من المقالات عن الجزيرة، خاصة بين سنتي 1893 و1894. وقد نُشرت هذه المقالات في مجلة «حوليات الجغرافيا». (Maurice, 1942, p. 181)

ليستقر سنة 1894 في جزيرة «رينيون Réunion» الواقعة شرق مدغشقر لاستعادة عافيته، نظرًا للجهود التي بذلها خلال رحلاته في الجزيرة، وللخرائط الكثيرة التي تمكّن من إنجازها. (Larnaude, E.-F. Gautier (1864-1940), 1940, p. 163)

عاد «غوتييه» إلى فرنسا بعد علمه بأنَّ الفرنسيين كانوا يقومون بإخلاء مدينة «تناريف Tanarive»، ليستقر فيها مدرسًا للغة الملغاشية في «مدرسة اللغات الشرقية»، ثم مدرسًا للغة الألمانية في «ثانوية شابتال Collège Chaptal» مع بداية شهر أكتوبر سنة 1895. (Comité des travaux historiques et scientifiques, 2022)

وبنجاح حملة الجنرال «دوشيسن Duchesne» على مدينة «تناريف Tanarive»، وسيطرة الفرنسيين على جزيرة مدغشقر بشكل كامل، عيّنت الإدارة الفرنسية «غوتييه» في أوائل شهر جانفي سنة 1896 مديرًا للتعليم في مدغشقر، وهو المنصب الذي احتفظ به حتى أواخر شهر ديسمبر سنة 1899. (Maurice, 1942, p. 181)

كما كُلِّف أيضًا، بشكل مؤقت، بتوجيه وإدارة شؤون السكان الأصليين لمدغشقر، إلى غاية تعيين الجنرال «جاليني Gallieni»، ليعود «غوتييه» بعدها إلى منصب مدير التعليم، وهو ما مكّنه من التفرّغ لإنجاز المزيد من الأبحاث والدراسات حول الجزيرة. ومن أبرز هذه الأعمال أطروحته المعنونة «**مدغشقر: مقال في جغرافيتها الطبيعية**»، وهي دراسة مخصّصة للجغرافيا البشرية لجزيرة مدغشقر، حاول فيها تفسير السمات الرئيسية لشعب الجزيرة من خلال ربطها بتنوّع المناخ. (Courtois, 1940, p. 336)

ناقش «غوتييه» أطروحته يوم 30 ماي 1902، ونال من خلالها شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون، كما حصل في مناقشتها على أعلى درجات التقدير، ومُنح أرفع وسام يمكن أن تمنحه لجنة التحكيم. (La Dépêche : journal quotidien, 31 Mai 1902, p. 3)

3 – انتقال غوتييه إلى الجزائر ونشاطاته فيها

انتقل «إميل فليكس غوتييه» إلى الجزائر سنة 1900 بعد تعيينه كأستاذ محاضر في مدرسة الآداب التابعة لجامعة الجزائر، (Capot-Rey, Avril 1940, p. 121)، كما تم تعيينه كسكرتير لرئيس كلية الآداب، وعضواً مشرفاً على امتحانات دورات البكالوريا في اللغة الألمانية، ابتداء من شهر ماي 1901. (Basset, Assemblée des professeur de l'ecole des lettres, 1901)

وبعد مناقشته لرسالة الدكتوراه، شرع «غوتييه» مباشرة في شهر جويلية في رحلة إلى الصحراء، بعدما تمكن الجيش الفرنسي من القضاء على أغلب الثورات الجزائرية في المنطقة. حيث بدأ نموذج دراستنا رحلاته سنة 1902 بزيارة منطقة «غورارة»، وعبر وديان «زوسفانا Zousfana» و «الساورة». ثم انتقل سنة 1903 برفقة القائد العسكري «لابيرين Laperrine» نحو «عين زيز In Zize»، التي تبعد حوالي 400 كلم جنوبًا عن مدينة «عين صالح». ورغم رغبته في مواصلة الرحلة نحو النيجر، إلا أنَّ الإدارة الفرنسية لم تسمح له بذلك، فتأجل مشروع الرحلة نحو «النيجر» إلى سنة 1905. (Balout, 1943, p. 10)

خلال الحرب العالمية الأولى توقفت نشاطات «غوتييه» الاستكشافية في صحراء الجزائر، وتم تعيينه في هيئة الأركان القائد «جاليني Gallieni» حاكم باريس، ثم أرسل في مهمة إلى منطقة «الدردنيل» و«مصر»، لإنجاز تقارير عن الأوضاع في هذه المناطق، (Larnaud, 1940, p. 166)، وهي المهام التي قام بها على أكمل وجه، حيث استطاع تقديم تقارير عن أوضاع الحرب وسياسية الانجليز تجاه مصر وشبه الجزيرة العربية.

ورغم اهتمام «إميل فيلكس غوتييه» الكبير بصحراء الجزائر، فإن ذلك لم يمنعه من البحث أيضًا عن صحاري أخرى في أمريكا ومصر والصحراء الليبية لإجراء مقارنة بينها. ففي عام 1927، شارك في رحلة عبر الصحراء نظمتها غرفة التجارة الجزائرية، كما كُلّف بالسفر إلى ألمانيا لإنجاز تحقيق هناك سنة 1932، بعد سيطرة النازيين على البلاد. وقد نشر هذا التحقيق في جريدة «لا ديباش La Dépêche: journal quotidien».

وفي سنة 1934، شارك في رحلة أخرى نحو منطقة «الطاسيلي ناجر»، لمعاينة النقوش الصخرية التي عثر عليها «ريغاس ماوريس Reygasse Maurice». (Balout, 1943, p. 10) كما شارك في مهمات استكشافية نحو الجهة الغربية للصحراء، والتي ألف من خلالها كتابه «**إفريقيا السوداء الغربية**» سنة 1936. (Maurice, 1942, p. 182)

إذاً، شارك نموذج دراستنا، «إميل فيليكس غوتييه»، في العديد من المهام لاستكشاف الصحراء الجزائرية بصفة خاصة، والصحراء الإفريقية بصفة عامة لأكثر من 15 سنة. وخلال هذه الفترة، حاول الكشف عن التغيرات المناخية التي عرفتها المنطقة منذ القدم، وربط هذه التغيرات باستقرار الإنسان. كما عمل على إعداد دراسة شاملة للجغرافيا البشرية للصحراء، من خلال إعادة بناء الماضي بالاعتماد على التقاليد الشفوية الموروثة. وكل هذه الدراسات والأبحاث التي أجراها «غوتييه» حول الصحراء مكنته من الحصول سنة 1928 على جائزة في مسابقة نظمتها «أكاديمية العلوم الاستعمارية». (Capot-Rey, Avril 1940, p. 122)، كما أصبح جل المؤرخين المعاصرين له يلقبونه بـ: «**فليكس الصحراوي المحنك**». (Capot-Rey, Avril 1940, p. 121)

وبالإضافة إلى المهام التي قام بها «غوتييه» في استكشاف الصحراء الجزائرية والكتب التي ألّفها حول ما توصل إليه من دراسات، واصل أيضًا مهام التدريس في الجامعة. كما تم تعيينه سكرتيرًا لعميد كلية الآداب، مكلفًا بتدوين محاضر اجتماعات المجالس العلمية لأساتذة الكلية، ثم عُيّن بشكل رسمي أستاذًا للجغرافيا العامة ابتداءً من 10 جانفي 1912. (Basset, Conseil de la Faculté Letter 10 Janvier 1912, 1912)

واصل «غوتييه» عمله في الجامعة كأستاذ حتى تمت ترقيته في هذا المنصب بتاريخ 1 جانفي 1917 إلى الرتبة الثالثة للأستاذية بعد أن كان مرتبا في الرتبة الرابعة، (Gonnessiat, 1918, p. 10)، كما حصل على رتبة أستاذ فخري بالجامعة حتى استقالته من التدريس سنة 1935، (Capot-Rey, Avril 1940, p. 121)، وبالإضافة إلى مهام التدريس في جامعة الجزائر تولى نموذج دراستنا أيضاً مهام التدريس في جامعة السوربون في المسألة الإفريقية. (L'Écho d'Alger, 19 Janvier 1940, p. 2)

ويعد «غوتييه» من أبرز الذين ساهموا بشكل مباشر في تأسيس «معهد الجغرافيا»، من خلال دوره في الدفاع عن فكرة إنشاء هذا المعهد. فقد قدّم تقريرًا خلال اجتماع مجلس كلية الآداب يوم 10 جانفي 1912، أشار فيه إلى ضرورة إنشاء معهد خاص للجغرافيا تابع لكلية الآداب. وهو التقرير الذي أمر «رينيه باصيه René Basset» بتقديمه مباشرة إلى الحكومة العامة الفرنسية لدراسته وتنفيذه. (Basset, Conseil de la Faculté Letter 10 Janvier 1912, 1912)

كما تولى «غوتييه» مهام التدريس في هذا المعهد، وعمل على إنشاء مبنى خاص به نظرًا لصغر حجم المبنى الذي كان يدرس فيه. بالإضافة إلى ذلك، تولى مهام رئاسة المعهد منذ تأسيسه حتى تقديم استقالته سنة 1935، حيث تولّى «روبرت كابوت-ري Robert Capot-Rey» مكانه في تسيير المعهد. (خميلي، التعليم العالي في استراتيجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1879 – 1962) (أطروحة دكتوراه)، 2016 – 2017، صفحة 103)

وبالإضافة إلى دوره في تأسيس المعهد الجغرافي، كان له دور كبير في الدفاع عن ضرورة اهتمام الإدارة الفرنسية بالصحراء الجزائرية بشكل أكبر. وتعدُّ المذكرات التي قدّمها إلى أكاديمية العلوم الاستعمارية سنة 1928 أبرز الأعمال التي دافع فيها عن ضرورة غزو الصحراء واستغلال ثرواتها، خاصةً في المقال الذي نشره بعنوان: «**هل يمكن غزو الصحراء المهزومة؟ تطوير الصحراء**». (Larnaude, Le Sahara français, 1954, pp. 64-65)

كما دافع «غوتييه» عن ضرورة إنشاء خط سكك حديدية عابر للصحراء الجزائرية، متجهًا نحو النيجر لتحقيق الغزو الاقتصادي للصحراء. (Larnaude, E.-F. Gautier (1864-

(1940, p. 79), 1940) وقد ساهمت هذه الجهود والدراسات، ومن خلال جامعة الجزائر، في تبني الفكرة الفرنسية لإنشاء معهد للدراسات الصحراوية، يهتم بالدرجة الأولى باستكشاف الصحراء ودولها، ودراسة تطورها الجيولوجي والمناخي. (Despois, 1958, p. 523)

عُرِف نموذج دراستنا، «إميل فيليكس غوتييه»، بجمعه بين الجغرافيا والتاريخ، وسعيه لنقل ما يراه بالعين من خلال التنقلات التي كان يقوم بها في الجزائر، خاصّة في المناطق الصحراوية. وكانت هذه المهام تتم بدعم من جامعة الجزائر، إلى أن استقال من منصبه كأستاذ في الجامعة سنة 1935، ليتفرغ للتأليف والنشر. ثم انتقل إلى مدينة «بروتيفي Protivy» بالقرب من «سانت بيار كيبرون Saint-Pierre Quiberon»، حيث استقر هناك إلى غاية وفاته يوم 16 جانفي 1940، بعد معاناته الكبيرة مع مرض الروماتيزم. (Balout, 1943, pp. 7,10)

تحصل «إميل فيليكس غوتييه» على عدة تكريمات، من أبرزها جائزة أكاديمية العلوم الاستعمارية سنة 1928. كما كَرَّمه المؤرخون الفرنسيون بإهدائه كتابًا أُلِّف سنة 1936 بعنوان: «**مزيج من الجغرافيا والاستشراق، مهدى إلى إميل فيليكس غوتييه**»، وتضمن هذا الكتاب قائمة ببليوغرافية لمؤلفاته. بالإضافة إلى ذلك، كرّمت الحكومة الفرنسية ذكراه بعد وفاته بتسمية ثانوية «مصطفى للذكور» في الجزائر العاصمة باسمه. (Maurice, 1942, p. 182)

ثانياً:

دراسة ببليوغرافية وصفية لمؤلفات إميل فليكس غوتييه

نستعرض فيما يلي أعمال ومنشورات «إميل فيليكس غوتييه»، التي تنوّعت بين: التقارير الإدارية ذات الطابع الرسمي، والتي أُعدّت أساسا بتكليف من السلطات الإدارية والسياسية. إلى جانب هذه التقارير، ترك «غوتييه» عددًا كبيرًا من الدراسات والأبحاث، بما في ذلك الكتب والمقالات

والمداخلات في الملتقيات، وغيرها من المؤلفات التي تشكّل إرثًا غنيًا في المجالات التاريخية والأنثروبولوجية والجغرافية، يصل عددها إلى نحو 130 مؤلفًا في مختلف المجالات.

1 – التقارير الادارية

- أنجز تقرير خلال الحرب العالمية الأولى بتكليف من الحكومة الفرنسية بعنوان: «**تقرير إميل فليكس غوتييه ضابط ترجمة حول مهمته في مصر، والحملة العسكرية ضد الاتراك (حرب 1914 – 1919)**.

Rapport Emile Félix Gautier, officier interprète, sur une mission en Égypte et la campagne contre les Turcs (guerre 1914-1919).

يتكوَّن هذا التقرير من جزئين وملحق، أنجزه المؤلف بناءً على طلب الحاكم العام. خصّص الجزء الأول من التقرير، الذي يتكوَّن من 43 صفحة، لتقديم لمحة عن الرحلات التي قام بها ابتداءً من 10 مارس 1917 إلى 3 أوت 1917، والأماكن التي زارها، مثل مصر والسودان وفلسطين وجدة. كما قدّم في هذا الجزء وصفًا للمعارك التي خاضها الجيش الإنجليزي مع السنوسيين، وأجرى مقارنة بين التشكيلات العسكرية وتنظيم القوات للطرفين، مع الإشارة إلى الفرق بين السياسة البريطانية والسياسة الفرنسية في غزو المناطق الصحراوية. (Gautier, Rapport général sur une mission en Egypte 1er Partie, 1917, pp. 1-43)

أمّا الجزء الثاني من التقرير، فيتكوَّن من 43 صفحة، شرح فيها المؤلف العمليات العسكرية التي قام بها الجيش البريطاني بدعم من الفرنسيين في بلاد الحجاز، خاصّة في مدينة جدة والمدن المجاورة لها. كما تحدَّث بالتفصيل عن الصعوبات التي واجهت هذه الجيوش في عملية احتلال منطقة فلسطين، وأشار إلى المعارك التي خاضوها ضد الجيش العثماني. بالإضافة إلى ذلك، قدّم وصفًا للوسائل العسكرية التي استخدمها الجيش البريطاني في مختلف حروبه. (Gautier, Rapport sur une mision en Egybt 2em Partie, 1917, pp. 44-87)

أمّا فيما يخص ملحق هذين التقريرين، فيتكوّن من 10 صفحات أنجزها «غوتييه» بتاريخ 5 نوفمبر 1917، وهو خاص برحلته إلى مدينة ورقلة، حيث أجرى في هذا الملحق مقارنة بين الإمكانات

التي خصّصها الإنجليز لضمان التوسع في الصحراء المصرية وما يبذله الفرنسيون في صحراء الجزائر. كما أشار إلى مختلف المشاريع التي لم تنفذها السلطات الفرنسية، خاصّة مشروع السكك الحديدية، ودعا إلى ضرورة الاستفادة من خبرة الإنجليز ووسائلهم الميكانيكية لاختراق الصحراء بشكل أسرع، خاصّة جرارات «بابي هول» (Baby Holt) مقارنةً بالشاحنات التي يستعملها الفرنسيون. (Gautier, Oppenvice N:1 au rapport sur une mission en Egybt, 1917).

- أنجز تقريرا آخر سنة 1921 بعنوان: «**ملاحظات مأخوذة عن دروس الجغرافيا الخاصة بالسيد غوتييه أستاذ في كلية الآداب، الجزائر Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921**»

يتكوّن هذا التقرير من 75 صفحة، عالج فيه العديد من القضايا الجغرافية والسياسية. فقد تناول الخصائص الطبيعية للصحراء الإفريقية، مع إجراء مقارنة بينها وبين صحراء شبه الجزيرة العربية. كما أشار إلى الوقائع التي شهدتها مصر وبلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى، والصعوبات التي واجهها الإنجليز في مواجهة القوات العثمانية في مصر.

ثم انتقل إلى دراسة أوضاع المستعمرات الأوروبية في قارة إفريقيا، مع التركيز أولًا على المستعمرات الإنجليزية، ثم على المستعمرات الفرنسية، مع تحديد الفروق بين سياسات الدولتين في هذه المستعمرات. كما خصّص «غوتييه» جانبًا مهمًّا من التقرير للتطرق إلى الجغرافيا البشرية في الجزائر، خاصّة منطقة الأوراس والقبائل. واختتم المؤلف تقريره بالحديث عن المغرب الأقصى والتطورات السياسية التي شهدها منذ الفتح الإسلامي. (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, pp. 1-75)

2 – الكتب

2- 1 – كتب إميل فليكس غوتييه عن مدغشقر وقارة إفريقيا بصفة عامة

- ألف كتاب بالشراكة مع «روي الفونس ماري فرديناند Rouire, Alphonse Marie Ferdinand» و «كومبس باول Combes Paul» و«جون أنتوني Jully Antony » بعنوان: «**دليل عملي للمستوطنين والجنود في مدغشقر**» « Guide pratique du colon et du soldat à Madagascar»، صدر سنة 1895 يتكوَّن من 213 صفحة.

قُسِّم هذا الكتاب إلى مجموعة من العناوين الرئيسية، حيث خصص المحور الأول المعنون بـ «**الجغرافيا الفيزيائية**»، لإبراز الموقع الجغرافي والفلكي لجزيرة مدغشقر، وخصائص تضاريسها وشبكة المجاري المائية، بالإضافة إلى تبيان طبيعة الحياة البرية في الجزيرة والحيوانات المتواجدة بها.

أمّا العنوان الثاني فهو «**ملخص التاريخ**»، فقد تطرّق فيه المؤلف إلى أصل سكان الجزيرة والهجرات المختلفة التي شهدتها، خاصّة الإفريقية والعربية والصينية والماليزية. ثم انتقل إلى بدايات النفوذ الأوروبي، خاصّة البرتغاليين، ثم إلى بداية التواجد الفرنسي، وظهور الصراع بينهم وبين بريطانيا وشركة الهند الشرقية، بالإضافة إلى المعاهدات التي وُقّعت مع بريطانيا ومع حكام الجزيرة. (Gautier, Rouire, Combes, & Antony, 1895, pp. 1-56)

أمّا العنوان الثالث للكتاب، فخصّص للحديث عن «الأهالي»، أي السكان الأصليين لجزيرة مدغشقر، من حيث أقسامهم وعاداتهم وتقاليدهم والديانة المنتشرة بينهم. كما أشار المؤلف إلى طبيعة الإدارة الفرنسية للجزيرة وأبرز المواد التي تنتجها. بعد ذلك، قدّم مجموعة من الإرشادات والنصائح التي يجب على المسافرين اتباعها عند زيارتهم لمدغشقر.

في حين خصص العنوان الرابع، لإجراء دراسة حول «التجارة والصناعة»، من خلال تقديم إحصائيات عن حجم التبادلات التجارية، والمواد التي يتم تصديرها واستيرادها، وأبرز مناطق التبادل التجاري. كما تناول أنواع الصناعات المنتشرة في الجزيرة، وشبكة النقل والطرق المستخدمة لنقل البضائع. (Gautier, Rouire, Combes, & Antony, 1895, pp. 57-150)

أمّا العنوان الخامس والأخير، «**الصحة**»، فقد قدّم المؤلف مجموعة من النصائح حول طبيعة مناخ الجزيرة ونظام مطرها، وتوزيع الأمراض التي تنتشر فيها، خاصّة تلك التي تصيب الأوروبيين. بعد ذلك، قدّم توجيهات تتضمن متطلبات النظافة العامة، والأدوية التي يجب أن تتوفر لدى الجنود والمستوطنين، سواء عند التخييم أو التنقل في مختلف أرجاء الجزيرة. كما زوّد الكتاب بمجموعة من الخرائط الطبوغرافية التي توضّح الطرق وخصائص الجزيرة الطبيعية. (Gautier, Rouire, Combes, & Antony, 1895, pp. 151-211)

- **كتاب: «مدغشقر مقال لجغرافيتها الطبيعية Madagascar essai géographie physique»، طبع سنة 1902 يتكوَّن من صفحة 475.**

هذا الكتاب عبارة عن أطروحة دكتوراه قدّمها المؤلف لكلية الآداب بجامعة باريس سنة 1902. وتضمَّنت المقدمة شرحًا لأهمية هذا العمل، والمنهج الذي اتبعه «غوتييه» في كتابة أسماء الأماكن وفق اللغة الملغاشية. كما قدّم فيها الشكر لكل من ساعده في إنجاز بحثه، الذي استغرق خمس سنوات. (Gautier, Madagascar : essai de géographie physique, 1902, pp. I-III)

قسّم «غوتييه» بحثه هذا إلى 14 فصلاً، تحدّث فيها بالتفصيل عن طبيعة الجزيرة وسكانها. فمن الفصل الأول إلى الفصل العاشر، ركّز على الجانب الطبيعي للجزيرة، من خلال تحديد موقعها الجغرافي وصلاتها الطبيعية بقارة إفريقيا من جهة، وبجنوب قارة آسيا (الهند) من جهة أخرى.

كما أشار إلى أبرز الحيوانات التي تعيش فيها، ومناطق تركز البراكين ومدى نشاطها، وشرح تكوين مختلف الصخور والعصور الجيولوجية التي تكونت فيها الطبقات الرسوبية في الجبال والسهول المنتشرة في جزيرة مدغشقر. وبين أيضًا الثروات المعدنية المتواجدة في الجزيرة، خاصّة الذهب والحديد، وأثر التباين المناخي على اختلاف التساقط بين الجزء الشرقي والغربي من الجزيرة.

وشرح لنا «غوتييه» تأثير مختلف العوامل الطبيعية خاصَّة التساقط وحركة الرياح، في تعرض مختلف أجزاء الجزيرة للتآكل، ودورها في تشكل مختلف التضاريس خاصَّة المجاري المائية والهضاب العليا. والدور الذي يقوم هذا التآكل في تشكل مختلف الطبقات الرسوبية للجزيرة، ووضَّح أيضاً طبيعة الغطاء

النباتي المنتشر في الجزيرة ومختلف أنواع الزراعات التي يعتمد عليها السُّكَّان. (Gautier, Madagascar : essai de géographie physique, 1902, pp. 1-292)

أما من الفصل العاشر إلى الفصل الرابع عشر، فخصّصهم المؤلف لتبيان أصل السُّكّان ولغتهم، والهجرات الأجنبية التي شهدتها الجزيرة منذ القدم، خاصّة من شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا. كما بيّن الأساليب التي يتبعها سُكّان مدغشقر، على اختلاف أعراقهم وأصولهم، في تسيير شؤون حياتهم اليومية.

بعد ذلك، قدّم دراسة عن الواقع الديموغرافي لسُكّان الجزيرة، من حيث عددهم وتوزيعهم، وأنشطتهم الاقتصادية، والعادات والتقاليد المرتبطة بطرق الدفن ونظام الحكم. كما تناول تحديد طبقات المجتمع والصراعات القائمة بين مختلف قبائل الجزيرة. (Gautier, Madagascar : essai de géographie physique, 1902, pp. 293-424)

- **كتاب «ملاحظات عن الكتابة الملغاشية Notes sur l'écriture Antaimoro»**

صدر هذا الكتاب سنة 1902، ويبلغ عدد صفحاته نحو 85 صفحة. وقد تضمَّنت المقدمة شرحًا لأهمية هذا الكتاب في تعلُّم اللغة الملغاشية، ولا سيما اللغة المتداولة بين «قبيلة الأنتيمور». بعد ذلك، انتقل المؤلف إلى عرض مضمون الكتاب، الذي قسّمه إلى مجموعة من الأجزاء.

خصّص الجزء الأول لتقديم معلومات عن الحروف الأبجدية وطريقة كتابتها، مع إجراء مقارنة بينها وبين اللغة الفرنسية من جهة، واللغة العربية من جهة أخرى. كما شرح في هذا الجزء القواعد العامة للغة الملغاشية، ومختلف أدوات الربط، وحروف العلة المستخدمة فيها. أما الجزء الثاني، فخصّصه لوضع قاموس للحروف المستعملة في هذه اللغة، مع ترجمة كل حرف بما يقابله في اللغة اللاتينية، وشرح التغيرات التي قد تطرأ على هذه الحروف عند النطق باللغة الملغاشية.

وفي الجزء الثالث من الكتاب، قدّم «غوتييه» نصوصًا باللغة «الأنتيمورية» الخاصة بجزيرة مدغشقر، مع إيراد هذه النصوص بالحروف اللاتينية وفق معانيها في اللغة الأصلية. أما الجزء الأخير،

فكرّسه المؤلف لترجمة مضمون النصوص التي أوردها في الجزء السابق إلى اللغة الفرنسية. (Gautier, Notes sur l'écriture antaimoro, 1902, pp. 1-83)

- قدَّم أطروحة سنة 1902 في كلية الآداب جامعة باريس باللغة اللاتينية، عنوانها «**إلى أي مدى كان الجزء من المحيط الهندي الذي يتعلق بإفريقيا مفتوحاً أمام سفن الإغريق والهوميريكيين؟**»، تتكون هذه الأطروحة من 61 صفحة مقسَّمة إلى ثلاث فصول.

خُصِّص الفصل الأول لدراسة «حالة الشؤون العامة في الفترة الأولى للميلاد في الممالك المحيطة بالبحر الأحمر»، حيث تحدّث فيه المؤلف عن واقع العلاقات التجارية في المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط والمنطقة الجنوبية للبحر الأحمر، من خلال الأنشطة التي قام بها الإغريق والرومان مع مختلف الممالك التي ظهرت في هذه المناطق، ولا سيما مملكة الأنباط، ومملكة اليمن، ومملكة إثيوبيا. واستند المؤلف في حديثه عن هذه العلاقات التجارية إلى المصادر اللاتينية المختلفة التي أشارت إلى هذه الرحلات. (Gautier, Quatenus Indici Oceani pars, quae ad Africam pertinet, Graecorum et Homeritarum navibus patuerit, 1902, pp. 9-27)

وفي الفصل الثاني: «**التجارة الهندية**»، واصل الحديث في البداية عن واقع التجارة في جنوب شبه الجزيرة العربية، بالاعتماد على مختلف المصادر اللاتينية، وذكر السلع التي كانت المنطقة تتجار بها، خاصَّة البخور والتوابل، لينتقل بعدها للإشارة للدور الذي لعبه الاغريق في تنشيط الحركة التجارية مع بلاد الهند. (Gautier, Quatenus Indici Oceani pars, quae ad Africam pertinet, Graecorum et Homeritarum navibus patuerit, 1902, pp. 28-44)

أمّا الفصل الثالث والأخير من هذه الأطروحة، الموسوم بـ«أزانيا (Azania)»، فقد بيّن فيه المؤلف مدى اهتمام اليونانيين بتنشيط المبادلات التجارية مع السواحل الشرقية لقارة إفريقيا، الممتدة من «الصومال» شمالًا إلى «زنجبار» جنوبًا. كما أشار إلى أن هذه المنطقة لم تكن محلّ اهتمام كبير لدى التجار الإغريق، مقارنةً باهتمامهم بالتجارة مع اليمن، وبلاد الهند، والصين. (Gautier,

Quatenus Indici Oceani pars, quae ad Africam pertinet, Graecorum et Homeritarum navibus patuerit, 1902, pp. 45-61)

- ألف كتاب بالشراكة مع «**هنري فرويدفو Henri Froidevaux**» بعنوان: «**مخطوطات عربية مدغشقرية عن حملات لاكيس في ايميرو 1659 – 1663**»

« Un Manuscrit arabico-malgache sur les campagnes de La Case dans l'Imoro de1659 à 1663 »

صدر هذا الكتاب سنة 1907، بعدد صفحات: 180 صفحة، جاء الفصل الأول للتعريف بالمخطوطة من حيث الشكل ونوع الخط الذي كُتبت به، ومن حيث الأقسام الواردة فيها، مع إبراز الفروق بين المخطوطة الأصلية والنسخ المستندة إليها.

أما الفصل الثاني، فخُصِّص للحديث عن البدايات الأولى للتواجد الفرنسي في مدغشقر في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، مع إبراز الدور الذي قام به «لاكيس La Case» منذ قدومه إلى الجزيرة، والاتصالات التي أجراها مع قادة القبائل، وموقف هؤلاء من التواجد الفرنسي.

وفي الفصل الثالث، ضمّ الكتاب نصوصًا بلغة «الأنتيمور» مكتوبةً بالحروف العربية، مع إيرادها بالحروف اللاتينية. أما الفصل الرابع، فكرّسه المؤلف لترجمة هذه النصوص إلى اللغة الفرنسية، مع إيراد تعليقاتٍ مهمةٍ توضّح كل ما هو غامض في الترجمة. (Gautier & Froidevaux, Un manuscrit arabico-malcache sur les campagnes de La Case dans l'Imoro de 1659 à 1663, 1907, pp. 6-177)

- **كتاب آخر بعنوان: «إفريقيا السوداء الغربية، تحديد للإطار الجغرافي»**

« L'Afrique noire occidentale. Esquisse des cadres géographiques »

عدد صفحاته 188، تم طبعه سنة 1935.

قسّم هذا الكتاب إلى مقدِّمة، بيَّن فيها أهمية كتابه والإطار الجغرافي العام الذي يدرسه، وبعد المقدِّمة بعد المقدمة، يأتي الكتاب الأول بعنوان: «**الحدود والخصائص الطبيعية العامة**»، ويضمّ خمسة

فصول. بيّن المؤلف فيها الحدود الجغرافية والطبيعية لمنطقة إفريقيا الغربية، وركّز على تقديم دراسةٍ جيولوجيةٍ لهذه الحدود، بما في ذلك الحدّ الشرقي، والحدود الصحراوية، فضلًا عن الحدود الغربية المتصلة بالمحيط الأطلسي. كما خصّص جزءًا مهمًّا في هذا الكتاب لدراسة منطقة «فوتا جالون Fouta-Djalon»، دراسة مورفولوجية شاملة، نظرًا لأهميتها كونها خزانًا كبيرًا للمياه، ينبع منها نهرا «النيجر» و«السنيغال». (Gautier, L'Afrique noire occidentale. Esquisse des cadres géographiques, 1935, pp. 1-75)

أمّا الكتاب الثاني، فخصّصه «غوتييه» لـ: «دول غرب إفريقيا»، وقسّمه إلى ستة فصول. عالج فيه أساسيات التقسيم السياسي لمنطقة غرب إفريقيا، مع تركيزه على المناطق التابعة للإدارة الفرنسية، أي إفريقيا الغربية الفرنسية وعاصمتها «داكار»، وإفريقيا الاستوائية الفرنسية وعاصمتها «برازافيل». كما تحدّث المؤلف أيضًا عن الأعراق التي تستقر في المنطقة، أو كما سمّاهم «الإنسان الأسود»، وبيّن السمات الخَلْقية لمختلف قبائل غرب إفريقيا والمناطق الاستوائية للقارة.

وفي ختام هذا الكتاب، قدّم المؤلف دراسةً مفصّلةً عن «النيجر»، و «الداهومي»، و«السنيغال»، و«غينيا الفرنسية»، من حيث عدد سكان هذه الدول، وعاداتهم وطبائعهم، وعلاقاتهم فيما بينهم من جهة، وعلاقاتهم مع دول شمال إفريقيا من جهة أخرى. (Gautier, L'Afrique noire occidentale, 1936, pp. 79-183)

2 – 2 – كتب إميل فليكس غوتييه عن الجزائر

- شارك في تأليف «**مجموعة من المذكرات والنصوص المنشورة تكريمًا للمؤتمر الرابع عشر للمستشرقين** (**Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des Orientalistes**)»، بمقالٍ عن «الواحات الصحراوية Oasis sahariennes»، وضّح فيه الخصائص الطبيعية والمناخية للواحات الصحراوية في الجزائر، من خلال إجراء مقارنةٍ في تركيب التربة وكميات التساقط. كما تحدّث عن الهجرات البشرية التي تعاقبت على هذه المنطقة، مع تركيزٍ على آثار

الهجرات العربية. (Gautier, Oasis Sahariennes, 1905, pp. 319-346)

- ألَّف، مع «شادو ريني Chudeau René»، كتابين بعنوان: «**مهمة إلى الصحراء Missions au Sahara**».

المجلد الأول خاص بالصحراء الجزائرية، بعنوان: «Sahara Algérie (Tome I)»، صدر سنة 1908، ويقع في 500 صفحة. أمّا المجلد الثاني، فحمل عنوان: « Sahara Soudanais (Tome II)»، صدر سنة 1909، ويقع في 460 صفحة.

نتطرّق فيما يلي إلى المجلد الأول الخاص بصحراء الجزائر، الذي خصّصه نموذج دراستنا للحديث عن مهمته في هذه الصحراء. وقسّمه المؤلف إلى مقدمةٍ وضّح فيها المدة التي استغرقها في مهمته الاستكشافية سنة 1902، من جويلية إلى سبتمبر، والتي بلغ خلالها مدينة عين صالح. واستكمل هذه الرحلة ابتداءً من ديسمبر 1904 إلى سبتمبر 1905، متوجّهًا إلى «جاو (Gao)» و«تمبكتو (Tombouctou)».

كما بيّن في مقدمة الكتاب أنَّ هدفه هو دراسة طبيعة الصحراء الجيولوجية والاثنوغرافية، وأنَّ الغرض من نشر الكتاب ليس وضع تقرير مفصّل لرحلته الاستكشافية، وإنما جمع المعلومات الطبوغرافية ونتائج الحفريات التي أُجريت خلال سفره للكشف عن الهندسة المعمارية للمنطقة. (Gautier, Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien, 1908, pp. VII-X)

قسّم «غوتييه» كتابه هذا إلى سبع فصول مع مجموعة من الملاحق. جاء الفصل الأول بعنوان: «Onomastique»، ويعني علم دراسة أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية. عالج فيه المؤرخ أسماء مختلف المظاهر الطبيعية للصحراء، مثل «الرق (REG)» و«العرق (Erg)» و«النبكة (Nebka)»، كما أشار إلى مختلف المجاري المائية المنتشرة في الصحراء، مثل: «الوادي، الشط، السبخة، الحاسي، العين، المجبد، وتانزروفت». أمّا الفصل الثاني، فتكلم فيه عن الأودية والكثبان الرملية من خلال تحديد موقع أكبر وديان الصحراء، خاصّة الجزء الشرقي. ثم وصف المؤلف خصائص وميزات رمال الصحراء الجزائرية، وبيّن الفروق بينها، خاصّة من حيث مكوناتها وتركيباتها.

أما الفصل الثالث، الخاص بالاثنوغرافيا الصحراوية، فتناول المؤرخ فيه الاستقرار البشري في الصحراء منذ القدم في ثلاثة محاور. ووصف العديد من القبور الجنائزية المنتشرة عبر الصحراء، من حيث طريقة بنائها أو تشكيل الحجارة الموضوعة للدلالة عليها، كما أشار إلى أنواع النقوش الصخرية التي عُثر عليها في الكهوف والمغارات الصحراوية في منطقتي «بني ونيف» في «بشار» و «تادمايت». (Gautier, Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien, 1908, pp. 1-138)

لينتقل «غوتييه» في الفصل الرابع للحديث عن منطقة «الزوسفانا (Zousfana)»، وهي منطقة صحراوية قرب «بشار» و«بني ونيف». بوصف خصائص الصخور المنتشرة في المنطقة والنباتات الموجودة بكثرة، مثل أشجار الخروب وأشجار الزيتون البرية. كما بيّن واقع الحياة الاقتصادية للمنطقة خلال زيارته لها، بما في ذلك النظام المعتمد في توزيع المياه على البساتين، وأوضح أثر هذا التنوع الاقتصادي على اختلاف طبقات السكان وأساليب حياتهم.

وفي الفصل الخامس، فتحدّث عن منطقة «الساورة» وحدودها، وطبيعة الخصائص الجيولوجية والبنية التركيبية للصخور، والأزمنة الجيولوجية التي تعاقبت على هذه المنطقة، بالإضافة إلى التغيرات المناخية التي عرفتها. كما أشار إلى عملية تعمير المنطقة وانتشار الأدوات الحجرية والمعدنية، وشواهد القبور التي تعود إلى ما قبل الإسلام. وعالج أيضًا أقسام قبائل «الساورة» وأصولهم، وارتباطهم الوثيق بالزوايا الدينية المنتشرة، خاصّة زوايا «الطريقة الكرزازية». التي تنسب إلى «أحمد بن موسى الكرزازي»، وهي فرع من فروع الطريقة الشاذلية. (Gautier, Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien, 1908, pp. 139-218)

أمّا الفصلان السادس والسابع، فتحدّث فيهما عن عدة مناطق في الجنوب الغربي للجزائر والواحات المنتشرة فيها، وبيّن خصائصها الجيولوجية. وأكّد التشابه الكبير في نوع التربة وخصائصها الكيميائية في هاتين المنطقتين. كما تناول «غوتييه» خصائص الشبكة الهيدروغرافية، ووصفها بأنها تتضمن شبكة كبيرة من الوديان، مثل وادي «الساورة» و«تليليا» و«الناموس»، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من السبخات، مثل سبخة «توات» وسبخة «تيميمون».

وفي نهاية هذا الفصل، تحدّث المؤرخ عن أوضاع الصحراء وإفريقيا في القرن الخامس عشر، خاصّة فيما يتعلق بتطور الهندسة المعمارية للمنازل والقصور المنتشرة في المنطقة، وأشار إلى الهجرات التي عرفتها المنطقة، خاصّة بعد انحسار السيطرة الإسلامية على الأندلس. (Gautier, Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien, 1908, pp. 219-335)

أمّا الملاحق، فهي عبارة عن مجموعة من الملاحظات التي قدّمها «غوتييه» عن رحلته. إذ نجد أنه وضع قائمة بالموقع الفلكي للمناطق التي زارها، والأدوات التي استخدمها لمساعدته في رحلته، بالإضافة إلى نشر النقوش والكتابات المتواجدة، خاصّة في منطقة «توات». كما أورد الأدوات والمعادن والمجوهرات التي عثر عليها، وتضمّنت الملاحق أيضًا مجموعة قيّمة من الخرائط الطبوغرافية والرسومات التوضيحية لخصائص هذه المناطق الجيولوجية. (Gautier, Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien, 1908, pp. 339-362)

- ألَّف أيضًا كتاب: «**استعمار الصحراء: مقالة في علم النفس السياسي** (**La conquête du Sahara; essai de psychologie politique**)»، طُبع سنة 1910 في 260 صفحة. كما أعاد «غوتييه» طبعه عدة مرات، كان آخرها الطبعة الخامسة المنقَّحة، التي صدرت سنة 1935.

يتضمن هذا الكتاب ستة فصول، خصّص الفصلان الأول والثاني لإبراز الجهود التي قامت بها فرنسا في سبيل غزو صحراء الجزائر، منذ تاريخ 18 فيفري 1881، حين تكبّد الفرنسيون هزيمة كبيرة، وحتى 7 ماي 1902، حيث تمكنوا من القضاء على مقاومة الطوارق. كما تطرّق المؤلف إلى مسألة الحدود الصحراوية مع المغرب والصراعات التي نشأت بين الطرفين في المنطقة. (Gautier, la conquête du Sahara; essai de psychologie politique, 1910, pp. 3-75)

أما الفصل الثالث فتحدث فيه عن «فرقة المهارة» والدور الذي لعبه استخدام فرنسا لهم لتسهيل التوغل في الصحراء، خاصّة بعد إنشاء «الكولونيل كاربوكيا Colonel Carbuccia»، سنة 1843 لأول فرقة فرنسية متنقلة على ظهور الجمال. كما قدّم المؤلف وصفًا دقيقًا للمهاري، وحدّد الفرق

بينها وبين الجمال العادية، ووضّح الصعوبات التي واجهت الفرنسيين في التعامل مع هذه الكائنات. (Gautier, la conquête du Sahara; essai de psychologie politique, 1910, pp. 79-122)

أمّا الفصلان الرابع والخامس، فتحدث فيهما المؤلف عن واحات النخيل المنتشرة في منطقة «توات» و «تيميمون» وغيرها من المناطق الصحراوية التي تكثر فيها أشجار النخيل. وعالج المؤرخ في هذا الفصل إشكالية الأجناس البشرية التي استقرت في المنطقة منذ القدم، والعلاقات القائمة بين الجنس الأبيض والجنس الأسود.

كما تطرّق إلى الاستقرار اليهودي في المنطقة، بالنظر إلى تعدد النقوش الأثرية المكتوبة باللغة العبرية. وبيّن أيضًا سيطرة «المنسى موسى Mansa Moussa»، حاكم مملكة مالي، على المنطقة. وختامًا، تناول المؤلف انتشار اللغة العربية في المنطقة، مع الإشارة إلى اللهجات المحلية، خاصّة اللهجة «الزناتية» في منطقة «قورارة» الواقعة في الجنوب الغربي للجزائر. كما وصف أسلوب حياة سكان هذه المناطق الصحراوية، وعاداتهم، والأدوات البدائية التي يستخدمونها في حياتهم اليومية. (Gautier, la conquête du Sahara; essai de psychologie politique, 1910, pp. 123-209)

أمّا الفصل السادس، فنلاحظ اختلافًا في مضمونه بين نسخة سنة 1910 ونسخة سنة 1935. ففي النسخة الأولى، وضع المؤلف عنوان: «**عبر الصحراء الكبرى Transsaharien**». وتحدّث فيه عن إشكالية النزاع الإسباني المغربي على مدينة «مليلية» الغنية بالمعادن، والاضطرابات التي ظهرت في هذه المنطقة.

ثم انتقل للحديث عن الجدوى الاقتصادية للغزو الفرنسي للصحراء الكبرى، وكذلك عن الصراع القائم في الدوائر الحكومية الفرنسية حول المشاريع الواجب تنفيذها لاستغلال هذه المساحة الشاسعة من الأراضي، خاصّة مشروع السكة الحديدية العابر للصحراء. وأكّد المؤلف على ضرورة استغلال الإمكانيات الصناعية في استكشاف المنطقة، واتخاذها كمنطقة عبور نحو المناطق الاستوائية لقارة إفريقيا.

(Gautier, la conquête du Sahara; essai de psychologie politique, 1910, pp. 213-259)

أمّا في نسخة سنة 1935، فاختار المؤلف لهذا الفصل عنوانًا: «بعد ثلاثون سنة – سبتمبر 1935 (Trente Ans Après – Septembre 1935)». بيّن فيه التحولات التي عرفتها الإدارة الفرنسية للصحراء، مثل إنشاء خطوط التلغراف من القليعة إلى «تيميمون»، وغيرها من المحطات التي ساهمت في سرعة تبادل المعلومات بين ضباط الإدارة الفرنسية، والتمكّن من مراقبة تحركات السكان، والتبليغ عن أي أنشطة معادية للإدارة من أجل اتخاذ الإجراءات المناسبة.

كما وضّح «غوتييه» التوسع الذي شهدته شبكة الطرق والسكك الحديدية، والذي مكّنه شخصيًا من التنقل من بشار إلى النيجر في أربعة أيام وست ساعات، بدل أن تستغرق الرحلة إحدى عشرة شهرًا. وأكّد على ضرورة الاحتفاظ بهذه المنطقة، لأنها تشكّل محورًا أساسيًا للإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، بالنظر إلى الإمكانيات الكبيرة التي يمكن استغلالها لجعلها ذات فائدة للفرنسيين. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 213-259)

- نشر كتاب في شكل بحث حول «**تحقيق حول انتشار اللغة البربرية في الجزائر**»، **ألّفه مع إدموند دوتي Edmond Doutté**»

«Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie»

طُبع هذا الكتاب بأمر من الحاكم العام سنة 1913، ويحتوي على 165 صفحة، عن دار النشر «أدولف جوردان»، قصر الحكومة، الجزائر العاصمة. وقد قسّم المؤلف الكتاب إلى ثمانية أجزاء.

جاء الجزآن الأول والثاني لشرح أسباب إجراء هذا البحث التفصيلي حول نسبة انتشار اللغة البربرية في الجزائر. كما وضّح فيهما منهجية العمل التي اتبعها رفقة «إدموند دوتي» في هذه الدراسة، مؤكدًا أنَّ البحث كان دراسة مشتركة بينهما، تقوم على جمع الإحصاءات التي أعدّها أعوان الإدارة الفرنسية، والعمل على التحقق من صحة المعلومات الواردة فيها بالاعتماد على إحصاءات لسنوات متعددة، ابتداءً من سنة 1906 وحتى سنة 1910. وهدف هذا العمل كان إعداد خريطة توزيع

المتحدثين باللغة البربرية في الجزائر. (Gautier & Doutté, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 3-6)

وفي الجزئين الثالث والرابع من هذا الكتاب، أجرى المؤلف مقارنة بين نتائج المسح الإحصائي وتعداد سكان الجزائر سنة 1911، موضحًا الفرق في أعداد السكان بين سنة 1906، التي انطلق فيها إجراء الإحصاء، وسنة 1911. وأكّد أن هناك اختلافًا كبيرًا في عدد القبائل التي لا تزال تتحدث باللغة البربرية في الجزائر.

وقسّم حديثه في هذا الجزء حسب النطاق الجغرافي. فبدأ بمنطقة قسنطينة والمناطق المجاورة لها، مثل عين البيضاء وأم البواقي وباتنة وخنشلة. كما تناول منطقة بجاية، والجزائر العاصمة والمناطق المحيطة بهما، ثم تحدث عن انتشار اللغة البربرية في منطقة وهران، وأخيرًا في مناطق الجنوب الجزائري. (Gautier & Doutté, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 7-49)

أمّا الفصلان الخامس والسادس من الكتاب، فهما عبارة عن ملحق غير رسمي للتحقيق. خصّصهما المؤلفان للتفصيل في اختلاف اللهجات التي يتحدث بها السكان، ولتحديد نسبة معرفتهم باللغة العربية وفهمها. وأكّدا أنَّه رغم انتشار استخدام العربية، إلا أن العديد من القبائل لا تزال تحافظ على لغتها الأم، ويعود ذلك إلى اعتماد السكان على تدريب أبنائهم منذ الصغر على الحديث بلهجاتهم الأصلية. ثم أشارا إلى أسماء القبائل التي لا تزال تتحدث بلغتها الأم، والبلديات التي أصبح جميع سكانها يتحدثون العربية. (Gautier & Doutté, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 50-139)

وفي الفصل السابع والثامن، قام فيهما «غوتييه» و«دوتي» بمناقشة وتحليل نتائج التحقيق. وقد أجرى الباحثان مقارنة بين النتائج التي توصلا إليها في تحقيقهما والنتائج التي توصل إليها «هانوتو Hanoteau» سنة 1860. كما قاما بمقارنة خريطة امتداد اللغة البربرية لسنة 1860 مع خريطة سنة 1911، بهدف معرفة مدى انتشار هذه اللغة. واختتم الكتاب بمجموعة من الاستنتاجات حول الأسباب التي ساهمت في انتشار اللغة العربية في المناطق التي يتحدث سكانها باللغة البربرية. (Gautier

& Doutté, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 140-157)

- كتاب حول «**الجزائر والمتروبول**» **L'Algérie et la Métropole**، يحتوي هذا الكتاب على 254 صفحة تم طبعه سنة 1920.

بدأ المؤلف كاتبه هذا بمقدِّمة وضَّح فيها أهمية الجزائر بالنسبة للفرنسيين، خاصَّة مع امتداد نفوذهم إلى تونس والمغرب، وأوضَّح بأنَّ استمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر معناه ضمان استمرار هيمنة فرنسا على شمال إفريقيا. (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. VII-IX)

قسّم المؤلف هذا الكتاب إلى أربعة أبواب (كتب). جاء الكتاب الأول بعنوان: «الغزو La Conquête»، وهو مقسّم إلى فصلين.

ففي الفصل الأول، تحدّث عن التحريات التي أجريت في كهوف منطقة «الظهرة» سنة 1913، موضحًا نظرته الشخصية لأحداث المجازر التي ارتكبها الجيش الفرنسي بقيادة «الماريشال بيليسيه Maréchal Pélissier» في 19 جوان 1845، والتي أدت إلى إبادة قبيلة كاملة. وبدأ بدراسة موقع جبل الظهرة الجغرافي وخصائصه الطبيعية وميزات الكهوف التي لجأت إليها القبيلة. وأكّد أنه بعد بحثه توصّل إلى أن جبال الظهرة تتضمن مغارتين: الأولى خاصة بـ«الفراشيش (Frachich)» والثانية خاصة بـ«السبيهة (Sbéhas)».

وأشار إلى تضارب الروايات حول أي المغارتين كانت مقصودة بالمجزرة، لكنه أكّد وقوع مجزرتين: الأولى في «كهوف الفراشيش» بتاريخ 19 جوان 1845، والثانية في «كهوف السبيهة» بتاريخ 12 أوت 1845. كما بيّن أن «سانت أرنو Saint-Arnaud» قاد الجيش الفرنسي في منطقة «سيبهة»، بينما كان «الماريشال بيليسيه» يحاصر كهف «الفراشيش». أما الفصل الثاني، فتناول ظروف غزو الجزائر وتاريخه، حيث قدّم المؤلف رؤيته الشخصية لعملية الغزو الفرنسي للجزائر. (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. 11-62)

وفي الكتاب الثاني: «التطوير والتثمين La Mise en Valeur»، قسمه غوتييه أيضًا إلى فصلين.

تحدث في الفصل الأول عن مشروع السكة الحديدية الفاشل، وكشف فيه عن مشاريع فرنسا لإنشاء وتطوير خطوط السكك الحديدية في الجزائر. وقد قام «غوتييه» بدراسة ميدانية لمسار هذه السكة سنة 1916، ونشر نتائج دراسته سنة 1917. وأوضح أن الإدارة الفرنسية قررت إنجاز سكة حديدية بين غليزان وتيارت، لكنها واجهت صعوبات كبيرة، خاصة في تحديد المسار. كما شرح فوائد هذا الإنجاز الاقتصادية، نظرًا لاعتماد المنطقة بالدرجة الأولى على الفلاحة، خصوصًا الفلاحة الجافة. وأشار أيضًا إلى رفض كبير من طرف مسؤولي مدينة وهران، خشية أن يؤثر المشروع على حركة التجارة في المدينة.

أما الفصل الثاني، فتناول منطقة «الونزة»، حيث أجرى «غوتييه» دراسة ميدانية سنة 1916، ونشر نتائجها سنة 1918. وشملت الدراسة وصف طبيعة المنطقة وثرائها بالمعادن، خاصة خام الحديد. كما ذكر منطقة «بوخضرة» في ولاية تبسة، التي تحتوي أيضًا على خام الحديد، وأشار إلى وجود معادن أخرى في هذين المنجمين، مثل النحاس والرصاص والزنك، مؤكدًا على ضرورة استغلال قدرات المنجمين، خصوصًا منجم «الونزة». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. 63-130)

أمّا الكتاب الثالث، فخصصه المؤلف لـ «الأوروبيون»، وتضمن فصلين.

في الفصل الأول، تناول المؤلف شخصيتين فرنسيتين هما «إميل موباس Emile Maupas» و«الأب دوفوكو Le Père de Foucauld». وقد اختار لهذا الفصل عنوان: «جزائريان»، وخصصه للتعريف بهاتين الشخصيتين ونشاطاتهما في الجزائر، واللقاءات التي جمعته بهما خلال رحلته إلى الصحراء، خاصّة مع «الأب دوفوكو»، الذي سافر كثيرًا في هذه المنطقة ودرس لهجة سكانها.

أما الفصل الثاني، فتناول تفاصيل الأعمال التي قام بها بعض الجزائريين ضد اليهود يوم 27 جانفي 1898، بقيادة «ماكس ريجي Max Régis»، والتي ساهمت في انتشار روح التمرّد، خاصّة في مدينة الجزائر العاصمة. وبيّن المؤلف كثرة أعمال النهب والتخريب التي شملت محلات ومنازل اليهود، كما أشار إلى بعض الإصدارات الأدبية التي أصدرها كتاب فرنسيون عن الأعمال المناهضة لليهود التي

شهدتها الجزائر منذ صدور مرسوم «كريميو» في أكتوبر 1870. (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. 131-205)

أمّا الكتاب الرابع، الذي اختار له المؤلف عنوان: «مسألة الأهالي في الجزائر»، فقد خصصه للحديث عن القضايا التي لا تزال تشكل حدًّا فاصلًا بين الجزائريين والفرنسيين. حيث بدأ بالحديث عن مسألة الألقاب في الجزائر، متناولًا القانون الصادر سنة 1882 ومدة تقبّل الجزائريين له. ثم انتقل لإجراء مقارنة بين طريقة تسيير الفرنسيين للجزائر، بالاعتماد على المكاتب العربية، وطريقة تسييرهم لتونس والمغرب. وأكّد أن التجارب التي خاضتها الإدارة الفرنسية في مستعمرتها الجزائرية مكنتها من تسيير أمور تونس والمغرب بسلاسة.

واختتم المؤلف هذا الجزء بتبيان أثر القوانين الفرنسية في تكوين مجتمعين متناقضين في الجزائر: المجتمع الأوروبي والمجتمع الجزائري، خاصّة القوانين التي أصدرها «الملك نابليون» عند زيارته للجزائر سنة 1863 و1865، وما نتج عنها من انتشار المجاعة في الجزائر سنة 1869. (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. 207-254)

- ألف كتاب: «**بنية الجزائر Structure de l'Algérie**»، طبع عام 1922 وعدد صفحاته 240، تم طبعه من طرف جمعية النشر الجغرافي والعلمي، مكتبة الجمعية الجغرافية 184 شارع بوليفارد، سانت جيرمان، باريس، كما عثرنا على مسودة هذا الكتاب، والتي كتبها المؤلف بالآلة الراقنة مع إدراج ملاحظات عليها بخط اليد، وتتكون هذه المسودة من 575 صفحة وهي متوفرة على موقع الرقمي للمكتبة الوطنية الفرنسية « Gallica – BnF»[1]

[1]– **عثرنا على مسودة كتاب « Structure de l'Algérie»، في موقع المكتبة الوطنية الفرنسية "GALIGA"، تاريخ الاطلاع والتحميل: 04 مارس 2026 عبر الرابط:**
https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b108702894.image

تضمن هذا الكتاب مقدمة، وضَّح فيها المؤلف مجموعة الخرائط التي أعدها الباحثون الفرنسيون حول طبوغرافيا الجزائر، والتي بلغ عددها نحو 50,000 خريطة حتى نوفمبر 1920. كما بيّن مدى الارتباط الوثيق بين الإطار الجغرافي لبلدان شمال إفريقيا الثلاث: تونس، الجزائر، والمغرب. وفي ختام المقدمة، قدّم المؤلف شكره لكل من ساهم في إنجاز هذا الكتاب، خاصّة الحاكم العام للجزائر ومجلس جامعة الجزائر. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 5-6)

قسَّم «غوتييه» مؤلفه هذا إلى مجموعة من الكتب، حيث جاء الكتاب الأول بعنوان: «الإطار Le Cadre»، وضمَّ خمسة فصول. تحدث المؤلف فيها عن أوجه التشابه والترابط بين جبال الأطلس الممتدة في شمال إفريقيا – المغرب، الجزائر، وتونس – وبين الجبال المتواجدة في الجزء الجنوبي الغربي من أوروبا، خاصّة إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا. كما تناول منطقة توات والتغيرات الجيولوجية التي شهدتها مظاهر الطبيعة المختلفة في الجزائر، وبيّن ارتباطها الوثيق بالخصائص الجيولوجية لبلدان شمال إفريقيا، وتأثير الصدوع التي عرفتها تضاريس الجزائر على شمال إفريقيا وجنوب أوروبا. كما ناقش المؤلف العواصم التي عرفتها الجزائر منذ فترة ما قبل التاريخ، مع إبراز أهميتها الجغرافية ومواقعها الاستراتيجية. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 7-38)

أمّا الكتاب الثاني، فاختار له عنوان: «التاريخ الجيولوجي L'Histoire Géologique»، وقسّمه إلى ستة فصول. تناول المؤلف في هذه الفصول العصور البدائية لتكوين شمال الجزائر من الناحية الجيولوجية، وبيّن الخصائص الجيوفيزيائية للصخور والجبال. كما تحدث عن خليج «قابس» والمشروع الفرنسي المزمع تنفيذه لإنشاء بحر داخلي يشمل «تونس» و«الجزائر» (شط الجريد وشط ملغيغ). وختم المؤلف هذا الكتاب بالإشارة إلى أن الجزائر منذ العصور الجيولوجية القديمة شهدت ظهور شطوط مالحة، وأن امتداد جبال الأطلس التلي والصحراوي شكّل لها إقليمين متباينين في التضاريس. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 39-86)

الكتاب الثالث حول: «الهضاب العليا Hauts Plateaux»، وقد قسّمه المؤلف إلى ستة فصول. خصّص هذه الفصول لمعالجة التغيرات التي شهدتها جبال الأطلس الصحراوي، والزمن الجيولوجي الذي استغرقته هذه الجبال في تكوينها. كما أجرى المؤلف مقارنة بين هذه السلسلة الجبلية وسلسلة

الأطلس التلي الموازية لها، من حيث التعقيد والارتفاع، ثم تناول خصائص الهضاب العليا ومنطقة السهوب ومكونات صخورها، سواء في المنطقة الغربية للجزائر أو الشرقية للمغرب. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 87-130)

أمَّا الكتاب الرابع فتمحور حول «إلتواءات التل Les Plis De Tell»، اندرج ضمنه ثلاث فصول، عالج فيه الكاتب مسألة أنواع الصخور التي تُشَكِلُ جبال الأطلس، وأثر هذا التنوع على المياه الجوفية في المنطقة، كما أشار إلى الترابط بين «جبال الألب» الأوروبية وجبال الأطلس في شمال إفريقيا، ليتحدَّث بعدها عن التقلبأت التي مر بها تكوين جبال الأطلس الصحراوي والأطلس التلي، والتي تعرَّضت للكثير من التقلبأت باعتبار أنَّها قريبة من البحر، مثل «جبال الألب» في جنوب قارة أوروبا. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 131-148)

الكتاب الخامس: «التلال العرضية Les Transversales du Tell»، وقد قسّمه المؤلف إلى تسعة فصول. بيّن المؤلف في هذه الفصول خصائص المنطقة الوسطى والغربية للجزائر، مركزًا على أنواع السهول المنتشرة فيها، مثل سهل «متيجة» وسهل «وهران». كما شرح خصائص بعض أودية المنطقة الشمالية للجزائر، متناولًا قوة تدفق المياه ومسارها، بالإضافة إلى الأزمنة الجيولوجية التي تشكل فيها كل وادٍ. كما تطرق أيضًا إلى سواحل مدينة عنابة، من حيث التكوين الجيولوجي وعلاقتها بالسواحل المجاورة، ثم تناول الخصائص الطبيعية لمدينتي بجاية وتيارت، مع إبراز ارتباطها التاريخي بالدول التي نشأت في المنطقة. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 149-200)

أمَّا الكتاب السادس: «**المناطق الطبيعية في الجزائر**»، ذكر فيه الهدف من الدراسة، محددًا إياه بالكشف عن التغيرات الجيولوجية التي شهدتها الجزائر بصفة عامة، ومنطقة الصحراء بصفة خاصة. كما أكّد أن لهذه التغيرات تأثيرًا كبيرًا على الوسط البشري، وهو ما يرتبط بما يُعرف اليوم بالجغرافيا البشرية، خاصة فيما يتعلق بانتشار اللغة العربية والبربرية. كما تضمّن هذا الكتاب مجموعة من الخرائط التي توضّح المناطق الجغرافية التي تناولها المؤلف في دراسته. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, pp. 201-217)

- شارك في تأليف كتاب «**الإقليم الجنوبية للجزائر Les Territoires du Sud d'Algérie**»، وتحديدا في الفصل الثاني للكتاب: «**الوصف الجغرافي Description Ggéographique**»

شرح أقسام صحراء الجزائر،Description Ggéographique موضحًا الخصائص الطبيعية والمناخية لكل قسم، مع التركيز على الجزء الشمالي الغربي منها. وخصص جزءًا من الفصل للحديث عن سكان الصحراء، متناولًا أسلوب حياتهم وعلاقاتهم بالإدارة الفرنسية. كما قدم مقارنة بين السياسة الفرنسية في ترويض الصحراء والسياسة الأمريكية في المناطق المماثلة. (Gautier, Description Ggéographique, 1922, pp. 23-118)

- ألف كتاب «**الأطلس المتوسط Le Moyen- Atlas**»، والذي طبع سنة 1926.

جمع المؤلف في هذا الكتاب المقالات التي كتبها في مجلة «هسبريس Hespéris» سنتي 1925 و1926. ويتكوَّن هذا الكتاب من 86 صفحة، عالج فيه الخصائص الطبيعية وتكوين صخور جبال الأطلس المتوسط في المغرب ومنطقة الجنوب الغربي للجزائر، خاصة هضبة وهران. كما شرح مختلف التطورات التي تعرَّضت لها المنطقتان عبر الأزمنة الجيولوجية. (Gautier, Le Moyen- Atlas, 1926, pp. 1-86)

- الكتاب الموالي: «**انتشار الإسلام في شمال إفريقيا: القرون المظلمة للمغرب**»

« L'Islamisation de l'Afrique du Nord : Les siècles obscurs du Maghreb »

طُبع أول مرة سنة 1927 وبلغ عدد صفحاته 455 صفحة. أعاد المؤلف طباعته للمرة الثانية بعنوان: «**ماضي شمال إفريقيا: القرون المظلمة**» (Le passé de l'Afrique du Nord: Les siècles obscurs)، وصدرّت هذه النسخة سنة 1937 بعدد صفحات 460 صفحة. وسنحاول فيما يلي التطرق إلى الجانب الشكلي للكتاب، مع إبراز الفروقات بين طبعة سنة 1927 وطبعة 1937.

في الطبعة الأولى للكتاب، بدأ المؤلف بتمهيد بيَّن فيه هدف كتابه والموضوع الذي يعالجه، كما تناول فيه التباين الكبير في تسمية المنطقة وتحديد إطارها الجغرافي، ثم أوضح أهمية فترة التاريخ الوسيط للمنطقة، أو ما سمّاها هو «العصور الوسطى». أمَّا في الطبعة الثانية، فجعل هذا التمهيد جزءًا من المقدمة العامة للكتاب.

قسّم المؤلف كتابه في الطبعة الأولى إلى أجزاء، إذ جاء الجزء الأول بعنوان: «المصادر العربية»، وقسّمه إلى فصلين خصّصهما لتقديم دراسة تقييمية للمصادر العربية التي تناولت تاريخ بلاد المغرب في العصور الوسطى، خاصّة كتاب «روض القرطاس» وكتاب «العبر» لابن خلدون، مع تقديم «غوتييه» لرأيه وتحليله لهذه المصادر.

أما الجزء الثاني، فقسّمه المؤلف إلى أربعة فصول، فتناول في الفصل الأول الإمبراطورية القرطاجية وأسباب سقوطها، مع إجراء مقارنة بين ما أورده المؤرخ «بروكوب Procope» والمصادر العربية حول هذه الإمبراطورية. وخصّص الفصل الثاني للحديث عن الإمبراطورية الرومانية، مركزًا على بعض الحقائق الديمغرافية والاجتماعية في إفريقيا الرومانية المسيحية، خاصّة مسألة استخدام الفيلة. أمّا الفصل الثالث والرابع، فخصصهما المؤلف لتبيان ظروف انتقال الجمال إلى شمال إفريقيا، مع إيراد شهادات بعض المؤرخين في هذا الشأن. (Gautier, l'islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Magreb, 1927, pp. 7-220)

لينتقل المؤلف مباشرة إلى القسم الثاني من الكتاب بعنوان: «القرون المظلمة للمغرب»، وقد قسّمه إلى عشرة فصول. تناول في هذه الفصول بدايات الفتح العربي لبلاد المغرب، مع إبراز موقف قرطاجة الرومانية من هذا الفتح، كما بيَّن موقف البربر ودور كسيلة والكاهنة في مواجهة الفتح العربي.

في الفصل الثاني من هذا القسم، تناول «غوتييه» ظهور الخوارج في المنطقة، خاصّة خلال فترتي «الدولة الرستمية» و«الدولة الفاطمية»، كما أشار إلى الثورات التي شهدتها المنطقة، وصولًا إلى الغزو الإسباني لسواحل بلاد المغرب. وختم كتابه بتقديم نظرة عامة حول أوضاع المغرب في أواخر فترة العصور الوسطى وبداية العصر الحديث. (Gautier, l'islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Magreb, 1927, pp. 221-418)

لكن في الطبعة الثانية غير نموذج دراستنا من تقسيم الكتاب، حيث جاء في شكل كتب، إذ جاء الكتاب الأول بعنوان: «الماضي البعيد» قسَّمه إلى فصلين، تحدَّث فيهما عن سُكَّان إفريقيا الأوائل وعن المصريين وعلاقتهم بشمال إفريقيا، بالإضافة إلى حديثة عن أصل البربر والآلهة المنتشر في شمال إفريقيا، وتقديم تعريف لبعض الشخصيات المسيحية مثل «القديس سانت لويس» من السنغال. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 7-58)

أمَّا الكتاب الثاني فخصّص لـ «**مصادر التاريخ**»، وهو في مضمونه مشابه لما ورد في الجزء الأول لطبعة 1927، حيث قدَّم فيه دراسة للمصادر الأساسية لتاريخ بلاد المغرب ككتاب روض القرطاس وكتاب تاريخ ابن خلدون، في حين جاء الكتاب الثالث بعنوان: «**ما هو ضروري لمعرفة المغرب القديم لتنظيم تاريخ العصور الوسطى**»، وقسَّمه إلى أربع فصول، خُصِّصَت للحديث عن الحكم القرطاجي والروماني للمنطقة، كما أشار فيه إلى الحيوانات التي كانت معروفة في المنطقة خلال هذه الفترة الزمنية، كما أشار في حديثه لبدايات ظهور الجمال والخيول في بلاد المغرب، والهجرات البشرية التي شهدتها المنطقة. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 59-246)

في حين خصّص الكتاب الرابع لـ «القرون المظلمة»، وقسّمه إلى عشر فصول تتضمن ما ورد في القسم الثاني من الطبعة الأولى. خصّص هذا الجزء للحديث عن حركة الخوارج في بلاد المغرب والدول التي ظهرت في المنطقة حتى انهيار الدولة الموحدية. واختتم «غوتييه» كتابه بتقديم صورة عن أوضاع بلاد المغرب في نهاية العصور الوسطى وظهور الدولة الحفصية والزيانية.

كما زود الكتاب بقائمة للأعمال والمصادر التي استند إليها في تأليفه، وقائمة أخرى لخرائط متنوعة، مثل خريطة حدود الدولة القرطاجية وخريطة الحدود الرومانية والبيزنطية. بالإضافة إلى ذلك، تضمّن الكتاب مجموعة من النقوش الصخرية المنتشرة في عدة مناطق من شمال إفريقيا. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 247-446)

- شارك في تأليف كتاب «**رحلة عبر الصحراء الكبرى Faisons Le Transsaharien**»، يتكوَّن من حوالي 70 صفحة، بمقال عنوانه «**عبر الصحراء A Travers Le Sahara**» من الصفحة 48 إلى الصفحة 68.

تضمن المقال دراسة مفصَّلة حول الطرق البرية التي سعت فرنسا لإنشائها لضمان عبور الصحراء الجزائرية في أسرع وقت ممكن. وبيّن المؤلف الدور الذي لعبه اختراع السيارات في تقليص مدة الرحلة في المناطق الصحراوية. كما أوضح الفرق بين الطريق الشرقي للصحراء، الذي يمر عبر واحات «ورقلة» و«تقرت»، والطريق الذي يعبر «الأغواط» أو الجهة الغربية للجزائر. وفي الختام، ركّز على أهمية مختلف الوسائل العصرية، خاصة السيارات والطائرات، في اكتشاف الصحراء وتغيير الوجه العام لها. (Gautier, A Travers Le Sahara, 1927, pp. 48-68)

- كتاب «**الصحراء Le Sahara**»، طبع سنة 1928 في 323 صفحة.

قسَّم المؤلف هذا الكتاب إلى أربعة كتب، جاء الكتاب الأول بعنوان: «عموميات حول الصحراء». وضم هذا الكتاب فصلًا واحدًا فقط، تطرق فيه المؤلف إلى الحدود الجغرافية للصحراء، والبنية الجيولوجية لتضاريسها، ومناخها. كما تحدث عن أنواع النباتات والحيوانات التي تعيش في هذه المنطقة. (Gautier, Le Sahara, 1928, pp. 9-35)

وفي الكتاب الثاني: «الحياة الطبيعية الحالية والماضية في الصحراء»، تحدَّث في أربعة فصول حول التغيرات التضاريسية والمناخية التي عرفتها الصحراء، عبر مختلف الأزمنة الجيولوجية، وبين أثر مختلف العوامل، خاصَّة عامل التعرية الريحية في تحديد أشكال مختلف التضاريس، ليتكلَّم بعدها على أبرز الأنهار المنتشرة في الصحراء «كنهر النيل» و«نهر الساورة»، وبيَّن أسباب جفاف بعضها وأثره في جفاف الواحات خاصَّة منطقة «تنزروفت». (Gautier, Le Sahara, 1928, pp. 39-125)

أمَّا الكتاب الثالث فخصصه لـ «تاريخ الصحراء»، وقسَّمه إلى أربعة فصول خصّصها للحديث عن الهجرات البشرية التي عرفتها صحراء شمال إفريقيا، والظروف التي ساهمت في انتقال الجمال إلى هذه المنطقة، ليتحدَّث بعدها على خصائص الواحات المنتشرة في المنطقة الممتدة من واحات «سيوة»

في مصر إلى الواحات المنتشرة في موريتانيا، مع إبراز أسلوب حياة السُّكَّان في هذه الواحات. (Gautier, Le Sahara, 1928, pp. 129-227)

- شارك في تأليف كتاب على شكل تقارير لأكاديمية العلوم الاستعمارية سنة 1929، بمقال عنوانه «**مئوية الجزائر**».

تحدَّث فيه عن التحولات التي عرفتها الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي، وأثر هذا الاحتلال على الأوضاع الداخلية في فرنسا وعلاقاتها الخارجية، وبيَّن أثر مختلف هذه الأوضاع على الجانب الاجتماعي في الجزائر، ومدى النجاح الذي حقَّقته فرنسا في مائة سنة. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, pp. 57-72)

- نشر أيضاً مقالاً بعنوان: «**النعامة الجزائرية L'Autruche Algérienne**»، صدر في كتاب، أشرفت على إصداره أكاديمية العلوم الاستعمارية.

ذكر فيه أبرز الحيوانات التي كانت تعيش في صحراء الجزائر مع بداية الاحتلال الفرنسي، وركَّز على دراسة تواجد النعام في الصحراء. ثم بيَّن المشاريع التي طبَّقتها فرنسا من أجل تدجين هذا الحيوان ونتائجها. (Gautier, L'Autruche Algérienne, 1929, pp. 229-240)

- شارك أيضاً في تأليف كتاب «**جزائر اليوم وغدا، الجزائر عمل فرنسي Une Œuvre Française L'Algérie**» الذي طبع سنة 1929 من طرف «**جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الحرة للعلوم السياسية**» شارك في تأليفه أيضاً «باول أزان، وأوغستين برنارد، وم. بومبارد» وغيرهم.

تناول الكتاب جوانب متعددة من الجزائر، من خلال محاضرات ألقاها هؤلاء الباحثون، مقدمًا منظورًا فرنسيًا حول الاستعمار والمجتمع الجزائري في تلك الفترة. (Bernard, Ozan, d'Esperey, Pierard, & Gautier, 1929, pp. 1-296)

نشر «غوتييه» في هذا الكتاب مداخلة حول: «جزائر اليوم وغدًا L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain»، تناول فيها أبرز التطورات الاقتصادية التي أحدثها الاحتلال الفرنسي، مثل زراعة الكروم والحمضيات وتوسيع مجالات الزراعة الجافة في الجزائر. كما بيَّن التحولات الاجتماعية التي شهدتها البلاد منذ بداية الاحتلال، من خلال إبراز نمو عدد المستوطنين وعدد الجزائريين، والجهود التي بذلتها الإدارة الفرنسية لتحسين المستوى المعيشي للسكان. (Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, pp. 261-293)

- كتاب «**تطور الجزائر L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930**»، يحتوي على 98 صفحة، طبع سنة 1930 في إطار الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر، وهو كتاب مخصّص للكشف عن التحولات التي عرفتها الجزائر من سنة 1830 إلى 1930.

قُسِّمَ هذا الكتاب إلى ستة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان: «السياسة الفرنسية»، حيث بدأ بالإشارة إلى أن فرنسا شهدت تغيرات سياسية كبيرة أدت إلى تغيّر سياستها خمس مرات تبعًا لتبدّل حكوماتها، ثم تناول الجهود التي قامت بها الإدارة الفرنسية لاستعادة الجزائر وتحقيق غزوها، وأبرز التحولات الإدارية التي عرفتها البلاد.

أما الفصل الثاني، «الاحتلال»، فتحدّث فيه عن تطور عملية استيطان الجزائر وما شهدته من تغيّرات وصعوبات، والدور الذي قامت به الإدارة الفرنسية لدعم المستوطنين، خاصة بعد تزايد عدد الأوروبيين في الجزائر، وهو ما ساهم بشكل مباشر في ظهور مجتمع مختلط جديد في المنطقة. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 5-26)

في الفصل الثالث الذي تمحور حول «تطور السكان»، واصل المؤلف حديثه عن عمليات استيطان الجزائر وتطور أعداد الفرنسيين والأوروبيين، كما أشار إلى تعداد الجزائريين والجهود التي بذلتها الإدارة الفرنسية لتحسين أوضاعهم الصحية، لا سيما في محاربة الأمراض.

أما الفصل الرابع فعالج فيه «التحولات الاقتصادية»، من خلال معالجة التطورات التي شهدتها الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي، خاصة في المجال الزراعي، حيث استعرض أنواع الزراعات التي كانت

منتشرة خلال الحكم التركي، ثم بين التحسينات والتغييرات التي أدخلها الفرنسيون، بما في ذلك زراعة التبغ والحمضيات والكروم، إضافة إلى تطوير تربية الحيوانات، وخصوصًا المواشي والجمال. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 27-65)

وفي الفصل الخامس، «الصناعة الأوروبية»، ركّز المؤلف على الإمكانات والثروات المعدنية التي تمتلكها الجزائر، خاصة النحاس والحديد، وبيَّن مدى استغلال فرنسا لهذه الموارد، كما ناقش آفاق الاستثمار الصناعي، مع التركيز على الصناعات المرتبطة بالزراعة، لا سيما إنتاج القمح وزراعة الكروم (لصناعة الخمر).

أما الفصل السادس والأخير، فخصّصه المؤلف لتقديم حوصلة حول «تطور التجارة»، حيث عرض تقارير وأرقامًا عن حجم المبادلات التجارية للجزائر، وأوضح المشاريع التي أطلقتها فرنسا لتعزيز التجارة، وخصوصًا مشاريع السكك الحديدية وتطوير الموانئ (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 66-95)

- في سنة (1930). أصدر أيضاً كتاباً آخر عن «**قرن من الاحتلال، دراسات مكروسكوبية**، Un siècle de colonisation études Au microscope» صدر سنة 1930 وعدد صفحاته 390، وهو كتاب صدر أيضاً ضمن الاحتفالات المخلدة لاحتلال فرنسا للجزائر.

قُسِمَ هذا الكتاب إلى تمهيد، وضَّح فيه أهمية توفُّر الاحصائيات لضمان دراسة موضوعية عن التطور الذي عرفته الجزائر منذ الاحتلال.

الكتاب الأول، فاحتوى على فصل واحد: «الظاهرة الاستعمارية في مدينة بوفاريك 1830–1930»، تناول فيه المؤلف جهود الإدارة الفرنسية منذ سنة 1830 لاستغلال منطقة بوفاريك، موضحًا أنّها جزء من سهل «متيجة» الغني بالموارد الزراعية. كما بيّن الصعوبات والعراقيل التي واجهها الفرنسيون في سبيل تثبيت الاستيطان، مثل المقاومة المحلية، الظروف الطبيعية، وضرورة تنظيم المستوطنين الأوروبيين لضمان نجاح المشروع الاستعماري في المنطقة. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 9-90)

وفي الكتاب الثاني، الذي تمحور حول: «**العمال**»، والَّذي تضمَّن فصولاً مخصّصة للحديث عن التركيبة السُّكَّانية للجزائر، إذ قسَّمهم إلى خمس مجموعات هي: «**تكتل المستوطنين**»، «**المثقفون**»، «**الرهبان**»، «**الجنود**»، «**السُّكَّان الأهالي**»، خصّص هذا الفصل لدراسة التطورات التي عرفها الجانب البشري في الجزائر، ودور المستوطنين والجيش الفرنسي في تثبيت دعائم الاحتلال الفرنسي، كما أشار إلى دور الرهبان في نشر المسيحية، وفيما يخص حديثه عن الجزائريين (السُّكَّان الأهالي). فتكلم عن التطور الديمغرافي لعددهم حتى سنة 1926، وأشار التحولات التي عرفها هؤلاء السُّكَّان، خاصَّة في الجانب الاجتماعي بعد صدور القوانين الفرنسية، خاصَّة قانون الحالة المدنية سنة 1882. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 91-240)

أمّا الكتاب الثالث «العمل»، فهو مقسّم إلى ثلاثة فصول، قدّم فيها وصفًا لمدينة الجزائر وتبيين التغيرات التي عرفتها من حيث الهندسة المعمارية وحجم السكان، والتطور الذي شهدَه ميناء المدينة نتيجة تطور الحركة التجارية. كما تناول الثروات المعدنية الموجودة في الجزائر، مثل الرصاص والزنك وغيرها من الخامات الثمينة، وأوضح أهمية استغلالها، خاصّة مع تمديد السكك الحديدية نحو المناطق الداخلية. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 241-306)

وفيما يخص الرابع «السهوب»، الذي تضمّن فصلًا واحدًا يحمل نفس العنوان، فقد بيّن فيه أهمية المناطق الداخلية (الهضاب العليا) بالنسبة للفرنسيين، خاصّة في شعبة تربية الحيوانات، لا سيّما المواشي. كما أشار إلى الحيوانات التي كانت منتشرة بكثرة في الجزائر، خاصّة النعام، وبيّن أسباب انقراض هذا الحيوان والمختلف الأمراض التي تصيب الحيوانات الأليفة. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 307-347)

- ألف أيضاً كتاب «**آداب وعادات المسلمين Mœurs et Coutumes Des Musulmans**» الذي طبع سنة 1931، وأعيد طبعه عدة مرات منها طبعة سنة 1955، وهي الطبعة التي استطعنا العثور عليها في المكتبة الوطنية الجزائرية، والتي نعتمد

عليها في دراستنا هذه، يتكوَّن هذا الكتاب من 305 صفحة، وتم طبعه في مطابع بايوت في باريس.

بدأ المؤلف كتابه بمقدمة بيّن فيها أهمية الكتاب لفهم العالم الإسلامي وتبيين طبيعة علاقته مع العالم الغربي الأوروبي. ثم انتقل إلى مضمون دراسته، التي قسّمها إلى خمس كتب، حيث جاء الكتاب الأول بعنوان «**الإسلام كما نعرفه**»، وقسّمه إلى خمس فصول خصّصها لعرض نظرة الفرنسيين للدين الإسلامي، وتبيان عادات وتقاليد المجتمع الجزائري، والتنظيم العائلي الخاص بهم، مع تحديد الفروق بينهم وبين المجتمع الأوروبي. كما وضّح وجهة نظره في تنظيم الدولة الإسلامية وشعيرة الحج. (Gautier, Mœurs et Coutumes Des Musulmans, 1955, pp. 7-89)

أمّا الكتاب الثاني، «الشرق»، فقسِّم إلى ثلاث فصول، تحدّث فيها عن الإطار الجغرافي لبلاد المشرق وأهميته الدينية باعتباره المنطقة التي ظهرت فيها الديانات السماوية. كما شرح التطورات الدينية التي عرفتها مصر في فترة الفراعنة، خاصّة فيما يتعلّق بعادات دفن الموتى، ثم انتقل للحديث عن الإمبراطوريات التي ظهرت في المنطقة، لا سيّما تلك التي قامت في مصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين. (Gautier, Mœurs et Coutumes Des Musulmans, 1955, pp. 93-143)

وفي الكتاب الثالث، «العصر الهلنستي»، فقسّم إلى أربع فصول وواصل فيه حديثه عن الإمبراطوريات التي ظهرت في بلاد المشرق، مع التركيز على الإمبراطورية التي أسسها الإسكندر الكبير. تناول حياة هذه الشخصية والتوسعات التي قام بها، خاصّة في بلاد الشام ومصر، ثم بيّن العلاقة بين توسع الحضارة الهلنستية في المشرق وقوتها العسكرية والروحية. (Gautier, Mœurs et Coutumes Des Musulmans, 1955, pp. 147-199)

أمّا الكتاب الرابع، الذي تحدث غيه عن «الحضارة الصحراوية»، فقسّم إلى ثلاث فصول، عالج فيها مراحل نشأة الحضارة الإسلامية في بلاد المشرق والتطورات التي عرفتها، خاصّة في عهد الأمويين والعباسيين، مع ذكر أوجه الاختلاف بينها وبين الحضارة الغربية وموقف المسلمين من الأقليات العرقية. كما تناول الإسهامات التي قام بها المسلمون في مجال ترجمة العلوم من اللاتينية إلى العربية، وما قدموه من

إضافات لهذه العلوم. (Gautier, Mœurs et Coutumes Des Musulmans, 1955, pp. 203-282)

أمّا الكتاب الخامس والأخير، فقد تضمن فصلاً واحدًا بعنوان «القرن العشرين»، قارن فيه بين حال المسلمين في العصور الإسلامية الأولى وحالهم في القرن العشرين، الذي خضعت فيه أغلب دول آسيا وإفريقيا للظاهرة الاستعمارية الأوروبية. كما بيّن مدى اتساع الفجوة بين العالم الإسلامي وأوروبا نتيجة التطورات الصناعية التي عرفتها الأخيرة، رغم خسائر الحرب العالمية الأولى، وأكّد أن العالم الإسلامي بدأ يعرف تطورًا بعد نهاية الحرب، خاصّة في تركيا وبلاد الشام ومصر. (Gautier, Mœurs et Coutumes Des Musulmans, 1955, pp. 283-303)

- كتاب «**المساهمة في دراسة النموذج الترياسي(الثلاثي). في الجزائر Contribution à l'Etude du Modelé Triasique en Algérie**»، **طبع سنة** 1931 في حوالي 60 صفحة.

وهو دراسة جيولوجية فزيائية للتغيرات التي عرفتها تضاريس الجزائر في العصر الثلاثي (العصر الترياسي). دعّم المؤلف هذا الكتاب بمجموعة كبيرة من الصور التي توضح التحولات التي مرت بها الجزائر في هذا العصر، مع التعليق عليها بشكل مفصّل، خاصّة تلك المتعلقة بصخور الملح المنتشرة على حواف الأطلس الصحراوي. كما شرح أثر التغيرات المناخية في تباين تضاريس الصحراء وانتشار الأخاديد والسبخات فيها. وبالإضافة إلى ذلك، أرفق المؤلف في نهاية الكتاب مجموعة من الخرائط الطبوغرافية لتبيين المناطق التي درسها. (Gautier, Contribution à l'Etude du Modelé Triasique en Algérie, 1931, pp. 5-59)

- ألّف «غوتييه» أيضاً كتاب «**ثلاثة أبطال: الجنرال لابيرين – الأب دي فوكو- أمير السلام Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix**»، يتكوَّن هذا الكتاب من 145 صفحة، طبع سنة 1931.

قسّم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء منحها اسم «الكتاب»، حيث جاء الكتاب الأول بعنوان «غزو الصحراء»، واندرج ضمنه فصلان: الفصل الأول بعنوان «الجنرال لابيرين Marie Joseph François Henry Laperrine» والفصل الثاني «الأب دوفوكو». قدّم المؤلف فيهما تعريفًا بالشخصيتين ودور كل منهما في تثبيت دعائم الاحتلال الفرنسي في صحراء الجزائر، كما أشار إلى مختلف الرحلات التي قاما بها وظروف وفاتهما. (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931, pp. 7-63)

أمّا الكتاب الثاني، بعنوان «غزو مدغشقر»، وقد قسّمه المؤلف إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول حول «أمير السلام»، والفصل الثاني «مذكرات ومخطوطات أمير السلام»، والفصل الثالث «الغزو والمقاومة». تحدّث المؤلف فيها عن شخصية «أمير السلام»، وهو أمير من سكان جزيرة مدغشقر لعب دورًا كبيرًا في مواجهة الاحتلال الفرنسي للجزيرة. كما قدّم «غوتييه» تعريفًا بهذه الشخصية وبالأعمال التي قام بها، ثم انتقل للحديث عن الظروف التي دفعت هذا الأمير الملغاشي إلى إعلان التمرّد ضد الاحتلال الفرنسي، كما بيّن المؤلف وقائع محاكمته وتطبيق حكم الإعدام عليه. (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931, pp. 67-139)

- شارك سنة 1931 في تأليف كتاب «**التاريخ والمؤرخون في الجزائر** Histoire et historiens de l'Algérie»، بمقال عنوانه «**الإطار الجغرافي للتاريخ في الجزائر**»

وضَّح فيه أهمية إعادة كتابة تاريخ بلاد المغرب بصفة عامة، والفرق بين النظرة الفرنسية لهذا التاريخ والنظرة العربية. كما أشار إلى المراحل التاريخية الكبرى التي عرفتها المنطقة منذ العهد القرطاجي إلى الاحتلال الفرنسي. (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, pp. 17-35)

- كما أصدر كتاباً بعنوان: «**جنسريق ملك الوندال Gensséric, roi des Vandales**» سنة 1932، يحتوي على 326 صفحة.

قسَّم الكتاب إلى مقدِّمة عامة، خصّصها لتباين أهمية التطرق لتاريخ الوندال في شمال إفريقيا، ودور ملكهم «جنسريق Genséric» في احتلال المنطقة، لينتقل بعدها المؤلف إلى المضمون، بتجزئته إلى ثلاث كتب.

جاء الكتاب الأول بعنوان: «روما والبربر» تضمَّن ثلاث فصول، الفصل الأول «موت روما»، وضَّح فيه أسباب تراجع الهيمنة الرومانية على شمال إفريقيا الاقتصادية والعسكرية بصفة خاصة، وفي الفصل الثاني «البربر»، بين فيه علاقة سُكَّان شمال إفريقيا بروما، ومكونات المجتمع في تلك الفترة الزمنية، أمَّا الفصل الثالث «الجرمان الشرقيون»، تكلم فيه عن الشعوب الأوروبية التي استقرت في شمال إفريقيا منذ القدم. (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, pp. 7-90)

أمّا الكتاب الثاني فجاء بعنوان «الملحمة الوندالية»، وقد قسّمه المؤلف أيضًا إلى ثلاثة فصول. بيّن فيها التنقلات التي قام بها الوندال في قارة أوروبا، خاصّة في بلاد الغال وإسبانيا، والاضطرابات العسكرية التي شهدها شمال إفريقيا في أواخر الحكم الروماني، خاصّة حركة الدوناتيين. كما عرض المسار الذي اتبعه الجيش الوندالي في شمال إفريقيا، والحرب التي خاضوها ضد روما حتى احتلال قرطاج وتوقيع معاهدة السلام معها. (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, pp. 91-188)

أمّا الكتاب الثالث فاختار له عنوان «جنسريق ملك قرطاج»، وتضمن ثلاثة فصول بيّن فيها موقف الجرمانيين من احتلال الوندال لشمال إفريقيا، وسياسة الملك «جنسريق» الداخلية والخارجية. كما شرح أسباب الحرب بين الوندال وروما، والمعروفة تاريخيًا بالحرب البونيقية الرابعة، وما قام به الوندال في سبيل احتلال مدينة روما، وبيّن أيضًا دور البيزنطيين في هذه الحرب. ثم أجرى مقارنة بين الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي من حيث مناطق النفوذ في شمال إفريقيا، وبين عوامل انهيار الاستعمار اللاتيني للشمال الإفريقي، ومدى تأثير الاستعمار الوندالي على قارة أوروبا والحضارة الرومانية، وتأثيره على منطقة شمال إفريقيا بصفة خاصة. (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, pp. 189-323)

- شارك في كتاب «**خمسينية كلية الآداب الجزائرية cinquantenaire de la Faculté des lettres d'Alger**» بمقال حول «**ملاحظات حول الدراسة الجيولوجية للأستاذ «سيغفريد باسارج Siedfried Passarge» حول منطقة «ودرف Oudref**»

وهو عبارة عن دراسة تقييمية للمقال الذي كتبه الأستاذ «سيغفريد باسارج» في مجلة الجمعية الجغرافية لمدينة هامبورغ الألمانية، حول منطقة الأطلس وجنوب تونس.. (Gautier, Une observation à propos de l'Etude géologique du Professeur Siegfried Passarge sur la région d'Oudref, 1932, pp. 233-238)

- أصدر كتاب: «**نصب تين هنان Le Monument de Tin-Hinan**»، صدر في شكل مقال في مجلة «حوليات أكاديمية العلوم الاستعمارية Annales de l'Académie des sciences coloniales»، سنة 1934، بالاشتراك مع «موريس ريجاس Maurice Reygasse».

ثم طبع على شكل كتاب يتكوَّن من 44 صفحة، ويتضمن وصفاً دقيقاً لموقع قبر الملكة «تين هينان»، وتحديداً للفترة الزمنية التي تعود لها مختلف المخلفات الأثرية التي عثر عليها في القبر، كما يتضمن هذا الكتاب مجموعة كبيرة من الصور للآثار التي وجدها «غوتييه» و «ريغاس» في القبر. (Gautier & Reygasse, Le monument de Tin-Hinan, 1934, pp. 1-44)

- كتاب «**إفريقيا البيضاء l'Afrique Blanche**»، صدر بتاريخ 10 أفريل 1939 في 360 صفحة.

قسّم «إميل فليكس غوتييه» هذا الكتاب إلى عناوين فرعية عديدة، حيث خصّص جزءًا منها لدراسة المنطقة الشمالية من قارة «إفريقيا البيضاء»، مؤكّدًا على اعتبار مدار السرطان الفاصل بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء. كما بيّن أنّ المنطقة الشمالية تنقسم إلى قسم شرقي يضم مصر فقط، التي

اعتبرها أصل الحضارة المتوسطية، وقسم غربي يضم باقي دول شمال إفريقيا. ثم تحدّث عن الخصائص الجغرافية العامة للمنطقة الشرقية من القارة، خاصّة منطقة البحيرات الكبرى «طانجانيقا ونياسا وفكتوريا» وعلاقتها بنهر النيل ومصر. كما تطرّق إلى بلاد الحبشة («إثيوبيا») والسودان الأنجلو-مصري، وكذلك ليبيا، من الناحية الاثنوغرافية والطبيعية، بالإضافة إلى الاحتلال الذي تعرّضت له هذه المناطق وموقف السكان منه. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 7-148)

ثم انتقل إلى «إفريقيا البيضاء الفرنسية»، حيث شرح الخصائص الطبيعية والمناخية لمنطقة الأطلس، بالإضافة إلى المجاري المائية الموجودة فيها. كما تحدّث عن كل من الجزائر وتونس والمغرب في عناوين منفصلة، قدّم فيها دراسة شاملة عن الجوانب الطبيعية والبشرية لهذه المناطق. وخلص في ختام كتابه إلى تحديد الفروق بين إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء الغربية، والمجتمعات التي تسكن كلًّا منهما. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 149-353)

3 – المقالات

نشر نموذج دراستنا العديد من المقالات في عدة مجلات علمية، سواء باللغة الفرنسية أو الإنجليزية وحتى باللغة الإيطالية. وسنورد فيما يلي هذه المقالات وفق تصنيف يعتمد على تبويبها حسب عدد المقالات المنشورة في كل مجلة، أي سنرتب المجلات من الأكبر عددًا للمقالات المنشورة فيها إلى الأقل، لنموذج دراستنا «إميل فليكس غوتييه».

1 – مجلة حوليات الجغرافيا Annales de géographie

- نشر مقال في المجلد الثاني العدد السادس الذي صدر شهر جانفي 1893 بعنوان «**استكشاف السيد إميل غوتييه لمدغشقر Exploration de M. Émile Gautier à Madagascar**»، وهو عبارة عن رسالة صغيرة، تتضمن أهمية الاستكشافات التي عثر عليها المؤلف في جزيرة مدغشقر خاصَّة «منطقة تناريف». (Gautier, Exploration de M. Émile Gautier à Madagascar, 1893, pp. 247-248)
- كما نشر في نفس العدد مقالاً آخر عن «**مهمة إميل غوتييه إلى مدغشقر Mission Émile Gautier à Madagascar**»، خصّصه للكشف عن النتائج التي توصل

إليها خلال رحلاته في مختلف مناطق الجزيرة، خاصّة من الناحية الطبيعية، مثل دراسة الحقائق الجيولوجية التي مرت بها الجزيرة والمجاري المائية الموجودة فيها وأهميتها التجارية باعتبارها نقطة ربط بين الجزء الشرقي من آسيا وقارة إفريقيا وأوروبا. كما تحدّث عن أبرز الصناعات المنتشرة في هذه الجزيرة. (Gautier, Mission Émile Gautier à Madagascar, 1893, pp. 355-364)

- مقال يحمل أيضاً عنوان: «**مهمة إميل غوتييه إلى مدغشقر**» نشر في مجلد السنة 4 العدد 15 أشار المؤلف إلى المناطق التي زارها في مدغشقر خاصَّة هضبة بارا والأماكن المحيطة بها والغابات التي تتميز بها مدغشقر، (Gautier, Mission Emile Gautier à Madagascar, 1895, pp. 217-218)
- نشر في نفس السنة (1895). مقال آخر عن «**شرق ملغاش** **L'ouest** malgache»، وهو عبارة عن ملخص للرحلة التي قام بها المؤلف في مدغشقر لمدة 30 شهرًا. تناول المقال بالتفصيل المظاهر الطبيعية الكبرى في الجزيرة، والفروق بين الجزء الشرقي والغربي، وكذلك بين الجزء الشمالي والجنوبي. كما خصّص جزءًا مهمًّا فيه للجانب البشري، بالإشارة إلى أقسام القبائل التي تقطن الجزيرة وطبيعة نشاطهم الاقتصادي. (Gautier, L'ouest malgache, 1895, pp. 310-324)
- نشر أيضاً «**رسالة من مدغشقر** **Lettre de Madagascar**» سنة1897، خصّصه لشرح أهمية البحيرات الموجودة في مدغشقر، خاصّة تلك القريبة من «تناريف». وأشار إلى طريقة تكوين هذه البحيرات جيولوجيًا، والطرق البرية المنتشرة في أنحاء الجزيرة المختلفة. بالإضافة إلى ذلك، بيّن المؤلف حجم الظواهر الطبيعية المنتشرة في مدغشقر وواقع أعمال التنقيب التي تم القيام بها. (Gautier, lettre de Madagascar, 1897, pp. 263-268)
- مقال «**قياس الضغط في الجزء الشمالي لمدغشقر** **L'hypsométrie de la partie septentrionale de Madagascar**»، وهو دراسة جغرافية لمظاهر السطح التي تتميز بها المنطقة الشمالية لمدغشقر، وبين أهميتها التاريخية في كونها طريق للتواصل بين جزئي الجزيرة الشرقي والغربي، والطرق الرابطة بين الجزئيين، وإمكانات إنشاء سكك حديدية تسهل عملية

التنقل بينهما. (Gautier, L'hypsométrie de la partie septentrionale de Madagascar, 1898, pp. 375-377)

- نشر أيضاً في مجلد السنة 12 العدد 61 من مجلة حوليات الجغرافيا رسالتين ومقال:
  - «**رسالة حول وادي الساورة**» قام المؤلف بإرسالها إلى مدير «مجلة حوليات جغرافية»، يتحدَّث فيها عن أهمية الاكتشافات التي عثر عليها فيما يخص «وادي الساورة»، والأدوات الحجرية التي تؤكد قدَّم استقرار الإنسان في المنطقة. (Gautier, Lettre sur L'oued Saoura, 1903, pp. 81-83)
  - **مقال عن «صحراء الجهة الوهرانية Sahara Oranais**» قدّم المؤلف دراسة جيولوجية وجغرافية لمنطقة الجنوب الوهراني والواحات المنتشرة فيها، خاصّة واحات «تيميمون». شرح بالتفصيل التطور الذي عرفته هذه المنطقة في تكوينها، وبيّن طبيعة الاستقرار البشري والقبائل التي تعيش فيها. كما تطرّق إلى الشعوب التي كانت تقطن المنطقة، خاصّة الجالية اليهودية. (Gautier, Sahara Oranais, 1903, pp. 235-259)
  - «**رسالة عن موديز وأهنات Lettre sur le Mouydir et l'Ahnet**»، تكلَّم فيها عن أهمية الموقعين باعتبارهما يقعان في عمق الصحراء بالقرب من عين صالح. كما أشار إلى أبرز ما عثر عليه من أدوات حجرية ونقوش صخرية وأهمية ذلك في معرفة تاريخ المنطقة. (Gautier, Lettre sur le Mouydir et l'Ahnet, 1903, pp. 363-365)
- كتب أيضاً مقال في المجلد 14 العدد 78 لعام 1905، وهو عبارة عن «**تقرير عن المهمة الجيولوجية والجغرافية في منطقة فجيج Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig**»

خصّص المؤلف هذه الدراسة لإبراز الخصائص الطبيعية لمنطقة «فجيج» أو «فكيك» الواقعة على الحدود الجزائرية-المغربية. كما تطرّق إلى التغيرات الجيولوجية التي تعرّضت لها عبر مختلف الأزمنة، وأشار إلى أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين المناطق الشرقية المجاورة، خاصّة واحة «الساورة». وبيّن أهمية هذه المناطق بصفة عامة، والثروات المعدنية المنتشرة فيها، خاصّة النحاس والرصاص، بالإضافة إلى

الإشارة إلى القبائل التي تسكن المنطقة وعلاقتها بالإدارة الفرنسية. (Gautier, Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig, 1905, pp. 144-166).

- كما نشر في نفس العدد مقال «**رحلة السيد غوتييه والسيد تشودو عبر الصحراء Voyage de MMrs Gautier et Chudeau à travers le Sahara**»

وهو عبارة عن ملاحظاتٍ عامةٍ سجَّلها «غوتييه» و«شودو» خلال رحلاتهما إلى الصحراء، خاصة نحو أقصى المناطق الجنوبية، مثل: «توات» و«أدرار» و«تيمياوين» و«عين صالح»، وصولًا إلى مدينتي «غاو» و«تمبكتو». (Gautier, Voyage de MMrs Gautier et Chudeau à travers le Sahara, 1905, pp. 459-461)

- نشر أيضاً مقال «**الدراسات الصحراوية، المقال الأول ÉTUDES SAHARIENNES: Premier article**»، صدر سنة 1906 في مجلد السنة 16 العدد 85 بتاريخ 15 جانفي 1907، من الصفحة 46 إلى الصفحة 69، أمَّا الجزء الثاني لهذا الدراسة «**ÉTUDES SAHARIENNES: Second article**» فصدر بتاريخ 15 مارس 1907 في مجلد السنة 16 العدد 86 من الصفحة 117 إلى الصفحة 138.

وهذين المقالين خصَّصهما «غوتييه» للحديث عن الطابع الجيولوجي للمنطقة الجنوبية الغربية للجزائر، من خلال الكشف عن الخصائص الهيدروغرافية لمظاهرها، مثل: «حاسي رزق الله» وسبخة «تيميمون» و«وادي تابلبالة»، وغيرها من المجاري المائية. كما أشار إلى الطرق البرية التي تربط بين مختلف الواحات والقبائل التي تقطنها، خاصة منطقة «توات». (Gautier, Couverture fascicule Études Sahariennes (premier article), 1907, pp. 46-69،

كما تحدَّث أيضًا عن مظاهر طبيعية أخرى، كالعرق، مثل: «عرق تيميمون» و«عرق الراوي»، وشرح طريقة تشكُّل هذه العروق، ودور التغيرات المناخية في ظهورها. كما بيَّن الفرق بينها وبين المناطق الداخلية، خاصة «النيجر» و«تمبكتو»، من حيث تميُّز هذه الأخيرة بوجود الأنهار وقيام إمبراطورياتٍ

فيها إبَّان العصور الوسطى. (Gautier, Études Sahariennes, Second article, 1907, pp. 117-138)

- كما أصدر في سنة 1907 دراسة نقدية لكتاب «**الدكتور تريبيد Ch. Trépied**» بعنوان: «**العمل الجغرافي للدكتور تريبيد L'oeuvre géographique de Ch. Trépied**»

أشار فيه المؤلف إلى أهمية العمل الذي كان يقوم به الدكتور «تريبيد» بصفته مديرًا للمرصد الجغرافي في الجزائر، وإلى المساعدات التي قدَّمها لمختلف الباحثين الفرنسيين في الدراسات الجغرافية والطبوغرافية للجزائر، خاصة المناطق الصحراوية. (Gautier, L'oeuvre géographique de Ch. Trépied, 1907, pp. 455-457)

- مقال «**هضبة جنوب وهران La Meseta sud-oranaise**» صدر في السنة 18 العدد 100 بتاريخ 15 جويلية 1909 من الصفحة 328 إلى الصفحة 340.

خصَّص هذا المقال لشرح الطابع الجيولوجي للمنطقة الجنوبية لمدينة «وهران»، وركَّز على السهول الموجودة بها وميزات هضابها، خاصة منطقة «عين الحجر» في «ولاية سعيدة». كما قدَّم وجهة نظره بشأن أهمية استغلال هذه المناطق من طرف الإدارة الفرنسية. (Gautier, La Meseta sud-oranaise, 1909, pp. 328-340)

- مقال آخر: «**بين البرواقية وأومال (سور الغزلان). Entre Berrouaghia et Aumale**» نشره في مجلد السنة 19 العدد 105 بتاريخ 15 ماي 1910 من الصفحة 245 إلى الصفحة 259.

بيَّن فيه المؤلف الخصائص الطبيعية والجيولوجية للمنطقة الممتدة من «البرواقية» إلى «أومال» (سور الغزلان)، وشرح خصائص تكوين تربتها والعصور التي ظهرت فيها الجبال القريبة منها، خاصة جبال البيبان. كما أشار إلى الجانب التاريخي للمنطقة ومدى الاهتمام الذي حظيت به في زمن الاحتلال

الروماني، وبيَّن كذلك أهمية المشروع الذي أُنشئ لربط المنطقتين بالطرق والسكك الحديدية. (Gautier, Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, pp. 245-259)

- مقال عن «**المقاطع الطولية للمجاري المائية في الجزائر وتونس Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie**» صدر الجزء الأول في المجلد رقم 20 العدد 112 لعام 1911 من الصفحة 351 إلى الصفحة 366، أمَّا الجزء الثاني لهذا المقال فصدر في المجلد 20 العدد 114 الذي صدر بتاريخ 15 نوفمبر 1911، من الصفحة 431 إلى الصفحة 447.

خصَّص الجزء الأول من المقال للحديث عن خصائص المجاري المائية للمنطقة التلية، كأودية «مجردة» و«وادي يسر» و«التافنة»، وغيرها من المجاري المائية. كما قدَّم المؤلف دراسةً مقارنةً بين أودية المناطق الشمالية للجزائر ونظيرتها في المناطق الشمالية لتونس. (Gautier, Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (Premier Article), 1911, pp. 351-366)

أمَّا الجزء الثاني من المقال، فتحدَّث فيه عن أودية الهضاب العليا، كأودية «الشلف» و«بوسلام» و«سيبوس» و«وادي الرمال»، وقدَّم لها دراسةً جغرافيةً من حيث منابع هذه الأودية ومسارها في الجزائر، والتغيرات التي طرأت عليها عبر مختلف الأزمنة الجيولوجية. (Gautier, Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (deuxième article), 1911, pp. 431-447)

- مقال «**توزيع اللغة البربرية في الجزائر» RÉPARTITION DE LA LANGUE BERBÈRE EN ALGÉRIE**» نُشر في المجلد الثاني والعشرين، العدد 123، الصادر بتاريخ 15 ماي 1913، من الصفحة 255 إلى الصفحة 266. كما وضع خريطةً للتوزيع الجغرافي للغة البربرية في الجزائر في الصفحة 288. وهو عبارة عن دراسةٍ أجراها المؤلف بطلبٍ من «إدموند دوتي (Edmond Doutté)» للكشف عن مدى انتشار اللغة البربرية في الجزائر، بالمقارنة مع اللغة العربية، كما كشف كذلك عن وضع اللغة الفرنسية في المنطقة وإمكانيات

تعويضها للغتين. (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 255-266)

- مقال بعنوان: «**صخور الملح في الجلفة le Rocher de sel de djelfa**»، صدر في العدد 127 السنة 23 بتاريخ 15 جانفي 1914 من الصفحة 245 إلى الصفحة 260.

وهو عبارة عن دراسة طبوغرافية لمنطقة الجلفة بصفة عامة، وصخور الملح التي توجد بالمنطقة، كما وضح فيه مختلف التأثيرات الجيولوجية التي عرفتها المنطقة في مختلف العصور. (Gautier, Le rocher de sel de Djelfa, 1915, pp. 245-260)

- كما كتب في نفس العدد مقالاً آخر بعن وأن: «**قمة سد البحر–La Pointe de Sedd–Ul–Bahr**»، من الصفحة 433 إلى الصفحة 437.

وهو مقال تكلَّم فيه «غوتييه» عن قلعة «سد البحر» أو القلعة الأوروبية التي تقع في مدخل «الدردنيل». وأبرز أهمية هذه القلعة، وتاريخ بنائها، والمجاري المائية التي تحيط بها، والخصائص الجيولوجية للمنطقة التي بنيت فيها. (Gautier, La Pointe de Sedd-Ul-Bahr, 1914, pp. 433-437)

- مقال «**شط تيغري Le Chott Tigri**» تحدَّث فيه المؤلف عن الخصائص العامة للشطوط وطريقة تشكيلها وخصائص تربتها ثم انتقل للحديث عن «شط تيغري» والفرق بينه وبي باقي الشطوط القريبة منه في منطقة جنوب وهران. (Gautier, le Chott Tigri, 1916, pp. 181-189)

ونشر الجزء الثاني لهذا المقال في العدد 136 واصل فيه شرح الخصائص الطبيعية لهذا الشط من خلال دراسة الخريطة الطبوغرافية له وتقديم تفاصيل مهمة عن المجاري المائية الموجودة بالمنطقة. (Gautier, Le Chott Tigri, 1916, pp. 291-302)

- نشر أيضاً مقال عن « **الجنرال جاليني Gallieni**» وهذا في السنة 25 العدد 136 الصادر بتاريخ 15 جويلية 1916 من الصفحة 310 إلى الصفحة 313.

وهذا المقال عبارة عن تعريف بشخصية «**جوزاف غاليني Joseph Simon Gallieni**»، والأعمال التي قام بها في خدمة الاستعمار الفرنسي في كل من «بلاد السودان» و«السنغال» وجزيرة «مدغشقر»، التي أصبح حاكمًا عامًا لها سنة 1896. (Gautier, Le général Galliéni, 1916, pp. 310-313)

- مقال عن المغرب الأقصى حول «**منبع ثادارث بفكيك La source de Thaddert à Figuig**» صدر في العدد 144 السنة 26 بتاريخ 15 نوفمبر 1917 من الصفحة 453 إلى الصفحة 466.

تحدث في هذا المقال عن مدينة «فجيج» من حيث خصائصها الطبيعية، والعوامل التي ساهمت في جعلها مركزًا سكانيًا كبيرًا مقارنة بالمناطق المجاورة. كما شرح تأثير توافر المياه في كثرة البساتين واستقطاب الاستقرار البشري. (Gautier, La source de Thaddert à Figuig, 1917, pp. 453-466)

- مقال «**المدن المقدسة في الجزيرة العربية Les villes saintes de l'Arabie**»، صدر سنة 1918.

خصَّص المقال للحديث عن مدن شبه الجزيرة العربية المشهورة، والتي تعد مراكز دينية، خاصة مدينتا مكة والمدينة المنورة، بالإضافة إلى مدينتي «الطائف» و«جدة». كما شرح أهمية هذه المدن في الجانب التجاري، خاصة مدينة «جدة» التي اعتبرها مركزًا للتجارة في بلاد الحجاز منذ القدم. واختتم المؤلف مقاله بالحديث عن اليمن والحميريين، ودورهم في تنشيط التجارة في المحيط الهندي. (Gautier, Les villes saintes de l'Arabie, 1918, pp. 115-131)

- مقال حول «**مقارنة الصحراء DÉSERTS COMPARÉS**» نشر في السنة 28 العدد 156 بتاريخ 15 نوفمبر 1919، من الصفحة 401 إلى الصفحة 413.

أجرى المؤلف في هذا المقال دراسةً مقارنةً بين صحراء ليبيا وصحراء مصر من جهة، وبين هذه الصحاري وصحراء الجزائر من جهة أخرى، وحدَّد أوجه التشابه والاختلاف بينها، خاصة فيما يتعلق بتركيز الواحات والاستقرار البشري. كما تحدَّث عن الفرق بين السروج التي يستخدمها سكان الصحراء في مصر وليبيا، والسروج التي يستخدمها سكان الصحراء في الجزائر. (Gautier, Déserts comparés, 1919, pp. 401-413)

- مقال حول: «**واد الساورة L'OUED SAOURA**» بمشاركة «لاروند Larnaude» صدر في العدد 163 السنة 30 الصادر بتاريخ 15 جانفي 1921، من الصفحة 50 إلى الصفحة 59.

وهو مقال خصَّصه المؤلفان لإجراء دراسة جغرافية وجيولوجية لمنطقة «الساورة» على وجه الخصوص، وعَملا على تحديد المجاري المائية التي تغذي «وادي الساورة». كما حاول الباحثان تحديد مسار هذا الوادي ومصبه، وأثر مختلف الأزمنة الجيولوجية على تكوينه. (Gautier & Larnaude, L'OUED Saoura, 1921, pp. 50-59)

- قدم نعيا لـ «**ريني شادو René Chudeau 1864-1921**»

وهو أستاذ فرنسي تخرج من جامعة باريس بشهادة الدكتوراه، وله عدة مؤلفات عن الجيولوجيا في كل من إسبانيا والصحراء السودانية والموريتانية، وهو من أبرز أعضاء مختبر الجيولوجيا الاستعمارية. (Gautier, René Chudeau (1864-1921), 1921, pp. 390-391)

- مقال «**مقارنة الصحراء: إفريقيا وأمريكا Déserts comparés, Amérique et Afrique**»، صدر في المجلد رقم 34 العدد 188 لعام 1925 من الصفحة 146 إلى الصفحة 162.

أجرى «غوتييه» في هذا المقال مقارنةً بين الصحراء الإفريقية (الصحراء الجزائرية) والصحراء الأمريكية، وبين أوجه التشابه والاختلاف بينهما من حيث طبيعة التكوين الجيولوجي، ومظاهرها الطبوغرافية. (Gautier, Déserts comparés, Amérique et Afrique, 1925, pp. 146-162)

- كتب مقال كمراجعة لكتاب «**أندريه بيرثيلوت André Berthelot عن الصحراء الإفريقية والسودانية، من خلال ما عرفه الرومان L'Afrique Saharienne et Soudanaise. — Ce qu'en ont connu les Romains**»، نُشر في العدد الخاص بالسنة السادسة والثلاثين، العدد 204، الصادر بتاريخ 15 نوفمبر 1927، من الصفحة 559 إلى الصفحة 563.

وهو مقال يتحدَّث عن البعثات الفرنسية في الصحراء الجزائرية، وتحديد الإطار الجغرافي لدول الساحل الإفريقي، خاصة مالي والنيجر وغانا، والإمبراطوريات التي ظهرت في المنطقة، وأثر المناخ على انحسار المياه والأنهار. كما بيَّن أهمية الدراسة التي قام بها «أندريه بيرثيلوت André Berthelot» للكشف عن مدى معرفة الرومان بالمناطق الجنوبية للجزائر، والتسميات التي أطلقوها على هذه الأماكن. (Gautier, L'Afrique Saharienne et Soudanaise. — Ce qu'en ont connu les Romains by André Berthelot, 1927, pp. 559-563)

- مقال «**سواحل غرب إفريقيا إلى جنوب داكار**» نشر سنة 1931.

وهي دراسة طبوغرافية وجيولوجية للسواحل الغربية لقارة إفريقيا، وبالخصوص المناطق الممتدة من السنغال إلى غينيا الفرنسية – دولة غينيا حاليًا – وأهم المدن الساحلية، خاصة مدينة «كوناكري (Conakry)»، التي أكَّدت للإدارة الفرنسية ضرورة استغلالها كميناء. (Gautier, Les côtes de l'Afrique Occidentale au sud de Dakar, 1931, pp. 163-174)

- قدم نعياً لشخصية «**بينجر Binger**».

هو «لويس غوستاف بينجر Louis Gustave Binger»، قائد عسكري فرنسي ساهم في توطيد الاحتلال الفرنسي لغرب إفريقيا، ورسم الحدود بين هذه الدول، خاصة بين ساحل الذهب (غانا) وساحل العاج (كوت ديفوار) – الحدود الأنجلو-فرنسية. كما تولّى مهام حاكم عام «لساحل العاج»، ثم مدير إدارة الشؤون الإفريقية في وزارة المستعمرات، وبعدها حاكم عام للمستعمرات. (Gautier, Binger, 1937, pp. 101-102)

2- مجلة باريس La Revu de Paris:

- مقال «**ثلاثون شهر في مدغشقر Trente Mois A Madagascar**»

وهو عبارة عن ملاحظات سجلها «غوتييه» خلال سفره في مختلف نواحي جزيرة مدغشقر منذ وصوله إليها في شهر جويلية 1892، والتنقلات التي قام بها، وما واجهه من صعوبات خلال هذا السفر. كما قدّم في هذا المقال تقارير عن أوضاع الحاميات الفرنسية المنتشرة في الجزيرة. (Gautier, Trente Mois A Madagascar, 1895, pp. 418-448)

- مقال «**الروح الملغاشية L'âme Malgache**»

قسّم المؤلف مقاله هذا إلى جزئين، حيث تكلّم في الجزء الأول عن سمات شعب مدغشقر ومدى ارتباطهم الوثيق بالطبيعة، بالنظر إلى بساطة أسلوب حياتهم. وبيّن كذلك العادات المنتشرة بينهم، خاصة في دفن الموتى وتنظيم الشعر للتغنّي بمزاياهم، إذ أورد في هذا المقال العديد من نماذج الأشعار التي ترثي موتاهم. (Gautier, L'âme Malgache, 1900, pp. 400-418)

أمّا الجزء الثاني من المقال، فخصّصه للتحدث عن مدى انتشار الثقافة بين الشعب الملغاشي ومدى معرفته للقراءة والكتابة، وشرح التطورات التي عرفتها الإدارة الملغاشية وطرق الحكم وتبادل الرسائل بين حاكم المناطق والملوك. كما خصّص هذا الجزء لتوضيح طبيعة العلاقة بين حكام مدغشقر والأوروبيين، خاصّة الفرنسيين، من خلال ترجمته لبعض الرسائل التي كان يبعث بها الحكام إلى الإدارة الفرنسية. (Gautier, L'âme Malgache, 1900, pp. 623-644)

- شارك في كتابة مقال «**عرض حول الونزة A Propos de L'ouenza**» مع «**مارسال لابورديير Marcel Labordère**».

خصّص المقال للتحدث عن الثروات المعدنية التي تتوفر في هذه المنطقة، خاصة الحديد والنحاس، وأهمية الاستغلال الاقتصادي لها. كما بيّن المقال الصعوبات التي ستواجه الفرنسيين في تسيير واستغلال هذه الثروات. (Gautier & Labordère, A Propos de L'ounenza, 1909, pp. 416-434)

- مقال «**في الصحراء المغربية Au Sahara Marocain**»

خصّص المؤلف هذا الجزء للتحدث عن التوترات التي حدثت بين الفرنسيين والمملكة المغربية في حدود توات بعد "معاهدة إسلي"، وشرح بالتفصيل التطورات التي عرفتها مسألة الحدود الفرنسية-المغربية، والتي اعتُبرت مدينة فجيج المغربية حدًّا فاصلاً بينهما. (Gautier, Au Sahara Marocain, 1910, pp. 35-52)

- مقال «**غزو صحراء الطوارق La Conquête du Sahara Touarrg**»

تحدّث فيه غوتييه عن البدايات الأولى للغزو الفرنسي لصحراء الجزائر، وربطها بهزيمة الفرنسيين بتاريخ 18 فيفري 1881 على يد الطوارق، وشرح التغيرات التي حدثت في المنطقة منذ هذا التاريخ حتى هزيمة الطوارق على يد القوات الفرنسية في «معركة تيت» بتاريخ 7 ماي 1902. (Gautier, La Conquête du Sahara Touarrg, 1910, pp. 542-560)

- مقال «**المهاري Les Méharites**»

خصصه للحديث عن البدايات الأولى لاستعمال الجمال في الجيش الفرنسي منذ حملة «نابليون» على مصر، والتطور الذي عرفه استعمالها في الجزائر، ومختلف الصعوبات التي واجهها العسكريون في تعويد أنفسهم على استعمال الجمال في الصحراء. (Gautier, Les Méharites, 1910, pp. 648-672)

- مقال «**تمرُّد في مدغشقر Un Insurrection A Madagascar**»

عالج فيه أحداث التمرد الذي حدث في جزيرة مدغشقر سنة 1896 ضد التواجد الفرنسي، وبين لنا وقائع هذا التمرُّد، والإجراءات التي قامت بها الإدارة الفرنسية لقمعه، خاصَّة بعد القاء القبض على قائد التمرد وإعدامه. (Gautier, Un Insurrection A Madagascar, 1912, pp. 73-92)

- مقال «**الجبهة الإنجليزية في مصر وفلسطين Le Front Anglais en Égypte et en Palestine**»

خصّص هذا المقال للحديث عن السياسة التي اتبعها الإنجليز في مصر بصورة خاصة، وعن طريقة تسييرهم لقناة السويس، والأساليب التي اعتمدها الجيش الإنجليزي في مواجهة المقاومة في مصر ضد العثمانيين والسنوسيين. كما تكلّم عن الحروب التي دارت بين هؤلاء في صحراء سيناء وفلسطين.. (Gautier, Le Front Anglais en Égypte et en Palestine, 1918, pp. 202-224)

- مقال «**المجاعة في الجزائر La Famine en Algérie**»

ناقش فيه المجاعات التي عرفتها الجزائر سنة 1868 وأسبابها العامة، ثم انتقل للحديث عن المجاعة التي عرفتها الجزائر بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وما لحق بالجزائر من خسائر بشرية واقتصادية. وقد قدّم المؤلف وجهة نظره حول أسباب هذه الأزمة وانعكاساتها على الوضع في الجزائر. (Gautier, La Famine en Algérie, 1921)

- مقال «**الإسلام كما نراه L'islam tel que nous le Voyons**»

شرح فيه غوتييه نظرة الأوروبيين إلى الديانة الإسلامية بالمقارنة مع المسيحية واليهودية، وبيّن أوجه التشابه والاختلاف بين المسلمين والمسيحيين في العقيدة وطقوس العبادات، وكذلك مدى متانة الروابط التي تربط بين المسلمين مقارنة ببقية الشعوب الأوروبية. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, pp. 787-829)

- مقال «**تهديدات في إفريقيا Menaces sur l'Afrique**»

تطرّق فيه للتحديات التي واجهت الإدارة الفرنسية في الجزائر، ولفت إلى الرفض المطلق للسكان التعامل مع الفرنسيين مقارنةً بتونس والمغرب. كما بيّن التطورات الإدارية والاجتماعية التي عرفتها الجزائر منذ بداية الاحتلال. (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, pp. 38-56)

3- مجلة «مراجعات جغرافية The geographical review»

- مقال «**البدو والحضر في شمال افريقيا Nomad and Sedentary folks in Northern Africa**»

خصّصه للتحدث عن سكان صحراء الجزائر وأقسام القبائل التي تستقر فيها، وعاداتهم وتقاليدهم. وبيّن كذلك طبيعة نشاطهم الاقتصادي في مختلف الواحات، كما قام بمقارنة أسلوب حياة سكان صحراء الجزائر بسكان صحراء مصر في طريقة تربية الإبل وأنواع السروج المستعملة لها. (Gautier, Nomad and Sedentary folks in Northern Africa, 1921, pp. 3-15)

- مقال "**الحياة المحلية في شمال أفريقيا الفرنسية Native life in French North Africa**"

حدّد فيه الإطار الجغرافي لمنطقة شمال إفريقيا الفرنسية، ثم انتقل إلى تبيان اللغات المنتشرة فيها والقبائل التي تتحدث بكل لغة (البربرية والعربية)، ليورد بعد ذلك طبيعة الهندسة المعمارية الخاصة بالمدن الكبرى. (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, pp. 27-39)

- مقال "**خط السكة الحديدية العابر للصحراء The Transsaharian Railway**"

بين فيه المؤلف الخصائص الطبيعية والمناخية الممتدة من صحراء الجزائر الى المناطق الجنوبية الغربية لقارة افريقيا وحدد الفرق بينها وبين الخصائص الطبيعية لأمريكا بصفة عامة وصحرائها بصفة خاصة، ثم شرح الأهمية الاقتصادية للصحراء والجهود التي بذلتها الإدارة الفرنسية من أجل التوغل في الصحراء واستغلالها وبصفة خاصة في تطوير زراعة القطن. (Gautier, The Transsaharian Railway, 1925, pp. 51-69)

- مقال «**الهقار قلب الصحراء The Ahaggar : Heart of the Sahara**»

بدأ «غوتييه» مقاله هذا بالإشارة إلى البعثات الفرنسية إلى الصحراء بصفة عامة، والبعثات التي قامت باستكشاف منطقة الهقار بصفة خاصة. كما أشار إلى القبائل التي تعيش في المنطقة ونمط حياتهم

اليومية، ليقدّم بعد ذلك دراسة جغرافية تتضمن الخصائص الجيولوجية لجبال الهقار والمناطق المحاذية لها، وشرح التغيرات التي عرفتها عبر مختلف الأزمنة. (Gautier, The Ahaggar : Heart of the Sahara, 1926, pp. 378-394)

- مقال في شكل مراجعة بعنوان «**سكان المدينة The People of the Veil: A Review**» تحدّث فيه المؤلف عن سكان منطقة «إير Air» الواقعة بالقرب من «أغاديس Agades» في النيجر، وذلك بإبراز الموقع الجغرافي لهذه المنطقة والطرق التي تربطها بمختلف مناطق الصحراء. ليبيّن بعد ذلك أصول سكانها وطبيعة علاقتهم بالفرنسيين وبسكان صحراء الجزائر ومصر، خاصة فيما يتعلق بتنشيط حركة القوافل التجارية. (Gautier, The People of the Veil: A Review, 1928, pp. 478-484)
- نشر أيضاً مراجعة بعنوان «**السياسة الاستعمارية الفرنسية بين النظرية والتطبيق French Colonial Policy in Theory and Practice: A Review**»

وضح فيها التغيرات التي حصلت في طريقة إدارة فرنسا للجزائر منذ سنة 1870، بدءًا بظهور الحكم المدني ثم الحصول على الاستقلال المالي، وأكّد أن هذه التطورات سمحت للفرنسيين باكتساب الحرية في تسيير شؤون الجزائر. بعد ذلك، انتقل إلى إجراء مقارنة بين السياسة الفرنسية في الجزائر والسياسة البريطانية في مختلف مستعمراتها، خاصة مصر وجنوب إفريقيا. (Gautier, French Colonial Policy in Theory and Practice: A Review, 1931, pp. 131-141)

- مقال «**منطقة شوتس الكبرى ومسألة أتلانتس The Region of the Great Shotts and the Question of the Atlantis**»

ناقش فيه «غوتييه» المؤلفات الألمانية التي تبحث عن آثار مدينة أطلنطس في بلاد المغرب، وبيّن مدى أهمية هذه الأبحاث وقيمتها العلمية بالنظر إلى الجهود المبذولة في دراسة مختلف الحفريات الأثرية. كما دعاهم إلى الاهتمام بدراسة آثار منطقة الطاسيلي، والتي يرى أنها قد تمنح الإجابة على تساؤلات العلماء الألمان. (Gautier, The Region of the Great Shotts and the Question of the Atlantis, 1931, pp. 319-321)

- مقال «**البربر المستقرون في جنوب المغرب Sedentary Berbers of Southern Marocco**»

عرّف فيه بمؤلفات «روبرت مونتاني Robert Montagne» عن المغرب، الكتاب الأول بعنوان «**البربر والمخزن في جنوب المغرب**» والثاني: «**القرى والقصبات البربرية: لوحة عن الحياة الاجتماعية للبربر المستقرين في جنوب المغرب**». كما شرح «غوتييه» مضمون الكتابين وأهميتهما في التعرف على سكان المنطقة الجنوبية للمغرب، وطبيعة علاقتهم بالحكام الذين تعاقبوا على المغرب الأقصى منذ عهد الموحدين. (Gautier, Sedentary Berbers of Southern Marocco, 1931, pp. 518-519)

- مقال «**ملاحظات مناخية وفزيوغرافية على غينيا الفرنسية Climatic and physiographic notes on French Guinea**»

خصّص لدراسة منطقة السودان الغربي (غينيا الفرنسية) من الناحية المناخية والطبيعية، خاصة منطقة "فوتا جالونFouta Djallon». وتبيان تأثير الأزمنة الجيولوجية في تكوّن الخصائص الطبيعية للمنطقة، خاصة إذا قورنت بالمناطق القريبة منها مثل صحراء الجزائر وصحراء السودان. (Gautier, Climatic and physiographic notes on French Guinea, 1933, pp. 248-258)

- مقال «**أسلاف التوارق The Ancestors of the Tuareg**»

تطرّق فيه إلى الرسومات الموجودة في صحراء الجزائر، وبالأخص في منطقة الطاسيلي، من خلال نشر مجموعة من الصور التي التقطها من هذه المنطقة، مع تقديم شروح لمضمونها وأماكن وجودها، سواء بالقرب من مصادر المياه أو بعيدًا عنها. كما تناول التغيرات المناخية التي شهدتها الصحراء، وأثرها على التنوع الحيواني، نظرًا لوجود رسومات لحيوانات كبيرة مثل الفيلة والزرافات. (Gautier, The Ancestors of the Tuareg, 1935, pp. 12-20)

- مقال «**الحدود الرطبة القاحلة في الجزائر**»

تكلّم فيه «غوتييه» عن الحدود الطبيعية الفاصلة بين المنطقة الشمالية الرطبة والمنطقة الجنوبية الجافة في الجزائر، وناقش آراء الباحث «فريتز ياغرFritz Jaeger» الذي حاول تطبيق التعابير الرياضية لتحديد العلاقة بين هطول الأمطار وانتشار المناطق الرطبة. (Gautier, The Humid-arid Boundary in Algeria, 1937, pp. 169-170)

4- «نشرية جمعية الجغرافيين الفرنسيين Bulletin de la Société de géographie»:

- مقال بعنوان: «**آفاق جديدة في الصحراء Perspectives nouvelles au Sahara**»، صدر في العدد 16 السنة الرابعة، ماي 1927.

وهو عبارة عن رسالة تضمّنت شرحا لأهمية الاكتشافات الحديثة لآبار المياه في المنطقة الجنوبية الغربية من صحراء الجزائر، والدور الذي ستلعبه هذه الاكتشافات في تطوير استغلال المنطقة، خاصة أنها غنية بالمعادن، مثل منجم «القنادسة» في «بشار». (Gautier, Communication de E-F Gautier Perspectives nouvelles au Sahara, 1927, pp. 41-44)

- مقال حول «خليج سرت **les Syrtes**»، صدر في العدد 34، السنة 6، جوان 1929.

وهو مقال يوضّح الموقع الطبيعي لمدينة «سرت» الليبية، ومختلف التأثيرات الطبيعية التي تتعرض لها، خاصةً من حيث الحرارة والرطوبة. كما أشار إلى العوامل التي ساهمت في تركز أشجار الزيتون فيها. (Gautier, Les Syrtes, 1929, pp. 59-61)

- كما نشر له في نفس السنة -1929- مقال «**Réponse de M. E.-F. Gautier**»

وهو عبارة عن ردّ «لغوتييه» على آراء كلٍّ من السيد «ديسبوا Despois» والسيد «باول بورد Paul Bourde» بخصوص تفسيرهما لأسباب تركز زراعة الزيتون على بُعد 40 كلم من ساحل «صفاقس». (Gautier, Réponse de M. E.-F. Gautier, 1929, p. 80)

- مقال بعنوان «**نمط السنغال وغينيا Le modelé du Sénégal et de la Guinée**»، صدر في العدد 51 السنة الثامنة جوان 1931.

قام فيه «غوتييه» بإنجاز دراسة للخرائط الطبوغرافية لكل من «السنغال» و«غينيا»، وكشف عن خصائصهما الطبيعية وأثر مختلف الأزمنة الجيولوجية في تكوينهما. (Gautier, Le modelé du Sénégal et de la Guinée, 1931, pp. 75-79)

- مقال «**ملاحظات على مورفولوجيا فورتا جالون Remarques sur la morphologie du Fouta Djallon**»

صدر في العدد 59 سنة 1932، وبيّن فيه المؤلف الخصائص الجيولوجية للمنطقة الغربية من قارة إفريقيا، ومختلف التغيرات الجيولوجية والمناخية التي عرفتها مقارنةً بباقي مناطق القارة، خاصةً بلاد «السودان» و«مدغشقر». (Gautier, Remarques sur la morphologie du Fouta Djallon, 1932, pp. 83-87)

- مقال «**مركزي التأثيرات المتوسطية لجعل غرب افريقيا معروفة Les deux centres d'influences méditerranéennes qui rendent intelligible l'Afrique occidentale**»

صدر هذا المقال سنة 1933، وتضمّن دراسةً للجغرافيا البشرية للمنطقة الغربية من قارة إفريقيا، التي شملت النيجر، والكونغو، والسنغال، وساحل العاج (كوت ديفوار)، وساحل الذهب (دولة غانا)، بالإضافة إلى الدور الذي لعبه تمركز الأنهار في هذه المناطق في زيادة عدد السكان. (Gautier, Les deux centres d'influences méditerranéennes qui rendent intelligible l'Afrique occidentale, 1933, pp. 109-111)

- مقال آخر عنوانه «**تفسير جغرافي لخريطتين جيولوجيتين لإفريقيا" Une interprétation géographique de deux cartes géologiques de l'Afrique**»

صدر هذا المقال سنة 1934، وهو دراسة لخريطة جغرافية للمنطقة الممتدة من سواحل البحر الأبيض المتوسط، إلى جنوب «غينيا» وحوض «الكونغو». (Gautier, Une interprétation

géographique de deux cartes géologiques de l'Afrique, 1934, pp. 74-76)

- كما نشر مقال «**افريقيا السوداء الغربية L'Afrique noire occidentale**»

صدر هذا المقال سنة 1936، وهو عبارة عن دراسة عرّف فيها «غوتييه» بكتابه الذي يحمل نفس عنوان المقال، حيث وضّح العناصر الأساسية التي ركز عليها في دراسته، وخاصة دراسة تاريخ إفريقيا الغربية والإمبراطوريات التي ظهرت فيها. (Gautier, L'Afrique noire occidentale, 1936, pp. 86-91)

5- مجلة «ملاحظات استطلاعات واستكشاف Notes, reconnaissance et exploration»

- مقال «**أمبوهيمانج المدينة المقدسة Ambohimànge La ville Sainte**»

تحدث المؤلف عن مدينة «ايميرنا L'Imerina» المقدسة في جزيرة مدغشقر، والتطورات التاريخية الكبرى التي شهدتها منذ أقدم الحقب الزمنية. (Gautier, Ambohimànge La ville Sainte, 1897, pp. 92-106)

- مقال «**دراسة جيولوجية في ميناي وماهيلاكا Etude géologique sur le Ménabé et le Mahilaka**»

نُشر هذا المقال بفضل الرحلات التي قام بها من شهر أوت إلى شهر نوفمبر سنة 1897 في مدغشقر، حيث ذكر فيه أبرز النتائج التي توصل إليها من الدراسات الجيولوجية للمعالم الأساسية للجزيرة وتكوين بحيراتها وخصائصها المناخية، خاصة منطقة «ميناي Ménabé» و«ماهيلاكا Mahilaka». (Gautier, Etude géologique sur le Ménabé et le Mahilaka, 1897, pp. 407-412)

- مقال «**ملاحظات من تاريخ مدغشقر Notes d'Histoire Malgache**»

خصصه «غوتييه» للتطرق لتاريخ الجزيرة، والملوك الذين حكموها، والقوانين التي تُسَيِّرُهَا، وركز بشكل كبير في حديثه على ذكر الأعمال التي قام بها «الملك إمبوينا» خاصة في سن القوانين التي تحكم الشعب. (Gautier, Notes d'Histoire Malgache, 1898, pp. 294-300)

- مقال «**L'Enseignement à Madagascar التعليم في مدغشقر**»

تطرّق فيه إلى أقسام التعليم الفرنسي في جزيرة مدغشقر، مبرزًا دور التعليم المجاني الذي تتولّاه البعثات التبشيرية المسيحية، إلى جانب التعليم الرسمي الذي تشرف عليه الإدارة الفرنسية لنشر الثقافة واللغة الفرنسية. (Gautier, L'Enseignement a Madagascar, 1898, pp. 519-531)

- مقال «**Géologie du Cercle de la Mahavavy جيولوجيا منطقة ماهافافي**»

درس فيه الخصائص الجيولوجية لمنطقة «ماهافافي» الواقعة في الشمال الشرقي لجزيرة مدغشقر، وقارن تضاريسها بتضاريس منطقة «مينابي Ménabé» الواقعة في الجنوب الغربي من الجزيرة. (Gautier, Géologie du Cercle de la Mahavavy, 1898, pp. 857-861)

- مقال «**Géologie du Mahilaka , de L'Ambongo, du Mahara-Milanja, et du Bouéni جيولوجيا ماهيلاكا، أمبونجو، ماهارا–ميلانجا وبويني**»

وهو دراسة جيولوجية للأرخبيل البركاني القائم على الساحل الغربي لجزيرة مدغشقر، تناول فيه تكوين تربة هذا الإقليم، والعوامل التي أسهمت في تشكّله، وطبيعة الغطاء النباتي المنتشر فيه. (Gautier, Géologie du Mahilaka , de L'Ambongo, du Mahara-Milanja, et du Bouéni, 1898, pp. 1153-1158)

- مقال «**Atlas de L'Ambongo أطلس لامبونغو**»

قدّم المؤلف في هذا العمل دراسة طبوغرافية متكاملة لجزيرة مدغشقر، مزودة بخرائط توضيحية تبرز مختلف أنواع التضاريس والنباتات المنتشرة فيها. كما اشتمل المقال على عرضٍ للتقسيم الإداري للجزيرة

وبيان توزيع المجموعات البشرية التي تقطنها. (Gautier, Atlas de L'Ambongo, 1898, pp. 1379-1395)

6- «محاضرات وندوات أكاديمية النقوش والكتابات الأدبية Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres»:

- نشر مقال على شكل مراسلة عن «**كتابات ونقوش عبرية اكتشفت خلال رحلة الى الصحراء** Inscription hébraïque, gravures rupestres et monuments épigraphiques découverts au cours d'un voyage au Sahara »

صدر سنة 1903، ويحتوي على وصف للنقوش التي عُثر عليها في صحراء الجزائر، بما في ذلك صورٌ لمجموعة من الحيوانات، إضافة إلى كتابات باللغة العبرية، وأخرى بحروف «التيفيناغ» التي يستعملها شعب «التوارق» في جبال الطاسيلي. (Gautier, Inscription hébraïque, gravures rupestres et monuments épigraphiques découverts au cours d'un voyage au Sahara, 1903, pp. 466-467)

- مقال «**عرض لنتائج أولية اثنوغرافية لجولة دراسية عبر الصحراء Exposé provisoire des résultats ethnographiques d'un voyage d'études transsaharien»**

نشر عام 1905، يتكلم فيه عن المراحل التاريخية القديمة للجنوب الغربي للجزائر حتى مدينة «تمبكتو»، حيث أكد على قدم الاستقرار البشري للمنطقة، وتنوع سكانها بين العنصر البربري والعنصر الزنجي، كما أشار إلى مختلف الأدوات الحجرية التي عثر عليها خلال رحلته، ومناطق انتشار الكتابة الليبية البربرية المنتشرة في الصحراء. (Gautier, Exposé provisoire des résultats ethnographiques d'un voyage d'études transsaharien, 1905, pp. 585-592)

- نشر أيضاً تقريرا عن «**مهمة السيد ريغاس الى الهقار Compte rendu de la mission de M. Reygasse dans le Hoggar»**

صدر سنة 1933، وأشار فيه لأهمية الاكتشافات الأثرية التي عثر عليها "ريغاس" في الصحراء، وبصورة خاصة المخلفات التي عثر عليها في قبر «الملكة تين هينان». (Gautier, Compte rendu de la mission de M. Reygasse dans le Hoggar, 1933, pp. 130-133)

- ألحق هذا التقرير بـ: «**ملاحظات إضافية عن تقرير بعثة السيد ريغاس الى الهقار**»

ناقش فيه «غوتييه»، الحقبة الزمنية التي تعود لها مختلف الآثار التي عثر عليها في قبر «تين هينان». (Gautier, Note additionnelle au compte rendu de la mission de M. Reygasse au Hoggar, 1933, pp. 137-138)

- تقرير عن مهمته مع «**السيد موريس ريغاس خلال سنة 1934**"" **Rapport sur la mission Gautier-Reygasse de 1934**»

صدر سنة 1934، وخصّصه المؤلّف للحديث عن المنطقة الشرقية من الجزائر والنقوش الحجرية المنتشرة فيها، ولا سيما في منطقتي الطاسيلي والهقار، مع إجراء مقارنة بينها وبين النقوش التي تم اكتشافها في المنطقة الغربية من البلاد. (Gautier, Rapport sur la mission Gautier-Reygasse de 1934, 1934, pp. 149-160)

- كما نشر «**تقريرا حول مهمته الى الصحراء** **Rapport sur une mission au Sahara**»

نُشر سنة 1935، وهو عبارة عن عرض لمجمل النتائج التي توصل إليها «غوتييه» وزملاؤه (روبرت بيريه وريغاس) في رحلاتهم إلى الصحراء الشرقية للجزائر، وتحديدًا منطقة الطاسيلي ناجر. (Gautier, Rapport sur une mission au Sahara, 1935, pp. 307-312)

7- صحيفة ومجلة «هسبيريس Hespéris: Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines»:

- مقال «**مقتطف من ابن خلدون والبيان**»

صدر سنة 1924، ناقش فيه المؤلف الصعوبات التي واجهها الفرنسيون في احتلال بلاد المغرب، والمقاومة التي لاقوها من السكان، وقارنها بالمقاومة التي واجهها العرب المسلمون في بداية الفتح الإسلامي بقيادة الكاهنة. كما قدم نظرة نقدية للنصوص التاريخية العربية التي تناولت أسباب انضمام أبناء الكاهنة إلى جيش المسلمين، وخاصة كتاب العبر لابن خلدون. (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, pp. 305-312)

- مقال «**حوض أوزيرت La Cuvette de Ouaizert**»

وهو عبارة عن دراسة جغرافية جيولوجية لمنطقة حوض أوزيرت، الواقعة بالقرب من جبال الأطلس في المغرب الأقصى، كما أشار المؤلف في هذا المقال الى أوجه التشابه بين هذه المنطقة وجبال الأطلس الصحراوي في الجزائر. (Gautier, La Cuvette de Ouaizert, 1925, pp. 91-103)

- كما نشر المؤلف في هذه المجلة مقال عن «**الأطلس المتوسط Le Moyen Atlas**»

صدر في العدد السابع من المجلة، خلال الثلاثي الثالث من سنة 1925، وقد درس فيه «غوتييه» طبيعة تكوين جبال الأطلس المتوسط في المغرب الأقصى، وشرح مختلف التأثيرات الجيولوجية التي خضعت لها هذه السلسلة. كما أشار إلى التضاريس المجاورة لها، مثل هضبة «بني غيل BNI GUIL» و«وادي ملوية». (Gautier, Le Moyen Atlas, 1925, pp. 251-264)

- مقال «**كهوف منطقة دير Les Cavernes du Dir**»

عبارة عن دراسة للمنطقة الممتدة بين «بني ملال» و «دمنات» في المغرب الأقصى، من حيث تضاريسها والمغارات المنتشرة فيها. وقد ركّز المقال بشكل خاص على الجغرافيا البشرية للمنطقة، من خلال الإشارة إلى القبائل التي تقطنها ومقارنة أساليب معيشتهم بأساليب سكان الأوراس في الجزائر،

حيث اعتبر منطقة «دير» بمثابة أوراس المغرب. (Gautier, Les Cavernes du Dir, 1925, pp. 383-409)

- مقال «**مدينة أوداي Medinat-ou-Dai**»

تحدث فيه عن مدينة «أوداي»، التي تقع في سهل «تادلة» بالقرب من «وادي أم الربيع»، بين بني «ملال» و«وادي درنة»، ووضح التطورات التاريخية التي شهدتها هذه المنطقة منذ عهد الدولة المرابطية وحتى الاحتلال الفرنسي. (Gautier, Medinat-ou-Dai, 1926, pp. 5-25)

8- «نشرية الجغرافيا، تنشرها الجمعية الجغرافية بباريس La Géographie: bulletin "de la Société de géographie»

- مقال حول «**موديـر-أهانت Le Mouidir-Ahnet**»

صدر سنة 1904، وقُسّم إلى جزأين، حيث نشر الجزء الأول في المجلد العاشر، العدد 1 بتاريخ 15 جويلية 1904. تناول فيه المؤلّف الخصائص الجيولوجية والطبيعية لمنطقة «موديـر أهانت»، مبيّنا التغيرات التي شهدتها عبر مختلف الأزمنة الجيولوجية، كما أوضح أهم الميزات الجيولوجية التي تميّز هذه المنطقة والتبدلات التي طرأت عليها. (Gautier, Le Mouidir-Ahnet, 1904, pp. 1-18)

أما الجزء الثاني من هذا المقال، فقد صدر في المجلد العاشر بتاريخ 15 أغسطس 1904، وخصص لدراسة مختلف أنواع النباتات والحيوانات المنتشرة في منطقة «موديـر-أهانت» والمناطق المحاذية لها. كما أشار في هذا المقال إلى طبيعة حياة السكان، وأساليب عيشهم، وتأقلمهم مع مناخ الصحراء الجاف. (Gautier, Le Mouidir-Ahnet, 1904, pp. 85-102)

- مقال «**عبر الصحراء الفرنسية، من عين أوزيل إلى النيجر A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger**»

وهو عبارة عن تقرير للرحلة التي قام بها «إميل فليكس غوتييه» انطلاقًا من منطقة «عين أوزيل» قرب مدينة «أدرار» إلى مدينة «غاو (Gao)». قسم المؤلف هذا المقال إلى جزئين، حيث قدم في الجزء

الأول وصفًا جغرافيًا للمناطق التي مرَّ بها، وشرح تركيب تربتها والتأثيرات التي تعرضت لها نتيجة المناخ والحركات الجيولوجية. (Gautier, A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger, 1907, pp. 1-28)

أما في الجزء الثاني، فقد قدم فيه تقريرًا عن المناطق التي زارها في «النيجر»، خاصة منطقة «واد تلمسي L'oued Tilemsi» ونهر النيجر، موضحًا خصائص التركيب الجيولوجي وأوجه الاختلاف بينها وبين منطقة «أدرار». كما تناول الجانب الإثنوغرافي لمنطقة «غاو» والمناطق المجاورة لها، من خلال بيان أقسام القبائل التي تستقر فيها، وعاداتهم وتقاليدهم ونوع لباسهم، بالمقارنة مع سكان الصحراء الجزائرية. (Gautier, A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger, 1907, pp. 103-120)

- مقال «**الهضاب العليا الجزائرية Les Hauts Plateaux Algériens**»

خصّصه المؤلف لمناقشة مختلف التطورات التي شهدتها الجزائر في تكوين تضاريسها عبر الأزمنة الجيولوجية المختلفة، وبين أثر هذه الأزمنة في تغير سطح الجزائر بصورة عامة، وبرز الهضاب العليا بصفة خاصة. كما شرح طريقة تكوين الأحواض في الجزائر، وركّز على دراسة منطقة «الحضنة» كنموذج لها. (Gautier, Les Hauts Plateaux Algériens, 1910, pp. 89-98)

- مقال «**وثائق أرشيفية سودانية تتعلق بالجنرال غاليني Documents d'archives Soudanais concernant le Général Galliéni**"

وهو عبارة عن نشر لمضمون مجموعة من الوثائق الأرشيفية التي تؤرخ لرحلة «الجنرال جاليني Gallieni» إلى بلاد السودان (السنيغال والنيجر)، حيث تبين هذه الوثائق حجم الجهود التي بذلها هذا الجنرال من أجل ضمان توقيع معاهدة صداقة بين فرنسا و«السلطان أحمدو توكولور». (Gautier, Documents d'archives Soudanais concernant le Général Galliéni, 1924, pp. 133-146)

9- «مجلة الانتربولوجيا L'Anthropologi»

- مقال «**نقوش صخرية جنوب وهران وفي الصحراء Gravures Rupestres Sud-Oranaises Et Sahariennes**»

درس فيه المؤلف النقوش الصخرية التي عُثر عليها في سنتي 1903 و1904 في صحراء الجزائر، وتحديدًا في منطقة «موديرأوهنت Mouidir et Ahnet» قرب «جبال الهقار»، ومنطقة «ممر زنقة Col Zenaga» الواقعة بين «فكيك» و«بني ونيف». (Gautier, Gravures Rupestres Sud-Oranaises Et Sahariennes, 1904, pp. 497-517)

- مقال «**دراسات لاثنوغرافيا الصحراء Études d'ethnographie Saharienne**»

قسم «غوتييه» مقاله إلى جزئين. تحدث المؤلف في الجزء الأول عن الآثار الجنائزية التي عثر عليها الباحثون الفرنسيون في صحراء الجزائر، خاصة في مناطق «بني ونيف» و«بشار» و«وادي الساورة». كما تناول في هذا المقال عادات وتقاليد مجتمعات الصحراء، وأساليب حياتهم اليومية في العصور القديمة. (Gautier, Études d'ethnographie Saharienne, 1907, pp. 37-68)

أما في الجزء الثاني من المقال، فتحدث فيه «غوتييه» عن أنواع الأسلحة التي اكتُشفت في الصحراء، وحدد تاريخها بأنها تعود إلى العصر الحجري الحديث، مثل الفؤوس الحجرية. وركّز المؤلف في هذا الجزء على أثر الصحراء وانحسار مراكز المياه في تحديد أماكن التجمعات البشرية القديمة، كما أجرى مقارنة بين سكان الصحراء وسكان المناطق الشمالية والجنوبية، مؤكّدًا أن الصحراء عاش فيها البربر منذ فترات قديمة. (Gautier, Études d'ethnographie Saharienne, 1907, pp. 315-332)

- مقال «**مواقع جديدة لنقوش الصخور في شمال افريقيا Nouvelles Stations de Gravures Rupestres Nord Africaines**»

خصصه للحديث عن النقوش الصخرية التي عثر عليها سنة 1914، على الحدود الجزائرية المغربية وبالضبط شمال «فكيك»، حيث قدم المؤلف وصفا شكليا لهذه النقوش، مع تفسيرها خاصة النقوش

العبرية والبربرية. (Gautier, Nouvelles Stations de Gravures Rupestres Nord Africaines, 1916, pp. 27-45)

10- «المجلة الافريقية Revue africaine»

- مقال «**النتائج الأولى لمهمة فروبينيوس Les Premiers Résultats de la mission Frobenius**»

وهو مقال أورد فيه «غوتييه» آرائه حول الدراسة التي أنجزها العالم الألماني «ليو فروبينيوس Leo Frobenius» سنة 1914 الى شمال افريقيا، والاكتشافات الأثرية التي عثر عليها. (Gautier, Les Premiers Résultats de la mission Frobenius, 1921, pp. 47-61)

- مقال «**اعتبارات في تاريخ المغرب Considération sur l'histoire du Megreb**»

تحدث فيه عن تسمية بلاد المغرب والاختلافات المتعلقة بها، وتطرق إلى أبرز المراحل التاريخية التي مرت بها المنطقة منذ فترة ما قبل التاريخ. كما تناول الخصائص العامة للبربر والتأثيرات التي تعرضوا لها في منطقة شمال إفريقيا، خاصة في الفترة الممتدة بين القرن السابع والقرن الحادي عشر الميلادي، والتي أطلق عليها تسمية «القرون المظلمة». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, pp. 47-73)

11- «الجريدة الآسيوية Journal Asiatique»

- مقال «**هل الهوفا ماليزيون؟ محاولة دراسة مقارنة بين لهجات هوفا وسكالفا Les Hova sont-ils des Malais ? Essai d'une étude comparative entre les dialectes Hova et Skalva** »

ناقش فيه المؤلف أصول سكان جزيرة مدغشقر، ومدى ارتباطهم بجنوب شرق آسيا، خاصة شعب «المالاوي» في «أندونسيا»، ليجري بعدها مقارنة بين لهجة سكان «مدغشقر» ولهجة «الملاوي». (Gautier, Les Hova sont-ils des Malais ? Essai d'une étude

comparative entre les dialectes Hova et Skalva, 1900, pp. 278-296)

- مقال «**التقويم الملغاشي Le Calendrier Malgache**»

تحدث فيه «غوتييه» عن التقويم في جزيرة «مدغشقر»، وعدد أيام السنة وشهورها في هذا التقويم، بالمقارنة مع التقويم الشمسي والتقويم القمري. كما بين أسماء الأيام والشهور التي يطلقها سكان الجزيرة، والطريقة التي اعتمدوها في وضع هذا التقويم، ومدى تأثرهم بتقاويم «إندونيسيا» قبل انتشار الإسلام. (Gautier, Le Calendrier Malgache, 1911, pp. 97-117)

12- «نشرة جمعية باريس للجغرافيا التجارية Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris»

- مقال «**نظرة عامة على الجغرافيا الاقتصادية لمدغشقر Madagascar apercu de géographie économique**»

شرح فيه النتائج التي توصل إليها خلال مدة إقامته في جزيرة مدغشقر، وقدم توجيهات للإدارة الفرنسية لتسهيل استغلال الثروات في المنطقة بما يعود بالربح الاقتصادي على التجارة الفرنسية. كما بين الصعوبات التي قد تواجه هذا الاستغلال الاقتصادي. (Gautier, Madagascar apercu de géographie économique, 1895, pp. 196-202)

- مقال «**القيمة الاقتصادية للصحراء La Valeur économique du Sahara**»

شرح فيه الأهمية الاقتصادية لصحراء الجزائر، خاصة منطقة الواحات التي تنتج التمور. كما أشار إلى المعادن المختلفة المنتشرة في الصحراء، ودعا الإدارة الفرنسية إلى ضرورة إرسال خبراء للتنقيب عن هذه المعادن واستغلالها. (Gautier, La Valeur économique du Sahara, 1903, pp. 545-549)

13-مجلة «أكاديمية العلوم الاستعمارية Comptes-rendus de l'Académie des sciences coloniales»

- نشر سنة 1931 مقال عن «**ميناء كوناكري La Port De Conakry**»

تحدث فيه عن المهمة التي قام بها إلى منطقة غرب إفريقيا، والتي زار خلالها «السنغال» و«غينيا» و«ساحل العاج»، والاكتشافات الجغرافية التي توصل إليها في هذه الرحلة بصفة عامة. وخصّ ميناء «كوناكري» بدراسة مفصلة، حيث شرح الطبيعة الجغرافية لهذا الميناء وأهمية موقعه في المنطقة. كما أشار إلى مشكلة افتقار المنطقة المحيطة بهذا الميناء إلى الطرق، والأهمية البالغة التي تكتسيها هذه الطرق في نقل البضائع في غرب إفريقيا، ودعا إلى ضرورة تطوير هذا الميناء والاهتمام به بشكل أكبر، وعدم تركيز الجهود على تطوير ميناء «داكار» فقط. (Gautier, Le Port de Conankry, 1941, pp. 433-437)

- نشر سنة 1932 تقرير بعنوان «**ما تم إنجازه في الصحراء منذ 15 أبريل 1927**»

تحدث فيه عن البعثات التي تم إرسالها إلى الصحراء الجزائرية، من حيث طبيعتها العامة وأسماء المشاركين فيها، وشرح التطور الذي عرفه التنقل في منطقة الصحراء نحو «مالي» أو «تشاد»، منذ ظهور فرق الجمال الفرنسية إلى استعمال السيارات التي تسير بوقود الديزل، ليوضح في نهاية هذا التقرير التطورات العلمية والبحثية التي تميزت بها كل منطقة صحراوية، بداية من «الصحراء الغربية» و«موريتانيا»، ثم الصحراء الوسطى (منطقة الطاسيلي والهقار)، حتى منطقة الصحراء الشرقية (صحراء ليبيا).

كما أشار أيضًا إلى أبرز البعثات العلمية التي أُرسلت إلى منطقة الصحراء المصرية، والمراكز البحثية التي أسسها الفرنسيون لإجراء تجارب فيها، مثل: «حديقة رغان» التابعة لقاعدة «توات»، التي يشرف عليها «شوفالييه»؛ والمركز الذي أسس في مدينة «بني أونيف» قرب مدينة «فجيج» في المغرب الأقصى باسم «مجموعة الدراسات الصحراوية لبني ونيف»، والمركز الذي يشرف على إدارته «مجلس إدارة أستاذة جامعة الجزائر»، حيث عُيّن «رينيه مير» مسؤولًا عن الإدارة العامة لهذه المجموعة؛ بالإضافة إلى مركز «الهقار» و«التاسيلي»، الذي تم تأسيسه باسم «مرصد تمنراست» بتاريخ 22 ديسمبر 1931، وهو مرصد خاص بالأرصاد الجوية ومغناطيس الأرض. (Gautier, Ce qui s'est Fait au Sahara depuis Le 15 Avril 1927, 1942, pp. 11-26)

14- مجلة "افريقيا الفرنسية L'Afrique française"

- كتب فيها مقال «**دراسة حول رحلة غرفة التجارة الجزائرية عبر الصحراء**»

قدم فيه تقريرًا عن مشاركته في رحلة «غرفة التجارة الجزائرية» في الصحراء، حيث شرح أهمية التحولات التي شهدها استكشاف الصحراء بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة ظهور السيارات التي ساهمت في تقليل مدة السفر فيها. كما أشار في هذا المقال إلى مشاريع الطرق العابرة للصحراء وأهمية كل طريق منها، سواء طريق «الهوجار» أو طريق «تنزروفت»، ليختتم مقاله بالإشارة إلى المحاولات التي قام بها الفرنسيون لعبور الصحراء بالطائرات ونتائج هذه المحاولات. (Gautier, considération sur le voyage transsaharien des chambres de commerce Algériene, 1927, pp. 92-106)

- نشر في نفس المجلة مقالا آخر بعنوان «**معرض الصحراء في تروكادير L'exposition du Sahara au Trocadéro**»

تحدث فيه عن الأهمية العلمية للمعرض الإثنوغرافي الذي نظمته فرنسا في مدينة باريس سنة 1934، وبين مدى تأخر الإدارة الفرنسية في عرض اكتشافاتها في متحف خاص بها مقارنة بالجهود البريطانية. ثم حدد الإطار الجغرافي للصحراء الإفريقية، وما يميزها عن باقي صحاري العالم، والصعوبات التي واجهت الأوروبيين في محاولة غزوها، خاصة انتشار الأمراض الفتاكة. واختتم هذا المقال بالإشارة إلى أهمية الاكتشافات الحديثة في جبال «الهقار» ومنطقة «فزان» في دراسة تاريخ الصحراء. (Gautier, L'exposition du Sahara au Trocadéro, 1934, pp. 411-413)

15- "**مجلة مدغشقر Revue de Madagascar**"

- مقال "**الرواسب الاحفورية في مدغشقر Les Gisements de Fossiles à Madagascar**".

درس في هذا المقال خصائص الرواسب المنتشرة في مختلف أرجاء جزيرة مدغشقر، خاصة الجهة الغربية، وبين الدور الذي لعبه علم الحفريات في كشف مكونات هذه الطبقات الرسوبية والتعرف على الحيوانات التي كانت تعيش في الجزيرة منذ القدم. (Gautier, Les Gisements de Fossiles a Madagascar, 1899, pp. 103-109)

- نشر في نفس المجلة مقال «**العمل المدرسي في مدغشقر L'œuvre Scolaire à Madagascar**».

قدم فيه دراسة إحصائية شاملة لمدى تقدم التعليم الفرنسي في جزيرة مدغشقر، سواء كان هذا التعليم رسميا أو تابعا للبعثات التبشيرية، وبين مدى تقدم سيرورة هذا التعليم في مختلف أنحاء الجزيرة، ووضح أيضاً الأثر الذي يتركه التعليم المهني في خدمة مصالح الفرنسيين. (Gautier, L'œuvre Scolaire à Madagascar, 1900, pp. 27-42)

16- «نشرية الجمعية الجيولوجية الفرنسية Bulletin de la Société géologique de France»

- مقال «**المساهمة في الدراسة الجيولوجية للصحراء Contribution à l'étude géologique du Sahara**»

تحدث فيه عن الخصائص الجيولوجية لصحراء الجزائر، خاصة منطقة وادي «الساورة» و «قورارة» و«توات»، وشرح التغيرات التكتونية التي تعرضت لها هذه المنطقة عبر الأزمنة الجيولوجية المختلفة. (Gautier, Contribution à l'étude géologique du Sahara, 1906, pp. 729-767).

17- «نشرية لجنة مدغشقر Bulletin du Comité de Madagascar»

- نشر فيها مقال «**مدغشقر ومستقبلها Madagascar et son Avenir**»

تحدث فيه المؤلف عن أوضاع جزيرة مدغشقر في ضل الهيمنة الفرنسية، والسياسة التي اتبعتها لضمان جعل سكانها في خدمة الإدارة الفرنسية. (Gautier, Madagascar et son Avenir, 1895, pp. 20-33)

18- «محاضر اجتماعات الجمعية الجغرافية في باريس Comptes rendus des séances société géographie paris»

- نشر فيها نشر تقرير سنة 1894 بعنوان «**رحلة الى مدغشقر**».

تضمن تفاصيل الرحلة التي قام بها «إميل غوتييه» في مدغشقر، بداية من شهر جويلية 1892 إلى شهر ديسمبر 1894، كما شرح فيه أوضاع الجزيرة والطرق التي وجب اتباعها لإدارتها. (Gautier, Voyage a' Madagascar, 1895, pp. 106-121)

19- «نشرية متحف التاريخ الطبيعي Bulletin du Muséum d'histoire naturelle»

- نشر مقال «**في التضاريس الرسوبية لمدغشقر Sur Les Terrains Sédimentaires de Madagascar**».

وهو عبارة عن دراسة جيولوجية لتضاريس المنطقة الغربية لجزيرة مدغشقر، والتي تتميز بخصائصها الرسوبية، حيث وضح في هذا المقال العوامل التي ساهمت في تشكيل هذا النوع من التضاريس، والعصور الجيولوجية التي تشكلت فيها كل طبقة. (Gautier, Sur Les Terrains Sédimentaires de Madagascar, 1895, pp. 178-181)

20- «تقرير المؤتمر الدولي الجغرافي بلندن Report of the Sixth International Geographical Congress London»

- كتب فيها مقال بعنوان «**استكشافات في مدغشقر Exploration In Madagascar**».

أبرز فيه أهم الاكتشافات التي توصل اليها في رحلته الى مدغشقر من سنة 1892 الى سنة 1894، خاصة المنطقة الغربية للجزيرة. (Gautier, Exploration In Madagascar, 1895, p. 624)

21- «القضايا الدبلوماسية والاستعمارية: مراجعة السياسة الخارجية Questions diplomatiques et coloniales: revue de politique extérieure»

- نشر مقال بعنوان «**الزراعة الأوروبية في مدغشقر**»

خصصه لإبراز أنوع مختلف الزراعات التي أدخلها المستوطنون الفرنسيون الى جزيرة مدغشقر، خاصة زراعة «الفانيلا»، «القهوة»، «الكاكاو»، وغيرها من المحاصيل الاستوائية. كما شرح المؤلف

الصعوبات التي تواجه تطوير الاستثمار الفلاحي للجزيرة. (Gautier, L'Agriculture Européenne A Madagascar, 1900, pp. 540-548)

22- «التقارير الأسبوعية لدورات أكاديمية العلوم Comptes rendus hebdomadaires des séances de l'Académie des sciences»

- نشر مقال «**على تضاريس العصر الباليوزوي في وادي الساورة وقورارة Sur Les Terrains paléozoïques de l'Oued Saoura et de Gourara**»

قدم فيه دراسة جيولوجية للمنطقة الجنوبية الغربية للجزائر في إطار رحلته للمنطقة من شهر أوت إلى شهر أكتوبر 1902م، بهدف دراسة أحافير هذه المنطقة وتحديد الفترة الزمنية لها. (Gautier, Sur Les Terrains paléozoïques de l'Oued Saoura et de Gourara, 1902, pp. 1071-1073)

23- مجلة "الآثار Revue Archéologique"

- نشر فيها مقال «**عملة ذهبية مجهولة من مدغشقر**»

تطرّق فيه للاكتشاف الذي عثر عليه الفرنسيون في الساحل الشمالي لجزيرة مدغشقر، والذي يتكوّن من مجموعة من المجوهرات والقطع الذهبية. وذكر أن تاريخ هذه القطع متباين، فبعضها يعود إلى عملات مقلدة تعود للدولة الفاطمية في «مصر»، والبعض الآخر مقلد عن العملات الهندوسية. (Gautier, Au Sujet d'une piéce d'or non déterminée, Provenant de Madagascar, 1908, pp. 413-415)

24- مجلة «التقارير الجغرافية لبيترمان Petermanns Geographische Mitteilungen»

- نشر فيها تقريرا بعنوان «**أبحاث فرنسية حول مسألة أطلنطس**»

ناقش فيه أراء مختلف الباحثين الجغرافيين في مسألة مكان تواجد جزيرة أطلنطس، وبين أن جُلَّ هذه الأبحاث تعتمد على الدراسة الجيولوجية والأثرية في تحديد مكان هذه الجزيرة، وأكد أنَّ أرجح الآراء

تؤكد على أنها كانت في السواحل المطلة على المحيط الأطلسي في المغرب. (Gautier, Französische forschungen zur AtlantisFrage, 1927, S. 144-145)

25- كتب أيضاً في مجلة «ليبا الإيطالية»

- مقالا حول «**سبب تأسيس مدينة فاس La Raison D'être de Fez**»

شرح فيه الظروف التاريخية التي ساهمت في تأسيس مدينة فاس المغربية، حيث تناول أسباب انتقال «إدريس الأول» من بلاد المشرق إلى المغرب الأقصى، ثم بين الدور الذي قامت به قبائل منطقة «وليلي» في دعمه وتأسيس دولته، والعوامل التي جعلت «إدريس الأول» ثم ابنه «إدريس الثاني» يقرران تأسيس مدينة «فاس». كما أشار إلى التوسعات التي قامت بها هذه الدولة في المغرب الأقصى والجزائر. (Gautier, La Raison D'être de Fez, 1927, p. 24-37)

26- مجلة "العالم الاستعماري مصور Le Monde colonial illustré"

- نشر فيها تقرير بعنوان «**في كوت ديفوار ...لقاءات عشوائية**»

تحدث فيه عن الاكتشافات التي تم التوصل إليها في عالم الحيوانات، لا سيما اكتشاف سلالة جديدة من القردة. كما تناول المخاطر التي تشكّلها مختلف الحيوانات عند السير في الطرق ليلا. (Gautier, En Cote d'Ivoire...Au Hasard des Rencontres, 1932)

- كما نشر في ذات المجلة ثلاث صور عن الرحلة التي قام بها الى مدينة «أبيدجان» وميناء «دكار» بعنوان "**على طول كوت ديفوار، ثلاث صور أخذها اميل فليكس غوتييه أستاذ جامعة الجزائر**" نشر سنة 1932. (Gautier, En Longeant Les Cot de l'A.O.F, Trois instantes par E.F. Gautier, 1932, p. 171)

27- مجلة «مجلة باريس Revu de Paris»

- صدر فيها مقال «**الجديد في الصحراء De Nouveau au Sahara**».

استعرض فيه الاكتشافات الأثرية التي عُثر عليها في منطقة الصحراء بالقرب من نهر النيجر، أو كما سماها المؤلف «نيجريا الإنجليزية». كما تناول الأسباب الأساسية التي جعلت هذه المنطقة تعرف

ارتفاعًا كبيرًا في الكثافة السكانية، وعرج أيضًا على مختلف البعثات العلمية التي زارت الصحراء بصفة عامة، وما تم العثور عليه في الحفريات المختلفة. (Gautier, De Nouveau au Sahara, 1935, pp. 414-428)

28- مجلة «الحوليات الجغرافية، ستوكهولم Geografiska Annaler, Stokholm»

- نشر فيها مقال حول «**طرق التجارة القديمة عبر الصحراء الكبرى**»

خصصه لشرح مضمون النقوش الأثرية التي عثر عليها الفرنسيون في صحراء الجزائر خاصة منطقة الهقار، إذ بين أنواع المقتنيات الأثرية التي اكتشفت في قبر الملكة "**تين هينان**"، وقدم شرحا مفصلا لمختلف الرسومات الصخرية المنتشرة في جبال الهقار. (Gautier, Anciennes voies du Commerce transsaharien, 1935, pp. 550-562)

29- مجلة «التاريخ الاقتصادي والاجتماعي Annales d'histoire économique et sociale»

- نشر فيها مقال بعنوان «**ذهب السودان في التاريخ**»

تحدث فيه عن مسألة تواجد الذهب في بلاد السودان الغربي، لا سيما في «سيراليون» وساحل «غينيا» (ساحل الذهب) وضفاف نهر «السنغال». كما تناول في هذا المقال مختلف المصادر التي أشارت إلى توفر المنطقة على كميات كبيرة من الذهب، سواء أكانت هذه المصادر عربية أم مؤلفات الرحالة الأجانب. (Gautier, L'Or du Soudan dans l'Histoire, 1935, pp. 113-123)

30- «المجلة الزرقاء للسياسة والآداب Revue bleue politique et littéraire»

- مقال بعنوان «**انتقام نافرين La Revanche de Navarin**»

تحدث فيه عن وقائع الحرب العالمية الأولى، والمواجهات التي خاضها الجيش الإنجليزي والفرنسي ضد الجيوش العثمانية في مضيق الدردنيل، وتحدث أيضاً عن الصراع الإنجليزي الإيطالي على الحبشة. (Gautier, La Revanche de Navarin, 1936, pp. 372-381)

بالإضافة إلى المقالات والكتب التي سبق ذكرها، وجدنا أن «غوتييه» نشر العديد من المقالات في مختلف الجرائد. سنورد فيما يلي أسماء هذه الجرائد مع الإشارة إلى عناوين المقالات، دون التطرق إلى تفاصيل ما ورد في كل مقال، باعتبار أن عددها كبير جدًا، مما قد يخرج فصلنا هذا عن إطاره وهدفه في تقديم دراسة ببليوغرافية للمؤلفات التي كتبها.

- جريدة «**Le Progrès de l'Imerina, Tananarive تقدم امرينيا**» نشر فيها مقالات بعنوان: «**De Majunga a' Tananarive من ماجونجا إلى تاناناريفو**» من شهر أكتوبر إلى شهر ديسمبر سنة 1892.
- جريدة «**La Dépêche Coloniale لاديباش كولونيال**» نشر فيها مقالات: «**En Syrie في سوريا**» بين شهر أوت وأكتوبر 1930.
- جريدة «**La Dépêche: journal quotidien لا ديباش**» نشر فيها مقالات بعنوان: «**Notre Enquête En Allemagne تحقيقنا في ألمانيا**» من شهر أوت إلى 1 أكتوبر 1932.
- جريدة «**Paris ،Je Suis Partout أنا في كل مكان**» نشر فيها تقرير: «**Roman Anglais, Sorel and Son من رواية انجليزية 'سورال وسون**» بتاريخ 18 أفريل 1936.

خلاصة

إذاً «فإميل فليكس غوتييه» له العديد من المقالات والكتب التي تختص بالبحث عن الإطار الجغرافي الطبيعي لقارة إفريقيا بصفة عامة، خاصَّة جزيرة مدغشقر ومنطقة غرب إفريقيا والمغرب الأقصى، لكن اهتمامه انصب على البحث في الجزائر والتعرف على سُكَّانها وخصائصها الطبيعية والجيولوجية، وركَّز دراسته في الجزائر على فهم الصحراء والتغيرات التي عرفتها، سواء في الجانب الطبيعي أو الجانب البشري.

كما نؤكد على أنَّ نموذج دراستنا نشر العديد من المقالات بمختلف اللغات، حيث نشر العديد منها باللغة الفرنسية، كما نشر أيضا باللغة الإنجليزية، واللغة الألمانية، والإيطالية، وهو ما يوضح لنا مدى ضخامة الإنتاج الذي تركه، والمساعي التي بذلها من أجل تبرير أفكاره ورؤيته الشخصية للجزائر وتاريخها على وجه الخصوص.

بالإضافة إلى تنوع المقالات التي نشرها «غوتييه»، وتعدد اللغات التي ألف بها، تميزت كتاباته بسيطرة الطابع الجغرافي الميداني عليها، أي أن جل مؤلفاته صدرت بعد معاينته الشخصية للمناطق التي يكتب عنها، سواء كانت هذه الكتابة ذات صبغة جيولوجية بحتة، أو ذات صبغة جغرافية وتاريخية. فهو ينقل ما يشاهد بعينه المجردة ولا يكتفي بنقل ما ورد في مختلف الدراسات من معلومات.

ومن هذا المنطلق، نتساءل عن توجهات هذا الباحث في تدوين تاريخ الجزائر، والإشكالات التي عالجها، وإلى أي مدى ساهمت كتاباته في خدمة مصالح الاحتلال الفرنسي للجزائر؟ وهي التساؤلات التي سنتطرق للإجابة عنها في الفصول الموالية.

الفصل الثالث:

توجهات إميل فليكس غوتييه في تدوين تاريخ الجزائر

أولاً: منهج غوتييه في تدوين تاريخ الجزائر

ثانياً: أراء غوتييه في تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

ثالثاً: مواقف غوتييه من الاحتلال الفرنسي وسياسته في الجزائر 1830 – 1940

تمهيد:

يُعدُّ «إميل فيليكس غوتييه» من أبرز المؤرخين الفرنسيين الذين سعوا إلى تحرير كتابة التاريخ من سيطرة المدرسة التاريخية الوضعية التي تعتمد على الوثائق لتدوين التاريخ، وسعى إلى إدراج مختلف التخصصات العلمية، خاصَّةً الجغرافيا والآثار، في عملية تدوين تاريخ الجزائر بصفةٍ خاصَّة، وتاريخ شمال إفريقيا بصفةٍ عامة. هذا فيما يخص المنهج، أمَّا من حيث المضمون فهذا ما يمكن أن نستكشفه في محتوى هذا الفصل، والفصلين المواليين.

ومنه سنتطرق إلى آرائه في المصادر التي كتبت تاريخ شمال إفريقيا بصفة عامة، ثم نبيّن المنهجية التي اعتمدها في التدوين، وتقديم دراسة نقدية لمختلف المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ شمال إفريقيا قبله، وذلك من خلال ما ذكره في مختلف كتبه ومؤلفاته. فضلاً عن ذلك، سنعرض مواقفه من مراحل تاريخ الجزائر، وقد قسمنا موقف غوتييه من تاريخ الجزائر إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل 1830 وما بعد 1830، لأنَّه يعتبر فترة الاحتلال الفرنسي مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر تختلف عن كل ما سبقها من مراحل.

أولاً:

منهج غوتييه في تدوين التاريخ

اعتمد «غوتييه» في كتابته لتاريخ الجزائر أساساً على ما قدَّمته المصادر الأوروبية، وهذا على أساس تشكيكه في المصادر الإسلامية والجزائرية، غير أنَّ المصادر الأوروبية، وإن وجدت في التاريخ القديم، ممثلة في المصادر الإغريقية والرومانية، وفي الفترة الحديثة من خلال مؤلفات الرحالة والأسرى والقناصل الأوروبيين، فإنَّها تكاد تكون منعدمة بالنسبة لفترة التاريخ الوسيط، لهذا سمَّاها بالعصور المظلمة. إلى جانب المصادر المكتوبة اعتمد «غوتييه» على علم الجغرافيا وعلم الآثار، إذ كثيراً ما نجده يحلل ويقارن بين مختلف المصادر ثم يقدم آراءه. وسنبرز فيما يلي آراءه في مختلف المصادر العربية لتاريخ بلاد المغرب.

1 – أراء غوتييه في مصادر تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا

نستطيع القول إنّ «غوتييه» قسّم هذه الكتب إلى مصادر أساسية ومصادر ثانوية؛ فالمصادر الأساسية هي جميع المؤلفات التي كُتبت عن شمال إفريقيا منذ العهد القرطاجي إلى نهاية الاحتلال البيزنطي. وتشمل كتابات «هيرودوت» و«سالوست» و«تيتوس ليفيوس» و«بوليبوس» و«بروكوبيوس» وغيرهم من المؤرخين الإغريق واللاتينيين الذين كتبوا عن تاريخ شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي. وقد قال عن هؤلاء المؤرخين: «**هؤلاء عقول غربية، ونحن على المستوى نفسه معهم، نستوعبهم بسهولة من غير تكلّف**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 64)

فهو يعتبر هذه الكتب مصادر أساسية، يمكن لأي قارئ فهمها واستيعاب محتواها بسهولة، بالنظر إلى بساطة محتوياتها حسب وجهة نظره. كما يندرج ضمن هذا النوع كتاب تاريخ «ابن خلدون»، الذي اعتبره من أبرز المصادر الأساسية لتاريخ شمال إفريقيا، واعترف بإعجابه الكبير بأسلوب «ابن خلدون» في تدوين التاريخ، وأبدى تأييده للعديد من الآراء التي ذكرها في كتبه. ومع ذلك، أبدى المؤلف تحفظه من طريقة طرح ابن خلدون لبعض القضايا التاريخية، حيث قال: «**ابن خلدون، رغم عبقريته، كان لديه عقل شرقي، لم يكن يعمل كعقلنا، ولا يمكن فهمه مثل «تيت ليف Tite–Live» أو «بوليب Polybe» أو حتى «بروكوب Procope». إنه بحاجة إلى تفسير ونقد**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 19)

أما فيما يخص النوع الثاني من المصادر، فهو المصادر الثانوية وهي تضم كل المؤلفات العربية التي كُتبت عن تاريخ شمال إفريقيا في عصر الفتوحات الإسلامية، ككتاب «تاريخ ابن الأثير» وكتاب «مروج الذهب للمؤرخ المسعودي» وكتاب «البيان لابن عبد الحكم»، وغيرها من الكتب العربية التي كتبت تاريخ شمال إفريقيا، حيث بيّن «غوتييه» أنه من الصعب فهم هذه المصادر، حيث قال: «**تكمن الصعوبة الكبرى في رأيي في الفهم العام للنصوص التي تربكنا، لا يتشابه المؤرخ العربي مع سالوست أو تيتوس ليفيوس أو بوليبوس أو حتى بروكوبيوس، هؤلاء هم عقول غربية ونحن على نفس المستوى**

معهم نستوعبهم بسهولة دون تفكير، لكن عقول المؤرخين العرب وحساسيتهم تبدع بطريقة لم يسبق لها مثيل». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 64)

ليبيّن بعدها أنَّ هذه المؤلفات عديمة الفائدة تاريخياً، لأن المؤرخين العرب «**عديمو الفائدة تاريخياً، وهم يشتكرون في سمة عدم السعي أبداً للفهم والتفسير، لقد تركوا لنا تقاويم فلكية**» (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 19). لأن العقل الشرقي كما يقول نقيض العقل الغربي، فكلمات «...**اللغة العربية والمفاهيم التي تنقلها لا تغطي كلماتنا ومفاهيمنا بدقة، والترجمة من العربية إلى الفرنسية، أو وإلى أي لغة غربية مهمة لا علاقة لها بالترجمة من لغة غربية إلى أخرى**...» (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 79)

إذاً فالمؤلف يعتبر هذه المصادر العربية مجرد تقاويم، لا يمكن فهمها؛ لأنَّها تقدم مجموعة من الأحداث التاريخية دون نقد أو تفسير، وهو الأمر الذي جعل «غوتييه» يدرج هذه المصادر ضمن فئة الحكايات والقصص، حيث اعتبرها نموذجاً عن حكايات ألف ليلة وليلة، ولهذا نجده يحكم على المؤرخين المسلمين بصفة عامة بالفشل والعبثية في سرد الوقائع التاريخية، حيث قال: «**حاول الإسلام كتابة تاريخه الخاص، لكن دون نجاح يذكر باستثناء قلة من الغربيين كالأندلسي العظيم ابن خلدون، أمَّا من يسمون مؤرخين عرباً فهم مؤرخون فقراء غير نقديين، عبثيون وجافون وغير قابلين للقراءة، فالشرقي في كل العصور لا يملك حساً بالواقع ولا حباً له، كل ما هو كائن ويراه أمام عينيه من العالم الحي لم يثر اهتمامه قط؛ ومن هنا انعدام الحس التاريخي**». (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 795)

كما أكد أنَّ المصادر العربية التي كتبت تاريخ بلاد المغرب لا ترقى إلى رتبة المصادر الأساسية، لأن أغلبها كُتب بعد نهاية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بفترة زمنية كبيرة، وهو ما اعتبره إهمالاً كبيراً من العرب والمسلمين لأهمية الكتابة التاريخية، حيث قال: «**لم يُكلِّف الإسلام الفاتح نفسه عناء سرد قصته، كان العربي همجياً لا يبالي بالتاريخ، ولم يستيقظ الفضول الفكري في العالم الإسلامي إلاَّ لاحقاً مع**

العباسيين، عندما سمح انحطاط العنصر العربي ببذور الحضارة الفارسية والشامية القديمة المدفونة تحت أنقاض الغزو بالازدهار من جديد، في ذلك الوقت بالطبع أخبرنا بعض مؤرخي الشام عن فتح المغرب». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 72)

فالمؤرخون العرب باعتبارهم شرقيين يفتقرون إلى الحس التاريخي، فالتاريخ كما يرويه العرب يكاد يكون دائماً تجميعاً بائساً للتواريخ والأسماء والحقائق الجافة التي لا يمكن اعتبارها عملاً تاريخياً علمياً، بقدر ما أنها حكايات حية تسيطر عليها روح ألف ليلة وليلة، نتيجة ضعف النقد الحديث والصارم لهذه الأحداث. (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 312)

لكن هذا الطرح الذي جاء به نموذج دراستنا لا يتوافق مع الدراسات الموضوعية لمؤرخي بلاد المغرب في العصور الوسطى، خاصة الانتقاد الكبير الذي وجّهه المؤلف للمؤرخ «عبد الرحمن بن خلدون»، فرغم اعترافه بفضل هذا الأخير في تدوين تاريخ المنطقة منذ القدم، إلا أن نموذج بحثنا رأى بأنه لا يختلف كثيرا عن مؤرخي الإسلام الذين تركوا لنا تقاويم فلكية كما يقول «غوتييه»، لكن العديد من الباحثين أنصفوا جهود ابن خلدون في التدوين التاريخي، واعتبروا إنجازاته أعظم الأعمال التي أنتجها العقل البشري وأكثرها إثارة للاهتمام، ويعد كذلك أعظم فيلسوف ومؤرخ أنجبه الإسلام على الإطلاق. (Lacoste, 1966, p. 7)

ورغم ذلك نقول إنَّ «غوتييه» ابتعد عن النمطية المعتادة في كتابة التاريخ، التي تقوم على تدوين الأحداث التاريخية وفق ما تمت دراسته في مختلف المصادر، سواء اللاتينية أو العربية، ودعا إلى إعادة تدوين تاريخ شمال إفريقيا وفق نظرة جديدة تقوم على تحليل ونقد المعلومات التاريخية، وسنورد فيما يلي الأسس التي اعتمد عليها في تدوين التاريخ.

2 – منهجيته في تدوين التاريخ

عمل «إميل فليكس غوتييه» على نقد وتقييم مختلف الكتب التي أُلِّفت عن تاريخ بلاد المغرب منذ أقدم العصور إلى فترة الاحتلال الفرنسي، ومن خلال تتبعنا لمختلف المؤلفات التي كتبها عن تاريخ المنطقة، نستطيع الوصول إلى الأسس التي اعتمدها في تدوين التاريخ.

2 – 1 – دراسة وتحليل الآثار

اعتمد «غوتييه» بشكل كبير في دراسته لتاريخ شمال إفريقيا في فترة ما قبل التاريخ، وفترة الاحتلال الروماني، على تحليل ودراسة مختلف الشواهد الأثرية التي تعود للفترة المراد دراستها. فمثلاً، عند دراسته لمختلف الأدوات الحجرية التي استعملها الإنسان في شمال إفريقيا في فترة ما قبل التاريخ، نجده يعود إلى مختلف الأدوات التي تم العثور عليها خلال عمليات التنقيب، سواء تلك التي شارك فيها هو أو قام بها علماء وضباط فرنسيون.

كما اعتمد أيضاً على دراسة وتحليل النقوش الصخرية التي تنتشر في مختلف مناطق الصحراء، خاصَّة الهقار والطاسيلي، حيث قام بتقديم وصف ظاهري لهذه النقوش، ثم شرح محتوى هذه الرسومات. كما اعتمد على دراسة مختلف الآثار الرومانية، خاصَّة الموجودة في «الأوراس» و«شرشال»، لتبيان أوضاع شمال إفريقيا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الاحتلال الروماني. (Gautier, Études d'ethnographie Saharienne, 1907, pp. 37-68)

2 – 2 – تنويع مصادر المعلومات

عمل «غوتييه» على تنويع المصادر التي كتب بها عن تاريخ شمال إفريقيا، من خلال الاعتماد على المصادر اللاتينية في تدوين تاريخ شمال إفريقيا القديم، والاعتماد على المصادر العربية المترجمة إلى الفرنسية في تدوين تاريخ المنطقة في فترة التاريخ الوسيط، واعتمد أيضاً على التقارير الإدارية في تدوين تاريخ الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي.

كما وجَّه انتقادات لاذعة للمؤرخين الفرنسيين الداعمين للمدرسة الوضعية التي تعتمد على الوثائق في تدوين التاريخ، وبيَّن أنَّ هذه الوثائق رغم أهميتها لا تسمح لنا بالاطلاع على الحدث التاريخي بكل تفاصيله، لذا دعا إلى تنويع مصادر المعلومات، حيث قال: «**يجب ألاَّ نقيد أنفسنا بما كان يُعرف**

في القرن الماضي بالمنهج التاريخي الصارم، منهج التاريخ الوثائقي الخالص، التاريخ المبني على الأرشيفات فقط في حالتنا الخاصة، من المؤكد أنَّه لا يمكننا أن نأمل في اكتشاف أي شيء في الأرشيفات، لن نأتي بنص سليم، ولكن لجعل النصوص الموجودة مفهومة من الضروري التخلي طواعية عن العديد من العناصر المهمة في التقييم والبحث خارج المنهجيات البحثية المألوفة». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, pp. 72-73)

وهذا التوجه طبقه نموذج دراستنا في دراسة مختلف مراحل تاريخ الجزائر؛ سواء كان تاريخاً قديماً أو وسيطاً أو حديثاً ومعاصراً، حيث لاحظنا أنَّه عند دراسته وتحليله لهذه المراحل اعتمد على إجراء مقارنة بين المعلومات الواردة فيها، مع إجراء مقارنة كذلك مع الشواهد الأثرية الموجودة؛ ففي دراسته لتاريخ شمال إفريقيا في فترة الاحتلال الروماني لجأ «غوتييه» إلى الاعتماد على المصادر اللاتينية الأساسية كمصدر أساسي للمعلومة، كما اعتمد أيضاً على الشواهد الأثرية التي تركها هذا الاحتلال في بلاد المغرب من مبانٍ ومدن عمرانية للتأكيد على صحة فرضيته القائمة على تطور شمال إفريقيا والجزائر زراعياً واقتصادياً في فترة الاحتلال الروماني.

2 – 3 – التحليل والنقد والتفسير

دعا «غوتييه» أيضاً إلى تقديم نظرة نقدية للتاريخ، وعدم الاكتفاء بسرد الأحداث التاريخية بشكل جاف؛ حيث أشار في نقده لمدرسة التاريخ الوضعي إلى أنَّ المؤرخ يجب عليه التدخل لإعطاء تفسير لسبب وقوع هذه الأحداث، وهو ما يستدعي الخروج عن النمط التقليدي الذي يعتمد على الوثيقة كمصدر للمعلومة، ففي إطار حديثه عن الكتابة التاريخية في بلاد المغرب قال: «**يجب علينا التدخل والتفسير، يجب ألاَّ نقيد أنفسنا بما كان يُعرف في نصف القرن الماضي بالمنهج التاريخي الصارم، منهج التاريخ الوثائقي حصراً، تاريخاً يعتمد كلياً على الأرشيفات. ولكن لجعل النصوص مفهومة يبدو لي أنَّنا تخلينا طواعية عن الكثير من عناصر التقييم المهمة».** (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 61)

كما بيَّن أنَّ دراسة التاريخ بصفة عامة وتاريخ بلاد المغرب بصفة خاصة تستدعي «**المخاطرة بالتأويلات وبالإضافات والفرضيات، حتى وإن كانت مؤقتة، وأن ندخل في ذاكرة المؤرخين العرب ما هو غائب قطعاً بأي صلة بالحياة، وأن نقارن شهادتهم عن الماضي بما نراه أمام أعيننا، وإلا سيبقى تاريخ المغرب غامضاً، لغزاً بلا معنى**». (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 312).

إذاً، «إميل فيليكس غوتييه» يدعو إلى ضرورة تحليل وتفسير الأحداث التاريخية التي توردها المصادر التي كتبت عن تاريخ شمال إفريقيا الوسيط، وهذا التحليل يكون بهدف فهم التاريخ وتقديم صورة واضحة للقارئ، حيث لاحظنا أنَّ المؤلف في مختلف مؤلفاته يعمل على تقديم ما ورد في مختلف المصادر عن الحدث التاريخي، ومقارنة المعلومات التي وردت فيها، ثم إعطاء تفسير للحدث التاريخي من أجل فهمه بشكل أفضل؛ حيث يقول: «**نحن لا نسعى إلى أن نكون كاملين، بل نركز على عدد محدود من النقاط المعقدة في تطور الأحداث، نود أن نفهم أكثر من أن نروي**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 62)

2 – 4 – الهدم وإعادة البناء

بالإضافة إلى التحليل والتفسير والنقد، اعتمد المؤلف على منهجية الهدم وإعادة البناء لتفسير الحدث التاريخي؛ حيث يقوم بذكر هذا الحدث كما كُتب في مختلف المصادر والمراجع، ثم يقدِّم رفضه المطلق للتفسيرات التي قدَّمها مؤلفو هذه الكتب، ثم يحاول إعادة بناء الحدث التاريخي من خلال الاعتماد على أساسيات البحث العلمي (الملاحظة، والفرضية، والاستنتاج).

فمثلاً عند تحليله لمراحل انتشار الإسلام في شمال إفريقيا، لاحظ أنَّ كل المصادر والمراجع ركزت على دراسة الحملات التي قام بها الفاتحون العرب في المنطقة وتبيان نتائج كل حملة، لكن غوتييه رفض هذا الطرح وأكَّد أنَّ دراسة هذا الحدث تستوجب تتبع المناطق التي تبعتها هذه الفتوحات، حيث بيّن أنَّها تركزت في المناطق الصحراوية، وأن هذا التمركز يعود إلى تشابه نمط معيشة سُكَّان صحراء شمال إفريقيا مع نمط معيشة الفاتحين العرب.

كما أوضح أنَّ سرعة انتشار اللغة العربية لا تعود إلى كثرة عدد العرب الذين جاؤوا إلى بلاد المغرب، بل تعود إلى بقاء اللغة البونيقية منتشرة بين سُكَّان شمال إفريقيا حتى الفتوحات الإسلامية، حيث قال: «**البونيقية كانت منتشرة على نطاق واسع في الريف في عصر القديس أوغسطين، كما ذكر بروكوبيوس أنَّ السُّكَّان كانوا يتحدثون هذه اللغة حتى القرن السادس، ومنذ ذلك الحين وحتى الفتح الإسلامي كانت الفترة الفاصلة قصيرة، ويمكن للعربية المرتبطة بهذه اللغة أن تحل محلها بسهولة، لذلك يجوز افتراض أنَّ العديد من البربر تبنوا لغة الإسلام لأنَّهم تعلموها دون صعوبة؛ حيث أدركوا أنَّها بونيقية ثانية**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 130)

2 – 5 – الاعتماد على الجغرافيا التاريخية والبشرية

ركَّز «غوتييه» في مختلف مؤلفاته على الربط بين التاريخ والجغرافيا الطبيعية، حيث لاحظنا أنَّ المؤلف في معظم الكتب التي خصَّصها لدراسة الجغرافيا الطبيعية للجزائر، يربط بشكل مباشر بين التضاريس الطبيعية ونمط حياة السُّكَّان، إذ يقول في هذا الصدد: «**لابد من وضع الحقائق في إطارها الجغرافي، وهو ما يعجز عنه المؤرخون العرب، وهم يمثلون المصادر التاريخية الصرفة، وهذا بسبب تكوين عقولهم المشرقية... فعندما يروون لنا الصراع بين صنهاجة وزناتة، فإنَّ تعقيدات هذا الصراع لا تثير اهتمامنا، ولكن إذا ميَّزنا بينهما، وبيَّن أنَّ الأولى بحكم موطنها مستقرة بالضرورة والثانية بدوية؛ يصبح التاريخ هنا أوضح**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, pp. 34-35)

يؤكد «غوتييه»، على أنَّ الإطار الجغرافي الذي يعيش فيه السُّكَّان يحدد نوع حياتهم والعلاقة بينهم، فالسُّكَّان الذين يعيشون في المناطق التلية فرضت عليهم الطبيعة حياة الاستقرار لتوفر المراعي والأراضي الزراعية، لإنتاج غذائهم الأساسي، وهو القمح، بينما السُّكَّان الذين يعيشون في الصحراء فرضت عليهم حياة الترحال بالنظر لقلة الأمطار والغذاء في مناطق استقرارهم، وهو ما يفرض عليهم التنقل من منطقة إلى أخرى، كما أنَّ اختلاف نمط المعيشة، كما ذكر المؤلف، ساهم بشكل مباشر في بروز عداوة بين سُكَّان التل وسُكَّان الصحراء.

إذاً فنموذج دراستنا عمل على التخلص من تبعات المدرسة الوضعية، والدعوة إلى دراسة التاريخ بشكل نقدي يعتمد على تقديم تفسير للحدث التاريخي، بغية فهمه وعدم الاكتفاء بمنهج الرواية التي تحول البحث إلى قصة، أو تحويله إلى مجرد سرد للوقائع، والَّذي يجعل القارئ يشعر بالكآبة والملل في التاريخ.

ومن هذا المنطلق نقول إنَّ منهجية «غوتييه» في تدوين التاريخ تنتمي إلى مدرسة الحوليات، ويعد نموذج دراستنا هذه من أبرز الداعمين لها، بالنظر للأسس التي اعتمدها في البحث التاريخي، وهو ما يجعلنا نتساءل عن نظرة هذا المؤرخ لمختلف مراحل تاريخ الجزائر، ومدى موضوعيته في كتابة التاريخ؟ وهو ما سنحاول الإجابة عليه في المحاور الموالية.

ثانياً:

أراء غوتييه في تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

عمل نموذج دراستنا على تخصيص جانب مهم من أبحاثه لدراسة تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، وركز في دراسته على تحليل تاريخ شمال إفريقيا في العصور الوسطى (التاريخ الإسلامي)، لكنه لم يهمل التاريخ القديم، خاصة الفترة الممتدة من بداية الاحتلال الروماني إلى نهاية الاحتلال البيزنطي، وسنتطرق في هذا المحور للآراء التي تبناها عن كل مرحلة من المراحل سالفة الذكر.

1 – فترة التاريخ القديم (من العهد القرطاجي إلى نهاية العهد البيزنطي)

من خلال دراستنا لمختلف مؤلفات «غوتييه» عن تاريخ شمال إفريقيا القديم، نلاحظ أنَّه ركَّز على ثلاث فترات تاريخية هي: ما قبل التاريخ، العهد القرطاجي، وفترة الاحتلال الروماني وصولاً إلى الاحتلال البيزنطي.

ففي دراسته لفترة ما قبل التاريخ، نجد أنَّه ركَّز على دراسة الأدوات الحجرية التي استعملها الإنسان في شمال إفريقيا من خلال دراسة المخلفات الأثرية والرسومات الصخرية، كما بيَّن مختلف

التحولات التي عرفتها شمال إفريقيا من الناحية المناخية، وأثر هذه التحولات في تغيُّر نمط حياة السُّكَّان واختفاء العديد من الحيوانات، كما ذكر أنَّ بلاد المغرب في عصور ما قبل التاريخ عرفت ازدهار حضارة مثل التي كانت سائدة في قارة أوروبا، فالرسومات الصخرية المنتشرة خاصَّة في جنوب «وهران» ومنطقة «الطاسيلي» تؤكد أنَّ الصحراء الجزائرية كان يعيش فيها الإنسان منذ القدم، وذكر أنَّ شعب «البوشمن» –وهم قبائل بدوية تعيش حالياً في «صحراء كالاهاري»– من أقدم الشعوب التي استقرت في هذه المنطقة. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 31-34)، وهذه التوجه الذي أورده نموذج دراستنا يسعى فيه حسب وجهة نظرنا إثبات تباين أصول سكان الجزائر وأنَّهم ليسوا الشعب الأول الذي استقر قي شمال افريقيا.

أما في دراسته للعهد القرطاجي، فأشار إلى الغياب التام للمصادر التاريخية التي تؤرخ لهذه المرحلة التاريخية، وأن أغلب المصادر التي تشير للعهد القرطاجي تركز على نهاية هذه الفترة وبداية الاحتلال القرطاجي؛ حيث قال: «**عند التأمل في تاريخ المغرب في العهد القرطاجي نجد بأنه يتركز على الحروب البونيقية التي روى مؤرخو روما تفاصيلها، وهذه الحروب نقطة تحول حاسمة في التاريخ الروماني، فهي التي رسخت قوة روما**...»، ليوضح بعدها أنَّ الاستعمار الفينيقي في غرب البحر الأبيض المتوسط يعود إلى منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وأنَّ المعلوم من تاريخ قرطاج هو قرن الانهيار فقط، وأن «**الفترة التي سبقتها غير معروفة نهائياً، أي أنَّ القرون الثمانية أو التسعة الماضية هي قرون مظلمة**» (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 43)

لذلك نجد أنَّ المؤلف ركَّز في دراسته لهذا العصر على تبيان نمط حياة السُّكَّان إبَّان هذه الفترة الزمنية وأقسامهم، حيث أشار إلى أنَّهم كانوا في العهد القرطاجي مقسمين إلى «النوميد»، الذين كانوا يعيشون حياة البدو، ويتمتعون بتفوق سياسي نتيجة تنظيم عسكري طبيعي، لكنهم لم ينظموا عسكرياً الدولة، بل اعتمدوا على القبيلة الكبيرة في تسيير شؤونهم، وهذه القبيلة تكون ذات مكانة تاريخية عظيمة. (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 131). وذلك ما ينطبق على «ماسينيسا»، أمَّا القسم الثاني فهم «النوميد القرطاجيون»، الذين يعيشون في المناطق الممتدة بين الأوراس

وقسنطينة، وهؤلاء البدو لا غنى لهم عن المدينة، فهم يعيشون في تكافل معها. (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 22)

كما شرح «غوتييه» طبيعة العلاقة بين القرطاجيين وسُكَّان بلاد المغرب، حيث قال: «...**على طول الساحل شكلت المدن الفينيقية التابعة لقرطاج سلسلة مترابطة، حوالي عشرين مدينة، وفي هذه المدن العديدة وفي قرطاج نفسها لم يكن للقرطاجيين أي تمييز عرقي، بل اختلطت دماؤهم بدماء السُكَّان الأهالي بغزارة، وكان تأثير اللغة النظامية والحضارة المتفوقة على شبه المتوحشين ملموساً بعمق، ليس فقط داخل حدود الأراضي التي تديرها قرطاج، بل خارجها أيضاً**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 129). كما أكَّد في موضع آخر أنَّ فينيقيي «صور» و«صيدا» أسَّسوا «قرطاج» واستعمروا السواحل الغربية حتى مضيق جبل طارق وما بعده، وهذا ما يعني ببساطة أنَّهم أسَّسوا مراكز تجارية هناك، وأنَّ سيطرتهم كانت بحرية فقط. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 12).

ومن هذا المنطلق، يرى أنَّ القرطاجيين الذين استقروا في شمال إفريقيا لم يتعدَّ حكمهم بعض المدن الساحلية، وأنَّ تمركزهم كان بهدف تنشيط تجارتهم فقط، وبيَّن أنَّ العلاقة بينهم وبين سُكَّان بلاد المغرب كانت علاقة وطيدة، قائمة على التبادل التجاري وحسن الجوار، بدليل اختلاط دماء القرطاجيين بدماء البربر عن طريق المصاهرة، حيث قال: «**قرطاج لم تبذل جهوداً منظمة لاستيعاب المغرب، ولم تكن لديها سياسة استعمارية رسمية على الطراز الروماني**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 128)

لكن المؤلف، رغم اعترافه بأن تواجد القرطاجيين في بلاد المغرب كان على شكل قواعد تجارية فقط، إلا أنه من جهة أخرى يدرج هذا التواجد ضمن الهيمنة العسكرية والاحتلال الأجنبي، حيث لاحظنا أنه يربط في حديثه عن القرطاجيين بالاستعمار، ويؤكد على أن هذه الفترة الزمنية، رغم اختلافها عن الاحتلال الروماني، إلا أنها تعد جزءاً من الاستعمار الأجنبي لبلاد المغرب. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 34)

أما فيما يخص الفترة الممتدة من بداية الاحتلال الروماني إلى نهاية الاحتلال البيزنطي، فوجدنا أن «غوتييه» ركز أكثر على تحليل آثار هذه السيطرة الأجنبية لبلاد المغرب بشكل عام، مع تخصيصه لدراسة آثار الاحتلال الروماني في ازدهار شمال إفريقيا في المجال الفلاحي والاجتماعي والسياسي، وهذا التركيز كان أكبر من التطرق لمرحلة الاحتلال الوندالي والاحتلال البيزنطي؛ من منطلق أنَّ المؤلف اعتبر هذه المرحلة ككل تابعة للاحتلال الأوروبي لشمال إفريقيا.

ففي الجانب الفلاحي نجد «غوتييه» ركز على تبيان مدى ازدهار زراعة الزيتون في شمال إفريقيا، حيث ذكر أن بلاد المغرب في عهد الاحتلال الروماني حققت ازدهاراً كبيراً في زراعة الزيتون، ووضح أن المؤرخين العرب يؤكدون ذلك في كتبهم بأن هذه المنطقة كانت عبارة عن غابة واحدة، وأنها عرفت رخاءً كبيراً، حيث لما سُئل العرب الرومان عن السر الذي جعلهم أغنياء، أجابوا بأن هذه الأموال جاءت بفضل الزيتون. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 59). وهي نفس الفكرة التي أوردها في كتاب إفريقيا البيضاء، حيث قال: «**في عهد الإمبراطورية الرومانية كان لزيت الزيتون نفس الأهمية الاقتصادية التي يحظى بها النبيذ اليوم، كانت إفريقيا الرومانية أكبر مصدر للزيت في حوض البحر المتوسط، حيث كانت تغطيها بساتين الزيتون من جميع الجهات.**» (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 258)

كما أشار أيضاً إلى المساهمة التي قدمها الرومان في تطوير الزراعة في شمال إفريقيا، والمساهمة في جعل المنطقة منطقة تصدير للزيت والحبوب، ووضح أيضاً الدور الذي قام به الرومان في تأسيس الملكية الكبيرة للأراضي وظهور عدة منتجات فلاحية، جعلت الفلاح ينتقل من نمط الإنتاج الاستهلاكي إلى نمط الإنتاج التجاري، وبالتالي انتشار الرفاهية وسط السكان. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 258).

ولكي يثبت لنا «غوتييه» صحة ما ذهب إليه من تعظيم لشأن الاحتلال الروماني في بلاد المغرب، نجده يقول: «**كانت نوميديا ركناً من أركان إفريقيا، حيث حقق الاستعمار الروماني أعظم نجاحاته... في نوميديا لم تكن ديمقراطية ملاك الأراضي موجودة، ولم تنشئها روما، ما أوجدته هو نظام الملكية الكبيرة، حيث هيمن عدد قليل من ملاك الأراضي الناطقين باللاتينية على طبقة عامة**

الشعب». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 24).

لذلك اعتبر نموذج دراستنا الاحتلال الروماني المساهم الفعلي في ازدهار الزراعة في شمال إفريقيا، بعد أن كانت أراضيها خالية يستخدمها السُّكَّان لتربية الأغنام، حيث قال: «**إفريقيا الرومانية في تطورها الاقتصادي المستمر لطالما اتجهت نحو تحويل مساحات شاسعة خالية يستخدمها الرعاة «البغيضون» وأغنامهم البائسة إلى أراضٍ زراعية**». (Gautier & Reygasse, Le monument de Tin-Hinan, 1934, p. 12)

وبالإضافة إلى تفاخره بإنجازات الرومان في الجزائر وشمال إفريقيا في مجال تطوير غراسة الزيتون، أكَّد على أنَّ بلاد المغرب في عهدهم عرفت زيادة في حجم الثورة الحيوانية، خاصَّة الدور الذي قاموا بها في دخول الجمال للمنطقة. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 187) حيث بيَّن أنَّ هذه الثروة الحيوانية ساهمت في ازدهار الثورة الاقتصادية بالنظر لما قامت به روما من جهود في توسيع استعمالها، حيث قال: «**فالجمل بحد ذاته يختصر المسافات ويقلص مساحة الصحراء، أنَّها ثورة اقتصادية تضاهي دون مبالغة ثورة السكك الحديدية، ومن المؤكد أنَّ هذه الثورة الاقتصادية كانت مرغوبة بصراحة، وتم تنفيذها بوعي من قبل الإدارة الرومانية**» (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 208-209)

كما لاحظنا أنَّ «غوتييه» ربط بين هذا التطور الاقتصادي لبلاد المغرب في عهد الاحتلال الروماني وبين تحسن الوضع الاجتماعي للمنطقة، حيث تحدَّث عن التطور الكبير الذي عرفه عدد السكان، والَّذي سمح حسب رأيه بإضافة فوائد كبيرة لروما، سمحت لها باستغلال مساحات شاسعة من الأراضي كانت غير مستغلة من قبل، وهذه الفائدة الأخيرة جعلت جميع الفوائد الأخرى بلا جدوى. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 209)

ليؤكد بعدها أنَّ التطور في عدد السكان سمح للاحتلال الروماني بتحقيق أفضل نجاحاته، حيث قال: «بنى عدد كبير من المدن الكبرى على الهضاب المرتفعة أو في الوديان، ففي الأوراس كانت سفوح الجبال مليئة بسلسلة من المدن الكبرى، مثل «تيفاست» و«ماسكولا» و«باغاي» و«تيمقاد» و«لومباز» و«طبنة».». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 257). كما أكَّد في كتاب إفريقيا البيضاء أنَّ ازدهار إنتاج زيت الزيتون في شمال إفريقيا ساهم في ظهور المدن الرومانية سالفة الذكر بالنظر للرخاء الاقتصادي الذي حققه تصدير الزيت إلى حوض البحر الأبيض المتوسط. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 237).

وهو الأمر الذي جعل «غوتييه» يصر على اعتبار الاستعمار الروماني لبلاد المغرب استعماراً زراعياً فقط، وأن هذه الهيمنة الزراعية ساهمت في ظهور الملاك الكبار للأراضي الزراعية، وساهمت في تطور المدن وأعطتها مكانة اقتصادية وإدارية كبيرة في الجزائر وشمال إفريقيا، كما أنَّ هذا التطور هو الَّذي سمح بظهور الطبقة البرجوازية التي سيطرت على جميع وسائل الإنتاج الزراعي في المدن، أمَّا الريف فتطور هو الآخر بفضل الكتلة البروليتارية الزراعية المرتبطة بالأرض. (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 132)

أمَّا في الجانب السياسي فركز «غوتييه» على تحليل طبيعة الاحتلال الغربي لشمال إفريقيا، سواء كان احتلالاً رومانياً أو ونداليا أو بيزنطياً، حيث تطرَّق في حديثه عن الاحتلال الروماني إلى الإسهامات التي قام بها هذا الاحتلال حسب وجهة نظره في إدخال النظم السياسية للمنطقة وتحقيق الأمن والسلم، من خلال نشر قواتها في شمال إفريقيا، حيث أشار إلى دور روما في تحقيق الوحدة السياسية لشمال إفريقيا، لأنَّها لم تعرف الوحدة السياسية إلاَّ متأخرة وبصورة معتدلة قبل 3000 عام، رغم أنَّ الوحدة التي حققها الرومان «**لم تتجاوز مرحلة الوحدة العسكرية والإدارية، ففي أعماق البلاد بقيت الجماهير الشعبية على حالها**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 12)

كما أشار في حديثه عن الوضع السياسي لبلاد المغرب في فترة الاحتلال الروماني إلى انتشار الأمن والسلم بفضل الجهود التي بذلتها الجيوش الرومانية في المنطقة، وركَّز المؤلف في حديثه على الدور الذي قام به الفيلق الثالث الذي استقر في منطقة لومباز (تازولت)؛ حيث قال: «**لطالما كانت**

الإمبراطورية الرومانية سلطة نظامية غير متنازع عليها، قادرة على حفظ النظام العام خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الاحتلال، حيث لا نرى أنَّ الإمبراطورية واجهت أي صعوبات في موريتانيا، ويبدو أنَّ الموريين قد تأقلموا جيداً مع الشرطة التي مارسها الفيلق الثالث». (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 124) ؛ وأكَّد على أنَّ هذه القوات العسكرية ساهمت في انتشار السلام في سفوح جبال الأوراس لمدة ثلاثة قرون. (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 131).

«فغوتييه» إذاً يرى أنَّ الاحتلال الروماني لبلاد المغرب ساهم بشكل فعال في تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمنطقة، لما قام به من جهود ساهمت في إحداث تفاعل كبير بين احتلال الرومان لبلاد المغرب وضمان بقاء البربر. (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 260) ؛ خاصَّة أنَّ روما سمحت للسكان الأصليين بالمشاركة في الجيش بخيولهم، واستفادت بشكل كبير منهم، حيث قال: «**حقق العديد من الفرسان الأفارقة مجدا في مضامير سباق الإمبراطورية الرومانية على ظهور هذا الخيول، وبامتطائها سار الفارس النوميدي خلف الجيوش القرطاجية ثم الجيوش الرومانية في جميع أنحاء العالم القديم**» (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 188).

وهو ما ساهم في جلب الحضارة لكلِّ المناطق التي كانت تابعة بصفة مباشرة للإدارة الرومانية، حيث يقول: «**المنطقة الممتدة بين مسيلة والجزائر مرورا بالتيطري والمدية، أنَّها المناطق البشرية التي مر بها الطريق الكبير بين موريتانيا السطايفية وموريتانيا القيصرية، وهو طريق تميز بالمستعمرات وتغلغلت فيه تأثيرات حضارية قديمة، هناك كانت أوزيا (أومالي). ورابيدي ولامبيديا (المدية). وغيرها من الآثار الرومانية المنتشرة بكثرة في بلاد القبائل، وهو ما جلب لهذا الطريق الحضارة، كما هو الحال دائما**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 359)

وأمَّا المناطق التي كانت بعيدة عن تأثير الرومان، فاعتبرها مناطق متوحشة لا يوجد فيها شيء، حيث أكَّد على أنَّ «خط الليمس» الذي أنشأه الرومان هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية، وبين

باقي البلاد التي تسيطر عليها «قبائل الجيتول» والقطعان المتوحشة. (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 50)

ولكي يوضِّح لنا «غوتييه» أكثر إسهامات الاحتلال الروماني حسبه في رقي وتحضّر بلاد المغرب، بيَّن لنا أنَّ هذه المنطقة بمجرد طرد الرومان منها بعد ظهور الاحتلال الوندالي عرفت تدهوراً كبيراً في جميع المجالات؛ حيث دُمِّرت المدن الرومانية، وتحوَّلت حياة السُّكَّان من النمط الزراعي الكبير إلى نمط الرعي؛ حيث يقول عن الاحتلال الوندالي والبيزنطي: «**من المؤكد أنَّ المدن الرومانية العظيمة في نوميديا دُمِّرت في ذلك الوقت بشكل نهائي ولن يُعاد بناؤها... عندما أعاد البيزنطيون إلى إفريقيا ولو بطريقة هشَّة الحكومة المنظمة وأفكارنا الغربية المتعلقة بالنظام والإنتاج، وجدوا مقاطعة نوميدية رومانية قائمة على الرعي، فلم تعد هناك مدن، ولم تعد هناك برجوازية ولا كبار مُلَّاك الأراضي، ولم تعد هناك طبقة عاملة زراعية، وهو ما يعني عودة الرعاة والقضاء على الزراعة**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 259-260)

علاوة على ذلك، بيَّن المؤلف أيضاً أنَّ الفترة الممتدة من نهاية الاحتلال الروماني إلى نهاية الاحتلال البيزنطي، برزت فيها القوى المحلية، واستقل السُّكَّان في تسيير شؤونهم دون تدخل من الوندال أو البيزنطيين، ففي الأوراس مثلاً أصبح السُّكَّان بعيدين عن الهيمنة الوندالية (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 282). وهو نفس الوضع الذي استمرَّ بعد احتلال البيزنطيين للمنطقة، حيث ظهر عدة أمراء محليين، يقول «غوتييه»: «**نوميديا البيزنطية من خلال بروكوبيوس تتصارع مع الأمراء النوميديين العظماء، يبداس وأوريتاس وهم على ما يبدو نظيران لماسينيسا، لم يتغلب البيزنطيون عليهم، بل اضطروا إلى التصالح معهم، وهو ما أدى إلى إعادة بناء نوميديا القرطاجية، عوض إعادة بناء نوميديا الرومانية**» (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 25)

1 – 1 – الرد على توجه غوتييه في كتابة تاريخ الجزائر القديم

إذًا فإميل فليكس غوتييه، ومن خلال ما ذكرناه سابقًا، يعطينا صورة براقة عن الاحتلال الروماني بصفة خاصة، وأن هذا الاحتلال –حسب وجهة نظره– ساهم في ازدهار البلاد وتحضرها، وتحسَّر «غوتييه» على نهاية هذا الاحتلال؛ لأنَّ ذلك ساهم في عودة الخراب إلى شمال إفريقيا، وهذه الآراء تبيّن لنا مدى تعصّب المؤلف لهذا الاحتلال، فهو يرى بأنَّه يمثل النظام والحضارة والتقدم عكس بقاء المنطقة تحت سلطة الأمراء المحليين، والَّذي يجلب معه الخراب والدمار.

لكن عند دراستنا للمرحلة التاريخية سابقة الذكر (التاريخ القديم)، نلاحظ أنَّ المؤلف عمل على تقليص أهمية التواجد القرطاجي في بلاد المغرب، وذلك من خلال ذكره أنَّ هذه المرحلة التاريخية لم يتم التطرق لها من الجانب التاريخي، نظراً لغياب المصادر الأساسية التي تتحدث عنها، وأنَّ ما يعرف عن القرطاجيين في شمال إفريقيا ظهر فقط مع بداية الحروب البونيقية.

وهو ما يُعتبر، حسب وجهة نظرنا، تجاهلاً مقصوداً من نموذج دراستنا لإبراز الرومان في موقع القوة، بإثبات غياب تاريخ مكتوب عن المنطقة قبل ظهور الرومان؛ أي أن فضل التدوين يعود للمؤرخين اللاتينيين الذين كتبوا عن مجرى هذه الحروب، كما يثبت لنا هذا التوجه التعصب الشديد «لغوتييه» لكلِّ ما هو غربي أو أوروبي المنشأ، سواء كان رومانياً أو ونداليا أو بيزنطياً، ويقلل من شأن ما له صلة مباشرة بالحضارة الشرقية المحلية.

فإذا كان المؤرخ ينفي وجود عمل تاريخي عن قرطاج، فكيف نفسر إذاً تأليف المؤرخ «ستيفان غزال Stephane Gsell» لكتابه عن شمال إفريقيا القديم، والذي خصص بالتقريب ثلاث أجزاء منه للحديث عن الحضارة القرطاجية في شمال إفريقيا، وهو نفس الكتاب الذي اعتبرته نموذج دراستنا بالعمل الكبير الذي لا يوجد مثله، واستعان به في كثير من الأحيان خلال تدوينه لتاريخ الجزائر وشمال إفريقيا.

كما يجب أن نشير في هذا الصدد إلى الكتب التي ألفها ضباط الإدارة «**إرنست مرسييه Ernest Mercier**» عن تاريخ شمال افريقيا، والتي قدمنا لها تعريفا شمالا في الفصل الأول من هذه الدراسة، وبينا الدور الذي قام به هذا الضابط في كتابة وتدوين تاريخ الجزائر القديم.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنَّ المصادر التاريخية التي تكلَّمت عن التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كلُّها لمؤلفين إغريق ورومان، أي أنَّهم ينتمون للفكر الغربي الذي اعتبره المؤلف نموذجاً للكتابة التاريخية الحقيقية التي لا تحتمل الخطأ، ومن بين النماذج التي تكلَّمت عن بدايات التوسع الفينيقي في شمال إفريقيا نذكر المؤرخ الإغريقي «تيمايوس Timaeus»، الذي تحدَّث في كتابه عن بدايات تأسيس مدينة قرطاج. (غانم، 1982، صفحة 74).

كما نؤكد على وجود مصادر أخرى مهمة ككتاب تاريخ «هيرودوت»، الذي تحدَّث عن النشاط البحري للفينيقيين في حوض البحر المتوسط حتى «أعمدة هرقل» الذي يُعرف حالياً باسم «مضيق جبل طارق»، كما تحدَّث أيضاً عن بدايات العلاقات التجارية الفينيقية الليبية التي بدأت في شكل مساومة خرساء. كما نذكر في هذا الصَّدد الكتب التي ألَّفها المؤرخ اليوناني «بوليبيوس Polypus»، الذي خصَّص جزءاً كبيراً للحديث عن قرطاج ونظمها السياسية والاجتماعية وعلاقاتها مع الرومان، رغم أنَّ هذا المصدر كان متحيِّزاً للرومان باعتباره صديقاً لهم.

ومن المصادر التاريخية المهمة أيضاً لتاريخ شمال إفريقيا في العهد القرطاجي نذكر مؤلفات المؤرخ «استرابون Strabon»، والتي قدَّم فيها معلومات جدَّ هامَّة عن مدينة قرطاج، من خلال المعلومات التي نقلها عن الفينيقيين المستقرين في هذه المدينة وغيرها من المدن البحرية التي استقروا فيها. (سلاطنية، د.ت، الصفحات 15-24)

علاوة على ذلك نقول إنَّ «غوتييه» في إطار مناقشته للمنهج التاريخي وطرق كتابة التاريخ، أكَّد ضرورة تنويع مصادر المعلومات من البحوث الأثرية أو تطبيق الجغرافيا البشرية لمعرفة الحقائق، لكنه في دراسته لتاريخ التواجد الفينيقي عمل على تبرير عدم تسليطه الضوء لفترة تواجدهم بشمال إفريقيا، بإنعدام المصادر كتابية ، لكن هذا الطرح بينا سابقا بأنه غير مقبول، بالنظر لوجود عدة مصادر كتابية وأخرى أثرية يستطيع اللجوء إليها في عملية التدوين، لكنه آثر تجاوز هذه المرحلة التاريخية المهمة، حتى يتسنى له إخفاء معالمها التاريخية وإنجازاتها في شمال إفريقيا، وبالتالي إبراز ضخامة الإنجازات التي قام بها الرومان بالمقارنة مع الاستقرار القرطاجي في شمال إفريقيا.

كما أنَّ المؤلف عند دراسته لهذه المرحلة التاريخية، يناقض نفسه في طريقة طرح طبيعة التواجد الفينيقي في شمال إفريقيا، فبينما يثبت في مواضع أنَّه عبارة عن استقرار تجاري وليس هيمنة عسكرية كالاحتلال الروماني، نجده في الكثير من المواضع يؤكد أنَّ استقرار الفينيقيين هو استعمار أجنبي كغيره، وهو ما يثبت لنا أنَّ «غوتييه» يحاول وفق هذا المنطلق التأكيد على أنَّ تأسيس قرطاج وغيرها من المراكز التجارية، رغم كونه ظاهرياً ليس احتلالاً، إلاَّ أنَّه في الحقيقة استعمار أجنبي تجاري بالدرجة الأولى.

لكن ومن خلال بحثنا في مختلف المراجع التاريخية التي تكلَّمت عن القرطاجيين في شمال إفريقيا، لاحظنا تأكيدهم على العلاقات الوطيدة بين الفينيقيين وسُكَّان شمال إفريقيا، خاصَّةً بعد سنة 238 ق.م، والتي يُرجَّح أنَّ القرطاجيين قد عقدوا معاهدةً مع الليبيين تضمَّنت الحدود بينهما، وسمحت بإنشاء علاقات سياسية وتجارية كبيرة بينهم، كما أدَّى توطُّد العلاقات بينهم إلى مشاركة الليبيين مع القرطاجيين في الجيش بعد سنة 406 قبل الميلاد. (فرحاتي، 2007، صفحة 50)

ومن بين ذلك نذكر مشاركة فرسان «الملك سيفاكس Syphax» إلى جانب القائد القرطاجي «صدر بعل جيسكون Hasdruball Jiscon» في حربه ضد الرومان في شبه جزيرة إيبيريا، كما توطَّدت العلاقات أكثر بين هذين القائدين بعد زواج «الملك سيفاكس» بابنة «صدر بعل جيسكون».. (مسرحي، أوضاع الشرق الجزائري القديم من زوال المملكةالنوميدية حتى الغزوات الوندالية 46 ق.م-429م "دراسة تحليلية حول الواقع السياسي والاقتصادي في ضل الاحتلال الروماني"، 2017-2018، الصفحات 17-18).

ويؤكد المؤرخ «غوستاف بواسييه Gustave Boissiére» أنَّ الفينيقيين كانوا مجرد تجار، استقروا في مناطق مخصصة ومختارة بدقة، حيث قال عنهم: «**لم يرغبوا في إنشاء مستعمرات عسكرية، ولم يكن لهم سوى مراكز تجارية ومحطات مختارة بعناية، وهي مناطق توقف مخصصة في عدد قليل من المدن الكبرى. ولم يكونوا سوى سماسرة، لأن قوافلهم وسفنهم نُقِلت من الشرق إلى الغرب. لقد كانوا قبل كل شيء يزاولون أعمالهم التجارية**». (Boissiére, 1883, p. VIII)

ولم تتوتر العلاقات بين سُكَّان قرطاج والليبيين إلاَّ في حدود القرن الخامس قبل الميلاد، بعد تأييد قرطاج للملك «سيفاكس Syphax» في أعماله الحربية ضد مملكة «ماسيليا Massylie»، من

خلال تدخله المباشر في شؤون هذه المملكة بعد وفاة «الملك غايا Gaia»، وسعي «سيفاكس» والقرطاجيين إلى إزالة «كبوسا Capaussa» ابن «ايزلصيس Aezalces» ابن «غايا» عن الحكم، وتعيين شقيقه «لكومازيس Lacumazes» ملكاً، رغم أنَّه أصغر سناً من «ماسينيسا Massinissa». وهو ما دفع بهذا الأخير إلى إعلان الحرب، خاصة بعد أن قام «سيفاكس» باحتلال المنطقة وضمها لملكه في مملكة واحدة، لذا عقد «ماسينيسا» تحالف مع الرومان لاستعادة ملك أبيه «غايا Gaia». (الشنيتي، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب "سياسة الرومنة 146 ق.م – 40م، 1985، الصفحات 24-26)

أما بالنسبة لما ذكره نموذج دراستنا عن الاحتلال الروماني، فنقول إنه عمل على تضخيم شأن الإنجازات التي قام بها الرومان، سواء في الجانب الإداري أو الاقتصادي، «فغوتييه» حاول الدفاع عن الرومان من منطلق اعتبار فرنسا وريثة روما، وبطبيعة الحال سيبين صورة هذا الاحتلال وفق منظور براق يجعل القارئ لمؤلفاته يندهش من حجم الرقي الذي وصلت إليه شمال إفريقيا في عهدهم.

ففي الجانب الفلاحي تؤكد مختلف المراجع أنَّ اهتمام الرومان الكبير بزيادة حجم الأراضي المخصصة لغراسة الزيتون والاهتمام به، ليس بهدف تحسين نمط معيشة السكان، بل العكس من ذلك كان هذا الاهتمام بالزيتون وزيت الزيتون لخدمة مصالحهم الاقتصادية بالدرجة الأولى، حيث أن الرومان بمجرد قضائهم على قرطاج عمدوا إلى تطبيق سياسة توسعية في شمال إفريقيا، تركزت في البداية على الأراضي التابعة للقرطاجيين، ثم توسعت لتشمل باقي شمال إفريقيا بعد قضاء الرومان على الممالك الأهلية بالتدريج، لذا قاموا بإصدار مجموعة من القوانين التي تمكنهم من التوسع في المناطق التي قاموا باحتلالها، إذ حوّلوا الأراضي إلى ممتلكات عمومية مع إجبار الملاك الليبيين على دفع ضريبة ثابتة تعرف بضريبة المهزومين. (جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية من البدء الى الفتح الاسلامي 647م، 1983، صفحة 150)

وبالإضافة إلى ذلك نقول إنَّ زراعة الزيتون في شمال إفريقيا كانت معروفة قبل مجيء الرومان، حيث يؤكد «ستيفان غزال Stephane Gsell» أنَّ الليبيين اهتموا بالزيتون وزيت الزيتون رغم أنَّ استغلالهم كان بطرق تقليدية ويعتمد على الأشجار البرية، فجاء الفينيقيون فقاموا بتحسين طرق

الاستغلال وجلبوا معهم أصنافاً جديدة من الزيتون، كما قاموا بتلقيح الأشجار البرية ونشروا في شمال إفريقيا طرقهم في إنتاج الزيت وغراسة أشجار مثمرة أخرى مثل الرمان. (غزال، 2007، الصفحات 172-171)

كما أنَّ الرومان بعد احتلالهم لشمال إفريقيا عمدوا إلى تكريس سياسة الرومنة، التي تعتمد على تحويل المناطق الخاضعة لسلطتهم المباشرة وفق ثلاث مراحل أولها: «البلدة الأجنبية Peregrini»، ثم «البلدة اللاتينية Latini»، ثم «البلدة الرومانية Romani»، وهي سياسة اعتمدها الاحتلال الروماني وربطها بشكل مباشر بتطور استغلال إمكانيات المناطق الخاضعة لهم زراعياً، بإنتاج القمح والشعير، وإنتاج الزيت وزيت الزيتون. (مسرحي، المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني في الجنوب الشرقي للجزائر "ثورات الأوراس والتخوم الصحراوية نموذجا" (مذكرة ماجستير)، 2008-2009، الصفحات 94-93)

لذلك نقول إنَّ تركيز الرومان على الزيتون وزيت الزيتون في شمال إفريقيا ليس غايته خدمة الليبيين، بل هدف إلى امتصاص غضب السُّكَّان بعد احتكار إيطاليا والولايات التابعة لها لزراعة الزيتون وبروز اضطرابات اجتماعية، فلجأت روما إلى توسيع غراسة الزيتون في شمال إفريقيا حتى تستطيع تلبية حاجياتها، كما فرضت على السُّكَّان الأهالي ضريبة عينية في شكل زيت زيتون يتم إيداعها في مخازن البلديات القريبة من مقر إقامتهم. (شيخي و أوكيل، 2022، الصفحات 981-982)

أما فيما يخص تأكيد «غوتييه» على عظمة الهيمنة الرومانية لشمال إفريقيا بصفة عامة، وللجزائر بصفة خاصة، من خلال الحرص على تصوير استمرار هذا الاحتلال الأجنبي دون مشاكل، وأن الفيالق التي استقرت خاصة في منطقة «لومباز» و«تيمقاد» حافظت على السلم والأمن في المنطقة طيلة 3 قرون، وهو توجه أراد به نموذج دراستنا التأكيد على تقبل الأهالي للرومان وعدم اعتراضهم على احتلالهم لأراضيهم، وعمل على تقليل شأن الثورات التي عرفتها منطقة الأوراس إبان الاحتلال الروماني، فرغم اعترافه بوجود بعض المعارضين لهذا الاحتلال خاصة بعد بروز الدوناتية وانتشارها في المنطقة، إلا أنه من جهة أخرى قلل من أهمية هذه الثورة وأكد على عدم تأثيرها على استمرار الهيمنة الرومانية للجزائر.

نستنتج مما سبق أن نموذج دراستنا تعمد تحريف الحقائق التاريخية المرتبطة بالرفض المطلق لسكان الجزائر وشمال إفريقيا للهيمنة الرومانية، وذلك من خلال إعلانهم الثورة ضد التدخل الروماني في شؤون شمال إفريقيا حتى قبل احتلالهم المنطقة بشكل فعلي، ومن بين الثورات نذكر ثورة يوغرطة من سنة 112 قبل الميلاد إلى 105 قبل الميلاد، والتي جهز لها الرومان العديد من الحملات العسكرية للقضاء عليها كالحملة التي قادها القنصل «سبوريوس ألبينوس Spurius Albinius» سنة 110 قبل الميلاد، وجملة القنصل «**غايوس ماريوس** Gaius Marius» سنة 107 قبل الميلاد، (بوزيد، 2022، الصفحات 54 – 59) وغيرها من الحملات العسكرية التي قام بها الرومان، وهو ما يثبت لنا قوة المقاومة التي قادها يوغرطة ضد الرومان.

بالإضافة إلى ذلك نشر أيضا إلى مقاومة «أرابيون Arabion» ابن «ماسينيسا الثاني Massinissa II» من سنة 44 قبل الميلاد إلى 40 قبل الميلاد، والتي ظهرت مباشرة بعد تقسيم الرومان للمملكة النوميدية بعد وفاة «يوبا الأول Juba I»، حيث استغل «أرابيون» مقتل قيصر روما لإشعال حرب أهلية بين الجمهوريين والقيصريين، كما استغل أيضاً النزاع الذي ظهر بين حاكم مقاطعة إفريقيا القديمة وحاكم إفريقيا الجديدة، لإعلان ثورته التي تركزت في نوميديا الوسطى، والتي ساهمت في تراجع الهيمنة الرومانية عن بلاد المغرب، رغم أنَّ هذه الثورة انتهت بمقتل قائدها سنة 40 قبل الميلاد. (الشنيتي، أضواء على تاريخ الجزائر القديم، 2003، الصفحات 83-85)

كما ظهرت ثورة أخرى بزعامة «قبائل الجيتول» من سنة 03 م إلى سنة 06 م، التي ثارت على سياسة الولاء التام التي انتهجها الملك «يوبا الثاني Juba II»، واعتبروه عميلاً للرومان؛ فقاموا بمهاجمة المستوطنات الرومانية التي ساهم «يوبا الثاني» في تشييدها وحمايتها، كما شاركت في هذه الثورة القبائل «الموزيلامية في الأوراس». (مسرحي، أوضاع الشرق الجزائري القديم من زوال المملكةالنوميدية حتى الغزوات الوندالية 46 ق.م- 429م "دراسة تحليلية حول الواقع السياسي والاقتصادي في ضل الاحتلال الروماني"، 2017-2018، صفحة 140)

ومن أبرز الثورات التي اندلعت أيضاً ضد الرومان، ثورة قادها «تاكفاريناس Tacfarinas» التي تُعد من أعنف وأطول الثورات التي ظهرت في منطقة الأوراس ضد الاحتلال الروماني من سنة 17 م

إلى 24 م، وشملت عدة مناطق؛ إذ شارك فيها الموريطانيون في الغرب، والكنتيون في الشرق، بالإضافة إلى القبائل «الجرمانتية» في إقليم «فزان». (حارش، 2022، صفحة 216).

أما أبرز ثورة ثقافية ظهرت في شمال إفريقيا فهي تلك التي ظهرت مع بروز الحركة الدوناتية في المنطقة، وهي حركة ظهرت بقيادة «دوناتوس Donatus»، الذي رفض التبعية للهيمنة الرومانية وكنيستها المسيحية، وتهدف إلى التخلص من التبعية للاحتلال الروماني، كما دعمت هذه الحركة بثورة ريفية ضخمة سنة 347م، ساهمت في زعزعة السلطة الرومانية في الجزائر وشمال إفريقيا، وهذه الثورة كان لها الأثر الكبير في نهاية الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، خاصة بعد انضمام الدوناتيين للوندال وتقديم يد العون لهم لطرد بقايا الرومان واسترجاع النوميديين لأملاكهم. (عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، 2008، الصفحات 290-294)

وهو ما أشار له نموذج دراستنا، حيث ذكر أنَّ البربر لما علموا بنهاية الاحتلال الروماني طردوهم من المدن التي استقروا بها خاصَّة مدينة تيمقاد، إذ قاموا بإخراجهم منها ثم دمروا هذه المدينة بشكل نهائي. (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, p. 282)

إذاً، «غوتييه» ومن خلال ما سبق ذكره دافع بشدة عن مرحلة الاحتلال الروماني للجزائر وشمال إفريقيا، وعمل على التقليل من شأن القرطاجيين من خلال نسب جميع الإنجازات للرومان، باعتبار أنَّهم يمثلون حضارة أوروبا الغربية عكس القرطاجيين، الذين يمثلون جذور الحضارة الشرقية، وهو الأمر الذي جعل نموذج دراستنا يخصِّص جزءاً يسيراً في مؤلفاته لدراسة تاريخ التواجد القرطاجي في شمال إفريقيا، بينما تحدَّث بإسهاب كبير عن الرومان والبيزنطيين، واعتبر فترتهم أفضل فترة شهدتها بلاد المغرب، والتي انتهت بظهور الغزو العربي، كما يسميه «غوتييه» لشمال إفريقيا، وهي المرحلة التاريخية التي سنحاول فيما يلي التطرق لآرائه فيها ونظرته الشخصية للإسلام وللعرب.

2 – فترة التاريخ الإسلامي (العصور الوسطى)

لاحظنا فيما سبق أنَّ «غوتييه» يمجِّد الاحتلال الروماني والبيزنطي لبلاد المغرب، لاعتباره يمثل -حسبه- عهد سيطرة الأفكار والنظم والحضارة الغربية على بلاد المغرب، لكنَّ آراءه في فترة التاريخ

الوسيط مغايرة تماماً لهذا التوجه، وسنتطرق فيما يلي لأبرز المحاور التي ركَّز عليها في تحليل هذه الفترة التاريخية.

2 – 1 – اعتبار التاريخ الوسيط فترة فراغ وعصور مظلمة

ركز «غوتييه» في مؤلفاته على وصف مرحلة التاريخ الوسيط منذ بداية الفتوحات الإسلامية إلى ظهور الأتراك في شمال إفريقيا بأنها فترة تاريخية جافة، وأنَّ دراستها تشعر الباحث بالكآبة، لأنها عبارة عن مجموعة من الأحداث المتشابكة والمتداخلة فيما بينها ودراستها لا تفضي إلى شيء محدد، حيث يقول: «**إنه تاريخ فارغ ذو جفاف لا يوصف، صحراء من التاريخ، لا يستطيع التشبث بأي شيء ويرفض أن يخدم، إنه ليس تاريخاً، إنه قاموس للحقائق مرتبة ترتيباً زمنياً، ويمكن للمرء أن يخل بهذا الترتيب ويبدل عشوائياً إحداها بأخرى، المعارك والسلاطين والسلالات.... فالمغرب لا يتطور أبداً أو على الأقل لا نراه يتطور**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 109)

فحسبه دراسة تاريخ المغرب بعد ظهور الإسلام تصيب الباحث والقارئ بالإحباط، فلا ذاكرة قادرة على استيعاب هذا التتابع اللانهائي للحروب المربكة بلا أسباب وبلا روابط، لأن جل الإمبراطوريات التي ظهرت متشابكة في المكان والزمان، لا يمثل أي منها فكرة ولا يؤدي أبداً إلى أي جديد أو مكسب. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 109)

بالإضافة إلى ذلك بيَّن نموذج دراستنا أنَّ هذا الإحباط الذي يصيب الباحث والقارئ لتاريخ بلاد المغرب يعود إلى كونه غامضاً بسبب ظهور البدوي العربي، الذي تسبَّب –حسبه– في استنفاذ القوة الاقتصادية والكثافة السُّكَّانية التي بناها الرومان، وبالتالي عودة سُكَّان بلاد المغرب إلى روتينهم القديم؛ فأصبح تاريخ المنطقة فارغاً يسوده الظلام. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 422)

ولكي يوضح لنا حجم الضرر الذي أصاب بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي، نجد نموذج دراستنا يبالغ في المدة الزمنية التي استمرت فيها العصور المظلمة، إذ ذكر أنها سادت بلاد المغرب طيلة

الفترة الممتدة من نهاية القرن السابع ميلادي إلى القرن الحادي عشر، حيث قال: «**عصور المغرب المظلمة تقع بين الغزوتين العربيتين، غزوة الأمراء الذين يمثلون الخليفة في نهاية القرن السابع، وغزوة البدو الهلاليين التي بدأت في منتصف القرن الحادي عشر، هذه هي العصور الوسطى المبكرة للمغرب**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 71).

وهذه الفترة من التاريخ هي التي فقدت فيها نوميديا حسب «غوتييه» دورها المهم في التاريخ؛ لأنَّها لم تعد تلعب أي دور سياسي، حيث يقول: «**من القرن السابع ولمدة ألف عام ظلت نوميديا أو أصبحت بشكل كامل مقاطعة للأهالي ذات أهمية سياسية؛ فهي تجسد في التاريخ إفريقيا الخاصة بالأهالي، ومنذ القرن 8 ميلادي إلى يومنا هذا لم تعد تلعب أي دور، بل أصبحت غير موجودة على الإطلاق**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 28)

فالفترة الإسلامية تمثّل، حسبه، عصوراً مظلمة، حيث وجدنا بأنَّه يؤكد في كتابه «ماضي شمال إفريقيا» أنَّ تاريخ هذه الفترة عبارة عن قرون مظلمة مات فيها المغرب بشكل نهائي، بالنظر لانتشار الفوضى والدمار مع ظهور العرب في المنطقة. ومن هذا المنطلق بنى «غوتييه» موقفاً متشائماً من هذه المرحلة التاريخية؛ فهي عبارة عن عصور مظلمة سادت فيها الصراعات على السلطة بين قبائل بلاد المغرب من جهة، والصراعات بين الفاتحين العرب والبربر من جهة أخرى، وهي الآراء التي أكَّد نموذج دراستنا هذه بأنَّ هذا الفتح هو غزو استعماري لا يختلف عن الغزو الاستعماري الذي عرفته المنطقة في عهد الوندال، وهي الآراء التي سنتطرق لها في العنصر الموالي.

2 – 2 – وصف الفتح الإسلامي بالغزو الاستعماري

عمل «إميل فليكس غوتييه» في مختلف مؤلفاته التي عالج من خلالها طبيعة الوجود العربي في شمال أفريقيا وعلاقتهم بالبربر، وموقف هؤلاء منهم، إلى إثبات الصبغة الاستعمارية للفتوحات العربية لمنطقة شمال إفريقيا، وهذا من خلال التركيز على عدة نقاط محورية نفصلها فيما يلي.

2 – 2 – 1– طول مدة الغزو الأول والمقاومة البربرية –اللاتنية

أول ما استند إليه «غوتييه» لإثبات طبيعة الغزو العربي لشمال إفريقيا، حرصه الشديد على إثبات طول مدة الفتح العربي وقوة المقاومة البربرية المدعومة من البيزنطيين؛ فخلال حديثه عن الفتح العربي يؤكد أن شمال إفريقيا عرف غزوتين للعنصر العربي لبلاد البربر، فالغزو الأول كان في إطار انتشار الإسلام، والغزو الثاني هو غزو بشري يمثل استعماراً استيطانياً.

فخلال مناقشته للغزو الأول للعرب كما يقول، بيَّن أنَّ البربر والبيزنطيين وقفوا ككتلة واحدة ضد العرب، وقاوموهم بصلابة لمدة سبعين سنة، باعتبار أنَّ عملية الغزو هذه لم تجلب سوى الدمار والخراب، حيث قال: «**استغرق الأمر 70 سنة من الحملات المتتالية، تكبدوا خلالها هزائم ساحقة في مناسبات عديدة، وأظهروا صموداً عنيفاً وغاضباً ومثيراً للإعجاب، واجتاح الهجوم الأخير كل شيء حتى المحيط الأطلسي، كان الغزو أكثر صلابة، لأنَّه كان أكثر دموية، فقد قضى على كل مقاومة**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 12)

كما أكَّد أنَّ هذا الغزو العربي استغرق هذ المدة الزمنية الطويلة بسبب تلقي العرب للعديد من الهزائم الساحقة التي ساهمت في طردهم نحو مصر (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 64)، ورغم استكمال الفتح العربي لبلاد المغرب، إلاَّ أن السُّكَّان حسب المؤلف لم يندمجوا مع العنصر العربي فمنذ «**الغزو العربي الأول عام 641 ميلادي في الجزائر والمغرب لم يندمج البربر والعرب بعد، إذ لا تزال الكتلة البربرية هائلة ولا يمكن اختزالها، وهذه البربرية التي لا تقهر هي التي دامت ثلاثة آلاف عام**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 67)

وبالإضافة إلى عدم اندماج العرب مع البربر، وضَّح لنا المؤلف أنَّ سبب بُطْأ الفتوحات العربية مرده إلى قوة المقاومة البربرية، التي تبرز نفورهم من العرب بسبب الهيمنة التي فرضتها الحضارة الغربية التي لم تنهر عند أول إنذار (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 249). بل العكس من ذلك، كانت المقاومة البربرية –حسب غوتييه– ناجحة بفضل الدعم والمساندة التي قدمتها لهم الدولة البيزنطية؛ حيث قال: «**موّلت بيزنطة وسلّحت**

ونصحت البربر»، حيث وجد العرب أمامهم في ذلك الوقت حزمة من المغرب؛ كتلة لاتين وبربر مستقرين وبدو، فكان من الواضح أن محاولة كسر هذه الحزمة بالقوة هي ما دفع حسان إلى محاولة احتلال قرطاج، لكنه هُزم على يد الكاهنة فيما بعد، وأُجبر على إخلاء إفريقية؛ وهذا لأن اليونانيين اللاتين هم مساعدون تابعون بسيطون، أما الإدارة والسلطة فتعود للملك النوميدي القائد العسكري الوحيد». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 274)

وهذه الوحدة والتعاون حسب نموذج دراستنا ساهما في تكوين كتلة لاتينية بربرية صلبة، بفضل الدعم المادي الذي تلقاه البربر من البيزنطيين، فالعرب لم يتمكنوا من تحقيق النصر حسبه، إلا بعد توقف التعاون اللاتيني البربري، وهو ما دفع «بغوتييه» إلى توقع مسار مغاير للتاريخ لو استمرت السيطرة الأوروبية المدعومة بالديانة المسيحية لمدة قرن آخر، حيث قال: «**استمر الصراع ما لا يقل عن سبعين عاماً، وأبيد الغزاة وطردوا تماماً ثلاث مرات... وكان الأمراء البربر الذين كبحوهم طويلاً عصيين على الهزيمة، ولطالما احتفظوا بالدعم المالي والفكري والبحري لقرطاج، ولم يتمكن العرب من الصمود إلا في اليوم الذي توقف فيه هذا التعاون، فهل يعقل أن تكون الكتلة اللاتينية البربرية أكثر صلابة لو كان للصلابة المسيحية قرنان آخران من الزمن لتترسخ؟**» (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 320)

ولكي يعطينا صورة واضحة عن رفض البربر للعرب بشكل مطلق، وضح لنا نموذج دراستنا بأنَّ المقاومة التي عرفتها بلاد المغرب في بداية الفتح العربي بقيادة «كسيلة» ثم بقيادة «الكاهنة» تُعبِّر بشكل صريح عن الرفض القاطع للتواجد العربي في شمال أفريقيا؛ حيث لاحظنا أن «غوتييه» خلال حديثه عن المقاومتين يشير إليهما بالمقاومة الباسلة للعرب والعمل على طردهم من المنطقة، حيث قال: «**استمر الغزو العربي حوالي 70 عاماً، وعانى العرب من هزائم ساحقة في عدة مناسبات وطُردوا تماماً من البلاد، وأُبيد عقبة ورفاقه حتى آخر رجل بالقرب من بسكرة، وفي عام 690م، بعد انتصار هش لزهير، حكم هذا الأخير على الوضع بأنه لا يطاق فتراجع نحو مصر، لكنه خلال تراجعه هُزم وقُتل**

في برقة عام 698م». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 64)

ومن أجل إثبات وجهة نظره أكثر، عمل نموذج دراستنا على تأويل استسلام البربر للفتح العربي؛ سواء كان استسلام كسيلة للقائد «أبو المهاجر دينار»، أو استسلام أبناء الكاهنة للقائد «حسان بن النعمان»، معتبراً هذا الاستسلام ظرفياً فقط، أي أن البربر يستسلمون للعرب حتى يأمنوا شرهم، ويسمح لهم هذا الاستسلام بحكم بلادهم مرة أخرى، وهذا ما نستشفه أكثر خلال تحليله للأسباب التي دفعت الكاهنة إلى إعطاء أوامر صريحة لأبنائها من أجل الالتحاق بالجيش العربي، حيث يقول: «**بناءً على نصيحة هذه المرأة التي أملتها عليها المعرفة الخارقة التي علمتها إياها شياطينها، استسلم أبناؤها للعرب قبل المعركة الأخيرة، وفي كتاب النويري ذكر أنَّ الكاهنة عندما رأت طليعة العرب تقترب، استدعت أبناءها وأعلنت لهما أنها ستُقتل، وأنَّ عليهما الذهاب إلى حسان وطلب العفو منه من أجلهما، رحّب القائد المسلم بالمنشقين، وهزِم البربر، وأُلقي القبض على الكاهنة، وقُتلت أثناء فرارها، نال البربر العفو بشرط تزويد المسلمين بقوة قدرها 12 ألف رجل، ووضعت هذه القوة على الفور من قبل حسان تحت قيادة ابني الكاهنة**». (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 307)

لذا يؤكد أنَّ المقاومة البربرية لما رأت نفسها عاجزة عن تحقيق الانتصارات ضد الغزاة العرب كما يقول، لجأت إلى حيلة إعلان الولاء للجيش العربي من أجل ضمان الحماية للبربر من جهة، ومن أجل ضمان استمرار السيطرة البربرية بعد نهاية الغزو العربي؛ حيث يقول: «**عندما حل الليل أخبرت ابنيها أنها تعتبر نفسها ميتة بالفعل، وأنها رأت رأسها يُقطع ويُقدم للأمير العربي العظيم حسان، عبثاً اقترحا عليها الذهاب معها والتخلي عن البلاد للغزاة، فاعترضت قائلة إن ذلك سيكون عاراً، وعندما سألاها عما سيحل بهما بعد ذلك... أنتم يا أولادي ستحكمون مع من سيُميتني، ومن خلالكم سيستعيد البربر بعض السلطة**». (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 307)

من خلال ما سبق يتضح لنا أنَّ البربر حسب رأي نموذج دراستنا لم يكتفوا بمعاداة العرب فقط، بل سعوا جاهدين إلى محاربتهم بكل ما استطاعوا من قوة، كما أنَّ هذه المقاومة العنيدة أثبتت مدى الترابط الشديد والتفاهم بين البربر والبيزنطيين، فظهور العرب جعل أواصر هذا الترابط تبرز بشكل واضح.

أما فيما يخص استسلام البربر للعرب وانضمامهم للجيش الفاتح والمشاركة معه في فتح باقي شمال أفريقيا وبلاد الأندلس، فهو حسب رأي «غوتييه» مجرد ربح للوقت فقط، وأنَّ البربر سرعان ما استغلوا بروز المشاكل والاضطرابات في بلاد المشرق حتى يعلنوا تمردهم عليهم، ودليل ذلك وفق ما ذهب إليه نموذج الدراسة الدول التي أسسها البربر في شمال إفريقيا بعد نهاية الفتح العربي.

فالدول التي ظهرت منذ تأسيس الدولة الرستمية إلى ظهور الأتراك العثمانيين في المنطقة، لا تعبر عن الكيان السياسي لشمال إفريقيا فحسب، بل هي تصريح واضح من سكان المنطقة برفضهم التبعية لبلاد المشرق – العرب –، كما أنَّ هذه الدول لم تكتفِ بإعلان استقلالها عن الخلافة الإسلامية العربية، بل سعت إلى العمل من أجل القضاء عليها فيما بعد، وهنا يشير «غوتييه» إلى الدولة الفاطمية التي تأسست في شمال إفريقيا، ثم وجهت حملة عسكرية نحو المشرق للقضاء على الخلافة الإسلامية هناك، وهو ما يعبر عن الرفض القاطع للبربر لأي تواجد عربي أو سيطرة عربية على بلاد المغرب.

فالأوضع التي تميزت بها بلاد المغرب مع نهاية القرن التاسع، كان لها الأثر الكبير في انقلاب الأوضاع رأساً على عقب، من خلال مهاجمة المغرب لبلاد المشرق، إذ قامت قبيلة بربرية بطرد آخر العرب من إفريقية، وسلكت طريق الغزو الطويل العائد إلى مصر شرقاً لإسقاط الخلافة، وأسست سلالة جديدة هي سلالة الفاطميين، لتنقطع بلاد المغرب بشكل نهائي عن المشرق، حيث «**انقطعت علاقات مصر ببغداد، ولم تعد إفريقيا تعتمد على بغداد أو القاهرة، أسست سلطانتها الخاصة وتبعت مصائرها الخاصة بربرية أو شبه بربرية... ليست مصر وحدها، بل الحبشة نفسها تشترك في أوجه التشابه مع بلدان الشرق القديم مهد الحضارة المتوسطية أمَّا المغرب فهم عكس ذلك تماماً، أرض البربر والبرابرة**» .(Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 13)

2 – 2 – 2– خطورة الغزو العربي الثاني ودوره في خراب بلاد المغرب

بالإضافة إلى إثبات «غوتييه» لرفض البربر المطلق للعرب من خلال الثورات التي قاموا بها ضدهم منذ بداية الفتوحات الإسلامية، عمد أيضاً إلى تبيان مدى خطورة هذه الغزوات –كما يقول– على مستقبل شمال إفريقيا من خلال تقديم صورة عن حجم الدمار الذي لحق بالمنطقة عقب استقرار العرب فيها، وسنوضح فيما يلي التصورات التي قدمها عن خطورة الفتح العربي لشمال إفريقيا.

ففي مجال دراسته المقارنة بين الفتح الإسلامي الأول، والذي اعتبره غزواً استعمارياً محضاً، وبين الغزو العربي الثاني، الذي تميز بقدوم «بني هلال» و«بني سليم» إلى شمال إفريقيا، نجد أن «غوتييه» رغم تشاؤمه من طبيعة الغزو العربي الأول إلا أنَّه يعتبره أقل أهمية وتأثيراً من الغزو العربي الثاني، الذي حدث حسبه في القرن 11 والقرن 12، وهي الفترة التي تمثّل العصور الوسطى المبكرة لبلاد المغرب. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 71)

فالغزو العربي الأول ارتكز في نظره على بناء الحاميات والمدن، باعتباره ضم جنوداً وموظفين عزاباً، عكس الغزو الثاني الذي كان في شكل استعمار استيطاني بقيادة قبيلتي «بني هلال» و«بني سليم»، وهو الغزو الذي حمل معه اللغة العربية إلى شمال إفريقيا. (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 33)؛ وإذا كان الغزو العربي الأول مشروعاً حكومياً كما قال «غوتييه»، حيث قامت حكومة الخلفاء بإرسال جيوش نظامية يقودها قادة ومسؤولون عسكريون ساهموا في تأسيس عائلات مختلطة الدم. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 60)،

وهو ما يعني أنَّ هذا الغزو لم يكن مادياً فقط، بل كان معنوياً أيضاً، ورغم ذلك بقي العرق البربري سليماً من حيث الدم ومن حيث اللغة؛ حيث كانت اللهجة البربرية شائعة الاستخدام، كما أدى هذا الغزو إلى إدراك البربر لأنفسهم كما لم يدركوه من قبل، وأطلقوا على أنفسهم اسماً جماعياً، وهو اسم البربر. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 410)

فالغزو الذي قامت به قبائل بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب حسب نموذج دراستنا «**ليس استعماراً ريفياً على الطريقة الرومانية أو حتى القرطاجية أو الفرنسية؛ مساعداً للحكم وداعياً للحضارة، فبنو هلال وبنو سليم بدو رحل أهالي، وهم خيرة ممثلي البداوة على الإطلاق، وهم أعداء متأصلون لأي حكومة كانت وأي حضارة**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 412)

ولذلك يؤكد نموذج دراستنا على حجم التأثير الذي تركه قدوم القبائل العربية إلى شمال إفريقيا؛ حيث يقول: «**كان الغزاة الأوائل من العرب جيشاً صغيراً من العزاب، الذين اتخذوا نساءً في البلد، حدث الاستعمار الوحيد بالمعنى الصحيح للكلمة في القرنين العاشر والحادي عشر، في ذلك الوقت جاءت قبائل بني هلال وسليم العربيتان، وهما سوريتان في الأصل من صعيد مصر؛ لأن الخليفة أراد تطهير مصر من هؤلاء الناهبين الذين لا يمكن إصلاحهم، وأراد أن يبتلي المغرب بالأمر الذي كان يشكو منه**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 170)

كما ساهم هذا الغزو في تثبيت اللغة العربية في دول المغرب، وجعل البربر يتبنون عادات وتقاليد هؤلاء الوافدين الجدد، خاصة الملابس ونمط الحياة البدوية، مما أدى إلى فقدان البربر لعاداتهم ولهجتهم ونسيانها بشكل نهائي. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 431) ؛ فالقبائل العربية التي جاءت بعد الغزو العربي الثاني، كما يقول، لم تكتف بنهب أراضي السكان وطردهم منها، بل فرضت على البربر اللغة العربية، والعادات العربية، واللباس العربي، وهذا الفرض هو ما أدى إلى فقدان المنطقة لغتها الأصلية وعاداتها، وتبني لغة الغازي الجديد.

كما أنَّ هذا الغزو، حسب رأي نموذج دراستنا، اتَّبع في طريق عبوره نفس الطريق الذي سلكه الغزاة الأوائل؛ حيث قال: «**كانت بسكرة بوابة جميع الغزوات العربية، دُفِنَ سيدي عقبة قائد الغزو الأول في بسكرة حيث قُتِلَ، أمَّا الغزو الثاني الذي قاده بنو هلال في القرن الثاني عشر فقد سار على نفس النهج الذي عبره الغزو الأول**». (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 35)، أي أنَّ العرب عند قدومهم إلى شمال إفريقيا تتبعوا المناطق السهلية الجنوبية البسيطة،

والتي تعودوا على السير فيها في بلاد الحجاز، بينما تم طرد البربر إلى المناطق الجبيلة التي يصعب الوصول إليها. ((Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 204)

وليوضح نموذج الدراسة رؤيته التي تصوِّر دخول العرب إلى المنطقة بوصفه استعماراً محضاً، أشار النموذج إلى أنَّهم فور وصولهم إلى قرطاج فرضوا على السكَّان جزية باهظة، وهو ما استجاب له البربر بسرعة أثارت دهشة العرب. ويورد النص في هذا السياق: «**دُهش العربي –وهو رجل بسيط– من سهولة دفع الجزية، فسأل أحدهم عن مصدر هذا المال، فالتقط قرطاجيٌ نواة زيتون من الأرض وأراها له، مُشيراً بذلك إلى أنَّ هذه البلاد كانت تصدِّر الزيت إلى جميع أرجاء حوض البحر المتوسط**». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 58).

«فغوتييه» يبيّن لنا أنَّ العرب جاؤوا إلى شمال إفريقيا طمعاً في المال بدليل فرض الضرائب على السُّكَّان، ولم تكن الغاية من قدومهم نشر الإسلام كما تذكر المصادر العربية، كما أنَّ العرب –حسبه– لما رأوا أنَّ المنطقة تملك ثروات اقتصادية كبيرة خاصَّة في زيت الزيتون، رغبوا في السيطرة عليها عن طريق غزوهم للمنطقة، غير أنَّ دخولهم المنطقة، سواء في الغزوات الأولى أو الثانية، لم يساهم إلا في خراب المنطقة بشكل نهائي؛ حيث يقول: «**الغزو العربي الأول هو غزو عسكري بقيادة سيدي عقبة، والَّذي لم يبق منه شيء، والغزو الثاني هو غزو البدو، والَّذي يسمى الغزو الهلالي، كان غزواً لقبائل كغزو الجراد**». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 67)

فالعرب إذاً لم يساهموا في ازدهار حضارة بلاد المغرب بقدر ما ساهموا في نشر الخراب والدمار فيها، وهذا الدمار لم يشمل الجانب الفلاحي فقط، بل تعداه الأمر إلى الجانب الثقافي، فقدوم العرب هو من ساهم في اندثار اللغة البربرية، لأنَّ البدو العرب كانوا أكثر معلمي «**اللغة العربية كفاءة في المغرب، كان قدومهم غزواً عربياً ثانياً بعد قرون عديدة من الغزو الأول ومختلفاً تماماً عنه... لقد كانوا قبائل**

بدوية تتجول في عائلات كاملة مع زوجات وأطفال، لقد كان استعماراً بعد الفتح... ظهروا لأول مرة في إفريقيا الصغرى في القرن الثاني عشر، وانتشروا في جميع أنحاء البلاد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, pp. 35-36).

لكن «غوتييه» يشير أن البربر وخاصة في المناطق البعيدة كمنطقة «تامنتيت» و«توات» في حدود القرن السادس عشر كان كامل البربر تقريباً لا يزالون أوفياء للغة «ماسينيسا» وروحه، أي أنهم يرفضون بأي شكل من الأشكال الخضوع للعرب، ويفضلون البقاء على لغة أجدادهم، حيث أنَّ السكان «**بعد حوالي 900 عام من غرس الغزاة العرب الأوائل بذور ثقافتهم الحية في البلاد، هؤلاء البربر محافظون للغاية ومتحيزون ضد الآخرين**» (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 138)

ومن منطلق الحكم على دخول العرب لشمال إفريقيا بالغزو الاستعماري، الَّذي ساهم في بروز تغيرات اجتماعية واقتصادية كبيرة، وهذه التغيرات لم تكن نحو الأفضل، بل العكس كانت نحو الأسوأ؛ وذلك ببروز الدمار والخراب في كامل شمال إفريقيا، وهذا الخراب لم يكن له أي فضل في تحضّر البربر ورقي مستواهم الثقافي، كما أن العرب باعتبارهم بدواً لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يطوروا المنطقة، بل العكس من ذلك؛ حيث ساهم وجودهم في المنطقة في انتشار الفوضى والدمار، وهي التوجهات التي سنبين رأي «غوتييه» فيها في العنصر الموالي.

2 – 2 – 3- وصف العرب بالغزاة والهمج

كما عمد «إميل فليكس غوتييه» إلى إثبات طبيعة الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا بالغزو الاستعماري الذي ساهم في خراب بلاد المغرب بشكل نهائي، عمد أيضاً إلى إثبات أن العرب لم يساهموا فقط في خراب المنطقة، بل سعى إلى توضيح العلاقة بين ظهور الفتح العربي لشمال إفريقيا، وانتشار الخراب، من خلال إثبات همجية العرب ودورهم الكبير في دمار اقتصاد شمال إفريقيا وتغير نمط حياة البربر. فالعرب باعتبارهم قبائل بدوية لم تعرف الحضارة سببوا الخراب، بالنظر لانتقالهم رفقة عائلاتهم في الغزو الثاني للاستقرار في شمال إفريقيا، وهو ما ساهم في انتشار الدمار والفقر وسقوط حضارة بلاد

المغرب. (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, pp. 35-36).

وهذا ما ينطبق بصورة خاصة على «بني هلال» و«بني سليم»؛ لأنهم لعبوا دوراً كبيراً في دمار المنطقة بشكل فعلي، باعتبارهم أعداء الحضارة ورافضين لكل نظام، حيث يقول: «**بنو هلال وبنو سليم بدو رحل أهالي، وهم خيرة ممثلي البداوة على الإطلاق، وهم أعداء متأصلون لأي حكومة كانت وأي حضارة، وهم عملاء نهب وتدمير**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 412).

إذاً، فتواجد القبائل العربية الهمجية كما يصفها «غوتييه» لم يجلب الخير لبلاد المغرب وسكانها، بل كان غزواً بدوياً بامتياز أعاد السكان إلى عصور ما قبل التاريخ، وهذا بالنظر لطبيعة القبائل التي استقرت في المنطقة بعد الغزو العربي الثاني كما يقول: «**الغزو الثاني هو غزو البدو، والذي يسمى الغزو الهلالي، كان غزواً لقبائل كغزو الجراد**». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 67)

من هذا المنطلق، فإن العرب والإسلام هم أعداء الحضارة عكس الرومان، الذين يمثلون الحضارة الغربية المتعطشة للتطور نحو الأفضل، والقائمة على أسس النظام، وساهموا في تطور بلاد المغرب، عكس المسلمين الذين أصابوا البلاد بالدمار وكبحوا حركتها نحو التطور بشكل دائم. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 210)

ولكي يبيّن لنا «غوتييه» صدق وجهة نظره، نراه يستدل في تأكيد وجهة نظره بما ذكره المؤرخون العرب في كتبهم، بأن هذه المنطقة كانت عبارة عن غابة واحدة، وأنها عرفت رخاءً كبيراً، حيث لما سُئل العرب الرومان عن السر الذي جعلهم أغنياء، فأخبروهم بأن ذلك بفضل الزيتون. زراعة الزيتون كانت مشهورة؛ فـ «**نوميديا على وجه الخصوص كانت مغطاة ببساتين الزيتون، منتجة ومصدرة للزيت... قبل الإسلام حافظت زراعة الزيتون وصناعة الزيت في إفريقيا على ميزة وتنظيم جعلهما لا تقهران،**

ففي جميع أنحاء الإمبراطورية وخارجها، احتكرت إفريقيا زيت الزيتون احتكاراً شبه كامل».. (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 133).

ليوضح بعدها أنَّ هذه الثورة زالت بعد الفتح الإسلامي. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 59) ، ومنه يصل إلى نتيجة مفادها أنَّ الإسلام «**جلب الخراب على أشجار الزيتون، بطبيعة الحال يدرك المؤرخون العرب هذا الأمر جلياً، ويرجعون هذه الدمار إلى الخراب، ويكتفي اختفاء السوق نتيجة انهيار روما لتفسيره**» (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 258). فالعربُ باعتبارهم من البدو، بمجرد وصولهم لبلاد المغرب بقرنين، أصيب شمالُ إفريقيا بأكمله بالشلل والموت تدريجياً؛ حيث اختفت «أشير» و«قلعة بني حماد»، واختفت «بوجي» (بجاية)، كما اختفت «تيارت» و «رشقون» (عين تموشنت)، وغيرها من المدن المنقرضة التي تشكل قائمةً طويلةً. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 421)

فالعهد الروماني في بلاد المغرب حسب «غوتييه»، لم يواجه أي صعوبات فقد صمدت المدن على مر القرون، لكن بمجرد ما جاء الإسلام وبداوته إندثرت المدن بسهولة، لأنَّه لم يحدث أي نظام إداري للمنطقة بالنظر لطبيعة الفاتحين المتعودين على حياة البداوة ونظام القبيلة. (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 71).

وهذا النظام لا يساهم في نشأة الحضارة والناظم بقدر ما يساهم في انتشار الخراب، حيث يقول: «**بقدر ما يفيد الاستقرار تقدم الحضارة بقدر ما يضادها الترحال، فإذا احتاج العرب للحجارة لتدعيم خيامهم فإنَّهم يهدمون المباني للحصول عليها، وهكذا تحت سيطرتهم يغزو الخراب كل شيء ويضطرب النظام القائم وتتدهور الحضارة** » (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 208).

ولكي يبرز لنا «غوتييه» الوضع الكارثي الذي بلغه السُّكَّان في شمال إفريقيا في العصور الوسطى نتيجة تأثرهم بالعرب، أشار إلى أنَّ البربر شكلوا كتلة «الرجال الملثمين»، الذين أسَّسوا سلالة المرابطين

وقاموا بغزو المغرب وإسبانيا وتركوا في التاريخ ذكرى جحافل متوحشة. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 186).

بالإضافة إلى ما عرفته بلاد المغرب من غزوات عربية في بداية الفتح الإسلامي، ثم هجرة قبائل بني هلال وبني سليم إلى المنطقة، ظهر غزو آخر حسب رأي «غوتييه»، هذا الغزو تجسد في انتقال العديد من القبائل العربية التي كانت تستقر في بلاد الأندلس، هذه الهجرة التي شن من خلالها «**هؤلاء الرهبان بالآلاف حرباً جرثومية ضد عادات البربر ولغتهم ومعتقداتهم البدائية؛ لقد قسَّموا القبائل القديمة إلى أسمائهم، ثم اختفت الجماعات العرقية القديمة التي بقيت كما عرفها بطليموس وتمزقت**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 140)

إذاً فالفتح العربي الإسلامي، حسب رأي نموذج دراستنا، لم يكن فأل خير على شمال أفريقيا، بل كان أسوأ كابوس مر عليها؛ فهو الذي تسبب في دمار المنطقة والقضاء على ثرواتها الطبيعية، كما نتج عنه زوال كل مظاهر التحضر، وانتقال السكان من نمط الإنتاج الزراعي التجاري وعودتهم إلى نمط البداوة. غير أن هذه التوجهات التي تبناها الباحث مليئة بالمغالطات التاريخية التي سعى من خلالها لتشويه تاريخ العصر الإسلامي في بلاد المغرب؛ لذلك وجب علينا نقد التوجهات التي ذكرها الباحث عن الفتح العربي الإسلامي في العنصر الموالي.

2 – 3 – نقد الوصف السلبي لغوتييه لمرحلة التاريخ الاسلامي

لاحظنا فيما سبق كيف أثبت «إميل فليكس غوتييه» خطورة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ودخول العرب لهذه المنطقة؛ لأنه كان وبالاً حضارياً عليها، فهو الذي ساهم في تخلف المنطقة عن الركب الحضاري الغربي، وساهم في موتها بشكل نهائي من خلال عودة البربر إلى حياتهم البدائية التي كانوا عليها قبل مجيء الرومان، كما أنَّ قدوم العرب أدى إلى تغير شامل في لغة وعادات وثقافة السكان، رغم أنَّ البربر –حسب المؤلف– حاولوا رفض هذا التغيير من خلال التمسك بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

لكن آثار التدمير الذي تركه العرب على شمال إفريقيا جعلت الكثير من السكان ينتقلون من حياة الرفاهية والاستقرار إلى حياة البداوة والرعي، وبالتالي فوصف فترة العصور المظلمة للتاريخ الوسيط

حسب «غوتييه» يعبر عن حجم الدمار الذي لحق بالمنطقة، لكن المتمعن في آراء الباحث في العرب والفتح العربي بصفة خاصة وفي الإسلام بصفة عامة يحتم علينا القول بأنَّه بالغ بشكل كبير في التشاؤم من العرب، واصفاً تواجدهم ببلاد المغرب بالغزو الاستعماري.

«فغوتييه» درس دخول «بني هلال» و«بني سليم» الذي ترك أثراً كبيراً على الجانب الاجتماعي والسياسي لبلاد المغرب، وهو الأثر الذي جعل المؤرخ «عبد الرحمن بن خلدون» يقول: «إذا عُرِّبت خُرِّبت»، وحاول تعميم هذه النظرية على سائر فترة التاريخ الإسلامي لبلاد المغرب، لكن خلال تتبعنا لآراء المؤلف وجدنا أنَّه يناقض نفسه؛ فبينما يؤكد في أغلب آرائه حجم الدمار الذي أصاب شمال إفريقيا عقب ظهور العرب، خاصَّة تسببهم في دمار أشجار الزيتون، حيث قال: «**كانت إفريقيا الرومانية أكبر مصدر للزيوت في حوض البحر الأبيض المتوسط، كانت تغطيها بساتين الزيتون من جميع الجهات، وآثار المعاصر الرومانية اليوم تذهل علماء الآثار بكثرتها، ولكن الإسلام جلب الخراب على أشجار الزيتون بطبيعة الحال، والمؤرخون العرب يدركون هذا الأمر جلياً، ووضعوا هذا الخراب في خانة الدمار، فاختفى السوق نتيجة انهيار روما**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 49)

بينما نجده في مواضع أخرى يشير إلى أنَّ الدمار الذي لحق بالمنطقة كان عقب طرد الاحتلال الروماني واحتلال الوندال للمنطقة، حيث قال: «**من المؤكد أنَّ المدن الرومانية العظيمة في نوميديا دُمرت في ذلك الوقت بشكل نهائي، ولن يُعاد بناؤها... عندما أعاد البيزنطيون إلى إفريقيا، ولو بطريقة هشة، الحكومة المنظمة وأفكارنا الغربية المتعلقة بالنظام والإنتاج، لكنهم وجدوا مقاطعة نوميدية رومانية قائمة على الرعي، فلم تعد هناك مدن، ولم تعد هناك برجوازية ولا كبار ملاك الأراضي، ولم تعد هناك طبقة عاملة زراعية، وهو ما يعني عودة الرعاة والقضاء على الزراعة**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 259-260)

فالدمار الذي لحق بشمال إفريقيا وبالمدن الرومانية لم يكن بسبب ظهور العرب، كما ذكر المؤرخ إذاً، وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب تناقض آراء المؤلف؛ فهو يؤكد على أنَّ منطقة الأوراس بعد

وفاة الملك الوندالي «جنسريق» بثماني سنوات، انفصل سكانها «الموريون» ودمروا مدينة «تيمقاد»، حيث قال: «**لم يتمكن الوندال قط من إعادتهم إلى الطاعة، ولم يحاول جيش الوندال حتى تسلق جبالهم الشاهقة، فمنذ اللحظة التي تخلص فيها مور الأوراس من سيطرة الوندال، لم يعد لديهم ما يخشونه، فقد أصبحوا هم الأسياد، حيث أجْلوا جميع سُكَّان تيمقاد، الذين كانوا كثيرين ودمروا المدينة**». (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 282).

وهو ما يثبت، حسب المؤلف، أنَّ المسلمين لم يكونوا السبب وراء دمار منجزات الرومان التي وصفها المؤلف بالعظيمة، بل إنَّ الدمار حدث بمجرد ظهور الوندال في شمال إفريقيا، أمَّا الفتح العربي فتركز على أساس التواصل مع السُّكَّان ومحاولة إقناعهم بالدخول في الإسلام، وهو ما تم عند قدوم العرب إلى بلاد المغرب، حيث أسلمت العديد من القبائل البربرية، وانضمت للفاتحين العرب، وهو ما يؤكده المؤرخ حسين مؤنس بقوله: «**نلاحظ من ذلك التاريخ الباكر أنَّ كثيراً من البربر، وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة، قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعي بين المجتمعين، ونستنتج من هذا أنَّ الكثير من أولئك البربر دخلوا الإسلام في ذلك الوقت المبكر**». (مؤنس، 2000، صفحة 35)

إذاً، «فإميل فليكس غوتييه»، رغم سعيه إلى دراسة التاريخ الإسلامي لشمال إفريقيا بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة بشكل موضوعي وتقديم دراسة تحليلية تختلف عن الدراسات التقليدية التي تعتمد على سرد الأحداث التاريخية دون تحليل أو تفسير، إلا أن تقزيمه لشأن العرب والإسلام ودورهم في شمال إفريقيا، واعتبار الفترة التاريخية من بداية الفتوحات الإسلامية إلى ظهور الأتراك قروناً مظلمة أو فراغاً من التاريخ، يعتبر –حسب وجهة نظرنا– تعبيراً عن بغضه للعرب والإسلام بصفة عامة؛ وهذا من منطلق أنه عند حديثه عن الرومان يضخم حجم الإنجازات التي قاموا بها، ويتغاضى عن ذكر الآثار السلبية التي تركوها في شمال إفريقيا، بينما عند ذكره للعرب فهو يصفهم بأبشع الصفات كالوحوش والجراد والمتخلفين والبدو وغيرها من التعابير التي تقزم حجمهم بالمقارنة مع الرومان الذين يمثلون الحضارة الغربية.

وبذلك نقول إن نموذج دراستنا –من منطلق أنه فرنسي يحمل خلفيات استعمارية– حاول الدفاع عن الحضارة الغربية التي يمثلها الرومان والبيزنطيون، وسعى إلى التباهي بدقة النظم التي أقاموها في شمال إفريقيا، بينما الحضارة العربية الإسلامية، باعتبارها عدواً لدوداً للحضارة البيزنطية وهي التي قطعت

أواصر الترابط بين بلاد المغرب وقارة أوروبا وقضت على المسيحية في إفريقيا، فنجد المؤلف يذكر كل مساوئها ويبالغ في وصفها، وهو ما لاحظناه خاصة في اتهامهم بتدمير بساتين الزيتون، وهي الآراء التي بينا أن المؤرخ يناقض فيها نفسه.

أما فيما يخص وصفه لمرحلة التاريخ الإسلامي بالعصور المظلمة، وتفسيره لهذه التسمية بكثرة الحروب التي لا فائدة منها، وانتشار الصراعات بين قبائل شمال إفريقيا حول السلطة؛ فنقول إن «غوتييه» يهدف من خلال هذا الطرح إلى تشويه الدين الإسلامي، باعتبار تعصبه للمسيحية واعتبارها ديناً يسمح لصاحبه باستخدام العقل والمنطق، عكس الإسلام الذي اعتبره يقيد حرية الإنسان ويمنعه من التفكير والإبداع.

كما أن المؤلف من خلال هذا التوجه يسعى إلى إلصاق هذه الحروب والصراعات بالدين الإسلامي؛ فهو كما لاحظنا يعظم شأن المسيحية الرومانية في شمال إفريقيا بينما يصف الإسلام بالفوضى والهمجية، كما أننا نلاحظ أنه ركز على ذكر الحجم الهائل للأموال التي أخذها العرب في غزواتهم الأولى كمقابل لإيقاف حملاتهم على شمال إفريقيا، وهذا التركيز يهدف حسب وجهة نظرنا إلى التأكيد على الصبغة المادية للفتح العربي الإسلامي، وأن هدفهم الأساس هو الطمع في ثروات المنطقة.

حيث يستخدم «غوتييه» في كتبه عبارات «انبهار، اندهاش» للتعبير عن مدى تعلّق الفاتحين العرب بالأموال التي دفعها البربر لهم، كما يبيّن لنا من جهة أخرى أنَّ العرب لما رأوا حجم الأموال سألوا عن طريقة حصول البربر عليها، فأجابوهم بأنَّها من غراسة الزيتون والتجارة بزيته، وهذا يوضّح لنا بشكل جلي حرصه الشديد على إبراز الجانب المادي للفتح العربي، كما أنَّ مبالغته في حجم الأموال التي دفعها البربر تؤكد سعيه الحثيث لإثبات طمع العرب في ثروات المنطقة، وأنَّ عملية الفتح كان لها أغراض مادية بحتة، غير أنَّ المصادر التاريخية تشير إلى أن البربر هم من عرضوا تقديم الذهب للفاتحين العرب بقيادة عبد الله بن أبي سرح مقابل عدم مقاتلتهم، فقبل منهم ذلك. (البلاذري، 1987، صفحة 318)

وفيما يخص تأكيده رفض البربر المطلق للعرب ومحاربتهم من خلال بروز قادة كالقائد «كسيلة» و«الكاهنة»، فنقول إنَّ نموذج دراستنا لم يكلف نفسه عناء البحث الدقيق في أسباب هذه الثورات، واكتفى بوصفها بالمعبرة عن رفض الغزو العربي، لكن خلال بحثنا بشكل دقيق عن حقيقة هذه الثورات

وأسبابها الحقيقية، وجدنا أنَّ ما ذكره «غوتييه» يجانب الصواب بشكل كبير؛ فالقائد البربري كسيلة، رغم تواجُهه في البداية مع الفاتح «أبو المهاجر دينار»، إلا أنه أعلن إسلامه وثبته أبو المهاجر على رأس قومه. (لقبال، 1981، الصفحات 38-39)

كما أنَّ أغلب المصادر تتفق على أنَّ السبب الرئيس لانقلاب كسيلة وإعلان ثورته هو ما قام به «عقبة ابن نافع» تجاهه، حيث أمره بذبح مجموعة من الكباش رغم أنَّه زعيم قومه. (جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب من الفتح الاسلامي الى سنة 1830، 1983، الصفحات 20-22)؛ كما نقول إنَّ كسيلة، رغم انتصاره على عقبة بن نافع وسيطرته الكاملة على المنطقة الممتدة من القيروان شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، إلا أنَّه لم ينكل بالعرب الموجودين، خاصَّة في مدينة القيروان بعدما طلبوا منه الأمان فاستجاب لهم. (لقبال، 1981، صفحة 45).

أما فيما يخص المقاومة التي قادتها الكاهنة، فإن المصادر تشير إلى أن رفضها للعرب جاء بسبب خشيتها من طمعهم في خيرات شمال إفريقيا؛ إذ تشير المراجع والمصادر إلى أن الكاهنة قامت بحرق جزء كبير من الزرع والأشجار لمنع العرب من أخذها، لكن بمجرد تأكدها من أن غاية العرب ليست مادية، أمرت أبناءها بالالتحاق بالجيش الإسلامي والانضمام إليه. (بن قربة، 2007، الصفحات 36-37)

وهو ما أشار إليه نموذج دراستنا، حيث قال: «**إن الكاهنة عندما رأت طليعة العرب تقترب استدعت ابنيها وأعلنت لهما أنها ستُقتل، وأن عليهما الذهاب إلى حسان وطلب العفو منه من أجلهما، رحب القائد المسلم بالمنشقين، وهزم البربر وأُلقي القبض على الكاهنة وقُتلت أثناء فرارها، ونال البربر العفو بشرط تزويد المسلمين بقوة قدرها 12 ألف رجل، وضعت هذه القوة على الفور من قبل حسان تحت قيادة ابن الكاهنة**». (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 307)

وهذا ما يثبت لنا أنَّ ما واجهه العرب من مقاومة لم يكن بهدف طردهم من المنطقة، بقدر ما كان سوء فهم لغاية هذا الفتح، وما يثبت ذلك أنَّ «غوتييه» يؤكد على أنَّ دخول العرب للمنطقة رافقه إقبال جماعي للبربر على الدين الإسلامي ولتعلم اللغة العربية. كما نؤكد في هذا الصدد على حجم المغالطات التي وقع فيها نموذج دراستنا عند تفسيره لأسباب استسلام البربر للعرب بأنه جاء ظرفياً فقط،

وأن القادة البربر سرعان ما شقوا عصا الطاعة على العرب، سواء كان ذلك غداة الفتوحات العربية الأولى أو عقب استقرار العرب في شمال أفريقيا وانتشار الإسلام وسط القبائل البربرية، فبينما يصر نموذج دراستنا على تفسير التبعية البربرية للعرب بالظرفية فقط مستدلاً بذلك على حجم التمردات التي ظهرت في المنطقة والدول التي أسست لمعاداة حكومة الخلافة في المشرق، لكن الحقيقة التاريخية غير ما ذكره نموذج دراستنا.

فالفتح العربي كما ذكرنا سابقاً وجد مقاومة شديدة من البربر؛ باعتبار سوء التفاهم الذي حدث خاصة بعد تدخل البيزنطيين لتحريض البربر على العرب، وتأكيدهم للأطماع الاستعمارية للمسلمين، لكن المصادر التاريخية المختلفة توضح لنا بأنَّ البربر سرعان ما أدركوا بأن غاية المسلمين الأساسية هي طرد الاحتلال البيزنطي، فأقبلوا على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية. و«غوتييه» في الكثير من مؤلفاته يستغرب سرعة انتشار العربية والإسلام، مفسراً ذلك بأنه جاء من منطلق معرفة البربر باللغة «البونيقية» وأن العربية ليست سوى بونيقية ثانية، غير أننا ننفي هذا الطرح بشكل مطلق؛ فتبني البربر للغة العربية جاء من منطلق أنها لغة القرآن ولغة الإسلام الأساسية، وتبنيهم لهذه اللغة لا يعود إلى أن جذورها تعود للغة البونيقية فقط، بل يعود إلى اقتناعهم بالإسلام والرسالة الحضارية التي يدعو لها.

وبالإضافة إلى ذلك، نقول إن تأكيد «غوتييه» لمدى تقبل البربر للعربية ما هو إلا دليل قاطع على رفضهم المطلق لكل ما له علاقة بالحضارة الغربية، خاصة اللغة اللاتينية، كما أن احتفاظ البربر باللغة «البونيقية» إلى زمن الفتوحات الإسلامية يوضح لنا مدى الانفصال الذي كان بين البربر والرومان من جهة، وبين البربر والبيزنطيين من جهة ثانية، وبذلك فالتوجهات التي تبناها نموذج الدراسة قائمة على أسس متناقضة؛ فبينما يؤكد من جهة التقارب الشديد بين البربر والرومان ثم البيزنطيين، نجده من جهة أخرى يصر على حجم العداوة بين البربر والعرب، غير أن توجهاته هذه تناقض ما ذهب إليه من تفسير لسرعة انتشار العربية والإسلام في شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي.

كما أنَّ الطرح الذي جاء به عن فترة التاريخ الإسلامي لبلاد المغرب واعتبارها قروناً مظلمة، من خلال تشبيهه لما مرت به بلاد المغرب بالأوضاع التي عرفتها قارة أوروبا في العصور الوسطى التي تميزت بالصراعات الداخلية، وانتشار الفقر والجهل وانحطاط حضاري شامل، غير دقيق؛ فبلاد المغرب في العصور الوسطى الإسلامية عرفت تغيرات حضارية كثيرة، ساهمت في رقي المنطقة وبروز عدة حواضر علمية

كمدينة القيروان ومدينة تلمسان وغيرها من الحواضر التي ازدهرت في التاريخ الوسيط. كما نقول أنَّ بلاد المغرب بصفة عامة، رغم تأسيس سكانها لدول محلية، إلا أنها تبنت الإسلام كدين وعملت على نشر هذا الدين في المناطق المحاذية لها كبلاد الأندلس وإفريقيا جنوب الصحراء.

علاوة على ذلك، وجب علينا الإشارة إلى جملة الانتقادات التي وجهها المؤرخ «لاكوست يافاس Lacoste Yves» لنموذج دراستنا في تفسيره وتحليله لمرحلة التاريخ الوسيط، حيث أشار «لاكوست يافاس» إلى أن «غوتييه» وظف أعمال «ابن خلدون» زوراً لتبرير نظريات عنصرية تدعم الأيديولوجية الاستعمارية، من خلال تشويه صورة شمال إفريقيا التاريخية وتحويل تاريخ المنطقة إلى مفهوم عام صالح لجميع الأوقات والبلدان ومقارنتها مع ما عرفته أوروبا من تغيرات وتحولات، (Lacoste, 1966, pp. 15-16) . كما أنَّ «غوتييه»، من خلال اعتماده على أطروحة المسؤولية التاريخية للصراع بين البدو والحضر، يناقض الحقائق؛ فشمال إفريقيا ولفترة طويلة تميزت بوجود جماعات شبه بدوية تجمع بين الرعي والزراعة، ورغم وجود جماعات مستقرة تمارس الزراعة وجماعات بدوية حقيقية مرتحلة، إلا أن هاتين الفئتين عاشتا ضمن مجتمع شديد التعقيد يجمع بين مصالح المزارعين والرعاة. (Lacoste, 1966, p. 92)

بالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ نموذج دراستنا عند مناقشته لأطروحة الصراع بين شعوب شمال إفريقيا واستمرارية هذا الصراع منذ القدم إلى عهد الاحتلال الفرنسي، تجاهل عن قصد ذلك الترابط الروحي الذي تشكّل بين شعوب شمال إفريقيا وكون شخصيتها التاريخية؛ هذا الترابط تجسّد بشكل كبير في إعلان المعاداة التامة للإمبراطورية الرومانية في الثورة الدوناتية التي جمعت شمل سكان بلاد المغرب، كما تجسّد هذا الرابط أكثر في فترة الاحتلال الفرنسي إبان مقاومة الأمير عبد القادر، حيث اتحدت كلمة أغلبية القبائل الجزائرية لمواجهة عدو واحد.

ولكي نوضح أكثر حجم المغالطات التي وقع فيها «إميل غوتييه»، نؤكد ما ذهب إليه المؤرخ السابق الذكر -لاكوست يافاس- في مقارنته بين العرب والبربر من خلال ما أورده «ابن خلدون» في كتبه، حيث أكد «يافاس» أنَّ التفسير المغرض الذي استخدمه غوتييه وغيره من علماء الجغرافيا وعلم الأعراق هو تفسير مبتذل؛ فليس كل العرب يعتمدون الترحال كأسلوب لعيشهم، وليس كل البربر

مستقرين تماماً، فالكثير من القبائل التي يطلق عليها اسم العرب هم في الواقع بربر يستخدمون اللغة العربية (Lacoste, 1966, p. 92)، وهي نفس النقطة التي أشار إليها نموذج دراستنا في دراسته لأماكن انتشار اللغة البربرية والعربية في شمال أفريقيا.

ومن هذا المنطلق، يصر «لاكوست يافاس» على توجيه انتقادات لاذعة لنموذج دراستنا، ويؤكد على النفي القاطع لمصطلح "الغزو العربي"؛ حيث يقول: «**إن مصطلح الغزو غير دقيق إطلاقاً لوصف هجرة القبائل العربية عبر شمال أفريقيا من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ويمكن استخدام مصطلح الترحيل، وإن كان مبالغاً فيه بعض الشيء، إلا أنه غالباً ما يكون أكثر دقة، وفي معظم الحالات كان الأمر بمثابة دعوة أو تجنيد إجباري فعلي، ومن الخطأ تصور سلاطين البربر في عداء دائم مع العرب، فوجودهم يعتبر في كثير من الأحيان حدثاً مرغوباً فيه**...». (Lacoste, 1966, p. 95)

إذا، فنموذج دراستنا يسعى من خلال طرحه لفرضية العصور المظلمة التي مرت بها الجزائر وشمال إفريقيا بعد بروز العرب فيها؛ إلى إثبات أن هذا الطرح هو في الحقيقة تشويه مقصود لهذه المرحلة التاريخية المهمة، التي شكلت أساساً من أسس شخصية السكان وحضارتهم وهوية البلاد الحالية وثقافتها. وتهدف هذه التوجهات بالدرجة الأولى إلى بث الفرقة بين الجزائريين، خصوصاً الناطقين باللسان العربي والبربري، وتندرج ضمن مساعي تقسيم المجتمع الجزائري، وإثبات طمع العرب في ثروات السكان، وهو ما يعني ظهور نزاعات داخلية بين الجزائريين، وبالتالي تمكن الإدارة الفرنسية من الهيمنة عليهم وضمان استمرار الاحتلال بعد انشغال المجتمع بالاقتتال فيما بينهم. وهذا التوجه المعادي للإسلام والعرب، حسب وجهة نظرنا، ليس بسبب تمكنهم من كسب سكان المغرب الأصليين فقط، بل يعود إلى أن العرب والبربر تمكنوا لقرون من دحر الأوروبيين في عقر دارهم والسيطرة على بلاد الأندلس وجنوب بلاد الغال لعدة قرون.

كما نقول إنَّ «غوتييه» بادعائه أنَّ الأفكار التي تبناها البربر في العصور الوسطى فُرِضت عليهم، هو ادعاء يناقض ما ذكره في مواضع أخرى من أنَّ علاقات العداء بين الجنس العربي والجنس البربري ظلت متأصلة حتى احتلال الفرنسيين للجزائر؛ فإذا كان البربر –كما يقول– يكنّون العداء والكره الشديد للعرب، فلماذا تبنوا دينهم ولغتهم؟ ولماذا سيقبلون أن يفرض عليهم هذا الجنس أفكاره وآراءه؟

وكيف يمكن تفسير التقارب العربي البربري الذي حدث بعد الفتح، وانتشار المصاهرة بين هذين الجنسين إذا لم يكن هناك توافق بينهما؟ وهي أسئلة لم يسعَ غوتييه إلى البحث عن إجابتها، بل عمد فقط إلى التركيز على الصراعات التي ظهرت في الجزائر وبلاد المغرب؛ ليُصدر حكمه بأنَّ العرب هم سبب دمار بلاد المغرب، وانهيار حضارته الراقية التي بلغتها المنطقة في عهد الرومان، كما يدعي نموذج دراستنا.

وبذلك يتضح لنا أنَّ «غوتييه» استغل بعض الحقائق التاريخية، كبروز مقاومة بربرية للفتح الإسلامي ومساندة البيزنطيين لهذه المقاومة، ليؤكد على طابعها الوطني ويبين مدى تلاحم البربر والبيزنطيين، لكن هذا التلاحم والمساندة سرعان ما كانا ظرفيين؛ إذ سرعان ما ساند البربر المسلمين في فتوحاتهم في بلاد المغرب والأندلس، وهو ما يثبت أنَّ الكراهية التي ادعى نموذج استمراريتها طيلة فترة التاريخ الإسلامي، كانت الغاية منها التأكيد على انقسام المجتمع الجزائري وإحياء النعرات القبلية فيه.

وهو الطرح الذي يؤكده المؤرخ «لاكوست يافاس»، حيث أشار إلى أنَّ «غوتييه» رفض بشكل قاطع الاعتراف بالأدلة التي تثبت وحدة شعوب شمال أفريقيا التاريخية والحضارية، هذا الرفض جاء من منطلق دعمه المباشر للأيديولوجية الاستعمارية التي سعت منذ البداية إلى فصل العرب عن البربر عن طريق تصوير العرب كغزاة مدمرين، وهي الفكرة التي أكد «يافاس» على نجاحها في القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847 في الجزائر، وتجسدت مظاهرها في المغرب الأقصى سنة 1953 عندما ثارت القبائل ضد السلطان محمد الخامس. (Lacoste, 1966, p. 101)

وهو الأمر الذي يدفعنا للقول بأنَّ «غوتييه» عمل على تقديم تفسيرات خاطئة وفرضيات تحمل في طياتها بذور الحقد والكراهية للعرب والإسلام، كما تحمل ضمنها أفكاراً هدامة تصر على تفتيت المجتمع الجزائري بغية تسهيل التحكم فيه من منطلق سياسة «فرق تسد»، وهو ما يجعلنا نتساءل عن موقف المؤرخ من فترة الحكم التركي في الجزائر، والآراء التي أوردها عن هذه المرحلة التاريخية، وهو ما سنبرزه في المحور الموالي.

3 – فترة الحكم التركي

لم تختلف آراء المؤرخ في نظرته للحكم العثماني عن فترة التاريخ الوسيط، فهو يعتبر هذه الفترة أيضاً استعماراً أجنبياً آخر عرفته الجزائر، بعد نهاية الاستعمار العربي؛ حيث قال: «**على مدار تاريخها**

المعروف منذ ألفي عام تتمتع منطقة شمال إفريقيا بتنوع جغرافي كبير، لكنَّها من جهة أخرى لم تكن البلاد ملكاً لنفسها لحظة واحدة، ففي البداية كانت تابعة لقرطاج ثم لروما ثم للوندال ثم للبيزنطيين ثم للعرب ثم للأتراك». (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, pp. 136-137)

فتبعية الجزائر للخلافة العثمانية إذاً لا تختلف عن الفترات السابقة، فهي استعمار لمجموعة من القراصنة استولوا على ثروات الجزائر وخيراتها، ولم يقدموا شيئاً للجزائريين؛ حيث يقول: «**الأتراك باعتبارهم غزاةً في الجزائر ظلوا على حالهم لقرون، ففي عام 1830 كانوا لا يزالون أتراكاً يتحدثون ويشعرون كأتراك، وهم بحارة ماهرون، بل بحارة أجانب وقراصنة متربصون، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّهم لم يمارسوا الصيد والتجارة قط، لا شيء غير القرصنة، فباستثنائهم عام 1830 وعلى امتداد الساحل الجزائري، لم يكن هناك صياد أو بحار أو قارب محلي واحد، أنَّه أمر غريب، لكن هذا هو الواقع**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 252).

إذاً فهؤلاء الأجانب -كما يقول- اكتفوا بممارسة القرصنة وسيطروا على شؤون الحكم في الجزائر، حيث بقيت السيطرة للأتراك في شؤون تسيير البلاد، حيث ظل «**باي الجزائر بعد أربعة قرون ظل تركياً صريحاً، يتحدث التركية، غريباً تماماً عن البلد الذي يحكمه**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 420)

ولكي يبيّن لنا «غوتييه» حجم التخلّف الذي ألحقه الأتراك بالمجتمع الجزائري قال: «**عندما نزل الجيش الفرنسي في الجزائر سنة 1830 وجد الأتراك هناك وقد استقروا لثلاثة قرون، لقد دفعوا أغلبية السُكَّان الأهالي من البربر والعرب إلى الحرف اليدوية والعيش المتواضع كفلاحين، أمَّا الأتراك فكانوا يمتلكون الثروة ويشغلون مناصب مهمة، وكانوا هم البرجوازيين. ففي الجزائر توجد طبقة عامة ريفية ورعوية، وللإشراف على هذه الطبقة لا يوجد سوى 833 ألف مستوطن، وهم الطبقة البرجوازية المستقرة**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 30)، فالأتراك كانوا أسوأ من العرب؛ فهم الذين تسببوا في عودة الجزائريين إلى الأعمال اليدوية والعيش كفلاحين صغار، بينما استأثر الأتراك بباقي الخيرات لأنفسهم.

كما بيّن لنا «غوتييه» أنَّ النظام التركي لم يساهم في تحضّر الجزائريين وتقديم العون لهم لاستغلال ثرواتهم الاقتصادية، فقبل عام 1830 لم يتم استغلال قشرة أشجار البلوط الفليني، أمَّا في السهول الجنوبية التي تغطي ثلثي مساحة البلاد، فكانت الرياح تداعب مروج الحلفاء غير المستغلة تماماً، وفي «**الأدغال الشمالية لم يكن أحد يخطر بباله أنَّ أشجار النخيل القزمة التي لا تُحصى يمكن أن تنتج شعراً نباتياً، ولم يفكر أحد في استخلاص إبرة الراعي أو التبغ أو الخضروات المبكرة أو الحمضيات أو القطن أو الكروم... لم يكن هناك قبل وصول الفرنسيين قارب صيد، وفي الجبال ظلت ملايين الأطنان من الحديد والفوسفات مخبأة على مر آلاف السنين**». (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 40).

اتسم الحكم التركي للجزائر بالجمود أمام ثروات البلاد التي سيقوم الفرنسيون باستغلالها. وبالإضافة إلى ذلك، أهمل الأتراك أيضاً الزراعة، ولم يعملوا على تحسين نوعية الإنتاج بما يمنع انتشار الفقر وسط الجزائريين، خاصة في التلال شبه الخالية، حيث يجبر الفقراء على زراعة القمح؛ لأنَّه إن لم يزرعه بنفسه فلن يأكل. (Gautier, Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, p. 258)

وهذا الإهمال سببه غياب إدارة واضحة المعالم، حيث لم ينشئ الأتراك مؤسسة سياسية واحدة يمكن وصفها بالمنظمة؛ لأن غالبية المجتمع تسير وفق إطار الجماعة التي كانت هي الهيئة التقليدية القديمة الموجودة في جميع أنحاء «بربارياً»، وهذه الجماعة هي ملتقى جميع رؤساء العائلات، ولها جميع الصلاحيات، وهي الهيئة الوحيدة التي لا تعد هيئة تشريعية فحسب، بل تنفيذية أيضاً، فالشعب يقرر وينفذ قراراته بنفسه. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 148)

ونظراً لغياب هيئة إدارية رسمية، فإنَّ الأتراك بقوا في الجزائر في شكل حاميات عسكرية قليلة العدد، وركزوا على ممارسة القرصنة على السفن الأوروبية، ولم يولوا اهتماماً لتحسين الوضع الاقتصادي والصناعي للبلاد، والَّذي كان سيحسن الوضع المعيشي للجزائريين، لكن الأتراك قاموا بعكس ذلك؛ حيث أهملوا الصناعة، ولم يساهموا في تطوير استخراج المعادن في الجزائر.

حيث اعتبر «غوتييه» هذا الإهمال من أكبر عيوب الإسلام وأكثرها غرابة، حيث قال: «**قبل عام 1830 لم يكن هناك أي شك في شعر الخيل النباتي، حتى الفلين لم يكن مستخدماً، وكان عشب الحلفاء في السهول الشاسعة يلوح في الريح دون أن يفكر فيه أحد، لتصبح الجزائر دولة غنية بالتعدين بفضل الغزو الفرنسي الذي أحدث تحولاً هائلاً، فقبل وصولنا كان السُّكَّان الأهالي على علم ببعض رواسب الرصاص، لكنهم لم يعودوا يعرفون خام النحاس ولا خام الحديد، ولم يعد يهمهم، زودتهم أوروبا بهذه المعادن لقرون. وليس لديهم أدنى فكرة عن الفوسفات، لأن التعدين من أكثر عيوب الإسلام غرابة على الأقل في العصور الأخيرة**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 249)

فالمؤلف إذاً بيّن أنَّ الجيش الفرنسي بعد وصوله – واحتلاله – الجزائر عام 1830 وجد أنَّ الأتراك الذين بقوا لمدة ثلاثة قرون قد «**أجبروا أغلب البربر والعرب الأهالي على العمل اليدوي وحياة الفلاحين المتواضعة، وكانوا يرسلون إلى الجزائر جنوداً وضباطاً وموظفين حكوميين على متن سفن بمرتب شهري**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 236)

من خلال ما سبق نقول إنَّ «غوتييه» لم يكتفِ بتجاهل مرحلة الحكم العثماني للجزائر فقط، بل أكد على الانحطاط الذي عرفته الجزائر خلال هذه المرحلة؛ لأن هذا الحكم في نظره ما هو إلا احتلال عسكري لأقلية تركية للجزائر وفرض سيطرتهم على السكان، كما أن الأتراك لم يساهموا حضارياً في المنطقة بل اكتفوا بالتركيز على الجانب العسكري وممارسة القرصنة كما يقول. وهذا التوجه الذي يرتكز على تجاهل أكثر من 3 قرون من التاريخ يعدُّ في نظرنا إجحافاً كبيراً في حق هذه المرحلة التاريخية، لذا وجب علينا نقد هذه التوجهات لـ «غوتييه» وكشف التزييف الذي أورده في مختلف مؤلفاته.

3 – 1 – الرد على مواقف غوتييه من تاريخ الجزائر الحديث

يتضح لنا أنَّ «غوتييه» حرص على تقزيم شأن الحكم التركي للجزائر، كما قزَّم فترة التاريخ الإسلامي، ولم يتوانَ في نفي الارتباط بين الحكام الأتراك والجزائريين، حيث ركَّز كثيراً على أنَّ الأتراك لم يبذلوا جهوداً في الاندماج بالسُّكَّان، ولم يكن حضورهم للمنطقة إلاَّ بهدف ممارسة قرصنتهم البحرية والاستحواذ على جميع المناصب الإدارية وإبعاد الجزائريين عن توليها من خلال إجبارهم على الحياة البدوية

التي تستدعي الاهتمام بالأرض وجمع الطعام، كما بيَّن المؤلف أنَّ الأتراك باعتبارهم أجانب لم يلقوا ترحيباً وسط السُّكَّان، خاصَّة سُكَّان القبائل الذين آثروا الاحتفاظ ببساتينهم والدفاع عنها في وجه الغزاة الأتراك حسب تعبيره.

غير أنَّ البحث الدقيق في مرحلة التاريخ العثماني للجزائر يقودنا إلى القول بأنَّ الأتراك لم يكن قدومهم إلى الجزائر بشكل غزو عسكري، كما ذكر نموذج دراستنا، بل كان قدومهم بناءً على طلب المساعدة التي قدَّمها أعيان من مدينة الجزائر للإخوة عروج لمواجهة التحرشات الإسبانية، بعد عجز الدولة الزيانية عن مواجهتهم وخضوع حاكمها للإسبان، فلبى «الإخوة بربروس» النداء وشاركوا مع الجزائريين في التصدي للهجمات الإسبانية، ولما عزم خير الدين على العودة إلى بلاد الأناضول اقترح على السكان طلب المعونة من الخلافة العثمانية، وهو ما وافق عليه الجزائريون فأرسلوا وفداً الى «السلطان سليم»، مع مجموعة من الهدايا، وهو ما سمح بتعيين «خير الدين بربروس» بايرلباي (أمير الأمراء). (قنان، 2007، الصفحات 20-26)

كما أنَّ خير الدين عند عودته للجزائر جاء بـ 14 سفينة فقط، واستقبل من طرف الجزائريين كحاكم لا كمحتل، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ «خير الدين بربروس» عقب تعيينه عمل على التقرب من الجزائريين ومصاهرتهم والاستعانة بهم لمواجهة الإسبان، حيث يشير المؤرخ «وليام سبنسر William B. Spencer» إلى إرسال حاكم الجزائر «**سالم التومي شيخ قبيلة الثعالبة، والذي كان قد انتخب حاكما على المدينة وناحيتها مبعوثا عنه إلى جيجل. وقد زحف عروج الذي كان قد نال تأييد قبيلة بني عباس مع قوة تتكون من ثلاثمائة تركي أجروا للعمل إلى جانبه**». (سبنسر، 2006، صفحة 39)

أما بخصوص ادعاء نموذج دراستنا بأن الحكم التركي لم تكن له مؤسسات إدارية تسير الجزائر، فنقول إن النظم الإدارية التركية ظلت موجودة طيلة العهد العثماني، حيث تم تقسيم الجزائر إلى أربع مقاطعات باسم البايلك (دار السلطان – بايلك الشرق – بايلك التيطري – بايلك الغرب).

ولكل مقاطعة جهاز إداري يشرف عليها، ودار السلطان هي التي تشرف على باقي المناطق باعتبارها مقر الداي، وهذا الحاكم يساعده مجلسان؛ أولهما مجلس الشورى الذي يتكون من عدة أعضاء، كوكيل الحرج وخوجة الخيل والخزناجي، أما المجلس الثاني فهو مجلس الديوان العمومي الذي يتشكل من

عدة موظفين أبرزهم الخليفة والدفتردار والباش سيار والترجمان، وهذان المجلسان يساعدان الداي في إدارة شؤون الدولة ولا يستطيع تنفيذ شيء أو إصدار قرار دون أخذ الموافقة منهما. (بوعزيز، الجزائر الحديثة، 2009، الصفحات 57-58)

أما بالنسبة للبايلك، فقد تم تعيين حاكم عليها يحمل لقب «الباي»، يساعده مجموعة من الموظفين يشكلون ديوان الباي، ومن أبرزهم نذكر قائد المقصورة، والباش كاتب، والباش سيار، بالإضافة إلى مجلس استشاري يتضمن من العلماء وعقلاء المنطقة، وهذا المجلس يجتمع للتشاور، ويصدر قرارات تكون ملزمة في غالب الأحيان للباي (سعودي، 2001، الصفحات 30-33). كما اعتمد البايات في تسيير شؤون المناطق التابعة لهم على شيوخ القبائل والأعراش والدواوير، بالإضافة إلى الاعتماد على قبائل المخزن في جمع الضرائب وتجهيز الحاميات العسكرية في حالة الضرورة. (سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، 2008، الصفحات 180-181)

وهو ما يبيّن لنا أنَّ الحكم التركي في الجزائر اتسم بطابع الاحتكاك بالجزائريين، وأخذ مشورة الأعيان في المسائل المهمة في تسيير الدولة، ويوضح لنا أيضاً أنَّ الأتراك عملوا على ربط صلات وثيقة بالجزائريين والاستعانة بهم في تسيير شؤونهم المحلية، رغم وجود بعض الاضطرابات التي عرفتها هذه المرحلة التاريخية، خاصة في أواخر مرحلة الدايات، خاصة ثورة «الطريقة الدرقاوية» ببايلك الغرب (1802-1816)، وثورة «ابن الأحرش» في بايلك الشرق (1800- 1804). (هلالي، 2008، الصفحات 23-26)

علاوة على ذلك، وجب علينا التأكيد على أن الوضع الاقتصادي للجزائر إبان العهد العثماني كان مقبولاً، حيث تشير المصادر إلى أنَّ «**ضواحي مدينة الجزائر تشبه –إذا استثنينا تلك البساتين التي تملكها بعض الشخصيات والتي هي محاطة بأسوار– تلك المستعمرات الأولى التي أقيمت في أمريكا، وهي تنتج جميع أنواع الفواكه التي تنتجها بلاد البربر وبكثرة، والمنطقة كلها مزروعة وتوجد فيها موزعة هنا وهناك أشجار التين والرمان والنخيل، وكذلك ينبت فيها دون أن يُغرس نبات النعناع والميرمية والكزبر**». (كاثكارت ، 1982، صفحة 83)

لكن من جهة أخرى وجب علينا التأكيد على ما ذهب إليه «غوتييه» في حديثه عن هيمنة الأتراك الكلية على مقاليد الحكم، وعدم السماح للجزائريين بالمشاركة في الحياة السياسية للدولة، لدرجة أنَّ النظام التركي في الجزائر لم يسمح حتى للكراغلة بتولي مناصب حساسة في الدولة، حيث لم يتجاوزوا طيلة الحكم العثماني منصب الباي، ولم يصل أحد منهم لتولي منصب الداي بشكل نهائي، كما نؤكد من جهة أخرى تردي الوضع الاقتصادي للبلاد، نتيجة انشغال السلطة التركية بالجهاد البحري وبتحصيل الضرائب من الجزائريين، دون تقديم أي مقابل لتحسين هذا الوضع الاقتصادي. (هلال، 2016، الصفحات 33-35)

ورغم ذلك، وجب علينا أن نشير في هذا الصدد إلى أن نموذج دراستنا سعى إلى تجاوز هذه المرحلة التاريخية، وما عرفته من أحداث تبرز المكانة التي احتلتها الجزائر قبل سنة 1830، ففي مجمل المؤلفات التي كتبها عن تاريخ الجزائر، لاحظنا أنه ركّز في دراسته على مرحلة الاحتلال الروماني، ثم مرحلة التاريخ الوسيط، ليقفز مباشرة إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي، ولم يخصّص لمرحلة الحكم العثماني دراسة مفصّلة كالمراحل سالفة الذكر، إلا في إطار مقارنة الحكم العثماني بفترة الاحتلال الفرنسي، والعمل على إعطاء صورة سوداوية عن الفترة السابقة للهيمنة الفرنسية.

وهذا التوجه في منهجية التدوين مرده أنَّ «غوتييه» يسعى إلى تبرير الاحتلال الفرنسي، فهو يشير إلى أن العثمانيين لم يقدّموا شيئاً للجزائريين، سواء في الجانب السياسي أو الاقتصادي، عكس الفرنسيين الذين سعوا إلى تطوير الجزائر، وهو ما يثبت لنا أنَّه يبرر استعمار الجزائر من خلال ذكر محاسن فرنسا حسب زعمه، وهو ما سنبرهن عليه في المحور الموالي.

ثالثاً:

مواقفه من الاحتلال الفرنسي للجزائر وسياسته 1830 – 1939

بعد أن شوَّه نموذج دراستنا مرحلة التاريخ الإسلامي، ووصف العرب بالمخربين والمدمرين لكلِّ شكل من أشكال الحضارة، ننتقل إلى إبراز آرائه في مرحلة الاحتلال الفرنسي منذ بدايته إلى حدود سنة 1939؛ باعتبار أنَّ آخر عمل ألَّفه «غوتييه» صدر في هذه السنة.

1 – أراءه في احتلال فرنسا للجزائر ونظامها الإداري

عمل نموذجُ دراستِنا على إضفاءِ الصبغةِ الشرعيةِ على الاحتلالِ الفرنسيِّ للجزائر، من خلال التأكيد على طابعه المسيحي الذي يمثّل الغربَ الأوروبيَّ ككلّ، ولا يمثّل فرنسا وحدها، وأنَّ هذا الاحتلال جاء بمباركةٍ من «التحالف المقدّس» الذي عقدته فرنسا مع بقية ملوك أوروبا ضد القراصنة المسلمين (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 58).

وفي هذا الصدد يقول «غوتييه»: «**قرَّر شارل العاشر شنَّ حملةٍ على الجزائر رغم اعتراض إنجلترا، لأنه كان قد حصل عمليًا على تفويضٍ من التحالف المقدّس... وقد مُنح هذا التفويض شخصيًا للملك المسيحي، لا لفرنسا الثورية... ففي عام 1830 كان الهدف هو وضع حدٍّ للقرصنة الوحشية "Barbaresque" بقيادة داي الجزائر، ومن المفارقات أنَّ أوروبا تسامحت لقرون مع هذه القرصنة على أبوابها**» (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 175).

ومن هذا المنطلق، عزمت فرنسا على إنقاذ أوروبا من القرصنة الجزائرية وتحقيق حلم طالما راود الأوروبيين، فقامت حكومة الملك شارل العاشر بتحقيق هذه الغاية، ولم تفكّر، ولو للحظة، في غزو الجزائر. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 59)

ليشير بعدها إلى أنَّ احتلال فرنسا للجزائر لم يأتِ بمحض الصدفة، وأنَّ الحكومة الفرنسية لما أرادت تنفيذ الحملة لجأت إلى التقارير التي أعدَّها جواسيس فرنسا، وخاصة التقرير الذي أعدَّه الجاسوس «بوتان»، بتوجيه الحملة لمنطقة سيدي فرج، لأنَّها كانت دون حماية، وهو ما سمح بتقليل الخسائر في الجيش الفرنسي، حيث يقول: «**الخطة التي اتُّبعت تضمنت إنزالاً في منطقة بعيدة غرب الجزائر، في شبه جزيرة سيدي فرج، كان هذا العمل الذي عُثِر عليه في الأرشيفات من عمل جاسوس لنابليون الأول يُدعى «بوتان Boutin»، وهو ما نسميه اليوم لعبة الحرب لهيئة أركان الإمبراطورية... كانت القوات الفرنسية هائلة، ولم يكن للمليشيات أي وجود يُذكر، كانت الحملة سهلة للغاية وكانت الخسائر طفيفة: 409 قتلى، و718 ماتوا بسبب المرض، وبالتالي فإجمالي القتلى يصل إلى 1127، ولم تكن الحملة تكلف شيئاً فحسب، بل بفضل مصادرة كنز الداي حققت فائضاً قدره 12 مليونا**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 176-177)

بالإضافة إلى ذلك وضح لنا «غوتييه» الهدف الأساس من الحملة الفرنسية على الجزائر بأنها تسعى لإحلال السلام فيها، كما قامت روما بإحلال السلام فيما سبق (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 186). وأنَّ الجزائر وشمال إفريقيا سيخضعان للتأثيرات الأوروبية التي ستقدم لهما الحضارة، لذا لا بد من تقبل الاحتلال؛ لأنَّه الوسيلة المثلى لنقل هذه التأثيرات من دول أوروبا المتقدمة، لذلك نجده يقول: «**شمال إفريقيا البربرية والهمجية أصلاً متأخرة بين البلدان المتحضرة، ولكن تُعَدُّ بمنأى عن زلزال الحضارات التي تتساقط عليها التأثيرات الكوكبية كأشعة كونية فيزيائية... فلو لم نستطع حمايتها بواسطة القانون الاستعماري، الذي ينص معناه على انتشار التأثيرات من الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة**». (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 54)

ومن هذا المنطلق، فاحتلال فرنسا للجزائر –حسب المؤلف– هو نعمة على السكان الجزائريين، خاصة أن هذا الاحتلال ساهم في تحقيقه مجموعة من الأبطال مثل «الجنرال بيجو Thomas Robert Bugeaud» و«ماك ماهون Mac Mahon» و«ألفريد شانزي Alfred Chanzy» و«جول كامبون جول كامبون Jules Cambon» و«شارل جونار Charles Jonnart»، الذي كانت فترة حكمه بمثابة انفجار اقتصادي هائل للجزائر. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 9-10)

هذا التطور برز أكثر بعد تغيير الفرنسيين لنظام الحكم في الجزائر من النظام العسكري إلى الحكم المدني، خاصة بعد تعيين «ألبرت غريفي Albert Grévy»، والذي ساهم في إحداث تغييرات جذرية لصالح المستوطنين في الجزائر، أبرزها دعم توسيع مناطق البلديات ذات الصلاحيات الكاملة التابعة للحكم المدني، كما أوضح «غوتييه» الأثر الذي تركه تأسيس الوفود المالية بتاريخ 15 ديسمبر 1898 من قبل الحاكم العام «إدوارد لافيريير Edouard Laferriere»، كبداية للاستقلال المالي للجزائر عن الإدارة المركزية بفرنسا، وهو ما ساهم في تحقيق نتائج جد إيجابية من الصعب إنكارها (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 8-9). هذا الاستقلال أدى إلى بروز فترة ازدهار اقتصادي بين المستعمرين والسُّكَّان الأهالي في الجزائر، لم تشهدها إفريقيا منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 67)

ليوضِّح بعدها «غوتييه» أنَّ الإدارة الفرنسية عملت على فرض النظام في جميع أنحاء الجزائر، من خلال تفعيل دور المكاتب العربية باعتبارها أداة مكنت الفرنسيين من التقرب من الجزائريين وتحسين أوضاعهم مع احترام عاداتهم وتقاليدهم، فمثلاً المكاتب العربية المتواجدة في المناطق الصحراوية عبارة عن جهاز إداري وضعته فرنسا في العديد من المناطق، مثل «بني عباس» و«تيميمون» و«أدرار» و«عين صالح»، وهو إنجاز يمثل ثورة كبرى لا تؤثر على حياة السُّكَّان الأهالي بأي شكل من الأشكال، كما أنَّ هذه المكاتب لم تمس شيئاً في المنطقة كالعائلة والممتلكات وإدارة العدل والشرطة الداخلية، بل هي أداة حماية للسُّكَّان في منازلهم وقراهم، كما أنَّ تأسيسها كان بهدف جعلها أداة اتصال مع السيد الجديد فقط. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 156-157)

وهو ما يثبت أنَّ المكاتب العربية حسب آراء «غوتييه» عملت على تنظيم كل المناطق التابعة للفرنسيين، ففي منطقة القبائل مثلاً عُرِفَت بعد سيطرة الفرنسيين عليها عام 1854 على يد « الماريشال راندون Maréchal Randon»، الذي تعهّد باسم فرنسا باحترام قانونها العرفي (قوانينها) «**وتنظيمها الديمقراطي للبلديات (مجالسها)، وغني عن القول أنَّه تمَّ الوفاء بهذا الالتزام، فاليوم كما كان الحال قبل قرون، الأب هو الذي يحكم الأسرة، والشيوخ هم الذين يحكمون الجماعة**». (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 51)

وبالنظر لهذا التسامح والسلام الذي عملت فرنسا على تعميمه في الجزائر، نشأت القرى الأوروبية في عدة مناطق، مثل «بني ونيف»، ونشطت حركة رؤوس الأموال والعمليات التجارية، وهو نجاح مهمٌّ كان متواضعًا سيعتبر إنجازًا كبيرًا للاستعمار الرسمي. (Gautier, Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig, 1905, p. 165) ومن بين المناطق التي عرفت ازدهارا كبيراً بفضل الفرنسيين «مدينة سعيدة»، التي عرفت تغيرات كثيرة، حيث أصبحت مدينة حقيقية ومركز تجاري كبير للحبوب نابضاً بالحياة. (Gautier, La Meseta sud-oranaise, 1909, p. 340)

فالاستعمار الفرنسي إذاً قدَّم الكثير للجزائر وشعبها، فهو الذي ساهم في تنشيط الحركة على أرصفة موانئ الشحن الجزائرية، وأصبحت الأكياس الصغيرة من الرصاص والزنك والتلال الحمراء من خام الحديد، بالإضافة إلى تلال بيضاء من الفوسفات، وهو ما يساهم في تمويل ميزانية قدرها 866 مليون، ويساعد على دفع تكاليف نحو 5000 كيلومتر من السكك الحديدية ونحو 6000 كيلومتر من الطرق الوطنية التي تسلكها حوالي 60 ألف سيارة، في بلد لم يكن فيه قبل عام 1830 متر واحد من الطرق، ولا جسر واحد، ولا سيارة واحدة، وهكذا بُنيت موانئ ضخمة من الصفر وجُهِّزت، وهكذا نشأت مدن أوروبية ساهمت في خلق عالم اقتصادي جديد. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 68)

كما دافع «إميل فليكس غوتييه» عن السياسة الإدارية الفرنسية في الجزائر، واعتبرها رمزاً للتحضر والقضاء على كل أشكال التخلف، دافع أيضاً وبقوة عن سياسة التوسع الفرنسي، خاصَّة في المناطق الصحراوية، ويُعتبر نموذج دراستنا من أبرز الفاعلين في تجسيد هذه السياسة التوسعية بفضل الرحلات الكثيرة التي أجراها في صحراء الجزائر، بغية استكشافها وتسهيل مهمة سيطرة الفرنسيين عليها، حيث اعتبر غزو الصحراء بمثابة تأسيس لدولة محلية، يُعيَّن رئيسها من قبل رئيس الجمهورية الفرنسية، كما وضَّح أنَّ وجود الضباط الفرنسيين في الصحراء أداة فعالة للتقدم الديمقراطي وإلغاء العبودية وتجارة الرقيق في واحات الصحراء. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 163-166)

كما أن هذه المنطقة تم فتحها بهدوء وعن غير قصد، لذلك فعملية الفتح التي قام بها الفرنسيون لا يمكن اعتبارها عملاً عسكرياً، بل عمل خاص بالشرطة، تم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لترويض «**شبه المتوحشين والاستفادة منهم**». (Gautier, The Transsaharian Railway, 1925, p. 55)

وأشار إلى أنَّ فرنسا لم تجد صعوبة في تنظيم الصحراء؛ نظراً لأن سكانها كانوا ينتظمون في جماعات يرأس كل منها قائد، مما جعل اختيار المؤهلين لارتداء «البرنوس الأحمر» –رمز السلطة الفرنسية– أمراً ميسراً. وأوضح أنَّ لهذا اللون ارتباطاً وثيقاً بالماضي، وتحديداً بالأرجواني الروماني، مما يعيد له دلالته

الرمزية. كما وصف المكاتب العربية التي أنشأتها فرنسا في «بني عباس»، و«تيميمون»، و«أدرار»، و«عين صالح»، بأنها جهاز إداري رقابي جديد كلياً، لم يسبق له مثيل في المنطقة، وقد أُنشئ من العدم دون أن يمس خصوصيات السكان، كالعائلة والممتلكات وشؤون القضاء والشرطة الداخلية. واعتبر هذه المكاتب وسيلة لحماية السكان في قراهم ومنازلهم، وجسراً للتواصل مع السلطة الجديدة. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 156-157)

وهو ما يعني أنَّ «غوتييه» ينفي بشكل قطعي أن تكون الهيمنة الاستعمارية للجزائر مبنية على القوة الغاشمة والعنف الإجرامي، ودليل ذلك أنَّ قوة الاحتلال في منطقة الصحراء مثلاً تتألف من 136 أوروبياً، وهو رقم اعتبره وهمياً؛ لأنَّه يضم عدداً كبيراً من المدنيين والمحاسبين والعمال والسكرتارية والموظفين الإداريين، حيث يشرف 22 ضابطاً و84 ضابط صف على ألف جندي محلي، وهذا يبين مدى تقبل الجزائريين للإدارة الفرنسية، وعملهم على مشاركة ومساعدة الفرنسيين في إدارة شؤون الجزائر. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 159)

وهو ما يعني أيضاً أنَّ المسؤولين العسكريين الفرنسيين في الجزائر لم يضطهدوا السُّكَّان، بل بالعكس عملوا على تحسين وضعهم الصحي والمعيشي من خلال جملة من الإجراءات الاقتصادية الهادفة لتطوير اقتصاد الجزائر، يقول «غوتييه»: «**هناك من يدعي أنَّ المستعمرين الفرنسيين يضطهدون السُّكَّان الأصليين في الجزائر، بين تعداد عام 1865 وتعداد عام 1872 انخفاضاً في عدد السُّكَّان بمقدار 200 الف نسمة، حتى صحف ذلك الوقت صدَّقت هذا الزعم، وتساءل الناس عما إذا كان مسلمو الجزائر يختفون عند احتكاكهم بالحضارة الغربية، مثل الهنود الأمريكيين. سرعان ما اتضح أنَّ هذا التفسير خاطئ، فمنذ عام 1872 شهد المنحنى ارتفاعاً مذهلاً بالكاد تباطأ خلال الحرب العالمية الأولى، تضاعف عدد السُّكَّان الأصليين ثلاثة أضعاف في ستين عاماً، وارتفع من حوالي مليونين إلى ما يقارب ستة ملايين في آخر تعداد**». (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 39)

ولذلك دافع نموذج دراستنا بقوة عن ضرورة تفعيل دور الاستعمار الفرنسي الرسمي، ودعم هذا الاستعمار بمجموعة من الأدوات المساعدة التي تسهل عملية توسع النظام الفرنسي الأوروبي، الذي أثبت نجاحه في ترسيخ النظام. ومن بين أبرز الأدوات الواجب الاستعانة بها السكك الحديدية، خاصَّة بعد بعث مشروع الخط الرابط بين «بني ونيف» و «القنادسة»؛ لأن تأثيرها على السُّكَّان الأصليين مدعوم بقوة بالسياسة التجارية للحكومة العامة. كما أن إنجاز هذا المشروع ساهم في ظهور القرية الأوروبية في «بني ونيف» في غضون بضعة أشهر، بفضل بروز حركة رؤوس الأموال ومختلف العمليات التجارية. (Gautier, Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig, 1905, p. 165)

«فغوتييه» إذاً يرى أنَّ الظاهرة الاستعمارية الحديثة، باعتبارها ظاهرة مركزية يندرج تحتها كل شيء، تتقارب تحتها كل التواريخ العقلانية في العصور القديمة نحو ظاهرة استعمارية كبرى للإمبراطورية الرومانية، وهذه الظاهرة تُعدُّ أحد أشكال الامتزاج والتوجه نحو الوحدة؛ لأنَّه قانون فيزيائي لا يمكن المجادلة في شرعيته. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 13)

ومن هذا المنطلق نقول إنَّ نموذج دراستنا لا يدافع عن الاحتلال الفرنسي للجزائر فحسب، بل يعتبر هذا الاحتلال إنجازاً عظيماً للدولة الفرنسية، وأنَّ تجسيده جاء بفضل إرادة قوية ومساهمة العديد من الشخصيات التي اعتبرها رمزاً للدولة الفرنسية، كما دافع المؤلف عن سياسة التوسع الفرنسي في الجزائر، معتبراً دخول الفرنسيين لمختلف المناطق في الجزائر بمثابة انتشار للحضارة والنظام، باعتبار أنَّ الفرنسيين كما ذكر لم يحترموا قيم وعادات المجتمع الجزائري فقط، بل عملوا على الاستعانة بهم في تسيير شؤون مناطقهم من خلال «البرنوس الأحمر»، كما سعى أيضاً للدفاع عن مختلف المشاريع التي نفذتها فرنسا في الجزائر وخاصة مشروع السكة الحديدية، لأنَّها تساهم في نشر النظام وترسيخ الاقتصاد التجاري الذي يعود بالإيجاب على اقتصاد الدولة، وبالتالي تحسن ظروف معيشة الجزائريين وتراجع نسبة الوفيات فيهم.

2 – موقفه من السياسة الفرنسية في الجزائر

بالإضافة إلى حرص «غوتييه» على تلميع صورة الاحتلال الفرنسي ونظمه الإدارية في الجزائر، واعتبار ما قام به الاحتلال هو تقديم خدمة حضارية للجزائريين، وإخراجهم من دائرة التخلف والفقر إلى التقدم الحضاري والصناعي، قام أيضاً بالدفاع عن السياسة التي اتبعتها الإدارة الفرنسية لدمج المجتمع الجزائري بالمجتمع الفرنسي؛ وهي التوجهات التي سنبرزها فيما يلي:

2- 1- مساندته لسياسة الاستيطان والادماج

لم يتوانَ نموذج دراستنا عن الدفاع عن سياسة الإدماج والاستيطان الفرنسية في الجزائر، وهذا من منطلق اعتباره للسياستين الطريقة المثلى لتحقيق الاندماج بين المجتمع الجزائري والمجتمع الأوروبي؛ حيث لاحظنا أنَّ المؤلف يوضِّح بإسهاب دور المستوطنين الفعّال في تثبيت الاستعمار من جهة، وفي تدريب الجزائريين على حياة الحضارة والنظام بعد أن ألفوا حياة الفوضى، وهو ما يؤكده في قوله: «**أنا لست متأكِّداً من أنَّ الإدارة الفرنسية على علم تام بما فعلته في الجزائر، سواء بقصد أو غير قصد، هل تعلم أنَّها نجحت بوضوح في خلق بيولوجي، خلق عرق جديد... ففي آخر تعداد سُكَّاني كان عدد المستوطنين في الجزائر وحدها 833 ألف مستوطن... ليرتفع في الخمس سنوات الماضية إلى 120 ألف، وهذا راجع لسببين: الهجرة التي لم تتوقف، والتفوق العددي للمواليد على الوفيات وهو أمر مشرف**». (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 63)

ليشرح بعدها بأنَّ هذا العنصر الأوروبي الجديد، الذي زُرع في الجزائر، ساهم في خلق نوع بشري جديد يمثّل ظاهرة بيولوجية فريدة، ونوعاً من المعجزات التي لطالما اعتقد الفرنسيون أنَّهم عاجزون عن تحقيقها، كما أنَّ إدخال هذه النسبة العالية من العناصر الأجنبية سيكون له تأثير كبير على السكّان الأهالي. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 244)

وهذه العناصر الأجنبية التي جاءت من عدة دول كسردينيا وجزر البليار وصقلية ومالطا وإيطاليا وإسبانيا، سرعان ما تأقلموا بفطرتهم البدائية مع الطبيعة والثقافات وأنماط الحياة شبه الإفريقية، واندمجوا بسلاسة في المجتمع، وشكَّل وصولهم مساهمةً مهمةً من الناحية الفسيولوجية والنفسية في تكوين جنس

بشري جديد، وأكَّد أنه على رغم اختلاف أصول الأجانب، إلا أنَّ قانون 1886 الذي جنَّس الأجانب وأبناءهم، ساعدهم على الاستقرار في الجزائر وأدركوا أنه من الصعب عليهم المغادرة.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ هؤلاء المستوطنين رغم تباين أصولهم، لم يظهر فيهم أي انقسام، بل على العكس نشأ سند قوي للوطنية المحلية وشعر هؤلاء المستوطنون بأنهم جزائريون، وهو ما جعل الحكومة تقرر التنظيم بشكل جيد من خلال إقرار الخدمة العسكرية الإلزامية وتنظيم التعليم، سواء كان تعليماً ابتدائياً أو ثانوياً أو حتى جامعياً. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 22)

كما أنَّ هذا التنوع الذي اعتمدته فرنسا لترسيخ الاستيطان كان بهدف زيادة عددهم، خاصةً بعد اعتمادها على أسلوب الامتياز (القفازات الصفراء)، وأسلوب القرى الاستعمارية التي تبنيها الإدارة الفرنسية من خلال تخصيص الأرض ومنحها لصغار المستوطنين الذين تختارهم. ورغم تباين عدد هؤلاء القادمين إلى الجزائر –كما قال المؤلف– من سنة إلى أخرى وتعرضهم للآفات والأوبئة، إلا أنَّهم ساهموا في خلق جنس بشري جديد، هو الجنس الأوروبي في شمال إفريقيا، وأنَّ هذا الخلق ساهم في حل المشكلة برمتها، لأنَّه ساهم في ترسيخ السلالة الأوروبية في الجزائر. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 24.26)

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ تواجد هذه العناصر الأوروبية في مختلف مدن الجزائر ساهم في تحقيق متطلبات السُّكَّان وحاجياتهم، ومثال ذلك نذكر «**المطحنة الأوروبية التي تم إنشاؤها في «السواقي Souagui (مدينة جنوب شرق ولاية المدية) بجوار السوق، تعمل حصرياً لصالح السُّكَّان الأهالي وتحقق مبيعات جيدة، ويمكن تفسير ذلك بسهولة؛ فمساعدوها الضمنيون هم جميع نساء البلد الملزمات بطحن دقيق اليوم التالي كل ليلة، هنا نلمس عملياً التطور البطيء للغاية، وإن كان حقيقياً في الحياة الاقتصادية وبالتالي في العقلية البربرية**». (Gautier, Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, p. 259)

لذلك يؤكد دراستنا إلى نتيجة مفادها أنَّ المستعمر الفرنسي لا يحمل تجاه السُّكَّان الأهالي غطرسة الأنجلو ساكسوني، ولا يحمل تجاه المسلمين تحيزات الإسباني، ففي ظل الزخم الاقتصادي يلعب

المستعمر دور المدرب تجاه السُّكَّان الأهالي حتى دون قصد، فمن خلال المنافسة وتضارب المصالح، تغيَّر وضع السُّكَّان الأهالي نحو الأفضل. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 33)

فاستقرار المستوطنين وتطور عددهم في الجزائر، حسب رأي «غوتييه»، سيساهم في رقيها وازدهارها، كما ساهم الغزو الأوروبي (الحضارة الأوروبية) لقارتي أمريكا وإفريقيا؛ لأن الظاهرة الاستعمارية مرتبطة بشكل كبير بعدد الأوروبيين الموجودين في البلد المراد استعماره. كما أن تطور عدد المستوطنين في منطقة إفريقيا السوداء –كما سماها المؤلف– جعل الإدارة الفرنسية تعقد العزم على ربط مناطقها الاستعمارية وتكوين إمبراطورية فرنسية في إفريقيا، فبعد أن كانت مقسمة بسبب الصحراء، أصبحت ذات وحدة جغرافية بسبب ظهور السيارات التي مكنت الفرنسيين من قطع هذه المنطقة في 4 أيام. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 12)

علاوة على ذلك، بيَّن «غوتييه» أنَّ دخول العناصر الأجنبية الأوروبية إلى الجزائر كان له أثر كبير في تطوير العديد من المناطق، ومن أبرز هذه المناطق التي سعى المؤلف إلى تبيان دور الأوروبيين في تحسينها واستغلالها منطقة سهل متيجة؛ حيث لاحظنا أنَّه خصَّص لها دراسة مفصَّلة، وبالتحديد مستوطنة «بوفاريك» التي اعتبرها نموذج الإرادة الأوروبية التي لا تُقهر، حيث ذكر أنَّ المنطقة كانت مليئة بالمستنقعات ومعروفة بكثرة الأوبئة الفتاكة، لكن المستوطنين الأوروبيين استطاعوا استصلاح هذه المنطقة وجعلها مركزاً هامّاً للاقتصاد الفرنسي بعد إدخال أصناف زراعية جديدة ملائمة لمناخ المنطقة، كما أشار أيضاً إلى ما قام به هؤلاء المستوطنون في تطوير المنطقة المحصورة بين «سعيدة» و«تيارت» التي كانت خالية من الحياة، ولا توجد بها الكثير من طرق المواصلات إلاَّ عبر «سيدي بلعباس» أو «وهران»، رغم أنَّها غنية بالغابات الصغيرة وتنتشر فيها الطرائد خاصَّة الحجل، وهي عوامل مواتية جدّاً للاستعمار والاستغلال الأوروبي؛ لأنَّها قبل مجيء الاستعمار الفرنسي لم تكن لها أهمية تذكر. (Gautier, La Meseta sud-oranaise, 1909, p. 339)

وليبين لنا أهمية الاستقرار الأوروبي في الجزائر، ربط المؤلف بشكل مباشر بين زيادة عدد الأوروبيين وبين رفاهية الجزائريين وتحضرهم، من خلال تحقيق الاندماج الفعلي بين هذين العنصرين، حيث

أشار في حديثه عن سُكَّان الجزائر الذين عرفوا انخفاضاً كبيراً بين 1830 و1872، بسبب سياسة المملكة العربية التي تركت الجزائريين معزولين عن الأوروبيين، لكن انطلاق الاستعمار الأوروبي الحقيقي سنة 1872 ساهم في ارتفاع عدد السُّكَّان الأهالي، وهو ما يشيد بالاستعمار وإنجازاته، خاصَّة في توفير الموارد الغذائية؛ فالمستوطن الأوروبي هيأ دون قصد الظروف الاقتصادية التي سمحت بزيادة عدد السُّكَّان الأهالي. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 248)

ففي مناقشته لقانون كريميو بيَّن كيف انتقل اليهود بسلاسة من كونهم أهالي إلى مواطنين فرنسيين، بفضل تقبلهم للقوانين الفرنسية، واندماجهم في المجتمع الفرنسي، حيث قال: «**كان هذا القرار حاسماً فيما يتعلق بالعنصر اليهودي، تبنى يهود الجزائر اللغة والعادات والجنسية الفرنسية، ففي الإحصاءات منذ مرسوم كريميو 1871 يظهرون كفرنسيين في الحياة اليومية العادية مع اختلافات طفيفة بالطبع، يظهرون كفرنسيين ويندمجون في المجتمع الفرنسي بشكل كامل قدر الإمكان، ولكن لسوء الحظ فإنَّ بقية السُّكَّان الأهالي، باستثناء عدد قليل من البرجوازيين المسلمين، لم يتبعوا المثال اليهودي على الإطلاق**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 33).

فالمؤلف يرى أنَّ تقبُّل اليهود للجنسية الفرنسية وحصولهم على كامل الحقوق كباقي المستوطنين هو ما جعلهم يحققون كل حقوقهم ويصبحوا مواطنين فرنسيين، ولو اتَّبع الجزائريون ما قام به اليهود وقبلوا القوانين الفرنسية لأصبحوا مواطنين فرنسيين هم كذلك، لكنهم آثروا الفوضى وتعميم غضبهم على صدور هذا القانون. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 26)

ومن بين النماذج التي حرص نموذج دراستنا على تبيان تأثرها الكبير بالأوروبيين، إشارته المستمرة إلى سهولة الاتصال التي نشأت بين الفرنسيين من جهة وبين سكان منطقة القبائل من جهة ثانية، حيث قال في حديثه عن سكان القبائل بأنَّهم يتمتعون بقدر كبير من الوداعة السياسية، رغم مناعتهم ضد الاحتلال الأجنبي، ويلجؤون إلى شراء الأراضي من المستوطنين الأوروبيين، حتى أصبحت القرى في هذه المنطقة فرنسية بالاسم فقط، وذكر أنَّ العنصر القبائلي متوافق مع نظام وازدهار دولة

منظمة، دولة غربية كالدولة الرومانية والفرنسية، «**فالقبائل الذين يعيشون في الجبال الرطبة هم الأقرب إلى غرائز الفلاحين الغربيين، وهم يتمتعون بغرائز عسكرية، أي بروح الجنود؛ فهم يعدون أفضل بيئة تجنيد في شمال إفريقيا، فلطالما تألَّف الرماة الجزائريون في معظمهم من قدامى المحاربين القبائليين**». (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, p. 126)

وليدافع «غوتييه» عن الاحتلال الفرنسي وسياسته في الجزائر، ذكر أنَّ الإدارة الفرنسية عملت بكل جهدها لتحقيق الاندماج بين المسلمين والمستوطنين، حيث اهتمت بالصحة الجسدية والنظافة والمساعدة العامة، وقامت ببناء المستوصفات والمستشفيات والمدن والملاجئ، ودور الأيتام ومنظمات إغاثة متعددة، كما أعلنت الحكومة الجزائرية تخصيص 70 مليون من ميزانيتها المقدرة بمليار للاهتمام بالنظافة، كما قامت الإدارة الفرنسية بتنظيم جمعيات أهلية لصناديق الادخار والقروض المتبادلة، وهذا بهدف شن الحرب على المرابين الأشرار، الذين يُعْتَبَرُونَ إرثاً من الماضي الشرقي، وأكَّد على أنَّ مختلف المدارس الأوروبية مفتوحة أمام السُّكَّان الأهالي، كما فتحت مدارس أخرى خاصَّة بالسُّكَّان الأهالي. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 34).

وأشار إلى أنَّ الإدارة الفرنسية في الجزائر لم تتوانَ في مساعدة رعاياها من خلال تخصيص مبلغ 3 ملايين سنوياً لحامياتها، لإنفاقها في أي مكان، وهو ما ساهم في انتقال الجزائر من نظام التجارة بالمقايضة (سلعة بسلعة)، إلى نظام التجارة الدائم وظهور فروع للشركات الكبرى كشركة غرداية، وهو ما ساهم في ظهور رأس المال الأجنبي وظهور محاصيل جديدة لتلبية حاجيات الحامية من الغذاء، خاصَّة الأعلاف والحبوب. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 169-170)

ومن أجل ضمان تحقيق الاندماج الفعلي، أشار «غوتييه» إلى جملة الجهود التي قامت بها إدارة الاحتلال الفرنسي من أجل تنظيم الحالة المدنية لمسلمي الجزائر، وهذا من خلال ابتكار قانون الأحوال الشخصية وتحديد الألقاب لكلِّ عائلة، فبعد أن كان الجزائريون يحملون أسماءهم وأسماء آبائهم، وهو وضع لا يطاق خاصَّة لجباية الضرائب ومكتب التجنيد والشرطة ومكاتب البريد وغيرها من الخدمات العامة، فالعائلة المسلمة حسب رأي «غوتييه» خُلقت للأب وحده وهي من نصيبه طوال حياته، وإذا رحل الأب

فإنَّ العائلة تزول برحيله، وهذا لأنَّ الأسرة المسلمة ليست أبداً «عائلة فلان»، بل هي «حريم فلان»، فكيف يكون لها اسم وهي لا وجود لها على الأرض؟

ومن هذا المنطلق، فإنَّ وجود لقب لكلِّ عائلة يثبت انتماءها لها، ويحافظ على استمراريتها حتى في حالة وفاة الأب. كما بيَّن أنَّ ابتكار نظام الألقاب هو عمل يساهم في تحرير النساء المسلمات المنعزلات والمستضعفات؛ لأنَّ تحريرهن واجب إنساني وقاعدة أساسية للتقدم، مثل حركات الرأي التي تنتشر في أوروبا الغربية. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, pp. 811-812)

فغياب الألقاب في العائلات الجزائرية نتج عنه انتشار الفوضى، نتيجة تقاعس الجزائريين في تسجيل أبنائهم في سجلات الحالة المدنية، لأنهم -حسب رأيه- شعب يحب الفوضى ولا يحب النظام، ولذلك عَمِدَ «غوتييه» من أجل إثبات رأيه هذا إلى إيراد قصة لرجل جزائري ذهب لتسجيل عقد زواج ابنته، لكنه نسي أن يسجلها عند ميلادها، فاستغل ميلاد ابنة أخرى له للذهاب إلى البلدية لتسجيل الابنتين معاً في نفس اليوم، وذكر أنَّ هذا الرجل لما قام بتسجيل ابنته عاد في اليوم الموالي لكي يقوم بكتابة عقد زواج ابنته، فأخبره المشرف الفرنسي أنَّه لا يستطيع تزويج ابنة عمرها يوم، لكن هذا الجزائري أخبر الفرنسي بأنَّ ابنته كبيرة وتستطيع الزواج ويستطيع الأب إحضار ابنته للتأكُّد من ذلك، ليتساءل «غوتييه» هنا عن المنطق الذي يتبعه الجزائريون في اتباع القوانين ويسعى إلى تبيان تخلف الجزائريين، وأنَّهم شعب لا يفقه القانون ولا يعرف النظام. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 208 -214)

فمهمة فرنسا إذاً في الجزائر هي تحرير الجزائريين وتطويرهم من خلال فرض القانون الأوروبي عليهم، والذي اعتبره المؤلف مثالاً للنظام والحضارة عكس النظام العربي القائم على الفوضى والتخريب، ففي منطقة الصحراء التي أصبحت فرنسية تمكنت الإدارة من تحرير الطوارق من فصيلتهم وتحمل مسؤولياتهم، وهو ما يثبت أنَّ ثورة عظيمة على وشك البدء، فمجتمع الطوارق بأكمله لا يزال على حاله، لكن مجرد وجودنا يسلبه مبرر وجوده وأسباب بقائه، لأنَّ مسؤولية صيانة الصحراء ومراقبتها انتقلت إلى أيادٍ أخرى، بينما أصبح الطوارق جنوداً وحراساً ورسلاً سيواصلون الحياة التي عاشوها، وستحل رواتبهم

محل أرباح التسول المسلح وسيصبحون رجالاً مثل الآخرين، وفي غضون سنوات قليلة سينتقلون من العصر الحجري إلى عصر الطيران. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 209).

وهذا الانتقال سيكون سهلاً، لأن عملية غزو هذه الصحراء تمت بأساليب حديثة تماماً ودون إراقة دماء تقريباً، حيث أعاد «الجنرال لابيرين Marie Joseph François Henry Laperrine» تنظيم السرايا وكيفها مع الصحراء، وحرص على عدم استخدامها بعنف، وهو ما سمح بترويض سادة الصحراء، فقد روضت فرنسا الوحش العظيم من خلال الاتصال والاعتياد والألفة، وهي مهمة بسيطة تمت بشكل مذهل. (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931, p. 13)

وكنتيجة لسعي فرنسا الدؤوب إلى دمج الجزائريين، بيّن لنا المؤلف أنَّه بمجرد «**تجسّد خطر الحرب عام 1914، وكان من الصعب تخيّل اختبار أشد جدية لصلابة إفريقيا الفرنسية، لم يتزحزح التكتل، ولم يظهر أي شرخ بين هذين العنصرين الأوروبي والأهلي اللذين قاتلا جنباً إلى جنب على الجبهة بشجاعة متساوية**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 39)

وهو ما يثبت أنَّ شعور الجزائريين تجاه فرنسا قد توطد، وأنَّهم يشعرون بالارتباط الوثيق معها، لأن مشاركتهم في الحرب تبرز مدى استجابتهم لفرنسا، بالنظر لما قدَّمته للجزائريين من خدمات، ففرنسا كانت تعرف أنَّ الأهالي سيشعرون بالإهانة في حالة استبعادهم من المشاركة في الحرب إلى جانبها، وهو ما يثبت تحسن العلاقات بين الجزائريين والفرنسيين وتوطيداً فعلياً لفكرة دمج الشعبين في مجتمع واحد. (Gautier, Nomad and Sedentary folks of Northern Africa, 1921, p. 15). وهو التوجه الذي أثبته «غوتييه» في قوله: «**لأول مرة قتال أبناء العرقين جنباً إلى جنب بنفس الصفة، ورتبوا في نفس التجنيد، واندمجوا في صفوف نفس الأفواج، ولا يمكن التمييز بينهم تحت نفس الزي العسكري في حرب منتصرة، ويا لها من حرب لقد شكلت رابطاً قوياً للغاية في كلا المعسكرين**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 253)

وهو الاندماج الذي تحقق في بعض المناطق، خاصةً في المدن التي تضاعف عدد سكانها ثلاث مرات خلال ستين عامًا، بما يتناسب مع وسائل الغذاء الجديدة كليًا التي وفّرها لهم الاستعمار، وهو ما يُثبت — في نظره — التحرر الشامل لهؤلاء السكان نحو الحياة من خلال الاستعمار. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 260-261)

كما أنَّ الاستعمار هو الذي أسّس صناعةَ المناجم، والتي ساهمت بشكل كبير في الزخم الاقتصادي للجزائر، انطلاقًا من ضخامة الثروات، مثل الفوسفات والحديد، بالإضافة إلى مناجم الرصاص والزنك. وهي ثروات لم يتم استغلالها منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى الاحتلال الفرنسي. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 17)

فالاحتلال الفرنسي للجزائر، من خلال ما ذكره «إميل فليكس غوتييه»، يملك ما يمكن تسميته بضوابط الضمير؛ حيث يقول: «**لقد أنشأنا، بشكل لا يرضينا، حق الأقوى كأساس لهيمنتنا، لأن الأمر يتعلق بالوفاء بمسؤوليتنا، والقيام بعمل ذي معنى وديمومة، وبناء المغرب لأول مرة... فنحن نلعب دوراً لطالما لعبه شخص ما على مدى ثلاثة آلاف عام، وسيلعبه غداً شخص آخر إن لم نكن نحن؛ فهذا البلد شريك أبدي لم يستطع دوماً الاستغناء عن سيد، ولم يسبق أن وجدنا واحداً، ولم يتمكن الغزاة هنا قط من توحيد شعب واحد مع المهزومين ولا مرة واحدة خلال ثلاثة آلاف عام**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 27-28)

ففرنسا، باعتبارها خليفة لروما، لم تسر على نفس منوالها فحسب، بل العكس من ذلك؛ قامت باحتلال هذه المنطقة بشكل كامل رغم وجود معارضة من طرف السُّكَّان؛ لأنها بفضل قوتها وتفوقها الحضاري على الجزائريين استطاعت فرض سيطرتها على المنطقة وتطويرها وفق ما يخدم هدفها الأساس، وهو تحقيق تنمية شاملة للجزائر وسكانها. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 212).

غير أنَّ هذه المعارضة سرعان ما زالت بفضل مساعي الفرنسيين في التقرب من الجزائريين والعمل على تسيير شؤونهم، بما يتوافق مع المصلحة العامة للدولة واقتصادها، وهذا الاندماج قد تم بالفعل؛ لأن حكومة فرنسا الغربية أقرب إلى هذا الفلاح نتيجة التفاهم الكبير بينهما. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 344-345)، يقول «غوتييه»: «**القبائليون الذين تُحترم عاداتهم اليوم، يتقبلون الإدارة والشرطة الفرنسية دون صعوبة، إنَّهم فلاحون يحبون الأرض ويؤمنون بالملكية الخاصة التي لا تنفصل عن النظام العام، كما أنَّهم يلعبون دوراً كبيراً في الحياة العامة وفي التنمية الاقتصادية الفرنسية، ليس فقط من خلال بيع منتجاتهم من زيت الزيتون والتين المجفف، بل أيضاً من خلال الهجرة المؤقتة للباعة المتجولين والعمال، حيث تم توظيف العديد منهم في المصانع الفرنسية؛ كمصانع المطاط ومصانع المعادن**». (Gautier, Genséric roi des Vandales, 1932, p. 124)

ولكي يبين صحة وجهة نظره، عمد «غوتييه» إلى إعطائنا مثالاً عن الاندماج الذي حصل بين الجزائريين والفرنسيين، حيث ذكر أنَّ «قبيلة الشعانبة» بفضل اتصالهم القديم من موطنهم بالهيمنة الفرنسية، وفروا إلى حد كبير كوادر قوات المهارى الفرنسية، والتي ساهمت «**في إعادة السلام إلى كامل الصحراء الجزائرية في الـ 20 عاماً الماضية، أمَّا بقية القبائل الذين تركوا لشأنهم الخاص، ولم يساهموا بشيء مع القوات الفرنسية فلم يتمكنوا من تحقيق شيء، بل ظلوا محصورين لقرون في سفوح الجبال**». (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 208).

فالاحتلال العسكري الأوروبي عندما يستقر في منطقة محددة يجلب تعويضات كبيرة، حيث أصبحت الصحراء تعتمد في عيشها على موارد الحاميات الفرنسية، وهذه الحقيقة الاقتصادية ساهمت بشكل كبير في تحقيق الاستقرار السياسي للبلاد، وأدَّت إلى ظهور الصناعة الأوروبية التي تدخَّلت في بعض المناطق بزرع بذور جديدة؛ ففي واحات «اغرار السفلى Bas-Igharghar» تضاعفت الآبار ومنحت زراعة التمور دفعة جديدة، عززها الارتفاع العام في أسعار المواد الغذائية، وفي «القنادسة» على الحدود بين المغرب والجزائر يعمل منجم الفحم الصغير منذ عدة سنوات لخلق توازن بين الإنتاج والاستهلاك من أجل ضمان استمرار الحركة الاقتصادية. (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 222)

ففرص الصحراء الكبرى تتسع بشكل كبير؛ لأنَّها تقع بين منطقتين شاسعتين متناقضتين بشدة، تحتاج إحداهما الأخرى وتنجذب إحداهما للأخرى بشدة، فمن جهة مركز التجمعات البشرية المتحضرة في أوروبا الغربية، ومن جهة أخرى المناطق الاستوائية الإفريقية بثرواتها الزراعية غير المستغلة، «**وتشعر أوروبا بعد الحرب العالمية برغبة أشد في استبدال سلعها المصنعة بالغذاء، وبالتأكيد يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار الاحتياجات الإبداعية لمناظر طبيعية جديدة في عصر السياحة الجماعية، فأوروبا متعطشة لمناطقها الاستوائية التي لطالما انفصلت عنها بعقبة الصحراء الكبرى، لذا يجب إزالة هذه العقبة، لأنَّها ضرورة ملحة من أجل أن تبدأ الصحراء فصلاً جديداً في تاريخها**». (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 227)

إذ يرى «غوتييه» أن تحقيق سياسة الإدماج الكامل بين الفرنسيين والجزائريين لا يكون إلا بتحقيق مزيد من الهيمنة الأوروبية على دواليب الحكم وفرض النظام والقانون على الجزائريين، لذلك فالاحتلال الفرنسي في نظره نعمة كبيرة حلت على المنطقة وعززت أواصر الترابط بين سكانها، كما أن سياسة الإدماج التي تم تعميمها على مختلف المناطق بعد تعميم نظام الحكم المدني سمحت بترقية استغلال ثروات المنطقة، هذا الاستغلال دُعم بسياسة أخرى هي سياسة مصادرة الأراضي، والتي حاول نموذج دراستنا الدفاع عنها في مؤلفاته، وهو ما سنبينه فيما يلي.

2- 2 – دعمه لسياسة مصادرة الأراضي والتنصير

باعتبار أنَّ «غوتييه» دافع عن سياسة الاستيطان الفرنسي والأوروبي في الجزائر، فلن يختلف موقفه في سياسة مصادرة الأراضي؛ وذلك لأن دعم زيادة عدد الأوروبيين المستقرين في الجزائر سيؤدي لا محالة إلى زيادة حجم الأراضي المصادرة من الجزائريين، وسنبرز فيما يلي كيف دافع عن هذه السياسة.

فنجده تارةً يؤكد على أنَّ المناطق التي يستولي عليها الفرنسيون ليست ملكاً للجزائريين، بل هي أراضٍ جرداء أو عبارة عن أدغال لا يقطنها أحد، حيث يقول: «**في هضبة وهران الجنوبية يحتفظ الاستعمار باحتياطي كبير من الأراضي للاستيلاء عليها، ليس من السُّكَّان الأصليين، بل من الغابات والأدغال**». (Gautier, La Meseta sud-oranaise, 1909, p. 340).

كما بيَّن أنَّ فرنسا لم تقم بنزع أراضي الجزائريين، بل عمدت إلى استصلاح الأراضي التي لم تشكّل أي أهمية بالنسبة للجزائريين. فمثلاً منطقة «متيجة»، وبالتحديد منطقة «بوفاريك»، كانت عبارة عن مستنقعات لا فائدة منها، فقامت فرنسا باستصلاحها وغرسها بمختلف المحاصيل، وهو ما يؤكد أنَّ استقرار الأوروبيين في هذه المنطقة ومنحهم أراضيها المصادرة كان له الأثر الكبير في ازدهار المنطقة وتحسّنها، وبذلك يتضح «**وجود رابط بين ازدهار المستعمرين وازدهار السُّكَّان الأهالي**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 8)

هذا الازدهار هو ما سيسمح بتطور الزراعة في الجزائر بفضل إدخال الفرنسيين لأنواع جديدة كالقمح الليّن والشوفان والذرة، بالإضافة إلى القمح والشعير، كما ساهموا في إدخال المحراث الكبير للحرث العميق بدل المحراث الصغير ذي المشقة الخشبية، الذي يكشط التربة فقط، كما أدخل الاستعمار استخدام الأسمدة الطبيعية والكيميائية. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 45). تسعى الإدارة الفرنسية في الجزائر إلى تنظيم أمور الجزائريين، خاصة في ملكية الأرض، من خلال مختلف القوانين الصادرة في هذا المجال، خاصة قانون 1863 وقانون 1873، بالإضافة إلى قانون 1887، ولا تسعى بأي شكل من الأشكال إلى انتزاع هذه الأرض من ملاكها الحقيقيين. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, pp. 208 -214)

وفي إطار دفاع «غوتييه» عن حجم الأراضي المصادرة، عمل على نفي تسبُّب زيادة الأراضي التي استولت عليها الإدارة الفرنسية من الفلاحين الجزائريين في انتشار المجاعة، خاصَّةً مجاعة سنة 1868 ومجاعة سنة 1921، حيث ذكر أنَّ سبب المجاعتين يعود بالدرجة الأولى إلى الأخطاء التي قام بها المسؤولون المحليون الصغار في البلديات المختلطة والشواش وحرس الريف؛ لأنَّهم هم من يقدِّمون أرقاماً خاطئة عن حجم الإنتاج الزراعي، وحجم حاجيات السُّكَّان من المعونات التي تقدمها الإدارة الفرنسية، وهذا لأن هؤلاء المساعدين هم شرقيون ولديهم لامبالاة فطرية بالدقة، فهم من يقدِّم الأرقام لسكرتير البلدية المكلف بجمع المعلومات، ولديه أيضاً عدد لا حصر له من المهام الأخرى التي يتعين عليه القيام بها. (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, p. 626)

ومن أجل تحديد أسباب مجاعة سنة 1920 يقول «غوتييه»: «**ظهر الخطر في العام الماضي عام 1920 مع نهاية الربيع، وعندما حاول الأطباء الاستشاريون تحديد أصل المشكلة شخَّصوا أولاً خطأً إحصائياً إدارياً خلال الشتاء؛ فالحكومة العامة، من خلال وثوقها من دقة المعلومات المتوفرة لديها عن حجم المخزونات، أذنت بتصدير الحبوب بناءً على طلب العاصمة التي كانت تعاني من عجز في الميزانية، وعندما أُعلن عن قلة المحصول أدركوا فجأة أنَّ المحصول الموجود غير كاف**». (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, p. 625)

كما أنَّ السبب الرئيس وراء هذه المجاعات، حسب رأي المؤلف، يعود بالدرجة الأولى إلى التصرفات التي تقوم بها بعض العائلات الجزائرية لتخزين الحبوب؛ فهم يلجؤون إلى حفر خنادق وسط الحقول لتوفير هذه الحبوب لفصل الشتاء، لكنهم ينسون مكان وجودها. ومن الأمثلة التي استعان بها المؤلف لتثبيت وجهة نظره، ذكر حكاية لرجل جزائري لديه العديد من الأبناء، قام بتخزين الحبوب في خندق خاص، لكنه لم يخبر أبناءه بمكان خندق الحبوب، وعند موته يجدون صعوبة في العثور عليه، ولا يجدون حلاً لهذه المشكلة إلا من خلال وضع القمح على سرج الحمار واتباعه إلى المكان الذي اعتاد الذهاب إليه مع والدهم. (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, p. 627).

وبالتالي فالفقر الذي مسَّ الجزائريين ليس مرتبطاً بأي شكل من الأشكال بما تنتزعه الإدارة الفرنسية من أراضٍ، بل يعود سبب فقرهم وانتشار المجاعة فيهم إلى انتشار سوء التقدير فيهم، فهم الذين يمنحون الإدارة الفرنسية إحصائيات الإنتاج الزراعي، وهم الذين يقومون بتخزين الحبوب في مخازن لا يعرف مكانها إلا حميرهم التي كانوا يحملون عليها الحبوب، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ العائلات الجزائرية تعودت على الكسل وعدم بذل أي جهد في العمل والفلاحة نتيجة اعتمادهم المطلق على المساعدات المالية التي كانت تقدمها الإدارة الفرنسية لعائلات الجنود المشاركين في الحرب العالمية الأولى.

وإلى جانب تلك العوامل المتعلقة بالموظفين الصغار الجزائريين، يضيف «غوتييه» عاملاً آخر للمجاعة سنة 1868 و1921، وهو العامل الطبيعي المرتبط بالجفاف؛ بحيث يذكر أنَّ الجزائر تعرَّضت إلى مشكلة الجفاف التي عصفت بالمنتوج الفلاحي، وساهمت في تراجعه، وبذلك انتشر الجوع والفقر وسط السُّكَّان الذين تلقُّوا إعانات مالية خلال الحرب وكانوا يعيشون عليها، ولم يعتادوا الجهد المبذول،

وإلغاء الإعانة جعلهم يشعرون بالعجز، حيث يقول في هذا الصدد: «**السبب الجذري لكلِّ شيء هو قلة الأمطار عام 1920، لم يكن العام ككل مطابقاً للمعايير العالمية، على سبيل المثال أظهر مقياس الأمطار في «لافيجري، (المحمدية حالياً)» بالقرب من وادي الجامع إجمالياً 500 ملم لعام 1920، بدلاً من متوسط 600 ملم للسنوات السابقة، علاوة على ذلك كانت هذه الأمطار موزعة بشكل سيء خلال أشهر السنة**». (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, pp. 632-633)

ولكي يوضِّح لنا «غوتييه» أكثر جهود الفرنسيين في التكفل بالجزائريين، ذكر أنَّ الإدارة الفرنسية عملت على محاربة المضاربين في أسعار المواد الغذائية، كما قامت بالتكفل بالأيتام الذين فقدوا أهاليهم إبَّان هذه المجاعات، حيث أشار إلى أنَّ «الكاردينال لافيجري» قام بعمل إنساني بالغ الأهمية حينما ساهم في إنقاذ أبناء الجزائريين من الموت المحقق بالجوع؛ لأنَّه تكفَّل بهؤلاء الأيتام، حيث قال: «**كانت مجاعة عام 1868 مشهورة، ولا يزال اسم الكاردينال لافيجري مرتبطاً بها؛ لأنَّه أنقذ الأيتام واستقبلهم وأواهم، وحاول معهم تجربة استعمارية غريبة**». (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, p. 624)

فالمجاعة حسب رأي «غوتييه» كشفت عن الوجه الحقيقي لإسلام الجزائريين السطحي، لأنهم بمجرد حدوثها – المجاعة – يتبرؤون من دينهم ويعتنقون المسيحية، حيث يقول: «**بدأ اعتناق العرب للمسيحية تحديداً سنة 1867، خلال فترة عصيبة من المجاعات والأوبئة، حيث كان أطفال السكان الأهالي من دون آباء ولا أمهات ولا عائلات، مهجورين تماماً يموتون في الشوارع والحقول، فتكفل بهم لافيجري وأنقذهم وعمدهم ورباهم وأقامهم في قريتين بالشلف ولا يزال أحفادهم هناك**». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 140)

وفي مجال سياسة التنصير نجد أن نموذج دراستنا ركَّز في حديثه عن التنصير كثيراً على الدور الذي قام به الأب «الأب دوفوكو Le Père de Foucauld»، معتبراً إياه صاحب الفضل الكبير في الصحراء من خلال مجهوداته في بناء دير عبادة مسيحي في كل من «بني عباس» و«تمنراست»

و«الهقار»، لأنَّ هذا الأب كان ينفق ما لديه من خير على الطوارق ويساهم بماله الخاص في وعظ السُّكَّان وإرشادهم، رغم أنَّ هؤلاء السُّكَّان البدائيين هم من قتلوه. (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931, pp. 61-63)

إذن، «إميل فيليكس غوتيه» يعتبر أنَّ فرنسا لم تقم بانتزاع الأراضي من الجزائريين، ولم تتسبب في انتشار المجاعة بينهم، بل العكس؛ لأنَّها عملت على استغلال الأراضي المهجورة والأدغال التي لا يملكها أحد، فقامت باستصلاحها ومنحها للمستوطنين، حيث قال: «**لم تمس الإدارة الفرنسية أساس الملكية، وبالتالي حقوق البدو، باستثناء حق واحد، وهو الأكثر حسداً بمرونته، وهو حق الأقوى؛ فالواحات التي تحتلها الحاميات الفرنسية بلدان يحتل ضواحيها البدو الرحل، فالشرطة والنظام والسلام يرسى بطبيعة الحال لصالح الأضعف**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 168)

وبالإضافة إلى ذلك، يزعم نموذج دراستنا أنَّ فرنسا عملت على رعاية ضحايا المجاعات التي ألمت بالجزائريين ببناء ملاجئ للأيتام، وهو ما يثبت لنا دعمه المباشر لسياسة التنصير التي تنتهجها فرنسا، وهذا باعتبار أنَّه خصَّص جزءاً كبيراً من مؤلفاته للتطرق للأعمال التي قام بها «الأب دي فوكو» في سبيل تنصير القبائل الصحراوية، معتبراً إياه بطلاً من أبطال الاحتلال الفرنسي. (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931)

بناءً على ما تقدم، يؤكد نموذج دراستنا في العديد من مؤلفاته أن الهيمنة الفرنسية في الجزائر لم تكن سوى استعادة لنفوذ الكنيسة الرومانية في شمال إفريقيا، زاعماً أنَّ إسلام الجزائريين لا يتعدى كونه ممارسات شكلية. كما يرى أن الإدارة الفرنسية لم تبذل جهداً كبيراً في هذا الصدد؛ نظراً لسرعة تقبل المسيحية، لا سيما إبان فترات المجاعة.

ووفقا لهذا المنظور، فإنَّ السياسات التي انتهجتها الإدارة الفرنسية، من مصادرة للأراضي إلى محاولات التنصير، كانت تخدم مصالح الجزائريين في المقام الأول. وبناءً عليه، يخلص النموذج إلى ضرورة

تكثيف فرنسا لجهودها لتحقيق غاياتها الاستعمارية في تطوير المجتمع الجزائري، وهو ما لن يتأتى –من وجهة نظره– إلا بدعم سياسة 'الفرنسة'، التي سنتناولها بالتفصيل مع توضيح دور نموذج دراستنا في الدفاع عنها.

2– 3– مساندته للسياسة الفرنسة

لم يكتفِ «غوتييه» بدعمه المباشر لسياسة الإدماج ومصادرة الأراضي فقط، بل دافع أيضاً عن سياسة الفرنسة، التي رأى بأنها الوسيلة التي ستسهل تحقيق مساعي الفرنسيين في الجزائر، فكيف نظر لهذه السياسة وما هي السبل التي انتهجها للدفاع عنها؟ وهي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عليها في هذا المحور.

يرى نموذج دراستنا أنَّ فرص انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر قوية، بالنظر لكونها اللغة الأكثر انتشاراً في الجزائر، لدرجة تأكيده حتمية تعويضها للغة العربية، حيث قال: «**بقدر ما قضت العربية على البربرية فإنَّ الفرنسية لديها فرصة جيدة لمحو العربية... في وهران يحقق الأجنبي (المستعمر الأوروبي) أعظم نجاحاته، فهو يطرد السُّكَّان الأهالي ولا يستوعبهم، ولكن في البلديات العاملة بكل طاقتها تتحطم الأطر الأصلية، وتبدي العناصر المنفصلة مقاومة أقل**». (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 266)

وحول إدخال السلطة الاستعمارية لتنظيمات إدارية واقتصادية وثقافية جديدة في الجزائر، يشير «غوتييه» إلى فوائد ذلك، فحسبه فإنَّ رغبة فرنسا ونواياها الطيبة في نشر ثقافتها جعلتها تعمد إلى اتخاذ قرارات مختلفة بإنشاء تنظيمات مختلفة، خاصة المدرسية والمؤسساتية وكل أجهزتها الغربية، وهذه التنظيمات ستكون قوة فعالة وجيدة لا يمكن صنع حياة بدونها؛ لأن ذلك سيؤدي إلى فشل فرنسا أو وقوعها في أخطاء حول طرق إدارتها للجزائر، وهو ما يعني «**أنَّ شمال إفريقيا سيواصل ركوده البربري والشرقي**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, pp. VIII-IX)

ومن جملة الإجراءات التي ركَّز عليها «غوتييه» نذكر إشارته لما قامت به فرنسا في منطقة القبائل لتنظيم هذه القوانين في تشريعات مكتوبة، وأن كتابتها لم تكن باللغة القبائلية، لأن هذه الأخيرة كما يقول لهجة لم تكتب قط بالعربية، ولا أحد في القبائل يتحدَّث العربية ناهيك عن كتابتها، لذا لم يبق إلاَّ

الفرنسية، لذلك كتب القبائل قوانينهم بالفرنسية؛ لا بالفرنسية الرسمية التي يترجمها مترجم محلف، بل كتب القبائل مستخدمين مواردهم اللغوية الخاصة بالفرنسية اليومية وبمصطلحاتهم العامية. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 35-36).

وهو ما يبين لنا أنَّ الإدارة الفرنسية تظاهرت بالاهتمام بشؤون الجزائريين والسعي إلى تلبية حاجاتهم واحترام قوانينهم من خلال تدوينه في شكل قانون مكتوب تصادق عليه الإدارة الفرنسية، وهو يدعم سياسة الفرنسة من خلال توسيع استعمالها في الجزائر، وإلغاء التعامل بالحروف العربية التي كانت تُكتب بها لهجة سكان القبائل قبل الاحتلال الفرنسي، كما أنَّ هذه السياسة تسعى إلى توسيع التدخل الفرنسي في شؤون السكان وإخضاعهم للقوانين الفرنسية، حيث يذكر المؤلف أنَّ لجوء فرنسا إلى هذه الإجراءات جاء بعد صدور تعليمات من الإدارة العليا الفرنسية في الجزائر، والتي تقضي بتقليل دور الزعماء المحليين. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 35-36)

كما أنَّ المؤلف من خلال هذه التوجهات يدعم الإجراءات التي قامت بها الإدارة الفرنسية في سبيل تعميم اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية التي اعتبرها لا تناسب المستوى الفكري الأوروبي؛ لأنَّها في نظره تحدُّ من مستوى الفكر، عكس اللغة الفرنسية التي اعتبرها لغة العلم والمعرفة، ولتعميم هذه اللغة بارك تعميم انتشار مختلف أنواع المؤسسات التعليمية؛ لأنَّها في نظره الوسيلة المثلى لتعميم الفرنسية وضمان إحلالها محل اللغة العربية، حيث قال: «**الفرنسية بدأت في الانتشار فقد تبناها جميع الإسرائيليين الأهالي، فالشارع أكثر فعالية من المدرسة... إنَّ الالتحاق يؤدي إلى اعتماد الفرنسية في المراسلات التجارية في ظل غياب لغة مراسلات أخرى ممكنة (فالقبائلية غير مكتوبة والعربية غير معروفة)**». (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 265)

إذاً؛ فنموذج دراستنا ومن خلال ما سبق لا يدافع عن الاستعمار الفرنسي للجزائر فحسب، بل يدافع عن استمرار هذه الهيمنة الاستعمارية الفرنسية للجزائر وشمال إفريقيا وحتى المنطقة الغربية للقارة، وأكد على أن وجود فرنسا في هذه المنطقة ضروري لاستمرار السلام والأمن، كما حافظ الاحتلال الروماني

على السلام في شمال إفريقيا، حيث قال: «**بعد قرن من المجازر والبؤس تقدر هذه الشعوب المتنوعة بيضاء كانت أو سوداء في أعماقها فوائد النظام والسلام الذي عجزوا عن تحقيقه لأنفسهم إلى الأبد، والذي حققته فرنسا لهم، وهو ما سينسيهم الماضي البغيض وسيعتادون على السلام، لذا على فرنسا منح هؤلاء البشر شيئاً يفعلونه يغذي خيالهم، ويجب على الفرنسيين قيادة هاتين الكتلتين إلى تحقيق الهيمنة الاقتصادية، وهي مهمة ضخمة تتطلب حماساً أوروبياً كبيراً**». (Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, pp. 290-291)

وأشار إلى أنَّ الجزائر وشمال إفريقيا على العموم محكوم عليها بالخضوع لحاكم أجنبي يسمح لها باستغلال إمكانياتها الحقيقية، حيث قال: «**المغرب محكوم عليه بالموت من الفقر إذا عاش منعزلاً عن نفسه، ولتنمية ثرواته يحتاج إلى رأس مال أجنبي وأسواق، فالمغرب ليس بحاجة للحلفاء أو للفلين أو المحاصيل الصناعية أم المناجم إلاَّ إذا جاء الأجنبي لتنظيم التصدير، فلا أهمية اقتصادية لهذا البلد إلاَّ بشكل تكميلي، فهو لم يعرف الازدهار الكبير إلاَّ في الفترات التي كانت فيها شمال إفريقيا جزءاً من إمبراطورية غربية عظيمة مختلفة تماماً عنها: الإمبراطورية الرومانية أو الفرنسية، وهذه الظروف ممتازة للاستعمار وخاصة في الجزائر**». (Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, pp. 283-284)

فالتقارب الفرنسي الجزائري الذي يسعى الفرنسيون لتحقيقه يخدم بالدرجة الأولى مصالح الجزائريين، ويدربهم -حسب «غوتييه»- على النظام والقانون، وينقلهم من حياة البداوة والتخلف إلى حياة الازدهار، ويسمح لهم بالاطلاع على التحولات الصناعية والفلاحية التي بلغتها فرنسا وأوروبا، وبذلك يخلص إلى أن فرضية استقلال الجزائر غير معقولة. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 11-12)

فآراء نموذج دراستنا تدافع بشدة عن استمرار هيمنة فرنسا على الجزائر، فهو من جهة يثبت الأطماع الفرنسية في احتلال الجزائر قبل سنة 1830 من خلال المشاريع التي وضعتها لذات الغرض؛ خاصَّة مشروع الجاسوس «بوتان Boutin» الذي أقام في الجزائر مدة 68 يوماً من 9 ماي إلى 17 جوان سنة 1808، والَّذي أشرنا له في الفصل الأول من هذه الدراسة بأنَّ غايته كانت إعداد دراسة

عسكرية عن الجزائر وعدد جيش الحملة والمنطقة المناسبة للإنزال، وهو المشروع الذي خلص إلى وضع خطة وخرائط لتحصينات مدينة الجزائر والمكان المناسب لإنزال الحملة وكيفية توزيع القوات الفرنسية والمناطق الواجب اتباعها خلال الزحف نحو مدينة الجزائر. (هلال، 2016، صفحة 40).

3 – دحض أطروحات غوتيه حول حالة الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي

إن المتتبع لمختلف التوجهات التي أوردها «إميل فليكس غوتييه» عن الاحتلال الفرنسي للجزائر ودفاعه المستميت عن سياسته العنصرية ضد المجتمع الجزائري، يثبت لنا أنَّ فرنسا كانت لها أطماع في الجزائر؛ فإرسال الجواسيس يوضِّح لنا أنَّ العلاقات الفرنسية الجزائرية في العهد التركي –رغم أنَّها عرفت تقارباً كبيراً بإبرام معاهدات تجارية واتفاقيات صداقة– إلا أنَّ الفرنسيين لطالما كانوا يسعون إلى الهيمنة على الجزائر بإرسال جواسيس مهمتهم الأساسية معرفة نقاط ضعف الدولة والأماكن المناسبة لاحتلالها.

ولم يكتفِ نموذج دراستنا بإثبات أطماع فرنسا التوسعية في الجزائر من خلال تأكيده على أن مشروع الاحتلال عام 1830م استند إلى تقارير استخباراتية فرنسية، بل كشف أيضاً عن العداء الصليبي الذي تكنّه فرنسا للمسلمين عموماً وللجزائريين خصوصاً. حيث أوضح أنَّ الحملة الفرنسية اتخذت طابعاً صليبياً خالصاً، لأنها مثّلت تحالفاً مقدساً يهدف –وفقاً لادعائهم– إلى القضاء على أعمال القرصنة التي كان يمارسها الأسطول الجزائري في البحر الأبيض المتوسط، وهي الأعمال التي تغاضت عنها أوروبا لقرون. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 175)

وهو ما يثبت لنا هذا الرأي أن «غوتييه» لا يختلف عن غيره من المؤرخين الفرنسيين الذين يتفاخرون بإنجازات فرنسا، ويعتبرونها تمثّل الحلف الأوروبي المقدّس وريثة الرومان في شمال إفريقيا، وأنَّ هدفها الأساس هو القضاء على القرصنة في البحر الأبيض المتوسط.

لكنَّ هذه الادعاءات التي يسعى أغلب المؤرخين الفرنسيين لإثباتها لتبيان شرعية حملة فرنسا لاحتلال الجزائر؛ لأنَّها تسعى لمصالح أوروبا بمحاربة القرصنة، وتسعى أيضاً لمصالح المسيحية؛ لأنَّها حملة تمثّل الحلف المقدس، غير أنَّ أطماع فرنسا لاحتلال الجزائر كانت قديمة باعتبار أنَّها قامت بوضع العديد من المشاريع لاحتلال الجزائر أبرزها مشروع بوتان السابق ذكره، وبالإضافة إلى هذه المشاريع فإنَّ العلاقات الفرنسية الجزائرية كانت كثيراً ما تتوتر بسبب الحملات العسكرية التي وُجِّهت لتحقيق الاحتلال. ومن

بين الحملات العسكرية نذكر الحملات المتتالية التي أرسلها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر كحملة سنة 1682م بقيادة «الأميرال أبرهام ديكسن Abraham Duquesne»، والتي كان قوامها 36 سفينة حربية قامت بقصف مدينة الجزائر وفرض حصار بحري عليها لعدة أشهر، بالإضافة إلى حملة سنة 1688 التي ألحقت أضراراً كبيرة بأسوار مدينة الجزائر وتحصيناتها. (العقاد، 1993، صفحة 43)

ففرنسا لم تدخر أي جهد من أجل تحقيق أطماعها الاستعمارية في الجزائر، والذرائع التي تبناها نموذج بحثنا وغيره من الباحثين الفرنسيين ما هي إلا ذر للرماد في العيون، لأن ما ذكرناه من مخططات سرية في الفصل الأول من الدراسة يثبت لنا قدم مشروع الاحتلال، كما تثبت لنا الحملات التي قادتها فرنسا على الجزائر استمرار العداء بينهم، ومثال ذلك نذكر الحملة التي قادها أخ الإمبراطور الفرنسي «نابليون جيروم» سنة 1805م، والتي كان الهدف منها إجبار داي الجزائر على إطلاق سراح الأسرى الإيطاليين وتثبيت الامتيازات الفرنسية في الجزائر. (العقاد، 1993، الصفحات 45-46)

علاوة على ذلك، نشير كذلك إلى نقطة أساسية في مسألة أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتي تتمثل في رغبة فرنسا القوية في منافسة بريطانيا وإسبانيا والبرتغال؛ لأنهم استطاعوا النجاح في تأسيس إمبراطوريات استعمارية في قارتي آسيا وأمريكا، أما فرنسا فمنيت بخسائر كبيرة بعدما أُجبرت على التخلي عن مستعمراتها بعد تخليها عن كندا سنة 1763 نتيجة هزائم «لويس الخامس عشر»، وما تمخض كذلك عن معاهدة باريس سنة 1814 التي أُجبرت فيها فرنسا على العودة إلى حدود 1792م وتعيين آل بوربون للحكم، حيث لم يبقَ لفرنسا سنة 1830 إلا مجموعة من الجزر الصغيرة في أمريكا الشمالية والوسطى، وجزيرة مدغشقر وجزيرة بوربون (جزيرة في المحيط الهندي تقع شرق جزيرة مدغشقر). (عباس، ليل الاستعمار، 2005، الصفحات 31-32)

وبالتالي، فقد رغب الفرنسيون في الثأر لهذه الهزائم التي جعلتهم يفقدون مكانتهم السياسية والعسكرية كأقوى دولة في أوروبا، وسعوا إلى احتلال الجزائر مستغلين في ذلك حادثة المروحة 29 أفريل 1827 التي أُهين فيها داي الجزائر من قبل القنصل الفرنسي «بيار دوفال Pierre Deval»، لكن الفرنسيين رأوا أن داي الجزائر هو من تطاول على القنصل الفرنسي وأهانه، لذلك وجّهوا حملة عسكرية بقيادة «الجنرال دي بورمون Général de Bourmont» لاحتلال الجزائر.

غير أنَّ الهدف الحقيقي لهذه الحملة وهذا الاحتلال، كما أشرنا سابقاً، هو منافسة القوى الأوروبية التي استطاعت التفوق على الفرنسيين في إنشاء إمبراطوريات استعمارية؛ لذا ومن هذا المنطلق جاءت فكرة احتلال الجزائر، خاصةً بعد تنامي البرجوازية الفرنسية ورغبتهم الملحة في إنشاء مستعمرات تمكّنهم من خلق أسواق جديدة لتصدير سلعهم، ومصدراً مهماً للموارد الطبيعية، ومن جهة أخرى تكون هذه المستعمرات مناطق مفتوحة للجنس الفرنسي والأوروبي على حد سواء. (عباس، ليل الاستعمار، 2005، صفحة 32)

إذاً ومن هذا المنطلق نتساءل عمن كان يمارس القرصنة في البحر الأبيض المتوسط؟ هل هو الأسطول الجزائري أم الأساطيل الفرنسية والأوروبية التي لم توقف هجماتها العسكرية ضد الجزائر؟

فالأسطول الجزائري طيلة العهد العثماني كان يلعب دوراً دفاعياً ضد هذه الهجمات، وبالإضافة إلى ذلك نقول إنَّ الأسطول الجزائري لم يكتف بأداء هذه المهام فقط، حيث تشير المصادر والمراجع إلى أنَّ أسطول الجزائر ساعد الفرنسيين في الكثير من الأحيان، نذكر منها استنجاد فرانسوا الأول خلال سنة 1535م- 1536م بأسطول الجزائر لمواجهة التمرُّد الداخلي في فرنسا، كما ساهم أسطول الجزائر سنة 1708م في نقل القنصل الفرنسي إلى وهران من أجل الالتحاق بمنصبه بعد خوف الفرنسيين من وقوع القنصل في يد أعدائهم. (بوعزيز، الجزائر الحديثة، 2009، الصفحات 174-175)

وهو ما يثبت لنا أنَّ المؤرخين الفرنسيين، ومن بينهم «إميل فليكس غوتييه»، يتذرعون بالقضاء على القرصنة في البحر الأبيض المتوسط لتبرير حملة احتلال الجزائر، فإذا كان توجههم صحيحاً كيف تعاملت فرنسا مع هذا الأسطول طيلة القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر؟ أم أنَّ أسطول الجزائر لم يكن يمارس القرصنة البحرية أثناء تقديمه يد العون للفرنسيين في مختلف أزماتهم الداخلية؟

لذلك نقول إن نموذج دراستنا عمل على تبرير الحملة الفرنسية على الجزائر بإعطائها صبغة الحلف المقدس، والدفاع عن المصالح الأوروبية الفرنسية بمحاربة القرصنة البحرية الجزائرية، كما عمل أيضاً على تبرير جملة الإجراءات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية في الجزائر؛ فالمكاتب العربية التي اعتبرها وسيلة لتحقيق التقارب الفرنسي الجزائري ما هي إلاَّ أداة قمع بالدرجة الأولى، فمنذ إنشائها من طرف «الدوق دي رفيقو Le Duc De Rovigo» سنة 1833م تحت إشراف النقيب « لويس

لاموريسيير Louis Lamoricière» ثم اعتمادها بشكل رسمي عقب صدور مرسوم وزاري سنة 1844م كهمزة وصل مع الجزائريين، تعمل بالدرجة الأولى على إخضاعهم للنفوذ الفرنسي، وجمع المعلومات عنهم خاصةً خلال الثورات الشعبية. (فركوس، 2013، صفحة 12)

كما أنَّ هذه المكاتب لم تعمل على احترام عادات الجزائريين وتقاليدهم وممتلكاتهم، بل العكس من ذلك كان ضباط هذه المكاتب ومساعدوهم يمارسون أقسى أنواع الظلم والتعسف في حق الجزائريين غير المتعاونين مع الإدارة الفرنسية، حيث كانوا يقومون بمراقبة رؤساء القبائل ويرفعون تقارير دورية عن سلوكهم، وهؤلاء الضباط المعينون في المكاتب العربية هم من يشرف على تعيين رؤساء القبائل والتدخل في حل مشاكل السُّكَّان وتسوية ملكية الأراضي من أجل ضمان تهدئة القبائل واستتباب الأمن وضمان حماية مصالح فرنسا الاقتصادية بالدرجة الأولى. (مرجاني، 2019- 2020، الصفحات 61-65)

إذاً، فالمكاتب العربية في ظاهرها، كما يصفها «غوتييه»، جهاز يعمل على التقرب من الجزائريين وحل مشاكلهم وبث السلام والأمن في الجزائر، ولم تتدخل في شؤونهم الشخصية، وساهمت في فرض النظام في كامل المناطق التابعة للإدارة الفرنسية، لكن الغاية الحقيقية لهذه المكاتب تنحصر في التجسس على الجزائريين، ومراقبة تحركاتهم، ومتابعة المشتبه بهم، ومعرفة حجم ممتلكات القبائل حتى يتسنى للفرنسيين فرض الضرائب عليها. (فركوس، 2013، صفحة 18)

أما بالنسبة للسياسة التوسعية الفرنسية في الجزائر وتبريرها بالمهمة الحضارية في الجزائر ومنطقة غرب إفريقيا، فنقول أنَّ «غوتييه» بالنظر لرؤيته للاستعمار الفرنسي، وسعيه الحثيث لإثبات أحقية فرنسا في استعمار الجزائر والمناطق الإفريقية القريبة منها، وهذا التوجه نستشفه من خلال جملة المؤلفات التي خصصها لدراسة المنطقة الصحراوية للجزائر ومنطقة إفريقيا الغربية، حيث وجدنا أن نموذج دراستنا لا يتوانى عن إبراز حجم الإمكانيات الضخمة التي بذلتها فرنسا لاستعمار الصحراء الجزائرية، وهي الإمكانيات التي اعتبر أنها ساهمت في نقل سكان هذه المناطق من العصر الحجري إلى عصر الطائرات. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 209)

كما لاحظنا أنَّ نموذج دراستنا في دراسته للمناطق الصحراوية يركز على محورين أساسيين؛ أولهما التعرف على نمط حياة السُّكَّان ودراسة ذهنيتهم وطريقة تفكيرهم حتى تسهل مهمة التواصل معهم، أمَّا الشق الثاني من دراسته فركز على دراسة الثروات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المنطقة، وإبراز أهمية إنشاء طريق السكك الحديدية العابر للصحراء، فاستعمار الصحراء وإنشاء مختلف الأجهزة الإدارية فيها ليس لخدمة السُّكَّان بقدر ما يخدم مصالح الاقتصاد الفرنسي بتحصيل مزيد من الضرائب واستغلال الثروات الطبيعية الموجودة فيها. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 213-259)

إذاً، حرص «إميل فليكس غوتييه» في آرائه على تلميع صورة الإدارة الفرنسية في الجزائر بأنَّها جاءت لخدمة الجزائريين، لكن الحقيقة غير ذلك، ففرنسا هدفها الأساس خدمة مصالحها الاستعمارية بالدرجة الأولى، فتشجيع الاستيطان الفرنسي في الجزائر لم يكن لتدريب الجزائريين على النظام وتحسين نوعية إنتاجهم الزراعي للقضاء على الجوع والفقر، ولم يعرف الشعب الجزائري ازدهاراً كبيراً من حيث نمط المعيشة ونوعية الإنتاج الزراعي.

بل كان المجتمع الجزائري يُستغل لخدمة مصالح المعمّرين بالدرجة الأولى، خاصَّةً بعد تحول النظام في الجزائر من العسكري إلى المدني سنة 1871، ثم حصول المستعمرين على الاستقلال المالي سنة 1900، وهو ما سمح بدرجة كبيرة بزيادة عدد المستوطنين المتواجدين في الجزائر، حيث تشير الإحصائيات إلى أن حجم الأراضي التي تمت مصادرتها بين سنة 1900 و1920 بلغ حوالي 237 ألف هكتار. (المدني، هذه هي الجزائر، 1956، الصفحات 98-99)

وبالإضافة إلى ذلك، فإنَّ نموذج دراستنا عندما أكَّد على تنوع المناطق التي جاء منها المستوطنون من قارة أوروبا، كفرنسا وإسبانيا وإيطاليا، فهو يثبت لنا أنَّ فرنسا لم تفتح باب الهجرة إلى الجزائر للفرنسيين فقط، بل دعمت الهجرة الأوروبية، خاصَّةً بعد صدور القرار الذي منح الجنسية الفرنسية لكلِّ مولود أوروبي في الجزائر سنة 1889، حيث ارتفع العدد الإجمالي لهؤلاء من 129 ألف فرنسي و115 ألف أوروبي سنة 1881 إلى 562 ألف فرنسي و189 ألف أوروبي سنة 1911. (العقاد، 1993، الصفحات 146-148).

فالاستيطان الفرنسي للجزائر كانت غايته الأساسية التخلص من فائض السُّكَّان في فرنسا والتخلص من المجرمين، الذين كانوا يسببون مشاكل في فرنسا خاصةً وقارة أوروبا عامةً، وهؤلاء المستوطنون لم يبادروا لتحسين وضع الجزائريين بقدر ما زادوهم بؤساً إلى بؤسهم الذي كانوا عليه قبل 1870؛ لأن هؤلاء المستوطنين لم يقبلوا بأي شكل من الأشكال أن يتم إدماج الشعب الجزائري وحصولهم على حقوق مثل المواطن الفرنسي. (عباس، الشاب الجزائري، 2007، صفحة 23)

كما أنَّ تزايد عدد المستوطنين الأجانب غير الفرنسيين لم يكن بالسلاسة التي ذكرها نموذج دراستنا؛ حيث أكَّد أنَّه رغم تنوع أصول المستوطنين، إلاَّ أنَّهم يشعرون برابط قوي يربطهم باعتبار أنَّهم يمثلون فكراً أوروبياً واحداً، بينما تشير مختلف المراجع إلى أنَّ زيادة عدد المستوطنين غير الفرنسيين في الجزائر، رغم أنَّها كانت في البداية محل ترحيب كبير، سرعان ما تغيرت هذه النظرة؛ لأن الفرنسيين رأوا أنَّ زيادة عددهم تشكل خطراً عليهم، فأطلقوا عليها اسم «الخطر الأجنبي».

حيث رأت الإدارة الفرنسية في زيادة عدد الأوروبيين مقابل عدد الفرنسيين أنهم سيشكلون خطراً عليها، خاصَّةً في الانتخابات؛ لأنَّهم بقوا على حالهم، ولم يصبحوا فرنسيين قلباً وقالباً، حيث استمروا في التحدث بلغاتهم الأصلية (الإسبانية – الإيطالية – المالطية – العبرية)، وهو ما يبيّن لنا حجم المغالطات التي عمل «غوتييه» على إيرادها في مؤلفاته بتصوير المستوطنين كشعب واحد يعمل على ازدهار الجزائر، بينما هم خليط من الأجناس تسبَّب في بروز مشاكل اجتماعية كبيرة لدى إدارة الاحتلال الفرنسي للجزائر. (أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954، 2013، الصفحات 189-205)

فسياسة الإدماج التي انتهجتها فرنسا من خلال إصدار «قانون كريميو» وقانون الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين الذي صدر سنة 1882 وقانون التجنيد الإجباري، كلها قوانين تخدم الإدارة الفرنسية؛ فقانون «كريميو» الذي منحت من خلاله فرنسا الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر هدف إلى كسب ود اليهود للفرنسيين، خاصة أنهم يساهمون بشكل كبير في تمويل البنوك الفرنسية، لكن هذا القانون في حد ذاته لقي معارضة كبيرة من طرف فئة كبيرة من اليهود المتدينين، كما عارضه العديد من المستوطنين الفرنسيين، باعتبار أن هذا التجنيس الجماعي لليهود سيسمح لهؤلاء بالسيطرة على مصير فرنسا، لأنهم

كانوا يشكلون 15% من الهيئة الناخبة في وهران، كما أصبح اليهود بعد صدور «قانون كريميو» يسيطرون على الاقتصاد في الجزائر، لأنهم سيطروا على حق الاستيراد والتصدير. (شيخ، 2017، الصفحات 522-524)

أما قانون الحالة المدنية الخاص بالمسلمين فكان وقعه أشد على تركيبة المجتمع الجزائري، ولم يساهم بأي شكل من الأشكال في ربط الأبناء باسم العائلة، بقدر ما ساهم في تشتيت العائلات وتفريقها؛ حيث يشير المؤرخ الفرنسي «شارل روبير أجرون» إلى أن المكلفين بتدوين الألقاب العائلية كانوا لا يصلحون لشيء، إذ إنهم لما كانوا ينتقلون من دوار إلى دوار آخر، لا يقومون بإدراج الأفراد المرتبطين في عائلة واحدة بنفس اللقب، وهو ما أدى إلى أن أفراد العائلة الواحدة يجدون أنفسهم متميزين في اسم العائلة. كما أن هذه السياسة كانت مهينة جداً للجزائريين، فخلال بحثنا عن الألقاب التي منحتها الإدارة الفرنسية لبعض العائلات الجزائرية، وجدنا أنها ألقاب مهينة ولا علاقة لها بواقع المجتمع الجزائري، رغم أن تعليمات الإدارة الفرنسية نصت على ترك الحرية للعائلات في اختيار لقبها. (أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، 2007، الصفحات 338-340)

وهو ما يثبت لنا أنَّ هذه السياسة كان الغاية منها حَسَب التقليل من شأن الشعب الجزائري، باعتباره مواطناً من الدرجة الثانية ولا يرقى لمستوى العائلات الأوروبية العريقة على حَسَب رأي «غوتييه»، كما نؤكد على أنَّ هذه السياسة أثَّرت على المجتمع الجزائري للقضاء على الملكية الجماعية للأراضي وإقرار الملكية الفردية، فهذه السياسة ظهرت في فترة الاحتلال الفرنسي وحملت معها ألقاب إذلال واستهزاء واحتقار للجزائريين، وامتدت آثار هذه السياسة إلى ما بعد الاستقلال حيث اضطرت العديد من العائلات إلى تغيير الألقاب المهينة التي ألصقتها بهم إدارة الاحتلال الفرنسي، حيث أصدرت الدولة الجزائرية قانون الحالة المدنية الصادر في 19 فيفري 1970 الذي سمح للجزائريين بتغيير الألقاب المعيبة. (تواتي و حسيني، 2021، الصفحات 527-534)

فتغيير الحالة المدنية للجزائريين هدفه الحقيقي ليس في صالح المجتمع الجزائري، بل لصالح الإدارة الفرنسية حتى تستطيع مراقبة تحركات الجزائريين ومراقبة ممتلكاتهم لفرض ضرائب مناسبة عليها، كما أنَّ سياسة الإدماج لم تأتِ بنتائج تخدم الجزائريين، الذين بقوا مواطنين من الدرجة الثانية طبقاً لقانون الأهالي

الصادر في 28 جوان سنة 1881، والذي تضمن أيضاً مجموعة من الإجراءات الردعية على الجزائريين وتسليط أقسى العقوبات عليهم من خلال منح كل الصلاحيات للحكام الإداريين وتوسيع صلاحيات الاعتقال للمتهربين من الضرائب الجزائريين. (شهيناز، 2022، الصفحات 82-84)

وهو قانون تجاهله نموذج دراستنا بشكل كامل؛ لأنَّه قانون يتركز على إهانة الجزائريين واستغلال فرنسا لهم بأبشع الطرق، حيث تضمَّن هذا القانون فرض عقوبات مالية على الجزائريين دون محاكمة، خاصَّة إذا لم يقوموا بتسجيل المواليد أو الوفيات في سجلات الحالة المدنية، أو لم يقوموا بدفع الضرائب المترتبة عن أملاكهم، سواء كانت مساكن أو حيوانات، كما فرض عليهم الحصول على رخصة في حالة تنقلهم من منطقة إلى أخرى. (ابراهيم الدوسقي، 2011، الصفحات 33-34)

و «غوتييه» كما ذكرنا سابقاً يسعى إلى تلميع صورة الاحتلال الفرنسي لدى الرأي العام الفرنسي والعالمي، لأنَّه كتب العديد من المقالات حول الجزائر باللغة الإنجليزية يدافع فيها عن الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومن بين الطرق التي استخدمها في التأكيد على نجاح الفرنسيين في الجزائر إبرازه لمدى التعاون بين الجزائريين والفرنسيين إبَّان الحرب العالمية الأولى، لكن المؤلّف تجاهل عن عمد معاناة الجزائريين في هذه الحرب، لأن قانون التجنيد الإجباري لا يهدف إلى إدماج الجزائريين بقدر ما يخدم مصالح فرنسا الاستعمارية في حروبها العالمية.

ففي الحرب العالمية الأولى، لم يُشر نموذج دراستنا إلى رفض شباب الجزائر لهذا القانون؛ إذ أعلنوا تمرّدهم عليه من خلال الاعتصام في الجبال أو الهجرة نحو الخارج (بوعزيز، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1954، 2007، صفحة 45). أمّا الذين شاركوا في هذه الحرب من شباب الجزائر، فقد تعرّضوا لتمييزٍ كبير، سواء في الثكنات العسكرية أو في جبهات القتال، حيث قُدِّم الجزائريون في الصفوف الأولى خلال هذه الحرب، وحتى بعد انتهائها قوبل هؤلاء المجنّدون برفضٍ فرنسي في منحهم تعويضاتٍ مالية عن مشاركتهم فيها. (عباس، الشاب الجزائري، 2007، الصفحات 40-48)

ورغم مشاركة «غوتييه» في الحرب كضابط ترجمة، خاصةً في مصر وبلاد الحجاز، فإنه لم يتطرّق إلى هذا التمييز الذي كان يلقاه شباب الجزائر بصفة خاصة، وشباب بلاد المغرب بصفة عامة، من تمييزٍ

عنصري تمثّل في تقديمهم إلى جبهات القتال ومنحهم أجورًا أدنى بكثير من الأجور التي تُمنح للمجنّدين الفرنسيين.

أما بالنسبة لدعم نموذج دراستنا لسياسة مصادرة الأراضي وسياسة التنصير والفرنسة، فنقول إنه بالنظر لآرائه في سياسة الإدارة الفرنسية، فإنه لا غرابة أن نجده يبرر كل الإجراءات التي تقوم بها في الجزائر لصالح خدمة مصالحها الاقتصادية، والعمل على تلميع صورتها بأنها تهدف في نهاية المطاف إلى خدمة الشعب الجزائري؛ ففي سياسة مصادرة الأراضي عمل نموذج دراستنا على تشجيع هذه السياسة باعتبار أنها –حسب وجهة نظره– تهتم فقط بالأراضي البور والمستنقعات التي لا فائدة ترجى منها، وهو ما يجعلنا نتساءل عن سبب ادعاء «غوتييه» بأن الأراضي التي تستولي عليها الإدارة الفرنسية ليست سوى مستنقعات وغابات أو هي أراضٍ لا تعود ملكيتها لأي شخص؟

بينما تشير مختلف المصادر والمراجع الفرنسية إلى أن حجم الأراضي المصادرة كان 1500 ألف هكتار سنة 1863 ليبلغ 4 ملايين و150 ألف هكتار سنة 1920، وهذه الأراضي تمت السيطرة عليها تحت طائلة غياب عقود الملكية أو للمصلحة العامة، ومن أبرز القوانين التي دعمت سياسة مصادرة الأراضي نذكر «قانون وارني» الذي صدر بتاريخ 26 جويلية 1873 الذي سمح بمصادرة 309891 هكتار. (أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلا ع حرب التحرير 1954، 2013، الصفحات 322-325)

وفيما يخص حرص نموذج دراستنا على تضخيم جهود فرنسا في منطقة بوفاريك، فنؤكد على أنَّ هذه الجهود ليست لصالح الجزائريين؛ لأن الإدارة الفرنسية قامت باستغلالها في زراعة العنب المخصّص لإنتاج الخمور بالدرجة الأولى، وما بقي من إنتاج للحمضيات وغيرها من المواد الفلاحية، فتوجه مباشرةً لتغطية حاجات السوق الفرنسية. (Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, pp. 278-279)

وانطلاقاً من ارتفاع حجم الأراضي التي تمت مصادرتها، عانى الشعب الجزائري الويلات، خاصةً أثناء مجاعة 1868 ومجاعات سنوات 1920 – 1921، ففي مجاعة سنة 1868 وجدنا أنَّ سلطات الاحتلال الفرنسي عمدت إلى استغلال هذه المجاعة لصالح زيادة حجم الأراضي التي يستولون عليها،

وهو ما سبب انتشار المجاعة، خاصةً أنَّ مسؤولي الاحتلال الفرنسي لم يبادروا إلى إيجاد حل لهذه المجاعة عكس ما ذكره المؤرخ، بل العائلات الجزائرية الغنية هي من تكفلت بتقديم المساندة للعائلات الفقيرة، ومن بينهم نذكر قائد ثورة 1871 الشيخ أحمد المقراني الذي دعم العائلات الفقيرة برهن أرضه مقابل توفير الغذاء للجزائريين، ورغم أنَّ الحاكم الفرنسي الماريشال «ماك ماهون Mac Mahon» وعده بتقديم المساعدة، إلاَّ أنَّه سرعان ما تنكرت الإدارة الفرنسية لهذه الوعود، وقامت بانتزاع أراضي المقراني لتسديد الديون المترتبة عليه. (Forest, 1897, p. 54)

علاوة على ذلك تشير المصادر والمراجع التاريخية أن عملية مصادر أراضي الجزائريين لم تتوقف طيلة الاحتلال الفرنسي، وحتى إن بقية أراضي أو ممتلكات خاصة بالجزائريين فإن الإدارة الفرنسية عمدت إلى ارهاقهم بالضرائب حتى تضمن بقائهم تحت سلطتها العسكري، وتمنع تفكيرهم بالثورة على هذا الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي، وهو ما جعل « الجنرال بيجو Thomas Robert Bugeaud» يقول في خطابه يوم 16 جانفي 1840 أمام مجلس النواب: «**إننا في حاجة إلى جحافل من المعمرين الفرنسيين والأوروبيين، ولكي تجلبوهم فمن اللازم عليكم أن تعطوهم أراضي خصبة ومراعي، أنزلوا بها المعمرين، ولا يهمكم أصحابها، يجب توزيع هذه الأراضي للأوروبيين، حتى يصبحوا أصحابها وأربابها، ويصير أربابها الأولون نسيا منسيا**». (عباس، ليل الاستعمار، 2005، صفحة 45)

لكن التبرير الذي «عمد إميل فليكس غوتييه» لتقديمه من أجل تحسين صورة الإدارة الفرنسية هو في الحقيقة مبرر يعود بالسلب على الإدارة الفرنسية من جهة، وعلى توجهات المؤلف في تدوين الأحداث التاريخية من جهة أخرى؛ فرغم سعيه لإلصاق تهمة المجاعة بالموظفين الجزائريين لدى الإدارة الفرنسية وتستره على الممارسات القمعية التي تقوم بها هذه الإدارة ضد الجزائريين، إلا أن آراءه تفضح حقيقة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فحين يؤكد أن فرنسا ساهمت في تطوير الاستغلال الفلاحي والصناعي وتنمية التجارة الجزائرية نحو الموانئ الفرنسية، فهو يؤكد أن الغايات الأساسية لاستمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر هي خدمة الاقتصاد الفرنسي؛ فجل المنتجات التي ذكرها المؤلف في مختلف كتبه، كالخمور والخنازير والمواشي والقمح، ليست للجزائريين، بل للسوق الفرنسية والأسواق الدولية. (عميراوي، زاوية، و زغداوي، آثار السياسة الاسنعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830- 1954، 2007، الصفحات 66-68)

ومن بين الآثار المترتبة على هذه السياسة الاستغلالية مجاعات 1920 إلى سنة 1921 التي أشار إليها المؤلف بأنَّها جاءت نتيجة خطأ إحصائي أكَّد على توفر الحبوب وكفايتها، لكن الحقيقة التاريخية غير ذلك؛ فهذه المجاعة حدثت نتيجة قيام سلطات الاحتلال الفرنسي بتصدير كميات كبيرة من القمح إلى فرنسا قُدِّرت بحوالي 300 ألف قنطار دون أخذ الاحتياطات اللازمة بالاحتفاظ بكميات معتبرة من القمح في حالة حدوث الجفاف، وهو ما حدث بالفعل؛ فبعد تصدير فرنسا لجل الكميات التي كانت متوفرة جاء الجفاف سنة 1921، وانتشرت المجاعة التي أودت بحياة الآلاف من العائلات في الجزائر، وغاب الأمن في العديد من المناطق. (قداش، 2011، الصفحات 24-29)

وبالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ «غوتييه» من خلال ادعائه بأنَّ مشكلة انتشار المجاعة تعود إلى تصرفات الجزائريين، خاصةً تخزين الحبوب، فهو تبرير غير منطقي؛ فإذا كان الفلاح الجزائري يعمل في أراضي الفرنسيين فإنَّ الإنتاج الزراعي يذهب مباشرةً لصالح المستوطنين أو لصالح التصدير نحو فرنسا، أمَّا إذا كان الفلاح يخدم في أرضه فإنَّ إنتاجه الزراعي لا يكفي حتى لقوت عائلته السنوي؛ لأن أخصب الأراضي وأجودها في الإنتاج سيطر عليها المستوطنون الفرنسيون. وحتى إن كان الفلاح الجزائري يقوم بتخزين الحبوب في مخازن خاصة فإنَّ سبب ذلك يعود بالدرجة الأولى لعدم ثقته في إدارة الاحتلال الفرنسي بأنَّها ستقدم له ما يحتاجه من القمح عند طلبه، ومجاعة سنة 1921 تثبت لنا أنَّ فرنسا لم تكن تراعي مصلحة الجزائريين الاقتصادية، كما حاول نموذج دراستنا تصويرها، بقدر ما فكرت في مصالحها التجارية ببيع مخزون القمح المتوفر لديها.

إذن، ومن هذا المنطلق نقول بأنه رغم تكذيب نموذج دراستنا للآراء التي تؤكد تعرض الجزائريين للتقتيل المنهجي من طرف الاحتلال الفرنسي، إلا أن الإحصائيات تثبت عكس ذلك؛ فإذا كان عدد السكان عرف انخفاضاً حاداً إبان مجاعة 1868 ومجاعة 1921 ثم ارتفع بعد ذلك، فإن ارتفاع عدد السكان أو انخفاضه لا علاقة له بما تقدمه الإدارة الفرنسية والمستوطنون، حيث تشير الإحصائيات إلى أن عدد الجزائريين سنة 1911 بلغ حوالي 4 ملايين و70 ألف نسمة، أما سنة 1921 فبلغ عددهم حوالي 4 ملايين و923 ألف نسمة، وبذلك فعدد الجزائريين لم يعرف ارتفاعاً كبيراً، باعتبار أن إدارة الاحتلال الفرنسي لم تبادر إلى تحسين الوضع الصحي للجزائريين، بل عمدت إلى استغلال ثلث السكان كجنود في الحرب العالمية؛ لأن الزيادة في عدد السكان تعود بالنفع بالدرجة الأولى على تطور الزراعة

الفرنسية ومنتوجاتها الاقتصادية، لأن تطور السكان يعني زيادة حجم اليد العاملة في مختلف القطاعات. (أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا، 2007، الصفحات 334-338)

أما فيما يخص دعمه المطلق لتنصير الجزائر فهي آراء تبين تعصبه للدين المسيحي، وهو ما لاحظناه في مختلف مؤلفاته، إذ كثيراً ما نجده يتحسر على انقطاع المسيحية من شمال إفريقيا، مؤكداً أنَّ انتشار الإسلام قضى على الروابط الدينية بكنيسة روما، ويفتخر بأنَّ فرنسا ستعمل على إعادة هيبة هذه الكنيسة في الجزائر، ومن بين الإجراءات التي تثبت تعصبه الشديد للمسيحية تأكيده على الطابع الصليبي للحملة الفرنسية على الجزائر، وأنَّها تمثّل الحلف المقدس الأوروبي، وهو حلف صليبي أُسِّس بين دول أوروبا لنشر المسيحية في العالم، خاصَّةً الدول الإسلامية.

غير أنَّ الافتخار الذي تبناه نموذج دراستنا يناقض كل التوجهات والآراء التي عمل على الدفاع عنها، خاصَّةً فكرة «المهمة الحضارية لفرنسا في الجزائر»، فإذا كانت فرنسا تنظر بعين القلق لمستقبل الجزائريين وتسهر على ترقيتهم في مختلف المجالات، لماذا يعتبر المؤلف أنَّ احتلال الجزائر انتصار للحلف المقدس الأوروبي؟ وهل المهمة الحضارية تقتضي تبرير الغزو العسكري باسم هذا الحلف؟ وهي تساؤلات لم يقدِّم لنا «غوتييه» تفسيراً لها، بل حرص فقط على التباهي بعظمة فرنسا في قارة أوروبا بأنَّها تمثّل هذه الدول وتسعى لحماية مصالحها، غير أنَّنا نقول بأنَّ المؤلف حين ركَّز على طبيعة الحملة بأنَّها حلف مقدس صليبي يكون بذلك قد نفى بالضرورة ادعاءاته بخصوص الرسالة الحضارية لفرنسا، لأن التأكيد على الحلف المقدس يبين نوايا فرنسا الحقيقية وهي نشر المسيحية في الجزائر.

ومن بين الدلائل التي توضح ما ذكرناه سابقاً حول تفاخر نموذج دراستنا بالإنجازات التي قام بها «لافيجري» في نشر المسيحية من خلال تربية اليتامى، كما تفاخر أيضاً بالإنجازات التي قام بها الراهب «الأب دوفوكو Le Père de Foucauld»، ومن هذا المنطلق نقول إن نشر المسيحية في نظر المؤلف ضرورة حتمية لاستمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر، ونشر هذه الديانة سيساهم في القضاء على عدم التوافق بين الفرنسيين والجزائريين؛ لأن الدين الإسلامي هو العائق الكبير أمام تحقيق الاندماج الفعلي.

علاوة على ذلك، فإن دعم سياسة التنصير يتوافق مع نشر اللغة الفرنسية، خاصة من خلال المؤسسات التعليمية المختلفة، والتي ستساهم في القضاء على اللغة العربية وتعويضها بالفرنسية؛ لأن

اختلاف اللغة في المجتمع –حسب رأي «غوتييه»– يشكل عائقاً أمام تحقيقه للوحدة السياسية، وبذلك فتعميم اللغة الفرنسية يضمن التفاهم الجزائري الفرنسي، خاصة إذا تم اعتماد الفرنسية في المراسلات التجارية وكلغة شارع. (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 265)

لكن ما أغفله «غوتييه» في تفاخره بإنجازات المسيحية في الجزائر هو أنَّ هذه الإنجازات جاءت ضد رغبة الجزائريين وإرادتهم، فحين يبين لنا المؤلف بأنَّ «لافيجري» قام ببناء قرية وأخذ الأطفال اليتامى لتربيتهم على الدين المسيحي، وهو تصرف لم يراعِ فيه عادات الجزائريين وتقاليدهم، بل فكر فقط في مصلحة فرنسا ومصلحة نشر المسيحية في الجزائر، كما نقول بأنَّ سياسة «لافيجري» لم تراعِ حالة هؤلاء الأطفال باعتبار أنَّهم فقدوا أهليهم إبَّان المجاعات والأوبئة، وبذلك قد استغل الأوضاع المزرية للجزائريين لتنفيذ سياسته التنصيرية، وبذلك يكون «غوتييه» كشف القناع الحقيقي لهذه الإجراءات التي قام بها «لافيجري»، والتي تهدف إلى تأسيس مجتمع جزائري مسيحي قلباً وقالباً، غير أنَّ هذه السياسة التنصيرية التي قام بها «لافيجري» لم تؤتِ ثمارها بالشكل الذي كان يصبو إليه، حيث قوبل مشروعه بالرفض من طرف المستوطنين، الذين رفضوا تجنيسهم واعتبروهم مواطنين جزائريين، كما رُفِض هؤلاء المتنصرون من قبل عامة الشعب الجزائري، الذين تبرأوا من هؤلاء المتنصرين بشكل نهائي. (بوتشيشة، 2019، الصفحات 663-665)

أما بالنسبة للراهب «الأب دوفوكو Le Père de Foucauld»، فنقول إنَّ أعماله التنصيرية في منطقة الصحراء لم تلق رواجاً كبيراً بالشكل الذي صوره لنا نموذج دراستنا؛ لأنَّه ركَّز على المناطق النائية التي رأى أنَّ الإسلام لم يتوغل فيها بشكل مثالي، غير أنَّ منطقة تركز نشاط هذا الراهب كانت في مناطق محدَّدة، مثل واحة «بني عباس» ومنطقة «عين صالح» و«الهقار» و«غرداية». بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ نشاطات الراهب «دو فوكو» كانت تجسسية وعسكرية بالدرجة الأولى، من خلال نقله لأخبار الصحراء وما يحدث فيها من تطورات اجتماعية وعسكرية، خاصَّةً خلال الحرب العالمية الأولى، كما أنَّ نشاط هذا الراهب سرعان ما اندثر بعد أن لقي مصرعه في تمنراست 1 ديسمبر 1916. (عمراوي، 2022، الصفحات 163-171).

كما نؤكد أيضاً في صدد نقدنا لتوجهات نموذج الدراسة ودعمه المطلق لسياسة فرنسا في الجزائر خاصة في جانبها الثقافي بدعم سياسة الفرنسة وسياسة التنصير، ما يناقض آراءه وتوجهاته، لأن الوضع الثقافي للجزائر عرف تدهوراً كبيراً بعد الاحتلال الفرنسي الذي قضى على كل مؤسسات التعليم التي كانت موجودة في فترة الحكم العثماني، حيث تشير المصادر إلى أنَّ مدينة الجزائر «**يبلغ عدد المدارس العمومية فيها أربع، وهي عبارة عن بنايات مربعة تحتوي على غرف صغيرة، يدرس الطلبة في هذه المدارس القراءة والكتابة والحساب...**». (كاثكارت ، 1982، صفحة 98)

خلاصة

إذن فالتوجهات والآراء التي أوردها نموذج دراستنا في مختلف مقالاته وكتبه، توضح لنا أنه كان من أبرز المدافعين عن الاحتلال الفرنسي للجزائر والرافضين لفكرة استقلالها، كما يتضح لنا بأنه استخدم كل الإمكانات المتاحة له من طرف جامعة الجزائر ومعاهدها، خاصة المعهد الصحراوي والمعهد الجيولوجي، لإجراء دراسات معمقة عن شعب الجزائر وثرواته الطبيعية، حتى يتم استغلالها بشكل يضمن بقاء الجزائريين مجرد تابعين وخدم للمستوطنين الفرنسيين، كما نقول إن «غوتييه» انطلق في تبرير مختلف الإجراءات والسياسات التي اتبعتها فرنسا من منطلق حكم القوي للضعيف، ففرنسا باعتبارها هي الأقوى يمكنها اتخاذ كل الإجراءات التي تسهل عليها إدارة شؤون الجزائريين الذين يمثلون الطرف الضعيف ولا يمكنهم معارضة هذه الإجراءات، لأن فرنسا سيطرت على كل الثروات المعدنية واستغلتها –حسب رأيه– لتحسين معيشة الجزائريين، لكن هذا الاستغلال جاء على حساب رفاهية الشعب، فالطرق والسكك الحديدية وتوسعة الموانئ لم يستفد بها الجزائريون مطلقاً، بل كانت هذه المنشآت لضمان الاستغلال الكامل لكل ثروات الجزائر الطبيعية لتطوير الاقتصاد الفرنسي.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، نقول إنَّ نموذج دراستنا، من منطلق رؤيته المتناقضة للسياسة الفرنسية في الجزائر، فمن جهة نجده يمجد الاحتلال العسكري للجزائر وتوسيع السيطرة الشاملة للإدارة الفرنسية على المجتمع الجزائري، ومن جهة أخرى نجده أيضاً يدعم وبقوة حصول المستوطنين الفرنسيين على كامل الصلاحيات في الجزائر، ويرى بأن هذه الإجراءات هي التي ستتيح للفرنسيين تحقيق التقدم الاقتصادي في الجزائر، غير أنَّ هذه الادعاءات، وكما بينا سابقاً، لا أساس لها من الصحة؛ باعتبار أن

«غوتييه» كان يسعى جاهداً من أجل إقناع الحكومة الفرنسية في الجزائر وباريس بشرعية الاحتلال الفرنسي للجزائر، وأن ما تبذله هذه الحكومة من مجهودات سيعود عليها بالنفع، خاصة في إطار تنفيذ سياستها التوسعية في منطقة غرب إفريقيا.

كما يجب التأكيد على أنَّ «إميل فليكس غوتييه»، بالإضافة إلى ما ذهب إليه من تبرير للاحتلال الفرنسي للجزائر وتقديم الفرنسيين كمساعدين للجزائريين يسعون لتطويرهم وتحسين مستواهم المعيشي والثقافي، فإنَّه ركَّز من جهة أخرى على إبراز عدة إشكاليات في المجتمع الجزائري، خاصَّة غياب الدولة الجزائرية واختلاف أصول سُكَّانها وتباين لغتهم وتدينهم السطحي، بالإضافة إلى أنَّه ركَّز على النمط البدائي لحياتهم اليومية، وهي الآراء التي سنتطرق لها بالتحليل في الفصلين المواليين.

الفصل الرابع:

إشكالية غياب الأمة وتباين مكونات المجتمع الجزائري في نظر إميل غوتييه

أولاً: غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري

ثانياً: مسألة تباين أصول الجزائريين واشكالية العداء بينهم

ثالثاً: قضية اختلاف لغة الجزائريين وتدينهم القشوري

تمهيد:

تطرقنا في الفصل السابق للآراء التي تبناها نموذج دراستنا حول تاريخ الجزائر، وبيَّنا كيف عمل على تشويه هذا التاريخ وتحريفه لتبرير استعمار فرنسا للجزائر ودعم سياستها العنصرية في قمع الشعب الجزائري واستغلاله لخدمة مصالح الفرنسيين وتطوير اقتصادهم، وهي توجهات دعمها نموذج دراستنا بمجموعة من الإشكاليات التي وضَّح بأنَّها العقبة الأساسية التي تحول دون تحقيق الجزائر لذاتها وتأسيس دولة مستقلة خاصة بها، وهي الإشكاليات التي سنحاول إبرازها في هذا الفصل والفصل الذي يليه.

أولاً:

غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري

من بين النقاط التي ركَّز عليها «غوتييه» في دراسته لتاريخ الجزائر، مسألة غياب أُمَّة بالمفهوم الغربي الحديث، ذلك الشعور بالانتماء للأُمَّة (nation)، الذي يولد الشعور الوطني (nationalisme)، وهو العمل على تجسيد الشعور المعنوي في شكل تنظيم سياسي (دولة وطنية)، ورغم أنَّ هذه المفاهيم الغربية لم تظهر إلاَّ في العصر المعاصر، ولم تكن موجودة في العصور السابقة، إلاَّ أنَّ «غوتييه» يجعلها معياراً يحكم به على الشعوب المغاربية عامة والشعب الجزائري بشكل خاص، سواء في العصر المعاصر أو العصور الوسطى والعصر الحديث.

ولا شك أنَّ «غوتييه» تحركه نظرة ذاتية مركزية (égocentrisme) ميزت الباحثين الاستعماريين بشكل عام، الذين يتصورون أنَّ أوروبا تمثّل مركز الحضارة، وباقي الشعوب تمثّل الهمجية، وقد ساد هذا الطرح بشكل «طبيعي» في تفكير الاستعماريين في زمن هيمنة الإنسان الأبيض على العالم. وانطلاقاً من هذه الذاتية واعتماداً عليها، يُسقط المفاهيم الغربية الحديثة –لأنَّها حسبه تمثّل المرجعية– على المجتمع الجزائري والمجتمعات المغاربية، منها مفهوم الأُمَّة والدولة الأُمَّة والوحدة.

ومن بين الإشكالات الأساسية التي سعى لإثباتها عن المجتمع الجزائري نذكر إشكالية غياب عناصر الوحدة بين عناصر المجتمع الجزائري، والتي سعى إلى إثباتها من خلال تبنيه لمجموعة من الأطروحات،

كأطروحة عدم انسجام مكونات المجتمع الجزائري وأطروحة العداء المتأصل بين هذه المكونات، بالإضافة إلى أطروحة ادعاء النسب الشريف، وغيرها من الأطروحات التي ناقشها لتبيان حجم التشرذم الذي يتميز به سكان الجزائر، ولذلك سنورد فيما يلي وجهة نظر نموذج دراستنا في هذه الأطروحات ثم نقوم بنقدها.

1 – غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري

سعى «إميل فليكس غوتييه» إلى إثبات تباين مكونات المجتمع الجزائري من خلال التأكيد على تعدد مكونات هذا المجتمع واختلاف الأعراق المكونة له، من أجل إثبات استحالة تحقيق تواصل فعلي بين هذه العناصر المتباينة.

حيث ينطلق «غوتييه» كغيره من الدارسين الأنثروبولوجيين الاستعماريين، من فكرة أنَّ الشعوب المستعمرة تتميز بطابعها البدائي في التنظيم الاجتماعي، كما أنَّ تلك الشعوب من سماتها الاختلاف وعدم التجانس بين مكوناتها، لذلك نجده في مختلف خطاباته يرتكز على إبراز «التناقضات» التي يمكنه أن يستغلها لأجل تفكيك المجتمع الجزائري؛ لأجل تسهيل السيطرة عليه.

فالاختلافات اللغوية والخصوصيات التي يمكن أن نجدها في بعض المناطق، هي أمور طبيعية نجدها في مختلف الدول ولدى مختلف شعوب العالم، لكن الخطاب الاستعماري يبرز تلك الاختلافات بشكل سلبي ويحولها إلى تناقضات وينميها بالشكل الذي يمكن توظيفه لخدمة المشروع الاستعماري.

ومن جملة التناقضات التي يتميز بها الشعب الجزائري حسب «غوتييه» اختلاف مكوناته، باعتبار أنهم لم يوفقوا لتكوين رأي عام واحد مشترك في مواجهة أعدائهم، وهو ما حدث عند مواجهة الفرنسيين، حيث لم يتوحد الجزائريون وراء قيادة واحدة، وقد استُغل هذا الأمر لأجل حفر خندق للفصل بين القبائل والعرب، وفي هذا الصدد أشار إلى أنه «**عندما أراد عبد القادر جمع كل ما لديه في الجزائر لمقاومة الغزو الفرنسي حاول استمالة القبائل، لكنهم قدموا له الكسكس الأسود، وهكذا من حيث اللغة، الجزائر ليست أمة واحدة، بل هي أمتان على الأقل، ومن المناسب إضافة مجموعات أخرى أقل أهمية كاليهود والمزابيين وغيرهم**». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de

Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 50).

وبالتالي فالتباين الكبير الموجود بين الجزائريين نتيجة وجود عدة عناصر بشرية ساهم في تعقد مهمة التوافق بينها، مما يعيق كل مشروع سياسي وحدوي، وهذا التمايز لا يقتصر على وجود عنصر عربي وعنصر بربري فحسب، بل يتجاوزه الى العنصر البربري نفسه، حيث هناك تفاوت كبير بينهم «**فنجد الشاوية، الذين يستقرون في الأوراس ويتحدثون البربرية مختلفين عن سُكَّان القبائل، ولا وجود لارتباطات بينهم بالنظر لاختلا ف طرق العيش، فالشاوية يعتمدون على رعي الأغنام والترحال من منطقة إلى أخرى، في حين يعيش القبائل حياة مستقرة تعتمد على الزراعة**...». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, pp. 55-56)

وهو ما يثبت –حسب رأي نموذج دراستنا– وجود اختلاف كبير بين البربر من جهة، وبين العنصر العربي من جهة ثانية، كما نجد اختلافات كبيرة بين أولئك الذين يتحدثون العربية؛ وبالتالي فإن هذه العناصر المتباينة لا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيق تفاهم بينها، بل العكس من ذلك، نجد أن هذا التباين ساهم –حسب رأي غوتييه– في بروز عداء تام بين الشاوية والقبائل، وبين هؤلاء وقبائل الطوارق في الصحراء، كما ينتشر العداء بين العنصر البربري والعنصر العربي. (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, pp. 55-56)

وفي حديثه عن منطقة الأوراس أيضاً يؤكد «إميل غوتييه» أنها عرفت صراعاً كبيراً بين البربر والعرب، حيث أشار إلى أن الشاوية لم يتقبلوا وجود عنصر أجنبي في بلادهم وآثروا اللجوء إلى الجبال، وهذا من منطلق التباعد الكبير والاختلاف الكبير بينهم وبين العرب من حيث الأصول ومن حيث اللغة أيضاً، فالشاوية –كما يقول نموذج دراستنا– لم يستسلموا لهذا الغزو ولم يخضعوا للعنصر العربي الأجنبي، وبقوا محافظين على لغتهم التي ورثوها عن أجدادهم، يقول «غوتييه»: «**إن أكثر ما يبغضه الشاوية والذي**

يشعرون تجاهه بالغربة هو العربي، أي البدوي العظيم، ويكفي دليلاً على ذلك أن الشاوية حافظت على لهجتها البربرية في حين أن جميع بدو المغرب الكبير قد تبنوا اللغة العربية، حيث وطأ الزناتي العظيم أو البدوي العربي نوميديا على مر قرون وترك فيها تأثيراً عميقاً، لكنه لم يستطع قط القضاء على الشاوية لأنه لم يستطع إجبارهم على النزول من جبالهم». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 262)

ومن هذا المنطلق، يؤكد نموذج دراستنا على أنَّ سكان شمال إفريقيا عامةً والجزائر خاصةً، بالنظر للتباين الكبير بين عناصر سكانها، فمن المنطقي حدوث نزاعات وصراعات بينهم، وهذه الصراعات ليست حصرًا على الفترة المعاصرة التي عاشها «غوتييه»؛ بل تمتد عبر الأزمنة التاريخية المختلفة؛ حيث يقول: **«تاريخ البربر هو تاريخ حروب لا نهاية لها وغير محددة، هذه هي الحضارة التي أنتجت حنبعل وماسينيسا ويوغرطة والجنرالات الفاطميين الذين غزوا مصر، والمغاربة الذين شقوا طريقهم عبر إسبانيا إلى جنوب فرنسا».** (Gautier, Nomad and Sedentary folks of Northern Africa, 1921, p. 15)

لذلك، فالمجتمع الجزائري والمغاربي يتميز عن غيره من المجتمعات المعاصرة له بتفككه الشديد وانقسامه الذي لا يمكن تجاوزه؛ هذا الانقسام ساهم في بروز صراعات أبدية بين مكوناته عبر أزمنة التاريخ، ولا يمكن للدارس لتاريخ شمال إفريقيا –كما يرى «غوتييه»– إلا أن يدرك حجم التنافر الكبير بين عناصره الاجتماعية؛ فمنذ فترة ما قبل التاريخ تميزت شعوب المنطقة بالعداوة المتأصلة فيما بينها، وهذه العداوة لم يتم القضاء عليها. حيث يقول: «**يحدث أن نحاول بدافع من احتياجاتنا الفكرية الغربية أن نتفلسف حول هذا التاريخ العبثي الذي لا يتطور، حول هذا التعقيد من الحروب الأبدية المبهمة، وأكثر ما نلجأ إليه في التفسير هو: لم تستطع الجزائر وحتى شمال إفريقيا تحقيق وحدتها التاريخية، لأنها لا يوجد بها مركز جغرافي.... الجزائر كلها عبارة عن صناديق منفصلة تتواصل بصعوبة».** (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 209)

ويواصل نموذج دراستنا في تحليل خصائص المجتمع الجزائري وشمال إفريقيا، التي تتميز بالتشتت والانفصال، ويذهب بعيداً في تفسيراته من خلال نفي تفاهم الجزائريين وتكوينهم لأي شكل للدولة من

الناحية السياسية، وما تأسس من دول في الجزائر مجرد جماعات صغيرة ذات أصول متشابهة ولا تشمل باقي عناصر المجتمع الجزائري، ولكي يوضح لنا مقصده أكثر يشير «غوتييه» إلى أول دولة ظهرت في الجزائر، وهي الدولة الرستمية، إذ ذكر بأنها رغم قوتها السياسية تقتصر في حكمها على مجموعة من التجار المزابيين فقط، ولم يؤسسوا أي وحدة سياسية، وهو ما يؤكده حيث يقول: « **المزابيين بعد سقوط دولتهم بقوا في الجزائر في شكل جماعات صغيرة تمارس التجارة، وأن التزاوج المتين بين المزابيين نتج عنه نوع بيولوجي مميز، لكن المؤلف في نفس الوقت ينفي أن يكون هؤلاء قد تمكنوا عبر التاريخ من تكوين أمة، لأنهم يفتقرون إلى قاعدة إقليمية واحدة، فهم مشتتون في أماكن مختلفة إلى مجموعات صغيرة تفتقر إلى التماسك الوطني بسبب هذا التشرذم**». (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 825)

ولذلك يصل «غوتييه» إلى استنتاج يؤكد على أنه خاص بالمجتمع الجزائري وشمال إفريقيا، وهذا الاستنتاج يقوم على اعتبار جميع سكان المنطقة لا يختلفون فقط في مكوناتهم العرقية، بل الاختلاف أعمق بكثير؛ حيث تتميز شعوب شمال إفريقيا بميزة تنفرد بها وهي تباين هويتها الحضارية، فلا هي شرقية ولا هي غربية، وهذا التباين الكبير في الانتماء الروحي والحضاري جعل السكان لا يدركون أنفسهم، ولم يتمكنوا قط عبر أزمنة التاريخ من تحديد انتمائهم السياسي والروحي، وبالتالي انقسامهم إلى ثنائية غريبة؛ قسم شرقي وقسم غربي، وهذان القسمان بدورهما ينقسمان إلى أجزاء صغيرة. يقول «غوتييه»: «**في شمال إفريقيا يتشابك عالمان مختلفان: الغرب والشرق، وهذا ما يصنع الطابع المميز للمغرب، فهو ذو روحين ولم يعرف أبداً إلى أي حضارة ينتمي، هل هي حضارة غربية أو شرقية؟ وهذه الثنائية الجوهرية للمغرب منعت من تشكيل هيئة سياسية، ونتيجة لذلك تم تقسيم المغرب إلى أجزاء كثيرة وسيكون من الحماقة محاولة إحصائها**». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, pp. 38-39)

يرى «إميل غوتييه» بأن الإشكالية الأساس التي يعاني منها المجتمع الجزائري وشمال إفريقيا هي غياب عناصر الوحدة بين مكونات المجتمع الجزائري، وأن انعدام التناسق بين هذه العناصر هو ما سبب انتشار العداوة بينهم، وبالتالي انعدام الترابط بينهم، وأن ما ظهر من دول مجرد اتحادات قبلية سرعان ما

تعرضت للانهيار نتيجة عدم توافق مكونات المجتمع. وبالإضافة إلى ذلك، يؤكد أيضاً على الدور الذي لعبه غياب عناصر الوحدة بين الجزائريين في تباين أقسام المجتمع الجزائري بين بدو وحضر، وبين عرب وبربر، وغيرها من الانقسامات التي أصر النموذج على وجودها في الجزائر منذ القدم.

2 – تباين واختلاف تشكيلة المجتمع الجزائري وتأثيراته السلبية

بالإضافة إلى مناقشة نموذج دراستنا لإشكالية عدم تجانس المجتمع الجزائري، وسعيه الحثيث لإثبات تباين أصول البربر، وادعاء الأصول البربرية لهم، ذهب بعيداً في توجهاته وأفكاره عن المجتمع الجزائري، هذه الأفكار جسدها من خلال تأكيده المطلق على الصراع بين أقسام المجتمع الجزائري، وهذا الصراع يتضح جلياً حسب رأيه في النزاعات التي ظهرت في شمال أفريقيا بين البربر والعرب من جهة، وبين القبائل البربرية من جهة ثانية.

فبعد إثبات «غوتييه» لإشكالية تباين أجناس المجتمع الجزائري وتباين أصولهم، ينتقل إلى إثبات إشكالية أخرى ترتكز على إثبات الاختلاف الديموغرافي وأنماط العيش من الصعيد الأنثروبولوجي، ليربطه بالمجال السياسي، بحيث يعتبر ذلك الاختلاف والتناقض هو سبب العقم السياسي للبلاد عن إنتاج تنظيم لهيكل سياسي (دولة) محلي وأصلي وموحد ويتميز بالديمومة عبر العصور. وحول الأثر السلبي لهيمنة البداوة والترحال على نمط العيش، وكيف أنَّ ذلك كان له وقع سلبي على تماسك المجتمع واستقراره، وارتباطه بالأرض والوطن، ودائماً ما يلح على فكرة فشل تشكيل الوحدة السياسية، ويعتبرها من أبرز الظواهر التي تتكرر في تاريخ الجزائر.

فحسبما يذكر «غوتييه» فإنَّ التاريخ الجزائري والتاريخ المغاربي عند البحث فيه بشكل مفصَّل يكشف عن تناقضات كبيرة في أصول السُّكَّان ومكنوناتهم، حيث يؤكد أنَّ شعب الجزائر منذ أقدم العصور عُرِفَ بانقساماته الكبيرة، فبينما نجد في العصور القديمة أنَّه قُسِّم إلى «نوميد» و«مور»، نجده في العصور الوسطى قد انقسم إلى «بتر» و«برانس»، بينما انقسم في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى عنصر «عربي» وآخر «بربري»، وهذا الانقسام التاريخي –حسب «غوتييه»– لا يسمح إطلاقاً بتكوين شعور وطني واحد، بسبب ترسخ فكرة الانقسام عبر مراحل التاريخ المختلفة، والصراع الأزلي الذي لا يمكن أن ينتهي إلاَّ بإفناء

قبيلة لقبيلة أخرى، وهذا الصراع رغم حمله لأسماء مختلفة ومتعاقبة، لكنه في حقيقته الجوهرية صراع بين «**الكيان العميق للبدو والقبائل المستقرة التي لا تُقهر**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 242)

ولكي يضخم لنا «غوتييه» من حدة الصراعات بين قبيلتي صنهاجة وزناتة، يذهب بعيداً في تصويره للعداء المستميت والوجودي بين القبيلتين، لدرجة استعانة «زناتة» بالعرب ضد «صنهاجة»، وهذا لا أساس له في التاريخ، فظهور العرب في شمال إفريقيا ارتبط بظاهرة الإسلام في الوهلة الأولى، وبهجرة قبائل «بني هلال» و«بني سليم» في القرن 11، والهجرة الأخيرة لها أسباب سياسية ترتبط بالدرجة الأولى بوضع الدولة الفاطمية في مصر.

غير أنَّ «غوتييه» يُفسّر ظهور العرب في شمال إفريقيا بعاملٍ آخر لا نجده في الكتب التاريخية؛ حيث يؤكد أنَّ قبائل «زناتة» و«صنهاجة»، نتيجة الكراهية المتأصلة بينهما وكثرة المكائد التي يكيدها كل منهما للآخر، خاصةً في فترة التاريخ الوسيط، دفعت بهما إلى الاستعانة بسيّد أجنبي لمواجهة بعضهما البعض، وهو الصراع الذي لم يسمح لهما بتأسيس دولة ذات أبعاد وطنية أو تكوين أمّة ذات شعور واحد. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 207). هذه الفكرة التي يقدمها «غوتييه» لا نجد ما يدعمها في مصادر التاريخ الإسلامي، بحيث لا تذكر مختلف المصادر أن الدافع وراء الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا هو استعانة زناتة بالبدو العرب ضد إخوانهم من صنهاجة، وهذا ما يبين كيف أن هذه الفكرة التي كثيراً ما يكررها ليست إلا من نسج خياله.

ولكي يبين لنا صدق ما ذهب إليه من أطروحات، عمد «غوتييه» إلى تبيان التأثيرات السلبية لظهور القبائل العربية على القبائل الزناتية، وكيف أنَّ تلك القبائل العربية البدوية والمخربة دفعت بالبربر للجوء إلى المناطق الجبلية، وذلك ما يبرز التأثيرات العربية على نمط حياة البربر وأسلوب عيشهم خاصة في منطقة الأوراس، كما أن التواجد العربي حسبه أجج من حجم الصراع بين مختلف القبائل البربرية، وهو ما يؤكده في قوله: «**كانت العصور الوسطى بأكملها صراعاً بين قبائل صنهاجة وزناتة، أصبح سكان الهضاب العليا من الناطقين بالعربية، لم يعد الأوراسيون يظهرون في أي مكان، علاوة على ذلك فقد غيروا اسمهم في العصور القديمة كانوا نوميديين، أي بدو بامتياز، أصبحوا شاوية رعاة أغنام رُحلاً، هذا**

لأن ثورة بطيئة وحاسمة حدثت في المغرب، ففي هذه الأثناء ظهر الجمل الذي لم يكن معروفاً في العصور القديمة، وغزا وانتشر في الهضاب العليا، ومعه بالطبع رعاة الجمال من العرب والزناتيين، هؤلاء الرحل ذوو الانتشار الواسع طردوا أحفاد النوميديين إلى جبالهم وتفوقوا عليهم وحصروهم في دور الرحل ذوي النطاق القصير». (Gautier, Les Cavernes du Dir, 1925, p. 400)

لكن وجب علينا الإشارة، فيما يخص فكرة أن الجمل ظهر مع العرب، إلى أن الرسومات الصخرية في التاسيلي، التي لا تمثل فقط فن الرسم في أزمنة مبكرة من البشرية، بل تعد سجلاً تاريخياً يوثق لتحول المناخ من رطب إلى جاف، توضح في العديد من تلك الرسومات (التي اشتغل عليها غوتييه) وجود الجمل في المرحلة الأخيرة لتصوير الحياة في تلك المنطقة (رفقة العربات التي تجرها الخيول)، وهناك فترة لتأريخ تلك الرسومات تسمى بعصر الجمال (Camel Period)، والتي تبدأ من عام 1000 قبل الميلاد، وهي تعبر عن تزايد الجفاف، وهو ما يؤكد أن ظهور الجمل في شمال إفريقيا سبق ظهور العرب بآلاف السنين.

لكن «غوتييه» يتجاهل هذه المعطيات التاريخية والأثرية التي سعى إلى دراستها وتحليل مضمونها لتحديد المراحل الكبرى التي مر بها تاريخ شمال إفريقيا في العصور القديمة، وأثر التغيرات المناخية في تراجع الاستقرار البشري في المناطق الصحراوية، حيث قفز مباشرة إلى استنتاجات يهدف من خلالها إلى إثبات الصراع القائم بين العرب والبربر، وأن قدوم الجنس العربي لم يساهم إلا في دمار المنطقة وطرد البربر إلى الجبال والصحاري القاحلة.

لذلك نجده يؤكد أيضاً أن الاختلاف بين العرب والبربر ساهم في انتشار الكراهية والبغض بين السكان أكثر؛ فبعدما كانت القبائل البربرية تتناحر فيما بينها في مرحلة التاريخ القديم، أُضيف لهم عنصر آخر ساهم أكثر في تفاقم العداوة بين القبائل البربرية، هذه العداوة التي لم تتم إزالتها والقضاء عليها بين عناصر المجتمع الجزائري، وهو ما يؤكده «إميل غوتييه» في قوله: «**في العصور الوسطى المتأخرة كانت الكراهية التي لا تغتفر قد فصلت بين صنهاجة وزناتة وبين البرانس والبتر، وهذا نابع من الاختلاف الجذري في أنماط الحياة... أما اليوم فالخصمان المتواجهان ليسا فقط البدو والفلاحين مجتمعين بل أيضاً العرب والبربر، وهكذا أضيف إلى كل الأسباب الأخرى سبب آخر قوي للكراهية الداخلية التي**

أكملت تفكك بلاد المغرب». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 434)

وما تجدر الإشارة إليه أيضاً في صدد دفاع نموذج دراستنا عن التباين الكبير بين مكونات المجتمع الجزائري، هو ذهابه بعيداً في تفسيره للتقسيمات العرقية في الجزائر، فهو لا يؤكد فقط على وجود سكان شاوية وآخرين قبائل، أو بني ميزاب، أو طوارق، بل يؤكد على أن هذه القبائل في حد ذاتها لا تملك هدفاً واحداً. فحسب «غوتييه» فإن بني ميزاب مثلاً، رغم تشاركهم في الفكر واحتفاظهم برابط أسري قوي فيما بينهم عن طريق الزواج الداخلي، إلا أنهم لم يستطيعوا توحيد أنفسهم داخل دولة واحدة، خاصة بعد انهيار الدولة التي أسسوها، والتي لم تكن تخضع، حسب رأي الباحث نموذج دراستنا، في حكمها لسيطرة البربر، بل كان يديرها شخص أجنبي جاء من بلاد فارس.

وبذلك فالشتات الذي عرفه هؤلاء بعد غياب الحاكم الأجنبي الذي يضمن استمرار الوحدة بينهم، نتيجة حتمية؛ لأن هؤلاء السكان لم ولن يستطيعوا تحقيق وحدة إقليمية؛ لأنهم يفتقرون لقاعدة مشتركة بينهم. يقول «غوتييه» في هذا الصدد: «**المزابيون بعد سقوط دولتهم بقوا في الجزائر في شكل جماعات صغيرة تمارس التجارة، والتزاوج المتين بينهم نتج عنه نوع بيولوجي مميز، لكن لم يتمكنوا عبر التاريخ من تكوين أمَّة؛ لأنهم يفتقرون إلى قاعدة إقليمية واحدة، فهم مشتتون في أماكن مختلفة إلى مجموعات صغيرة تفتقر إلى التماسك الوطني بسبب هذا التشرذم**». (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 825)

في النهاية يصل «غوتييه» إلى خلاصة خطيرة حول تأثير الانقسام القبلي على مسار تاريخ الجزائر، مفادها أنَّ ذلك الصراع القبلي المستمر بين «صنهاجة» و«زناتة» قد ساهم في فشل كل محاولات توحيد مكونات المجتمع وفي طرد الأجانب عبر المراحل التاريخية المختلفة. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 210)

إذا، فبلاد المغرب بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة لم تعرف –حسب رأي نموذج دراستنا– تشكّل شعور مشترك فيما بينها؛ نتيجة هذا التباعد الكبير والاختلاف الشاسع بين مكونات المجتمع، فحتمية

الصراع بين قبائل زناتة وصنهاجة من جهة، والصراع بين هذه القبائل وبين العرب من جهة أخرى، لم تسمح بتبلور فكر الوحدة السياسية بينها، معتبراً ما تأسس من دول إسلامية في بلاد المغرب مجرد غطاء للصراع بين هذه القبائل؛ فإذا كانت الدولة –كما يقول– من تأسيس قبيلة زناتة، ستظهر من قبيلة صنهاجة من سيحارب هذه الدولة ويعمل على تقويض أركانها، ونفس الشيء سيحدث في حالة تبني صنهاجة لفكرة تأسيس دولة، ستجد أمامها عدوها القديم زناتة التي ستقوض أركان الدولة الصنهاجية.

3 – الانقسام بين البدو والحضر

بالإضافة إلى تأكيد «غوتييه» على الصراع القبلي بين صنهاجة وزناتة، يؤكد أيضاً على وجود صراع آخر ساهم وبشكل كبير في غياب الشعور الوطني، ودخول نمط الحياة البدوية الترحالية العربية لبلاد البربر، هذا الصراع يتمحور بين عنصرين هما البدو والحضر، والبربر والعرب؛ فحسبه قبل الفتح الإسلامي وُجد «الزناتيون» عبارة عن قبائل بدوية، أما «الصنهاجيون» فقبائل حضر، لذلك تميزت العلاقة بينهما بالصراع المستمر، وحينما قَدِم العرب بطابع حياتهم البدوي، تأثر بهم «الزناتيون» باعتبارهم بدواً مثل العرب، وتحالفوا معهم ضد إخوانهم «الصنهاجيين» الذين بقوا يعيشون مستقرين ومرتبطين بالأرض، بينما أصبح «الزناتيون» يعيشون حياة البداوة مثل العرب، وهو ما يبين لنا حجم الصورة السلبية التي قدمها نموذج دراستنا للعناصر المشكلة للمجتمع الجزائري؛ لأن هذه العناصر حسبه تقوم على التشتت، وغياب الروابط والأواصر المشتركة، وسيادة الكراهية بينها بدل التواصل الإيجابي.

فالمجتمع الجزائري حسب وجهة نظر «إميل فليكس غوتييه» لا يمكن تصوره على أساس عنصر واحد يملك حِسًا مشتركًا، بل العكس من ذلك تمامًا؛ فغوتييه صوَّر لنا أن الجزائر تتكون على الأقل من أربعة عناصر عرقية رئيسية لا يمكن اختزالها في بعضها البعض، حيث نجده يتكون من القبائل العربية البدوية والقبائل المستقرة، كما نجد قبائل بربرية مرتحلة ومستقرة، وهذه العناصر المتباينة ليس بينها أي اتحاد أو تناسق، باعتبار أنها تنقسم إلى مجموعات متباعدة جدًا عن بعضها البعض وتتجاهل بعضها البعض. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 438-439).

ويؤكد أيضاً أن الطابع البدوي الذي يميز حياة السكان في شمال إفريقيا بين البداوة والتحضر، لم يؤثر على ماضي المنطقة فقط، بل على العكس من ذلك، أثر على ماضيها وحاضرها وحتى على مستقبلها؛ فطابع الانقسام القائم على أسس القبيلة والعشيرة والبداوة والتحضر ينتج عنه صراع أبدي بين هذه المكونات، فالخضوع لهذا الأسلوب معناه غلبة القوة على حياة الجزائريين؛ فعندما تكون القبيلة قوية تفرض نفسها على باقي القبائل، أما إذا ظهرت قبيلة قوية أخرى فسيؤدي ذلك إلى تصارع القبيلتين فيما بينهما.

وهذه الحياة التي صورها لنا «غوتييه» هي السمة الغالبة على تاريخ الجزائر؛ حيث يؤكد أن شعور الانتماء للقبيلة هو أقصى ما وصل إليه سكان الجزائر، سواء في التاريخ القديم –عهد الملك ماسينيسا– أو التاريخ الحديث والمعاصر –عهد الأمير عبد القادر–، حيث يقول: «**كان النوميديون بلا شك بدواً عظاماً؛ فقد امتلكوا على وجه الخصوص السمة التاريخية الأساسية للترحال، وهي التفوق السياسي الناتج عن تنظيم عسكري طبيعي، أي احتكار القوة، طالما لم يواجهوا تنظيماً عسكرياً مصطنعاً للدولة، إن القبيلة البدوية الكبيرة ودون استعداد مسبق تخضع لسيطرة أميرها أو قائدها، وينطبق هذا التعريف على كل من ماسينيسا وعبد القادر**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 22)

وهو ما يثبت لنا أنَّ «إميل فليكس غوتييه» عمد إلى إثبات تباين مكونات المجتمع الجزائري وانتشار الصراعات بينهم، باعتبار الاختلاف الكبير بينهم من حيث نمط العيش بين البداوة والتحضر، وهذا التباين لم يسمح أبداً بتحقيق تفاهم فعلي بين عناصر المجتمع الجزائري، فالقبائل البدوية المرتحلة ترى في القبائل المتحضرة عدوها اللدود الذي يجب محاربته والقضاء عليه، وهو ما يؤكده حيث يقول: «**أفراد قبيلة زناتة كانوا أمَّة واحدة بلهجة مميزة وموحدة، كانوا معارضين بشدة لأمازيغ الشرق كتامة، وكانوا أعداء لدودين لسلالاتهم (الفاطميين والزيريين). ويبدو أنَّ الصراع كان بين تنظيمين اجتماعيين لا يقبلان الاختزال، البدو والحضر، فضل الزناتيون الأجانب البدو مثلهم على مواطنيهم الحضر، كانوا حلفاء البدو وشركائهم**». (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 264).

لذلك نجد أن نموذج دراستنا، من خلال تحليله السابق، يصل إلى نتيجة أساسية عن المجتمع الجزائري، حيث يرى بأنه تأثر كثيرا بالطابع العربي الشرقي، والذي يتسم بعدم تمسكه المطلق والدائم بالأرض، وهو ما ساهم في غياب الشعور الوطني؛ لأن الطابع الشرقي غير المرتبط بالأرض وسَّع الهوة الحضارية بين مكونات المجتمع وعناصره، والجزائر باعتبارها تتكون من قبيلتين متباينتين هما «صنهاجة» و«زناتة»، ساهم ذلك بشكل كبير في غياب الشعور الوطني الموحد بينهما، لأن العداوة متأصلة بينهما لا تمحى. (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 67)

وبالتالي فإن الصراع، حسب رأي «غوتييه»، لا ينحصر بين عنصرين أساسيين هما: البدو والحضر، أو البربر والعرب فقط، بل يتعداه إلى صراع وجودي يسعى لإثبات أحقية كل عنصر من العناصر السابقة في الأرض التي يملكها، أو التي يستقر فيها، أو المكان الذي يعود للارتحال إليه. كما نؤكد أيضاً أن «غوتييه»، حينما أشار إلى انقسام الجزائريين إلى قبيلتين هما «زناتة» و«صنهاجة» والصراع القائم بينهما، سعى إلى تبيان أثر التباين الكبير في نمط معيشة القبيلتين في احتدام الصراع بينهما أكثر.

فقدوم العرب ساهم في تغيُّر طبيعة حياة السُّكَّان، خصوصاً بتبني قبائل زناتة نمط الحياة البدوية الترحالية على نمط البدوية العربية الوافدة، وهو ما شكَّل –حسبه– تبايناً في التنظيم الاجتماعي لقبائل مجتمع الجزائر ووسَّع الهوَّة بينهم؛ فالرُّحَّل نتيجة اعتيادهم على حياة التنقل بخيامهم البدوية لا يستطيعون – حسبه– الاعتياد على حياة النظام والقانون، وبذلك يظهر العداء المتأصل مع القبائل المستقرة التي لديها ارتباط قوي بالأرض. يقول «غوتييه» في هذا الصدد: «**هناك اختلافات جذرية في أنماط حياة السُّكَّان، من جهة قرويو الجبال ملتصقون بالأرض بغريزة ديمقراطية وشعور قوي بالملكية الخاصة، ومن جهة أخرى بدو الخيام الكبيرة بغرائز شيوعية في ظل تنظيم أرستقراطي وأميري، وهاتان المجموعتان على مر التاريخ وآلاف السنين نهبتا وذبحتا بعضهما البعض بلا رحمة ودون هوادة، ولكل مجموعة انتصاراتها ورجالها العظماء**». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 198)

إذاً، يرى «إميل غوتييه» من خلال طرحه هذا يسعى لإثبات أنَّ الجزائر ليست مكوّنة من أمَّة واحدة، بل تتكون من مجموعة من القبائل، وأنَّ الشعور الوطني لدى الجزائريين لم يرتقِ لتشكيل أمَّة واحدة ودولة واحدة، وبذلك فتبريراته المقدَّمة لإثبات تفكك المجتمع الجزائري كلها تسعى إلى خدمة غاية واحدة وهي نفي وجود الأمَّة والدولة الجزائرية قبل مجيء الفرنسيين، وأنَّ أقصى ما وصل إليه الجزائريون هو الانتماء للقبيلة والعشيرة فقط، لأن اختلاف قبائل السُّكَّان هو مؤشر على عدم تجانسهم وعدم قدرتهم على تحقيق ترابط حقيقي، وهو ما يؤكده «غوتييه»، حيث يقول: «**بالنسبة للشرقي، الخلية البشرية والتاريخية هي القبيلة، أو العشيرة، أي النوع البيولوجي المنفصل تماماً عن أي أساس من ركائز الدولة أو المقاطعة، وذلك لأنه في جوهره بدوي، وعلاوة على ذلك، لم يتجاوز في تطوره مرحلة العشيرة**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 19)

فالمجتمع الجزائري والمغاربي لم يشهد، كما يقول نموذج دراستنا، عبر أزمنته التاريخية المختلفة تطوراً كبيراً في أسلوب الحياة ما عدا أسلوب العيش في القبيلة والعشيرة، وهذا الأسلوب هو ما فرض على السكان العيش في صراعات مستمرة بين مكوناته المختلفة، ولم يستطع أن ينتقل من طور البداوة إلى دور التحضر، وهذا بطبيعة الحال مرده الأساس إلى الميزة الأساسية التي اختص بها سكان بلاد المغرب ألا وهي حب الفوضى والحرب والصراعات فيما بينهم، ولذلك فهو يحكم على السكان بأنهم لم ولن يستطيعوا تحقيق وحدة سياسية نتيجة غياب عناصر الوحدة بينهم، وهو ما سنوضحه أكثر في العنصر الموالي.

4 – الرد على رأي غوتييه فيما يخص مسألة غياب عناصر الوحدة لدى سُكَّان الجزائر

كما ذكرنا في العنصر السابق (غياب الأمة)، فإن «غوتييه» في حكمه على قصور الشعوب المغاربية عن حكم ذاتها يستند لذاتية مركزية، حول مركزية الحضارة الغربية والأوروبية للعالم، لكن ما قد ينطبق على الشعوب الأوروبية خلال فترة معينة، قد لا يصلح إسقاطه على المجتمعات غير الأوروبية، خصوصاً مجتمعات مسلمة تطورت بشكل مستقل ولعدة قرون عن التأثير الأوروبي. فإذا كان الشعور القومي أو الوطني (nationalisme) بمفهومه الحديث يدفع الشعوب ويحركها لأجل الوصول لتحقيق مبدأ الدولة الأمة (état-nation)، أي تشكيل كيان سياسي (دولة) خاص يجمع الشعب الواحد (أو القومية الواحدة)، والعمل على تحقيق التطور بشكل جماعي في إطار النظام الذي يختارونه.

إلا أن ذلك المفهوم لم يكن موجوداً لدى الشعوب الإسلامية التي كانت تتعلق أكثر بمفهوم الخلافة، لا بمفهوم الدولة الوطنية، وأن الأساس في تشكيل السلطة ونظام الحكم يقوم على معايير دينية، تحتكم أساساً لمفهوم الحديث المأثور، والذي يدعو للسمع والطاعة، ولو تم تولية الحكم عبد حبشي. وهو ما يختلف عن مبدأ القومية الذي يرتكز على أساس أن الحاكم يجب أن يكون من جنس المحكومين. ومنه فإن الأحكام التي يصدرها «غوتييه» حول وجود حكام أجانب أسسوا دولاً في البلاد المغاربية، لا يمكن تطبيقها على دول الحضارة الإسلامية.

ومن جهة أخرى، إذا ألقينا نظرة على الوضع العام لأوروبا خلال العصور الوسطى والعصر الحديث، نجد بأنه في الكثير من الحالات، لم يكن الحكام يتم اختيارهم من بين أفراد الشعب لتلك البلاد، بل كانت توجد عائلات ملكية تهيمن على مختلف العروش الأوروبية، وتترابط بالزواج السياسي، مما يجعل عائلة واحدة يمكن أن تحكم عن طريق المصاهرات عدة عروش أوروبية.

وفيما يخص إنكار «غوتييه» وجود وحدة سياسية وهيمنة مفهوم القبيلة والعشيرة على حساب الانتماء للأمَّة والوطن، والعمل على تحقيق دولة، فإن هذا الأمر لم يكن في معظم الحالات متحققاً في أوروبا خلال العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، حيث عاشت أوروبا مشتتة إلى إقطاعات مستقلة أو شبه مستقلة، في ظل غياب أو ضعف السلطة المركزية، كما أنَّ السلطة السياسية لم تعرف الديمومة والاستقرار.

ولذلك نقول إنَّ التوجهات التي تبناها «إميل غوتييه» في سياق طرحه لإشكالية تباين أصول السُّكَّان واختلاف مكوناتهم عن أطروحة غياب الأمَّة الجزائرية لا تختلف إطلاقاً عن الأطروحات التي قدمها غيره من المؤرخين الفرنسيين، وقد بيَّنَّا في الفصل الأول من هذه الدراسة نماذج للأفكار العنصرية التي تبناها رواد المدرسة التاريخية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر، خاصة نظرتهم الفوقية للجزائريين وسعيهم الدائم لإثبات تفوق الرجل الأوروبي الأبيض على باقي المجتمعات، ومن هذا المنطلق فإنَّ «غوتييه» كما بيَّنَّا يسعى إلى إثبات استحالة وجود وحدة سياسية بين المجتمع الجزائري، باعتبار أنَّه يتكوَّن من مجموعة متباينة من القبائل والعشائر، وهذه القبائل تحكمها العصبية القبلية، ولم تعرف شعوراً أقوى من هذا الشعور، كما أنَّ هذا الشعور القبلي هو ما ساهم في انتشار الصراعات بين مكونات المجتمع منذ العصور القديمة إلى فترة الاحتلال الفرنسي.

وهذا الصراع، كما يؤكد «غوتييه» في الكثير من كتبه ومقالاته، هو الذي منع الجزائريين من مواجهة الأجانب وطردهم من بلادهم، كما أن تباين أصول السكان ومكوناتهم ساهم في بروز تحالفات عكسية داخل المجتمع الجزائري، ومن ذلك لجوؤهم إلى الاتحاد والتحالف مع كل أجنبي للانتقام من بعضهم البعض، كما نلاحظ أن نموذج دراستنا لم يكتفِ فقط بالتركيز على انتشار روح العداوة بين العرب والبربر، بل أصر على وجود صراع داخلي، فالعرب ينقسمون إلى بدو ومستقرين، وهما في صراع دائم بسبب تباين نمط الحياة، كما أن البربر ينقسمون إلى سكان القبائل والشاوية وبني ميزاب والطوارق، وكل هذه الانقسامات صعبت، حسب رأي المؤرخ «غوتييه»، من عملية التواصل بينهم.

غير أنَّ ما ذكره نموذج بحثنا في سياق دفاعه عن إشكالية أصول السُّكَّان واعتبارها عائقاً في تحقيق الوحدة السياسية، غير منطقي تماماً، وذلك من منطلق أن نموذج دراستنا انطلق من أفكار الحاضر الذي يعيشه هو، والذي يتميز بانتشار الفكر القومي في العالم، وذهب ليطبق هذا الفكر على ما عرفه تاريخ الجزائر وشمال أفريقيا في العصور الوسطى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نقول أنَّ «غوتييه» رغم تبنيه لفكرة القومية والدولة والأمة الواحدة، لم نجده يطبق هذا المنهج عند تحليله لتاريخ شمال أفريقيا في فترة الاحتلال الروماني والبيزنطي.

فالانقسام الذي ذكره نموذج دراستنا عن المجتمع الجزائري في التاريخ الوسيط، كان موجوداً أيضاً في فترة التاريخ القديم، حيث نجد الكثير من المصادر والمراجع تشير إلى وجود عدة قبائل في شمال إفريقيا مثل «الجيتول» و«المور» و«النوميد» وغيرهم من القبائل، لكن نموذج دراستنا كما بينا سابقاً لا يشير إلى الصراع بين هذه القبائل في العهد الروماني والبيزنطي، بل يؤكد على التعايش بين هذه القبائل فيما بينها من جهة، وبين هذه القبائل وبين الرومان والبيزنطيين من جهة ثانية.

لذلك، فالتوجهات التي أوردها «إميل غوتييه» تحمل في صبغتها طابعاً عنصرياً محضاً، لأنه أصر على أن المجتمع الأوروبي يمثل الرقي والحضارة، في حين تأتي بقية المجتمعات في مرتبة أدنى منه، خاصة البربر والعرب. كما أن هذه التوجهات تتسم بطابع الحقد والغل لكل ما له علاقة بالعربية والإسلام، لأن التاريخ الوسيط الذي يصوره كقرون مظلمة في تاريخ شمال إفريقيا، ما هو إلا أعظم مرحلة عرفتها بلاد المغرب، باعتبار أن سكان المنطقة تبنوا الإسلام ولغته العربية، وأسسوا من هذا المنطلق دولاً ذات أفكار مغاربية

محضة. كما أن بروز هذه الدول –وحسب وجهة نظرنا– هو شعور وطني محض تميز به سكان المغرب، باعتبار أن هذه الدول أعلنت استقلالها عن المشرق وتميزت بطابعها الإداري والاجتماعي الخاص.

أما فيما يخص مسألة عدم شعور الجزائري بذاته، والتي تُعد من بين النقاط التي تتكرر في كتابات «غوتييه» وتحليله لتاريخ الجزائر، فلا شك أنَّ غوتييه في حكمه ينطلق من مفهوم الدولة الحديثة، وهي الدولة الحديثة التي تختلف عن الدول التي عرفت شمال إفريقيا والعالم خلال العصور الوسطى؛ بحيث لم تكن أنظمة الحكم تقوم على مبدأ أنَّ الحاكم يجب أن يكون من أهل البلاد، وهذا ينطبق على العالم الإسلامي، حيث وُجد حكام مشارقة حكموا المغرب والأندلس والعالم الأوروبي، ففي زمن ازدهار الإمبراطورية الرومانية كان الرومان يعينون حكام الأقاليم من بين الطغمة الحاكمة في روما، وفي العصور الوسطى والحديثة وحتى في بداية الفترة المعاصرة، وُجدت أسر حاكمة في أوروبا كانت تعيّن أبناءها على عروش في مناطق مختلفة، وهذا ما قام به مؤتمر فيينا، مثلاً.

ونفس الشيء يمكن وصفه بالنسبة للعالم الإسلامي، ففي حالة الجزائر التي كانت الفئة التركية هي الحاكمة، لم يكن ذلك يطرح إشكالاً، لأن الرابطة الإسلامية ومسألة الخلافة كانت حاضرة بقوة أكثر من مبدأ الدولة الوطنية. وحتى الثورات التي قامت في العهد التركي لم تكن ثورات ذات طابع وطني، بل مجموعة من التمردات على ظلم الحكام الأتراك، ولم يكن هدف تلك الثورات هو إخراج الحكم التركي، بل مقاومة سلوكياته التعسفية.

وبالإضافة إلى ذلك، نؤكد على أمر غاب كثيراً عن ذهن «غوتييه» أو غيَّبه عن عمد في تحليله لمسألة غياب الوحدة بين عناصر المجتمع الجزائري؛ فهو انطلق من مبدأ أن التنوع يعني الصراع وتأزم العلاقات بين القبائل الجزائرية، لكن نموذج دراستنا تناسى أن اختلاف أسلوب الحياة بين البداوة والتحضر ليس مرتبطاً بقبيلة معينة ولا منطقة معينة.

فالدارس مثلاً لمجتمع الأوراس في التاريخ الوسيط وحتى التاريخ الحديث والمعاصر، سيجد أن الكثير من القبائل لا تعتمد على حياة التنقل والترحال في أسلوب معيشتها، بل اعتمدت على حياة الاستقرار، حيث يشير الضابط «ارنست كاريت Ernest Carette» في كتابه «**وصف وأقسام الجزائر Description et division de l'Algérie**»، إلى أن سكان الأوراس معظمهم قبائل مستقرة؛

يعيش بعضهم في القرى ويقوم بزراعة الفواكه، أما البعض الآخر فيعيش في الخيام ويزرع الحبوب. كما أشار «كاريت» أيضاً إلى أن مفهوم القبائل الرحل غير موجود في الجزائر؛ لأن جل القبائل التي تعتمد على حياة البداوة تلتزم في تنقلاتها بمناطق محددة تستقر فيها، والتي يتم تحديدها تبعاً لطبيعة المناخ والتربة. (Carette, 1847, pp. 21-23)

وهو ما يبين لنا حجم المغالطات التي وقع فيها نموذج دراساتنا؛ فهو من خلال التوجهات التي تبناها في تقسيمه للمجتمع الجزائري إلى عرب وبربر، وإلى بدو وحضر، وإلى شاوية وقبائل وبني ميزاب وغيرهم، أراد إثبات فكرة الانقسام العرقي في أوساط الحكومة الفرنسية؛ حتى تستغل هذا التباين وفق ما يخدم توجهاتها الاستعمارية، فالإدارة الفرنسية -وبفضل هذه الدراسات التي أنجزها «غوتييه» وغيره من الباحثين الفرنسيين- استطاعت تأجيج هذا الانقسام، وتحويل نظر المجتمع الجزائري من محاربة الفرنسيين والعمل على طردهم من الجزائر، إلى حمل السلاح ضد بعضهم البعض، وهو ما تجسد في الكثير من الأحيان إبان فترة الاحتلال الفرنسي، ومن ذلك نذكر الأزمة البربرية التي عرفتها الجزائر سنة 1949.

لكن مشكلة «غوتييه» أنَّه لا يدرس الأحداث في إطارها التاريخي والحضاري. بل يعمل على تغليط القارئ، لأجل الترويج لخلفياته الأيديولوجية الاستعمارية. من خلال اعتماد التاريخ الأوروبي الحديث بمثابة مرجعية لتفسير تاريخ الجزائر الوسيط والحديث. لهذا نجده يتحدَّث عن عجز المغاربة والجزائريين خصوصاً عن تسيير أمور أنفسهم، بل دائماً ما يتم تسيير أمورهم السياسية من قبل حكام أجانب.

علاوة على ذلك، نجد نموذج دراستنا لا يكتفي بإثبات غياب عناصر الوحدة بين مكونات المجتمع الجزائري، بل واصل طرح أفكاره الداعمة لحتمية الصراع بين الجزائريين، ومن بين المسائل التي سعى إلى إثباتها عن الجزائر ومجتمعها، مسألة تباين أصول السكان ودورها في استمرار الصراع الداخلي والفشل في تأسيس وحدة سياسية، وهو ما سنعالجه في المحور الثاني بالدراسة والتحليل والنقد.

ثانياً:

إشكالية تباين أصول المجتمع الجزائري

لم يتوانَ نموذج دراستنا في الاستمرار بطرح أفكاره العنصرية التي تحمل في جعبتها مجموعة من الأفكار المتطرفة للعنصر الأوروبي، والتقليل من شأن بقية الشعوب، خاصة شعوب شمال إفريقيا؛ فمن أجل التأكيد على صدق ما ذهب إليه من فرضيات وأطروحات، راح «غوتييه» يخوض في المجال الإثنوغرافي من خلال دراسة أصول سكان شمال إفريقيا، غير أنَّ هذه الدراسة –وبالنظر لما يتميز به هذا الرحالة الجغرافي والمؤرخ من تحوير للحقائق التاريخية– تتسم بطابع الحرص على إثبات تباين أصول السكان التاريخي من أجل التأكيد على استحالة تحقيقهم لوحدة سياسية. ومن جهة ثانية، سعى أيضاً إلى التأكيد على الأصول الأوروبية لبعض سكان الجزائر، وهي الأطروحات التي سنعالجها في العناصر الموالية.

1 – اختلاف وتنوع العرق البربري وادعاء أصوله الأوروبية

يُقدِّم «غوتييه» سكان الجزائر وبلاد المغرب على أنَّهم ليسوا من أصل واحد، بل هم خليط من الأجناس التي استقرَّت في المنطقة عبر العصور، وهذا نتيجة الهجرات التي عرفتها المنطقة؛ بدايةً بقدوم القرطاجيين وصولاً إلى فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. فهم –حسب رأيه– يتشكلون من بربر وعرب وميزابيين وطوارق وغيرها من العناصر البشرية ذات التوجهات المختلفة في نمط الحياة، كما أنَّ هذه المكونات تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، فالبربر في نظره يتكونون من مجموعة من القبائل غير المتناسقة فيما بينها في طرق العيش.

ولكي يثبت لنا استحالة انسجام العنصر البربري فيما بينه بسبب اختلاف مكوناته العرقية، يقول: «**البربر، الذين يعانون من هذا العجز الغريب عن الوجود الجماعي، هم أفراد ليس لديهم نمط بشري واضح المعالم؛ فهناك بشر ضخام وآخرون صغار جداً، بعضهم أشقر وآخرون يكاد يكونون**

سوداً، هذا العرق مزيج من نوعه». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 60)

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ إشكالية سُكَّان الجزائر لا تقتصر فقط على تباين مكوناتهم ونمط حياتهم، بل تتجاوز ذلك إلى اختلاف أصل السُّكَّان؛ فالعرق البربري، كما يقول نموذج بحثنا، لم يتم حسم البحث في أصوله، وهو يضم مجموعات بشرية ذات بشرة بيضاء وشعر أصفر، وأخرى لون بشرتها داكن، مما يبين عدم وحدة هذا العرق، وإمكانية انتمائهم لأصل واحد، لدرجة أنَّه «**إذا أراد المرء ربطهم بعرق فسيواجه صعوبات جمة، حيث يتميز سُكَّان القبائل في الجزائر ببشرة فاتحة وأحياناً بعيون زرقاء وشعر أشقر، وعلى العكس من ذلك يتميز سُكَّان الأطلس المغربي ببشرة داكنة، لدرجة لا يمكن إنكارها... الموريون ككل ليسوا زنوجاً أكثر من الشقر، إنَّهم بيض البحر الأبيض المتوسط، مثل غيرهم وهم وثيقو الصلة بجنوب إيطاليا والإسبان، ولم تفض الأبحاث الأنثروبولوجية الدقيقة إلى أي نتيجة، فعرق الموريين مثل الآخرين وربما الجميع عبارة عن مجموعة غير واضحة من الأنواع البشرية».** (Gautier, l'Afrique .Blanch, 1939, pp. 170-171)

وبشكل عام لا نجد «غوتييه» يدرس البربر ككتلة واحدة، بل يقدمهم كمجموعات متفرقة وحتى متناحرة، يربطها العداء أكثر مما تربطها أواصر مشتركة؛ بحيث يركز على الاختلاف بين النوميديين والموريين والجيتول في العصور القديمة، وبين صنهاجة وزناتة في العصور الوسطى، ثم بين الشاوية والقبائل والميزابيين والطوارق في العصر المعاصر. ومع ذلك فإنَّه يدعي أنَّ تلك المجموعات المتفرقة حسب تصوره لديها أصول أوروبية، دون أن يثبت تلك الأصول بمصادر تاريخية أو دراسات علمية، ولم يبين تاريخياً طريقة انتقال تلك المجموعات البشرية واستقرارها في شمال إفريقيا، كما أنَّه لا يثبت لتلك المجموعات أصولاً أوروبية موحدة.

فنموذج دراستنا لم يسعَ بتاتاً إلى تطبيق منهجه الصارم في البحث التاريخي لتحري أصول سكان شمال إفريقيا، بل اكتفى بإيراد ما توصل إليه بعض العلماء الفرنسيين من دراسات حول الخصائص الفيزيولوجية لشعب الجزائر، من أجل إثبات صحة تباين أصول سكان الجزائر، حيث أشار إلى أن العلماء وجدوا تبايناً كبيراً في أصول السُّكَّان، حيث يقول: «**الأهلي الجزائري أو بالأحرى أهالي شمال إفريقيا، المغاربي، رجل متوسطي تربطه صلة قرابة غير مباشرة بالصقليين والسردينيين والأندلسيين، لم يتمكن**

علماء الأنثروبولوجيا، الذين يقيسون الجماجم وزوايا الوجه، من تحديد سمات عامة مشتركة، فشعب المغاربة مزيج من أعراق متنوعة مختلطة». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 198).

فالمجتمع الجزائري، بناءً على الطرح الذي جاء به نموذج دراستنا، غير متجانس في مكوناته وأصوله العرقية، وهذا التمايز والتباين هما ما شكّلا حجر عثرة أمام تحقيق التفاهم بين عناصره؛ فالذي تعود أصوله لأوروبا –مثل سكان منطقة القبائل وبعض القبائل الصحراوية– لهم طريقة تفكير مغايرة لمن لهم أصول مشرقية، حيث إن «غوتييه» يصر في جميع دراساته المتعلقة بالعنصر الشرقي (العرب) على أنَّ تفكيرهم منحط كثيراً مقارنة بغيرهم من الشعوب، وبالتالي فإنَّ المجتمع الجزائري الذي يتكون –حسبه– من عرب وبربر وبقايا أصول أوروبية وفارسية وغيرها من الأجناس التي استقرت في المنطقة عبر مختلف الأزمنة التاريخية، لا يمكنه تحقيق شعور واحد مشترك؛ لأن كل واحد من هذه الأعراق له طريقته الخاصة في التفكير، وكل واحد من هذه الأعراق يسعى إلى إثبات نفسه أمام باقي الأعراق، ولذلك فالجزائر لم تشهد بروز دولة ذات شعور وطني مشترك، بل كل ما تشكل هو عبارة عن عصبية قبلية.

ومن أجل إثبات فكرة اختلاف أصول سكان الجزائر بصفة خاصة وشمال إفريقيا بصفة عامة، يقول «غوتييه» عن البربر: «**لا يعرف شيء عن أصلهم، وإذا أراد المرء ربطهم بعرق فسيواجه صعوبات جمة، حيث يتميز سكان القبائل في الجزائر ببشرة فاتحة وأحياناً بعيون زرقاء وشعر أشقر، وعلى العكس من ذلك يتميز سكان الأطلس المغربي ببشرة داكنة لدرجة لا يمكن إنكارها... الموريون ككل ليسوا زنوجاً أكثر من الشقر، إنهم بيض البحر الأبيض المتوسط مثل غيرهم، وهم وثيقو الصلة بجنوب إيطاليا والإسبان، ولم تفض الأبحاث الأنثروبولوجية الدقيقة إلى أي نتيجة، فعرق الموريين مثل الآخرين وربما الجميع عبارة عن مجموعة غير واضحة من الأنواع البشرية**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 170-171)

إذا «فغوتييه» يحاول أن يضفي على أطروحاته ذات الطابع العنصري طابعاً علمياً، من خلال محاولة نسب البربر لأصول أوروبية، معتبراً اختلاف مكونات سُكَّان الجزائر أنَّه لم يكن بسبب تباين نمط حياتهم فحسب، بل نتيجة تباين أصولهم؛ لأن «**علم الأنثروبولوجيا يؤكد أنَّ البربر في بنيتهم الجسدية**

وشكل جمجمتهم مرتبطون بالإسبان الجنوبيين وبالإيطاليين أكثر من ارتباطهم بالأعراق الإفريقية والشرقية». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, p. 29).

ومن القبائل التي سعى «غوتييه» إلى إثبات أصولها الأوروبية قبائل «شاوية زناتة»، حيث ادعى بأنَّ لهم أصولاً أوروبية، دون أن يثبت ذلك بأي دليل تاريخي، فحسبه سُكَّان الأوراس يحملون «**اسم الشاوية» الذي يعني رعاة الأغنام، وهو مبرر، فالأغنام والماعز هي بالفعل الثروة الحيوانية التي يرعاها الشاوية. والشاوية ليسوا بدواً بالمعنى الإفريقي للكلمة، بل هم رعاة رُحَّل قدموا من جبالنا الأوروبية»**. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 261). وهذا الادعاء أورده نموذج دراستنا في العديد من المواضع رغم اعترافه في مواضع أخرى بأن «الشاوية» يشبهون في نمط حياتهم العرب البدو، الذين يعتمدون على الرعي أكثر من اعتمادهم على الزراعة.

ولكي يوضِّح لنا «غوتييه» الأصول الأوروبية لغالبية القبائل البربرية، سعى أيضاً إلى دراسة أصول سُكَّان الصحراء، وخاصة قبائل الطوارق، الذين –رغم وجودهم في قلب القارة الإفريقية وبعدهم الجغرافي عن العالم المتوسطي، وبالتالي عدم احتمال إمكانية احتكاكهم بالإنسان الأوروبي– فإنَّ نموذج دراستنا يفصلهم عن الأرض الإفريقية التي ينتمون إليها ويعتبرهم من أصول أوروبية؛ حيث يقول: «**شعب الطوارق لهم سمات عرقية تشبه السمات العرقية الفرنسية، كالشعر المموج واللحية الكثيفة والصلع المبكر، فكثيراً ما صادفت خلال رحلاتي بين الطوارق وجوهاً مألوفة لفرنسي جنوبي يرتدي طوقاً وربطة عنق، كما أنَّ علم الأنثروبولوجيا يربط بين الطوارق وعرق الكرومانيون «Cro-Magnon» الذي عاش في أوروبا، وهذا لأنَّ هناك تشابهاً كبيراً بين هذين العرقين من الناحية الأخلاقية والفكرية وحتى الجسدية، أي بمعنى أنَّ الجنس الأوروبي يعيش بين الطوارق**»، وأكَّد على أنَّ هؤلاء الطوارق يتركون انطباعاً أخوياً وتبدو عقليتهم مشابهة لعقلية الفرنسيين. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 182)

وحسب تقسيمه الذي يتكرر في كل مرة، يبيّن الفرق بين الشاوية والقبائل في زمنه بأنه مثل الفرق بين «الزناتيين» و«الصنهاجيين» في العصور الوسطى، ويذكر أن الشاوية، ونتيجة التغيرات التي

عرفتها الجزائر إبّان العصور الوسطى بظهور العرب وتحالف «الزناتيين» معهم، أصبحوا مختلفين تماماً مقارنة بجيرانهم البربر في القبائل، فبينما تبنى الشاوية حياة البداوة والترحال، جعلهم هذا التغير بعيدين كل البعد عن الأطر الحضارية، في حين آثر جيرانهم بربر القبائل حياة التمدن التي جعلتهم، حسب نموذج بحثنا، أشد تقبلاً للحضارة الأوروبية.

لذلك نجد أن «إميل فليكس غوتييه» كثيراً ما يتفاءل بسكان منطقة القبائل، ويعتبرهم مثالاً يحتذى به في التمدن والتحضر عكس الشاوية الذين آثروا البقاء متقوقعين على أنفسهم؛ حيث يقول: «**القبائل يتمتعون بحيوية استثنائية، فبلادهم تعج بالسكان وتشهد هجرة وتصد الاستعمار الأوروبي، وقد غزو الجزائر منذ طرد الأتراك، وبعد الحرب(العالمية الأولى) أُغرِقت فرنسا بمائة ألف «سيدي»، وهذه الحركة العظيمة من الغزو السلمي ترافق معها تطور فكري، حيث تتغير الروح العامة في القبائل... لا شيء من هذا القبيل في الأوراس، الشاوية لا يزالون في ديارهم... ما زالوا يتعاملون بعقلية الأجداد القديمة المعروفة والمريحة للغاية**». (Gautier, Les Cavernes du Dir, 1925, p. 401)

فالتقبل الحضاري الذي يناقشه «غوتييه» لا يكون إلا إذا توفرت في الشعب شروط تثبت الأصول الأوروبية لقبائل الجزائر، لأنه يرى بأنَّ وجود هذا الأصل يعني بالضرورة وجود نوع من القابلية للتحضر وتطبيق الأفكار الفرنسية، وهو ما يثبت لنا أن هذا الباحث، رغم سعيه الحثيث إلى إثبات الأصول الأوروبية لبعض سكان الجزائر، يحمل معه بذور أفكار عنصرية خالصة، فهو يرى بأنَّ هذه القبائل حتى وإن ثبت بأنها ذات أصول أوروبية، فإنها تحتاج إلى دفعة حضارية وإلى رعاية تشرف عليها فرنسا، وبالتالي فالفرضية التي أكدنا عليها فيما سبق، والتي تقوم على مساندته لفكرة تفوق العنصر الأبيض على باقي الشعوب، هي فرضية صحيحة شكلاً ومضموناً، فالتفوق العرقي هو ما يسمح لشعب بإملاء أفكاره وتوجهاته وحتى لغته على باقي الشعوب الضعيفة والمغلوب على أمرها.

كما نؤكد أن نموذج دراستنا، ومن خلال إثبات فكرة التباين في أصول المجتمع الجزائري، يشير في الكثير من كتبه ومقالاته إلى أنهم: «**لا يشكلون كتلة متجانسة ذات طرق تفكير ومشاعر مشتركة؛ فهم لا ينصتون بروح واحدة لشخصية جماعية مُشكلة بشكل نهائي، فالجزائر الأوروبية أشبه بلوحة شطرنج أو فسيفساء؛ فهناك عشرون عشيرة صغيرة مغلقة ومنظمة لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتتجاهل**

بعضها البعض، فهناك مجموعة إسبانية ومجموعة إيطالية ومجموعة فرنسية وفي كل منها مجموعات فرعية، فالجزائر إذاً غبار مفكك من مجموعات بشرية صغيرة، ومن السهل إدراك أنها لا يمكن أن تكون كتلة أو جمهوراً ينسجم عند أدنى نداء فهو غير مكتمل الاندماج بعد». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 97)

«فغوتييه» لا يرى بأن المجتمع الجزائري غير متجانس فقط في مكوناته، بل يتعدى الأمر ذلك إلى اختلاف أصول السكان، وهي الأصول التي سعى إلى إرجاعها للعنصر الأوروبي، سواء لسكان منطقة الأوراس أو سكان منطقة القبائل أو قبائل الطوارق في أقصى جنوب الجزائر، وهذه التوجهات –حسب وجهة نظرنا– تسعى بالدرجة الأولى لإثبات استحالة تحقيق هذا المجتمع للوحدة السياسية بالنظر لاختلاف مكوناته، كما يسعى من خلال إثبات الأصول الأوروبية لسكان الجزائر إلى إثبات قدم الاستقرار الأوروبي بالمنطقة، وأن فرنسا لم تقم باحتلال المنطقة كما يزعم الكثيرون، بل قامت باستعادة الأراضي التي كانت ملكاً لأجدادهم في العصور الغابرة.

2 – إشكالية العداء بين مكونات المجتمع الجزائري ومسألة النسب الشريف

واصل نموذج دراستنا مناقشة الأطروحات التي تبحث، حسبه، عجز الجزائريين عن تحقيق شعور وطني، رغم أن هذه الأفكار –كما بينا– لم تتبلور إلا في العصر الحديث، لكن «غوتييه» يعمل على تطبيق أفكار عصره على عصور غابرة في التاريخ، كما يسعى أيضاً إلى إثبات استحالة تكوين الوحدة السياسية بالنظر للصراع المستميت بين مكونات المجتمع، خاصة العداء بين العرب والبربر؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية حرص أيضا على الربط بين استمرارية العداء وبين مسألة ادعاء النسب الشريف، والتي رأى بأنها تشكل عبئاً آخر على إدراك الجزائريين لذاتهم، وبالتالي تحقيق وحدة سياسية وشعور وطني مشترك.

2 – 1 – العداء عبر التاريخ بين القبائل العربية والبربرية

بيَّنَّا فيما سبق كيف عمل «غوتييه» على إثبات وجود أصول أوروبية للسكان البربر، والربط بين نمط حياة سكان منطقة القبائل وسكان الأرياف في فرنسا وإيطاليا وغيرهما، وهذا لأجل عزلهم عن العنصر العربي القادم من المشرق، وربطهم بالعنصر الأوروبي، وذلك باعتبار أن «غوتييه» في ذهنية تفكيره

الاستعمارية العنصرية يرى أن الإنسان الأوروبي يمثل العنصر المتفوق، بينما يحمل الإنسان البربري والقبائلي بعض السمات التي يتميز بها الأوروبي، لذلك يُصنَّف في مستوى توحش أقل (bon sauvage).

ومن مظاهر قربه من التحضر حياته المستقرة، والارتباط بالأرض وحب العمل وتشييد مساكن بالأحجار، إلى جانب وجود تنظيم اجتماعي ديمقراطي (الجماعة، وهو مجلس الدوار)؛ في حين نجد الإنسان العربي يعيش على الترحال ويسكن الخيام، وحياته تمتاز بالبساطة، وهو يتسم بالكسل، ويسيطر على تنظيمه الاجتماعي النمط القبلي وطاعة الوجهاء الأرستقراطيين.

ومعلومٌ أنَّه لا توجد أعراق بالمفهوم الحقيقي في الجزائر، فكثيرٌ ممن يتحدثون لهجاتٍ مشتقةً من اللغة العربية هم في الحقيقة بربرُ تعرَّبوا، وبالإضافة إلى ذلك نقولُ إنَّه حتى النظرة الأوروبية لسكان شمال إفريقيا قبل 1830م، لم تخرج عن نطاق النظر لسكان الجزائر وشمال إفريقيا كمجموعاتٍ متميزة، بل ككتلةٍ واحدةٍ، وهم المور (maures).

وكانت كلمة العرب تطلق أيضاً للدلالة على كل سُكَّان شمال إفريقيا، ومن بين المصادر التاريخية التي قدمت لنا هذا الوصف التاريخي نذكر ما أورده الرحالة الفرنسي «**فانتور دي برادي Venture de Paradis, Jean-Michel**» الذي زار الجزائر سنة 1788م وسنة 1789م، وخصص جانباً مهماً من كتابه «**الجزائر في القرن 18ميلادي**» لوصف المجتمع الجزائري وعلاقته بالحكومة التركية في الجزائر وفي إسطنبول، حيث وجدنا أن هذا الرحالة عند حديثه عن المجتمع الجزائري يشير إليهم بصفة عامة بكلمة «المور Maures». (De Paradis, , Alger au XVIIIe siècle, 1898, pp. 29,45,53,56...)

لكن «غوتييه» يخالف هذا الرأي التاريخي الذي تثبته مختلف المصادر الأساسية، وحتى اللاتينية منها، لأجل التأكيد على توسع الهوة بين العنصر البربري والعربي، حيث يقول: «**عرقان مختلفان، بل أمتان تفصل بينهما عداوات لا تغتفر، حيث تنتشر اليوم في المقاهي المغاربية مقولات شائعة «البربر والعرب كالفرنسيين والألمان»، وكل من هذين العرقين منقسم انقساماً عميقاً فيما بينهم؛ فالعرب الحضر**

والعرب البدو يتقاتلون إلى الأبد، والقبائل البدوية دائماً ما تشحذ مخالبها ضد بعضها البعض».
(Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, p. 282)

ومن هذا المنطلق، يصل «غوتييه» إلى نتيجة اعتبرها اكتشافاً عظيماً، وهي أنَّ المجتمع الجزائري منذ بداية العصور الوسطى وحتى فترة الاحتلال، لم تختلف وضعيته وتركيبه الاجتماعي، بل ازدادت هوة الاختلاف بين العرب والبربر، حيث يقول: «**أمَّا اليوم فالخصمان المتواجهان ليسا فقط البدو والفلاحين مجتمعين، بل أيضاً العرب والبربر، وهكذا أضيف إلى كل الأسباب الأخرى سبب آخر قوي للكراهية الداخلية التي أكملت تفكك بلاد المغرب**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 434).

كما بيّن أن الصراع الذي يسميه اليوم بالصراع العربي البربري، والصراع بين العرب فيما بينهم والبربر فيما بينهم، إذا ما تمت دراسته وفق معطيات تاريخية، فسيصبح واضحاً لكل من يحاول فهم طبيعته؛ حيث يؤكد «غوتييه» على أن الصراع الذي يدور مثلاً إبان فترة الاحتلال الفرنسي بين العرب والبربر إنما هو صراع عريق تعود جذوره إلى الصراع الذي كان بين البتر والبرانس في العصور الوسطى، والصراع الذي كان بين «النوميد» و«المور» في فترة التاريخ القديم، لذلك نجده يقول: «**على مدى أفي عام ومنذ أقدم العصور إلى يومنا هذا انقسم المغرب إلى نصفين لا يمكن التوفيق بينهما، نتحدث اليوم عن العرب والقبائل، تحدثت العصور القديمة عن النوميد والمور، تتحدث العصور الوسطى العربية عن البتر والبرانس، هذه أسماء مختلفة ومتعاقبة تطلق على نفس الكيان العميق: البدو والقبائل المستقرة التي لا تقهر**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 242)

لذلك فالجزائر وشمال أفريقيا محكوم عليها بانتشار الصراع بين القبائل التي تشكلها، ومن المستبعد حسب رأي نموذج دراستنا أن يتحقق توافق بين هذه القبائل؛ فهي قد ألفت حياة الاقتتال فيما بينها، فكيف تستطيع التخلي عما تعودت عليه عبر أزمنة التاريخ وتتعايش فيما بينها وتكون دولة أو أمة ذات شعور مشترك؟ فالعداء متأصل بينها ولا مجال للتوافق، وحتى إذا استطاعت مجموعة أو قبيلة جمع شتات

أمرها والقيام بمحاولة من أجل توحيد الجزائر في دولة واحدة، فإنه سرعان ما يتعرض هذا المشروع للفشل؛ لأن القبائل الأخرى والعناصر الأخرى التي تشكل المجتمع الجزائري ستشق الطاعة على هذه الدولة.

وهو ما اعتبره نموذج دراستنا أقوى دليل داعم لآرائه في إثبات انقسام الجزائريين؛ فهم لا يشكلون –حسب قوله– قومية واحدة، ولا يملكون شعوراً واحداً، وهو ما ساهم في تفرق كلمتهم وتمكن الجانب من تسليط السيطرة عليهم باستمرار، وحتى الاحتلال الفرنسي لم يجد –حسب «غوتييه»– صعوبة في بسط نفوذه على المنطقة نتيجة العداء المتأصل بين العرب والبربر؛ هذا العداء الذي لم يسمح بتوحيد كلمة الجزائريين إبان مقاومة «الأمير عبد القادر»، وهو ما يؤكده حيث يقول: «**عندما أراد عبد القادر سلطان العرب تشكيل كتلة في الجزائر بتحريض القبائل فشل، وهذا بسبب أنَّ القبائل قدموا له البارود، فالعرب والقبائل لا يتآخيان**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 437)

ولذلك نجد أن «غوتييه» اجتهد من أجل إبراز حالة التشرذم والتشتت القبلي في الجزائر، أضيف إليها حالة الصراع الدائم بين قبيلتي صنهاجة وزناتة وبين العرب والبربر، وذلك لأجل الوصول إلى نتيجة وهي أنَّ الجزائر باعتبارها تتكون من قبائل متشعبة، تسودها الكراهية المتبادلة، وكثيرة الحروب والصراعات فيما بينها، ولم تعرف أي ارتباط تاريخي بوطن واحد سوى الانتماء للقبيلة والعشيرة.

فالتناقض الذي يميّز شمال إفريقيا بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة يمنعها من تحقيق شعور مشترك بينها، ويساهم في انتشار الكره والعداوة فيما بينهم؛ لأنهم حسب رأي نموذج دراستنا يشكلون تناقضاً عجيباً، حيث نجد مجموعة من الكتل البربرية وأخرى عربية، كما نجد سكان مدن وفلاحين، وبدواً صغاراً وكباراً، وكل هؤلاء الناس يتجاهلون بعضهم البعض، ويكرهون بعضهم بعضاً، ولا يملكون بعد أدنى فكرة عن وطن مشترك. (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 56)

ومن أجل الوصول إلى الغاية الأساس، وهي إثبات تشرذم الجزائريين وتنافرهم المطلق فيما بينهم، نجد أن «غوتييه» اهتم بالفترة الوسيطة وخصها بالدراسة والتحليل، وجعلها محوراً أساسياً للحكم على الحالة التي آل إليها المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي، إذ يعتبر وصول العرب إلى شمال إفريقيا بمثابة كارثة حضارية حلت بالمنطقة؛ لأنه يرى أن إشكالية تباين أصول السكان ازدادت حدتها أكثر إبان فترة التاريخ

الوسيط، أي فترة الفتوحات الإسلامية واستقرار العرب في شمال إفريقيا، حيث يصر على اعتبار هذه الفترة التاريخية عاملاً رئيسياً في انتشار «**الكراهية التي لا تغتفر، قد فصلت بين صنهاجة وزناتة وبين البرانس والبتر، وهذا نابع من الاختلاف الجذري في أنماط الحياة**». وهي الكراهية التي لا تزال، كما قال «غوتييه»، مستمرة إلى عهد الاحتلال الفرنسي، بل يبين هذا المؤلف بأن هذه الكراهية تعاظم حجمها أكثر بين مكونات المجتمع الجزائري. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 262)

ففي الكثير من المواضع نجد أنَّ «غوتييه» يتحدَّث فيها عن تأثُّر الشاوية، الذين هم من زناتة، بنمط حياة العرب البدوي، نجده في الوقت نفسه يُثبت ادعاءه القائم على استنجاد «الزناتيين» بالعرب لأجل مواجهة خصومهم الصنهاجيين، كما وجدنا أيضاً أنَّ «غوتييه» في مواضع أخرى يصور العلاقة بين الشاوية والعرب بالعداء، كما أكَّد على أنَّ هؤلاء الرعاة ليسوا في وفاق مع القبائل العربية، حيث قال: «**إنَّ أكثر ما يبغضه الشاوية، والذي يشعرون تجاهه بالغربة هو العربي، أي البدوي العظيم، ويكفي دليلاً على ذلك أنَّ الشاوية حافظوا على لهجتهم البربرية في حين أنَّ جميع بدو المغرب الكبير قد تبنوا اللغة العربية، حيث وطئ الزناتي العظيم أو البدوي العربي نوميديا على مر قرون وترك فيها تأثيراً عميقاً، لكنه لم يستطع قط القضاء على الشاوية، لأنه لم يستطع إجبارهم على الابتعاد عن جبالهم**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 262)

كما أشار نموذج دراستنا إلى أنَّ سبب عدم تمكّن سكان الجزائر من تحقيق وحدتهم السياسية لم يكن بسبب تباين أصولهم ومكوّناتهم العرقية فحسب، بل كان أيضًا نتيجة اختلاف أساليب الحياة؛ فسكان الصحراء مثلًا، رغم تشاركهم في نمط حياة واحد، إلا أنهم يكنّون لبعضهم البعض الكراهية، بسبب تباين اللغة، ونوع السلاح، والأزياء، واختلاف العادات والتقاليد، ودرجة الإيمان من مجتمع إلى آخر. (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 208) وهو التوجّه الذي أكّده، حيث يقول: «**قبائل الطوارق، كعادتها بين البدو، مفككة، تفرّقها النزاعات والصراعات الأزلية؛ فسكان الهقار، الذين يرعون جمالهم في أتاكور وموديو واهانت، والذين سيطروا على واحات تيدكلت، لا يتفقون أبدًا مع**

آزغور، الذين يرعون في الطاسيلي، والذين يقيمون في واحات غات». (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 211).

وبالإضافة إلى ذلك، يوضِّح «غوتييه» فكرة تأثير الانقسام العرقي على عدم تشكُّل وحدة سياسية؛ حيث يقول حول تنوع مشارب الجزائريين وأصولهم: إنَّ وجود عنصر عربي ينتمي لشبه الجزيرة العربية، وعنصر بربري مرتبط بشعوب أوروبا، ووجود قبائل بدوية غير مستقرة وقبائل مستقرة، جعل من المستحيل تحقيق تناسق بين هذه المكونات وتأسيس دولة واحدة، بل على العكس من ذلك، ساهم هذا التباين بين قبائل البربر في دخول عنصر أجنبي بينهما، وهو العنصر العربي الذي استعانت به قبيلة زناتة في مواجهة عدوها الطبيعي قبيلة صنهاجة.

فعدد العرب الذين جاؤوا إلى شمال إفريقيا لم يكن بذلك الحجم الكبير الذي يسمح لهم بتحقيق نجاح، لو كانت قبائل البربر متحدة، لكن قبيلة زناتة كون حياتها تشبه حياة العرب البدو حدث بينهما تقارب كبير، فقدموا للعرب العون ضد الصنهاجيين، حتى أصبحت هذه القبائل «الزناتية» تفتخر بأنَّها قبائل عربية، وهو ما يؤكده حيث يقول: «**العرب عندما غزوا شمال إفريقيا كان من مؤيديهم قبائل زناتة الناطقة باللغة البربرية، وهذا لأنَّهم اضطروا إلى اختيار الأجانب على أقرانهم البربر المستقرين؛ لأن زناتة يكرهون هؤلاء البربر، ولأن المستعمرين العرب كانوا قليلي العدد، لذا فمن المرجح أن يكون هناك عرق بدوي من زناتة يتحدَّث العربية ويفتخرون بأنَّهم عرب**». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, p. 36)

كما يجب أن نشير في إطار تأكيد نموذج دراستنا لحتمية الصراع الداخلي في المجتمع الجزائري، بين العرب والبربر، وبين العرب فيما بينهم أو البربر فيما بينهم، إلى نقطة أساسية ركز عليها نموذج بحثنا في مختلف كتبه ومقالاته لإثبات كره البربر للعرب والعداء التاريخي بينهم، وهذه القضية تتمركز حول الفتح العربي الإسلامي لشمال أفريقيا، حيث لاحظنا في الفصل الثالث من هذه الدراسة كيف عمل «غوتييه» على تشويه طبيعة الفتح الإسلامي، وسعيه الحثيث لإثبات أن العرب قدموا شمال أفريقيا من أجل الطمع في خيرات البلاد وأموال سكانها، كما بينا كيف حاول «غوتييه» وصف العرب بأبشع الصفات وأرذل الأخلاق، وأنهم السبب الرئيس وراء دمار المنطقة بعدما كانت عامرة في العهد الروماني والبيزنطي.

ومن القضايا الأساسية التي تهمنا في سياق الحديث عن الصراع العربي البربري وتأصله في تاريخ الجزائر، هو ما أشار إليه «غوتييه» في مؤلفاته بالمقاومة البربرية للفتح العربي، واعتباره لهذه المقاومة دليلاً قاطعاً على أن البربر لم يتقبلوا وجود العرب فيما بينهم منذ البداية، لذا ومن هذا المنطلق يصر الباحث على أن هذا العداء التاريخي لا يمكن تجاوزه نهائياً، لأنه هو الذي سيحدد السمة الغالبة لتاريخ المغرب في العصور الوسطى – القرون المظلمة – ألا وهي استمرار الصراع بين العرب والبربر حتى مجيء الفرنسيين.

كما بين لنا «غوتييه» أن البربر الذين قاوموا العرب –خاصة «كسيلة» و«الكاهنة»– ونتيجة عدائهم للعرب لم يكتفوا بإعلان رفضهم لهم، بل الأكثر من ذلك قاموا بالاستعانة بالبيزنطيين من أجل التخلص منهم، وهذه الاستعانة التي ذكرها نموذج دراستنا ليست دليلاً على كره البربر للعرب فقط، بل تدل كذلك على مدى القوة التي تميز بها البربر واتحادهم فيما بينهم في سبيل مواجهة الغزاة الجدد والاستعانة بالبيزنطيين لمواجهتهم. يقول «غوتييه»: «**كانت بدايات الفتح العربي، التي قد تبدو سريعة في الملخصات الواردة في الكتب المدرسية، في الواقع بطيئة وشاقة للغاية، فبعد صراعات ضارية، وهزائم ساحقة أعقبها طرد كامل، لم يحقق العرب النصر النهائي إلا بعد سبعين عاما، ويعود ذلك لمواجهتهم تحالفاً وثيقاً قدر الإمكان، في ظل النظام السياسي للبلاد بين قرطاج البيزنطية بكل مواردها، والأمراء النوميديين الذين كانوا يعرفون آنذاك باسم كسيلة ثم الكاهنة**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 25)

يتبين لنا من خلال ما سبق ذكره أن «إميل غوتييه» من خلال هذا الطرح يسعى إلى إثبات فكرتين أساسيتين، أولاهما فكرة العداء التاريخي المتأصل بين العرب والبربر، وأنَّ قدوم هؤلاء إلى شمال إفريقيا ساهم في تفاقم الصراع بين مكونات مجتمع شمال إفريقيا، فبعد أن كان الصراع بين قبائل «النوميد» وقبائل «المور» في التاريخ القديم وتحقيقها لبعض محاولات الوحدة السياسية كما يقول نموذج دراستنا، أدى قدوم العرب إلى اشتعال أجيج هذا الصراع أكثر، من منطلق الاختلاف اللغوي والعرقي بين العرب والبربر، أما المسألة الثانية التي أراد إثباتها «غوتييه» في طرحه هذا، فهي مسألة قوة الرابط السياسي بين البربر وبين البيزنطيين آنذاك في مواجهة العرب، وهذا الطرح حسب وجهة نظرنا هو محاولة إثبات نموذج دراستنا لفكرة

التقارب الفكري بين البربر والأوروبيين وسهولة التعايش معهم، عكس العنصر العربي الذي لا يتوافق في فكره مع الأوروبيين والبربر، وبذلك يكون نموذج دراستنا قد أعطى مبرراً جديداً للاحتلال الفرنسي للجزائر.

إن «فغوتييه» من خلال ما أورده في أطروحاته السابقة يسعى إلى مساندة المشاريع الفرنسية القائمة على إشعال نار الفتنة بين مكونات الشعب الجزائري، خاصَّةً في تأكيده على الاختلاف بين العرب والبربر، واستغلال هذه الصراعات الوهمية التي تخلقها الإدارة الفرنسية بين أبناء المجتمع الواحد لضمان استمرار حكمها، كما أنَّ هذه الادعاءات يهدف من خلالها نموذج بحثنا إلى ترسيخ فكرة حتمية الاحتلال الفرنسي لدى الرأي العام الفرنسي من جهة، ولدى الرأي العالمي من جهة أخرى، فإثبات أنَّ الجزائر مجموعة متناثرة من القبائل التي تتقاتل فيما بينها يعني بالضرورة إلزامية وجود طرف ثالث يضمن تحقيق التوفيق بين المتنازعين ويساهم في رقي المنطقة حضارياً، وبذلك يعمل «فغوتييه» على إثبات صدق المشروع الحضاري الفرنسي الذي تقوم به فرنسا منذ بداية الاحتلال.

2- 2 – مشكلة تغيير الأنساب وادِّعاء النسب الشريف خلال العصور الوسطى

يشير نموذج بحثنا إلى أنَّه مع بداية الفتح الإسلامي بدأت ظاهرة اعتبرها مقلقة وساهمت في تفكك المجتمع الجزائري بالانتشار، ألا وهي ظاهرة تغيير الأنساب التي انتشرت بين القبائل البربرية، وهذا ما يُعبِّر عن عقدة النقص لدى البربري من أصوله، ولكي يوضِّح لنا «إميل غوتييه» سبب هذا الخجل وهذا التنكر للأصل، بيَّن لنا أنَّ البربر لما قَدِم العرب إلى شمال إفريقيا واستطاعوا بسط سيطرتهم على المنطقة، ظهر بذلك فكر بربري يدَّعي النسب الشريف والانتماء للعرب كوسيلة للتقرب من الغزاة الجدد، وهذا العنصر الجديد الذي استقر في شمال إفريقيا ساهم بشكل كبير في اختلاط أنساب البربر والسعي لإثبات الانتماء العربي.

ففضلاً عن كون الشعب الجزائري يتكوَّن من أعراق متباينة، يربط «غوتييه» الجزائريين بأصول مختلفة، ويذكر أنَّ الكثير من البربر المستعربين ادعوا النسب العربي، لأجل الحصول على الاعتبار الاجتماعي، حيث قال: «**زناتة يزعمون أنَّهم من سلالة بني هلال وبني سليم، ليس من الضروري تصديق كلامهم، فلطالما ازدهرت الأنساب الوهمية في شمال إفريقيا؛ فقد ادعى سلاطين صنهاجة، الذين لم يتمكنوا من**

تسمية أنفسهم أنَّهم عرب، زعموا أنَّهم حميريون، وتحت سلطة الإدارة الفرنسية ادعت عائلة المقراني القبائلية أنَّها فرع مهاجر من قبيلة «مونتمورنسي» Montmorency، فالبربري إذاً يخجل من نفسه ولديه شغف لإنكارها». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, pp. 32-33).

ومن جهة أخرى يُذكر مثال: «**الميزابي الذي يبيع الخضروات، يعتبر نفسه من نسل الخوارج الذين ظهروا في سوريا في عهد علي صهر النبي محمد**»، كما نجد اختلافاً كبيراً بين السُّكَّان في تحديد انتمائهم التاريخي؛ فقبيلة كتامة مثلاً «**سُمّيت بالفاطمية نسبة لبنت النبي فاطمة**»، **ومن الواضح أنَّ فاطمة لم تكن تربطها أي صلة قرابة بكتامة، كما لم يكن لعلي أي صلة قرابة بالمزابيين، ولما تأسست في تيارت دولة نُسبت إلى رجل فارسي يُدعى رستم، وهو ما يبيّن أنَّ المغاربة ارتبطوا بالنبي من خلال أنساب خيالية (الشرفاء)».** (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 26-27).

وبالإضافة إلى ذلك، يصر «غوتييه» على الذهاب بعيداً في مناقشة مسألة ادعاء الأصل العربي أو الأصل الشريف للقبائل البربرية، حيث يؤكد أنَّ جُلَّ القبائل البربرية تدعي انتماءها لهذا النسب، خاصة قبائل «زناتة»، وأشار إلى أن هذا الادعاء جاء بسبب التشابه الكبير بين العرب وبين «زناتة» في نمط العيش القائم على البداوة، وأنَّ هذه القبائل مقتنعة بأنها ذات أصل عربي، وهو ما اعتبره إشكالية حقيقية ساهمت في بروز هوة كبيرة بين عناصر المجتمع الجزائري؛ حيث أشار في إطار حديثه عن العلاقة بين الاختلاف في أصول السكان وادعاء النسب للعرب من قِبل البربر، إلى أن كليهما ساهم في اصطدام القبائل المغاربية فيما بينها، وبالتالي فإن ادعاء النسب الشريف -وحسب رأي «غوتييه»- ساهم هو الآخر في توسع الصراع بين الجزائريين؛ لأن شعور الانتماء للبربر أو العرب جعل من المستحيل تحقيق توافق بين هذين العنصرين.

ومن أجل أن يُثبت لنا «غوتييه» صحة ما ذهب إليه من آراء وتوجهات يقول: «**البدو الرُّحَل اليوم مقتنعون تماماً بأنهم عرب، ويُعامَلون كذلك، لذا فالأمر كما لو كانوا بالفعل عرباً، وهكذا ازداد الحاجز الأبدي المنيع بين الشعوب المستقرة والرُّحَل سماكةً، اصطدم المور والنوميد في العصور القديمة،**

وصنهاجة وزناتة في العصور الوسطى، بعنف في أنماط حياتهم... واليوم لا يقتصر الأمر على كون القبائليين والعرب مستقرين ورُحلاً، بل يشعرون أيضاً بانتمائهم إلى عرقين، إلى نوعين بشريين مختلفين». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 34)

وبذلك نفهم أنَّ «إميل فليكس غوتييه» لم يكتفِ بالتأكيد على أنَّ شعب الجزائر يختلف في أصوله ومكوناته فقط، بل زاد ذلك التفكك بانصهار القبائل البربرية في العرب الوافدين، وتبنيهم لأصولهم لأجل الحصول على المكانة والاعتبار الاجتماعي، الذي كانت مسألة الأصول الشريفة أحد أهم عناصره. وتمادى في آرائه لتبيان أنَّ الصراع بين هذه المكونات لم يؤثر فقط على تحقيق الترابط بين هذه المكونات، بل ساهم في التفكك السياسي.

3 – الرد على رأي غوتييه فيما يخص مسألة تباين أصول المجتمع الجزائري

نلاحظ مما سبق ذكره أنَّ نموذج بحثنا يناقض نفسه كثيراً في هذه الأطروحة؛ فبينما يؤكد في سياق حديثه أنَّ البربر غير معروف أصلهم، وأنَّ علماء الأنثروبولوجيا لم يستطيعوا تحديد الجنس الذي ينتمون إليه، فإنه من جهة أخرى يؤكد أنَّ هذا الشعب ينتمي في سماته إلى العنصر الأوروبي المستقر في صقلية وسردينيا وبلاد الأندلس، لكن المؤلف تناسى أنَّ هذه المناطق التي ذكرها عرفت هجرات بشرية نحوها من بلاد المغرب.

علاوة على ذلك، نقول أنَّ ما ذكره «غوتييه» عن مجتمع الطوارق لا يمت للحقيقة بصلة؛ فبينما يؤكد أنَّ لهم سمات مشابهة للأوروبيين من حيث الشعر المموج واللحية الكثيفة والصلع المبكر، كما أشار إلى مصادفته في رحلاته في الصحراء لعرق مشابه للأوروبيين، فإنَّ الأبحاث العلمية التي تم إنجازها على شعب الطوارق لا تشير أبداً إلى هذه الصفات الجينية التي ذكرها نموذج دراستنا، بل تؤكد على أصولهم الإفريقية منذ عصر «إنسان النياندرتال».

كما نؤكد أيضاً على أنَّ تباين أصول السُّكَّان ليس مانعاً في تحقيق الوحدة السياسية، وهو ليس بالضرورة مظهر للتشتت، بقدر ما يمكن أن يكون مظهر للثراء والتنوع، وهو أمر طبيعي نجده في كل مناطق

العالم بما في ذلك فرنسا نفسها التي تختلف مناطقها من حيث خصوصياتها الثقافية وحتى اللغوية، دون أن يكون ذلك عائق لتحقق الوحدة.

وهو ما يُبين بُعد نموذج دراستنا عن الموضوعية والنزاهة؛ إذ يكيل بمكيالين مختلفين في الحكم على المجتمع الجزائري والمجتمع الاستعماري مختلف الأصول في الجزائر، فخلال دفاعه عن سياسة الإدماج وسياسة الاستيطان التي انتهجتها فرنسا بعد احتلال الجزائر، لاحظنا كيف حرص على إثبات أن غاية الفرنسيين الأساسية في الجزائر هي تحقيق دمج الجزائريين وتحضيرهم رغم تكونهم من مجموعة من الفرنسيين والإيطاليين والإسبان، وأن هؤلاء استطاعوا تحقيق شعور مشترك بينهم رغم تباين أصلهم من جهة وتباين لغتهم من جهة ثانية.

وبذلك تتضح لنا جلياً الرؤية الحقيقية «لإميل فليكس غوتييه» عن المجتمع الجزائري؛ فكيف يدافع عن أنَّ فكرة الاختلاف عامل وحدة بالنسبة للأوروبيين، بينما يُصر على أنَّ العامل نفسه عامل هدم بالنسبة للجزائريين؟! فنموذج بحثنا يؤكد من خلال هذا الطرح التفوق العرقي للشعب الأوروبي على حساب الجزائريين؛ لأنَّهم شعب يمثل العنصر المشرقي، وبالتالي فهم بعيدون عن كل شكل من أشكال التحضر والتطور الذي بلغته أوروبا. بالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ نموذج بحثنا عزم من خلال طرحه لهذه الإشكالية على خدمة توجهات الإدارة الفرنسية التي كانت تهدف لإحياء النعرات القبلية بين مكونات المجتمع الجزائري، وخاصة عند طرحه لقضية العلاقة بين «الأمير عبد القادر» وزعماء منطقة القبائل، حين أكَّد أنَّ هؤلاء استقبلوه بالكسكس الأسود، تعبيراً عن البارود والعداء المتأصل بين العرب والبربر، لكننا نتساءل عن المصادر التي اقتبس منها «غوتييه» هذا الرأي؟

فبمجرّد إجراء بحثٍ يسير في المصادر والمراجع المختلفة، خاصةً الفرنسية منها، حول الدور الذي قام به سكان القبائل في مقاومة الأمير عبد القادر، نجد أن هذا الأخير قَدِم إلى المنطقة لتعيين خليفةٍ يمثّله على سكانها، وقد تمّ ذلك بتعيين «بن سالم المقراني» خليفةً له. (سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، 2000، صفحة 214). وهذا التوجّه يؤكّده أيضًا «لويس رين»، إذ ذكر أن «بن سالم» و«أحمد المقراني»، لما قَدِم الأمير عبد القادر إلى منطقة القبائل، اقتربا منه وأعلنا استعدادهما لقبول سلطته والعمل تحت رايته

إذا ارتضاها، وأن «الأمير عبد القادر» عيّن «بن سالم» خليفةً له على منطقة مجانة. (Rinn, 1891, pp. 20-21)

كما يؤكّد «لويس رين» أنَّ نسب عائلة المقراني لا يعود أصلًا إلى عائلة «مونتمورنسي» (Montmorency)، كما ذكر غوتييه، بل إن أصلهم يعود إلى «فاطمة بنت النبي ﷺ» (Rinn, 1891, p. 9) ؛ أمّا المؤرخ «إرنست مرسييه»، فيشير إلى أن «الأمير عبد القادر»، عندما قَدِم إلى منطقة القبائل، التقى بـ«أحمد المقراني» و «بن سالم المقراني»، اللذين قدّما له حصانين، وطلبا منه شرف تمثيل قضيته في مجانة؛ فاختار الأمير تعيين «بن سالم» خليفةً له على هذه المنطقة. (Mercier E. , Extrait du Bulletin de la RÉUNION D'ÉTUDES ALGÉRIENNES, 1900, pp. 12-13)

لذلك يتضح لنا أنَّ مذكره المؤرخ من تقديم الكسكس الأسود كتعبير عن العداء المتأصل بين العرب والبربر غير صحيح، لأن سُكَّان القبائل ساهموا بشكل كبير في دعم مقاومة «الأمير عبد القادر»، كما أكَّد «شارل هنري تشرشل» أنَّ «الأمير عبد القادر» عند قدومه لبلاد القبائل، جاء معه 50 فارس فقط، وبيَّن أنَّ مسيرة الأمير في هذه المنطقة كانت كلها سلمية، حيث يقول: «**بعد أن ولى بن سالم خليفة له على جرجرة وسط الأفراح والتهاليل واصل عبد القادر مسيرته الهادئة في جميع انحاء هذه الأرض المضيافة لمدة ثلاثين يوما، كان تقدمه مشهدا متواصلا من الابتهاج**»، ليبين بعدها «شارل هنري تشرشل» بأنَّ «الأمير عبد القادر» استقبله السُكَّان بتقديم «**قصاع كبيرة من الأرز المغطى باللحم أمام خيمته، وأن هذا الأخير قام بالتذوق من كل واحدة منها لإرضائهم**». (Churchill, 1867, pp. 140-144)

كما نقول أيضاً إن ما ذهب إليه «غوتييه» في مسألة إنكار أصول سكان الجزائر، وسعيه الحثيث إلى إثبات ارتباطهم الوثيق بالجنس الأوروبي، هو تفسير بعيد كل البعد عن الدراسات العلمية الموضوعية؛ فشمال إفريقيا، ووفق الأبحاث الأثرية التي أنجزها الفرنسيون أنفسهم في مختلف الأماكن، تثبت قدم استقرار الإنسان في المنطقة، ففي الجزائر تشير الدراسات إلى وجود 3 مراكز للاستقرار البشري تعود لفترة ما قبل التاريخ؛ حيث نجد منطقة بئر العاتر التي تنتمي لها الحضارة العاترية، والتي تعود فترتها الزمنية لأكثر من 20

ألف سنة قبل الميلاد، كما نجد منطقة عين الحنش بسطيف التي اكتُشف فيها بقايا تثبت أن استقرار الإنسان فيها يعود إلى أكثر من 1.8 مليون سنة قبل الميلاد.

وهو ما يبيّن لنا أنَّ منطقة شمال إفريقيا من أقدم المناطق الآهلة بالسكان في العالم، وأنَّ الاستقرار البشري فيها دليل على أصالة العرق الذي يعيش فيها، وأنَّه رغم المؤثرات والهجرات التي عرفتها المنطقة منذ القدم إلا أنَّ شعب المنطقة بقي متميزاً عن غيره، كما نقول أيضاً بأنَّ تمازج الأعراق التي استقرت في الجزائر وشمال إفريقيا ساهم في تميز المنطقة أكثر من الناحية الأنثروبولوجية، كما أنَّ العرق البربري حتى وإن كان يشبه في ملامحه الإنسان الأوروبي، فإنَّ ذلك لا يعني بالضرورة أن تكون أصوله أوروبية.

لذلك وجب علينا التمعن جيداً في الأفكار التي يقدمها نموذج دراستنا، والأطروحات التي يتميز بها عن غيره من المفكرين الكولونياليين؛ فهو في دراسته للطابع الجغرافي للصحراء الجزائرية وشمال أفريقيا، يؤكد على أنها كانت مليئة بالحيوانات الكبيرة، وأن الإنسان استقر في هذه المنطقة لآلاف السنين، لكن التغيرات المناخية جعلته يهجر الصحراء ويبحث عن مناطق أخرى يعيش فيها. فلماذا لا تكون الهجرة قد حدثت في الاتجاه العكسي الذي يصوره نموذج بحثنا؟ بأن يكون الإنسان قد هاجر من الصحراء الأفريقية إلى جنوب وشمال قارة أوروبا بحثاً عن المناطق المعتدلة في المناخ، خاصة أن الدراسات والأبحاث الجيولوجية أثبتت أن أوروبا كانت تعيش في العصور الجليدية بينما كانت قارة أفريقيا تشهد نمواً لحضارة الإنسان، كما أثبتت الحفريات التشابه الكبير بين الأدوات الحجرية المنتشرة في شمال أفريقيا وفي جنوب أوروبا، وحتى في فرنسا؛ إذ تشبه كثيراً الأدوات التي كانت تستعمل في شمال أفريقيا في فترة ما قبل التاريخ.

ولذلك فالإشكالية التي سعى «غوتييه» لإثباتها مبنية دائماً على فكرة تفوق الجنس الأوروبي الأبيض على باقي الشعوب، وأن هذا الجنس هو مصدر النظام والقانون والحضارة، ونسي أن قارة أوروبا لم تعرف الحضارة إلا بفضل العلوم التي نقلها الإغريق عن الحضارة الفرعونية والحضارة القرطاجية وكذا حضارة بلاد الرافدين، ونسي أيضاً نموذج بحثنا أن قارة أوروبا في العصور الوسطى كانت تعيش أقصى درجات الانحطاط والتخلف، لكنه ينظر فقط إلى شعوب الماضي وفق منظور العصر الذي كان يعيش فيه، وهذا من أكبر المغالطات التي وقع فيها، فلا يمكن أن تحكم على سمات حياة الشعوب في الماضي وفق منظور الحاضر.

فإذا كان الوقت الذي يعيش فيه «غوتييه» يتميز بفكرة القومية والدولة والأمة كما يقول هو، فلماذا واصلت فرنسا سياسة محو الشخصية الجزائرية ومقوماتها من لغة ودين وعادات وأسلوب حياة؟ وأرادت فرض منطقها ولغتها بالقوة على شعب عبَّر بكل ما يملك من قوة عن رفضه القاطع للهيمنة الفرنسية. فإذا كان الشعب الجزائري لا يملك وحدة عرقية أو هو خليط من الأجناس، فلماذا عاملتهم فرنسا على حد سواء واعتبرتهم مواطنين من الدرجة الثانية لا يملكون أي حقوق؟ وهو قانون طُبِّق حتى على أولئك الذين أكد غوتييه على أنهم ينتمون في أصولهم للشعوب الأوروبية.

لذا فإن تطبيق فكرة القومية والأمة الواحدة والدولة بمفهومها المعاصر لعصر نموذج بحثنا على فترات تاريخية قديمة، هو في الحقيقة تطبيق غير منطقي البتة؛ لأن الأفكار التي تصلح لعصر محدد لا تصلح لعصر آخر. فهل يا ترى يمكن تطبيق فكرة الدولة والأمة على تاريخ الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية؟ فعلى الرغم من التقارب بينهما من حيث الأصول وحتى من حيث اللغة والديانة، كانت بينهما صراعات كبيرة؛ مثل الحملة الصليبية الرابعة سنة 1202م التي كان من المفترض أن تتوجه إلى مصر، لكنها توجهت إلى بيزنطة واحتلت عاصمتها. كما أن التاريخ الفرنسي مليء بالصراعات والنزاعات التي لا نهاية لها، خاصة الأزمات التي عرفها الفرنسيون بعد نجاح الثورة الفرنسية سنة 1789م، أم أن التاريخ الفرنسي، باعتباره يمثل الفكر الراقي كما يقول «غوتييه»، لا تنطبق عليه نفس الإشكاليات والآراء التي تطبق على باقي الشعوب!؟

ونؤكد أيضاً على بُعد الطرح الذي جاء به «غوتييه» عن الإطار الموضوعي للتاريخ في مسألة إثبات انقسام المجتمع إلى عرب وإلى بربر، والانقسامات التي تعرفها هذه القبائل فيما بينها، فالتباين ليس معناه الصراع والاندثار؛ حيث أشرنا في هذه الدراسة كيف تقبّل البربر الإسلام واللغة العربية ودافعوا عن هذا الدين واللغة أمام الاحتلال الفرنسي الغاشم، الذي أراد فرض لغته وثقافته على هذه الشعوب، ونموذج دراستنا –كما بيّنا– أراد التأكيد على هذه الانقسامات العرقية من أجل تبرير سياسة الحكام الفرنسيين العنصرية المطبقة على الجزائريين.

لكن الأفكار التي دعا إليها نموذج دراستنا مبنية على أسس عنصرية بالدرجة الأولى، فإذا كان كما يقول إن العنصر العربي والبربري لا يتوافقان، فلماذا قامت سلطة الاحتلال الفرنسي بالقضاء على

اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية لا يجوز التعامل بها بموجب مرسوم أصدره الحاكم العام «كاميل شاطون Camille Chautemps» بتاريخ 8 مارس 1938م؟ ولماذا عملت فرنسا على تشجيع اللهجات المحلية كلهجة سكان القبائل ولهجة سكان الأوراس والطوارق، وعملت على إجراء دراسات حولها وتدريسها حتى في الجامعة الجزائرية؟

من خلال ما سبق نؤكد بأن «غوتييه» يسعى إلى إثبات تخلف الجزائريين الخلقي، وأن أقصى ما وصل إليه فكرهم هو تشكيل الوحدة القبلية التي تمثل الشكل البدائي الأول لتجمع الإنسانية، وفشلهم المطلق في تكوين أمة ودولة واحدة، وهذا الفشل منطلقه الأساس تباين مكونات المجتمع الجزائري وتباين أصولهم، ولذلك فهم لا يستطيعون تسيير شؤونهم إلا بتدخل قوة أجنبية تشرف عليهم، وهذه القوة الأجنبية هي فرنسا، خاصة أن الجزائريين لا يختلفون فقط في أصلهم وتكوينهم، بل يختلفون أيضاً في نمط حياتهم، وهو ما ساهم حسبه في حتمية استمرار الصراع داخل المجتمع الجزائري، واستحالة تحقيقهم أي تطور سياسي خارج مجال القبيلة أو العشيرة.

ولهذا نجد أنَّ نموذج دراستنا يركز على هذه القضايا في مختلف مؤلفاته، من منطلق قناعته الشخصية بأنَّ الجزائريين يتكونون من مجموعة من القبائل المتصارعة فيما بينها، وهذا الصراع لم تتمكن الوحدة اللغوية والدينية من إنهائه، بل يختلفون أيضاً في لغتهم ومستوى تدينهم، ولذلك فهذا الاختلاف يعد كذلك إشكالية أخرى تواجه الجزائريين في سعيهم الحثيث لتحقيق لِمّ الشمل الوطني، وسنبرز في المحور الموالي آراء نموذج دراستنا لهذه الإشكالية، وكيف ربط بينها وبين إشكالية اختلاف أصول المجتمع الجزائري من جهة، وعجزهم عن تحقيق وحدة سياسية عبر التاريخ.

ثالثاً:

قضية اختلاف لغة الجزائريين وظاهرة اسلامهم القشوري

ركز «إميل فليكس غوتييه» في مختلف مؤلفاته أيضاً على طرح إشكالية اختلاف لغة المجتمع الجزائري وتدينهم القشوري، وبيَّن أنَّ هذه السمات المميزة للجزائريين كمجتمع ساهمت بشكل كبير في إثبات إشكالية اختلاف أصول السُّكَّان وإثبات غياب الأُمَّة والدولة الجزائرية، ونعرض ونناقش في العنصر التالي الآراء التي تبنَّاها هذا المؤرخ خلال طرحه لهاتين القضيتين.

1 – مسألة اختلاف لغة السكان

سعى «غوتييه» في مناقشته للمسألة اللغوية إلى إثبات ثلاث نقاط أساسية هي: أنَّ اللغة الأمازيغية مجموعة من اللهجات المستخدمة في أماكن مختلفة، لا تسمح بالتواصل إلاَّ في نطاق اللهجة لا اللغة، وأنَّ الأمازيغية ليست لغة مكتوبة وهي في طور الزوال، وأنَّ اللغة العربية الجزائرية تختلف عن اللغة العربية الكلاسيكية، وهي الأخرى غير مفيدة في الحياة الحديثة، ثم أنَّ اللغات الجزائرية عامل تشتت بدل أن تكون عامل تواصل، ليصل في الأخير إلى ضرورة إحلال اللغة الفرنسية باعتبارها لغة الحضارة والتقدم محل اللغات المحلية.

ومن هذا المنطلق حرص «غوتييه» على اعتبار هذا التباين اللغوي عاملاً رئيساً في فشل هذا المجتمع في تشكيل شعور وطني موحد، حيث أشار إلى أن المتمعن في واقع المجتمع الجزائري سيجد أمامه انقساماً كبيراً في نوع اللغة المستعملة، فبينما يؤكد على أنَّ «الموريين» يتقنون اللغة العربية ولا يحسنون إطلاقاً اللغة البربرية، نجد مجتمع «الطوارق» يتقنون هذه اللغة ويجهلون بشكل كامل العربية، وهو ما يشكل في نظر الباحث اختلافات جوهرية كبيرة بين المجتمعين ويساهم في بروز الخلافات بين هذين العنصرين، كما أكَّد على أنَّ اللغة البربرية رغم وجود حروف التيفيناغ، إلاَّ أن استعمالاتها ضعيفة جداً، ولا يمكن اعتبارها لغة، بل هي عبارة عن مجموعة من اللهجات المنطوقة البدائية ذات استخدامات محدودة للغاية.

(Gautier, A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger, 1907, .p. 116)

ولكي يثبت لنا نموذج دراستنا صحة وجهة نظره وأفكاره، عمد إلى تقديم دراسة شاملة حول التوزيع الجغرافي لانتشار اللغة البربرية من جهة، وتوزيع اللغة العربية من جهة ثانية، فنجده يؤكد أنَّ منطقة عنابة بأكملها، بما فيها الجبال التي تحيط بها، تتحدث العربية مثل تونس، أمَّا بقية المناطق المحيطة بها، خاصَّة منطقة القبائل والأوراس، فهي محمية كبيرة للغة البربرية. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 192)

وهذا التوجه يثبته «غوتييه» عند دراسته لمنطقة الجنوب القسنطيني، حيث يؤكد أنَّ انتشار قبائل «الشاوية»، وهم من الرعاة الرُّحل، يقيمون تحت الخيمة ويتحدثون البربرية، أمَّا الذين يزرعون الأرض ويعيشون في البيوت فيتحدثون العربية فقط؛ ولذلك فالسُّكَّان الذين يعيشون في السهول الكبيرة المنفتحة يتحدثون اللغة العربية، أما الذين يستقرون في الجبال فيتحدثون البربرية. (Gautier, Structure .de l'Algérie, 1922, p. 206)

وبالإضافة إلى اختلاف لغة المجتمع الجزائري بين العربية والبربرية، يوضِّح لنا نموذج دراستنا وجود تباينات أخرى حتى في اللغة الواحدة، خاصَّةً اللغة البربرية، حيث أشار إلى وجود عدة لهجات متباينة فيما بينها؛ فمثلاً نجد مجموعة تتحدث بلهجة بربرية تقطن في منطقة القبائل، كما نجد أيضاً الشاوية في الأوراس، وكل من هاتين القبيلتين –رغم أصول لغتهما المشتركة كما يقول «غوتييه»– لا يستطيعان فهم بعضهما البعض، حيث يقول: «رغم أنَّ الشاوية والقبائل يتحدثان بلهجات أمازيغية وهي شاذة بعض الشيء، إلاَّ أنَّه لا توجد صلة بين نفسيتهما، فهما كوكبان صغيران منفصلان». (Gautier, L'évolution .de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 31)

كما بيّن لنا «غوتييه» أنَّ المجتمع الجزائري، بالإضافة إلى وجود تباين لغوي بين القبائل والشاوية، توجد تجمعات أخرى تتحدث بلهجات متباينة للبربرية، كبني ميزاب في غرداية وقبائل الطوارق في الصحراء، وهاته المجموعات العرقية، بالنظر لاختلاف لغتها لأكثر من ثلاثة أو أربعة قرون، لم تستطع تكوين شعور مشترك بينها. بل العكس من ذلك؛ ساهم هذا التنوع اللغوي بين اللغة العربية والبربرية في بروز صراعات

بين هاتين المجموعتين المتعارضتين –العرب والبربر–، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ القبائل العربية والقبائل البربرية لا يوجد أي تناسق أو اتصال فيما بينها حسب رأي «غوتييه»؛ لأنَّ هاته القبائل متشرذمة في لهجاتها، ولم تستطع تكوين وحدة لغوية، كما أنَّ وحدة اللغة بينها لم تفض إلى أخوة المشاعر المشتركة، فسُكَّان القبائل يتميزون بلهجة فريدة عن الشاوية وعن الميزابيين وعن سُكَّان الطوارق، وهو ما شكل حسب رأي نموذج دراستنا: «**عدداً لا نهائياً من القبائل البدوية، وكل منها كلما استطاعت كانت تشحذ مخالبها على القبيلة المجاورة، هذه تقسيمات كبيرة فرضتها الطبيعة**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 32)

ويُحوِّل «غوتييه» التنوع اللغوي –الذي نجده في كل مناطق العالم، وهو أمر طبيعي جداً– إلى اختلاف عرقي ذي طابع عنصري، وهذا لأجل أن يُجذِّر الاختلاف بين العنصرين اللغويين في الجزائر؛ فالمجتمع الجزائري من حيث التباين اللغوي نجده ينقسم إلى بربر وعرب، وهذا الانقسام ليس مجرد اختلاف بين البدو والحضر، بقدر ما هو انقسام يثبت انتماء هاتين المجموعتين اللغويتين إلى عرقين أو إلى نوعين بشريين مختلفين. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 34).

ومنه فالمجتمع الجزائري لم يستطع أيضاً تحقيق وحدة لغوية، لأن ثلثه يتحدث البربرية ويجهل العربية التي اعتمدها الثلثان الآخران، وهذا التباين كما يقول «غوتييه» ليس مجرد اختلاف في نوع اللغة التي يستعملها الجزائريون، بل هو اختلاف في طريقة التفكير؛ لأن اللغة تشكل العقل. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 198).

ولذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتجاوز الجزائريون هذا التباين الكبير في اللغة؛ لأنها حسب نموذج دراساتنا هي الوسيلة التي تشكّل العقل، وبالتالي فإن اختلاف اللغة يعني بالضرورة اختلاف عقول الجزائريين وطريقة تفكيرهم، فالذي يتحدث العربية يفكّر بطريقة مغايرة للذي يتحدث اللغة البربرية، كما أن التباين اللغوي الداخلي بين المتحدثين بالعربية والبربرية ساهم هو الآخر في بروز تشتت وتشرذم كبيرين بين عناصر المجتمع الجزائري.

ومن هذا المنطلق يصل «غوتييه» إلى تحديد أسباب فشل الجزائريين في طرد الأجانب من بلادهم عبر مختلف الأزمنة التاريخية، ويعيد ذلك مباشرة إلى عامل اختلاف اللغة، وفي هذا الصدد يضرب لنا مثلاً عن الثورات التي عرفتها الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي، خاصة مقاومة الأمير عبد القادر، حيث إن نموذج دراستنا لا يرجع سبب فشل هذه المقاومة إلى جملة الإجراءات القمعية التي قام بها جنرالات فرنسا، خاصة سياسة الأرض المحروقة والعقاب الجماعي الذي طبقه «الجنرال بيجو» على القبائل التي ساندت الأمير في مقاومته.

علاوة على ذلك يعمد «غوتييه» إلى تقديم تفسير آخر مغاير تماماً لما تثبته المصادر التاريخية؛ حيث يشير إلى أن مقاومة الأمير فشلت بسبب تباين اللغة داخل المجتمع الجزائري، ويؤكد على أن «عبد القادر» عمل على تحقيق الوحدة بين الجزائريين لكنها فشلت، خاصة في منطقة القبائل. يقول غوتييه في هذا الصدد: «**يعد التمييز بين الناطقين بالبربرية في منازلهم وعائلاتهم وبين الناطقين بالعربية أمراً بالغ الأهمية... فهناك كراهية شديدة بينهما، عندما أراد عبد القادر جمع كل ما لديه في الجزائر لمقاومة الغزو الفرنسي حاول استمالة القبائل لكنهم قدموا له الكسكس الأسود، وهكذا من حيث اللغة، الجزائر ليست أمة واحدة بل هي أمتان على الأقل، ومن المناسب إضافة مجموعات أخرى أقل أهمية؛ كاليهود والمزابيين وغيرهم**». (Gautier, Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 50)

وهذا الاختلاف اللغوي الذي يميز المجتمع الجزائري فرضته اختلافات جذرية في أسلوب العيش، فبينما يستقر جزء من المجتمع الجزائري في القرى والجبال بغرائز ديمقراطية وشعور قوي بالملكية الخاصة، نجد من جهة أخرى صنفا من الجزائريين يعيشون في الخيام الكبيرة بغرائز شيوعية وتنظيم أرستقراطي وأميري، وهو ما ساهم في انتشار العداوة بين هاتين المجموعتين المتباينتين من حيث اللغة ومن حيث أسلوب الحياة، حيث يقول: «**على مر آلاف السنين هاتان المجموعتان اللتان تشكلتا بفعل ضرورات المناخ والتربة، نهبتا ودمرتا بعضهما البعض بلا رحمة ودون هوادة، لكلِّ مجموعة انتصاراتها وأمجادها الخاصة، هذان نوعان من المجموعات القومية، لكنهما ليستا أمتين مترابطتين، بل العكس تماماً كل كتلة منهما غير**

متجانسة». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 31)

وعلى العموم، يسعى «إميل غوتييه» من خلال طرحه للتباين اللغوي إلى إثبات إشكالية تباين أصول السُّكَّان، وانقسامهم إلى عرقين عربيين أساسيين؛ حيث يقول: «**ننتهي إلى التمييز بين مجموعتين ملأ صراعهما العصور الوسطى المبكرة بأكملها، فمن جهة قبائل وأمراء زناتة، ومن جهة أخرى قبائل وسلاطين صنهاجة**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931)

كما أراد أيضاً إثبات انحطاط اللغة التي يستعملها الجزائريون في حياتهم اليومية بتأكيده على غياب اللغة البربرية تماماً في الأدب؛ لأنَّها لغة غير مكتوبة، أمَّا اللغة العربية فبيَّن أنَّها اندثرت بشكل نهائي من الجزائر، وما بقي منها عبارة عن لهجات متعددة، حيث يقول: «**كانت لهم لغة ضلوا مخلصين لها لمدة ألفي عام، أنَّها مجزأة إلى عدد لا نهائي من اللهجات، مشوهة باقتباسات من العربية ولغات عديدة، أنَّها لغة في طور الانحطاط والحطام**». (Gautier, Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix, 1931, p. 44)

وهذا الانحطاط والتشوه الذي أصاب كلاً من البربرية والعربية هو ما شكل في نظر «غوتييه» حداً فاصلاً بين إنسانيتين مختلفتين تماماً، بسبب الاختلاف الجلي في لغتهما، «**ففي الشمال يجتمع جميع الناطقين بالبربرية في أرخبيل واحد، بينما في الجنوب لا يتحدث السكان إلا العربية**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 212)

وهذا التقسيم إلى جزائر شمالية بربرية، وجنوبية عربية لا وجود له إلاَّ في مخيلة «غوتييه»، بحيث نجد في الشمال انتشاراً للهجات البربرية والعربية العامية، كما نجد الاختلاط نفسه في الجنوب، بحيث نجد الميزابية في «غرداية» و«بني يزقن»، والترقية لدى الطوارق، فضلاً عن أماكن مختلفة أخرى لانتشار الزناتية في الجنوب الغربي، كما نؤكد أيضاً على حجم المغالطات التي وقع فيها نموذج دراستنا في تقسيمه لمجال انتشار اللغة البربرية واللغة العربية، فالتقسيم اللغوي الذي يتحدث عنه المؤلف لا أساس له من الصحة

تماماً، فمجال انتشار العربية والبربرية غير محدد بمجال جغرافي محدد، بل نجد أن هناك تداخلاً بين المتحدثين بالعربية والبربرية.

وهو ما ينسف، بالتالي، الفرضية التي طرحها «غوتييه» عن مجال انتشار اللغتين، خاصة فرضية انتشار العربية في السهول وانحصار الأمازيغية في المرتفعات؛ فالمتمعن في انتشار اللغتين في الجزائر، وإلى يومنا هذا، سيجد تداخلاً كبيراً في مناطق انتشار العربية والأمازيغية بين الانتشار في السهول وبين التمركز في الجبال. وما يثبت وجهة نظرنا هو ما ذكره المؤرخ «عبد الرحمن بن خلدون» عن تمازج اللغتين العربية والبربرية في شمال إفريقيا، حيث قال: «**أمّا إفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم، ولم يكد يخلو عنهم مِصْر ولا جيل، فغلبت العجمة فيها على اللّسان العربيّ الّذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللّسان الأوّل أبعد**» (ابن خلدون، 2004، صفحة 383)

علاوة على ذلك، تشير جميع الدراسات الحديثة إلى أنَّ التمازج الثقافي العربي البربري سرعان ما انصهر لدرجة لا نستطيع التفريق بين القبائل هل هي عربية أم بربرية؛ وفي هذا الصدد يقول الباحث «سفيان عبد اللطيف» في كتابه «**أصول قبائل منطقة جيجل**»: «**أما (الروافد العربية) فإن حال منطقة جيجل جعلتها مجالاً استطاعت فيه الروافد الكتامية القديمة أن تستلحم العنصر العربي المقبل عليها أثناء التدافع البشري بينهما، فاندمج هذا العنصر العربي نسبياً فيها، وانتمى إليها، فصار فرعاً كتامياً مستلحماً، بينما أخذت الروافد الكتامية لغته العربية وأخلطتها بلهجتها البربرية المحلية**». (عبد اللطيف، 2019، صفحة 209)

غير أنَّ نموذج دراستنا يتجاوز هذه الحقائق التاريخية، ويصر على إثبات وجود علاقة بين التباين اللغوي لسكان الجزائر بصفة خاصة وسكان بلاد المغرب بصفة عامة، وبين التخلف والبدائية في نمط حياة السكان، لأن التباين اللغوي واختلاف نمط حياة السكان ساهما في انعدام رابط حقيقي بينهم. فرغم أنَّ البربر مثلاً يتحدثون بلهجات مشتقة من لغة واحدة، إلاَّ أنَّهم لا يستطيعون التواصل فيما بينهم؛ فقبائل جرجرة لهم لهجة خاصة، وسكَّان الأوراس لهم أيضاً لهجتهم، ولا يمكنهم التواصل فيما بينهم نظراً لغياب

كتابة مشتركة بينهم، نتيجة تباين نمط حياتهم من جهة وتخلفه من جهة أخرى. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 67)

2 – حتمية إحلال اللغة الفرنسية محل لغات «العنصر الأهلي» الضعيفة الآيلة للزوال

يؤكد «إميل غوتييه» أنَّ فرنسا، باعتبارها تملك لغة الحضارة والرقي والازدهار، وبينما تنتشر الكثير من اللغات واللهجات الضعيفة والآيلة للزوال، وجب عليها الاهتمام أكثر بتعميم لغة العلم والمستقبل في الجزائر؛ لأنَّ اللغة العربية لغة ميتة أقرب إلى اللاتينية، واللغة الوحيدة الباقية في الجزائر هي العربية العامية التي بدأت في الانتشار عقب قدوم البدو الهلاليين الذين استوردوا هذه اللغة إلى الجزائر.

وباعتبار أنَّ هؤلاء البدو –كما يقول غوتييه– مكروهون في الجزائر ولغتهم أصبحت شبه ميتة، وجب على فرنسا إثبات وجودها من خلال تعويض اللغتين باللغة الفرنسية؛ لأن اللغة العربية الفصحى بحد ذاتها غير مؤهلة لمنافسة لغة أوروبية حديثة، حيث يقول: «**الفرنسية بدأت في الانتشار، فقد تبناها جميع الإسرائيليين الأهالي؛ فالشارع أكثر فعالية من المدرسة... إن الالتحاق يؤدي إلى اعتماد الفرنسية في المراسلات التجارية، في ظل غياب لغة مراسلات أخرى ممكنة (فالقبائلية غير مكتوبة والعربية غير معروفة)**». (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 265)

وباعتبار أنَّ فرنسا أصبحت مسؤولة عن المجتمع الجزائري المشتت من حيث الأصول واللغات، وجب عليها فرض منطق لغتها لكي تحقق ما تصبو إليه في تكوين دولة جزائرية وتمدين للمجتمع الجزائري، وهذا التوجه، كما بيّنّا في الفصل السابق، يخدم بصورة كبيرة سياسة الإدماج الفرنسية وسياسة فرنسة المجتمع الجزائري، كما له صلة وثيقة بإثبات النظرية التي تقوم على نفي كل شكل من أشكال الوحدة للمجتمع الجزائري؛ فـ«إميل غوتييه» رغم تأكيده على أنَّ البربر شعب عظيم، ولهم مكانة كبيرة في عشرين قرناً من التاريخ، لكن «**لم يكن لهم أدب ونظام كتابة، وكانت لديهم لغة ظلوا مخلصين لها لألفي عام، وهي مجزأة إلى عدد لا نهائي من اللهجات، مشوهة باقتباسات من العربية ولغات أخرى عديدة، وهي لغة في طور الاضمحلال**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 136)، كما وضَّح

أيضاً أنَّ المتمعن لواقع المجتمع الجزائري، سيجده مقسم لغويا إلى مجموعات صغيرة متباينة فيما بينها، لدرجة أنَّه يمكن وضع حدود سياسية تقوم مقام الحدود اللغوية. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 190).

ومن هذا المنطلق، يصر نموذج بحثنا على اعتبار اللغة العربية واللغة البربرية مجرد وسيلة تواصل، لا لغتين رسميتين يعتمد عليهما في المراسلات اليومية، وقد أشرنا في الفصل السابق إلى كيف دافع «غوتييه» بشدة عن سياسة نشر اللغة الفرنسية في الجزائر؛ باعتبار أنَّ اللغة البربرية لهجة لم تُكتب قط، «**ولا أحد في القبائل يتحدَّث العربية ناهيك عن كتابتها، لذا لم يبقَ إلاَّ الفرنسية، لذلك كتب القبائل قوانينهم بالفرنسية؛ لا بالفرنسية الرسمية التي يترجمها مترجم محلف، بل كتب القبائل مستخدمين مواردهم اللغوية الخاصة بالفرنسية اليومية وبمصطلحاتهم العامية**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 35-36).

فاللغة، ومن خلال ما ذكره «إميل غوتييه»، ليست عامل وحدة بأي شكل من الأشكال، بل هي عامل تفرقة وترسيخ لفكرة الاختلافات العرقية لسكان الجزائر ونشر الثقافة الفرنسية، كما أنَّ هذا التوجه يثبت أيضاً أنَّ نموذج بحثنا لم يدخر جهداً في إثبات أنَّ المجتمع الجزائري لا يختلف فقط في أصوله ومكوناته التي يرسخها الاختلاف اللغوي، بل إنَّ هذا الاختلاف يمكِّن الاحتلال الفرنسي من بسط سيطرته على هذا المجتمع من خلال ترسيخ ثقافة التباين أكثر بين أفراده.

فهو حين يؤكد على أنَّ فرنسا عمدت إلى تبني قوانين المجتمع الجزائري، وخاصة منطقة القبائل، يثبت لنا حجم المساعي التي يبذلها منظرو الاحتلال الفرنسي لترسيخ ثقافتها في هذا المجتمع من جهة، وتكوين طبقة مثقفة تخدم الفرنسيين في مشاريعهم الهادفة لتفتيت المجتمع الجزائري وتجزئته إلى مجموعات عرقية صغيرة، مثل: الشاوية والقبائل وبني ميزاب والطوارق وغيرها من العرقيات التي حاول الباحث إثبات تباينها من حيث الأصول ومن حيث اللغة.

3 – غياب الوحدة الدينية، واشكالية تدين الجزائريين السطحي

بالإضافة إلى إشكالية تباين اللغة، حرص «إميل غوتييه» على إبراز إشكالية أخرى في المجتمع الجزائري والتي حسبه تمنع هي الأخرى تحقيق وحدته السياسية، ألا وهي التدين السطحي للجزائريين؛ فالجزائريون حسبه لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولديهم إسلام خاص (الإسلام الجزائري، وهو ممزوج بالخرافات والشعوذة والمظاهر الوثنية القديمة).

حيث نجد أنَّ الباحث أشار إلى انتشار العادات المرتبطة بالديانة الوثنية والمسيحية لدى السُّكَّان، حيث قال: «**من المعروف أنَّه في جميع أنحاء بلاد البربر نجت بقايا المؤسسات والعادات الرومانية، البعيدة عن الإسلام لفترة طويلة، ولا يزال آخرها موجوداً حتى اليوم في المناطق التي ظلت أكثر أمازيغية، خاصَّة منطقة القبائل وجرجرة والأوراس، حيث حافظ السُّكَّان على الاستخدام الحيوي للغاية للتقويم اليولياني، مع الأسماء اللاتينية للأشهر، والتي لا تزال معروفة جداً. وباختصار، احتفظ المجتمع البربري، خاصَّة في الواحات طوال العصور الوسطى، بآثار من ديانة الإمبراطورية الرومانية واليهودية**». (Gautier, Oasis Sahariennes, 1905, p. 344)

فالمجتمع الجزائري في معتقداته وعاداته مرتبط بشكل مباشر بتقاليد رومانية ويونانية، وبالتالي انتشار عبادات ما قبل الإسلام، خاصة تبجيل الأشجار ومنابع المياه، بالإضافة إلى المغارات وغيرها من الأماكن التي يقدسها الجزائريون، مثل منبع وادي الحمام بالقرب من البرواقية «وهو بلا شك مكان وموضع عبادة قديم جداً». (Gautier, Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, p. 255).

كما أنَّ الممارسات اليومية لسُكَّان الجزائر للدين الإسلامي لا تتعدى النطق الشفهي للشهادة فقط، والقراءة السطحية للقرآن الكريم دون تمعن وتدبر، لأن أغلبهم لا يتقن اللغة العربية بشكل جيد، ومثل ذلك سُكَّان الأوراس، حيث قال فيهم: «**لا يكاد يحضر دروس الطلبة أناس كثيرون، فهم ليسوا متعصبين ويقتصرون على تلاوة بعض سور القرآن المكتوبة بالعربية، ومعظمهم يجهل معناها، فهم يرددون هذه السور آلياً، ولا يشعرون بالحاجة إلى توسيع مداركهم الدينية؛ فيكفيهم، كما يقولون، أن ينطقوا بالصيغة العربية للشهادة، وإلى جانب هذه الجموع الجاهلة، هناك قلة من الشخصيات الدينية**

والإدارية لا يملكون سوى مفاهيم بدائية عن العربية». (Gautier & Doutté, Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 56)

ومن انعكاسات هذا التدين السطحي انتشار بعض التصرفات المنحلة حسب «غوتييه» في المجتمع الجزائري، مثل تبرؤ الرجال من مسؤوليات الأسرة، حيث يقول: «**معظم المسكينات من النساء والأطفال يعيشون في عائلات منحلة، فالرجل هرب تاركاً كل شيء بلا نية للعودة، وكثيراً ما انضم إلى الجيش لعلمه بوجود حساء في الثكنات، لكنه نال مكافأة التجنيد، ماذا فعل بها؟ هل تركها على الأقل عند عائلته؟ غير ممكن أبداً في حياته، لقد أمضى ليلة واحدة في بيت عام (بيت الدعارة والخمور) وترك هناك المكافأة. وهذا التفكك العائلي يثير فضيحة للملاحظ، لكنه لا يفاجئ إلاَّ جزئياً كل من له صلة بالشرق؛ لأنَّه يعرف كم هي أقل رسوخاً في العائلة المسلمة من عائلتنا».** (Gautier, La Famine en Algérie, 1921, p. 630).

ومن المناطق التي استدل بها الباحث لإثبات تدين الجزائريين السطحي، منطقة الجلفة وأولاد نايل، نظراً لانتشار بعض الطقوس التي يؤكد المؤلف بعدها التام عن الإسلام، كالرقصة التي يؤديها سُكَّان المنطقة، وهي رقصة لها ملامح لعصور ما قبل الإسلام، يمكن ربطها كما يقول نموذج بحثنا بأسلوب التعبد الذي كان منتشراً في معابد مصر والشرق. (Gautier, Description Ggéographique, 1922, p. 37)

ولكي يبيِّن لنا نموذج دراستنا أكثر مدى تدني وانحطاط المستوى الديني للجزائريين، ركَّز على دراسة عادات وتقاليد مجتمع الطوارق الذي خصَّه بالدراسة، وسجَّل العديد من الملاحظات حوله، خاصَّة نظامهم الاجتماعي الذي يقوم على النظام الأمومي؛ حيث يقول: «**رأس الأسرة من الذكور هو الخال وليس الأب، ولا خلافة إلاَّ من جهة الأم، وهؤلاء البدو أقرب إلينا بكثير من العرب؛ أنَّهم أكثر انفتاحاً وأكثر فضولاً وأسهل في التواصل معهم، وهذا لأنَّهم أقل إسلاماً ولا يعرفون كلمة واحدة من العربية لغة القرآن، ولا يصومون شهر رمضان، وتتمتع نساؤهم باستقلالية أقرب إلى نسويتنا منها إلى العادات السامية. كما أنَّهم أكثر من حافظ على كراهية الغزاة العرب؛ فبالنسبة لهم الحرب لم تنتهِ أبداً**». (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 210)

ويقدِّم «غوتييه» تفسيراً آخر لتغطية الطوارق لوجوههم باللثام، بأنَّ له ارتباطات بمعتقدات قديمة تعود لفترة ما قبل التاريخ، حيث أشار المؤلف إلى غياب الوجوه في الرسومات الصخرية، فالشخصيات المجسدة فيها لا يوجد «**رأس على كتفها، وأحياناً يكون لها رأس حيوان، وغالباً يكون كلباً مقطوع الرأس وأحياناً يكون الوجه ملثماً، الوجوه العارية نادرة جداً، وهنا يجب الاعتراف بأنَّه هناك تحريماً دينياً بين الجرمنت على الوجه، ولدى الطوارق الحاليين التحريم نفسه، فهم يرتدون باستمرار حجاباً من القطن الأزرق أو الأبيض، وهو ما أكسبهم تسمية أهل اللثام أو أهل الحجاب**». (Gautier, De Nouveau au Sahara, 1935, p. 428).

بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ عادات مجتمع الطوارق المرتبطة بوضع اللثام لا علاقة لها بالنظافة حسب «غوتييه»، بل هي مرتبطة بالحفاظ على بقاء الروح؛ «فالحجاب لا يحمي الجهاز التنفسي من رياح الصحراء، بل يحمي فتحتي الأنف والفم، وهما باب النفس، أي باب الروح من الأرواح الشريرة»، وهو ما يوحي بأنَّ لدى الطوارق محرمات توحي بروح طوطمية. (Gautier, Le Sahara, 1928, p. 209).

ويصر نموذج بحثنا على أنَّ الجزائريين لا علاقة لهم بدين الإسلام، فهم على حد تعبيره «بالكاد مسلمون»؛ نظراً لانتشار العديد من آثار العبادات الوثنية، خاصَّةً في طلب المساعدة والعون من القديسين (الأولياء الصالحين). ورغم أنَّهم شعب يصوم شهر رمضان ويلتزم بهذا الصيام، إلاَّ أنَّهم لا يؤدون الصلاة المفروضة عليهم، بسبب جهلهم للغة العربية وجهلهم لطريقة أداء الصلاة، وهذه الممارسات السطحية للدين الإسلامي تنتشر نتيجة الجهل.

فمجتمع الطوارق مثلاً، في تفكيره ونمط حياته، يشبه الأوروبيين، ويميل للمسيحية باعتبار أنَّها دين متسامح متعدد اللغات، وليس كالإسلام الذي يفرض على صاحبه تعلم اللغة العربية، حيث يقول: «**نحن لا نرى في أي مكان آخر في هذا العالم البربري إنساناً بدائياً يظهر تحت هذا المظهر السطحي والهش للإسلام، فالطوارق يؤمنون إيماناً راسخاً بالله وبمحمد رسوله، ومع ذلك فهم يحتفظون ببراءة بآثار عبادة وثنية قديمة واضحة**». وذكر بأنَّ لهم عادات في طلب العون من القديسين (الأولياء الصالحين)، وأنَّهم لا يصومون شهر رمضان، ولا يؤدون الصلاة، نظراً لجهلهم بكيفية أدائها وجهلهم للغة تماماً، وأنَّ

«**هذا الجهل له عواقب وخيمة، فالإسلام ليس ديناً –مثل المسيحية– ديناً متعدد اللغات، والقرآن غير مترجم، والله لا يُفهم إلاَّ بالعربية (حاشا لله تعالى)، ولم يخاطب بلهجة عامية**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 183-185)

واستنكر «غوتييه» شعائر الإسلام مثل الصلاة، وتحدث عن تدين الجزائريين وممارستهم لبعض العادات والتقاليد الخاصة بشعوب أخرى سبقت الإسلام، خاصَّةً سجود المسلمين الذي اعتبره تصرفاً غير مقبول؛ «لأنَّه متعارض مع عادات الفرنسيين»، وأكد على أن هذا التصرف يثير في نفس المؤلف الاستياء، لأن هذه العادة مأخوذة عن المصريين بسجود الرجال لبعضهم البعض. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, pp. 801-802)

وبالتالي فتدين الجزائريين وسكان بلاد المغرب من هذا المنطلق لا يتعدى إطاره الشكلي فقط، لأن المجتمع الجزائري تنتشر فيه عادات وثنية منها «يد فاطمة»، والتي أصبحت بمثابة تميمة حظ يستعملها السكان في كل مكان «**خاصة شواهد القبور، وهي جامدة منتصبة وأصابعها الخمسة ممتدة ومتصلة**»، وهو ما جعل «غوتييه» يبين أن هناك العديد من الرموز ورثها الإسلام عن العصور التي سبقته، «**فمثلاً نجد أن الهلال الذي يظهر في علم تركيا، كرمز للإسلام كان في زمن قرطاج رمزاً للإلهة تانيت، وهذا رغم أن الإسلام يرفض هذه الأيقونات**». (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, pp. 802-803).

ويواصل نموذج دراستنا تحليل الشعائر المرتبطة بالإسلام التي يمارسها الجزائريون في حياتهم اليومية، خاصة سكان المناطق الجنوبية الغربية، وتحديداً منطقة «توات» وواحة «الساورة»، حيث ذكر أن سكانها توارثوا عبر الأجيال عادات وتقاليد مرتبطة بالأساس بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة في المنطقة قبل الفتح الإسلامي، وأشار إلى بقاء آثار هذه الديانة والديانة المسيحية في المنطقة بكثرة الأضرحة ومظاهر تقديس رجال الدين فيها.

علاوة على ذلك، وضَّح لنا «غوتييه» أنَّ التدين السطحي ينتشر أكثر وسط سُكَّان الواحات الصحراوية المنتشرة في الجنوب الغربي، كواحة «غورارة» التي وصفها بأنَّها «**أرض ساحرات مرعبات؛ لأنَّهن ومن خلال الروايات الأسطورية يقمن بإخفاء وإنزال القمر بتعاويذهن ولعناتهن في طبق مملوء بالماء**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 142-143). كما أنَّ هذه الواحات حسبه تتميز بانتشار «**أضرحة ذات قباب بيضاء، ولكل قرية أضرحتها الخاصة، وهي بمثابة قبور لمرابطيها أو كما لو كانت آلهتها المقدسة، وهي عبارة عن العديد من الكنائس الصغيرة المخصّصة لعبادات خاصة، ومن بينها قبر المغيلي الذي يحاط بتبجيل خاص**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 144).

كما تجدر الإشارة إلى أن «غوتييه» عمد أيضاً إلى تبيان مدى الارتباط الوثيق لقبائل الطوارق في لباسهم بتقاليد فترة ما قبل التاريخ، وبيّن بأنَّ هذه القبائل رغم اعتناقها للإسلام واعتقادها الجازم بوحدانية الله ونبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إلا أنَّ ذلك لم يمنع من انتشار الكثير من العادات الوثنية في الكثير من المناطق، أما في بعض المناطق فيؤكد وجود عادات مسيحية وحتى يهودية، وهو ما جعل المؤلف يصف هذه القبائل بأنَّها تشبه الأوروبيين في تفكيرها، خاصة في النظام الاجتماعي للأسرة التارقية الذي يجعل الأبناء يُنسبون إلى قبيلة الأم، وليس «**للأب سلطة عليهم سوى بنظرة عاطفية ومنزلية، وأقرب الذكور إلى الأبناء هم أخوالهم الذين يحظون بأقصى قدر من التبجيل والزعامة السياسية التي تنتقل بعد وفاة الخال إلى ابن أخته**». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, pp. 175-210)

كما أنَّ هذه القبائل تنتشر فيها عبادات وثنية أخرى، فسكان منطقة «تمنتيت» مثلاً رغم أنَّهم مسلمون، إلا أنَّهم يقدسون رأس الكبش لأنَّهم لم يدمروا صنمه، حيث قال في هذا الصدد: «**سكان تمنتيت وهم مسلمون يقدسون رأس الكبش، ومع ذلك عرفوه وأطلقوا عليه اسماً، ولم يدمروا هذا الصنم، إذ كان محمياً بتوقير بدائي مخيف نوعاً ما، وهذا الأمر المثير للدهشة؛ فسكان الجبال في المغرب مسلمون أيضاً على الأقل بطريقتهم الخاصة، إلا أنَّ هنري باسييه Henri Basset وجد بينهم آثاراً واضحة**

لعبادة الكبش». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 40)

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن نموذج دراستنا لم يكتفِ بما أورده من أفكار تثبت انحراف الجزائريين عن الدين الإسلامي فقط وارتباطه الوثيق بعبادات وثنية كانت منتشرة في المنطقة قبل الإسلام، كما ربطه أيضاً بالديانات التي ظهرت كاليهودية والمسيحية، بل تجاوز «غوتييه» هذا الطرح بكثير، بتقديم تصورات أخرى عن الإسلام المنتشر في شمال أفريقيا بصفة خاصة والإسلام المنتشر في العالم بصفة عامة، حيث يرى بأنَّ الإسلام المنتشر في الجزائر وشمال أفريقيا له ارتباطات بالديانة الوثنية التي كانت منتشرة في مصر الفرعونية.

كما يرى بأن الإسلام في هذه المنطقة حمل معه أيضاً مؤثرات قرطاجية خاصة في مسألة ارتباط التقويم في الإسلام بالقمر، وهذا الأخير هو الإلهة تانيت عند القرطاجيين، وأكد «إميل غوتييه» أن الإسلام بصفة عامة له مؤثرات دينية يهودية ومسيحية مثل الملائكة والجنة والشياطين، ووجود قديسين وشفعاء عند الله، لكن غوتييه يرى أن أكبر إشكالية يحملها الإسلام حسب نظره هو انتشار عقيدة الإيمان بالقدر، والتي رأى بأنها تحد من تفكير الإنسان، حيث يقول عن عقيدة «**المكتوب**» بأنها معروفة في أوروبا، وهي عقيدة تثير قلق «غوتييه» حيث اعتبرها «**قمعاً جذرياً للحرية الإنسانية**»، وبين أن هناك أوجه تشابه كبيرة بين الإسلام والمسيحية؛ كالله والملائكة والجنة والروح والنار والشيطان ووجود شفعاء وقديسين عند الله. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 789)

وفي السياق نفسه يواصل «غوتييه» نقده لمستوى تديّن الجزائريين، خاصة ظاهرة انتشار عبادة القديسين كما يقول نموذج دراستنا (ظاهرة التضرع بالأولياء الصالحين في المعتقد الشعبي الجزائري)، التي أكد بأنها تُبنى على مفهوم أرستقراطي والولاء للرسول صلى الله عليه وسلم وذريته، كما تقوم أيضاً على اعتبار الصالحين من المسلمين ذوي مكانة مقدسة، وكل هؤلاء – ذرية الرسول والصالحين من المسلمين – لهم في المجتمع قداسة خاصة، فهم يحظون بمكانة خاصة؛ حيث تنتشر حسب رأي الباحث معتقدات بأنهم مقدسون تماماً ومقدّر لهم دخول الجنة بوعد من الله، وأنَّ بإمكانهم فعل أي شيء دون أن تُمَسَّ مكانتهم بأي ضرر، يقول «غوتييه»: «**ذرية محمد (ﷺ) على مر العصور تشكل طبقة الأشراف، وهم مقدسون تماماً، مقدّر لهم دخول الجنة بوعد إلهي لا يُخلَف، وبالمثل يؤسس أدنى المرابطين نوعاً من السلالة التي**

يُعترَف بأفرادها، إن صح التعبير، منذ ولادتهم بقداستهم المكتسبة مسبقاً، وبإمكانهم فعل أي شيء يفعلونه دون أن يلحقوا أدنى ضرر بالتبجيل الذي يحيط بهم». (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 788)

كما يشير أيضاً نموذج بحثنا إلى أنَّ المجتمع الجزائري يتميز عن غيره من المجتمعات بتأثره الكبير بالديانات السابقة التي مرت بالمنطقة، وهو ما يشكل ما يسمى ظاهرة الكهنوت في جانبها الشكلي فقط؛ لأن الإسلام في الجزائر أصيب بضعف شديد نتيجة الاحتكاك بالعادات الغريبة، وهو ما يعني أن كل ما يمارسه الجزائريون من عبادات متعلقة بالدين لها ارتباط شكلي فقط، وأن المجتمع يخشى نظرة الآخرين إليهم، أو كما سماها «غوتييه» «طائلة العقاب البدني».

وهذا التوجه الديني هو ما يتحكم في إسلام الجزائريين؛ فالصلاة -كما يقول غوتييه- عبارة عن حركات جسدية فقط يقوم بها السكان، أما الصوم فهو تعذيب للنفس وحرمانها من الأكل والشرب من الفجر إلى وقت أذان المغرب. كما أن هذه العبادات يقوم بها السكان تحت وطأة الإكراه الصامت، الذي يتجسد في استنكار المجتمع للتصرفات المنافية شكلاً فقط لتعاليم الدين الإسلامي؛ فلا أحد -كما يقول نموذج دراستنا- يستطيع الإفطار في شهر رمضان علناً؛ لأن هذا العمل ليس ممنوعاً فقط في الإسلام، بل الأكثر من ذلك هو واجب اجتماعي؛ بمعنى أن المفطر ينال عقاباً اجتماعياً قاسياً في حالة اختياره المجاهرة بالأكل في شهر رمضان، وهذه الفكرة تنطبق أيضاً على الالتزام بالصلوات الخمس في المساجد؛ لأن من لا يحضر الجماعة -كما يقول غوتييه- سيتعرض لطائلة العقاب. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 791)

ورغم اعتراف «غوتييه» بأن الدين الإسلامي ديانة سماوية كاليهودية والمسيحية، وأن القرآن الكريم ليس مجرد كتاب مقدس للمسلمين، بل هو أساس الحياة الدينية والأساس الوحيد للشريعة الإسلامية، كما اعترف أيضاً بأن القرآن هو دستور كل سلطة سياسية، والمبدأ الذي تقوم عليه الدولة الإسلامية، لكنه من جهة أخرى رأى بأن اتباع الجزائريين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة لهذا الدين جعلهم متخلفين عقلياً، خاصة أمام الاختراعات العلمية التي جاءت بها النهضة الأوروبية، وأكد على أن الإسلام اعتبر هذه الإنجازات ساهمت في إنجازها الشياطين (الجنون حسب التعبير العامي الجزائري).

إذا فنموذج دراستنا حرص من خلال هذه الأطروحات على إثبات البعد الكلي للجزائريين عن اللغة العربية من جهة، وعن الإسلام من جهة ثانية، وهذا التوجه تبناه المؤلف من منطلق دفاعه المستميت عن السياسة الفرنسية القائمة على فرض الفرنسية في الجزائر ونشر الديانة المسيحية؛ فهو حين يصر على تدني المستوى اللغوي للعربية والبربرية معاً، قدَّم لنا بديلاً عنهما وهو اعتماد الفرنسية لغةً للتخاطب، أما حين يؤكد إثبات انحطاط المستوى الديني للجزائريين وربطه بديانات وثنية قديمة أو ربطه بتقاليد مسيحية، فهو يؤكد مدى رفض المجتمع الجزائري للغة العربية والإسلام، ويحث الإدارة الفرنسية على نشر الديانة المسيحية، خاصة في أقصى المناطق الجنوبية للصحراء الجزائرية.

4 – الرد على أطروحات غوتييه في مجال اختلاف اللغة والدين في الجزائر

4– 1 – نقد أراء غوتييه في مسألة التخلف اللغوي للمجتمع الجزائري

إن الأطروحات التي سعى نموذج دراستنا إلى إثباتها عن المجتمع الجزائري بكل الطرق، تهدف في مجملها إلى نفي وجود الأمة والدولة الجزائرية، لأن الدولة حسبه تتطلب وجود وحدة لغوية، ووحدة في أصل السكان ومكوناتهم، لكن هذا الطرح الذي قدمه نموذج بحثنا لا يثبت بتاتا صحة وجهة نظره، بل يثبت أن النظرية التي جاء بها كلها في خدمة الاستعمار الفرنسي ومساعيه لتقسيم الشعب الجزائري خاصة لما يصر على التباين بين مجتمع الشاوية ومجتمع القبائل، من حيث نمط العيش والسكن وحتى في اللهجات المستعملة في المنطقتين.

كما نقول أيضاً أنَّ تباين اللغة الذي حاول غوتييه الدفاع عنه بقوة، لا يثبت أصلاً أصول السُّكَّان، وهو ما يذكره بنفسه في «كتاب توزيع اللغة البربرية في الجزائر (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913)، حيث أشار في هذا الكتاب إلى الصعوبات التي واجهها في إنجاز دراسة فعلية عن التوزيع الجغرافي للغة في الجزائر، ومن بين الإشكالات التي ذكرها إشكالية ازدواجية اللغة لدى العديد من القبائل في الجزائر، أي أن نموذج بحثنا يثبت وجود مجتمع جزائري يتقن اللغة العربية، كما يتقن اللغة الأمازيغية، وهذا في حد ذاته نفي لإشكالية ازدواجية اللغة واعتبارها عائقاً لتواصل الجزائريين وتحقيقهم الوحدة السياسية، كما نقول إنَّ هذه الازدواجية التي دافع عنها هي من

صنع الاستعمار الفرنسي، خاصةً من خلال التركيز على منطقة القبائل والأوراس باعتبار أنَّهما منبع الثورة والرفض القاطع للاستعمار الفرنسي.

وبذلك عمد «فغوتييه» وكغيره من المؤرخين من المدرسة الاستعمارية إلى تبيان انقسامات المجتمع الجزائري، حتى تتمكن سلطات الاحتلال الفرنسي من اختراق هذه المجموعات ونقلها من نمط العداء الشديد لفرنسا إلى نمط الود والمحاباة للإدارة الفرنسية، من خلال إنجاز دراسات تاريخية تثبت انتماء البربر لشعوب أوروبا، وأن منطقة القبائل –باعتبار سكانها يشبهون الأوروبيين من حيث لون الشعر والبشرة ولون العين– فإنَّ ذلك يدل على استحالة الترابط بين القبائل والعرب، بل الترابط يكون سهلاً مع الحضارة الأوروبية، لتجذرها خاصَّة في منطقة القبائل من القدم. (أرزقي فراد، 2012، الصفحات 13-14)

وقد بينا في الفصل الأول من هذه الدراسة، خلال حديثنا عن دور مدرسة الآداب في التركيز على الدراسات اللغوية للمجتمع الجزائري للتعرف عليه أكثر، خاصةً الدراسات التي أنجزها الجزائري «**عمر بن سعيد بوليفة**» عن اللغة البربرية في الجزائر والمغرب لصالح الإدارة الفرنسية، وهو الشخصية التي يؤكد الباحث «أبو القاسم سعد الله» بأنَّه ذو أصول قبائلية تأثر بشدة بالثقافة الفرنسية، وأنَّه كان ضحية للمشاريع الفرنسية الاستشراقية في الجزائر. (سعد الله أ.، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، الصفحات 58-64)

كما نقول أيضاً إنَّ «غوتييه» يُعدُّ من أبرز الداعمين لسياسة التمييز العنصري وسياسة «فرِّق تَسُد» في الجزائر، فنجده يتبنى أطروحات غير منطقية بتاتاً، كما أنه لم يُقدِّم لهذه الأطروحات ما يُثبتها من مصادر سواء كانت مادية أو مكتوبة، ولذلك فالمنهج التاريخي الذي عمل على إقامة أسسه وفق طرح علمي مَحْض، سقط مباشرة عندما راح يتفنن في إذلال المجتمع الجزائري ويعمل على تفكيك أواصره الاجتماعية واللغوية، رغم أن جُلَّ الدراسات التاريخية تُثبت لنا –كما بيَّنَّا سابقاً– حجم المغالطات التاريخية التي وقع فيها في سبيل تبرير نظرته الاستعلائية والعنصرية القائمة على تفوق الفرنسيين المطلق على الشعوب الإفريقية بصفة عامة والشعب الجزائري بصفة خاصة.

ولكي نبين أكثر حجم المغالطات التي أوردها نموذج دراستنا في مختلف الأطروحات التي ذكرها عن الجزائريين، نقول إنَّ معيار اللغة الذي تبناه نموذج بحثنا ليس أساساً من أسس تحديد أصول السكان أو

انتمائهم العرقي، حيث يشير «أحمد بن النعمان» إلى العديد من القبائل في بلاد القبائل أصولها عربية، ومن أمثلة ذلك أنَّ قبيلة «فليسة» مثلاً التي تستقر في منطقة (تيمليلين) في بلاد القبائل من أصول عربية استقرت منذ القدم، كما أنَّ قبيلة «بني جناد» التي تستقر بمنطقة «أبيزار» قبيلة عربية، بالإضافة إلى قبيلة «بني عيسى» المستقرة في منطقة «المعاثقة»، و«بني زمنزار» و«بني دوالة» وقبيلة «بني يني» هي في الأصل قبائل عربية. (بن نعمان، 1997، الصفحات 20-24)

وفيما يخص ادعاءات المؤرخ النافية لوجود لغة يمكن الاعتماد عليها في الجزائر، فنقول إنَّ ما أورده نموذج دراستنا هو إثبات لطبيعة السياسة الفرنسية في الجزائر القائمة على إبراز التباين اللغوي والقضاء على لسان السُّكَّان المحليين تدريجياً لأجل تعويضه باللغة الفرنسية، وما ذكره عن لجوء الفرنسيين إلى تدوين القوانين العرفية في منطقة القبائل بالحروف الفرنسية وفق اللهجة القبائلية، يثبت لنا صحة ما ذكرناه.

كما نقول أيضاً إنَّ نموذج دراستنا ادَّعى أنَّ اللهجات الأمازيغية غير مكتوبة بالنظر لغياب حروف كتابة ما عدا «التيفيناغ» المنتشرة بين قبائل الطوارق، لكن خلال بحثنا في الفصل الأول من هذا البحث وجدنا أنَّ الفرنسيين اهتموا بترجمة الكتب المخطوطة باللهجات الأمازيغية، والتي تثبت أنَّ هذه الكتب كانت تُكتب بالحروف العربية، ومن بين النماذج التي نوردها في هذا الصدد ما قام به «دومنيك لوسياني Dominique Luciani» من جهود في ترجمة كتاب «الحوض» للمؤلف «محمد بن علي بن إبراهيم السوسي» الخاص بعلم الفقه. (بكوش، 2009 – 2010، الصفحات 256 – 257)

ونشير أيضاً في إطار نقد غياب لغة أمازيغية مكتوبة إلى جملة البحوث والدراسات التي أنجزها العديد من المؤلفين، خاصة في المجلة الأفريقية حول اللغة الأمازيغية وحروفها التي تكتب بها، ومن ذلك نذكر الدراسة التي أنجزها الباحث «ألكسندر جولي Alexandre Joly» عن الشاوية في منطقة «أولاد سلام» بالأوراس، ونشرها في المجلة الأفريقية، وهي دراسة مقسمة إلى جزأين، حيث نشر الجزء الأول في المجلد 55 الصادر سنة 1911 بعنوان «**شاوية أولاد سلام**»، قدم فيه لنا دراسة شاملة عن أصول أولاد سلام والأعراش التي تتشكل منها هذه القبيلة، وشرح فيه أيضاً أساسيات التحدث بالشاوية وقواعدها النحوية. (Joly, Le chaouiya des Ouled-Sellem, 1911, pp. 411-449)

أما الجزء الثاني من المقال فجاء بعنوان «**مفردات الشاوية في أولاد سلام**»، صدر في مجلد السنة الصادر عام 1912، خصصه لإجراء مقارنة بين اللهجة الشاوية لقبيلة أولاد سلام واللغة العربية، وترجمة معاني الكلمات من الشاوية إلى العربية ثم إلى الفرنسية. (Joly, Vocabulaire du Chaouiya des Ouled Sellem ou Français, 1912, pp. 219-266)

ولذلك نقول أنَّ ما ذكره «غوتييه» عن غياب لغة مكتوبة لدى السكان غير صحيح تماماً، فهو يسعى لإثبات انعدام اللغة في الجزائر حتى يبرر سياسة الفرنسة التي تنتهجها الحكومة والإدارة الفرنسية، لأن إثبات غياب لغة تواصل حقيقية بين سكان الجزائر يعني بالضرورة نشر اللغة الفرنسية، فالشعب الذي لا يملك لغة مكتوبة يصبح من السهل تنفيذ سياسة فرض لغة أجنبية عليه، كما أن هذا الطرح الذي جاء به «غوتييه»، وحسب وجهة نظرنا هو دعوة صريحة للحكومة الفرنسية من أجل زيادة عدد المدارس الفرنسية في الجزائر، لأنها الوسيلة المثلى لتثبيت اللغة الفرنسية.

ونموذج دراستنا عندما أراد إثبات غياب لغة مكتوبة سواء كانت عربية أو بربرية أتبعها بمقترح تعميم اللغة الفرنسية، هذا التعميم يكون أولاً من خلال الاعتماد على الحروف الفرنسية في كتابة لهجات السكان، وهو ما تجسد بالفعل في تدوين قوانين سكان منطقة القبائل بحروف فرنسية وفق لهجة سكان المنطقة، أما المرحلة الثانية فيتم خلالها الاستغناء عن التعامل بهذه اللهجات وتعويضها مباشرة باللغة الفرنسية، وبذلك يتحقق مشروع المحو اللغوي التام للعربية والبربرية في الجزائر.

كما نؤكد أن «غوتييه» في الإشكاليات التي يعالجها دائماً ما يناقض نفسه، فهو من جهة يؤكد أن البربر حتى عصر الفتوحات الإسلامية كانوا يتقنون «اللغة البونيقية»، وأن تقبلهم للعربية جاء من منطلق اعتبارهم لها «بونيقية» ثانية، لكنه من جهة أخرى ينفي وجود حروف خاصة باللغة البربرية، ولذلك نقول إنَّ البربر وفق ما ذكره نموذج دراستنا بقوا منذ العهد القرطاجي إلى بداية الفتوحات الإسلامية يستعملون الحروف «البونيقية» لكتابة لغتهم، ثم قاموا بتعويض هذه الحروف بحروف اللغة العربية وكتبوا بها مختلف مؤلفاتهم التي بقيت حتى احتلال الفرنسيين للجزائر وقيامهم بسرقة هذه المخطوطات ثم ترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

وبذلك فادعاء غوتييه بغياب كتابة باللهجات البربرية غير واقعي، رغم أنَّه أنجز بحثاً عن توزيع اللغة البربرية في شمال إفريقيا رفقة الباحث الفرنسي «إدموند دوتي Edmond Doutté»، والَّذي أنجز العديد من الدراسات حول معتقدات ولغة وتدين وعادات الشعب الجزائري والمغرب الأقصى. (الادريسي، 2020، صفحة 10)

وهذا البحث في نظرنا يتيح له التعرف أكثر على واقع انتشار اللهجات البربرية في الجزائر، ويدرك جيداً أنَّ استعمالها في الجزائر يغلب عليه الطابع الشفهي، وهو ما ركَّز عليه نموذج بحثنا في اعتبارها لهجات منقرضة، لكنه من جهة أخرى يدرك جيداً أنَّ هذه اللهجات استعملت الحروف العربية لكتابة أدبها.

لكن «غوتييه» عندما نفى وجود حروف مكتوبة لهذه اللهجات، فهو من جهة يريد إثبات الانفصال التام بين العرب والبربر، وغياب وجود تناسق وارتباط بينهما، وأن العلاقة بينهما انحصرت فقط في الصراع والحروب التي لا نهاية لها، كما أنَّ إثبات غياب استعمال حروف لتدوين اللهجات البربرية في الجزائر يعني مشروعية اللجوء إلى اللغة الفرنسية، وبالتالي فإنَّ إثبات غياب اللغة يخدم من جهة مساعي الباحث لإثبات تباين مكونات المجتمع الجزائري وغياب الأمة الجزائرية.

كما نؤكد أيضاً أن جل الأبحاث والدراسات التاريخية التي أُنجزت عن الوضع الثقافي للجزائر في العهد العثماني تؤكد انتشار الكتاتيب والزوايا وغيرها من المعاهد التي تُدرِّس علوم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، كما تشير هذه المصادر والمراجع إلى أنَّ المجتمع الجزائري –رغم عدم اهتمام الأتراك بالجانب العلمي وبناء الجامعات والمعاهد العلمية– كان يحسن القراءة والكتابة كما وصفه المؤرخون الفرنسيون في بداية الاحتلال، وهذا دليل على وجود لغة يتعلم بها سكان الجزائر، وهي اللغة العربية التي يدرسون بها القرآن وعلوم الدين المختلفة، بالإضافة إلى تبنيهم لهجات اللغة البربرية في تعاملاتهم اليومية.

لذلك نقول إنَّ «غوتييه» يسعى أيضاً إلى تبرير مشروع فرنسة المجتمع الجزائري، باعتبار دعمه المطلق لسياسة محو اللغة العربية والقضاء على ما بقي من أثر للغة الأمازيغية، لتحقيق غاية فرض اللغة الفرنسية. ونحن نقول: إذا كان «غوتييه» يقول إنَّ المجتمع الجزائري في منطقة القبائل لا يكتب لهجته بحروف معينة نظراً لغيابها، ولا يكتبها بالعربية لأنَّه لا يعرفها، فكيف سمحت فرنسا لنفسها بتعويض هذا النقص –

كما يدعي- باللجوء إلى حروف اللغة الفرنسية؟ وهل المجتمع الذي كتبت فرنسا قوانينه العرفية بحروف لغتها، يعرف هذه الحروف أو يتحدث باللغة الفرنسية؟

وهي التساؤلات التي توضح لنا أنَّ «غوتييه»، من خلال دعم اللغة الفرنسية في منطقة القبائل، يساند بقوة المشروع الفرنسي الذي يسعى لمحو شخصية المجتمع الجزائري اللغوية، كما نؤكد أيضاً أنَّ القوانين التي أشار إليها نموذج دراستنا، تشير المراجع إلى أنَّ أعيان منطقة القبائل قدموها للباحث الفرنسي «غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux»، كُتبت باللغة العربية في غالب الأحيان، وباللهجة القبائلية المكتوبة بالحروف العربية أحياناً أخرى، خاصة قرية «آث علي أُحرزون» بجرجرة، وقرى «آزفون» بـ«تيزي وزو»، وقرية «آث واقنون» بدلس. (أرزقي فراد، 2012، الصفحات 33-34)

أما بالنسبة لغياب اللغة العربية وانتشار اللهجة العامية، فنقول إن هذا الغياب ليس مرده عدم إتقان الجزائريين للغة العربية الفصحى، بل يعود أساساً للسياسة التي طبقتها فرنسا في الجزائر للقضاء على هذه اللغة نهائياً وتعويضها باللغة الفرنسية، ونموذج بحثنا كما بينا في الفصل الثالث، من الداعمين لسياسة الفرنسة، لأنه يراه السبيل الأمثل لتحقيق دمج الجزائريين في المجتمع الفرنسي، ومن جملة الإجراءات والقوانين التي أصدرتها فرنسا لقمع اللغة العربية نذكر:

> **قرار 08 سبتمبر و7 ديسمبر 1830**: صدر هذا القرار بهدف الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية، لكن آثاره امتدت إلى تعليم اللغة العربية في الجزائر، باعتبار أنَّ مؤسسات التعليم في الجزائر كانت تعتمد بصورة مباشرة على أموال الوقف، وسيطرة الفرنسيين على هذه الممتلكات خلفت أثراً كبيراً على تعليم الجزائريين، حيث اضمحل تعليم اللغة وانتشر الجهل. (هلال، 2016، صفحة 103)

> **قرار سنة 1845**: تقرر فيه فرنسة الإدارة الفرنسية، من خلال إصدار الأحكام العقابية على العرب بالفرنسية، ووجوب الاعتناء بها والعمل على جعلها عامة بين الجزائريين، وهذا القرار يعبّر لنا عن واقع التفكير الاستعماري الفرنسي القائم على رفض القومية العربية للمجتمع الجزائري وضرورة تحوير هذا التوجه نحو الثقافة الفرنسية من أجل تكوين نخبة جزائرية مثقفة، تسهر على خدمة مصالحهم بالدرجة الأولى. (دبي، 2010-2011، صفحة 47_48)

> **قرار 24 ديسمبر 1904م**: نص على عدم السماح لأي معلم جزائري أن يفتح مدرسة لتعليم العربية دون الحصول على رخصة من السلطة العسكرية بشروط أبرزها:

- أن يقتصر تعليمه على تحفيظ القرآن الكريم فقط دون غيره.
- ألا يقوم بشرح آياته وخاصة التي تتحدث عن الجهاد.
- ألا يقوم بتدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها وتاريخ وجغرافية العالم العربي الإسلامي.
- أن يكون مخلصاً للإدارة الاستعمارية ويخضع لأوامرها مهمَّاً كان شأنُّها.
- يحظر على المدارس بعد الإذن بفتحها استقبال الأول إذ أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية، حتى ولو كان في القرى التي تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات. (بوخاوش، 2013، صفحة 30)

كما نشير في إطار سيطرة فرنسا على مجال تعليم اللغة العربية والتعلم بها إلى جملة الإجراءات التي أقرتها سلطات الاحتلال الفرنسي ضد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست بتاريخ 5 ماي 1931، وعملت على إنشاء مدارس عربية حرة لتعليم الجزائريين، حيث عملت سلطات الاحتلال الفرنسي على منع نشاط هذه المدارس الحرة وإصدار قرارات بغلقها بحجة عدم توفر رخصة بموجب قرار «كاميل شاطون Camille Chautemps» الصادر في 8 مارس 1938. (مراد، 2007، صفحة 340)

فالمجتمع الجزائري لم يكن جاهلاً كما ادعى «غوتييه»، بل العكس من ذلك، كان غالبية المجتمع الجزائري متعلماً في بداية الاحتلال الفرنسي، وواصل الجزائريون تعلم لغتهم العربية والحفاظ كذلك على لهجات اللغة البربرية، رغم المكائد التي قامت بها سلطات الاحتلال الفرنسي لقبر الإسلام والعربية ونشر الثقافة الفرنسية والديانة المسيحية، فإنكار اللغة وتباينها يسمح بتعويضها بلغة أخرى علمية، وهي في نظر نموذج دراستنا هي اللغة الفرنسية.

غير أنَّ المجتمع الجزائري رفض بشكل مطلق هذه السياسة العنصرية الفرنسية ضد العربية والإسلام والأمازيغية، وهو ما يؤكده الشيخ «عبد الحميد بن باديس» في مقال «ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان» حيث يقول: «**أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرناً، ثم رأيت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء... حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً،**

أمه الجزائر وأبوه الإسلام... فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ ... بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم...». (ابن باديس، 1936، صفحة 605)

علاوة على ذلك، نشير إلى ما ورد في مختلف المصادر التي كتبت عن تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا قبل الاحتلال الفرنسي، ومن أبرزها كتاب «وصف إفريقيا» للحسن الوزان الإفريقي، الذي ذكر أنَّ سكان بلاد المغرب انصهروا في بوتقة شعب واحد رغم انتشار العربية والبربرية، ولم يحدث بينهم أي تصادم، وهو ما يثبته الحسن الوزان حيث يقول: «**العرب أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة، فالعرب الذين عاشوا بين الأفارقة وظلوا على اتصال دائم بهم فسدت لغتهم وصارت خليطاً من اللهجات الإفريقية، وامتزج الشعبان المختلفان شعباً واحداً، غير أنَّ كل عربي وبربري ظل يحتفظ بكتابة عمود نسب آبائه، وهذا الشيء من الأهمية بمكان**». (الوزان، 1983، صفحة 31)

وبالإضافة إلى سعي «إميل غوتييه» لإثبات اختلاف لغة المجتمع الجزائري واعتبارها عاملاً مساعداً على توطيد أركان الاحتلال الفرنسي للجزائر، وضمان استمرار هذا الاحتلال ونشر الثقافة الفرنسية وسط الجزائريين، ركَّز أيضاً على إثبات إشكالية أخرى رأى أنَّ الجزائريين يتسمون بها، ألا وهي التدين السطحي، والَّذي اعتبره أيضاً عاملاً أساسياً يثبت تخلف المجتمع الجزائري ورفضهم للدين الإسلامي من جهة، وإثبات تباين مكونات المجتمع الجزائري من جهة أخرى؛ باعتبار أنَّ الدين هو أيضاً عامل أساس في تشكيل الوحدة السياسية للمجتمع، وهو ما يعني أيضاً تأثير هذا التدين في غياب الأمَّة الجزائرية، لذا وجب علينا نقد توجهات الباحث في مسألة نفيه القاطع لارتباط الجزائريين بالدين الإسلامي، وهو ما سنبينه في العنصر الموالي.

4- 2 - الرد على غوتييه فيما يخص مسألة تدين الجزائريين

عكفت الكتابات الأنثروبولوجية الاستعمارية على تعزيز التميز الديني والمذهبي الجزائري عن باقي العالم الإسلامي، وذلك لأجل الوصول إلى أن الديانة الإسلامية في الجزائر تختلف عن نظيرتها في باقي العالم الإسلامي. فحينما قام «إميل فليكس غوتييه» بدراسة واقع تدين المجتمع الجزائري، عمد إلى إثبات بعدهم عن الدين الإسلامي وارتباطهم الوثيق بالدين الوثني القديم المنتشر في شمال إفريقيا من جهة، وبالديانة

المسيحية من جهة أخرى، وهذا الربط المتعمد هو –حسب وجهة نظرنا– مقصود من طرف هذا المؤرخ؛ فبذكره لانحطاط تدين الجزائريين، يسعى إلى تأكيد رفض المجتمع للدين الإسلامي وبعدهم عنه، باعتبار عدم معرفتهم للغة العربية.

أي أنَّ نموذج دراستنا يربط هذا التدين السطحي بإشكالية تباين اللغة، فالإسلام –حسب رأيه– دين يعتمد على اللغة العربية فقط، ولا يمكن لأي شخص الدخول فيه إلا بتعلم هذه اللغة، والمجتمع الجزائري باعتباره يتكون من حيث اللغة من عرب وبربر، فإنَّ هذا العنصر الأخير يرفض العرب ويكرههم، وهذا الكره تجسد في احتفاظهم بتقاليد مرتبطة بديانات وثنية ومسيحية. كما نؤكد أيضاً على أنَّ تبني نموذج دراستنا لهذا الطرح يسعى من خلاله للتأكيد على الارتباط الوثيق بين البربر والديانة المسيحية، وأن الإسلام رغم بقائه في المنطقة لعدة قرون، إلاَّ أنَّ المسيحية التي ظهرت في المنطقة في العهد الروماني لا تزال آثارها باقية إلى عهده، ولذلك فإنَّ إعادة نشر المسيحية في المنطقة حق مشروع للفرنسيين؛ لأن ارتباط المجتمع بهذا الدين أكثر من ارتباطهم بالدين الإسلامي.

والتوجه الذي تبناه الباحث في الدفاع المستميت عن الديانة المسيحية وإبراز مدى سطحية الدين الإسلامي ووصفه لتدين المجتمع الجزائري بالسطحي لا يهدف فقط إلى الدفاع عن سياسة التنصير التي انتهجتها فرنسا منذ بداية الاحتلال، بل يسعى من خلاله إلى إثبات تباين ديانة المجتمع الجزائري بالتأكيد على وجود ديانات أخرى؛ حيث لاحظنا أنَّ «غوتييه» يؤكد على أن الجزائريين، بالإضافة إلى تدينهم السطحي بالإسلام، تنتشر في وسطهم اختلافات عقائدية أخرى كبني ميزاب واليهود، بالإضافة إلى انتشار طقوس للديانة المسيحية خاصة في منطقة القبائل والصحراء، وأن هذا الاختلاف الديني له ارتباط بالاختلاف اللغوي من جهة، وباختلاف أصول المجتمع الجزائري ومكوناته.

وبالتالي فإنَّ نموذج دراستنا من خلال تبيين التدين السطحي يسعى بدرجة أولى إلى خدمة الإشكالية الأساس التي ركَّز عليها في معظم دراساته، ألا وهي غياب الأمَّة الجزائرية؛ لأن وحدة الدين هي أيضاً عنصر أساس من عناصر ومقومات وحدة الأمَّة وتكوين شعورها بالوحدة السياسية. كما نقول أيضاً ضمن سياق نقدنا لتوجهات نموذج بحثنا بأنَّ التدين السطحي الذي انتشر في أوساط المجتمع الجزائري ليس بسبب عدم انتشار الإسلام فيهم، بل يعود إلى السياسة التي طبقتها سلطات الاحتلال الفرنسي في الجزائر

منذ بداية الاحتلال تجاه الدين الإسلامي، وهذه السياسة تقوم على محاربة هذا الدين لتسهيل عمل رجال الدين المسيحيين في الجزائر، ومن جملة الإجراءات التي طبقتها فرنسا في الجزائر نذكر:

❖ **الاستيلاء على الأوقاف:** لم تدخر سلطات الاحتلال الفرنسي جهداً منذ بداية الاحتلال في إصدار مجموعة من القوانين الداعمة للاستيلاء على الأوقاف، ومن بين هذه القوانين:

- **قرار 8سبتمبر1830**: صدر هذا القرار في عهد «الجنرال كلوزيل»، واحتوى هذا القرار ثماني مواد، جاء في الأولى منها: كل المنازل والمتاجر والدكاكين والبساتين والأراضي والمحلات وأية مؤسسة مهما كانت، لها ريع مهما كان، وأنها موجهة إلى مكة والمدينة أو المساجد أو أية جهات محددة، ستكون مستقبلاً تحت سلطة الإدارة الفرنسية، وهي التي تؤجرها وتحصل على مداخيلها. (حميدي ، 2019، الصفحات 142-143)
- **قرار 17 سبتمبر 1835**: الذي عُيّن بموجبه مراقب يُكلّف بقبض المداخيل ودفع المصاريف يساعده وكيل الحرمين الشريفين، يقوم بجرد الدفاتر المتعلقة بالأملاك الوقفية وسجلات حساباتها ومقارنة المبالغ المسجلة فيها مع المبالغ الموجودة فعلاً في الخزينة، حيث أصبحت كل المداخيل والمصاريف الخاصة بالأملاك الوقفية تسجل في دفاتر، وتوضع تحت تصرف مكتب المراقبة الذي أُنشئ خصيصاً لهذا الغرض. (بن عون، المسألة الدينية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي 1830 – 1954م (أطروحة دكتوراه)، 2018-2019، صفحة 51)
- **قانون وارني 26جويلية 1873م**: أُلغي مبدأ عدم التصرف في الوقف الأهلي، وبذلك أصبحت أوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستيطاني الأوروبي في الجزائر، ودعم هذا قانون وارني بقانون آخر صدر 28 أفريل 1887م الذي عمم فكرة الفرنسة بما فيها فرنسة الأملاك العقارية بصفة واسعة. (بن عون، مسألة الوقف في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، 2017، الصفحات 226-227)

❖ **تدمير المؤسسات الدينية:**

بالإضافة إلى الاستيلاء على الأوقاف، قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بالاستيلاء على المساجد وتحويلها إلى كنائس؛ ففي العاصمة مثلاً نجد أنَّ جامع السيدة القريب من قصر الجنينة، والَّذي كان حكام الجزائر يرتادونه، عمدت سلطات الاحتلال إلى أخذ كل الأشياء الثمينة فيه، مثل المصابيح ومنبر من الرخام والنوافذ الرخامية والأبواب وغيرها من الأشياء القيمة التي تم بيعها أو نقلها إلى فرنسا، ثم قاموا بهدمه سنة 1832. (زاهي، 2019، صفحة 361)، أمَّا جامع «كتشاوة» فحوِّل إلى كاتدرائية تحمل اسم «Saint-Philpe» بتاريخ 18 ديسمبر 1832. (شتوان، 2005، صفحة 395)

كما قام الفرنسيون بإغلاق 13 مسجداً كبيراً و108 مساجد صغيرة و23 جامعاً في السنة نفسها، أما «مسجد سيدي محمد الهواري» في وهران فحُبِس إلى مخزن عام للعسكريين، ومسجد «خنق النطاح» بوهران حُوِّل إلى حظيرة لتربية الخنازير، كما قاموا بتحويل «مسجد سيدي أبي الحسن» بتلمسان إلى متحف، أما في قسنطينة فحُوِّل جامع الباي إلى كنيسة، وجامع رحبة الصوف حُوِّل إلى مخزن بعد عام 1837م، ثم حُوِّل مرة أخرى إلى ملجأ. (قبي، 2005، صفحة 194)

كما لم تستثنِ إدارة الاستعمار الفرنسي الزوايا من مشروعها التدميري التغريبي، بل عاملتها بقسوة أكثر من المساجد؛ إذ تشير المراجع إلى عمليات التدمير التي شملت مختلف الزوايا المنتشرة بالجزائر، فزاوية التلمساني مثلاً حُوِّلت إلى مركز للهندسة العسكرية ثم إلى مركز تبشيري خاص بالراهبات، وقسنطينة كانت تحوي أكثر من 300 زاوية قبل احتلالها سنة 1837، لينخفض العدد إلى 30 زاوية للتعليم، ومن بين الزوايا التي استولى عليها الفرنسيون بمدينة الجزائر في بداية الاحتلال «زاوية كتشاوة» بالمرسى والإنكشارية بالقصبة و«زاوية شختون» التي حُوِّلت إلى ثكنة عسكرية ثم إلى مستشفى، ومن بين الزوايا التي تعرَّضت للهدم والبيع: زاوية «الصباغين» وزاوية «المقايسية»، وزاوية «السيدة»، وزاوية «سيدي الجودي» سنة 1838م، وزاوية «الجامع الكبير» التي أصبحت حماماً ثم هُدِمت نهائياً سنة 1838م، ونفس الشيء نجده في إقليم الغرب الجزائري؛ إذ تم هدم الزوايا أو تحويلها إلى كنائس كزاوية «أبو الحسن» بمدينة الشلف التي حُوِّلت إلى مخزن للتموين، أمَّا باقي زوايا وهران، ومعسكر، ومستغانم فتم تدميرها نهائياً. (سعد الله أ.، 1998، الصفحات 172-176)

❖ **طرد رجال العلم والدين**

وبالإضافة إلى هدم مراكز التعليم وتحويلها لخدمة مصالحها الاستعمارية، قامت سلطات الاحتلال الفرنسي أيضاً بمحاربة الأئمة وشيوخ الزوايا، ووضعت حداً لنشاطهم الديني وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ونفت الكثير منهم إلى مناطق نائية داخل وخارج البلاد، ولتضمن فرنسا تحقيق هذه الغاية سعت بكل الطرق إلى تشجيع الزوايا على الدروشة والخرافات والسحر، من خلال التدخل في نوع الدروس المقدَّمة فيها، خاصة في الفقه، إذ قاموا بحذف بعض الأبواب ومنع تدريسها كالجهاد والتوحيد، كما قامت فرنسا بمنعهم من أي نشاط سياسي ومن التنقل من غير رخص لمراقبة تحركاتهم. (زوزو، 1984، صفحة 191).

خلاصة

ولذلك نقول إنَّ الاستعمار الفرنسي طبَّق استراتيجية متعددة الجوانب والأسس، نتج عنها تراجع مستوى التعليم، وانتشار الأمية وسط الجزائريين، نتيجة غياب مؤسسات التعليم، سواء التقليدية الموروثة عن العهد العثماني، أو استيلاء الإدارة الفرنسية على أغلب ممتلكات هذه المؤسسات، وبالتالي فإنَّ انتشار الجهل والممارسات التي لا علاقة لها بالدين الإسلامي، يعود لقمع فرنسا للحريات الدينية للجزائريين، لضمان استمرار تخلفهم واستمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر.

إذاً فنموذج بحثنا لم يكتفِ فقط ببث ادعاءات تؤكد على التدين السطحي للجزائريين، بل عمد أيضاً إلى ربط هذا التدين باختلاف لغة المجتمع ورفضهم للغة العربية، كما عمد أيضاً إلى تبرير سياسة التنصير الفرنسية في الجزائر، من منطلق رفض المجتمع للإسلام وارتباطهم الوثيق بالمسيحية عبر التاريخ، وبالتالي فإنَّ «غوتييه» يرفض الاعتراف بتأثير الإسلام في شمال إفريقيا؛ لأن سُكَّان المنطقة لم يتقبلوه بشكل كامل، عكس المسيحية التي بقيت آثارها إلى الاحتلال الفرنسي، لكن وكما بيَّنا في الفصل السابق فمجتمع شمال إفريقيا كان رافضا بشكل قاطع الارتباط بكنيسة روما من خلال دعمهم للحركة الدوناتية التي قوضت بشكل كامل أركان الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، كما نؤكد في هذا السياق ما لاحظه نموذج من سرعة تقبل بلاد المغرب للإسلام، حيث ربطه بفكرة الوجدانية التي انتشرت في المنطقة في إطار الحركة الدوناتية

سابقة الذكر، وبذلك فإنَّ طرحه لإشكالية التدين السطحي للجزائريين وربطها بتقبلهم للمسيحية غير منطقي إطلاقاً.

وبالإضافة إلى إثبات «إميل غوتييه» لتباين أصول المجتمع الجزائري واختلاف مكوناته، وتباين لغتهم وتدينهم السطحي، حرص أيضاً على تبني إشكالية أخرى لتبرير الهيمنة الفرنسية على الجزائر من جهة، وإثبات استحالة تأسيس الجزائريين لدولة وأمَّة ذات شعور مشترك، ألا وهي إشكالية عجز الإنسان الجزائري عن الإنتاج الحضاري وتكوين شعور سياسي، وهي الآراء التي سنناقش محتواها في الفصل الموالي.

الفصل الخامس:

إشكالية التخلف الحضاري للجزائر وحتمية خضوعها للاستعمار في تصور إميل غوتييه

أولاً: العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الانتاج الحضاري

ثانياً: غياب الشعور الوطني واستحالة تحقيق الوحدة السياسية

ثالثاً: حتمية خضوع الجزائر والجزائري لسلطة أجنبية

تمهيد:

بالإضافة إلى ما ذهب إليه «إميل فليكس غوتييه» من أطروحات وتوجهات عنصرية عن المجتمع الجزائري، والمتعلقة أساساً بغياب الأمة التي غابت معها عناصر الوحدة بين مكونات المجتمع الجزائري واختلاف أصولهم، وتباين لغتهم وتدني مستوى تدينهم وارتباطهم بالإسلام، حرص نموذج دراستنا أيضاً على إثبات مجموعة من القضايا المنتشرة حسبه في المجتمع الجزائري، والتي تتمركز حول تخلف الجزائريين الحضاري والسياسي، وحتمية خضوعهم المستمر للأجانب، وهي الإشكالات التي سنناقشها في محاور هذا الفصل.

أولاً:

العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الانتاج الحضاري

بالرغم من ادعاء «غوتييه» الأصول الأوروبية للعنصر البربري، خصوصاً سُكَّان القبائل والطوارق، إلاَّ أنه من جهة أخرى يحاول أن يثبت ظاهرة طالما ميزت سُكَّان الجزائر وشمال إفريقيا، وهي العجز الفطري عن الإنتاج الحضاري. وهذا القصور الذي يدعمه بمجموعة من المعطيات التاريخية والجغرافية، الغرض من التركيز عليها هو الوصول إلى فكرة مفادها أنَّ هذه الأرض إن تركها الفرنسيون للسُكَّان الجزائريين، ستسودها الفوضى والهمجية التي لطالما ميزت مختلف مراحل تاريخ المنطقة. تظهر ظاهرة العجز الفطري في عدة نقاط منها سيادة البداوة بدل الحضارة.

1 – سلبية الوسط الطبيعي وأثره الاقتصادي والحضاري

يُقدِّم «غوتييه» الوسط الطبيعي للجزائر وبلاد المغرب بشكل سلبي؛ لأجل تمرير فكرة مفادها أنَّ الوضع الطبيعي لمنطقة شمال إفريقيا لا يتوفر على العوامل المنتجة للحضارة، وهذا ما يسمى بالحتمية الطبيعية، وكان التخلف الذي يلحق بهذه البلاد أمراً يرتبط بطبيعة ظروفها الطبيعية، وبالتالي فالبلاد محكوم

عليها –بفعل العوامل الطبيعية– بالتخلف عن الركب الحضاري البشري. ومنه يصل إلى أنَّ سُكَّان هذه البلاد يعيشون في ظروف بدائية، ولا يستطيعون استغلال إمكانيات بلادهم وتطويرها، وأنَّه على ذلك الأساس لا يجب أن نتركهم وشأنهم، بل يجب على الفرنسي الذي يحمل الأدوات التقنية وروح العمل استكمال المهمة الحضارية لأجل تطوير البلاد.

فمن حيث الموقع الجغرافي يرى «غوتييه» أنَّ بلاد المغرب توجد في مفترق العوالم الحضارية، وهو دائماً ما يكون مجالاً لصراع الحضارات؛ بسبب وقوع المنطقة بين عالمي الشرق والغرب، وهي الثنائية التي جعلته لا يدرك ذاته، ومنعته من تكوين شخصية سياسية على مر التاريخ، وهي التوجهات التي يؤكدها في قوله: «**في شمال إفريقيا يتشابك عالمان مختلفان الغرب والشرق، وهذا ما يصنع الطابع المميز للمغرب، فهو ذو روحين، ولم يعرف أبداً إلى أي حضارة ينتمي؛ هل هي حضارة غربية أو شرقية؟ وهذه الثنائية الجوهرية للمغرب منعت من تشكيل هيئة سياسية، ونتيجة لذلك تم تقسيم المغرب إلى أجزاء كثيرة، وسيكون من الحماقة محاولة إحصائها**». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, pp. 38-39).

ومن جهة أخرى، يعمل «غوتييه» على الربط بين الحتمية الطبيعية وعجز العنصر البشري، إذ يقول إنَّ بلاد المغرب محكوم عليها، بسبب مناخها وطبيعتها الجغرافية، بالعجز التام عن تحقيق الاكتفاء الذاتي وتحقيق تنمية اقتصادية فعلية؛ لأن هذه التنمية تتطلب وجود تعاون فعلي بين السُّكَّان، وهو الشيء الذي ينقص بلاد المغرب باعتبار أنَّ تاريخها مليء بالصراعات اللامتناهية التي لا فائدة منها، وغياب الظروف الاقتصادية مما منع المنطقة من إنشاء دولة مستقلة. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 18).

لذلك يؤكد نموذج دراستنا على أنَّ بلاد المغرب لو تُرك وشأنه لن يكون قادراً على تحمل تكلفة ذلك قط؛ لأن الأرض قاحلة، ولم تحظَ بالدعم المالي اللازم لبناء صرح اجتماعي وسياسي عظيم، وهو الأساس الذي لا غنى عنه لأي حضارة، وبذلك فالجزائر وبلاد المغرب تبقيان في همجيتهما الأولى، وهو ما يستدعي تدخل سيد أجنبي.

وهو ما دفع «غوتييه» إلى وصف بلاد المغرب بأنها تميزت لآلاف السنين بالخضوع للأجانب، وأنَّ هذا الخضوع هو ما شكَّل العرق البربري وحدَّد سماته الأساسية، وبذلك فعناصر المشكلة التاريخية التي تتميز بها الجزائر خصوصًا وبلاد المغرب عمومًا هي استمرارية الخضوع للأجنبي وعدم انقطاع هذه السلسلة طيلة الفترات التاريخية، فلا يكاد السُّكَّان يتخلصون من سيد أجنبي إلا ويظهر سيد أجنبي آخر، فالمغرب كما يرى لم ينجح قط في الانتماء إلى ذاته، ولم ينجح السُّكَّان الأهالي قط في طرد هذا السيد الأجنبي، بل تركوا سيل الفتوحات المتواصل يتدفق عليهم عاجزين، بل يكاد المرء يقول غير مبالين. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 24)

فالانتماء لمنطقة شمال إفريقيا، وما شهدته من تغييرات كبيرة في المناخ منذ أقدم العصور، وسيطرة الطابع الصحراوي على المنطقة جعلت من سكان شمال إفريقيا عاجزين عن إدراك أنفسهم وتطوير أدواتهم الصناعية لتحقيق إقلاع اقتصادي حقيقي، كما أنَّ هذا الوسط الطبيعي ساهم هو الآخر في تباين نمط حياة السكان وأسلوب عيشهم بين البداوة والتحضر، وبالتالي فإنَّه ساهم في بروز هوة شاسعة بين السكان، وساهم بالتالي في عجز السكان عن تحقيق تفاهم حقيقي، والذي انعكس بدور وبطريقة مباشرة على الحياة الاقتصادية للسكان، يقول «غوتييه»: «**لنقل هذه الثورات من حالة الركود إلى حالة الديناميكية لا بد من تنظيم ورأس مال والإنتاج الواسع النطاق والتصدير، وهي مجموعة متكاملة من الشروط التي لا يستطيع المغرب توفيرها بنفسه، من سيكون محرك الكل في بلد تحتضر فيه جميع الأقاليم، إن المغرب محكوم عليه بسبب مناخه بعدم الاكتفاء الذاتي، وتنميته الاقتصادية تفترض التعاون، فكيف لا نرى رابطا بين هذه الظروف الاقتصادية والسمة المميزة لتاريخ المغرب، وهي عدم تمكنه من تكوين دولة مستقلة**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 60)

وبالتالي فحسب توجهات نموذج دراستنا، فالبداوة والتخلف وجهان لعملة واحدة، وهذه الصفة –حسبه– ليست اختياراً تبناه السكان كأسلوب حياة، بل هو واقع فرضته عليهم الظروف الجغرافية التي تميز الجزائر وبلاد المغرب بصفة عامة، ألا وهي انتشار الجفاف في المنطقة وما تبعه من تحولات كبرى في

حياة السكان؛ حيث لاحظنا أن «غوتييه» عند دراسته لواقع حياة الجزائريين يربطها من جهة بنمط حياة البدائيين الذين استقروا في المنطقة منذ فترة ما قبل التاريخ، نظراً للتغيرات المناخية التي عرفتها خاصة الصحراء، نتيجة تأثرهم الكبير بالطابع المناخي الذي يميز الجزائر، لذلك فالمنطقة محكوم عليها أن تعاني من الفشل المستمر والبقاء في وضعها البدائي منذ فترة ما قبل التاريخ. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 65).

2 – عقم الجزائر والجزائري عن الانتاج الحضاري

بالإضافة إلى تقديم «غوتييه» الموقع والإمكانات الجغرافية لبلاد المغرب بشكل سلبي، بأنَّها لا تكفي لبناء اقتصاد قوي، يضيف إلى ذلك مشكلة عجز السُّكَّان عن الإنتاج الحضاري، بحيث يطرح تساؤلات عن تخلف بلاد المغرب، وغياب مساهمتها في تاريخ المنطقة والعالم، رغم موقعها المهم وطول امتداد سواحلها المشرفة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، حيث يقول عن شمال إفريقيا بأنه: «**يتميز بأغرب تصميم في العالم، فهو على حدود البحر الأبيض المتوسط والمحيط يمثل شريطاً شاسعاً طوله 3000 كلم وعرضه بالكاد 150 كلم، ومن المؤكد أنَّ هذا الهيكل الجغرافي لا بد أن يكون له تأثير تاريخي كبير، وكثيراً ما نُسب إليه عجز المغرب عن تأسيس دولة دائمة... وجميع الممالك تتميز بخصوصية غريبة، فهي بالكاد رسخت أقدامها في المنطقة، نجد أنَّها امتدت في قفزة واحدة إلى حدود البلاد... ففي بلاد المغرب تبدو الوحدة سهلة المنال، لأنَّها تتحقق دائماً في سنوات قليلة، لكنَّها لا تصمد أبداً، فدول بلاد المغرب فطرية تنمو في ليلة واحدة وتتعفن في صباح واحد**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 11-12)

كما يُلِح «غوتييه» على تخلف البربر منذ أقدم العصور، هذا باعتبار أن الجزائريين من نسل البربر، البربري الذي بقي متخلفاً عن الركب منذ فترة ما قبل التاريخ، وهذا التأخر الذي بقي سمة بارزة في التاريخ الطويل الذي عرفته المنطقة ببقائها بعيدة كل البعد عن الركب الحضاري. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 9). وهذا التخلف الحضاري بقي مرتبطاً بسكان شمال إفريقيا بالمقارنة مع جيرانهم في شمال أوروبا، وبالتالي تخلفهم المطلق عن الركب الحضاري، يقول «غوتييه» في هذا الصدد: «**متخلفون عن الركب في عالم البحر الأبيض**

المتوسط، ويطلق عليهم اسم شعب البربر، وهي كلمة تعود في أصلها إلى البرابرة، وليس من المستبعد وجود صلة بين هاتين الحقيقتين». (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, p. 317).

ومن الدلائل التي تثبت تخلف الجزائريين وعجزهم المطلق عن تحقيق تقدم حقيقي غياب إبداعات خاصة فيهم في مختلف المجالات، فالرسومات الصخرية في بلاد المغرب تشبه كثيراً تلك الموجودة في مصر، خاصة في جانب الأشكال البشرية التي لها رأس حيوان، لذلك يؤكد الباحث بأن لها أصلاً مصرياً، لأن تاريخ ظهورها في شمال إفريقيا أحدث، حيث ظهرت في حوالي 3500 قبل الميلاد بينما ظهرت في مصر في الألفية الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد، كما أن اللغة المنتشرة في شمال إفريقيا لها صلات كبيرة باللهجات القبطية أي أنها حامية، ليخلص «غوتييه» في الأخير للقول بأن مصر كانت منذ القدم البلد الذي انطلقت منه الحضارة، عكس بلاد المغرب الركن الأكثر تخلفاً. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 35).

كما أكد نموذج دراستنا أن هذا العجز الحضاري لم يقتصر على استيراد ثقافات الشعوب الأخرى فقط ونمط رسوماتهم الصخرية، بل يتعدى ذلك إلى طبيعة العمران في شمال إفريقيا؛ فجل المنجزات العمرانية المنتشرة في المنطقة إما أن تكون رومانية أو إسلامية، وما وُجد من عمارة بربرية فهو تقليد لمنجزات حضارات أخرى، «**فالآثار الجنائزية التي تندرج ضمن هذه الفئة (ضريح إمدغاسن وقبر المرأة المسيحية) هي تقليد متواضع لأهرامات مصر**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 67).

ومن هذا المنطلق نجد أنَّ «إميل غوتييه» كثيراً ما يكرر ويصر على نفي أي تكوين لأمة أو دولة جزائرية عبر الحقب التاريخية التي مرت بها، لأن تاريخها الاستثنائي عبارة عن سلسلة من الهيمنة الأجنبية التي لا تنقطع، وتاريخها يثبت أن هذه المنطقة مقدر لها ألا تنتمي لنفسها، لأنها عاجزة بشكل كامل عن إثبات وجودها منذ ألفي عام. (Gautier, L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain, 1929, p. 283). فالتخلف الذي يُميّز الجزائر يظهر بشكل جليّ في انتشار العديد من التصرفات البدائية في الكثير من المناطق، فمثلاً قبائل جرجرة لها قانون عرفي خاص يعود تاريخه إلى

العصر المسيحي، أي شرائع الكنيسة. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 35).

وكل هذا يشهد على صعوبة بقاء بلاد المغرب مستقلة ومعتمدة على نفسها، لأن سكانها لم يكونوا أبداً أمَّة ولا إمبراطورية مستقلة. لذلك حسب «غوتييه» فإنَّ غياب الإطار التاريخي للمنطقة يجعل هذا المؤرخ عاجزاً عن إيجاد شيء بارز يركز عليه في جميع الحوادث المعروفة، لأن البحث في التاريخ الطويل للمنطقة لا يفضي إلى الوصول لإيجاد أي شيء؛ لأن الجزائر وبلدان شمال إفريقيا محكوم عليها بالبقاء عِلَّة، يجب وجود قوة أجنبية تشرف عليها. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 210).

ورغم أنَّ الوضع البدائي حسب نموذج دراستنا ينتشر في شمال إفريقيا عامة وفي كامل القارة الإفريقية، إلا أنَّه يؤكد أنَّ هذا الإشكال يتفاقم أكثر في الجزائر؛ لأنَّها «**بدوية بالكامل، وليس فيها – حتى في تلمسان– ما يُقارن بالثقافة الإسلامية الحضرية في تونس وفاس. ثمة وضع خاص للغاية هنا لا نجده في تونس أو المغرب، لم يُخلق هذا الوضع بفعل الاستعمار الفرنسي ولا حتى بفعل الغزو التركي، إنَّه تتويج لتاريخ طويل جداً لم يظهر خلاله في الجزائر ما يعادل تونس أو فاس؛ مدينة إسلامية عملاقة تُعد ركيزة أساسية للبرجوازية**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 30)

3 – انتشار نمط البداوة وتأثيره على التخلف الحضاري

يعتبر «غوتييه» أنَّ سلبية الوسط الطبيعي، سواء الموقع أو التضاريس الوعرة أو المناخ الجاف، كان لها تأثير على الحياة الاقتصادية للجزائريين، مما تسبب في عجز زراعي ومجاعات دورية خصوصاً في المناطق الصحراوية وشبه الجافة. فكثيراً ما يشير إلى طبيعة الاستغلال الزراعي للجزائريين خلال بداية الاحتلال بأنَّها لم تختلف عن الأساليب القديمة التي تعود للعصور الحجرية، مثل استخدام المحراث الروماني والمنجل المصري القديم. وحول النمط البدائي للجزائريين، وكونهم أقرب إلى الحياة الحيوانية يقول: «**هم في العراء شبه عراة على الأرض الجرداء، وليسوا أفضل تجهيزاً من ابن آوى، ومن بين أدواتهم المنزلية**

النادرة جداً، يذكر أداة واحدة للنظافة الشخصية، مصنوعة من العظام والجلد بشكل بدائي في بلادهم». (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 178)

«فغوتييه» سعى لإثبات إشكالية تخلف الجزائريين وطابع حياتهم البدائي، من خلال ربطها بشكل أساسي بالطابع الجغرافي والمناخي للجزائر، فنظام المطر النسبي، خاصَّةً في المناطق الصحراوية التي تتميز بارتفاع الحرارة، يجعل حياة السُّكَّان تعتمد بشكل أساس على نظام البداوة؛ لأنَّهم يضطرون للبحث عن الكلأ لقطعان إبلهم، حيث يقول في وصف الصحراء: «**هنا كما في أي مكان آخر، غرائز البداوة هي نتيجة وليست سبباً، كانت العقار ستُزرع لو كانت قادرة على الزراعة**». (Gautier, La Valeur économique du Sahara, 1903, p. 546).

والتخلف السياسي للمجتمع الجزائري ليس سمة بارزة في حياته اليومية فقط، بل هو أيضاً حتمية لا يمكن لهؤلاء السُّكَّان التخلص منها، فالمجتمع الصحراوي مثلاً من جهة يتميز بطابعه الفوضوي والعنيف، لدرجة أنَّ المنطقة أصبحت تلقب ببلاد الخوف وبلاد السيف، نتيجة انتشار الاقتتال، سواء كان بين القبائل أو اقتتال داخلي من نفس القبيلة. (Gautier, Nomad and Sedentary folks of Northern Africa, 1921, pp. 8-9)

إذن، فالتخلف الحضاري الذي أصاب الجزائر هو ما نتج عنه بروز «**إنسانية فقيرة منحطة ضعيفة الجذور، ربما ما كانت لتدوم لو لم تتجدد باستمرار عبر القرون من خلال استيراد العبيد السودانيين، لكنَّها في النهاية زنجية مع استبعاد شبه كامل للبيض، نتيجة انتشار البعوض والملاريا التي يتكيف معها الزنجي عكس الإنسان الأبيض، ولكن خارج الواحات يصبح الإنسان الأبيض هو المواطن**». (Gautier, Description Ggéographique, 1922, p. 58).

وبالتالي، فالمجتمع الجزائري يختلف عن غيره من المجتمعات بتدهوره الكبير من البداوة الواسعة إلى الترحال، بسبب التغيرات التي طرأت على أسلوب حياتهم، نتيجة اهتمامهم البسيط بتلبية ما يحتاجونه فقط من غذاء دون تفكير في تطوير الزراعة بما يحقق الرفاهية الاقتصادية. ومن بين الذين تدهورت حياتهم

بشكل ملحوظ، يشير الباحث إلى مجتمع الشاوية الذي انتقل من حالة الحياة المستقرة في الأرض إلى حياة البداوة والترحال والرعي، وذلك بفعل التأثر بنمط حياة الوافدين العرب البدويين؛ فالشاوية حسبه «**أصبحوا رُحَّلاً في الجبال بعد أن كانوا فرساناً (في العصر القديم)، ولم تعد لديهم الخيول والمعدات التي تسمح لهم بالسيطرة على السهول الواسعة، وبالتالي انقسموا إلى قبائل صغيرة، فلم تعد لهم وحدة، لأنَّهم فقدوا القدرة على التجمع تحت أمراء أقوياء، وهو ما يعني بالضرورة عدم قدرتهم على لعب أي دور تاريخي**». (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 27).

فحسب «غوتييه» فإنَّ البداوة تنتشر بشكل عام في وسط المجتمع الجزائري وقدم عدة أمثلة، فخلال دراسته لمجتمع الطوارق، سجل عِدَّة ملاحظة تخص نمط حياة سُكَّان الصحراء، والذين لا يزالون حسب قوله يعيشون في العصور البداية، ولم يتطوروا منذ آلاف السنين. بحيث يذكر أنَّه حينما سيطر الفرنسيون على منطقة الصحراء وجدوا سكانها يعيشون وفق نمط يعود للعصور الحجرية، وهو ما يبين بأنَّ سُكَّان الصحراء رغم إبداعاتهم في الصناعات اليدوية، إلاَّ أنَّها «**إرث من الماضي البعيد الذي لا يدافع عن نفسه بشكل جيد ضد النسيان، كل هذا قائم وثابت، حتى في بعض الأحيان نجد الانحدار والانحطاط واضح للعيان خاصَّة في حفر الآبار**». (Gautier, La Valeur économique du Sahara, 1903, pp. 547-548)

وبالإضافة إلى منطقة الصحراء المتخلفة، نجد أيضاً هذا التخلف منتشراً وسط سُكَّان الأوراس، الذين –حسبه– يعتمدون في حياتهم على رعي الأغنام، وهم «**مخلصون لظروف المعيشة التي فرضتها البلاد والمناخ، متميزون عن جيرانهم القدامى من المغاربة في الأكواخ المصنوعة من القش، كما يختلفون أيضاً عن رعاة الجمال بخيامهم الكبيرة**». (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 97). مما جعلهم يرتبطون بحياة البداوة والاعتماد الكلي على حياة الترحال من منطقة إلى أخرى، وبالتالي تحولت حياتهم من نمط الاستقرار إلى نمط الترحال. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 207)

ففي منطقة سعيدة مثلاً، يشير الباحث إلى أنَّ هذه المنطقة، رغم كونها تجمعاً حضرياً كبيراً، غير أنَّه لم تكن لها أي أهمية حقيقية قبل الهيمنة الفرنسية؛ لأنَّها كانت خالية تماماً من الحياة، والظروف كانت مواتية لاستغلال إمكانيات المنطقة بالنظر لوجود «**الحجل ووفرة الطرائد التي تضمن لنا أنَّ الإنسان نادر، رغم أنَّ هذه الظروف مواتية جداً للاستعمار الأوروبي، وهذا ما بدأنا ندركه**». (Gautier, La Meseta sud-oranaise, 1909, p. 339)

كما تنتشر البداوة أيضاً في كل المناطق الممتدة بين «البرواقية» و «أومال "سور الغزلان حالياً"»، وتحديداً قبيلة «بني سليمان» التي تقطن بالقرب من جبال البيبان؛ «**السكان مستقرون ومزارعون لا يعرفون إلا الملكية الخاصة (الملك). يعيشون في منازل حجرية مستطيلة مسقوفة بالقرميد، كما هو الحال في جرجرة**». (Gautier, Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, p. 255)

إذًا، «فإميل غوتييه» يثبت من خلال طرحه لطابع البداوة لدى المجتمع الجزائري، وهذه البداوة لم تساهم فقط –حسب الباحث– في تخلف السُّكَّان، بل ساهمت أيضًا في سهولة تقبلهم للاحتلال الأجنبي؛ وذلك باعتبار أنَّ السُّكَّان لا يستغلون جيدًا ثروات البلاد التي يعيشون فيها. وقد بيَّنا فيما سبق كيف دافع المؤلف عن فكرة استغلال الاحتلال الفرنسي لثروات الجزائر، باعتبار أنَّ هذا الاستغلال حق مشروع لهم نتيجة تقاعس السُّكَّان في استغلالها، وهو ما نتج عنه تحول أكثرية أراضي الجزائريين إلى غابات بعدما كانت أراضي زراعية (في العهد الروماني). وبالتالي فإنَّ الجزائريين –حسب رأي الباحث– أقرب إلى الوحشية منهم إلى الحضارة المدنية. (Gautier, Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, p. 262).

ومن السمات الخطيرة التي وصل إليها «غوتييه» أيضاً عن المجتمع الجزائري، أنَّ سيادة النظام القبلي كانت على حساب الشعور بالانتماء للوطن، فالفرد في أي منطقة من مناطق الجزائر يشعر بانتمائه إلى جماعته الصغيرة المحصورة في منطقة معيشته، بدل شعوره بانتمائه إلى وطنٍ وأُمَّة، حيث يقول عن شعب الجزائر: «**لم ينظموا الدولة عسكرياً، بل اعتمدوا على القبيلة الكبيرة في تسيير شؤونهم، وهذه القبيلة تكون في يد أمير، وهو ما ينطبق على ماسينيسا بقدر ما ينطبق على عبد القادر**».

(Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 22). ثم يفسّر تخلف أساليب الزراعة وتربية المواشي بأنَّه السبب في استمرار الاعتماد على القبيلة فقط دون تطوير هذا الأسلوب، وجلُّ ما وصلوا إليه هو اختيار أمراء لتسيير شؤونهم.

ويؤكد «إميل فليكس غوتييه» أنَّ المجتمع الجزائري والمغاربي بصفة عامة، بفعل سيطرة البداوة والقبلية عليه، لم يعرف أي تطور في حياته اليومية، حتى يصل إلى تشكيل أمَّة أو شعور مشترك بين أفراده، حيث قال: «**لم يحدث تطور بين البربر، فقد ظلوا على الجماعة الأصلية؛ العائلة أو العشيرة، هذه الجماعة الصغيرة هي الوحيدة التي يعرفونها... هنا ندرك السمة الأساسية للتاريخ الأمازيغي، وهي الغياب التام للتطور والركود القائم، لو أردنا كتابة تاريخ المغرب، وهو ما لم يُكتب قط، لكان الاهتمام منصباً بالضرورة على تحليل، وإن أمكن شرح، أحداث كبرى منفصلة عن بعضها البعض، وكل منها يمثل إجهاضاً للفكرة الوطنية، إنَّه مجتمع لم يتغير إطاره السياسي منذ آلاف السنين**». (Gautier, Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, p. 311).

ومشكلة البداوة أنَّها ملازمة لحياة سكَّان الجزائر، ولم تفارقهم عبر التاريخ، ولا تزال مستمرة فيهم، وهي مظهر للتخلف والحياة البدائية؛ فأغلب السكَّان في الجزائر لا يزالون يعيشون في الكهوف والجبال الشديدة الانحدار التي يشكل الوصول إليها مشقة كبيرة، حيث أشار نموذج بحثنا إلى أنَّ السكَّان يلجؤون إلى الاستعانة بالأوتاد الخشبية للوصول إلى مساكنهم، وبالتالي فإنَّ هذا البناء حسبه خاص بالقرود. (Gautier, Les Cavernes du Dir, 1925, pp. 395-396).

ومن المناطق المعروفة بهذا النمط الطبيعي والبدائي للمساكن منطقة جبال الأوراس، حيث بيّن «غوتييه» أنَّهم يعمدون إلى تعليق منازلهم وقطع طريق الوصول إليها، والذي يكون بالتشبث بأوتاد مغروسة في الجدران الخارجية للقلاع. (Gautier, Le Moyen- Atlas, 1926, p. 40).

ونلاحظ من خلال هذا المثال، وفي مختلف دراسات «غوتييه»، كيف أنه دائماً ما يفسر مختلف ملاحظاته بشكل سلبي، بحيث كما يقال: لا يرى سوى النصف الفارغ من الكأس. وهذا لأن ذهنه مشوه بالأفكار المسبقة السلبية، وخلفياته التاريخية مثقلة بالأيديولوجيا الاستعمارية؛ إذ بدلاً من أن يفسر

أساليب البناء الصعبة في جبال الأوراس ووديانه بطريقة علمية، يعتبرها مظهراً للتخلف، بحيث إن تلك البنايات إنما شيدت بتلك الطرق الهندسية –بعضها نجده داخل الجبال– مما يجعلها تستفيد من الحصانة الطبيعية من خلال الحماية من الأخطار الطبيعية للسيول مثلاً، فضلاً عن حصانتها ضد التهديدات والمخاطر البشرية، إلى جانب استفادتها من إضاءة الشمس وشعاعها.

كما نؤكد أنَّ لجوء السكان إلى هذه المناطق الصعبة، كما يقول «غوتييه»، ليس مرده العامل الطبيعي كما يدعي، بل سببه الأساس ما قام به المحتل الأجنبي من سياسات عنصرية ضد المجتمع الجزائري، خاصة الاحتلال الروماني والاحتلال الفرنسي اللذين عمدا إلى انتزاع الأراضي الصالحة من السكان وطردهم إلى الجبال والمناطق النائية، لكن نموذج بحثنا يفسر العواقب الخطيرة لنمط الحياة البدائي والبدوي بأنَّه هو ما جعل السُّكَّان في صراع دائم بينهم، وذلك بسبب عجزهم المطلق عن تنظيم أنفسهم وتطويرها لتحقيق التحضر والتمدن الذي لا يتحقق إلاَّ بوجود قوة أجنبية تشرف عليهم. (Gautier, Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie, 1931, p. 31).

ولذلك فإنَّ الجزائريين بصفةٍ خاصةٍ والمغاربة بصفةٍ عامةٍ لم يعرفوا تطوراً في حياتهم اليومية؛ لأنَّهم استمروا في مستوى الحياة البدائية التي تقوم على العشيرة، عكس الحضارة الغربية التي تعود جذورها إلى أكثر من 3000 سنة من نشأة الحضارة الرومانية، وبالتالي ففكرة الوطن والدولة برزت أكثر لدى الغربيين، عكس العرب والبربر الذين بقوا في نمط حياة ما قبل التاريخ. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 279). وبهذه الطريقة وصل «غوتييه» إلى خلاصة مفادها أنَّ شعب الجزائر خاصةً بصفة عامة، محكوم عليه بالبقاء متخلفاً عن الركب بشكل كبير عما تعرفه قارة أوروبا. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 50)

فالمجتمع الجزائري إذاً لم يساهم في الإنجازات الحضارية بأي شكل من الأشكال، بل اكتفى باستيراد أفكار غيره، وهو ما يعبّر عن مجموعة «**من الإخفاقات التي تتجلّى أمام أعيننا، لقد اضطرت هذه البلاد على مر تاريخها إلى استيراد حتى أسماء أحزابها السياسية من عواصمها الأجنبية المتعاقبة، إنَّها دولة متحمّسة وعنيفة، وحتى في حروبها الأهلية التي هي على أهبة الاستعداد لها، دائماً ما كانت**

تتطلّع إلى الأجانب للحصول على برامجهم وأعلامهم، بالنسبة لهذا الجنس الحيوي والمحارب، يبدو الأمر كما لو كان هناك عنصر نفسي مفقود لتأكيد نفسه سياسياً».

إذاً من خلال ما سبق طرحه، نقول إنَّ الباحث لم يكتفِ بإثبات تخلف المجتمع الجزائري فحسب، بل تمادى في إصدار أحكامه على هذا الشعب، بأنَّه يمثل أقصى درجات الانحطاط، إذا ما تمت مقارنته بالشعبين التونسي والمغربي، وهذا التخلف كما بيَّنا سابقاً فسره الباحث بتدني مستوى حضارة الجزائريين، وبقائهم على النسق نفسه في حياتهم اليومية منذ فترة ما قبل التاريخ، لأن هذا الشعب له ارتباط وثيق بالأرض التي يعيش منها، والتي شكلت فيما بعد سجناً له، نظراً للتطورات المناخية التي مرَّ عليها السُّكَّان المتجذرون في أرضهم، خاصَّة في المناطق النائية التي تجاوز سكانها حدود الفقر المدقع، لأنَّهم تعودوا على العيش وفق هذا النمط. (Gautier, La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique, 1935, p. 175).

ولأن سكان بلاد المغرب والجزائر ألفوا حياة البداوة والترحال أكثر من اعتيادهم على حياة الاستقرار، فجل المساكن التي يقطنها الجزائريون عبارة عن قرى مؤقتة فقط، تبقى فارغة عدة أشهر، فسرعان ما يتركها سكانها ليتبعوا حياة الترحال التي تتوافق مع نمط اتباع قطعان الماشية في مختلف المناطق، وهو ما يحتم عليهم ترك أغلب الأمتعة في مخازن حتى عودتهم لهذه القرى. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 262).

فالجزائريون حسبه يعيشون في أكواخٍ خانقةٍ، ينامون فيها على الأرض أو الصوف، كما أنَّ ملابسهم عبارة عن سترةٍ خشنةٍ وعباءةٍ قديمةٍ؛ فلا «**خبز لديهم ولا نبيذ ولا أي شيء صالحٌ تماماً حتى يومنا هذا، وهم يحملون معهم حفناتٍ قليلةً من الحبوب الخام في أغطية رؤوسهم كمؤونةٍ وحيدةٍ لرحلاتهم، وسوف يتناولونها واحدةً تلو الأخرى طوال اليوم تحت حجر الطحن الخاص بأضراسهم القوية، ولن يأكلوا أي شيء آخر**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 341-342).

إذًا، فالمجتمع الجزائري الذي يعيش حياة الإنسان البدائي، ولم يستطع تحقيق التقدم الحضاري نظرًا لعجزه الكبير عن الإنتاج واستغلال ثروات البلاد وفق ما يحقق التقدم- جعل سكان الجزائر وبلاد المغرب يخضعون بالضرورة إلى سيطرة الأجانب؛ لأن طابع التخلف متجذر في عقولهم وحياتهم اليومية، وفرنسا باعتبارها بلد الحضارة والتقدم وجب عليها إخراج سكان المنطقة من هذا المشكل والعمل على رقيهم حضاريًا.

لكن هذا الطرح الذي جاء به نموذج دراستنا يبتعد كل البعد عن الواقع الذي كان يعيشه الجزائريون وسكان بلاد المغرب في فترة التاريخ الوسيط وفترة الحكم العثماني، لذا وجب علينا دحض هذه الأطروحات التي جاء بها «غوتييه»، وتبيان أسباب تبنيه لهذا التوجه الفكري المبني على التشاؤم من سكان الجزائر، وهو ما سنعالجه في المحور الموالي.

4 – دَحْضُ ادعاءات غوتييه في مسألة العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الانتاج الحضاري

لاحظنا فيما سبق التوجهات التي أوردها نموذج دراستنا في مسألة العجز الحضاري للمجتمع الجزائري، والتي رأى بأنها تمنعه من تحقيق تقدم فعلي في مختلف نواحي حياته، خاصةً السياسية منها، وبيّنا كذلك كيف حرص على الربط في مختلف دراساته بين مختلف فترات التاريخ لإثبات فكرة بقاء المجتمع الجزائري في نمط الحياة الذي كان سائدًا في شمال إفريقيا منذ فترة ما قبل التاريخ.

غير أنَّ التوجهات التي جاء بها نموذج دراستنا تعتمد بدرجة أساسية على نظرة استعلائية فوقية، حيث إنَّه يعتمد على تعميم النتائج على مجتمع الدراسة؛ فهو يدرس نماذج مختارة بعناية من المجتمع الجزائري، حسب أهوائه، من أجل تعميم أسلوب حياتها على باقي المجتمعات؛ لذلك وجب علينا التطرق بالنقد لما أورده في مسألة العجز الحضاري للمجتمع الجزائري.

حيث عمد «إميل غوتييه» إلى الربط المباشر بين الوسط الطبيعي والوسط البشري، وذلك من منطلق تخصصه المباشر في مجال الجغرافيا، وقد بينا في الفصل الثالث أن هذا الباحث يتميز بجمعه بين الجغرافيا والتاريخ في دراساته، أو ما يسمى بالجغرافيا التاريخية والجغرافيا البشرية، غير أن التوجهات التي جاء بها نموذج دراستنا تحمل مغالطات كثيرة، خاصة في تفسير دور الوسط الطبيعي في حياة السكان،

وأثره المباشر على نمط حياتهم، وهذا التوجه مهما كان من الناحية المنطقية صحيحاً، لأن الإنسان مهما كان سيتأثر بمناخ المنطقة التي يعيش فيها، والذي يتحتم عليه أسلوب حياة معين من أجل التأقلم مع هذه الظروف.

لكن «إميل فليكس غوتييه»، من منطلق أنه ينتمي للدولة الفرنسية التي تمثل الحضارة الأوروبية المتفوقة صناعياً وتجارياً وعسكرياً، يقارن ما وصلت إليه هذه الحضارة من صناعات واستغلال للموارد الطبيعية مع ما كان يحتاجه الإنسان في فترة الحكم التركي وفترة التاريخ الوسيط؛ فما كان يستغله الناس في هذه الفترة كان مقتصراً على ما يحتاجونه من موارد فقط، حيث يتم استخراج الحديد لصناعة الأسلحة أو العربات، كما يتم استخراج البارود لصناعة قذائف المدافع أو مختلف الأسلحة.

فالصناعة التي يتحدث عنها نموذج دراستنا، والتي تقوم على استخراج موارد الأرض من حديد أو فوسفات أو نحاس أو غيرها من الموارد، لم تكن ذات انتشار واسع حتى في قارة أوروبا إلا بعد ظهور الثورة الصناعية في بريطانيا ثم انتشارها إلى باقي قارة أوروبا، وهذه النهضة الصناعية –كما تشير أغلب المراجع الحديثة– لم تأتِ هكذا من فراغ، بل جاءت بفضل تأثر الأوروبيين بالحضارة الإسلامية في الأندلس؛ حيث تمت ترجمة مختلف العلوم التي نبغ فيها المسلمون إلى اللغات القومية الأوروبية، ومن بينها نذكر كتاب الطب «لابن سينا».

كما نؤكد أيضاً أنَّ «غوتييه» من خلال إثباته لفكرة التخلف الحضاري لدى الجزائريين وعجزهم المطلق عن الإبداع والابتكار، وعدم قدرتهم على استغلال مواردهم الطبيعية، ما هو إلا تبرير لما تقوم به الإدارة الفرنسية من استخراج للموارد الطبيعية، واستغلال لثروات الجزائر وفق ما يخدم الاقتصاد الفرنسي، وقد أشرنا فيما سبق إلى كيف قامت سلطات الاحتلال الفرنسي سنة 1920 ببيع كميات كبيرة من القمح المنتج في الجزائر في الأسواق العالمية نتيجة ارتفاع أسعاره، وشرحنا الأثر الذي نتج عن هذا الاستغلال في انتشار المجاعة في الجزائر وتعرض الجزائريين لوباء التيفوس.

بالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ ما قدَّمه لنا نموذج دراستنا من آراء وتوجهات حول الاستغلال الفرنسي للموارد الطبيعية الصناعية والفلاحية، والتجارب التي قام بها الفرنسيون في هذا المجال، خاصة في كتابه «تطور الجزائر L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930» وكتاب «قرن من

الاحتلال: دراسات مكروسكوبية Un siècle de colonisation, études au microscope»؛ حيث لاحظنا أنَّ «غوتييه» يتباهى بحجم الإنجازات التي قامت بها فرنسا في الجزائر، خاصة في مجال تطوير الزراعة التجارية مثل زراعة القطن وزراعة الكروم المخصصة لإنتاج الخمر، كما أوضح لنا بأن هذه الإنجازات هدفها الأساس إخراج الجزائر والجزائريين من دائرة التخلف إلى دائرة التقدم.

غير أن المتمعن في الوضع الاقتصادي الذي عرفه المجتمع الجزائري منذ بداية الاحتلال الفرنسي، وما قام به الفرنسيون من إجراءات في هذا المجال، لم ينعكس بالإيجاب على حياة الجزائريين، بقدر ما ساهم في نماء الاقتصاد الفرنسي، فالمسيطر على الصناعة في الجزائر هم المستوطنون الأوروبيون، حيث استولوا على 90% من الصناعة في الجزائر، بينما بقيت الصناعة الخاصة بالجزائريين على ما كانت عليه إبان الحكم العثماني، إذ بقيت الصناعة اليدوية منتشرة في بعض المدن واندثرت في أخرى بسبب محاربة الإدارة الفرنسية لهذا النوع من النشاط الاقتصادي. (المدني، كتاب الجزائر، 1962، صفحة 364)

كما نقول إنَّ التخلف الاقتصادي الذي حاول «غوتييه» إثباته على المجتمع الجزائري لم يكن مقتصراً على الجزائر فقط، بل كان عاماً في الدول العربية والإسلامية مقارنة بالدول الأوروبية، ويتبين لنا أيضاً أنَّ وضع الجزائر الاقتصادي لم يتحسن بتاتاً بعد مجيء الفرنسيين، بل زاد بؤس الجزائريين أكثر، وارتفعت نسبة الوفيات في المجتمع الجزائري أكثر بسبب كثرة المجاعات والأوبئة التي ألمت بالجزائريين في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي، منها مجاعة 1868 ومجاعة 1921 ومجاعة 1945.

لذا يتضح لنا جلياً أن الادعاءات التي أوردها «غوتييه»، والربط الذي لجأ إليه لإثبات تخلف الجزائريين وعجزهم الحضاري بارتباطه الوثيق بالجانب الطبيعي والجانب الفكري للإنسان الجزائري، هو طرح بعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية؛ إذ إنَّ الجزائريين في العهد العثماني ومرحلة التاريخ البسيط، ورغم بساطة الإمكانيات المتوفرة لديهم، ورغم أن الاستغلال الاقتصادي للموارد الطبيعية كان ضعيفاً كما ذكر نموذج دراستنا، إلا أنَّ جُلَّ الأبحاث والدراسات تثبت أن هذا الإنتاج الفلاحي والصناعي كان يكفي حاجات الجزائريين اليومية، كما أثبتت الدراسات أيضاً أنَّ إدخال الفرنسيين لوسائل الإنتاج الحديثة وتوسيعهم لقدرات استخراج الموارد الطبيعية وزراعتهم لأنواع جديدة من المنتجات، لم يساهم البتة في تقدم الجزائريين وتحسن مستواهم المعيشي كما إدعى «غوتييه».

علاوة على ذلك، نشير إلى نقطة أساسية في الطرح الذي تبناه نموذج بحثنا حول السبب الرئيس لتخلف الجزائريين الحضاري، وهو الطرح الذي يقوم على الربط بين التاريخ الماضي والحالة الراهنة؛ حيث إنه حرص على استخدام كلمة «البربر» التي تدل على الهمجية والتخلف للتأكيد على مدى تخلف الجزائري عن الركب الحضاري، وهذا الوصف يعتبر –حسب وجهة نظرنا– عنصريًّا لأقصى حد؛ لأن كلمة «البربر»، كما تشير أغلب الدراسات، جاءت من الوصف الروماني لشعوب بلاد المغرب الذين رفضوا الخضوع لهم، وقاموا بالثورة على هذا الاحتلال، واستعانة «غوتييه» بمصطلح تاريخي قديم يدل على مدى استصغاره لمكانة الجزائريين الاجتماعية والسياسية.

علاوة على ذلك، نؤكد على مدى احتقار «غوتييه» للجزائريين في حديثه عن سمات الجزائريين وأسلوب عيشهم، حيث لاحظنا كثرة استعماله لعبارات نابية مهينة تحتقر الجزائريين، تكاد تكون عبارة «البربر» إلى جانبها عدماً، حيث نجده يستعمل عبارات: «أشباه المتوحشين»، «أشباه القردة»، «أشباه العراة»، «أشباه ابن آوى»، وغيرها من العبارات التي تحمل في دلالاتها افتخار نموذج دراستنا بانتمائه للجنس الأبيض المتحضر، وتُعطي لنا صورة واضحة عن نظرة الفرنسيين والإدارة الفرنسية للجزائريين؛ حيث كانت تعتبرهم مجرد يد عاملة لا ترقى لمستوى البشر، وجب عليهم خدمة سيدهم الجديد الفرنسي كما خدموا أسيادهم من قبل؛ الأتراك والعرب وغيرهم من الأمم التي احتلت المنطقة منذ القدم.

كما أنَّ تكراره لمصطلح «البربر» جاء في سياق إثبات تخلف الجزائر عن الركب الحضاري، والعمل على إثبات تقليدها لمنجزات الحضارات الأخرى، وهو طرح غير منطقي، فالتأثير والتأثر بين الحضارات أمر طبيعي لا يستطيع أي مفكر عاقل إنكاره، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الادعاء بأن حضارة محددة لم تتأثر بغيرها من الحضارات المجاورة، فالدولة الفرنسية من حيث أصول لغتها تأثرت باللغة اللاتينية التي أخذها الرومان عن الإغريق وفرضوها على كامل قارة أوروبا، والحضارة الإغريقية تأثرت هي الأخرى بحضارة الشرق الأوسط خاصة الحضارة المصرية وحضارة بلاد الرافدين والحضارة الفينيقية.

فمجال التأثر الحضاري والتبادل بين الشعوب في الثقافات لم يقتصر على تأثر شعوب بلاد المغرب بغيرهم من الحضارات، كما نؤكد أيضاً أن الطرح الذي أورده «غوتييه» حول تأثر الجزائريين بالكتابة والعمارة الفرعونية لم يأت وفق دراسات علمية أثرية دقيقة، بل جاءت استنتاجاته انطلاقاً من آراء وأفكار

الكاتب بالاستناد إلى ما يراه بالعين المجردة؛ فضريح «امدغاسن» حسبه متأثر بالأهرامات نتيجة تشابه شكله بأهرامات مصر، لكن الدراسات والأبحاث الأثرية التي أنجزها الفرنسيون، خاصة التي أنجزها «غابريال كامبس Gabriel Camps» حول هذا الضريح، أثبتت أن طريقة بنائه مستمدة من «**البازينا ذات القاعة الأسطوانية**»، وهي عبارة عن قبور يعلوها هرم مربع القاعدة أو مخروطي أو أسطواني، وأن هذه الطريقة الخاصة في بناء القبور مرتبطة بعادات وطقوس دفن مارسها سكان الجزائر وشمال أفريقيا طيلة فجر التاريخ وفي عهد الممالك النوميدية. (عقون، العمارة الجنائزية النوميدية، ضريح إمدغاسن نموذج معماري نوميدي أصيل، 2011)

ونشير أيضاً في إطار حديثنا عن القبور الملكية النوميدية التي تنتشر في بلاد المغرب إلى الدراسة التي أجراها الباحث الفرنسي «**ماكسيميليان فوي Maximilien Foy**» بعنوان: «**ملاحظات أثرية حول إمدغاسن**»، والتي أشار فيها إلى أن هذا القبر له سمة خاصة من حيث هندسة البناء والرسومات التي يتضمنها، وذكر بأنه عبارة عن قبر لشخصية بارزة من ملوك البربر، وقد يتضمن هذا القبر مجموعة كبيرة من القبور لعائلة واحدة، وأشار أيضاً إلى أن الحفريات الأثرية الفرنسية بينت أنه عبارة عن «**أسطوانة قصيرة وكبيرة تشكل قاعدة لمخروط منفرج الزاوية ومقطوع، أو بالأحرى هو سلسلة من 24 أسطوانة تتناقص أحجامها تدريجياً، لتشكل على الأسطوانة الرئيسية سلسلة من 24 طبقة دائرية، يبلغ ارتفاع كل منها حوالي 0,58 متر وعرضها 0,97 متر**». (Foy, 1856- 1857, pp. 58-69)

أما بالنسبة للغة والادعاء بأنها ذات أصول حامية محضة بسبب تأثر لغة البربر بلغة المصريين، فنقول إن ما ذكره «غوتييه» حول اللغة المصرية بأنها ظهرت في فترة قديمة بالمقارنة مع اللغة النوميدية، وأن أغلب الدراسات تشير إلى تأثر هذه الأخيرة بلغة المصريين القدماء، لكن المتمعن في طبيعة الكتابة المصرية والكتابة الليبية النوميدية القديمة سيجد اختلافات واضحة بينهما؛ فاللغة المصرية القديمة في طريقة كتابتها تصويرية محضة، أما الكتابة الليبية القديمة فتعتمد بالدرجة الأولى على الحروف في تدوينها، حيث تشير الدراسات إلى انقسام هذه الكتابة الليبية إلى ثلاثة أنواع من الأبجدية: أول نوع منها أبجدية شرقية تنتشر في طرابلس وتونس وشرق الجزائر وتتكون من 24 حرفاً، أما النوع الثاني منها فأبجدية غربية وتنتشر من شرق الجزائر – منطقة قالمة حالياً – إلى المحيط الأطلسي، كما انتشرت في بلاد المغرب أبجدية

«التيفيناغ» التي تنتشر في مناطق الصحراء وتتضمن 40 حرفاً. (بوجمعة، 2024، الصفحات 73-74)

إذاً، ومن خلال ما سبق نقول إن "غوتييه" عمد إلى نفي أي صلة حضارية لبلاد المغرب، معتبراً إياها مجردة من التاريخ ولم تساهم بأي شكل من الأشكال في رقي الحضارة الإنسانية، بل يؤكد على أن المنطقة كانت مجرد رقعة جغرافية تستقبل ما تنتجه الحضارات الأخرى. لكن هذا الطرح، وكما بينا سابقاً، ليس له ما يثبته تاريخياً؛ فالتأكيد على الأصول الفرعونية للغة والنمط العمراني مجرد كلام فارغ، جاء به نموذج دراستنا من أجل إثبات حتمية تخلف سكان المنطقة وضرورة خضوعهم المستمر لقوة أجنبية تشرف عليهم.

وهذا لأنه يرى بأنَّ الشعب الذي لا يملك تاريخاً لا يحق له أن يقوم بأي دور حضاري، بل يجب عليه أن يبقى في مؤخرة الركب وينتظر ما تجود به الحضارات الأخرى عليه من إنجازات حضارية، كما أن الآراء التي جاء بها هذا الباحث متطرفة للغاية، فنفي التطور الحضاري وإثبات تخلف حياة السكان وبقائها على نمط حياة العصور الحجرية ليس مجرد كلام فارغ ذكره نموذج دراستنا، بل يحمل في جعبته مجموعة من الأفكار الهدامة التي عمل الاحتلال الفرنسي على ترسيخها في ذهنية الجزائريين، خاصة عقيدة حب الكسل والاتكال على الغير لإنجاز ما يحتاجه السكان في حياتهم اليومية.

فمن خلال دراستنا لأسلوب «غوتييه» في طرح أفكاره ومعالجة الإشكالات المتعلقة بالجزائريين حسبه، نرى بأنَّه في مجمل هذه الأفكار يسعى دوماً إلى إثبات حق الفرنسيين في احتلال الجزائر واستغلال مواردها الطبيعية، باعتبار أن سكانها عاجزون حضارياً عن تسيير أنفسهم وابتكار الوسائل الملائمة لاستغلال مواردهم الطبيعية والفلاحية، كما أنَّ هذا المؤرخ من خلال إثبات العجز الحضاري كما يدعي، يريد التأكيد على حجم التخلف العقلي للجزائريين، وأنهم سيبقون في هذه الحالة دوماً ولا يمكنهم تحقيق النهوض الفكري إلا بإشراف فرنسي مباشر.

لكن المتمعن في مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها الجزائر والمجتمع الجزائري سيجد أن التباين الكبير في نمط الحياة بين البداوة والتحضر، وبين العيش في منازل مستقرة أو خيام متنقلة، لا يعني أن سكان تلك المناطق متخلفون حضارياً؛ فالإنسان يبني نمط حياته، كما يقول نموذج دراستنا، وفق البيئة

الجغرافية التي يعيش فيها، فالذي يعيش في الصحراء نجده يتنقل من منطقة إلى أخرى بحثاً عن المياه وعن مناطق الكلأ لمواشيه، أما من يسكن المناطق التلية فيستقر في أماكن محددة نظراً لتوفر الظروف المناسبة لذلك.

لكن نموذج دراستنا يحاول أن يطبق مفاهيم تنطبق على قارة أوروبا في العصر الحديث والمعاصر على شعوب بلاد المغرب التي كانت تعيش في القرون الوسطى الإسلامية وفترة التاريخ العثماني، وذلك من أجل التأكيد على التخلف الفكري للعالم الإسلامي، وأن الإسلام معناه التخلف والاعتماد الكلي على فكرة القدر لتحسين وضع السكان، أما الحضارة الأوروبية فهي رمز للتقدم الحضاري بسبب اعتناقها للمسيحية التي تدعو –بحسبه– إلى التفكير والتأمل والحرية.

غير أنَّ المتفحص لهذا الطرح سيجده لا ينطبق على قارة أوروبا حتى في تاريخها الحديث والمعاصر، فأي فكر يتحدث عنه «غوتييه»؟ هل الفكر الذي يقوم على الصراع الداخلي الأوروبي الذي ميز القارة منذ القرن السادس عشر ميلادي إلى النصف الأول من القرن العشرين؟ حيث أنَّ الدارس لتاريخ هذه المرحلة سيجدها مليئة بالنزاعات الداخلية، ولعل ما يثبت صحة ما ذهبنا إليه ما عرفته فرنسا في حد ذاتها من حروب داخلية وحروب مع قارة أوروبا بعد نجاح الثورة الفرنسية سنة 1789م، كما عرف التاريخ الفرنسي حتى بعد احتلال الجزائر العديد من التوترات السياسية الداخلية التي كانت العامل الأساس في تباين نظام حكمها بين الحكم الملكي والحكم الجمهوري.

فهل تناسى نموذج دراستنا هذه الصراعات الداخلية التي عرفتها أوروبا، وفرنسا كانت أشدَّ هذه الدول من حيث عدد النزاعات الداخلية التي عرفتها في التاريخ الحديث والمعاصر؟ أم أنَّ القوانين التي جاء بها «غوتييه»، والتي تثبت التخلف الحضاري من منطلق الصراع بين أبناء الوطن الواحد، لا تنطبق على فرنسا وتنطبق فقط على الجزائريين؟ وهل يمكن القول بأنَّ الفرنسيين ساهموا بالفعل في رقي الحضارة الإنسانية بصفة عامة، والحضارة الأوروبية بصفة خاصة؟

من خلال ما سبق، نقول إنَّ الأفكار والتحاليل التي أوردها «إميل غوتييه» عن تخلف الجزائريين الحضاري ليست نابعة عن تحليل منطقي للأحداث التاريخية، بل هي استنتاجات خيالية من صنع نموذج دراستنا، أراد بها التأكيد على تفوق العنصر الأوروبي الأبيض وأحقيته في استعمار واستعباد شعوب القارة

الأفريقية بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة؛ لأن السيطرة على الجزائر –ومن خلال تحليلنا الشخصي– تعتبر في رأي «غوتييه» الباب الذي يمكن فرنسا من صنع إمبراطورية استعمارية تنافس بها عدوها اللدود، الإمبراطورية الإنجليزية.

ومن هذا المنطلق نجد نموذج دراستنا يواصل إثباته لمسألة التخلف الحضاري للجزائريين أمام وفرة المواد الطبيعية والفلاحية في الجزائر، لكن هذا في حد ذاته كشف للأطماع الفرنسية في الجزائر، وأنَّ الغاية من استمرار الهيمنة الفرنسية هي استغلال هذه الثروات من منطلق العجز الذي أصاب السكان فتركوا هذه الثروات كما هي في الطبيعة، ولم يقوموا باستغلالها إلا وفق ما يحتاجونه في حياتهم اليومية، أما فرنسا وسياستها الاستغلالية الاستيطانية فنجدها قامت على نهب هذه الثروات ونقلها من الجزائر إلى فرنسا أو الأسواق الخارجية لخدمة الاقتصاد الفرنسي.

كما نشير في هذا الصدد إلى أن الادعاءات التي حاول «غوتييه» الدفاع عنها من خلال إثبات تخلف الجزائريين الحضاري والصناعي، والتأكيد على تقدم الفرنسيين وضخامة إنجازاتهم الاقتصادية في الجزائر، ما هي إلا ذر للرماد في العيون كما يقول المثل، فالإنجازات الصناعية الفرنسية في الجزائر كانت تقوم بالدرجة الأولى على استخراج الثروات الطبيعية في شكلها الخام وبيعها في الأسواق العالمية، أو تصديرها إلى المصانع الفرنسية من أجل إعادة تصنيعها وبيعها كمنتجات مصنعة.

فالمستفيد الأكبر من الإمكانات الاقتصادية الجزائرية هي الدولة الفرنسية بالدرجة الأولى، والمستوطنون الفرنسيون المستقرون في الجزائر بالدرجة الثانية، وهو ما جعل نموذج دراستنا يدافع وبقوة عن استمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر، من خلال إنجازه دراساتٍ تحت إشراف جامعة الجزائر ومعاهدها الجامعية، تُمجّد الإنجازات الفرنسية في الجزائر، وتُضخّم من حجم التقدم الذي حققه الفرنسيون اقتصادياً على المجتمع الجزائري منذ بداية الاحتلال، وتعمل في المقابل على التقليل من شأن الجزائريين ومستوى تفكيرهم، وإثبات عجزهم الحضاري وحتمية خضوعهم للاستعمار الأجنبي.

كما أنَّ «غوتييه»، ومن خلال إثباته لمسألة التخلف الحضاري، أراد إثبات إشكالية أخرى لها ارتباط وثيق بالتخلف الحضاري، ألا وهي إشكالية غياب الشعور الوطني لدى المجتمع الجزائري واستحالة

تحقيقه للوحدة السياسية، وهي الإشكالية التي خصص لها كذلك جانباً كبيراً في دراساته ومؤلفاته، والتي سنتطرق لها في المحور الموالي.

ثانياً:

غياب الشعور الوطني واستحالة تحقيق الوحدة السياسية حسب غوتييه

فضلاً عن إبراز المجموعة البشرية الساكنة في الجزائر بشكل سلبي من قبل «غوتييه»، سواء من خلال تشتتها وتناحرها، واختلاف مكوناتها وتناقضها، وتعدد لهجاتها مما يحول دون تمكنها من التواصل الإيجابي، وهو ما يجعل الفرد يشعر بانتمائه الضيق لإقليمه الجغرافي بدل شعوره بالانتماء للوطن الجزائري الذي لا وجود له بالنسبة لـ«غوتييه»؛ الأمر الذي لا يسمح بتحقيق الوحدة السياسية والشعور الوطني الموحد بين أفراد المجتمع الجزائري.

1 – غياب الشعور بالذات

يورد «غوتييه» مجموعة من العوامل التي حالت دون تحقيق الوحدة السياسية، وتشكل دولة وطنية في بلاد المغرب، منها عدم شعور الجزائري بنفسه وذاته، وتفكك المجتمع قبلياً، ووجود تناقضات بين العرب والبربر، وبين السُّكَّان المستقرين والبدو الرحل.

فحسب رأيه، لا يمكن أن تكون هذه البلاد قد أدركت ذاتها في مرحلة من التاريخ، ولا يمكن أن تكون قد شكّلت أُمّة واعية بذاتها وتاريخها؛ بل هو تاريخ فُرِضت فيه الهيمنة الأجنبية على المنطقة، وهو ما يشهد على صعوبة إثبات وجود للشعب المغاربي على مرّ التاريخ، حيث يقول: «**لم يكن الموريون (les maures)** (نعت وُصِف به سُكّان شمال إفريقيا ومسلمو الأندلس ككتلة مجتمعة، قبل أن يُعمَّم مصطلح العرب والبربر الذي سيظهر بعد الهجمة الاستعمارية، ويُمنح لهما بُعدٌ عرقي وعنصري) **أُمّة واعية ولا حتى إمبراطورية مستقلة، هذا العدم الأبدي للمجتمع شكّل عائقاً أمام التنمية الداخلية للبلاد... هذا البلد بتقسيمه إلى جبال شاهقة ومناخ جاف وامتداده في خطوط العرض، وانعزاله، غير قادر**

على توفير قاعدة اقتصادية أساسية لهيئة سياسية على الأقل». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 174)

لكن هذا الطرح الذي ذكره نموذج دراستنا، وكما بيّنا سابقاً، بعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية؛ لأن المنطقة عرفت بروز عدة حضارات ودول منذ فترة ما قبل التاريخ، لكن الأطماع الأجنبية كانت أقوى من إرادة السكان، فتأسيس الممالك النوميدية (الشرقية والغربية)، ثم ظهور نوميديا الموحدة جعل شمال إفريقيا تعرف ازدهاراً حضارياً وعلمياً كبيراً، إذ ظهرت في المنطقة أقدم الجامعات في العالم؛ وهي جامعة «مادورا» في منطقة مداوروش بولاية سوق أهراس حالياً.

لكن الأطماع الرومانية في خيرات بلاد المغرب جعلتهم يقررون توجيه حملة عسكرية ضد سكان بلاد المغرب واحتلال المنطقة لعدة قرون، ولذلك نقول إنَّ ما ذهب إليه «غوتييه» في التأكيد على عظم الإنجازات الحضارية والسياسية في شمال أفريقيا ليست إنجازاً حضارياً غربياً، بل هو إنجاز حضاري شيده السكان بأيديهم، ولم يساهم الغزو الأوروبي الأجنبي إلا في دمار المنطقة واستغلال ثرواتها الاقتصادية وفق ما يخدم مصالحه فقط.

غير أنَّ «غوتييه» يستعين بالتاريخ لأجل تبرير أطروحاته حول غياب الروح المحرِّكة لسُكَّان شمال إفريقيا، ويحكم على «عرق» شمال إفريقيا، رغم طبيعته المحبة للحرب والحيوية، بأنَّه «عرق» يفتقر إلى عنصر نفسي لتأكيد ذاته سياسيًّا: «**من خلال غياب وجود مجموعة من الأفكار والمشاعر الخاصة به وروح خاصَّة به، وبرنامج ورغبة يجمع نفسه حولها ويقاتل من أجلها، هذه هي المشكلة التي تهيمن على كل هذا التاريخ المُبهم... فالمغرب له فكرة محورية تقوم على سلسلة من الإخفاقات المحدَّدة تؤكِّد فشله التام**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 27)

إلى جانب التاريخ، يستعين «غوتييه» أيضاً بمعارفه الجغرافية لأجل تبرير طروحاته العنصرية؛ إذ يذكر أنَّ عجز سكان بلاد المغرب عن تكوين أمَّة سببه الأساسي افتقارهم إلى قاعدة إقليمية واحدة، فهم

مشتتون في أماكن مختلفة إلى مجموعات صغيرة تفتقر إلى التماسك الوطني بسبب هذا التشرذم. (Gautier, L'islam tel que nous le Voyons, 1931, p. 825)

فشمال إفريقيا، كما يقول، تتميز بتنوع جغرافي كبير، وهذا التنوع الجغرافي صعب من مهمة تحقيق الوحدة السياسية منذ القدم: «**ففي البداية كانت تابعة لقرطاج، ثم لروما، ثم للوندال، ثم للبيزنطيين، ثم للعرب، ثم للأتراك، ثم للفرنسيين، كانت بلاداً مكرسة للغزو الأجنبي المتواصل، ولم ينجح السُّكَّان الأهالي قط في تأسيس دولة خاصَّة بهم، بل لم ينجحوا ولو لمرة في التخلص من أي نوع من الهيمنة الأجنبية بقواتهم الخاصة، حيث لم يُطرد أي غازٍ أجنبي في شمال إفريقيا إلا على يد غازٍ أجنبي آخر هو خليفة له**». (Gautier, Genséric, roi des Vandales, 1932, pp. 136-137)

وهذا الوضع الذي لا يُحتمل حسب رأي «غوتييه» تميزت به الجزائر عن باقي بلدان شمال إفريقيا، لأنها في مختلف مراحلها التاريخية، لم تعرف تأسيس مدينة كبيرة على غرار المدن التي تأسست في تونس والمغرب الأقصى، لأن تاريخ الجزائر مليء بقصص الشيوخ المليئة بالحكايات المتلاطمة التي ينعدم فيها أي حس تاريخي.

كما أنَّ الجزائر، بحكم موقعها، كانت جد متخلفة عن باقي بلدان شمال إفريقيا؛ لأنَّها لم تعرف قط نمو برجوازية أصلية تجمع حولها شتات القبائل المتشرذمة في الجزائر وتكوِّنها في شكل جسد واحد. فالبرجوازية، حسب رأي نموذج دراستنا، هي التي كان من الممكن أن تمنح للدولة هيبتها باعتبار أنَّها تملك رؤوس الأموال، وهو ما يسمح بتحريك اقتصاد الدولة وتشكيل شعور قومي بالانتماء للأمَّة الواحدة، وغياب هذه البرجوازية -حسبه- هو ما منع الجزائر من تكوين مدينة كبيرة وتكوين شعور بالانتماء إلى أمَّة جزائرية واحدة. (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 43)

ونشير هنا إلى أنّ الطبقة البرجوازية ظهرت في أوروبا بعد الثورة التجارية، وتبلورت هذه الطبقة كعنصرٍ مؤثرٍ خصوصاً خلال الثورة الفرنسية، وزاد تأثيرها بعد الثورة الصناعية. وبالتالي لا يمكن الحكم على شعبٍ معين بالحيوية فقط بمدى توفره على الطبقة البرجوازية؛ فأوروبا في العصور الوسطى أو القديمة

لم توجد فيها هذه الطبقة، لكنَّها شكلت دولاً وإمبراطوريات عظيمة، وما ينطبق على أوروبا ينطبق على باقي قارات العالم الأخرى.

2 – غياب الوحدة السياسية عبر التاريخ

مثلما أشرنا في العديد من الأمثلة في الفصل الثالث، فإنَّ «غوتييه» ينكر تشكُّل وحدة سياسية في الجزائر عبر التاريخ، وما تشكَّل منذ زمن ماسينيسا من أشكال للدولة لم يعمِّر طويلاً، لأن الصراعات القبلية طغت على الوحدة الوطنية. أمَّا بالنسبة للدول التي ظهرت في العصر الإسلامي، فهي بالنسبة له دول مستوردة، وقادتها في الأساس ليسوا من العنصر المحلي، بل من القادمين من المشرق.

ويربط «غوتييه» غياب الشعور الوطني لدى سكان الجزائر أساساً بتفكك وتشرذم سكانها من جهة، وبسيادة نظام العيش القائم على الترحال والنظام القبلي، الأمر الذي يجعل الفرد لا يرتبط بالأرض، وبعوامل أخرى ترتبط بغياب عناصر الأمة لديه، مما أوجد لديه عجزاً عن تشكيل دولة ذات نظام سياسي وقابليته للاستعمار.

ولذلك عمل «إميل فليكس غوتييه» من خلال مؤلفاته على إثبات غياب الأمَّة الجزائرية قبل مجيء الاحتلال الفرنسي، وأن ما عرفته الجزائر في مختلف فترات التاريخ ما هو إلاَّ سلسلة من الهيمنة الأجنبية وتاريخ تكثر فيه الصراعات والحروب، وهذه التوجهات لاحظنا أنَّ نموذج دراستنا لم يتوانَ في الدفاع عنها، كما لم يغير هذه الآراء والأفكار منذ قدومه لجامعة الجزائر حتى تقاعده منها.

فكثيراً ما نجد نموذج دراستنا يوظف معارفه الجغرافية في تفسير الأحداث التاريخية، من أجل إثبات أنَّ المجتمع الجزائري مر بمراحل تاريخية ميزتها كثرة الحروب، وبذلك نجده قد حكم على هذا المجتمع ألاَّ يعيش إلاَّ بإشراف قوة أجنبية، لأن المنطقة لم تستطع تحقيق وحدتها التاريخية إلاَّ في فترات زمنية قليلة جداً بالنظر لغياب مركز وحدة جغرافي وتعرضها المستمر للغزوات الأجنبية، وهو ما يؤكده في قوله: «**رغم تحقيق بلاد المغرب لوحدتها في عهد ماسينيسا ويوغرطة ومملكة الإباضيين والفاطميين والموحدين، إلاَّ أن هذه الوحدة لم تصمد، إنَّها وحدة الفطر التي تنمو في ليلة واحدة وتتساقط إلى غبار في صباح**

واحد، لا أعتقد أنَّ هناك شيئاً مثله في أي قصص مألوفة لنا، إنَّها سمة بربرية أصيلة». (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 209).

ولكي يوضَّح سبب عجز بلاد المغرب عن تحقيق الوحدة السياسية وحتمية تبعيته لسيد أجنبي، أكَّد على أنَّ الطبيعة الجغرافية لبلاد المغرب والانقسامات الطبيعية التي يتميز بها لها دور كبير في عدم تحقيق المنطقة لوحدة سياسية مركزية، كما وضَّح أيضاً أنَّه رغم وجود عدة محاولات وحدة على مر التاريخ من «سيفاكس» إلى عهد المرابطين، إلاَّ أن بلاد المغرب سرعان ما تتشتت، وهذا لأن بلاد المغرب دولة فطرية تنمو في ليلة واحدة وتَعْفَنُ في صباح واحد. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 53).

غير أنَّ المتصفح لتاريخ المغرب الإسلامي خلال الفترة الوسيطة يجد تشكل عدة دول عمرت لعدة قرون، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالدولة الرستمية مثلاً حكمت المغرب الأوسط لأكثر من 136 سنة، والدولة الزيرية حكمت أيضاً نفس المنطقة لحوالي قرنين من الزمن، أما الدولة الموحدية فسيطرت على كامل بلاد المغرب (الأدنى، الأوسط، الأقصى) كما شمل حكمها بلاد الأندلس لأكثر من 139 سنة، وهو عكس ادعاء «غوتييه» بأنَّ عُمرَ الدول مثل عمر الفطر الذي ينمو في الليل ويتعفن في الصباح.

ومما لا شك فيه أنَّ طرح «غوتييه» فيما يخص التاريخ القديم والوسيط لا يصمد أمام النقد التاريخي؛ ففي العصر القديم، وُجدت دولة نوميديا في المغرب الأوسط التي استعصت على روما في ظل حكم يوغرطة ويوبا الأول. وفي العصر الوسيط، أصبحت الجزائر جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية، وبالتالي لم تخلُ من تنظيم سياسي واقتصادي، وأكثر من ذلك تشكلت دول في هذه المنطقة أسسها أمراء بعضهم أصولهم مشرقية والبعض الآخر من البربر.

وهذه الدول امتدت خلال العصور الوسطى بشكل لم يكن موجوداً في معظم الدول الأوروبية التي كانت تعيش عصور الإقطاع، حيث ضعفت السلطة المركزية للدول الأوروبية، وزادت سلطة السادة الإقطاعيين؛ وبالتالي يمكن القول إنَّ التنظيم السياسي في الجزائر وبلاد المغرب خلال تلك المرحلة كان

أرقى وأفضل من نظيره في العالم الأوروبي الذي كان مجالاً لتوسع البلاد المغاربية، من خلال الأندلس أو جزر البحر المتوسط الأوروبية، أو الجنوب الإيطالي.

لكن «غوتييه» مثل غيره من الاستعماريين يتصور أنَّ سُكَّان الجزائر كانوا يعيشون في شكل قبائل متفرقة، لا يسود لديها شعور مشترك يوحدها غير التعصب الديني، وهو ما صعَّب من مشروع تكوين أمَّة وتحقيق شعور بالانتماء للوطن، بل هيمن الشعور بالانتماء للقبيلة أو العشيرة على سُكَّان الجزائر، ولم يتطوروا منذ العصور القديمة، يقول «غوتييه» إنَّ «**البربر في القرن 20، كما في القرن الثامن الميلادي لا يدركون معنى الوطن، بل لا يتصورونه حتى في بلاد المغرب ككل، ولا يتصورون كيف ستكون اتجاهاته وواجباته، فالبربر لم يعودوا مهتمين بوطن نوميديا الصغير أو بلاد زناتة، ولا يدركون أياً منهما، والشيء الوحيد الذي يشغف به البربري ويستعد للتضحية بحياته من أجله هو عشيرته وعائلته**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 278).

واعتبر «غوتييه» أنَّ اختلاف لغة المجتمع الجزائري عاملُ ضعفٍ وانقسامٍ حال دون تحقيق الوحدة السياسية؛ حيث أراد إثبات أنَّ تباين اللغة وتباين الأصول هو ما منع الجزائريين من تحقيق شعورٍ وحدويٍّ عبر التاريخ، حيث قال: «**إنَّ علم النفس الاجتماعي لا يعطي هذا الخليط من الأنواع البشرية، كما يفعل في أماكن أخرى، بينها وعياً وطنياً راسخاً، إنَّ الانقسام إلى كتلتين لغويتين مختلفتين تماماً من شأنه أن يشكل عقبة في حد ذاته، ويتفاقم هذا الوضع بسبب الاختلافات العميقة في أنماط الحياة التي يفرضها نوع التربة والمناخ**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 171). فالتقسيمات اللغوية والعرقية جعلت الجزائر تتكون من «**جماعات بشرية متباينة، وكل جماعة واعية بشخصيتها، متمسكة بوطنيتها، ومتمسكة بمفاهيم مشتركة للمجتمع والحياة**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 32)

لذا لا يمكن بأي حال من الأحوال القول بوجود رابط وطني بين مكونات المجتمع الجزائري؛ فالوحدة السياسية تأتي –حسب رأي «غوتييه»– من ظهور هذا الشعور بالتفاهم والشراكة بين أبناء الوطن الواحد، والجزائر عبر التاريخ لم تستطع –كما يقول– تحقيق هذا الشعور؛ لأن كل جماعة بشرية

تعيش في الجزائر لها شعور مختلف عن الجماعة الأخرى، فالذين يعيشون حياة البادية لهم حياتهم الخاصة التي تختلف عن حياة الذين يعيشون حياة الاستقرار، كما أن العرب ألفوا حياة البدو والتنقل عكس العديد من القبائل المورية والنوميدية، ولذلك فتحقيق الترابط بين هذه المجموعات البشرية مستحيل حسب رأي نموذج دراستنا.

وكل من يطلع على أعمال «غوتييه» يلاحظ كيف ربط بين أحداث التاريخ القديم والوسيط والفترة الاستعمارية التي كان يعيش في ظلها، لأجل استخلاص الدروس من التاريخ لخدمة المصلحة الاستعمارية؛ فبعدما تحدَّث عن أثر الانقسام القبلي بين «المور» و«النوميد» وبين «زناتة» و«صنهاجة» على عدم تشكُّل كيان سياسي موحد في العصرين القديم والوسيط.

فنموذج بحثنا أراد اسقاط تلك الحالة على الفترة الاستعمارية من خلال إثبات الصراع بين البربر والعرب من جهة، وبين الشاوية والقبائل والطوارق وميزاب من جهة ثانية، معتبرًا هذا الصراع سبب فشل الأمير عبد القادر في لمّ شمل الجزائريين؛ لأنَّه كان يُعَدُّ أمير سُكَّان العرب، وعند قدومه لسُكَّان القبائل –الذين حسبه يكرهون العرب بشكل كبير– رفضوا الانضمام إليه، وقدموا له الكسكس الأسود «البارود»؛ للتعبير عن العداء المتأصل بين القبائل العربية والقبائل البربرية، وهذا الصراع يُضاف إلى الصراع المتأصل بين القبائل البربرية في حد ذاتها، وبالتالي فتحقيق غاية الوحدة السياسية غير ممكن. (Gautier, Structure de l'Algérie, 1922, p. 210).

إلى جانب إنكار «غوتييه» وجود عناصر الوحدة الطبيعية التي نجدها في الأمم، مما لا يسمح بتشكل أمة جزائرية منسجمة، ينقل «غوتييه» مجال تنظيره للجانب السياسي، وهو غياب الدولة الذي حسبه ارتبط بغياب الأمة، مما لا يسمح بتحقيق مبدأ الدولة الأمة (état-nation)، التي تمثل تجسيد الأمة وهي مجموعة من العناصر المعنوية في هيكل سياسي يتمثل في الدولة التي هي مجموعة من المؤسسات ونمط نظام حكم معين، وفي الأساس تقوم الدولة بالحفاظ على تماسك الشعب الموحد بتوحد عناصر الأمة التي تجمعه.

3 – مظاهر غياب الشعور الوطني لدى الجزائريين في الفترة المعاصرة

يتجاهل «غوتييه» مختلف المقاومات والثورات الشعبية التي اندلعت في مختلف مناطق الجزائر في مواجهة المستعمر، ويتجاهل معها الشعور الوطني الذي حرك تلك الثورات، مع أنَّه أحياناً يستشهد بشخصية الأمير عبد القادر ومقاومته، ويقر بأنَّ سُكَّان الجزائر وبلاد المغرب محاربون أشداء يحملون السلاح، وهم شديدو البأس في حروبهم، ومع ذلك يعتبر الحروب التي يقومون بها، لا يقومون بها تحت رايتهم، بل لأجل مصلحة قوة أجنبية (القرطاجيين، العرب...).

ولأجل التأكيد على غياب الشعور الوطني لدى الجزائريين خلال زمنه، يستشهد بالأبحاث التي أجراها في منطقة الظهرة لدراسة المجازر التي ارتكبها الفرنسيون لمعرفة أسبابها ونتائجها، حيث أكَّد أنَّه لاحظ عدم مبالاة الجزائريين، الذين كانوا معه كمرشدين بدخوله لهذه المغارات والتعرف عليها من الداخل، وفسّر غياب ردود الفعل بأنَّه دليل على غياب الحس الوطني لدى الجزائريين، وهذا من منطلق أنَّهم بربر شرقيون يفتقرون لأي شعور وطني. (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 46)

وبذلك يتضح لنا أنَّ «غوتييه» لا يعترف أصلاً بوجود دولة جزائرية أو أمة جزائرية قبل الاحتلال الفرنسي، لأن الفكر الشرقي –كما يقول– يقوم على الانتماء للقبيلة والعشيرة، ولا وجود لفكرة الوطن الواحد؛ فالشرقي الذي ألف حياة البداوة لا يمكنه بأي حال من الأحوال التفكير في إنشاء كيان سياسي يجمع شتات المجتمع؛ لأنهم تعودوا حياة التنقل، ولذلك فنموذج دراستنا يعتبر «**الجزائر التي هي جزء من المشرق لا شك في ذلك، لكنَّها لم تكن يوماً وطناً**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 47).

غير أنَّ التبرير الذي قدّمه المؤرخ غير منطقي إطلاقاً، فمجزرة المحرقة التي يتكلَّم عنها وقعت سنة 1845 وزمن دراسته لهذه الحادثة كان سنة 1920، وهذا ما يعني مرور أكثر من 75 سنة على وقوعها، كما نقول أيضاً: ما علاقة غياب رد الفعل بغياب الحس الوطني؟ هل كان «غوتييه» يريد من

المجتمع الجزائري إعلان تمرُّد أو عصيان على ما يقوم به من دراسات في هذه المغارة، حتى يتسنى للفرنسيين ارتكاب مجزرة أخرى شبيهة بالتي ارتكبت في حق قبيلة «الفراشيش» وقبيلة «أولاد رياح»؟

فمن جهة يؤكد «غوتييه» على أنَّ الفرنسيين حكموا الجزائر من منطلق استعمال حق القوي على الضعيف، وهو ما بيناه في الفصل الثالث، ومن جهة أخرى يريد من الجزائريين إعلان رفضهم الصريح لما يقوم به الفرنسيون، وهو ما يبين تناقضه في توجهاته؛ فإذا كان الجزائريون ضعفاء يشرف عليهم الفرنسيون، فكيف يمكنهم إبداء رد فعل تجاه مستعمر غاشم يستعمل كل وسائل الترهيب لقمعهم؟

لكن نموذج دراستنا اعتبر هذا التصرف من المجتمع الجزائري دليلاً على غياب الشعور الوطني لديهم، فَجُلُّ ردود فعلهم دائماً ما تكون غير منطقية بالنسبة للفرنسيين؛ ففي «**أزمة معاداة اليهود في جانفي 1898 كانت المناسبة والذريعة احتجاجاً على مرسوم كريميو الذي صدر في 26 أكتوبر 1870 الذي منح لليهود في الجزائر جميع حقوق المواطنين الفرنسيين، ومع ذلك فإنَّ أعمال الشغب المعادية لليهود نتيجة حدثت بعد ربع قرن من هذه القضية، وعند تفسيرنا لهذا التأخر غير العادي، نجد أنَّ الغضب الجزائري لم يجد تعبيراً له لمدة ثلاثين عاماً؛ لأنَّه لا يعرف ولا يدرك كيف يعبّر عما يشعر به، وليس لديه رأي عام واعٍ مستنير**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 178).

فالجزائري إذن، حسب «غوتييه»، لا يملك فكراً يستطيع به التعبير عن رفضه للقوانين الفرنسية، ولا يستطيع التعبير عن غضبه بشكل مباشر في حالة وقوع مشكلة ما؛ لأن رد فعله سيكون بطيئاً، لأن المرسوم صدر سنة 1870 ورد الفعل الجزائري حسب نموذج دراستنا كان سنة 1898. لذلك يرى أنه لا يمكن للجزائري إبداء شعور وطني وتأسيس دولة وطنية لأنه سيفشل في ذلك حتماً، وبالتالي تتعرض المنطقة لاحتلال جديد ولسيطرة أجنبية جديدة، لذا فالأفضل للسكان الجزائريين البقاء تحت الإشراف الفرنسي لأنه الأنسب لهم باعتبار أن الفرنسيين يسعون إلى تطويرهم ونقلهم من أسلوب البداوة إلى أسلوب الحضارة.

«فغوتييه» ومن خلال ما سبق لم يكتفِ بتفسير الأحداث التاريخية بشكل خاطئ، بل تعدى الأمر إلى تزوير المعطيات وتوجيهها وفق ما يخدم توجهاته الفكرية القائمة على استصغار الجزائريين، واعتبار مستواهم متدنياً جداً بالمقارنة مع الأوروبيين، فهو يعتبر أنَّ أحداث 1898 هي رد فعل الجزائريين على «مرسوم كريميو»، وهو تفسير لا يمت للحقيقة بصلة؛ ففي بحثنا في مختلف المصادر الفرنسية التي تحدثت عن «مرسوم كريميو» توضَّح أنَّ رد الفعل الجزائري كان بإعلان الثورة على الفرنسيين، وهي الثورة التي قادها الشيخ «أحمد المقراني»، رغم أنَّ هذه الثورة كانت بسبب سياسة القمع التي طبقتها فرنسا على الجزائريين بانتزاع أراضيهم وممتلكاتهم وسياسة التجهيل الممنهج.

كما أنَّ الأحداث التي يشير إليها الباحث إذا كانت لها علاقة بقانون «كريميو»، فهذا ينطبق على المعمرين الأوروبيين الذين تسببوا في الموجة وشنوا حملة كبيرة ضد اليهود، وأصدروا العديد من الصحف المعادية لليهود، منها صحيفة (معاداة اليهود) (anti-juif). وكان دافع الأزمة سنة 1898 سياسياً بالدرجة الأولى، بحيث كان اليهود ينتخبون ككتلة مشتركة، مما أدى إلى اختلال التوازن بينهم وبين المعمرين الذين كانوا يهيمنون على الساحة السياسية في الجزائر.

لذلك قام المستوطنون باستغلال انتخابات سنة 1896 لإثارة البلبلة وسط السكان، إذ استطاع المتطرفون من المستوطنين الاستيلاء على عدة بلديات خاصة وهران وقسنطينة، وهو ما سمح لهم بنشر صحف معادية لليهود، شنت حملات دعائية تتهمهم بالتسبب في غلاء الأسعار وانتشار البطالة، وهو ما نتج عنه بروز أعمال عدائية ضد اليهود منذ سنة 1897، حيث شهدت مستغانم عمليات سطو دامت 3 أيام من شهر ماي 1897. (شنوف، 2008، الصفحات 74-75).

وفي مدينة الجزائر حدثت أيضاً مظاهرات معادية للسامية قادها «ماكسيميليانو ريغاس Maximiliano Regis» شارك فيها العديد من الشخصيات، وهذه المظاهرات التي تحولت إلى أعمال شغب استمرت لخمسة أيام من 20 إلى 25 جانفي 1898، والتي أدت إلى نهب وتخريب العديد من المحلات اليهودية، كما انتشرت هذه الأعمال العدائية في كل من وهران وقسنطينة التي قُتل فيها يهوديان ونُهب فيها 138 محلاً تجارياً. (كركار ، 2023، الصفحات 214-217)

إذاً، «فإميل فليكس غوتييه» ومن خلال ما سبق ذكره، عمل على تحوير الحقائق التاريخية حتى يتسنى له استغلالها وفق ما يخدم آراءه؛ فمن خلال إثباته بأنَّ الجزائريين هم من تسببوا في أزمة معاداة السامية، وأنَّهم تأخروا في ردة فعلهم، فهو يريد إثبات عدم النضج العقلي للمجتمع الجزائري، وهو ما لاحظناه حين أكَّد على أنَّ هذه الأحداث هي رد فعل متأخر لمرسوم «كريميو»، وهذا التأخر يبرره بغياب الحس الوطني للجزائريين. ومن جهة أخرى، فإنَّ ادعاءاته –حسب وجهة نظرنا– لا يريد من خلالها إثبات غياب حس الوطنية لدى الجزائريين فحسب، بل يريد من خلالها إثبات همجية المجتمع الجزائري ورفضه المطلق لكلِّ الجهود التي تبذلها فرنسا لتحضيرهم وإدماجهم في المجتمع الفرنسي.

وبذلك لا يمكن لهذا الشعب أن يعيش دون إشراف قوة كبرى تشرف عليه وتمنعه من إحداث المشاكل والفوضى، لكن كما بيَّنا سابقاً فإنَّ أزمة معاداة السامية لم تحدث بسبب رفض الجزائريين إطلاقاً لقانون «كريميو»، بل كان المستوطنون الفرنسيون هم السبب الرئيس وراء هذه الأحداث من خلال استغلال مناصبهم لإثارة الفتنة، لتحقيق غايتهم الأساس، ألا وهي القضاء على توسع نفوذ اليهود في المناصب الحكومية الفرنسية على حساب الفرنسيين، والسعي لإلغاء تطبيق قانون «كريميو» بشكل نهائي. (أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954، 2013، الصفحات 96-99)

من خلال ما سبق ذكره، نقول أنَّ نموذج دراستنا يسعى لإثبات عجز الجزائريين المطلق في جميع مجالات الحياة اليومية، وعجزهم المطلق عن احترام القانون الفرنسي، وهذا العجز كما يقول يعود بالدرجة الأولى إلى الغياب التام الذي تميزت به الجزائر عبر مختلف الأزمنة التاريخية عن تحقيق ذاتها، وتكوين طبقة برجوازية تسير شؤونها الداخلية. حيث يقول: «**لم توجد طبقة حاكمة محلية قط على مر آلاف السنين، وهي حقيقة جسيمة تركت فشة كاملة من المشاعر دون تبلور، ومن المؤكد أنَّه لا ينبغي لنا أن نغفل عن هذا الوضع البدائي الذي سهَّل بشكل فريد مهمة المستعمر، لا أعلم إن كان هناك تفسير كافٍ للظاهرة التي لاحظناها، والتي رغم ذلك وبعد التأمل نجدها غير عادية... فعند تجسد خطر الحرب عام 1914، نعلم ما حدث في أماكن أخرى كمصر وسوريا وتركيا وبلاد فارس، أطلقت فترة ما بعد**

الحرب عاصفة القومية الشرقية، أمَّا في الجزائر فلم يحدث شيء». (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 65).

وفي هذا المقام يستشهد «غوتييه» بأثر الحرب العالمية الأولى في تبلور الشعور القومي (الوطني) لدى شعوب العالم، بعدما قدَّم له بالتأكيد الذي يكرره في مرات عديدة، بأنَّ الجزائر تعيش في ظروف بدائية، وفي غياب للشعور القومي منذ آلاف السنين، بحيث يذكر أنَّ الحرب تركت أثراً في بلورة الشعور القومي في العديد من المناطق، وكان تأجج ذلك الشعور من أسباب الحرب نفسها. بينما ينكر «غوتييه» أن يكون للحرب أثر في ظهور شعور قومي أو حركة وطنية في الجزائر، وذلك في كتابه الذي صدر في 1930 بمناسبة مئوية احتلال الجزائر.

وهو بذلك يتجاهل حركة الأمير خالد التي ظهرت مباشرة بعد نهاية الحرب نفسها، ومعلوم أنَّ الأمير خالد كان من أبرز ما اشتهر به في نشاطه الرسالة التي وجهها للرئيس الأمريكي «ويلسون» خلال مؤتمر فرساي، حيث طالب بتطبيق مبدأ حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره بنفسه؛ لذلك نجد أنَّ العديد من المؤرخين، وعلى رأسهم «محفوظ قداش» الذي تخصص في الحركة الوطنية، يعتبر 1919، أي تاريخ نهاية الحرب العالمية الأولى، بدايةً للحركة الوطنية من خلال حركة الأمير خالد.

بينما نجد «كلود كولو Claude Collot» في كتابه نصوص حول الحركة الوطنية، يرجع بداية هذه الحركة إلى 1912، حينما قدمت أول عريضة مطالب جزائرية للسلطات الفرنسية بباريس، في حين نجد أنَّ «أبو القاسم سعد الله» يعتبر كل ردة فعل رافضة للاستعمار تدخل ضمن الحركة الوطنية التي بالنسبة له تبدأ من 1830. ومنه فالحركة الوطنية لم تنطفئ شعلتها طوال الفترة الاستعمارية، سواء اتخذت لوناً دينياً تحت زعامة صوفية، أو سياسياً تحت زعامة زمنية، أو تنظيماً حزبياً حديثاً، فكل ذلك يعبر بشكل من الأشكال عن وجود وطنية جزائرية تختلف عن فرنسا وترفضها بل تناقضها.

نستنتج من ذلك أنَّ «غوتييه» لا يدافع عن حتمية الاستعمار الفرنسي للجزائر من منطلق تخلف الجزائريين وانتشار البداوة وسطهم، بل هو أيضاً يبرر الاستعمار الفرنسي بأنَّه يسعى لنشر رسالة الحضارة وسط الجزائريين، وتركيزه على إبراز مدى انحطاط حياة سُكَّان الجزائر يُوضِّح لنا هذا المقصد بوضوح. كما عمد الباحث إلى إبراز غياب أي نشاط سياسي للشباب الجزائري، سواء خلال الحرب

العالمية الأولى أو بعدها، من منطلق غياب فكرة الوطنية لديهم، وهو ما جعله يقول: «**الوضع في الجزائر لا يسمح بظهور حزب جزائري شاب معتبر، رغم وجود عدة أسماء معتبرة، مثل ابن التهامي وابن رحال، لكن وضع هؤلاء الشباب اليائسين معقد؛ فهم لا ينتمون إلى أي عالم (الشرق أو الغرب)، وهم في عزلة أخلاقية؛ لأنَّهم ليسوا في وطنهم، وليس من السهل مساعدتهم؛ لأنَّهم تجسيد لمشكلة تغريب الشرق، وبالرغم أنَّهم يستحقون الاهتمام البالغ، إلاَّ أنَّهم مجموعة صغيرة من الشباب المعزولين ولا يشكلون طبقة أو حزب الشباب الجزائري**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 238).

ومنه؛ فإنَّ الشباب الجزائري بصفةٍ خاصَّة، والمجتمع الجزائري بصفةٍ عامة، ورغم ما بذلته سلطات الاحتلال الفرنسي من جهودٍ لترقية حياتهم وتثقيفهم ونشر الوعي في وسطهم، إلاَّ أن هذه المساهمة -حسب رأيه- لم تسمح ببروز فكرٍ سياسيٍّ وسطهم.

4 – الرد على ادعاءات غوتييه حول غياب دولة وطنية في الجزائر عبر العصور

لا يمثل التاريخ، بالنسبة لنموذج دراستنا، مجالاً للحقيقة وإعادة بناء الأحداث وتحليلها بشكل موضوعي في إطارها التاريخي والحضاري، بل هو لا يعدو كونه أداة لخدمة الواقع الاستعماري؛ فبرغم ترسيخ أقدام المستعمر في البلاد الجزائرية، وفرض هيمنته عليها بالقوة، وتصريح ساسته ومنظريه بأنَّه لا مجال لمناقشة السيادة الفرنسية على الأرض الجزائرية، إلاَّ أنَّه في مجال اللاوعي، حتى بالنسبة للمستعمر نفسه، تبقى حقيقة الوجود الفرنسي هشة من حيث التأسيس. لذلك نجد أمثال «غوتييه» يبحثون في صفحات التاريخ عن مبررات من شأنها أن تخدم المشروع الاستعماري في الجزائر.

«إميل فيليكس غوتييه» في دراسته وتحليله لتاريخ الجزائر وشمال إفريقيا، لم يكتفِ بنفي وجود أمَّةٍ أو دولةٍ قائمةٍ من تأسيس السُّكَّان، بل تجاوز طرحه إلى اعتبار هذا التاريخ عبارةً عن سلسلةٍ من الهيمنة الأجنبية التي لا تنتهي، وهذا الطرح الذي قدَّمه لنا المؤلف يسعى من خلاله إلى تبرير احتلال فرنسا للجزائر، حيث لاحظنا أنَّ المؤلف دائماً ما يربط بين الاحتلال الفرنسي وبين المراحل التاريخية السابقة، خاصَّةً مرحلة التاريخ الإسلامي ومرحلة الحكم العثماني، حيث اعتبر هاتين المرحلتين جزءاً من الاستقرار الأجنبي في الجزائر وشمال إفريقيا.

ولذلك يستطيع «غوتييه» تبرير الاحتلال الفرنسي، فعند تتبعنا لآرائه وجدناه يطرح تساؤلات عن أهمية أن يُسمَّى «السيد الحالي maître actuel» للجزائر فرنسياً، طالما أن هذا السيد الحالي قد خلف سيداً أجنبياً آخر، فالفرنسي إذاً لم يقم بإحداث فرق في تاريخ المنطقة، بل وجوده وفق هذا المنطلق يصبح حتمية تاريخية لا يستطيع سُكَّان الجزائر وشمال إفريقيا مواجهتها، بل هم لا يستطيعون العيش من دونها، بفعل حاجتهم للأجنبي ووصايته.

غير أنَّ الآراء التي تبناها نموذج دراستنا متطرفة بشكل كبير، ولا تبرر استيلاء الفرنسيين على أرض الجزائر وثرواتها، فإذا كان تاريخ الجزائر كما يقول معروفاً باستمرار الهيمنة الأجنبية، فهل هذا مبرر لكي تفرض فرنسا سيطرتها على الجزائريين وتمارس عليهم القمع وأقصى درجات التمييز العنصري؟ وهل إذا خضعت فرنسا في تاريخها لهيمنة أجنبية خلال مرحلة معينة، يعني ذلك أنَّها محكوم عليها بأن تخضع دائماً لهيمنة أجنبية؟ أم أنَّ فرنسا باعتبارها دولة أوروبية تمثّل الحضارة الأوروبية الغربية مقدّر لها فقط أن تحتل بلدان العالم وتستغل ثرواتهم وخيراتهم؟ وهو ما يثبت لنا أنَّ «إميل فليكس غوتييه» باعتباره فرنسياً متعصباً لإحياء عظمة ومجد روما عن طريق الفرنسيين، لجأ إلى تحوير الأحداث التاريخية عن معناها الحقيقي لتبرير الاحتلال الفرنسي.

وهذا التحوير تركز في أدبيات الكتابة التاريخية للمؤلف عند حديثه عن مرحلة التاريخ الإسلامي ومرحلة التاريخ العثماني، وكما بيَّنا في الفصل السابق كيف عمل على تشويه هاتين المرحلتين التاريخيتين بوصفه للفتح العربي بالغزو واعتبار العرب مخربين وهمجاً، ووصفه للتاريخ الإسلامي بفترة العصور المظلمة. كما بيَّنا أنَّ نموذج دراستنا يعتبر هذه المرحلة التاريخية جزءاً لا يتجزأ من الهيمنة الأجنبية، وهذا لإثبات أنَّ الجزائر لم تعرف أبداً استقلالاً ذاتياً.

غير أنَّ نظرة «غوتييه» للفتح الإسلامي والتبعية للعثمانيين تبقى نظرة أوروبية مسيحية، تحقد على الإسلام الذي حلَّ محلَّ المسيحية التي كانت منتشرة في البلاد، وتعتبره شيئاً وافداً وغريباً على البلاد التي يجب أن تعود لسابق عهدها المسيحي. فهذا الطرح في اعتبار العرب غزاة، والإسلام ديانة دخيلة انتشرت بحدِّ السيف، لا نجده إلاَّ في كتابات المستشرقين، أمَّا السُّكَّان المحليون الذين كانوا مجالاً لذلك

«الغزو للديانة الدخيلة»، فإنَّهم لا ينظرون لنفس الأحداث بنفس المنظار. وهذا ما نلمسه في الكتابات التاريخية التي كُتبت بأقلام جزائرية، والتي تقدم نظرة مغايرة عن النظرة الأحادية لأمثال «غوتييه».

فما وقع للجزائر وشمال إفريقيا في العصر الوسيط، لا يختلف في حقيقته عن خضوع فرنسا نفسها للمسيحية التي أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، التي في النهاية تركت لغتها اللاتينية في فرنسا على حساب اللغات الغالية والسلتية القديمة. وهذا نفسه ما وقع لشمال إفريقيا بالنسبة للإسلام واللغة العربية.

كما أنَّ «غوتييه» كغيره من المستشرقين يتصور أنَّ الفتوحات الإسلامية كانت بدوافع الهيمنة على الثروات وإخضاع الشعوب بالقوة لأجل تشكيل دولة إمبراطورية، والدارس للتاريخ الإسلامي للجزائر وبلاد المغرب سيجد أنَّ العرب لما جاؤوا إلى المنطقة كان هدفهم القضاء على خطر البيزنطيين الذي كان يهدد حدود الدولة الإسلامية من الناحية الغربية بعد فتح مصر. (خضيري أحمد، 2005، صفحة 32).

علاوة على ذلك، تشير المصادر إلى أن البربر ساهموا بشكل كبير في استمرار الفتح الإسلامي نحو قارة أوروبا بفتح بلاد الأندلس بقيادة «طارق بن زياد الأمازيغي»، مع آلاف البربر المسلمين، واستطاعوا القضاء على مملكة القوط سنة 92هـ/ 711م (بيل، 1987، صفحة 85). وأسسوا في شبه جزيرة إيبيريا (بلاد الأندلس) نظام حكم إسلامي راقٍ دام لأكثر من 8 قرون، كما ساهم حكمهم للمنطقة في انتقال المعارف العربية إلى قارة أوروبا بعد ترجمة الأوروبيين لما توصل له المسلمون من معارف في مختلف العلوم.

كما نؤكد أنَّ الجزائر وشمال إفريقيا عرفا بروز عدة دول محلية أُسست بسواعد أهل المنطقة، ومن ذلك نذكر الدولة «الزيرية» والدولة «الحمادية»، كما ظهرت دولة الموحدين التي استطاعت لم شمل بلاد المغرب تحت سلطة حاكم واحد، وكلها دول تم تأسيسها من قبل ملوك بربر، وهو ما يثبت خطأ الفرضية التي دافع عنها «غوتييه» بشدة، وهي فرضية انعدام دولة محلية مستقلة استطاعت الصمود لفترة طويلة، وهذه الاستمرارية تثبت لنا أيضاً خطأ نموذج بحثنا عندما بيَّن أنَّ دول المغرب تشبه في ظهورها الفطر؛ لأنَّها حسبه تظهر في ليلة ثم تختفي في اليوم الموالي، بينما نجد أنَّ الدول التي ذكرناها سابقاً حكمت لفترات طويلة.

وبالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ «إميل فليكس غوتييه» لم يكلف نفسه عناء البحث الجاد في تاريخ الجزائر وبلاد المغرب، بل اكتفى بإلقاء نظرة خاطفة عليه، والتركيز فقط على الصراعات التي ظهرت في المنطقة، معتبراً إياها الحاجز الرئيس أمام تحقيقه للوحدة السياسية وتحقيق الرخاء الاقتصادي، لأن هذه البلاد خاضعة بصورة دائمة لسيد أجنبي، لكن الدول التي ظهرت في بلاد المغرب كانت بمبادرة من سُكَّان المنطقة؛ فالدولة «الزيرية» مثلاً، رغم تأسسها كخليفة للدولة الفاطمية، إلا أنَّها سرعان ما رفضت استمرار هذه التبعية، وأعلن حاكمها «المعز بن باديس» استقلال بلاد المغرب الأوسط عن الفاطميين منذ سنة 439هـ/ 1047م. (بن زاوي، 2008-2009، صفحة 147).

فالدولة الزيرية قررت التخلي عن المذهب الشيعي والعودة إلى المذهب المالكي، وبذلك أصبحت بلاد المغرب تعتمد على نفسها بإعلان الانفصال عن الفاطميين في القاهرة. (الساحلي، 1992، صفحة 35)؛ خاصةً بعد تعاظم الخطر النورماني الذي كان يهدد سواحل شمال إفريقيا، وتمكنهم من احتلال مدينة المهدية سنة 543هـ/ 1148م. (محمد طارق السيد ابو المعاطي، 2022، صفحة 98).

كما ظهرت في المغرب الأوسط دولة أخرى هي الدولة الحمادية التي أسسها «حماد بن بلكين بن زيري»، متخذاً من مدينة أشير ثم الناصرية عاصمة للدولة التي حكمت من سنة 406هـ/ 1015م إلى 547هـ/ 1152م، وهاتان الدولتان (الزيرية والحمادية) أسستا أول تجربة للحكم المحلي لبلاد المغرب، دون تبعية أو سند خارجي، حيث عملت الدولتان على الاهتمام بشؤون المنطقة الداخلية، دون أن تعيرا اهتماماً بما يحدث في بلاد المشرق، كما سعت الدولتان إلى رفض أي تدخل في شؤونهما، خاصةً الأمويين في بلاد الأندلس والنورمان في صقلية. (مؤنس، 2000، الصفحات 184-186)

بالإضافة إلى ذلك نذكر الدور الذي قامت به الدولة الموحدية بشكل خاص، إذ استطاعت توحيد بلاد المغرب الأوسط في دولة واحدة، واستمر حكمها من سنة 1131م إلى سنة 1269م، (العزاوي، 2011، الصفحات 119-133)، وهي من أوائل الدول المستقلة عن الدولة العباسية في المشرق، واستطاعت مد حكمها في بلاد المغرب من «سويقة مضاكود» شرق طرابلس إلى المحيط الأطلسي، كما شمل حكمها أيضاً بلاد الأندلس شمالاً إلى الصحراء جنوباً. (الميلي م.، 1986، صفحة

304) وبذلك فالتاريخ الإسلامي للجزائر وبلاد المغرب مليء بنماذج من الدول التي تثبت استقلال هذه المناطق في تسيير شؤونها الذاتية.

كما يجب أن نشير في هذا الصدد إلى أنَّ الجزائر لم تكن دولة فحسب، بل كانت أقوى دول البحر الأبيض المتوسط، خاصَّةً في فترة الحكم العثماني، وهو الحكم الذي ظهر بعد استنجاد أهالي الجزائر بالسلطان العثماني سليم الثاني لطرد الإسبان، وهو ما ينفي فكرة اعتبار الوجود التركي والتبعية للدولة العثمانية استعماراً بمفهوم الاستعمار الحديث؛ فهو لا يعدو كونه يدخل ضمن الرابطة الإسلامية، باعتبار الدولة العثمانية مركز الخلافة. وهذا المفهوم للرابطة الدينية ولفكرة الخلافة غائب لدى «غوتييه» الذي ذكرنا أنَّه في قراءته لتاريخ الجزائر الحديث ينظر إليه بمرجعيات التاريخ الأوروبي، وليس بواقع العالم الإسلامي الذي كانت الجزائر جزءاً منه.

ومن جهة أخرى، فإنَّ المصادر والمراجع التاريخية غنية بمعلوماتها حول فكرة تمتع الجزائر باستقلال واسع عن الباب العالي؛ حيث تشير هذه المراجع إلى العدد الكبير لمعاهدات الصداقة التي عقدتها فرنسا مع الجزائر في هذه المرحلة التاريخية، مما يثبت سيادة الدولة الجزائرية واستقلال قرارها السياسي عن الباب العالي، ومن ذلك نذكر معاهدة 21 مارس 1619 التي نصت على وقف الأعمال العدائية بين فرنسا والجزائر وعدم تفتيش السفن الفرنسية من قبل الجزائريين، كما يتعهد ملك فرنسا بعدم تسليح أي سفن لمهاجمة الجزائر، ونصت المعاهدة كذلك على إطلاق سراح متبادل للأسرى بين الجزائر وفرنسا. (قنان، 2007، صفحة 56)

كما نشير أيضاً إلى معاهدة 11 جويلية 1808 بين الداي علي خوجة و«الملك لويس الثامن عشر»، التي نصت على تجديد الصداقة مع فرنسا وتعيين «ديبوا تانفيل Dubois Thainville» قنصلاً في الجزائر، (نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، 2007، الصفحات 181-185)، بالإضافة إلى معاهدة 14 جويلية 1820 الخاصة بحصن الباستيون، حيث نصت المعاهدة على تقديم فرنسا لمبالغ مالية سنوية و6 قناطير من المرجان لدولة الجزائر مقابل السماح للفرنسيين بشراء كل ما يحتاجونه من القمح والجلود والشمع والصوف من موانئ عنابة فقط. (قنان، 2007، الصفحات 348-349)

ولذلك نتساءل: هل المعاهدات التي عقدتها فرنسا مع الجزائر غير كافية لإثبات وجود دولة جزائرية حقيقية؟ وهي معاهدات أغفلها تماماً نموذج بحثنا وأصرَّ على اعتبار هذه المرحلة غزواً أجنبياً، كما نقول أيضاً إنَّ جل المعاهدات التي عقدتها فرنسا مع الجزائر منذ بداية علاقتهما كانت تُعقَد باسم ملوك فرنسا، وكانت تستعمل عبارات «الدولتين» و«الأمتين» و«الشعبين»، كما وردت فيها عبارات «الجزائر». (نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، 2007، الصفحات 172-176).

كل ذلك يفند ادعاءات نموذج بحثنا في نفيه القاطع لوجود الأمة والدولة الجزائرية، وتأكيده على أن ما عرفه تاريخ الجزائر من أحداث مجرد تبعية لنظام جاء به الأجانب إلى الجزائر، والدول التي ذكرناها، سواء في مرحلة التاريخ الوسيط أو التاريخ الحديث، تبين لنا مدى أصالة الدولة الجزائرية الضاربة في أعماق التاريخ منذ العهد النوميدي، وأن الشعور الوطني عرفه الجزائريون في فترات ضاربة في التاريخ، وهو الذي غذى روح التضحية ضد الأجانب.

وعلى العموم، فإن «إميل فليكس غوتييه» بتركيزه على إشكالية غياب الأمة الجزائرية، فهو بذلك –وحسب وجهة نظرنا– يثبت غياب الأمة الفرنسية؛ لأن هذه الأخيرة اعترفت طيلة العهد العثماني بوجود الدولة والأمة الجزائرية، ونفيه لوجود الجزائر معناه نفي لوجود دولة فرنسا؛ فالمعاهدة يجب أن تُعقد بين دولة ودولة أخرى، فإذا كان طرحه عن غياب دولة الجزائر صحيحاً، فهو في المقابل يثبت أيضاً غياب الدولة الفرنسية.

كما نشير أيضاً إلى أنَّ فرنسا بعد احتلالها للجزائر عمدت إلى إصدار قوانين تسعى من خلالها لإثبات تبعية الجزائر لفرنسا، كقانون 4 مارس 1834 الذي اعتبر الجزائر جزءاً من الممتلكات الفرنسية، وقانون 1848 الذي اعتبر الجزائر جزءاً لا يتجزأ من الأراضي الفرنسية، وكلا هذين القانونين يثبتان أن الجزائر قبل احتلال الفرنسيين كانت دولة مستقلة ذات سيادة؛ فلو لم تكن دولة لما أصدر الفرنسيون هذه القوانين لإلغاء وجود الجزائر كأمة وإلحاقها بقوة القانون بفرنسا.

ومن أبرز الباحثين الجزائريين الذين انتقدوا ادعاءات «غوتييه»، وأثبتوا أنَّ للجزائر مكانةً دولية وهيبةً كبيرةً في العالم قبل سنة 1830، نذكر «مولود قاسم نايت بلقاسم»، الباحث الجزائري الذي ألّف

كتاباً بعنوان: «**شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830**»، وهو كتاب يتكوَّن من جزأين، حيث خصّص الجزء الأول لإبراز المعاهدات التي عقدتها الجزائر مع مختلف دول أوروبا، مثل الولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا وبلجيكا وألمانيا، وبيّن فيه التحالفات التي عقدتها دول أوروبا والحملات العسكرية التي وجّهتها لاحتلال الجزائر. (نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، 2007، الصفحات 9-248).

أما الجزء الثاني فخصصه لإبراز طبيعة العلاقات الفرنسية الجزائرية، حيث أشار إلى البدايات الأولى لهذه العلاقات والمشاريع التي قامت بها فرنسا لاحتلال الجزائر، كما تكلم أيضاً عن المساعدات التي قدمتها الجزائر لفرنسا خلال أزماتها المختلفة والمعاهدات التي وقعت بين الدولتين، كما تكلم مولود قاسم في هذا الكتاب عن مسألة الدولة الجزائرية ومكانتها قبل سنة 1830، وأثبت وجود الدولة الجزائرية والأمة الجزائرية. (نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، 2007، الصفحات 7-366)

لذلك نؤكد على أن الجزائر قبل سنة 1830 كانت دولة ذات سيادة كما كانت الدولة الفرنسية ذات سيادة بعد ثورة 1789، والسيادة الجزائرية هي التي فرضت على الفرنسيين اللجوء للجزائر وعقد معاهدات كثيرة معها، ومن مظاهر السيادة الجزائرية كذلك وجود نظام سياسي قائم بذاته يقوم على التعاون بين الأتراك والجزائريين في إطار الخلافة الإسلامية، وهذا التوجه يؤكده لنا «فرحات عباس» حيث قال: «**في سنة 1830 كانت الجزائر دولة ذات سيادة، لا جدوى من إنكار هذه الحقيقة. نعم، إن تحطيم هذه الدولة يظهر قوة فرنسا، ولكن ليس معناه عدم وجود الدولة الجزائرية، إن هذه الدولة بحدودها الحالية تعود إلى سنة 1515، ولم يكن نظامها أقل أو أكثر إحكاماً من دول أخرى كثيرة، كانت لهذه الدولة حياة وطنية ودولية، وكان يعترف بها عدد كبير من الدول الأوروبية وغير الأوروبية، منها فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وهولندا، وقد أبرمت معها اتفاقيات عديدة. أما في الميدان العسكري فقد كان لها جيش منظم فيه تقريباً 15000 رجل، وأسطول مكون من 60 مركب**». (عباس، ليل الاستعمار، 2005، صفحة 33)

كما نؤكد أيضاً على أنَّ ما ذكره الباحث في إثبات تخلف المجتمع الجزائري في غياب أحزاب سياسية جزائرية؛ فنقول إن هذا الطرح مغاير تماماً للحقيقة التاريخية، حيث نشير في هذا الصدد إلى الأحزاب التي ظهرت خاصةً بعد الحرب العالمية الثانية والتي واكبت الفترة الزمنية لتواجد نموذج الدراسة في الجزائر؛ حيث ظهرت في الجزائر عدة جمعيات وأحزاب طالبت فرنسا بتحسين أوضاع المجتمع الجزائري، ومن ذلك نذكر «حركة الشباب الجزائري» التي ظهرت سنة 1900 بعدما قدم «خليل قايد العيون» مذكرة للسلطات الفرنسية تتضمن عدة مطالب؛ كتمكين الجزائريين من الحقوق السياسية، خاصةً حق التصويت، وحرية الحصول على الوظائف العمومية، وتطوير التعليم الحديث. (أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلا ع حرب التحرير 1954، 2013، الصفحات 373-374).

كما قامت هذه الحركة سنة 1908 بتأسيس «**لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين**» للاحتجاج على مرسوم 17 جويلية 1908 الذي نص على إحصاء الجزائريين الذين بلغوا 18 سنة لتجنيدهم في الجيش الفرنسي، وهو ما دفع بلجنة الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين إلى الاعتراض على هذا المرسوم ودعت إلى إلغائه وعدم قبوله إلا بحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية وطالبوا بإلغاء قانون الأهالي ورفع نسبة التمثيل السياسي للجزائريين. (بوحوش، 1997، الصفحات 203-205)

بالإضافة إلى ذلك، ظهر أيضاً «**اتجاه المساواة**» الذي ترأسه «الأمير خالد» سنة 1919، وطالب بتحقيق المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق والواجبات دون تخلي عن الأحوال الشخصية، والسماح للجزائريين بتقلد مختلف الوظائف دون شروط. (عبيد و بانقا إلهام ، 2021، الصفحات 190-191) ؛ وطالب أيضاً بحق تمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي، وإلغاء القوانين الاستثنائية، وحرية الصحافة والجمعيات، وفصل الدين الإسلامي عن الإدارة الفرنسية. (لهلالي و لهلالي، 2019، الصفحات 191-192)

كما تأسست أيضاً «**فدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين**» شهر جوان 1927 التي طالبت بتمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي والمساواة في الأجور بين الفرنسيين والجزائريين، وطالبت أيضاً بإلغاء قانون الأهالي وتوفير التعليم المهني للجزائريين والمساواة في الخدمة العسكرية بين الفرنسيين والمسلمين. (بوحوش، 1997، الصفحات 233-234) وتأسست أيضاً «**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**» يوم 05 ماي 1931، والتي ركزت نشاطها على نشر التعليم العربي والثقافة العربية الإسلامية، كما كانت

تصبو إلى تطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات والبدع، وعملت على حماية القومية الجزائرية وربطها بالقومية العربية الإسلامية، وحرصت على تثبيت الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية. (أجرون، تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954، 2013، الصفحات 521-528)

أما "الحزب الشيوعي الجزائري" الذي تأسس في 25 جانفي 1936 من أجل تكوين اتحاد عام بين الجزائريين والشعب الفرنسي ومحاربة الفاشية والعمل على إقامة جزائر مرتبطة بفرنسا، ورفض هذا الحزب أي انفصال للجزائر أو ثورة جزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، (بوحوش، 1997، الصفحات 283-284). بالإضافة إلى ذلك تأسس "حزب الشعب الجزائري" في 11 مارس 1937 برئاسة «أحمد مصالي الحاج»، والذي طالب بإلغاء قانون الأهالي وقانون الغابات وحرية الصحافة وتكوين الجمعيات، كما طالب باحترام الدين الإسلامي وإعادة أوقافه، ودافع هذا الحزب أيضاً عن التعليم العربي من خلال المناداة بتطويره في الجزائر وإقرار إجباريته. (الخطيب، 1986، الصفحات 231-233)

من خلال ما سبق يتضح لنا أنَّ الجزائر عرفت ظهور عدة اتجاهات تمثل الحركة الوطنية الجزائرية في الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، أي أن ظهور هذه الاتجاهات واكب الفترة الزمنية التي عاشها نموذج دراستنا في الجزائر وعمل فيها كأستاذ جامعي، كما أن هذه الاتجاهات باختلاف توجهاتها ومطالبها تعبر عن رفض الجزائريين للقوانين الفرنسية المطبقة في الجزائر وتطالب بإلغائها.

وهو ما يثبت لنا أنَّ الجزائر عرفت بروز نشاط سياسي وجمعوي كبير عكس ما أورده الباحث، غير أن هذا الأخير، وباعتباره يمثل الطبقة المثقفة الفرنسية كونه أستاذاً في جامعة الجزائر ويدافع عن نظرة الاستعمار الفرنسي، فهو لم يعترف بوجود هذا النشاط السياسي أصلاً، وبذلك فهو يثبت مدى تطرفه للثقافة الفرنسية الرافضة لكل ما هو جزائري، كما يثبت بتوجهاته هذه أن فرنسا لم تعترف أصلاً بأي حق من حقوق المجتمع الجزائري.

كما أنَّ دفاعه عن نظرية تخلف المجتمع الجزائري من خلال غياب نشاط سياسي جزائري يثبت -من وجهة نظرنا- أن الادعاءات التي برر بها استمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر بأنها تخدم المهمة الحضارية لفرنسا تناقض تماماً إثبات غياب حزب سياسي جزائري، فلو كانت فكرة المهمة الحضارية

صحيحة كما يدعي نموذج الدراسة لكانت الجزائر عرفت ظهور العديد من الأحزاب السياسية؛ فرسالة التمدين تقتضي نشر الثقافة والعلم وترقية النشاط السياسي في الدولة.

لكن الإدارة الفرنسية، رغم وجود العديد من الأحزاب السياسية الجزائرية والجمعيات ذات الطابع الثقافي، عمدت إلى مراقبة نشاطاتها ومنعها من ممارسة نشاطها في الجزائر؛ فحركة «الأمير خالد»، مثلاً، تعرضت للقمع وأُجبر رئيسها على مغادرة الجزائر، أما «جمعية العلماء» و«حزب الشعب» فقامت فرنسا بمضايقة نشاطهما وإصدار القرارات التي تقضي بمنع صدور الجرائد، أما «فدرالية المنتخبين المسلمين الجزائريين» ورغم كونها تمثل الجزائريين الذين درسوا في الجامعات الفرنسية إلا أنَّ الحكومة الفرنسية لم تُلبِّ مطالبهم.

لذلك نقول إنَّ «إميل فيليكس غوتييه» لم يكتفِ بتزييف الحقائق التاريخية فحسب بنفيه القاطع لتحضر المجتمع الجزائري وإثبات تخلفه التام، بل تعدى ذلك إلى نفي وجود تكتلات سياسية جزائرية تدافع عن مطالب المجتمع، وهذا الرأي يثبت لنا أن المثقفين الفرنسيين لم يتقبلوا أصلاً وجود طبقة جزائرية متعلمة تنافس الوجود الأوروبي في الجزائر؛ لأن الاعتراف بوجود هذه الطبقة يعني بالضرورة نفي وجود التخلف وسط الجزائريين، كما أن نفي وجود نشاط سياسي جزائري يخدم –حسب وجهة نظرنا– الآراء التي سعى إلى إثباتها نموذج دراستنا، خاصة في مسألة غياب الأمة الجزائرية وتباين أصولها، فوجود الأحزاب السياسية يعني بالضرورة وجود اتحاد بين مكونات المجتمع الجزائري، ويعني أيضاً أن هذا المجتمع يسعى إلى إثبات وجوده واختلافه عن المجتمع الفرنسي.

ونشير أيضاً إلى أنَّ نفي نموذج بحثنا لوجود أفكار سياسية جزائرية يهدف إلى إثبات استحالة تحقيق الجزائريين لأي تقدم حضاري إلا بإشراف الفرنسيين، فالفرنسيون حسب هذا التوجه هم أصحاب الحق في تأسيس الأحزاب السياسية والإشراف السياسي على تسيير الجزائر إدارياً والمشاركة في مختلف الانتخابات، أما المجتمع الجزائري فغير مؤهل تماماً لأداء هذا الدور وعليه الخضوع للسيد الفرنسي واتباع أوامره لأنه هو من سيعمل على تحقيق التقدم له، ولذلك فإن عدم وجود أحزاب سياسية بالنسبة للمؤرخ يعني أن الفكر الجزائري لا زال لم يرقَ إلى مستوى الفكر الأوروبي الحديث حتى يستطيع تأسيس أحزاب سياسية تدافع عن آرائه وتحقق مطالبه، لكن هذا الرأي كما بيّنا سابقاً منافٍ تماماً للحقيقة التاريخية ويثبت

مدى احتقاره للمجتمع الجزائري ودفاعه المستميت عن الثقافة الفرنسية وعن شرعية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

إذاً فالجزائر عكس ما يحاول «إميل فليكس غوتييه» أن يثبته من غياب الأمة والدولة الجزائرية غير صحيح، وهو طرح أراد من خلاله خدمة مصالح الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فبإثباته لانعدام أمة جزائرية يساهم في إعطاء الصبغة الشرعية لممارسات الإدارة الفرنسية في الجزائر، والإثبات للقارئ الفرنسي أنَّ ما تقوم به دولتهم في الجزائر هو خدمة عظيمة، تقوم على تأسيس الحضارة والنظام في الجزائر وتحقيق التنمية الاقتصادية لشعبها، كما أنَّ توجهاته هذه تسعى إلى تبرير الاحتلال وسياسته في الجزائر لمختلف دول العالم خاصَّة بريطانيا وأمريكا؛ لأن «غوتييه» -كما أشرنا في الفصل الثاني- كتب العديد من المقالات باللغة الإنجليزية، وادعاءه بغياب الأمة الجزائرية والدولة الجزائرية يخدم بدرجة كبيرة تحقيق هدف إقناع هاتين الدولتين بمباركة هذا الاحتلال وتأييده، واعتباره حالة طبيعية.

ثالثاً:

حتمية خضوع الجزائر والجزائري لسلطة أجنبية

من بين الأفكار الأساسية التي بنى عليها «غوتييه» نظرته للجزائر والجزائريين، فكرة غياب الدولة عبر التاريخ، وغياب الشعور بالذات والشعور الوطني المولد للتضامن بين أبناء الوطن الواحد، إلى جانب نقطة مهمة وهي أنَّ غياب الشعور بالذات والتشتت القبلي والصراع بين مكونات المجتمع الجزائري حال دون تحقيق الوحدة السياسية، مما فسح المجال لسيطرة الأجنبي على البلاد عبر التاريخ. وهذا ما يعبر عن حتمية الخضوع للأجنبي أمام عجز السُّكَّان، وأنَّهم على مر العصور كانوا على هامش التاريخ، وقد ترك ذلك الأجنبي آثاره واضحة وشاهدة في البلاد.

1 – حاجة الجزائري لأن يكون تحت وصاية سيد أجنبي

رغم تخصصه الأصلي في الجغرافيا، إلا أنَّ «غوتييه» اهتم بالتاريخ، وترك لدينا أعمالاً تاريخية مهمة، ولعل من أبرزها فيما يتعلق بتاريخ الجزائر كتاب «ماضي إفريقيا الشمالية، العصور المظلمة» (Le

passé de l'Afrique du nord les siècles obscurs). وقد خصص هذا الكتاب للعصر الإسلامي لتاريخ بلاد المغرب، وفيه يطرح العديد من التساؤلات، ويحاول إيجاد التبريرات لمختلف الإنجازات الحضارية للمنطقة خلال تلك الفترة، دون أن ينسبها لسكان شمال إفريقيا.

بحيث يُنسَب كل تنظيم سياسي (دولة)، أو إنجاز عسكري (فتوحات في إسبانيا والجزر الإيطالية)، أو حضاري للأجنبي، بحيث يقول إنَّ ما نجده في تاريخ المنطقة من بطولات وأمجاد ليس من صنع الشعوب المغاربية نفسها، بل هو مستورد من قوة أجنبية لجأ إليها سُكَّان بلاد المغرب للحصول على برامجهم السياسية حتى في حروبها الأهلية، وينكر بشكل كامل مساهمة العنصر المحلي؛ وهذا إنما يسير في السياق العام لطرح «غوتييه» في العجز الفطري والغريزي للإنسان الجزائري عن الإنتاج الحضاري، وحاجته لوصاية أجنبية، مما يوصله في النهاية إلى خلاصة شرعنة الوجود الأجنبي الفرنسي في الجزائر وشمال إفريقيا.

ولكي يشرح لنا «غوتييه» عجز بلاد المغرب عن تكوين برنامج سياسي، يحلل تاريخ العصور الوسطى، فيقول: «**المغرب لا ينجز كل هذه الأمور العظيمة بنفسه، إنَّه بطل الإسلام، وهو جزء من العالم الإسلامي، ويرتدي قناعاً عربياً، لكن خلف هذا القناع تجد قبائل كبيرة تنظم نفسها في دول كانت في أول الأمر تحت حكم الأجانب ثم تحت حكم سلاطين بربر، ليترك للبربر بعد انهيار الخلافة الأموية والعباسية فرصة فريدة لإثبات أنفسهم وتنظيم المغرب في دولة مستقلة واعية بذاتها، وهو ما يعني أنَّ المشكلة كانت قريبة إلى الحل من أي وقت مضى، ومع ذلك لم يتم حلها**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 60).

فرغم اعتراف نموذج دراستنا بوجود شخصيات مغاربية وجزائرية كان لها دور فاعل في تاريخ المنطقة، كماسينيسا ويوغرطة وغيرهما من القادة المشهورين في التاريخ، إلا أنَّه من جهة أخرى أكَّد على خاصية فريدة يتسم بها السُّكَّان، وهي في نظره تثبت عجزهم المطلق عن التعبير عن أنفسهم أو تأسيس كيان خاص بهم، فالسيد الأجنبي هو من يخوّل له قانون القوة حكم الجزائر وبلاد المغرب، وهذا بفعل تشتت تاريخ المنطقة وكثرة الصراعات التي لا نهاية لها.

بهذه الطريقة النرجسية يُقِّر «غوتييه» بالإنجازات التي حققها الإنسان المغاربي في العصر الإسلامي، والتي لا يمكن تجاهلها. لكنه من جهة أخرى ينكر أن تكون عمل الإنسان المحلي، بل هي من عمل الأجنبي، بحيث يبرز تناقضه بقوله بوجود صعوبة كبيرة في فهم هذه القرون المجيدة؛ لأنها عصور فتح فيها المغرب إسبانيا وصقلية ومصر، لذلك تمثل القرون المجيدة للمنطقة. لكنها من جهة أخرى يكتنفها الغموض؛ لأن المغرب لا ينجز كل هذه الأمور العظيمة بنفسه؛ لأنه بطل الإسلام، وهو جزء من العالم الإسلامي. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 278)

وحتى في الجانب الفكري، رغم ظهور العديد من الفقهاء المغاربة في المذهب المالكي وعلماء النحو، إلا أنَّ «غوتييه» نجده ينفي وجود مساهمة لسكان الجزائر والبلاد المغاربية في الفكر الإنساني، فبالنسبة له باستثناء بعض الشخصيات القليلة، أمثال «القديس أوغستين» و«ابن خلدون»، وما عدا ذلك فإن الحركات المذهبية التي عرفتها المنطقة طيلة التاريخ الإسلامي لم تكن وليدة جهد شخصي للسكان الأصليين، بل كانت تحت زعامة شخص أجنبي جاء من المشرق، وبذلك فإن تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا مليء بالتناقضات التي لا حصر لها ولا نهاية، كما أن تاريخه مليء بالحروب واستمرار الهيمنة الأجنبية.

فجُلُّ الإنجازات التي أنجزها سكان شمال إفريقيا، خاصةً في فترة التاريخ الوسيط، لم تكن تُعبر عن شعورهم، بل كان عملهم لحساب سيد أجنبي، ومن هذا المنطلق يُفسر لنا «غوتييه» بأنَّ الإنجازات التي قام بها المغاربة بفتح الأندلس، لم تكن لتحقيق غاياتهم، بل لتحقيق أهداف سيد أجنبي هو العربي، وهذا السيد –حسب المؤلف– جاء بعد سيد أجنبي آخر هو البيزنطي، كما أنَّ السيد العربي خلفه في حكم الجزائر سيد آخر هو التركي، وهذا الأخير جاء بعده السيد الفرنسي، وسكان الجزائر رغم مقاومتهم الشديدة لكلِّ سيد أجنبي، غير أنَّ هذا «**السيد لم يستسلم لضغط المتمردين الأهالي وأطاح بكل واحد منهم**». (Gautier, Native life in French North Africa, 1923, p. 27)

فحسب «غوتييه» تميز المجتمع المغاربي في القرون الوسطى، رغم العظمة التي بلغها بفتح الأجزاء الجنوبية من أوروبا، بأنَّه بقي متخلفاً بشكل غير منطقي عن الركب؛ وذلك بسبب العداء الذي ظهر في

المنطقة بعد نهاية الفتح الإسلامي واستمر إلى نهاية العصور الوسطى، لأن المجتمع المغاربي في هذه الفترة عرف صراعات كثيرة؛ نظراً لاستحالة إيجاد صيغة للتفاهم بين الأعداء الطبيعيين: «**وخاصة مع هذا الشكل الجديد من البربرية التي برزت بوضوح، بربرية رعاة الجمال الرحل الكبار المهاجرين من الشرق، كما أنَّ انتقال الإسلام إلى بلاد المغرب بأكمله دون أدنى تحفظ، يبرز أنَّه مهما بقي البرابرة مهيبين من الناحية العسكرية، فهم غير موجودين فكرياً ومحكوم عليهم بالتبعية، فهذا الحي لا يبني قوقعته بنفسه، بل يسكن في قواقع غيره، ولم يكن لهذا الرحالة البدائي منزل قط سوى منزل غيره**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, pp. 282-283).

فقبائل البربر طيلة العصور الوسطى كانت تجتمع دائماً حول رجل شامي هارب ذي أصل نبيل، وهو ما يبيّن أنَّ «**سيادة الأجنبي هي شيء من كل العصور وجميع البلدان، لدرجة أنَّ المثل يقول: لا نبي في بلده، ومع ذلك فإنَّ المغرب يُعدُّ مرتعاً رئيسياً لاستيراد الأنبياء. هذا البلد الذي لم ينجح عبر التاريخ وعلى مدى ألفي عام في أن يعيش حياته الخاصة، ففي مواجهته الإسلام الذي كان يغمره، كافح بأقصى درجات العنف. لكن احتجاجاته لم تتخذ طابع اللهجة الشخصية (الطابع الوطني القطري). فاللهجة الشخصية أكثر ما ينقصه، لذا نجده قد ذهب إلى بلاد الرافدين بحثاً عن أعلام وشخصيات لقيادته**». (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 337)

فبلاد المغرب حسب نموذج دراستنا لم يكن لها خيار في تسيير شؤونها الخاصة، بل عمدت إلى برنامج الغزاة العرب، كما يسميهم «غوتييه»، وتبنت هذا البرنامج ولغتهم وعاداتهم، لذلك يصر على رفض أن يكون أي إنجاز ساهم به البربر في هذه المرحلة التاريخية من عند أنفسهم، لأن الدول التي تأسست في المنطقة لم تختر حاكماً من البربر، بل عمدت إلى شخص أجنبي للحكم، فالدولة الرستمية اختارت «عبد الرحمان بن رستم»، وهو شخص فارسي لتولي الحكم في المغرب الأوسط، والدولة الفاطمية رغم أنَّها قامت بسواعد قبيلة كتامة البربرية، إلاَّ أنَّها تبنت برنامجاً سياسياً جاء به رجل من المشرق هو «أبو

عبد الله الشيعي»، وهذه النماذج حسب وجهة نظر نموذج دراستنا تثبت أنَّ بلاد المغرب عاجزة عن تكوين نفسها وتأسيس دولة مستقلة خاصة بها ببرنامج يؤسسه هذا الشعب.

كما نؤكد أنَّ هذا التوجه الذي حاول «غوتييه» إثباته عن سكان الجزائر وبلاد المغرب، خاصة في حديثه عن موقف البربر من العرب حيث يشير إلى أن سكان بلاد المغرب لما عجزوا عن مقاومة الغازي العربي كما يقول، لجأوا إلى الاستعانة بشخصيات أجنبية لمقاومة العرب، وبذلك فهو يرى أنَّ ظهور الدول الإسلامية التي سبق ذكرها (الرستمية – الفاطمية) ما هو إلا رد فعل طبيعي لبربر هدفه الأساس التخلص من الحكم العربي، فالبربر من هذا المنطلق لا يستطيعون ابتكار فكرة خاصة بهم لأنهم قوم عاجزون منحطون ممتنعون عن الرقي الحضاري، وبالتالي سهولة خضوعهم للهيمنة الأجنبية.

2 – مظاهر هيمنة الأجنبي على الجزائر عبر العصور

تناولنا في الفصل الثالث من هذه الأطروحة العديد من الأمثلة التاريخية التي قدَّمها «غوتيه» حول ما يمكن تسميته بالحتمية التاريخية لخضوع الجزائر للهيمنة الأجنبية، وإذا كان «مالك بن نبي» قد تحدَّث عمّا أسماه بالقابلية للاستعمار (وتعرَّض فيما يخص هذه النقطة لانتقادات شديدة من قِبل قادة الحركة الوطنية والثورة التحريرية) من خلال توافر مجموعة من الظروف التي تسهل عملية الاستعمار، فإنَّ «غوتييه» يذهب إلى أبعد من ذلك من خلال تصوير الحالة الاستعمارية بمثابة نتيجة حتمية، وليست حالة متولدة بفعل ضعف خلال فترة معينة.

فبلاد البربر حسب «غوتييه» لم تكن دوماً أمَّة مستقلة بذاتها، «**ولطالما كانت جزءاً من إمبراطورية، مثل ولائها للاستعمار الفرنسي، كما كانت تابعة للإمبراطورية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية مرتين، وفي عهد القراصنة الأتراك وفي عهد قرطاج، كانت هذه البلاد القارية بالكامل ولمدة قرون بمثابة أراضٍ ملحقة لمدينة بحرية أجنبية تعتمد على أسطولها، وهو شيء يثبت في رأيي عجزها عن الاعتماد على نفسها**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 67)

وباعتبار أنَّ بلاد المغرب معروفة بكثرة الصراعات بين مختلف القبائل التي تقطن فيها وعجزها المطلق عن تكوين دولة مستقلة، فهذا ما ساهم، حسب «إميل فليكس غوتييه»، في خضوعها المستمر للهيمنة الأجنبية، وهي من النقاط الأساسية التي ركَّز عليها نموذج دراستنا لإثبات وجهة نظره في غياب الأمَّة الجزائرية، حيث قال: «**إنَّ الأمر عجيب، فالمغرب لم يتمكن من الانتماء لنفسه، فمنذ القدم نرى سلسلة متواصلة من الهيمنة الأجنبية؛ خلف الفرنسيون الأتراك الذين خلفوا العرب، والذين خلفوا البيزنطيين، والذين خلفوا الوندال، والذين خلفوا الرومان، والذين خلفوا القرطاجيين، ونلاحظ أنَّ الفاتح أياً كان يبقى سيد المغرب حتى يطرده الفاتح الجديد خليفته، فلم ينجح السُّكَّان الأهالي قط في طرد سيدهم، لقد تركوا سيل الفتوحات المتواصل يتدفق عليهم عاجزين، بل يكاد المرء يقول غير مبالين، ومع ذلك ليسوا مسالمين، بل على العكس هم في جوهرهم محاربون ويحملون السلاح بأيديهم، ورجالهم العظماء هم في الغالب قادة حرب من حنبعل (Anibal) حتى عبد القادر**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 66).

لذلك فتاريخ بلاد المغرب عند دراسته أو البحث فيه بشكل معمق لا يفضي إلى وجود شيء محدد، لأن المنطقة محكوم عليها أيضاً باستمرار فشلها الدائم في تسيير أمورها إلا في ظل خضوعها لحاكم أجنبي يشرف عليها، وهذا الحاكم الأجنبي لا يتم طرده حسب رأي المؤلف إلا بعد ظهور حاكم أجنبي آخر، وهو ما يبين مدى فشل الجزائر وبلاد المغرب في تحقيق الاندماج وفشلها بالتالي في تحقيق أي تطور. (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 34)

من هذا المنطلق، يُصِرُّ نموذج دراستنا على حتمية التبعية الجزائرية لفرنسا؛ لأن هذا الاحتلال في نظره حالةٌ طبيعيةٌ تفرضها الحقيقة التاريخية، فالفرنسي لم يغير واقع الجزائر الذي تميز باستمرار الهيمنة الأجنبية؛ لأن الفرنسيين خَلَفوا الاحتلال التركي، وهؤلاء خَلَفوا احتلالاً آخر. يقول «غوتييه»: «**ولذلك في الحياة العملية ما أهمية أن يُطلق على السيد الأجنبي للجزائر اليوم اسم الفرنسي؟ لقد حلَّ محل أجنبي آخر هو التركي... وقبل التركي أجنبي آخر هو العربي، وفي الماضي البعيد البيزنطيون والوندال والرومان والقرطاجيون، فلم يُزِح الفرنسيون طبقةً حاكمةً محليةً، بل ظلت هناك خلف الكواليس غارقةً في مرارة الاستياء والندم، لم تكن هناك طبقة حاكمة محلية قط على مر آلاف السنين، إنها**

حقيقة هائلة تركت فئةً كاملةً من المشاعر دون تطوير، بالتأكيد يجب ألا نغفل عن هذا الوضع البدائي الذي سهل مهمتنا بشكل فريد». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, pp. 38-39)،

فالجزائر، حسب رأي نموذج دراستنا، تتميز بواقع تاريخي فريد عن باقي بلدان شمال إفريقيا، هذا الواقع سيطر فيه الأجانب على المنطقة لآلاف السنين، وهو ما أنتج واقعاً اقتصادياً تميز بالفشل الذريع في تحقيق أي تنمية؛ لأنها تتطلب وجود قوة سياسية تحرك المجتمع نحو التحضر، ولأن المجتمع الجزائري تميز بغياب هذه القوة الكبرى، ساهم ذلك في ارتباطها بالضرورة بواقع سياسي أعظم يهيمن على تاريخ المغرب بأكمله، لأن هذه المنطقة منذ 2000 سنة لم تنتمِ لنفسها ولو للحظة واحدة، ولم تنعم باستقلال سياسي قط؛ لأنها لا تملك الاستقلال الاقتصادي. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 93)

3 – المهمة الحضارية الفرنسية، انقاذ الجزائر من مصيرها المحكوم عليه بالظلامية

يورد «غوتييه»، مثل العديد من الكتّاب الاستعماريين، أنَّ الجزائر هي صنيعة فرنسية، فهذه البلاد لم تكن موحدة أو موجودة، ولا تشكل أي كيان، والفضل يعود لفرنسا في توحيدها وتنظيمها وإعطائها اسم الجزائر (Algérie)؛ حيث قال: «**عندما نحلّل واحدة تلو الأخرى المناطق التي تشكل الجزائر من خلال اختلاطها، نرى أنَّ هذه المناطق شديدة التنوع ولا تشكل كياناً بشرياً واحداً، ولم يكن لمجموعها اسم حتى قبل عام 1830، لذا كان من الضروري ابتكار اسم جديد تماماً**». (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 241).

ويبين «غوتييه» أنَّ الجزائر التي هي في زمنه، لا تمثّل شيئاً من دون فرنسا، ويذكر أنَّ الفرنسيين يسعون لأجل النجاح فيما فشل فيه من سبقهم من المحتلين، وهو تطوير البلاد وتنظيمها، حيث قال: «**في أواخر العصور الوسطى ظهر الإسبان ثم الأتراك ثم نحن، كانت محاولة لتحقيق ما فشلوا فيه، أنَّ الأجنبي وحده قادر على إحياء الجزائر، فإذا غادرنا نحن لم يبقَ شيء**». (Gautier, Notes

prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la .Faculté des lettres d'Alger Année 1921, 1921, p. 68)

وهذا الخطاب الذي نجده لدى «غوتييه»، نجده يتكرر لدى كل المستعمرين، الذين يرون أنَّ الجزائر صناعة فرنسية، ويشيدون «بإنجازاتها الحضارية»، ثم يؤكدون أنَّ المهمة الحضارية لم تستكمل، ولذلك فالضرورة تتطلب بقاء الفرنسيين في الجزائر، لأجل الاستمرار في المهمة الحضارية؛ لأنَّ مغادرة الفرنسيين للبلاد ستؤدي إلى عودتها لحالتها الطبيعية والفوضوية.

ومن منطلق هذا التخلف الحضاري عن الركب، يصل نموذج دراستنا إلى استنتاجات أساسية تبرر، حسب وجهة نظره، سبب قدوم الفرنسيين إلى شمال إفريقيا؛ إذ يعود إلى سببين: أولهما تاريخي محض يتجسد في استمرار الهيمنة الأجنبية على المنطقة، فالفرنسيون لم يقوموا بفرض أنفسهم، بل استغلوا تخلف السكان وتعودهم على الهيمنة الأجنبية لتعويض الأسياد الأتراك، أما السبب الثاني فهو تحقيق الغاية الحضارية ونقل السكان من حياة البؤس إلى حياة الرفاهية والتحضر. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, p. 175)

وهكذا وبكل بساطة يحكم «غوتييه» على الجزائريين بحتمية الخضوع للاستعمار، باعتبار أنَّ المجتمع يتكوَّن من مجموعات غير متجانسة، لا في اللغة ولا في الأصل؛ حيث يقول: «**لدينا هنا من جهة المستعمر بقوته العددية وتفوقه السياسي والاجتماعي، ومن جهة أخرى مجتمع الأهالي المتشرذم بشكل غير اعتيادي إلى مجموعات غير متجانسة تفصل بينها أحقاد قديمة، أنَّه وضع مثير للإعجاب يبدو أنَّ الظروف المادية تجعل تأثير المستعمر سهلاً وعميقاً**». (Gautier, L'évolution de .l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 33)

ومنه فالفرنسيون عقب دخولهم المنطقة –كما يقول نموذج البحث– لم يجدوا فيها سوى التخلف والفقر، وأغلب المنازل كانت عبارة عن أكواخ أو خيام مؤقتة؛ لأن السُّكَّان ألفوا حياة البداوة والارتباط الوثيق بالأرض. لكن مجيء الفرنسيين غيَّر وجه المنطقة بشكل كامل؛ حيث ساهموا في جلب الثروة للمنطقة عن طريق رؤوس الأموال، وبالتالي فهم لم يجدوا أي منافس لهم في هذه الأرض، وعملوا على استغلالها بما يحقق الرفاهية للسُّكَّان عن طريق استقدام المستوطنين، وإنشاء العديد من المراكز

الاستعمارية في المنطقة لضمان تحقيق تطور اقتصادي شامل لها. (Gautier, l'Afrique Blanch, 1939, pp. 188-190).

كما أنَّ سُكَّان الجزائر في تخلفهم وبدائية حياتهم اليومية، لم يقوموا بتطوير أساليب تربية الماشية، بل «**حافظوا على أقدم التقاليد ويرعون مواشيهم بنفس الأساليب التي اتَّبعها النبي يعقوب مع خاله لابان، ونحن لا نتطور مع النصائح الجيدة لرجال يمثلون أقدم حضارة في العالم**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 64). ولذلك بقيت الجزائر في تخلفها الزراعي البدائي الذي يعتمد على ترك الزرع وأشجار الزيتون دون تدخل أو اعتماد على الأسمدة، والواجب على الفرنسيين باعتبارهم من العرق الأوروبي المتحضر تدريب هذا المجتمع على أساليب الزراعة الحديثة؛ لأنَّه «**لا يمكن تطبيق الأساليب الأوروبية إلاَّ من قبل أوروبي حقيقي، يشارك في تدريب السُّكَّان الأهالي، لأن النصيحة لا تجدي نفعاً**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 49).

فالجزائر، حسب رأي نموذج دراستنا، تم غزوها من طرف الجيش الفرنسي، ولم تصمد إلاَّ بالجيش الفرنسي، والإنسان المستوطن العملي يدرك ذلك تماماً، ولذلك يؤكد نموذج دراستنا على أنَّ الجزائريين يسحقون تحت الحذاء؛ لأن شمال إفريقيا منذ ألفي عام لم تكن قادرة أبداً على تنظيم نفسها وسلامها دون مساعدة الأجنبي. (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 11).

ومن ذلك يتضح لنا أنَّ «غوتييه» يؤكد وجوب خضوع الجزائر في التاريخ المعاصر للتبعية للفرنسيين، كما قبلوا من قبل التبعية للأتراك والعرب والبيزنطيين والوندال والرومان والقرطاجيين، لذلك فهم عاجزون عن تحقيق ذواتهم أو تسيير شؤونهم، وهذا العجز حسب رأي نموذج دراستنا ليس وليد مرحلة تاريخية واحدة، بل هو ضارب في أعماق التاريخ، لأن الجزائر منذ فجر التاريخ عانت من عجزها الدائم عن تنظيم مواردها العسكرية اللازمة للنظام العام. (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 167)

لذلك غلبت خاصية التخلف على حياة المجتمع التي استمرت في الانحطاط والتخلف أكثر، رغم ما بذله الفرنسيون من جهود لتطوير حياتهم وتحسين مستوى معيشتهم، وهذا المستوى المنحط الذي ركَّز على إبرازه نموذج دراستنا جاء من منطلق قيام الجزائريين بتصرفات اعتبرها غريبة، حيث أشار إلى حادثة وقعت لأحد الأطباء الفرنسيين الذي ذكر بأنَّ شخصاً من البربر ذهب للطبيب الفرنسي، بعد أن تلقى ضربة على معدته، فوجد الطبيب أنَّ هذا المريض مستلقٍ عند سفح شجرة تين ملفوف في برنسه القذر وسط طنين الذباب، وعند قيام الطبيب بالعملية كانت البراغيث تتطاير من جسد المريض، لكن بعد مرور ثمانية أيام جاء هذا المريض إلى الطبيب على ظهر بغلة لإزالة غرزه. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 19).

ويصل «غوتييه» إلى خلاصة مفادها أنَّ غياب شعور مشترك عبر التاريخ واستمرار الهيمنة الأجنبية هو ما ميز تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا، وهي الهيمنة الأجنبية التي تبرر خضوع الجزائر للاحتلال الفرنسي؛ لأن هذا الاحتلال لم يغير شيئاً مألوفاً لدى سُكَّان المغرب، وهو خضوعهم لسيد أجنبي، والفرنسيون قاموا بطرد سيد أجنبي هو التركي، والَّذي كان قد طرد سيداً آخر هو العربي، وهذا الأخير حل محل سيد أجنبي أوروبي هو البيزنطي وقبله الوندالي وقبله الروماني وقبله القرطاجي، فالفرنسيون من هذا المنطلق لديهم الحق في الهيمنة على هذه البلاد؛ لأنَّهم جزء طبيعي يفرض نفسه على تاريخ المنطقة، وهو حتمية تبعيتها للأجانب. (Gautier, L'Algérie du Centenaire, 1930, p. 65).

علاوة على ذلك، ربط «إميل فليكس غوتييه» بين تحضر الجزائريين وزيادة عدد المستوطنين، وحث الإدارة الفرنسية على زيادة حجم الاستيطان الأوروبي؛ لأنَّه الوسيلة المثلى لتطوير الجزائريين وتثقيفهم، حيث قال: «**عندما نحاول أن نفهم الظاهرة الاستعمارية في الجزائر، لابد أن نضع في المقام الأول الجيل الجديد من المستوطنين المتجذرين في الأرض، فالمستوطن هو عامل التغيير والعنصر البشري الذي لا غنى عنه، فلولاه ولولا نشاطه الفردي المتضاعف بتكاثره، ولولا تأثيره، لما تخمرت العجينة**». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 165).

لذلك اعتبر «غوتييه» وجود المعمّرين في الجزائر بمثابة حقيقة مطلقة لا يمكن الاستغناء عنهم؛ فمن خلال اتصالهم بالجزائريين سيتركون أثراً كبيراً فيهم، فالاتصال بين شعبين سيجعلهما يتفاعلان فيما بينهما، كما أنَّ حضور الاستيطان سينتج عنه لا محالة تطور اقتصادي كبير للمناطق التي يستقر بها الأوروبيون؛ لأن مجرد تواجدهم سينتج عنه انتقال للثروة المالية وبروز لمختلف الصناعات، وبالتالي تحسين وضع الشعب الجزائري ونقلهم من دائرة الفقر إلى دائرة الرفاهية الاقتصادية، حيث يقول: «**توجد في الجزائر طبقة عامة ريفية ورعوية، وللإشراف على هذه الطبقة لا يوجد سوى 833 الف مستوطن، وهم الطبقة البرجوازية المستقرة**». (Gautier, L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930, 1930, p. 30).

وهو ما يثبت لنا أنَّ «غوتييه» له وجهة نظر مدافعة عن الاستيطان؛ لأنَّه يراه الوسيلة المثلى لتحقيق استمرار الهيمنة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وتحقيق اندماج حقيقي للجزائريين، وبالتالي القضاء على كل فكرة استقلال الجزائر وانفصالها عن فرنسا.

ومن هذا المنطلق حكم «غوتييه» على الجزائر وشمال إفريقيا بحتمية خضوعها لغزاة أجانب، وآخر هؤلاء الغزاة حسبه هم الفرنسيون، الذين سيساهمون في نقل ثروات الجزائر وبلاد المغرب من حالة الركود إلى حالة الديناميكية، فهم الذين يملكون حسن النظام وفعاليته، خاصَّة تنظيم رأس المال والإنتاج واسع النطاق والتصدير، وهي شروط لا تستطيع بلاد المغرب توفيرها بنفسها، بل لا بد من توفر محرك يشرف على هذه العملية، و«**بلاد المغرب باعتبارها بلاداً تحتضر فيها جميع الأقاليم، ومحكوم عليها بسبب مناخها بعدم الاكتفاء الذاتي وتحقيق التنمية الاقتصادية، وهو ما يعني أنَّ اجتماع هذه الظروف الاقتصادية والسمة المميزة لتاريخ المغرب المليء بالنزاعات والصراعات، هو ما جعل هذه المنطقة تعجز عن تكوين دولة مستقلة**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 60)

فالإخفاق السياسي حسب «غوتييه» لا ينعكس على حياة الجزائريين فحسب، بل ينعكس أيضاً حسب رأي الباحث على الإدارة الفرنسية التي تسعى حسبه لترقية حياة السُّكَّان؛ لذلك، لأن التخلف الذي وصل إليه السُّكَّان يمنع الفرنسيين من تحقيق غرضهم الإنساني، لكن الضمير يملي على

الفرنسيين القيام بعمل ذي معنى في الجزائر وإخراج أهلها من حياة التخلف إلى حياة التطور والازدهار، لأن «**القلق على هيمنتنا في نهاية المطاف ليس هو السائد، بل الأمر يتعلق بالوفاء بمسؤوليتنا والقيام بعمل ذي معنى، وهو بناء المغرب لأول مرة**». (Gautier, Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, p. 70)

فالمهمة الملقاة على عاتق فرنسا، والتي وجب عليها التكفل بها بعد إخضاعها للجزائر وتعويضها لسيد أجنبي آخر هو التركي الذي لم يقدِّم للجزائر شيئاً، لأنَّه بقي غريباً عنها طيلة ثلاثة قرون، ويتحدث «غوتييه» عن «المهمة الحضارية الفرنسية mission civilisatrice»، في إنقاذ الجزائر من مصيرها المحتوم، والمحكوم عليه بالظلامية بقوله: «**فرنسا باعتبارها صاحبة مبدأ وضمير حي وجب عليها تغيير هذا الوضع بالعمل على تأسيس برنامج يساهم في رقي الجزائر حضارياً، لأنَّها الوحيدة القادرة على إنجاز ذلك، فإذا لم تقم به فإنَّه يُحكم على الجزائر وشمال إفريقيا بالموت المحتم**». (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 55)

فالسيد الفرنسي، بناءً على الاشكالية التي جاء بها نموذج دراستنا، هو المقدّر له من بين باقي الأسياد الأجانب الذين حكموا الجزائر أن يساهم في إخراج الجزائر وبلاد المغرب وحتى قارة إفريقيا من عصر التخلف الحضاري إلى عصر الأنوار والتحضر، عصر الصناعات الكبرى والاختراعات. يقول «غوتييه»: «**لقد كانت مهمتنا، وهي مهمة جسيمة، هي الخلق المادي لشمال إفريقيا، فقد كان وجودها ضئيلاً للغاية قبلنا، لدرجة أنَّه لا اسم لها خارج هذه العبارة، مع أنَّها تشكل تكتلاً طبيعياً ببنيتها ومناخها وعاداتها، وقد اكتمل عملنا من أغادير إلى تونس. إنَّها لحظة حرجة عندما ننجز برنامجاً، لأن الركود مستحيل علينا، أمَّا التقدم أو التراجع، وهذا يعني أنَّ الاستسلام هو انهيار لعمل لن ينجو بعدنا**».. (Gautier, Menaces sur l'Afrique, 1934, p. 55).

علاوة على ذلك، فشمال أفريقيا أو بلاد المغرب تميزت بالتباين الكبير في تحديد تسميتها، وهذا باعتبار أنَّ بلاد المغرب حتى في تسميتها لا يوجد اسم متفق عليه عالمياً، لأنَّها لم تكن ذات وجود سياسي مميز، وبالتالي لم يُدوَّن تاريخها، فلا تاريخ يثبت وجودها ككيان مستقل بذاته، فهي مستعمرة قرطاجية أو رومانية ووندالية أو بيزنطية في مرحلة التاريخ القديم، ثم خضعت للتبعية العربية وبعدها التركية،

وبذلك فهي حتى في اسمها تابعة لغيرها من الدول التي استعمرتها منذ القدم. (Gautier, Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs, 1937, p. 7)

وما زاد من تعقيد الوضع الديمغرافي للجزائر أنَّه إلى جانب الاختلافات بين مكوناته البشرية، أضيفت إليها اختلافات أكثر بدخول العنصر الأوروبي والفرنسي كمكون جديد للمجتمع، وحسب «غوتييه» فإنَّ هذا الصراع الذي عرفته الجزائر إبَّان العصور الوسطى نتيجة اختلاف مكونات مجتمع الجزائر، لا يزال مستمراً إلى عهد الاحتلال الفرنسي، خاصَّة وأنَّ الهجرة الفرنسية والأوروبية ساهمت في تضخم مشكلة التناسق بين مكونات هذا المجتمع؛ لأنَّه أصبح يشبه لوح الشطرنج «**فسيفساء، فهناك عشرون عشيرة صغيرة مغلقة منظمة لتحقيق الاكتفاء الذاتي ويتجاهل بعضها البعض، وهناك مجموعة إسبانية ومجموعة إيطالية ومجموعة فرنسية، وداخل كل منها مجموعة فرعية، الجزائر غبار متناثر من مجموعات بشرية صغيرة، ومن السهل أن نفهم أنَّها لا يمكن أن تكون كتلة أو جمهوراً يهتز بانسجام عند أدنى نداء، لأن الاندماج لم يكتمل بعد**». (Gautier, L'Algérie et la métropole, 1920, p. 179)

هذا الطرح الذي يعرضه «غوتييه» بالنسبة للمجتمع الأوروبي لا يخلو من الحقيقة، بحيث لم يكن المجتمع الاستعماري متجانساً بين عناصره، وكانت تسوده منافسات، كثيراً ما تظهر في المناسبات الانتخابية، حيث تلعب الأصول التي ينحدر منها المترشح دوراً حاسماً في تحديد هوية الفائز في الانتخابات. غير أنَّه بمرور الوقت، أخذت مكونات ما يسمى اليوم بالأقدام السوداء بالانصهار في بوتقة مجتمع استعماري مهيمن، ويعيش بشكل منفصل عن المجتمع الجزائري.

لكن «غوتيه» يحاول أن يصور لنا وجود عناصر عدة تشكل المجتمع الجزائري، سواء بالنسبة للسكان الأصليين أو السكان المعمرين، بحيث يعتبر أن ذلك التباين وعدم التجانس هو ما يؤدي إلى استحالة تشكيلهم لأمة متناسقة ومشروع دولة وطنية موحدة. هذه الفكرة حول تعدد الأجناس المشكلة للمجتمع الجزائري تبناها الحزب الشيوعي الفرنسي والجزائري، خصوصاً بعد الخطاب الذي ألقاه «موريس توريز Maurice Thorez» حينما زار الجزائر سنة 1939، وتحدث خلاله عن أمة في طور التكوين مشكلة من عشرين عرقاً، والتي يجب أن تترعرع في أحضان فرنسا.

وهذه الخاصية هي التي تسمح لفرنسا بممارسة مهمتها في إدارة الجزائر، في ظل مجتمعين مختلفين، مجتمع استعماري متفوق تقنياً واجتماعياً وسياسياً، ومجتمع أهلي مشتت ومتشرذم وغير متجانس، حيث يقول: «**لدينا من جهة المستعمر بقوته العددية وتفوقه السياسي والاجتماعي، ومن جهة أخرى مجتمع الأهالي متشرذم بشكل غير عادي إلى مجموعات غير متجانسة تفصل بينها أحقاد قديمة، إنَّه وضع مثير للإعجاب ويبدو أنَّ الظروف المادية تجعل تأثير المستعمر سهلاً وعميقاً**». (Gautier, Un siècle de colonisation études Au microscope, 1930, p. 202).

فالمجتمع الاستعماري في الجزائر في حقيقته هو الَّذي ينحدر من أصول أوروبية مختلفة، ويتميز بعدم التجانس بين عناصره، كونه مكوناً من مهاجرين قادمين من دول مختلفة؛ فهم لا تجمعهم أيّة روابط إلاَّ المصالح المشتركة التي تقوم على إبقاء الأهالي في وضعهم الدوني والمستغَل.

و«غوتييه» حينما يتحدث عن التفوق الاجتماعي والسياسي، يشرعن للوضع الاستعماري الذي أوجد حالة غير طبيعية، بحيث إن الأقلية الديموغرافية الأوروبية التي تمثل عشر سكان الجزائر، كانت أغلبية سوسيولوجية مهيمنة سياسياً، مثلما تهيمن على الاقتصاد؛ ذلك لأن النظام الانتخابي القائم على التمييز العنصري دائماً ما يمنح الأغلبية في مختلف المجالس للعنصر الأوروبي، مما يمنحه وضع المجتمع المتفوق والمهيمن الذي يوجه الميزانية لخدمة مصالحه الخاصة. بالنسبة لـ«غوتييه» الذي دائماً ما يتحدث عن العجز الفطري للإنسان الجزائري عن إدارة شؤونه، واستغلال موارد وثروات بلاده، فإن هذه الوضعية جد طبيعية، ولا تستدعي أي مصلحة لإصلاحها، وهذا ما يعبر عن تبرير الهيمنة الاستعمارية.

من خلال ما سبق يتضح لنا مدى تعصب نموذج دراستنا لاستمرار الهيمنة الفرنسية على الجزائر، ونفيه القاطع لأي إمكانية لتحقيق الجزائر استقلالها خارج الإشراف الفرنسي، كما يتبين لنا مدى ضخامة العنصرية التي ينظر من خلالها للجزائريين وللعرب عامة، من خلال الحكم عليهم بالتخلف واستمرار الخضوع للرجل الأوروبي الأبيض، الذي يملك حسبه مفتاح التفوق والتقدم واستغلال ثروات البلاد وفق ما يحقق الرفاهية للسكان.

غير أنَّ هذه الإشكالات التي دافع عنها «غوتييه» في مختلف مؤلفاته تضفي صبغة تبرير الاحتلال الفرنسي للجزائر والدفاع عن رسالته الحضارية للمنطقة، ولذلك وجب علينا نقد هذه التوجهات

وكشف المغالطات التي حاول نموذج البحث تمريرها عن الجزائر والمجتمع الجزائري، وهو ما سنعالجه في المحور الموالي.

4 – دحض ادعاءات غوتييه في مسألة حتمية خضوع الجزائر للاستعمار الأجنبي

إنَّ المتعمق في الآراء التي حاول «إميل غوتييه» إثباتها حول المجتمع الجزائري، من إنكار لوجود الأمة والدولة الجزائرية، وحتمية خضوع المنطقة للاحتلال الأجنبي، هي في الحقيقة أفكار منطقية بالنسبة لما أورده نموذج دراستنا من إشكاليات عن المجتمع الجزائري؛ لأنَّه حسب توجهاته كان يهدف بالأساس إلى إثبات التبعية الجزائرية عبر التاريخ للأجانب، فانتماء الجزائر للعالم الإسلامي إبان العصور الوسطى في نظره تبعية لقوة أجنبية، وكل الدول التي تأسست في المنطقة منطلقها أفكار مستوردة من المشرق.

وقد بيَّنا فيما سبق أنَّ رابطة الإسلام التي كانت تجمع المسلمين لم يُعرها نموذج دراستنا أدنى اهتمام؛ من منطلق عدم فهمه العميق للإسلام وشريعته التي تنادي بالتسامح والتعايش بين الشعوب باختلاف أجناسها وألوان بشرتها ولغتها، عكس الطرح الذي ساندَه «غوتييه»، الذي يساند وبقوة فكرة تفوق العنصر الأبيض وتقدمه حضارياً على باقي شعوب العالم، كما أنه من جهة أخرى متعصب للديانة المسيحية، ويحاول إثبات أنها الديانة التي تحث على التفكير وتشجيع العلم.

وبالإضافة إلى ذلك نقول إنَّ «غوتييه»، خاصة في كتابه «ماضي شمال إفريقيا القرون المظلمة»، صوَّر لنا تاريخ المنطقة بصورة سوداوية للتأكيد على همجية العرب والمسلمين وإثبات تحضُّر الأوروبيين، ومدى المساهمة الحضارية التي قدَّموها للجزائر وشمال إفريقيا منذ العهد الروماني حتى الاحتلال الفرنسي، وهذا الدفاع المستميت عن الحضارة الغربية وإنجازاتها بمقابل نفي مساهمة العرب والمسلمين، يُعطي الصبغة الشرعية للهيمنة الأوروبية على قارة إفريقيا بصفة عامة.

كما أنَّ الادعاءات التي أوردها نموذج دراستنا في مسألة إثبات حتمية التبعية الجزائرية للأجانب، وخاصة غياب مدن كبرى تكون مركز استقطاب سياسي لتحقيق الوحدة في الجزائر، فنقول إن هذا الطرح حتى وإن كان ينطبق على جزء كبير من المدن الجزائرية في القرى والمناطق الصحراوية، فهذا لا يعني عدم وجود مراكز عمرانية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، ومن أمثلة ذلك نذكر مدينة الجزائر العاصمة،

و«قسنطينة»، و«تلمسان»، و«تيهرت»، و«ندرومة»، و«بجاية»، وغيرها من المدن التاريخية، التي ساهمت بشكل كبير في تكوين الدولة الجزائرية عبر التاريخ، وأعطت للجزائر مكانتها التاريخية والعلمية في حوض البحر الأبيض المتوسط في فترة التاريخ الوسيط والحديث.

فمثلاً نجد الرحالة «الحسن الوزان» وصف مدينة تلمسان بأنها مدينة كبيرة فيها مساجد عديدة وجميلة، وفيها 5 مدارس والعديد من الحمامات وفنادق على النمط الأفريقي، كما تشتهر بأنها مركز التجار والصناع والطلبة، (الوزان، 1983، الصفحات 17-21). أما مدينة وهران فوصفها بأنها مدينة متحضرة فيها مساجد ومدارس وملاجئ وفنادق ومؤسسات. (الوزان، 1983، صفحة 30)

في حين وُصفت مدينة الجزائر بأنَّ «**فيها دوراً جميلة وأسواقاً منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص، وفيها عدد كثير من الفنادق والحمامات... ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه**» (الوزان، 1983، صفحة 37). ووُصفت أيضاً مدينة قسنطينة بأنها مدينة متحضرة جداً مليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة والجوامع والمدارس والزوايا، فيها جميع الحرف وعدد كبير من التجار، وذكر بأن قسنطينة يحيط بها العديد من الأراضي الزراعية تنتج ثلاثين ضعفاً ما يزرع فيها. (الوزان، 1983، الصفحات 55-58)

وهذه الأوصاف التي قدمها لنا «الحسن الوزان» تشرح لنا حال وضع هذه المدن قبيل انضمام الجزائر للحكم العثماني، وتوضح لنا كذلك ضخامة حجم المدن الجزائرية في تلك الفترة الزمنية وما عرفته من رخاء اقتصادي بما يضمن الحياة الكريمة للسكان، وتبين لنا انتشار الصناعة الحرفية في مختلف مدن الجزائر بالإضافة إلى ازدهار التجارة والفلاحة خاصة المعاشية، وتشرح لنا مدى اهتمام سكان المدن بتنظيم مدنهم وضبط تخطيطها من خلال التقسيمات الخاصة بالحمامات والحرف والأسواق وغيرها من الضوابط التي كانت تساهم في خدمة سكان المدينة وتسهل حياتهم اليومية.

كما نجد أنَّ العديد من الرحالة الفرنسيين الذين جاؤوا إلى الجزائر في فترة الحكم العثماني قدموا كذلك وصفاً للعديد من المدن، ومن ذلك الوصف الذي قدمه الرحالة الفرنسي «**نيكولاس دي نيكولاي**

Nicolas de Nicolay» والذي أشرنا إليه في الفصل الأول لهذه الدراسة، حيث صور لنا ضخامة هذه المدينة والصناعات التي تنتشر فيها. (De Nicolay, 1568, pp. 2-14)

إذاً فالجزائر، ومن خلال ما سبق، عرفت ازدهار العديد من المدن منذ فترة ما قبل التاريخ، وادعاء المؤرخ «غوتييه» بغيابها وانتشار التخلف والحياة البدائية لا أساس له من الصحة؛ فالوصف الذي قُدّم لهذه المدن في العهد العثماني يعطي لنا صورة واضحة عن حجم الازدهار الذي بلغته هذه المدن في تلك الفترة الزمنية، كما نقول أيضاً بأن هذه المدن في حجمها وازدهارها الحضاري كانت تفوق ما كانت تعرفه مدن فرنسا والدول الأوروبية في فترة العصور الوسطى.

ورغم ذلك، نؤكد أن هذا الازدهار الذي عرفته العديد من المدن، سواء في فترة التاريخ الإسلامي أو فترة الحكم العثماني، لا ينفي وجود مشاكل وتوترات في المجتمع، وغياب اهتمامهم بالجانب الفلاحي والصناعي بشكل كبير؛ حيث يذكر «الحسن الوزان» أن سكان مدينة قسنطينة مثلاً، رغم وجود العديد من البساتين قربها، إلا أن إنتاجها قليل جداً لأن السكان "**لا يحسنون خدمتها**". (الوزان، 1983، صفحة 58)

كما لا ننفي أن المجتمع الجزائري في العهد العثماني لم يعرف تحسنا في وضعه الفلاحي والاقتصادي، بدليل انتشار العديد من الأوبئة والمجاعات، وهذا بسبب غياب اهتمام الحكام العثمانيين بالجانب الاجتماعي للجزائريين وتركيزهم على الجانب الإداري والعسكري فقط. ونؤكد من جهة أخرى أن هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي، رغم أنه كان ضعيفا بالمقارنة بما تميزت به أوروبا بعد الثورة الصناعية، إلا أنَّ جل المصادر والمراجع تؤكد باستقرار الوضع العام للمجتمع الجزائري حيث كان أفضل بكثير مما أصبح عليه بعد احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر. (عميراوي، زاوية، و زغداوي، آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830- 1954، 2007، الصفحات 12-15) .

بالإضافة إلى ذلك، نقول إنَّ جُلَّ المشاريع التي تباهى بها نموذج دراساتنا بأنها تسعى إلى تقدّم المجتمع الجزائري وتحقيق الرفاهية له والعمل على تخليص الجزائريين من حياة البداوة إلى عصر الاختراعات والصناعة، غير أنَّ هذا الرأي مجانب للصواب تماماً؛ حيث إنَّ الفرنسيين لم يبذلوا أي جهود لتحقيق اندماج فعلي بينهم وبين المجتمع الجزائري، فحتى أولئك الجزائريين الذين تمدرسوا في الثانويات

والجامعات الفرنسية لم يُتح لهم نيل كل الحقوق التي كان يتمتع بها أي مواطن فرنسي، وفي هذا الصدد يقول أحد أبرز أعضاء الاتجاه الإدماجي في الجزائر، «فرحات عباس»: «...**حاول هؤلاء الأوروبيون أن يحلوا في كل مكان، وبكيفية منظمة وضارية محل شعبنا، واختل النظام القبلي وآلت أسر كانت أحوالها ميسورة إلى حالة التسول، ووقعت أسر أخرى ضحايا مرابين أمسكوا بخناقها**...» (عباس، الشاب الجزائري، 2007، صفحة 19)

كما يؤكد «فرحات عباس» أيضاً أن المجتمع الجزائري، برغم هذه الأوضاع المزرية والقوانين الجائرة التي صدرت لقمعه، خاصة قانون التجنيد الإجباري، قد بقي محافظاً على تقاليده رفضاً للسياسة الفرنسية، وأن التخلف الذي كان يعيشه الجزائريون بعد الاحتلال هو رمز للنضال والمقاومة للثقافة الفرنسية التي حاولوا فرضها على المجتمع الجزائري؛ لأن الاحتلال الفرنسي في طبيعته تركز على نهب ثروات الجزائر بالقوة، أما الذرائع التي جاء بها «غوتييه» وغيره من منظري استمرار الاحتلال، خاصة نقل الحضارة إلى الجزائر، ما هي إلا ذرائع تخفي حقيقة الاستغلال الاقتصادي للجزائر وثرواتها لخدمة مصالح الفرنسيين فقط. (عباس، ليل الاستعمار، 2005، صفحة 30)

علاوة على ذلك، نقول إنَّ الجزائريين الذين فرضت عليهم فرنسا الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي منذ سنة 1912 لم يُراعَ موقفهم، ولم يكن تجنيدهم يتم إلا بالقوة، كما أنَّ هؤلاء المجندين أغلبهم لم يتلقَّوا أي تعليم. يقول «فرحات عباس»: «...**إن 9160 من الذين ماتوا من الأهالي وهم يؤدون واجبهم، لا يوجد بينهم إلا 21 ممن يحسنون القراءة والكتابة فحسب، 21 فقط ممن كانوا تلقوا بعض حقوقهم... أما الآخرون فقد انتزعوا من أكواخهم ليسلحوا ببندقية ويذهبوا للقتال**...». (عباس، الشاب الجزائري، 2007، صفحة 43)

وهو ما يثبت لنا أنَّ ما حاول نموذج بحثنا إثباته من سعي فرنسي إلى تمدين المجتمع الجزائري بفرض الخدمة العسكرية على الجزائريين دون توفير أدنى الحقوق لهم، خاصة الحق في التعليم، يبين لنا أن جل المشاريع التي نُفذت في مجال التعليم في الجزائر تخدم بالدرجة الأولى المستوطنين الأوروبيين، كما أن جل المشاريع العمرانية والصناعية لم تخرج هي الأخرى عن الغاية الأساس، وهي تنمية الاستعمار الفرنسي

واستغلال الثروات والسكان وفق ما يخدم هذه الغاية بالدرجة الأولى، ووفق ما يخدم أيضاً الدولة الفرنسية بصفة عامة.

هذا بالنسبة لتفنيد ادعاءات «غوتييه» النافية لوجود رقي حضاري في الجزائر قبل الاحتلال، أما بالنسبة للادعاءات التي عمد إلى إثباتها بأن فرنسا تسعى إلى تطوير المنطقة وتحسين مستوى معيشة سكانها والقضاء على التخلف، فنقول إن هذا الادعاء باطل لأن المؤرخ لم يشرح لنا سبب اهتمام الفرنسيين بتصدير ثروات الجزائر نحو المدن الفرنسية، فإذا كانت الغاية الأساس تحقيق تقدم الشعب الجزائري فالأولى توفير ما يحتاجه من ضروريات في حياته، خاصة توفير الغذاء، فلو صدق ما ذهب إليه ما تعرضت الجزائر كما ذكرنا سابقاً إلى مجاعة سنة 1921م التي آثر فيها الفرنسيون تصدير القمح إلى مرسيليا عوض توفيره لمن يموتون جوعاً، كما نقول أيضاً إن الفرنسيين في الجانب الاقتصادي اهتموا بالمنتجات التجارية بصورة كبيرة، خاصة زراعة الكروم وإنتاج الخمر وغيرها من الصناعات التي تخدم الاقتصاد الفرنسي.

غير أنَّ المتتبع لما طبقه الفرنسيون من إجراءات ضد المجتمع الجزائري، خاصة في المجال الاقتصادي، سيجد أن إدارة الاحتلال تفننت في مصادرة أراضي الجزائريين ومنحها للمستوطنين، ونموذج دراستنا يدافع عن هذه السياسة من منطلق أن الجزائريين لا يحسنون استغلال هذه الأراضي بما يحقق الرخاء الاقتصادي للدولة وينشط الحركة التجارية، لذا كان لزاماً نقل ملكية هذه الأراضي إلى المستوطنين، وهي الإجراءات التي ساهمت في انتقال حال الجزائريين من سيئ إلى أسوأ؛ فانتزاع الأراضي الخصبة ومنحها للمستوطنين جعل الفلاحين في الجزائر ينتقلون من مُلّاك للأراضي إلى مجرد خماسين أو عمال فقط في الأراضي الفرنسية.

إذا ومن خلال ما سبق طرحه نقول إنَّ ما ذهب إليه نموذج بحثنا في إثبات تخلف المجتمع الجزائري ونمط حياته البدائي كان بالأساس يعتمد على توفير ما يحتاجه المجتمع من مواد سواء في الفلاحة أو الصناعة أو عملية التبادل التجاري، ورغم أن هذا النمط كان متخلفًا عما عرفته أوروبا من تطورات اقتصادية وصناعية إلا أنه كان يلبي الضروريات الأساسية للسكان في العهد العثماني.

كما نؤكد من خلال هذه الدراسة أيضاً أنَّ التوجهات التي تبناها «إميل غوتييه» في مختلف مؤلفاته عن تاريخ الجزائر وعن المجتمع الجزائري كانت تهدف بالأساس إلى خدمة مصالح الاحتلال الفرنسي، فالأبحاث التاريخية التي سعى من خلالها إلى إثبات إشكالية غياب الأمة الجزائرية تهدف إلى إعطاء الصبغة الشرعية للاحتلال الفرنسي وتبرير كل الممارسات القمعية التي يمارسها هذا الاحتلال على الجزائريين. كما نقول أيضاً إن هذا الباحث –ومن خلال الرحلات والدراسات الجغرافية الطبوغرافية التي كلف بإنجازها في الصحراء الجزائرية وفي مختلف المناطق– كان يهدف إلى اكتشاف ثروات الجزائر واستغلالها لترقية الاقتصاد الفرنسي، واستدلال المؤرخ بارتفاع حجم الصادرات الجزائرية نحو الخارج، خاصة نحو مرسيليا، يبين لنا أن فرنسا لم تكن تسعى بأي شكل من الأشكال إلى تطوير اقتصاد الجزائر وتحسين مستوى معيشة السكان، بقدر ما كانت تهدف إلى نهب ثروات الجزائر.

كما نؤكد أيضاً أنَّ «غوتييه»، رغم سعيه الحثيث لإثبات تفوق العنصر الأوروبي في الجزائر، والادعاء بأن وجود هذا العنصر ضروري لتدريب السكان ونقلهم من حياة التخلف إلى حياة التحضر، وأن الفرنسيين يعملون جاهدين من أجل تحقيق الاندماج بين العنصر الأوروبي والجزائري، إلا أنه من جهة أخرى يدافع وبقوة عن ضرورة إبقاء التفوق العددي للفرنسيين في الجزائر على حساب الأجناس الأوروبية الأخرى، التي استعانت بها سلطات الاحتلال الفرنسي لتثبيت أركان احتلالها الاستيطاني في الجزائر، كما نجده أيضاً يؤكد على الانفصال التام بين المجتمع الجزائري والمستوطنين بدعوى رفض الجزائريين الاندماج في المجتمع الأوروبي.

لكن الحقيقة التاريخية تثبت أنَّ رفض الإدماج كما جاء من الجزائريين كان لإدراكهم حقيقته الهادفة إلى محو مقومات الشخصية الجزائرية وإحياء النعرات القبلية والعرقية واللغوية في المجتمع الجزائري، وهي الأفكار التي رأينا كيف دافع عنها «غوتييه» في مختلف كتبه ومقالاته، كما رفض المستوطنون الفرنسيون أن تتحقق المساواة بينهم وبين الجزائريين، ونموذج دراستنا رغم دفاعه عن سياسة الإدماج بين المجتمع الجزائري والمستوطنين إلا أنه من جهة أخرى يؤيد وبشكل مباشر فكرة التفوق العرقي للأوروبيين، ويؤكد رفضه غير المباشر للدمج الكامل للجزائريين في المجتمع الفرنسي.

من خلال ما سبق نرى أن «إميل غوتييه» يحمل عدة تناقضات في الأطروحات التي يقدمها عن المجتمع الجزائري، فهو من جهة يؤكد على ضرورة تحقيق الإدماج الفعلي لهم لتحقيق النماء الاقتصادي للجزائر، ومن جهة أخرى يثبت أن هذا الشعب يعاني من التأخر الفكري والسياسي، وبالتالي دعم استمرار هيمنة المستوطنين الكاملة على مقاليد السلطة والحكم في الجزائر، لأنهم هم من سيسير بقية الجزائريين، وبذلك فالجزائري في نظر نموذج بحثنا ما هو إلا أداة لخدمة المستوطنين، والذين سيسعون بدورهم لتحقيق الرفاهية للجزائريين.

وعلى العموم، فإن الدراسات والأبحاث التي أنجزها نموذج بحثنا، رغم أنها تبرر الاستعمار الفرنسي للجزائر، وتدافع عن سياسته القمعية فيها، وتبرر استغلال الفرنسيين لثروات الجزائر وإمكاناتها الاقتصادية، إلا أنها من جهة أخرى تعد مصدراً مهماً لأي باحث في تاريخ الجزائر، خاصة في فترة الاحتلال الفرنسي؛ فهي توضح لنا كيف بدأ التوسع الفرنسي في الجزائر، والمشاريع التي نفذها الفرنسيون خلال عملية غزوهم لمختلف المناطق، كما تكشف لنا مؤلفاته من جهة أخرى حجم معاناة المجتمع الجزائري والأوضاع المزرية التي عاشها من بداية الاحتلال إلى تاريخ وفاة الباحث »إميل فليكس غوتييه».

خلاصة

إن المتأمل للإشكالات التي أوردها «إميل فليكس غوتييه» عن الدولة الجزائرية والمجتمع الجزائري لا يتصف فقط بمساندته المطلقة للسياسة الفرنسية في الجزائر، بل أكثر من ذلك؛ حيث لاحظنا أن هذا الباحث يصر في مجمل الدراسات التاريخية والجغرافية التي أنجزها عن المجتمع الجزائري على إثبات العجز التام لهذا المجتمع عن تحقيق أي تقدم وتحضر في جميع المجالات.

كما أن نموذج دراستنا لم يتوانَ عن نفي وتزييف حقائق تاريخية عاشها المجتمع الجزائري، بظهور ثورات شعبية رافضة للخضوع للهيمنة الفرنسية على الجزائريين، كما أسس الجزائريون تيارات سياسية وجمعيات ثقافية تعنى بتحسين وضع المجتمع الجزائري الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وهو ما يثبت لنا أنَّ «إميل غوتييه» يُعد –حسب وجهة نظرنا– عنصرياً بامتياز؛ فهو يرفض فكرة تحضر الجزائريين أو إمكانية تحقيقهم لأي تغيير في مستواهم الفكري، بل يحكم يقيناً بأن الجزائر والمجتمع الجزائري لم ولن يستطيعا تحقيق غايتهما في تأسيس دولة عصرية إلا بإشراف فرنسا.

ونؤكد أيضاً على أنَّ البحوث والدراسات التي أنجزها نموذج دراستنا تعبر، حسب وجهة نظرنا، عن حجم الحقد الذي كان يكنُّه منظرو الاحتلال الفرنسي للجزائريين، وما صدور ترسانة القوانين الاستثنائية القمعية التي تعامل المواطن الجزائري كإنسان من الدرجة الثانية إلا خير دليل على حجم التأثير الذي تركه «غوتييه» في مجال الإدارة الفرنسية الاستعمارية في الجزائر، وخاصة الدراسات التي أنجزها حول منطقة الجنوب الجزائري والمنطقة الغربية لإفريقيا، والتي سمحت للحكومة الفرنسية بالتعرف على الثروات التي تزخر بها قارة إفريقيا عامةً والجزائر خاصةً، ولذلك وجب إيلاء الأهمية لمختلف الدراسات التي أنجزها بالدراسة والتحليل والترجمة والنقد؛ حتى تعم الاستفادة منها، خاصة في المجال الطبوغرافي والإثنوغرافي.

خاتمة

من خلال ما سبق طرحه في هذه الدراسة نصل إلى مجموعة من النتائج المتعلقة بها، وتتمثل في:

- الكتابة التاريخية علم يهتم بنقد وتحليل منهجية تدوين التاريخ، من خلال تحليل الوقائع التاريخية وتقديم تفسيرات لمسار التاريخ، ويتجاوز هذا العلم الطريقة النمطية في عرض وقائع الماضي والأحداث التي وقعت فيه، كما يسعى إلى تقديم أجوبة لتحديد العوامل التي تتحكم في مسار التاريخ وأسباب سقوط الدول وقيامها.
- تقوم الكتابة التاريخية الحديثة والمعاصرة على تجاوز الطرح التقليدي للتاريخ، القائم على الاعتماد الكلي على الوثائق التاريخية في تدوين أحداث الماضي، حيث أصبح التاريخ يعتمد على عدة علوم مساعدة، أبرزها علم الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية، بالإضافة إلى علم الآثار، وعلم النفس، وعلم الأنثروبولوجيا، وغيرها من التخصصات التي ساهمت في إضفاء الصبغة العلمية على تدوين التاريخ، والانتقال به من مجرد حكايات عن الماضي إلى دراسة ماضي الإنسان لفهم حاضره والتنبؤ بالمستقبل.
- رغم إجماع المراجع المختصة على أنَّ مدرسة الحوليات التاريخية ظهرت سنة 1929 بفضل ما قام به «لوسيان فيفر Lucien Febvr» و«مارك بلوخ Marc Bloch» من جهود في تأسيس «مجلة الحوليات» وطرح أفكار جديدة في طرائق تدوين الأحداث التاريخية، غير أنَّ إنجازنا لهذا البحث أكد لنا ظهور بوادر هذه المدرسة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأن هذا الفكر ظهر في البداية في ألمانيا وتأثر به باقي المؤرخين الأوروبيين، خاصة الفرنسيين منهم.
- تنقسم الكتابة التاريخية من حيث طبيعتها إلى نوعين: كتابة تاريخية تهتم بدراسة تاريخ الشعوب والبحث عن أسباب الإخفاق السياسي والاقتصادي لتجنب الوقوع في الأخطاء نفسها، كما ظهرت أيضاً كتابة تاريخية ذات توجه كولونيالي تبناها مؤرخون ذوو توجه داعم لاستمرار الهيمنة الاستعمارية الأوروبية على العالم بصفة عامة والقارة الإفريقية بصفة خاصة.
- تتميز الكتابة التاريخية الكولونيالية بسعيها الحثيث إلى دراسة تاريخ الشعوب المستعمرة، والعمل على تفسير مسار تاريخها وفق ما يثبت عجز الدول المستعمرة عن تسيير نفسها، وحتمية خضوعها للاحتلال الأجنبي الذي يشرف عليه الرجل الأوروبي الأبيض، كما عمدت هذه الدراسات التاريخية إلى إثبات تباين أصول الشعوب المستعمرة وتخلفها الحضاري، وأن القارة الأوروبية ستقود هذه الشعوب نحو الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية.

- تعد الجزائر من أبرز الدول التي خصصت لها الكتابة التاريخية الكولونيالية، خاصة الفرنسية منها، حيزاً كبيراً، وقد مرت هذه الكتابة في أطوارها بمرحلتين متباينتين؛ أولاهما ما يُطلق عليه اصطلاحاً الكتابة التاريخية في مرحلة الحكم العسكري التي تمتد من فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي إلى سنة 1870، أما المرحلة الثانية فهي التي يُطلق عليها الكتابة التاريخية في العهد المدني، والتي تمتد من 1870 إلى يومنا هذا، باعتبار أن التاريخ الجزائري لا يزال يستهوي الكثير من الباحثين الفرنسيين في مختلف الجامعات بفرنسا، خاصة جامعة إيكس-مارسيليا، وجامعة ليون، وجامعة باريس.
- رغم اتفاق أغلب المراجع على أن الفترة الممتدة بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى سنة 1870 ذات طابع عسكري محض، إلا أننا نؤكد وجود كتابة تاريخية متنوعة في الفترة سالفة الذكر، خاصة فئة المترجمين وضباط الإدارة الفرنسية، بالإضافة إلى المغامرين والرحالة الذين زاروا الجزائر بعد سيطرة الفرنسيين عليها، وهذا النوع من الكتابة غلب عليه طابع الشمولية في دراسة تاريخ الجزائر منذ فترة ما قبل التاريخ إلى فترة الاحتلال الفرنسي.
- يمكننا تقسيم الكتابة التاريخية الفرنسية إلى نمطين متباينين؛ أولهما يختص بتاريخ المنطقة والمراحل التاريخية التي مرت بها والتعرف على شعبها، وهذا النمط يمتد -حسب وجهة نظرنا- منذ بدايات الكتابة التاريخية الفرنسية عن الجزائر إلى تأسيس جامعة الجزائر سنة 1909، ويندرج ضمنه أيضاً الكتابات التاريخية الفرنسية التي ظهرت بعد الاحتلال الفرنسي. أما النمط الثاني من الكتابة التاريخية الفرنسية فيتميز بمحاولة تفسير نمط سير تاريخ الجزائر وإعطاء تفسيرات للمراحل التاريخية التي مرت بها.
- سعت الكتابات التاريخية الفرنسية في الجزائر، سواء قبل الاحتلال الفرنسي أو بعده، إلى تشويه تاريخ الجزائر، والعمل على إثبات أحقية فرنسا في استعمار المنطقة واستغلال خيراتها من منطلق غياب تاريخ يثبت تأسيس دولة محلية جزائرية. بالإضافة إلى ذلك، سعى رواد المدرسة التاريخية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر إلى تفتيت المجتمع والتأكيد على انقسامه الداخلي إلى عدة شعوب وقبائل متباينة اللغة والدين والأصل، وهذا من منطلق تطبيق سياسة فرق تسد.
- لم تتخصص الكتابة التاريخية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر بدراسة فترة تاريخية محددة، بل عمد مؤرخو المدرسة التاريخية الفرنسية إلى الاهتمام بمختلف المراحل التاريخية، من التاريخ القديم إلى

التاريخ الحديث والمعاصر، مع تركيزهم بصورة أكبر على دراسة تاريخ فترة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب، وكذا فترة التاريخ الوسيط، وفترة الحكم العثماني، ثم فترة الاحتلال الفرنسي.

- ركزت الدراسات التاريخية الفرنسية في الجزائر على تحليل المراحل التاريخية السابقة، خاصة الفترة الممتدة من بداية الاحتلال الروماني إلى نهاية الاحتلال البيزنطي، مع إجراء مقارنة بينها وبين السياسة الفرنسية، وهذا من منطلق إثبات أن الفرنسيين ورثة الحضارة الرومانية والبيزنطية، وأنهم يسعون لإحياء أمجاد هذه الحضارة، كما يسعون لإثبات أن سيطرة الرجل الأوروبي الأبيض على السلطة في شمال إفريقيا أو في العالم تعني التقدم والتحضر عكس باقي الشعوب التي تتميز بالتخلف والانحطاط.
- تنوعت وتعددت الهيئات والمجلات العلمية التي أسسها الباحثون الفرنسيون في الجزائر منذ بداية الاحتلال، خاصة المرتبطة بدراسة تاريخ المجتمع الجزائري وثقافته والروابط الحضارية التي تجمع بين مكوناته، حيث كان لها دور كبير في ترجمة العديد من الكتب العربية إلى اللغة الفرنسية، ومن ثم استغلال هذه المؤلفات، خاصة المتعلقة بالتاريخ، لإنجاز دراسات أخرى تقوم على تحريف وتزوير الأحداث المدروسة وفق ما يحقق غاية الاحتلال الفرنسي في استمرار هيمنته الإدارية والاقتصادية على الجزائريين وثرواتهم.
- سهامت جامعة الجزائر من خلال كلياتها، خاصَّةً كلية الآداب، في ظهور العديد من الدراسات التاريخية المرتبطة بالمجتمع الجزائري، ومن أبرز هذه المعاهد نذكر معهد الدراسات الاستشراقية ومعهد الدراسات الصحراوية، فإذا كان المعهد الأول اهتم بدعم المستشرقين الفرنسيين في أبحاثهم الاجتماعية والنفسية، فإنَّ معهد الدراسات الصحراوية تجاوز هذه الأبحاث بالبحث في المجال الطبيعي والتاريخي لمنطقة الصحراء ودراسة الثروات التي توجد في هذه المنطقة، كما ركَّز هذا المعهد نشاطاته في البحث عن السبل المثلى لاحتلال الصحراء واستغلالها وفق ما يخدم السياسة التوسعية الفرنسية خاصَّةً في منطقة غرب إفريقيا.
- نشط في مجال الكتابة التاريخية الكولونيالية الفرنسية في الجزائر العديدُ من الباحثين والمؤلفين الذين سخروا جهودهم كاملةً لدراسة مختلف المراحل التاريخية، سواء قبل الاحتلال الفرنسي أو بعده، وتعد الفترة الممتدة من سنة 1900 إلى الاستقلال أكثر فترة نشطت فيها أقلام المؤرخين الفرنسيين، والتي تجاوزت الدراسات التاريخية البسيطة العامة عن الجزائر، للتوجه نحو دراسات أكثر جزئية عن منطقة محددة؛ كمنطقة القبائل والأوراس والصحراء.

- من بين الباحثين الفرنسيين الذين سخروا جهودهم كاملة لإنجاز دراسات تاريخية شاملة عن المجتمع الجزائري وعلاقته بالإدارة الفرنسية، نذكر المؤرخ والرحالة الجغرافي «إميل فليكس غوتييه»، الذي خصص كل جهوده ومعارفه ووقته لإنجاز دراسات عن تاريخ الجزائر بمختلف مراحله، مع التركيز بدرجة أولى على التاريخ الوسيط ثم التاريخ القديم فالتاريخ الحديث والمعاصر، وهو ما ساهم في تعدد وتنوع مؤلفاته بين الكتب والمقالات العلمية المتخصصة.
- يعتبر «غوتييه» من رواد الاعتماد على الجغرافيا الطبيعية في دراسة تاريخ الجزائر، كما اعتمد أيضاً على عدة علوم مساعدة في دراساته وأبحاثه، خاصة علم النفس وعلم الاجتماع، معتمداً في ذلك على استقراء الحدث التاريخي، ومقارنة ما ورد في مختلف المصادر، مع إجراء دراسة جغرافية وجيولوجية عن موقع الحدث، ومحاولة الربط بين الماضي والحاضر، مع إعطاء أحكام عن الشعوب التي يدرسها، ثم التنبؤ بالمستقبل.
- يُعدُّ نموذج دراستنا من أبرز المؤرخين الرافضين للمنهج التاريخي التقليدي الذي تعتمده المدرسة التاريخية الوضعية القائم على اعتبار الوثيقة مصدراً أساسياً للمعلومة التاريخية، ودعا إلى تنويع مصادر المعلومة كدراسة الآثار بمختلف أنواعها، وتطبيق مبادئ الجغرافيا البشرية والتاريخية وغيرها من العلوم، وبالتالي فإن «فغوتييه» يُعد من رواد مدرسة الحوليات التاريخية والداعمين لأفكارها القائمة على توسيع الدراسات التاريخية، وعدم حصرها في دراسة تاريخ الملوك وسير العظماء والقادة العسكريين.
- تأثر «إميل غوتييه» كثيراً في نظرته للتاريخ بتوجهات وأفكار المدرسة التاريخية الألمانية بحكم استقراره في المنطقة ومشاركته الفعالة في مؤتمر المؤرخين الألمان، وهذه المدرسة تعتمد في أساسها على المنهج التطوري للمجتمعات اقتصادياً، حيث لاحظنا كيف عمد المؤرخ إلى دراسة التطورات التاريخية الاقتصادية التي مرت بها الجزائر عبر التاريخ، من أجل إثبات عجز المجتمع المطلق عن التقدم والتطور وفق هذه النظرية، ومن ثم التأكيد على حتمية استمرار الاحتلال الفرنسي للجزائر وشرعية استغلال خيراتها الاقتصادية بحكم عجز السكان عن مواكبة التطورات الاقتصادية التي تتميز بها المجتمعات الطبيعية.
- بالإضافة إلى ذلك، طبق «غوتييه» مبدأ القوة الديناميكية الخاص بالمدرسة الألمانية، القائم على اعتبار الدولة والحكومة هما اللتان تتحكمان في سير مختلف شؤون المجتمع من صناعة ونقل وتجارة، وذلك من خلال دعمه الكامل للإدارة الفرنسية وما تصدره من قرارات في هذه المجالات، ولم يكتفِ بذلك،

بل طالب الحكومة الفرنسية في الجزائر وفرنسا بمضاعفة مجهوداتها الاقتصادية والتنموية، خاصة تفعيل مشروع السكك الحديدية الممتد في صحراء الجزائر، ورأى أنَّ هذا المشروع سيحقق النماء والرخاء الاقتصادي لفرنسا والمجتمع الجزائري على حد سواء.

- سعى «غوتييه» إلى إضفاء الصبغة العلمية على منهجية البحث التاريخي، من خلال تطبيق أساسيات العلوم الدقيقة كالملاحظة والفرضية وتعميم النتائج على مجتمع الدراسة، وهي محاولة –رغم ما تحمله من مغالطات تاريخية– إلا أنها تمثل دعوة إلى قراءة وتدوين التاريخ وفق نظرية جديدة تبتعد كل البعد عن النظرة السطحية للحدث وحصره في إطاره الزماني والمكاني، والعمل على إعطاء هذه الدراسات بعداً جغرافياً وتفسير الماضي انطلاقاً من أحداث الحاضر، أو العكس؛ تفسير الحاضر وفق ما عرفته الشعوب من أحداث تاريخية قديمة كانت أو حديثة.

- وقع «غوتييه» في مغالطات كثيرة في مختلف الدراسات التاريخية التي أنجزها عن الجزائر بصورة خاصة، وهذا بالرغم من دعوته المباشرة إلى دراسة التاريخ وفق نظرة جديدة تحليلية نقدية، كما بالغ أيضاً في الاعتماد على مناهج علمية خاصة بالعلوم الدقيقة وتطبيقها على الدراسات التاريخية، وهذه المنهجية رغم ما تحمله من توجهات تدفع بالتاريخ نحو تقديم كتابات موضوعية قائمة على الحقائق التاريخية، إلا أن نموذج دراستنا لم يطبق هذا المنهج العلمي الصارم، بل راح يفسر التاريخ ويقدم آراءً بناءً على توجهات فكرية داعمة للفكر الكولونيالي بالدرجة الأولى، والفكر العنصري القائم على تفوق الجنس الأوروبي الأبيض على باقي الأجناس.

- رغم ضخامة حجم الانتقادات التي وجهها نموذج دراستنا لمختلف المصادر العربية، وسعيه لإثبات عجز المؤرخين العرب عن تقديم دراسة موضوعية عن تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا في فترة التاريخ الإسلامي، إلا أنه هو الآخر وقع في مغالطات كثيرة، خاصة اعتماده الكلي على أفكار أوروبية حديثة كفكرة الدولة والأمة واللغة المشتركة، لإثبات تشتت المجتمع الجزائري، وتعمده تطبيق هذه التوجهات التي ظهرت في أوروبا بعد الثورة الفرنسية على تاريخ العصور الوسطى بما يحمله من معان وأفكار مختلفة، خاصة فكرة الخلافة الإسلامية، وفكرة اختيار الأمير أو رئيس الدولة في الجزائر بناءً على المكانة العلمية وليس بناءً على الانتماء للقبيلة أو العشيرة.

- لجأ «غوتييه» إلى التركيز على دراسة التاريخ الروماني من أجل إثبات تقدم الجزائر وشمال إفريقيا وتحضرهما تحت الهيمنة الغربية، وإثبات مدى تقبل السُّكَّان وتعايشهم مع الرومان، كما سعى أيضاً إلى التأكيد على الجذور التاريخية للتمدن الغربي في شمال إفريقيا، وأن الفرنسيين جاؤوا من أجل إحياء هذا النظام في شمال إفريقيا.
- تنوعت الإشكالات التي سعى نموذج بحثنا إلى إثباتها عن المجتمع الجزائري مع تركيزه بصفة خاصَّة على إشكالية غياب الأمَّة والدولة الجزائرية وربط هذه الإشكالية بباقي الإشكاليات، حيث وضَّح بأنَّ انعدام وجود الأمَّة هو نتيجة حتمية ظهرت بسبب تباين أصول السُّكَّان من جهة وتباين لغتهم، والتي أدت إلى استمرار التخلف في وسطهم وخضوعهم المستمر للهيمنة الأجنبية.
- تعد الدراسات والأبحاث التي أنجزها «إميل فليكس غوتييه» عن الجزائر بصفة خاصة وقارة إفريقيا بصفة عامة نموذجاً متطرفاً للأسطوغرافيا الكولونيالية في الجزائر من خلال سعيه إلى إثبات حتمية تعرض الجزائر للاستعمار الأجنبي من منطلق غياب تاريخ مشترك لشعبها من جهة، ومن منطلق تعرضها المستمر للهيمنة الأجنبية منذ فترة ما قبل التاريخ، وأن وجود الفرنسيين هو حتمية تاريخية، وأن غايتهم الأساسية إعادة تنظيم المنطقة وتحضير شعبها ونقلهم من العصر الحجري إلى عصر الطائرات.
- لم يساند نموذج دراستنا الاحتلال الفرنسي للجزائر فحسب، بل اعتبره أكبر إنجاز للإمبراطورية الفرنسية، وأن الظاهرة الاستعمارية الأوروبية الحديثة ضرورة حتمية تبرز تفوق الفكر الغربي على العقل العربي المعروف بالتخلف وحب حياة البداوة، كما أوضح أن الإنسان الأوروبي في تكوينه التاريخي وارتباطه الوثيق بالحضارة الرومانية جعله يتفوق على باقي الشعوب.
- رغم أنَّ غوتييه حاول في كثير الأحيان إخفاء تبنيه لنظرية التفوق العرقي، إلا أنه تبنى هذه النظرية ودافع عنها بشكل كبير، لأنه اعتبر العقل الغربي الوريث للحضارة اليونانية والرومانية يتفوق بشكل كبير على عقل الإنسان العربي الذي ألف حياة البداوة والترحال، كما أن هذا التوجه يوضح لنا من جهة أخرى مدى احتقار المؤلف للعنصر العربي وعمله على نفي أي إنجاز حضاري لهذا العنصر في شمال إفريقيا بصفة خاصة والعالم العربي والإسلامي بصفة عامة.
- بالغ «غوتييه» في التفاخر بمنجزات الحضارة الرومانية في الجانب الاقتصادي، خاصَّةً تطوير زيت الزيتون، كما بالغ في وصف السلام والازدهار اللذين بلغتهما الجزائر في هذه المرحلة التاريخية،

لأنَّ سُكَّان شمال إفريقيا من مرحلة الاحتلال الروماني إلى الاحتلال البيزنطي لم يتوقفوا عن مقاومة الوجود الأجنبي، وهو ما يثبت رفضهم المطلق لهذا الاحتلال، ويثبت أيضاً أنَّ المحتلين لم يسعوا إلى خدمة مصالح السُّكَّان أو تطوير أسلوب حياتهم بقدر سعيهم إلى استغلال ثروات البلاد لخدمة الاقتصاد الروماني والبيزنطي.

- ركَّز الباحث في دراسته للظاهرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر على إبراز أهمية زيادة عدد المستوطنين وتوسيع شبكة السكك الحديدية؛ لأنَّ هذين العاملين سيساهمان لا محالة في تحقيق الاندماج بين الجزائريين والفرنسيين، كما يعملان من جهة ثانية –حسبه– على ترسيخ فكرة النظام وسط الجزائريين والقضاء على كل أشكال الفوضى والتخلف التي عاشها السُّكَّان في العصور الوسطى «القرون المظلمة».
- لم يعتبر «غوتييه» الاستعمار الفرنسي للجزائر ضرورة حتمية لفرنسا والجزائر فقط، بل رأى أنَّ استمرار هذا الاستعمار تفرضه المعطيات التاريخية، بل تجاوز هذا الطرح بكثير حيث أكد على أن الاحتفاظ بالجزائر كمستعمرة يعني الحفاظ على مكانة فرنسا كإمبراطورية كبرى تحتل العديد من الدول الإفريقية، وأنَّ احتلال الجزائر والاحتفاظ بها يساهم في استمرار الهيمنة الفرنسية على قارة إفريقيا، وهو ما عملت فرنسا على تطبيقه إبان فترة الثورة التحريرية الكبرى؛ حيث قامت فرنسا بالاستغناء عن العديد من الدول الإفريقية ومنحها الاستقلال من أجل الحفاظ على استعمارها للجزائر، وبذلك فالأبحاث التي أنجزها نموذج دراستنا كان لها الدور البارز في دعم الاحتلال الفرنسي وسياسته الاستعمارية في الجزائر بصفة خاصة وفي قارة إفريقيا بصفة عامة.
- رغم التوجهات المتطرفة التي تبناها نموذج دراستنا عن الجزائر وتاريخها، إلا أن مؤلفات تُعد من المصادر الأساسية لتاريخ الجزائر، خاصة مرحلة الاحتلال الفرنسي؛ لأنها تبين لنا حجم الإمكانات التي سخرها الفرنسيون في سبيل تثبيت أركان الاستعمار الفرنسي للجزائر، كما تشرح لنا الصعوبات الطبيعية التي رافقت عملية التوسع الفرنسي في الجزائر.
- رغم الشهرة التي اكتسبها «غوتييه» كباحث ورحالة جغرافي، إلا أن مؤلفاته التاريخية تتمتع بصيت كبير، خاصة كتاب «ماضي شمال إفريقيا» الذي تُرجم لعدة لغات منها اللغة العربية، كما أن تميزه بالتركيز في الكتاب السابق ذكره على دراسة العصور الوسطى جعل مؤلفاته الأخرى تكاد تكون غير معروفة لدى الكثير من الباحثين في تاريخ الجزائر في فترة الاحتلال الفرنسي، خاصة كتاب «قرن من الاحتلال:

دراسة مفصلة» وكتاب «السيطرة على الجزائر» وغيرها من المقالات التي تؤرخ لمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر.

- لا تزال الأبحاث والدراسات الفرنسية بصورة خاصة تولي اهتماماً بالغاً لتاريخ الجزائر وتسعى جاهدة لتشويهه وفق ما يخدم مصالحها الاقتصادية، ويضمن استمرار السيطرة الأوروبية على الموارد الطبيعية وإثبات حتمية تخلف الشعب وعجزهم عن تأسيس دولة ذات سيادة بإثارة المشاكل الداخلية، خصوصاً مسألة «اللغة الأمازيغية» التي عملت على استغلالها لضرب وحدة الجزائر وتأسيس دولة مستقلة في بلاد القبائل.
- على الباحثين إيلاء أهمية بالغة لمؤلفات «إميل فليكس غوتييه» من خلال ترجمة هذه المؤلفات وكشف المغالطات التاريخية التي وقع فيها، كما ستساهم هذه الترجمة في فهم نظرة المفكرين الأوروبيين للعالم العربي الإسلامي، والتي تتسم بالتعالي والسعي لتشويه هذا التاريخ لإدراكهم بأنَّه يمثل ذاكرة الشعوب وحاضرها ومستقبلها.
- إنَّ فكرة دراسة تاريخ الشعوب وتحليل مسار تطورها الحضاري توضح لنا مدى أهمية الدراسات التاريخية لتحليل السياسة الدولية في عالم اليوم؛ فالتاريخ ليس عبارة عن أحداث ماضية فقط، بل يمكننا من فهم الشعوب وحاضرها، بل ويساعدنا على التنبؤ بمستقبلها، لذا وجب إيلاء الأهمية البالغة للدراسات التحليلية للتاريخ الوطني بصفة خاصة والتاريخ العالمي بصفة عامة.

الملاحق

الملحق الأول: قائمة ببيليوغرافية لمؤلفات إميل فليكس غوتييه

(ترتيب موضوعاتي وكرونولجي).

1 – التقارير الإدارية:

- **«تقرير إميل فليكس غوتييه ضابط ترجمة حول مهمته في مصر، والحملة العسكرية ضد الاتراك (حرب 1914 – 1919).**

- Rapport général sur une mission en Egypte, 1er Partie, 1917, pp. 1-43/
- Rapport sur une mision en Egybt 2em Partie, 1917, pp. 44-87
- Oppenvice N:1 au rapport sur une mission en Egybt, 1917.

❖ بحث حول «**انتشار اللغة البربرية في الجزائر**»، ألفه مع «**إدموند دوتي Edmond Doutté**» Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie، طبع هذا الكتاب بأمر من الحاكم العام سنة 1913 ويحتوي على 165 صفحة.

- **«ملاحظات مأخوذة عن دروس الجغرافيا الخاصة بالسيد غوتييه أستاذ في كلية الأداب، الجزائر».**

Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921, pp. 1-75

2 – الكتب:

1.2– كتب فردية للمؤلف:

- **«مدغشقر مقال لجغرافيتها الطبيعية Madagascar essai géographie physique»**، طبع سنة 1902يتكون من 475 صفحة.

- ✓ «**ملاحظات عن الكتابة الملغاشية Notes sur l'écriture Antaimoro**»، طبع سنة 1902 يتكوَّن من 85 صفحة.
- ✓ أطروحة تتكون من61 صفحة سنة 1902 في كلية الآداب جامعة باريس باللغة اللاتينية عنواها:
- ✓ «**إلى أي مدى كان الجزء من المحيط الهندي الذي يتعلق بإفريقيا مفتوحا أمام سفن الإغريق والهوميريميين؟** Quatenus Indici Oceani pars, quae ad Africam pertinet, Graecorum et Homeritarum navibus patuerit »
- ✓ **استعمار الصحراء، مقالة لعلم النفس السياسي La conquête du Sahara; essai de psychologie politique**»، طبع سنة 1910 بعدد صفحات 260، كما طبع هذا الكتاب أيضاً سنة 1935 في الطبعة الخامسة المنقحة والمحدثة في 266 صفحة.
- ✓ «**الجزائر والمتروبول** L'Algérie et la Métropole» يحتوي هذا الكتاب على 254 صفحة تم طبعه سنة 1920.
- ✓ «**بنية الجزائر Structure de l'Algérie**»، طبع عام 1922 وعدد صفحاته 240، كما عثرنا على مسودة لهذا الكتاب بعن وأن

«**Dossier composé des documents ayant servi à ÉmileFélix Gautier pour composer «Structure de l'Algérie»: brouillon dactylographié, épreuves imprimées, 92 figures et cartes, 11 pièces diverses de correspondance**»، يتكوَّن من 570 صفحة وهي متوفرة على موقع الرقمي للمكتبة الوطنية الفرنسية «Gallica – BnF» على الرابط:

https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/btv1b108702894.r=%22%C3%89mile-F%C3%A9lix%20Gautier%22?rk=1051507;2

- ✓ «**الأطلس المتوسط Le Moyen- Atlas**»، طبع سنة 1926 عن مكتبة لاروس بباريس، وهذا الكتاب جمع فيه المؤلف المقالات التي كتبها في مجلة «هسبريس Hespéris» في سنة 1925 و1926، يتكوَّن هذا الكتاب من 86.

- ✓ «**اسلام شمال إفريقيا القرون المظلمة للمغرب**» **l'islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Maghreb**»، طبع سنة 1927 في 455 صفحة، ثما أعاد المؤلف طباعته للمرة الثانية بعن وأن» **ماضي شمال إفريقيا القرون المظلمة Le Passé de l'Afrique du nord les siècles Obscurs**»، طبعت هذه النسخة الثانية سنة 1937 وعدد صفحاتها: 460 صفحة.
- ✓ «**الصحراء Le Sahara**»، **طبع سنة** 1928 في 323 صفحة.
- ✓ «**تطور الجزائر L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930** «، يحتوي على 98 صفحة، طبع سنة 1930 في إطار الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر.
- ✓ «**قرن من الاحتلال دراسات مفصَّلة Un siècle de colonisation études Au microscope**» صدر سنة 1930 وعدد صفحاته 390.
- ✓ «**آداب وعادات المسلمين Mœurs et Coutumes Des Musulmans**» الذي طبع سنة 1931، وأعيد طبعه عدة مرات منها طبعة سنة 1955، يتكوَّن هذا الكتاب من 305 صفحة.
- ✓ «**المساهمة في دراسة النموذج الثلاثي في الجزائر Contribution à l'Etude du Modelé Triasique en Algérie**»، طبع سنة 1931 في حوالي 60 صفحة.
- ✓ «**ثلاثة أبطال: الجنرال لابيرين – الأب دي فوكو– أمير السلام** Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix «يتكوَّن هذا الكتاب من 145 صفحة وطبع سنة 1931.
- ✓ «**جنسريق ملك الوندال** Genséric, roi des Vandales»، طبع سنة 1932 يحتوي على 326 صفحة.
- ✓ «**إفريقيا السوداء الغربية تحديد للإطار الجغرافي**» **L'Afrique noire occidentale. Esquisse des cadres géographiques**، عدد صفحاته 188 تم طبعه سنة 1935
- ✓ «**إفريقيا البيضاء l'Afrique Blanche**»، صدر بتاريخ 10 أفريل 1939 في 360 صفحة.

2.2– كتب للمؤلف مع مؤلفين آخرين:

- ✓ ألف بالشراكة مع «روي الفونس ماري فرديناند Rouire, Alphonse Marie Ferdinand» و «كومبس باول «Combes, Paul» و «جولي انثون Jully Antony» كتاب بعنوان:

«**دليل عملي للمستوطنين والجنود في مدغشقر**» «» **Guide pratique du colon et du soldat à Madagascar**، صدر سنة 1895 يتكوَّن من 213 صفحة.

- ✓ ألف كتاب بالشراكة مع «**هنري فرويدفو Henri Froidevaux**» سنة 1907 في: 180 صفحة بعنوان: «**مخطوطات عربية مدغشقرية عن حملات لاكيس في ايميرو 1659 – 1663**».

«**Un Manuscrit arabico-malgache sur les campagnes de La Case dans l'Imoro de1659 à 1663**»

- ✓ شارك سنة 1905 في تأليف كتاب «**مجموعة من المذكرات والنصوص المنشورة تكريمًا للمؤتمر الرابع عشر للمستشرقين**» **Recueil de Mémoires et de Textes Publies en L'honneur de XIVe Congrès des Orientalistes**» بمقال عنوانه: «**الواحات الصحراوية Oasis Sahariennes**» من الصفحة: 319 – 346.

- ✓ ألف مع «**شادو ريني Chudeau, René**» «كتابين بعنوان: «**مهمة إلى الصحراء** Missions au Sahara»، المجلد الأول خاص «**الصحراء الجزائرية** Tome I, Sahara Algérie» «صدر سنة 1908 يحتوي على 500 صفحة، أمَّا المجلد الثاني لهذا الكتاب يحمل عنوان: «**صحراء السودان، Tome II, Sahara Soudanis**»، صدر سنة 1909 ويحتوي على 460 صفحة.

- ✓ شارك سنة 1922 في تأليف كتاب «**الأقاليم الجنوبية للجزائر Les Territoires du Sud d'Algérie**» بكتابة الفصل الثاني للكتاب من الصفحة 23 – 118 بعنوان: «**الوصف الجغرافي Description Ggéographique**».

- ✓ شارك في تأليف كتاب «**رحلة عبر الصحراء الكبرى Faisons Le Transsaharien**»، طبع سنة 1927 من طرف «**لجنة الجزائر وتونس والمغرب بباريس**»، يتكوَّن هذا الكتاب من حوالي 70 صفحة، وشارك فيه بمقال عن وأنَّه «**عبر الصحراء A Travers Le Sahara**» من الصفحة 48 إلى الصفحة 68.
- ✓ نشر مقال سنة 1929 في كتاب أشرفت على إصداره أكاديمية العلوم الاستعمارية بعنوان: «**النعامة الجزائرية**» (**L'Autruche Algérienne**)، من الصفحة: 229 إلى الصفحة: 240.
- ✓ شارك أيضاً في تأليف كتاب «**الجزائر عمل فرنسي Une Œuvre Française L'Algérie**» الذي طبع سنة 1929 بمداخلة عنوانها «**جزائر اليوم وغدا L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain**»، من الصفحة 261 إلى الصفحة: 293.
- ✓ شارك في تأليف كتاب على شكل تقارير أكاديمية العلوم الاستعمارية سنة 1930 بمقال عنوانه «**مئوية الجزائر**» (**L'Algérie du Centenaire**)، من الصفحة: 57 إلى الصفحة: 72.
- ✓ شارك سنة 1931 في تأليف كتاب «**التاريخ والمؤرخون في الجزائر Histoire et historiens de l'Algérie**» بمقال عنوانه: «**الإطار الجغرافي للتاريخ في الجزائر**» « Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie »؛ من الصفحة: 17 إلى الصفحة: 35.
- ✓ شارك في كتاب «**خمسينية كلية الآداب الجزائرية Cinquantenaire de la Faculté des lettres d'Alger**»، طبع سنة 1932بمقال حول «**ملاحظات حول الدراسة الجيولوجية للأستاذ «سيغفريد باسارج Siedfried Passarge» حول منطقة «ودرف Oudref**» من الصفحة: 233إلى الصفحة:238.
- ✓ «**نصب تين هنان** Le Monument de Tin-Hinan» صدر في شكل مقال في مجلة «**حوليات أكاديمية العلوم الاستعمارية Annales de l'Académie des sciences coloniales**» سنة 1934 بالاشتراك مع «موريس ريجاسي Maurice Reygasse» ثم طبع على شكل كتاب يتكوَّن من 44 صفحة.

3- المقالات:

❖ **مجلة «حوليات الجغرافيا Annales de géographie»**

- ✓ **«استكشاف السيد إميل غوتييه لمدغشقر»**
- ✓ Exploration de M. Émile Gautier à Madagascar, 1893, pp. 247-248
- ✓ **«مهمة إميل غوتييه إلى مدغشقر»**
- ✓ Mission Émile Gautier à Madagascar, 1893, pp. 355-364
- ✓ **«مهمة إميل غوتييه إلى مدغشقر»**
- ✓ -Mission Emile Gautier à Madagascar, 1895, pp. 217-218
- ✓ **«شرق ملغاش»** -L'ouest malgache, 1895, pp. 310-324
- ✓ **«رسالة من مدغشقر»** -Lettre de Madagascar, 1897, pp. 263-268.
- ✓ **«قياس الضغط في الجزء الشمالي لمدغشقر»**
- ✓ L'hypsométrie de la partie septentrionale de Madagascar, 1898, pp. 375-377.
- ✓ **«رسالة حول وادي الساورة»** -Lettre sur L'oued Saoura, 1903, pp. 81-83
- ✓ **«صحراء وهران»** -Sahara Oranais, 1903, pp. 235-259
- ✓ **«رسالة عن موديير أوهانت»** -Lettre sur le Mouydir et l'Ahnet, 1903, pp. 363-365.
- ✓ **«تقرير عن المهمة الجيولوجية والجغرافية في منطقة فجيج»**
- ✓ Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig, 1905, pp. 144-166.
- ✓ **«رحلة السيد غوتييه والسيد تشودو عبر الصحراء»**
- ✓ Voyage de MMrs Gautier et Chudeau à travers le Sahara, 1905, pp. 459-461.
- ✓ مقال **«الدراسات الصحراوية»**
- ✓ Études Sahariennes, Premier article, 1907, pp. 46-69.

- ✓ Études Sahariennes, Second article, 1907, pp. 117-138.
- ✓ «العمل الجغرافي للدكتور تريبيد»
- ✓ L'oeuvre géographique de Ch. Trépied, 1907, pp. 455-457.
- ✓ «هضبة جنوب وهران» La Meseta sud-oranaise, 1909, pp. 328-340 –
- ✓ «بين البرواقية وأومال» -Entre Berrouaghia et Aumale, 1910, pp. 245-259
- ✓ «المقاطع الطولية للمجاري المائية في الجزائر وتونس»
- ✓ Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (Premier Article). , 1911, pp. 351-366.
- ✓ -Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (deuxième article). , 1911, pp. 431-447 .
- ✓ مقال «توزيع اللغة البربرية في الجزائر»
- ✓ Répartition de la langue berbère en Algérie, 1913, pp. 255-266.
- ✓ «صخور الملح في الجلفة» -Le rocher de sel de Djelfa, 1915, pp. 245-260.–
- ✓ «قمة سد البحر» La Pointe de Sedd-Ul-Bahr, 1914, pp. 433-437.–
- ✓ «شط تيغري»
- ✓ le Chott Tigri, 1916, pp. 181-189.
- ✓ Le Chott Tigri, 1916, pp. 291-302.
- ✓ «الجنرال غاليني» Le général Galliéni, 1916, pp. 310-313. –
- ✓ «منبع ثادارث بفكيك» La source de Thaddert à Figuig, 1917, pp. 453-466. –
- ✓ «المدن المقدسة في الجزيرة العربية»
- ✓ Les villes saintes de l'Arabie, 1918, pp. 115-131.–
- ✓ «مقارنة الصحراء» -Déserts comparés, 1919, pp. 401-413

✓مقال «**واد الساورة**» بمشاركة «**لاروند Larnaude**»

✓Gautier & Larnaude, L'OUED Saoura, 1921, pp. 50-59.

✓«**ريني شاد**» و.René Chudeau (1864-1921). , 1921, pp. 390-391 –

✓«**مقارنة الصحراء: إفريقيا وأمريكا**»

✓Déserts comparés, Amérique et Afrique, 1925, pp. 146-162.

✓«**الصحراء الإفريقية والسودانية، من خلال ما عرفه الرومان، لأندريه بيرثيلوت**»

✓ −L'Afrique Saharienne et Soudanaise. — Ce qu'en ont connu les Romains by André Berthelot, 1927, pp. 559-563.

✓«**سواحل غرب إفريقيا إلى جنوب دكار**»

✓ Les côtes de l'Afrique Occidentale au sud de Dakar, 1931, pp. 163-174.

✓«**بينجر**» .-Binger, 1937, pp. 101-102

❖ «**مجلة باريس La Revue de Paris**»

✓ «**ثلاثون شهر في مدغشقر**» -Trente Mois A Madagascar, 1895, pp. 418-448

✓ «**الروح الملغاشية**»

✓ L’âme Malgache, 1900, pp. 400-418.

✓ -L’âme Malgache, 1900, pp. 623-644.

✓ «**عرض حول الونزة**» مع «**مارسال لابوردير Marcel Labordère**»

✓ Gautier & Labordère, A Propos de L'ounenza, 1909, pp. 416-434.

✓ «**في الصحراء المغربية**» - Au Sahara Marocain, 1910, pp. 35-52.

✓ «**غزو صحراء الطوارق**» -La Conquête du Sahara Touarrg, 1910, pp. 542-560.

- ✓ «المهاري» – Les Méharites, 1910, pp. 648-672.
- ✓ «تمرُّد في مدغشقر» -Un Insurrection A Madagascar, 1912, pp. 73-92
- ✓ «الجبهة الإنجليزية في مصر وفلسطين»
- ✓ –Le Front Anglais en Égypte et en Palestine, 1918, pp. 202-224.
- ✓ «المجاعة في الجزائر» -La Famine en Algérie, 1921.
- ✓ «الإسلام، كما نراه» – L'islam tel que nous le Voyons, 1931, pp. 787-829.
- ✓ «تهديدات في إفريقيا» – Menaces sur l'Afrique, 1934, pp. 38-56.
- ✓ نشرية جمعية الجغرافيين الفرنسيين **Bulletin de la Société de géographie**:
- ✓ «آفاق جديدة في الصحراء»
- ✓ Communication de E-F Gautier Perspectives nouvelles au Sahara, 1927, pp. 41-44.
- ✓ «خليج سرت » –Les Syrtes, 1929, pp. 59-61.
- ✓ «رد إميل فليكس غوتييه على أراء السيد «ديسبوا»
- ✓ –Réponse de M. E.-F. Gautier, 1929, p. 80.
- ✓ «نمط السنغال وغينيا»
- ✓ Le modelé du Sénégal et de la Guinée, 1931, pp. 75-79.
- ✓ «ملاحظات على مورفولوجيا فورتا جالون»
- ✓ –Remarques sur la morphologie du Fouta Djallon, 1932, pp. 83-87.
- ✓ مقال «مركزي التأثيرات المتوسطية لجعل غرب إفريقيا معروفة»

- ✓ −Les deux centres d'influences méditerranéennes qui rendent intelligible l'Afrique occidentale, 1933, pp. 109-111.
- ✓ «تفسير جغرافي لخريطتين جيولوجيتين لإفريقيا»
- ✓ Une interprétation géographique de deux cartes géologiques de l'Afrique, 1934, pp. 74-76.
- ✓ «إفريقيا السوداء الغربية» -L'Afrique noire occidentale, 1936, pp. 86-91.
- ✓ مجلة «ملاحظات استطلاعات واستكشاف» **Notes, reconnaissances et exploration**»:
- ✓ «أمبوهيمانج المدينة المقدسة» −Ambohimànge La ville Sainte, 1897, pp. 92-106
- ✓ «دراسة جيولوجية في مينابي وماهيلاكا»
- ✓ Etude géologique sur le Ménabé et le Mahilaka, 1897, pp. 407-412.
- ✓ «ملاحظات من تاريخ مدغشقر» −Notes d'Histoire Malgache, 1898, pp. 294-300.
- ✓ «التعليم في مدغشقر» -L'Enseignement a Madagascar, 1898, pp. 519-531.
- ✓ «جيولوجيا منطقة ماهافافي»
- ✓ -Géologie du Cercle de la Mahavavy, 1898, pp. 857-861.
- ✓ «جيولوجيا ماهيلاكا، أمبونجو، ماهارا–ميلأنجا وبويني»
- ✓ Géologie du Mahilaka, de L'Ambongo, du Mahara-Milanja, et du Bouéni, 1898, pp. 1153-1158.
- ✓ «أطلس لامبونغ» و- Atlas de L'Ambongo, 1898, pp. 1379-1395.

- ✓ محاضرات وندوات أكاديمية النقوش والكتابات الأدبية: **Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres:**
- ✓ «كتابات ونقوش عبرية اكتشفت خلال رحلة إلى الصحراء»
- ✓ –Inscription hébraïque, gravures rupestres et monuments épigraphiques découverts au cours d'un voyage au Sahara, 1903, pp. 466-467.
- ✓ «عرض لنتائج أولية اثنوغرافية لجولة دراسية عبر الصحراء»
- ✓ Exposé provisoire des résultats ethnographiques d'un voyage d'études transsaharien, 1905, pp. 585-592.
- ✓ «مهمة السيد ريغاس إلى الهقار»
- ✓ Compte rendu de la mission de M. Reygasse dans le Hoggar, 1933, pp. 130-133 .
- ✓ «ملاحظات إضافية عن تقرير بعثة السيد ريغاس إلى الهقار»
- ✓ Note additionnelle au compte rendu de la mission de M. Reygasse au Hoggar, 1933, pp. 137-138.
- ✓ «تقرير عن مهمة غوتييه وريغاس خلال سنة **1934**»
- ✓ –Rapport sur la mission Gautier-Reygasse de 1934, 1934, pp. 149-160.
- ✓ «تقريرا حول مهمة إلى الصحراء»
- ✓ -Rapport sur une mission au Sahara, 1935, pp. 307-312.
- ✓ «صحيفة هسبيريس **Hespéris: Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines:**»
- ✓ «مقتطف من ابن خلدون والبيان»
- ✓ Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan, 1924, pp. 305-312.

✓ «حوض أوزيرت» -La Cuvette de Ouaizert, 1925, pp. 91-103.

✓ «الأطلس المتوسط» –Le Moyen Atlas, 1925, pp. 251-264.

✓ «كهوف منطقة دير» -Les Cavernes du Dir, 1925, pp. 383-409.

«مدينة أوداي» –Medinat-ou-Dai, 1926, pp. 5-25

❖ «المجلة الإفريقية **Revue africaine**»

✓«النتائج الأولى لمهمة فروبينيوس»

✓Les Premiers Résultats de la mission Frobenius, 1921, pp. 47-61.

✓«اعتبارات في تاريخ المغرب»

✓ Considérations sur l'histoire du Moghreb, 1927, pp. 47-73.

❖ «الجريدة الآسيوية **Journal Asiatique**»

✓ «هل الهوفا ماليزيون؟ محاولة دراسة مقارنة بين لهجات هوفا وسكالفا»

✓ Les Hova sont-ils des Malais ? Essai d'une étude comparative entre les dialectes Hova et Skalva, 1900, pp. 278-296.

✓ «التقويم الملغاشي» - Le Calendrier Malgache, 1911, pp. 97-117.

❖ نشرة جمعية باريس للجغرافيا التجارية **Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris**»

✓ «نظرة عامة على الجغرافيا الاقتصادية لمدغشقر»

✓ -Madagascar apercu de géographie économique, 1895, pp. 196-202.

✓ «القيمة الاقتصادية للصحراء»

✓ –La Valeur économique du Sahara, 1903, pp. 545-549.

❖ **مجلة «مراجعات جغرافية The geographical review»**

✓ **«البدو والحضر في شمال إفريقيا»**

✓ Nomad and Sedentary folks in Northern Africa, 1921, pp. 3-15.

✓ **«الحياة المحلية في شمال إفريقيا الفرنسية»**

✓ –Native life in French North Africa, 1923, pp. 27-39.

✓ **«خط السكة الحديدية العابر للصحراء»**

✓ The Transsaharian Railway, 1925, pp. 51-69.

✓ **«الهقار قلب الصحراء»** « .The Ahaggar: Heart of the Sahara, 1926, pp– 378-394

✓ **«سُكَّان المدينة»** The People of the Veil: A Review, 1928, pp. 478-484–

✓ **«السياسة الاستعمارية الفرنسية بين النظرية والتطبيق»**

✓ –French Colonial Policy in Theory and Practice: A Review, 1931, pp. 131-141.

✓ **«منطقة شوتس الكبرى ومسألة أتلأنتس»**

✓ The Region of the Great Shotts and the Question of the Atlantis, 1931, pp. 319-321 .

✓ **«البربر المستقرون في جنوب المغرب»**

✓ Sedentary Berbers of Southern Marocco, 1931, pp. 518-519.

✓ **«ملاحظات مناخية وفزيوغرافية على غينيا الفرنسية»**

✓ –Climatic and physiographic notes on French Guinea, 1933, pp. 248-258.

✓ **«أسلاف الطوارق»** -The Ancestors of the Tuareg, 1935, pp. 12-20

✓ **«الحدود الرطبة القاحلة في الجزائر»**

✓ −The Humid-arid Boundary in Algeria, 1937, pp. 169-170.

❖ نشرية الجغرافيا، تنشرها الجمعية الجغرافية بباريس :La Géographie

«bulletin de la Société de géographie

✓ «موديـر–أهانت»

- -Le Mouidir-Ahnet, 1904, pp. 1-18.
- −Le Mouidir-Ahnet, 1904, pp. 85-102.

✓ «عبر الصحراء الفرنسية، من عين أوزيل إلى النيجر»

- A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger, 1907, pp. 1-28.
- A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger, 1907, pp. 103-120.

✓«الهضاب العليا الجزائرية» Les Hauts Plateaux Algériens, 1910, pp. 89-98. −

✓«وثائق أرشيفية سودانية تتعلق بالجنرال غاليـيني»

✓ −documents d'archives Soudanais concernant le Général Galliéni, 1924, pp. 133-146.

❖ «مجلة الأنتربولوجيا **L'Anthropologi**»:

✓«نقوش صخرية جنوب وهران وصحراوية»

✓ −Gravures Rupestres Sud-Oranaises Et Sahariennes, 1904, pp. 497-517.

✓ «دراسات لاثنوغرافيا الصحراء»

- −Études d'ethnographie Saharienne, 1907, pp. 37-68.
- Études d'ethnographie Saharienne, 1907, pp. 315-332.

✓ «مواقع جديدة لنقوش الصخور في شمال إفريقيا»

✓ Nouvelles Stations de Gravures Rupestres Nord Africaines, 1916, pp. 27-45.

❖ «نشرية لجنة مدغشقر **Bulletin du Comité de Madagascar**»

✓ «مدغشقر ومستقبلها» .Madagascar et son Avenir, 1895, pp. 20-33 -

✓ «محاضر اجتماعات الجمعية الجغرافية في باريس **Comptes rendus des séances société géographie paris**»

✓ «رحلة إلى مدغشقر» .Voyage a' Madagascar, 1895, pp. 106-121 -

❖ «نشرية متحف التاريخ الطبيعي**Bulletin du Musée d'histoire naturelle** »

✓ «في التضاريس الرسوبية لمدغشقر»

➢ Sur Les Terrains Sédimentaires de Madagascar, 1895, pp. 178-181.

✓ «تقرير المؤتمر الدولي الجغرافي بلندن Report of the Sixth International Geographical Congress London»

✓ «استكشافات في مدغشقر» .Exploration In Madagascar, 1895, p. 624 -

❖ «مجلة مدغشقر **Revue de Madagascar**»

✓ «الرواسب الاحفورية في مدغشقر»

✓ −Les Gisements de Fossiles a Madagascar, 1899, pp. 103-109.

✓ «العمل المدرسي في مدغشقر» −L'œuvre Scolaire à Madagascar, 1900, pp. 27-42.

✓ «القضايا الدبلوماسية والاستعمارية: مراجعة السياسة الخارجية»

✓ «**Questions diplomatiques et coloniales: revue de politique extérieure**»

✓ «الزراعة الأوروبية في مدغشقر»

✓ L'Agriculture Européenne A Madagascar, 1900, pp. 540-548.

✓ «التقارير الأسبوعية لدورات أكاديمية العلوم **Comptes rendus** «**hebdomadaires des séances de l'Académie des sciences**

✓ «على تضاريس العصر الباليوزوي في وادي الساورة وقورارة»

✓ **–Sur Les Terrains paléozoïques de l'Oued Saoura et de Gourara, 1902, pp. 1071-1073.**

❖ «نشرية الجمعية الجيولوجية الفرنسية **Bulletin de la Société** «**géologique de France**

✓ «المساهمة في الدراسة الجيولوجية للصحراء»

✓ Contribution à l'étude géologique du Sahara, 1906, pp. 729-767.

❖ مجلة «الآثار **Revue Archéologique**»

✓ «عملة ذهبية مجهولة من مدغشقر»

✓ Au Sujet d'une piéce d'or non déterminée, Provenant de Madagascar, 1908, pp. 413-415.

❖ مجلة «التقارير الجغرافية لبيترمان Petermanns Geographische «Mitteilungen

✓ «أبحاث فرنسية حول مسألة أطلنطس»

➢ –Französische forschungen zur AtlantisFrage, 1927, pp. 144-145.

❖ مجلة «ليبا الإيطالية»

✓ «سبب تأسيس مدينة فاس» -La Raison D'être de Fez, 1927, pp. 24–37.

❖ مجلة «العالم الاستعماري مصور Le Monde colonial illustré»

✓ «في كوت ديفوار... لقاءات عشوائية»

✓ En Cote d'Ivoire... Au Hasard des Rencontres, 1932.

✓ «على طول كوت ديفوار، ثلاث صور أخذها إميل فليكس غوتييه أستاذ جامعة الجزائر»

✓ -En Longeant Les Cot de l'A.O.F, Trois instantes par E.F. Gautier, 1932, p. 171 .

❖ مجلة «أكاديمية العلوم الاستعمارية Comptes-rendus de l'Académie des sciences coloniales»

✓ «ميناء كوناكري» Le Port de Conankry, 1941. , pp. 433-437−

✓ «ما تم انجازه في الصحراء منذ 15 أبريل 1927»

✓ Ce qui s'est Fait au Sahara depuis Le 15 Avril 1927, 1942, pp. 11-26.

❖ مجلة «إفريقيا الفرنسية **L'Afrique française**»

✓ «دراسة حول رحلة غرفة التجارة الجزائرية عبر الصحراء»

✓ considération sur le voyage transsaharien des chambres de commerce Algériene, 1927, pp. 92-106.

✓ «معرض الصحراء في تروكادير»

✓ L'exposition du Sahara au Trocadéro, 1934, pp. 411-413 .

❖ مجلة «مجلة باريس **Revu de Paris**»

✓ «الجديد في الصحراء» De Nouveau au Sahara, 1935, pp. 414-428−

❖ مجلة «الحوليات الجغرافية، ستوكهولم **Geografiska Annaler, Stokholm**»

✓ «طرق التجارة القديمة عبر الصحراء الكبرى»

- Anciennes voies du Commerce transsaharien, 1935, pp. 550-562.

❖ مجلة «التاريخ الاقتصادي والاجتماعي **Annales d'histoire économique et sociale**»

✓ «ذهب السودان في التاريخ» -L'Or du Soudan dans l'Histoire, 1935, pp. 113-123.

❖ «المجلة الزرقاء للسياسة والآداب **Revue bleue politique et littéraire**»

✓ «انتقام نافرين» -La Revanche de Navarin, 1936, pp. 372-381.

4 – مقالات منشورة في جرائد:

✓ جريدة «تقدم ارمينيا **Le Progrés de l'Imerina, Tananarive**» نشر فيها مقالات بعنوان: «من ماجونجا إلى تاناناريفو **De Majunga a' Tananarive**» من شهر أكتوبر إلى شهر ديسمبر سنة 1892.

✓ جريدة «لاديباش كولونيال **La Dépêche Coloniale**» نشر فيها مقالات بعنوان: «في سوريا En Syrie» بين شهر أوت وأكتوبر 1930.

✓ جريدة «لا ديباش La Dépêche: journal quotidien» نشر فيها مقالات بعنوان: «تحقيقنا في ألمانيا **Notre Enquete en Allemagne**» من شهر أوت إلى 1 أكتوبر 1932.

- ✓ جريدة «**أنا في كل مكان Je Suis Partout, Paris**» نشر فيها تقرير بعنوان: «من رواية انجليزية سورال وسون Roman Anglais, Sorel and Son» بتاريخ 18 أفريل 1936. (Albertini, et al., 1937, p. XI).

الملحق الثاني: صورة فتوغرافية لـ «إميل فليكس غوتييه»



(Albertini, et al., 1937, p. III)

الملحق الثالث: صورة لمسودة كتاب «Structure de l'Algérie» مزودة بملاحظات بخط يد إميل فليكس غوتييه

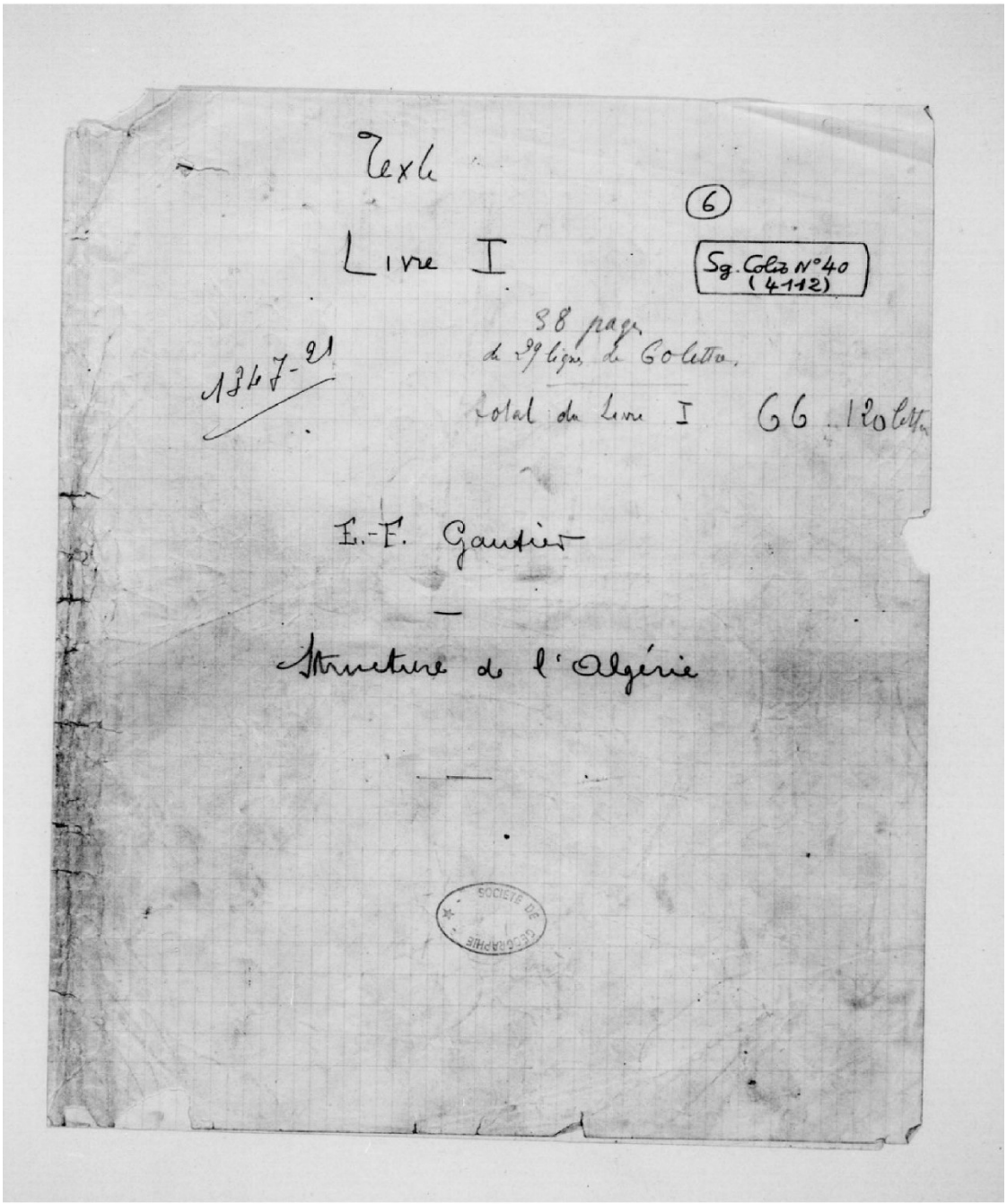

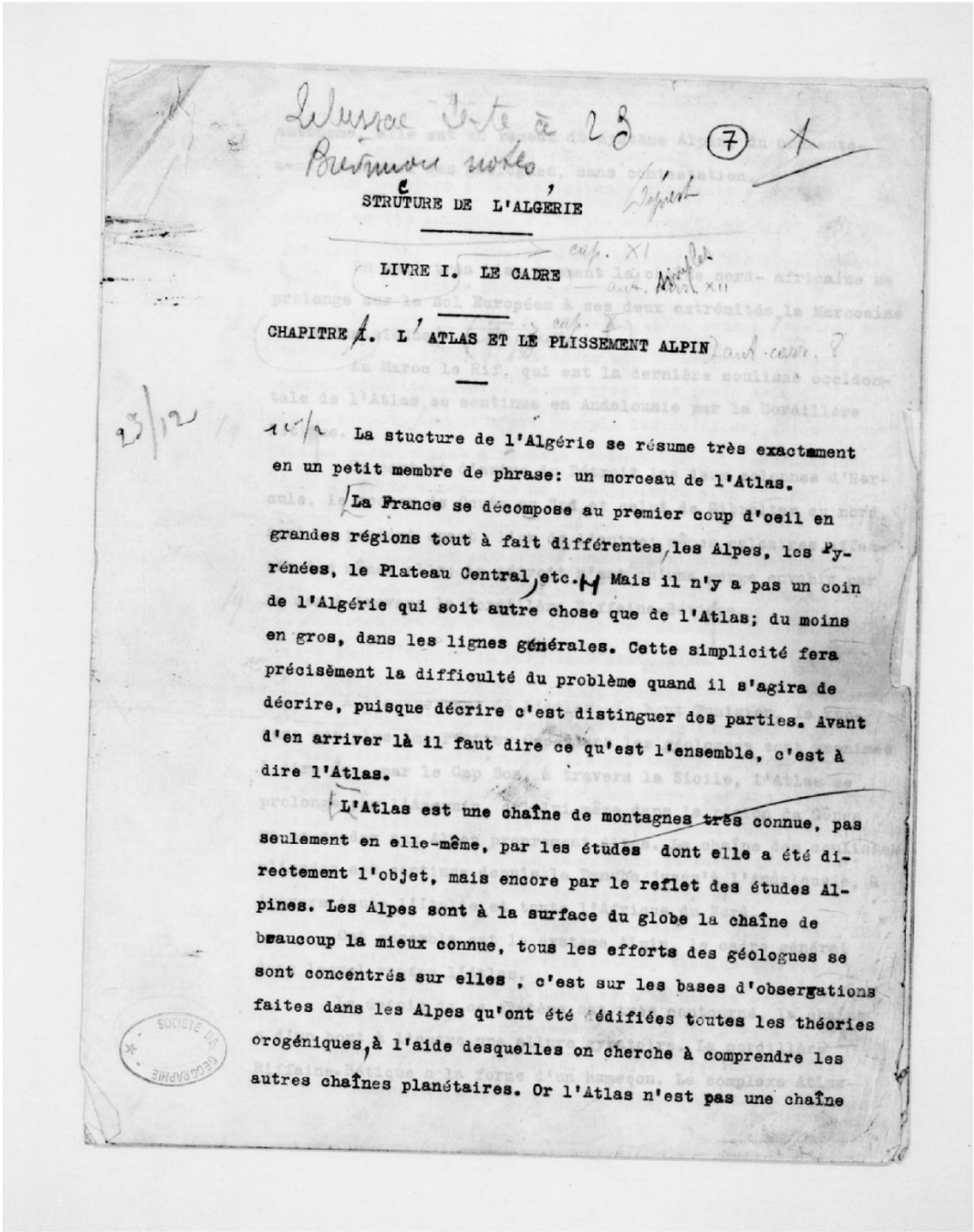

STRUTURE DE L'ALGERIE

LIVRE I. LE CADRE

CHAPITRE I. L'ATLAS ET LE PLISSEMENT ALPIN

La stucture de l'Algérie se résume très exactement en un petit membre de phrase: un morceau de l'Atlas.

La France se décompose au premier coup d'oeil en grandes régions tout à fait différentes, les Alpes, les Pyrénées, le Plateau Central, etc. Mais il n'y a pas un coin de l'Algérie qui soit autre chose que de l'Atlas; du moins en gros, dans les lignes générales. Cette simplicité fera précisément la difficulté du problème quand il s'agira de décrire, puisque décrire c'est distinguer des parties. Avant d'en arriver là il faut dire ce qu'est l'ensemble, c'est à dire l'Atlas.

L'Atlas est une chaîne de montagnes très connue, pas seulement en elle-même, par les études dont elle a été directement l'objet, mais encore par le reflet des études Alpines. Les Alpes sont à la surface du globe la chaîne de beaucoup la mieux connue, tous les efforts des géologues se sont concentrés sur elles, c'est sur les bases d'obsergations faites dans les Alpes qu'ont été édifiées toutes les théories orogéniques, à l'aide desquelles on cherche à comprendre les autres chaînes planétaires. Or l'Atlas n'est pas une chaîne

الملحق الرابع: نموذج رسالة بخط يد «اميل فليكس غوتييه» حول كتاب

« Structure de l'Algérie »

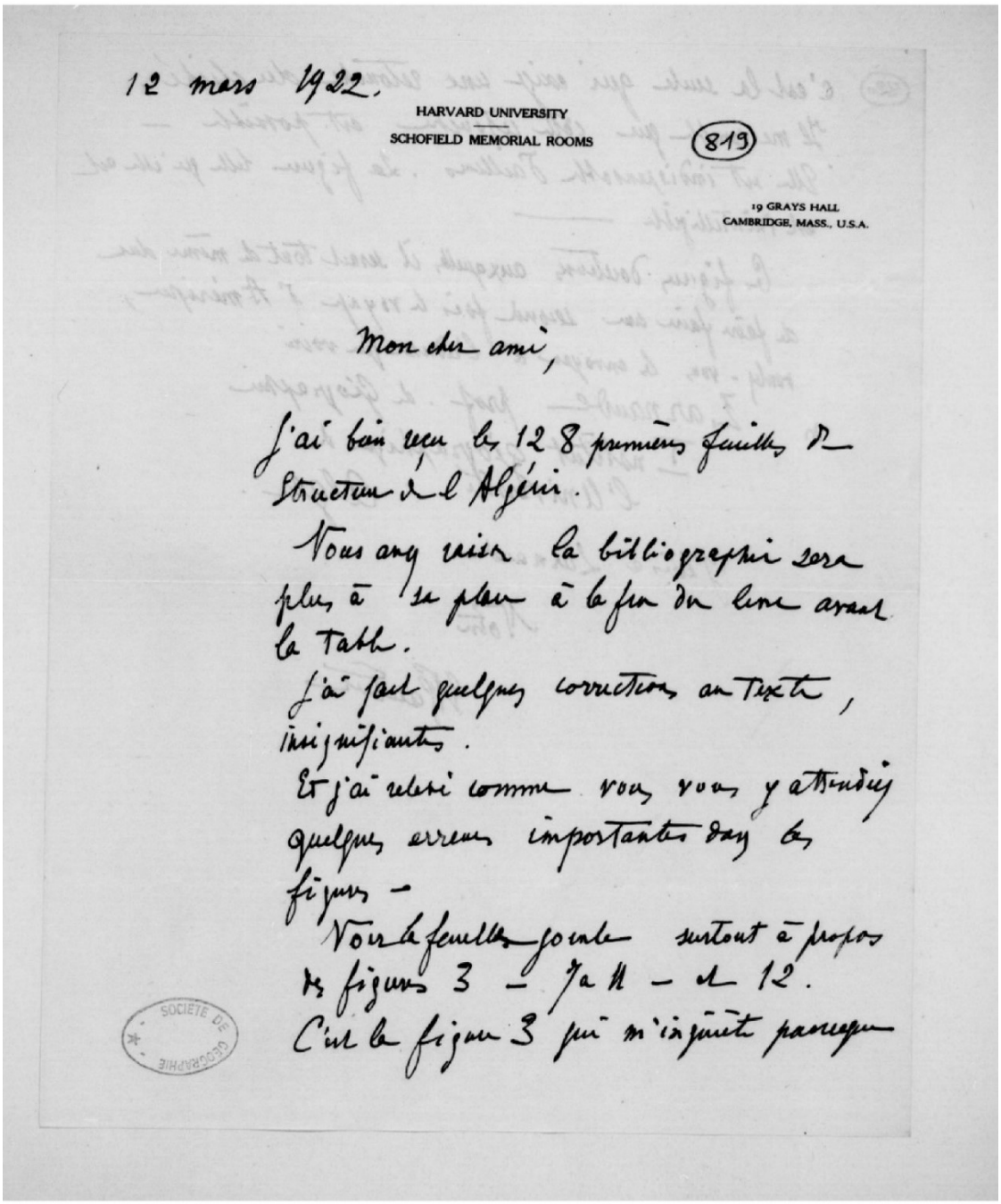

12 mars 1922.

HARVARD UNIVERSITY
SCHOFIELD MEMORIAL ROOMS

(819)

19 GRAYS HALL
CAMBRIDGE, MASS., U.S.A.

Mon cher ami,

J'ai bien reçu les 12 8 premières feuilles de Structure de l'Algérie.

Vous avez raison la bibliographie sera plus à sa place à la fin du livre avant la Table.

J'ai fait quelques corrections au Texte, insignifiantes.

Et j'ai relevé comme vous vous y attendiez quelques erreurs importantes dans les figures -

Pour la feuille finale surtout à propos des figures 3 - 7a 11 - et 12.

C'est la figure 3 qui m'inquiète parceque

SOCIETE DE GEOGRAPHIE

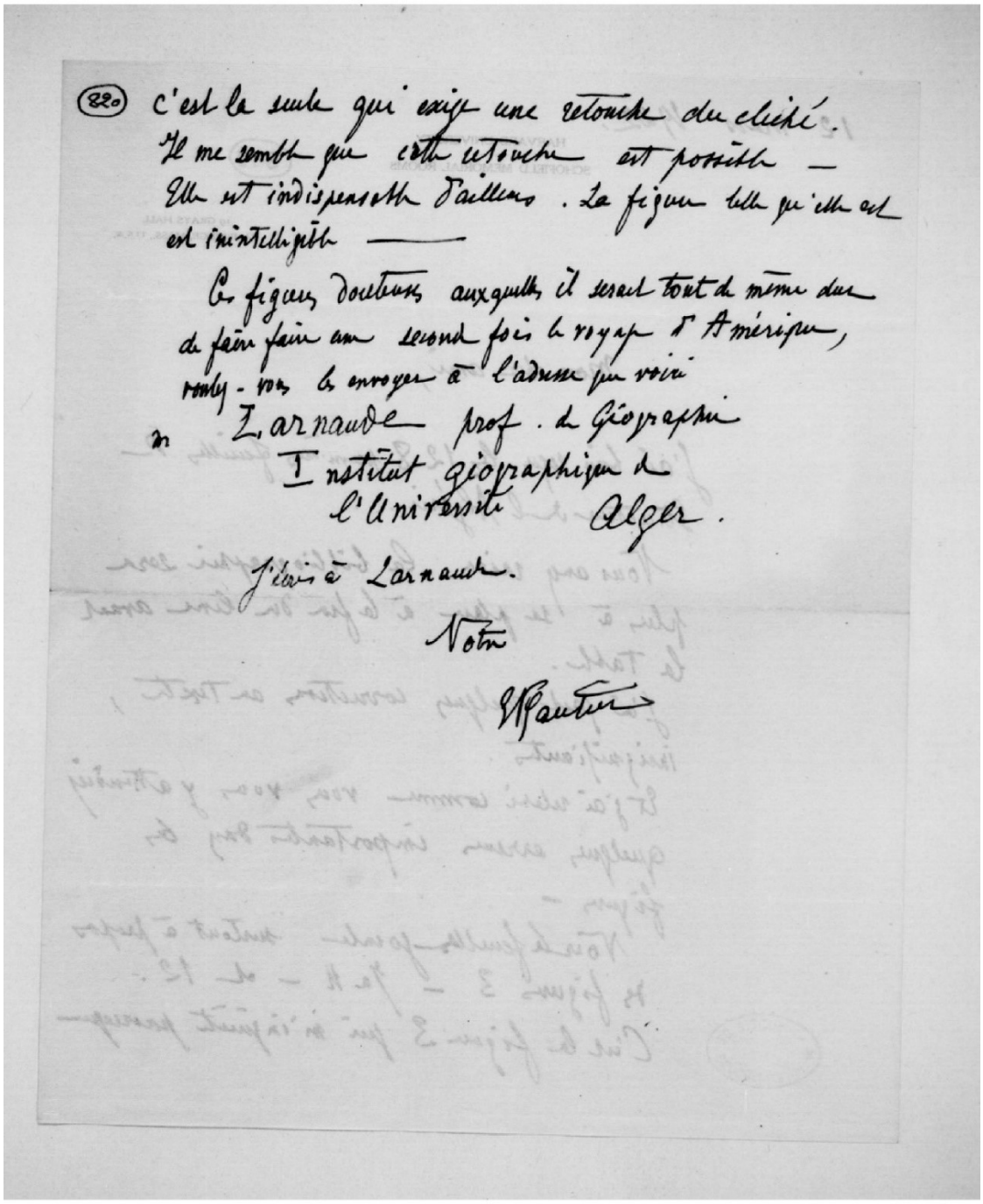

(220) C'est la seule qui exige une retouche du cliché.
Il me semble que cette retouche est possible —
Elle est indispensable d'ailleurs. La figure telle qu'elle est est inintelligible ——

Ces figures douteuses auxquelles il serait tout de même dur de faire faire un second fois le voyage d'Amérique, voulez-vous les envoyer à l'adresse que voici

M. Larnaude prof. de Géographie
Institut géographique de
l'Université Alger.

J'écris à Larnaude.

Votre

Gautier

الملحق الخامس: صور للتقارير التي أنجزها "غوتييه" خلال مشاركته في الحرب العالمية الأولى

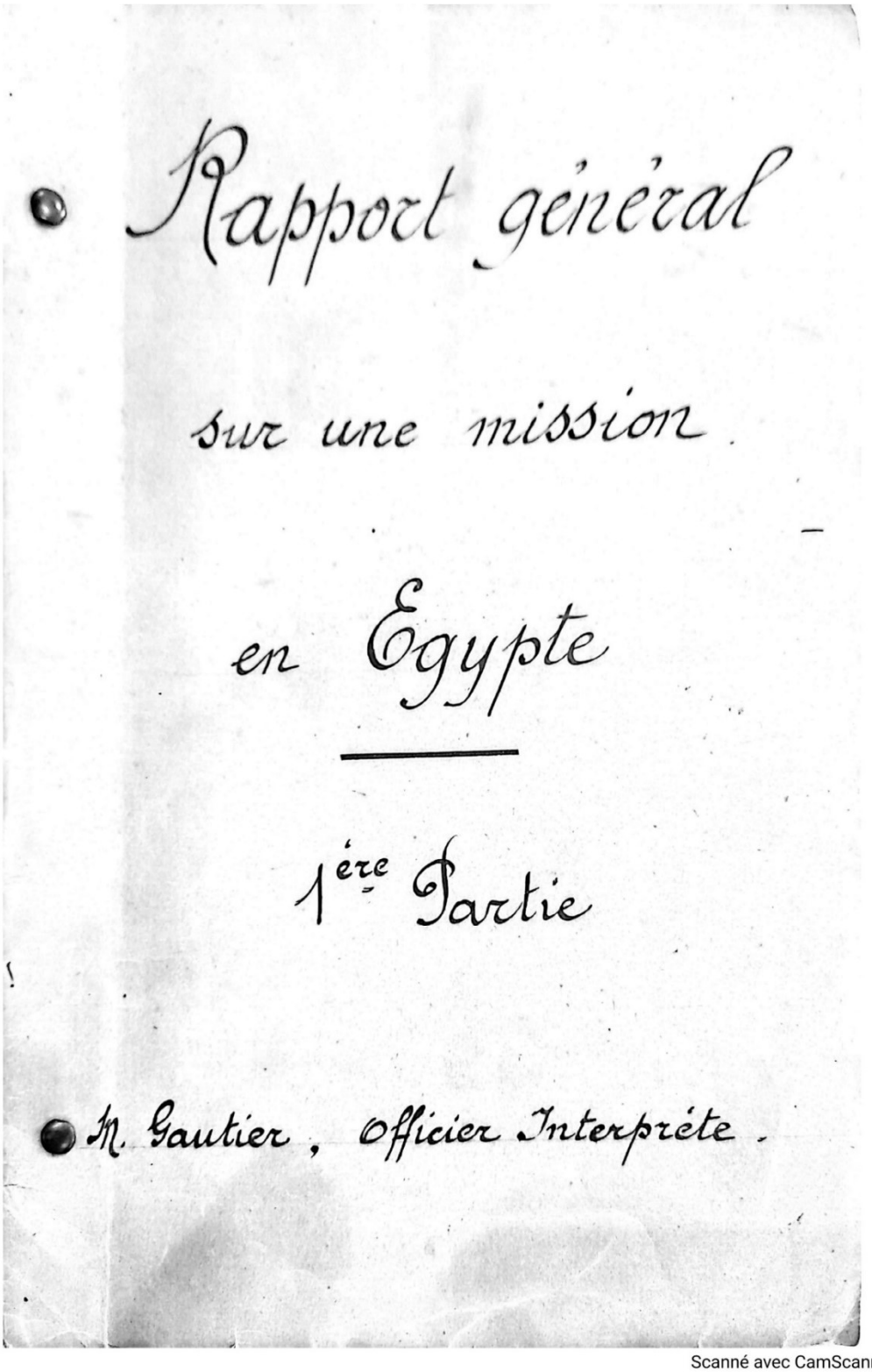

Rapport général

sur une mission

en Égypte

1ère Partie

M. Gautier, officier Interprète.

Scanné avec CamScanner

(1)

RAPPORT GENERAL sur une MISSION
en E G Y P T E

++++++++++++++++++++++

Monsieur le Gouverneur Général,

Voici les étapes de la Mission que vous m'avez fait l'honneur de me confier:
Départ de PHILIPPEVILLE le 10 Mars 1 917 et arrivée à ALEXANDRIE le 17 mars -
Du 17 Mars au Ier Avril un voyage à MATROUH (frontière Tripolitaine) dans la région SOLLOUM-SIOUAH -
Du Ier avril au Ier Mai séjour au CAIRE -
Du Ier mai au 2 Juin voyage en ARABIE (DJEDDA, IAMBO, EL OUEDJ)-
DU 2 Juin au 3 Juillet à la frontière Tripolitaine de Haute-EGYPTE, (oasis de DAKHLA, KHARGEH)-
Du 3 Juillet au 27 Juillet voyage en PALESTINE (GAZA)-
27 Juillet embarquement à ALEXANDRIE et débarquement à BIZERTE le 3 Août 1917.

Ceci dit, je ne m'astreindrai pas, dans ce qui va suivre, à l'ordre chronologique et je m'efforcerai de classer mes observations dans un ordre logique.

Il me semble qu'il faut faire au début une observation préliminaire, qui s'applique à tout .

Nous autres, dans notre SAHARA Français, où nous sommes installés depuis un demi-siècle, nous avons l'indigène comme collaborateur ; non seulement nous l'employons, mais aussi ses chameaux et ses.....

Scanné avec CamScanner

R A P P O R T

SUR une MISSION en EGYPTE

- 2ème Partie -

Scanné avec CamScanner

Les anglais en ont le sentiment. Un officier anglais disait en riant: " Savez-vous combien de temps a mis NAPOLEON pour aller de PORT SAID à JAFFA ? il a mis sept jours". A l'armée de GAZA, dans les mess d'officiers, le sujet de conversation favori est : "quand finira la guerre!".

Ce sont des nuances pourtant . L'armée anglaise est certainement en très bon état physique et moral.

Les notes que je rédige datent de fin juillet. Le nouveau général, ALLENBY, allait, disait-on, s'installer à KHAN YOUNES, au milieu des troupes. Tandis que MURRAY avait dirigé les opérations du CAIRE, que son Q.G. n'a jamais quitté.

C O N C L U S I O N.

La mission que M. le Gouverneur Général m'a fait l'honneur de me confier consistait à voir comment procèdent les anglais et à le dire. Je n'ai pas à tirer de ma tentative d'exposition des conclusions pratiques. Ce n'est pas mon rôle .

Lorsque nos soldats français touchent en PALESTINE du pain anglais ils le critiquent vivement et je crois justement. La supériorité de la cuisine française est réelle, elle comporte la supériorité de notre boulangerie. Un officier d'administration français a voulu par l'intermédiaire d'un ami anglais, réformer la boulangerie de l'armée anglaise. Il a été repoussé avec pertes et fracas.

Ces questions sont très délicates. Deux grands organismes administratifs distincts, qui ont chacun son passé, ses traditions, son orgueil, ont de la peine à se faire des emprunts mutuels. - Pourtant il est irritant de voir quelle pingrerie chez nous correspond à la prodigalité anglaise. Il suffit de rappeler qu'il a été construit en EGYPTE pendant la guerre quelque chose comme 600 Km de chemin de fer nouveaux, dont la moitié ne répondent à aucun besoin du temps de paix. Et tout est à l'avenant.

Mais ces considérations ne sont pas à leur place dans un rapport administratif algérien. C'est la métropole qu'il faudrait convaincre. Et c'est à l'opinion publique qu'il faudrait s'adresser/.

Signé: GAUTIER.

Scanné avec CamScanner

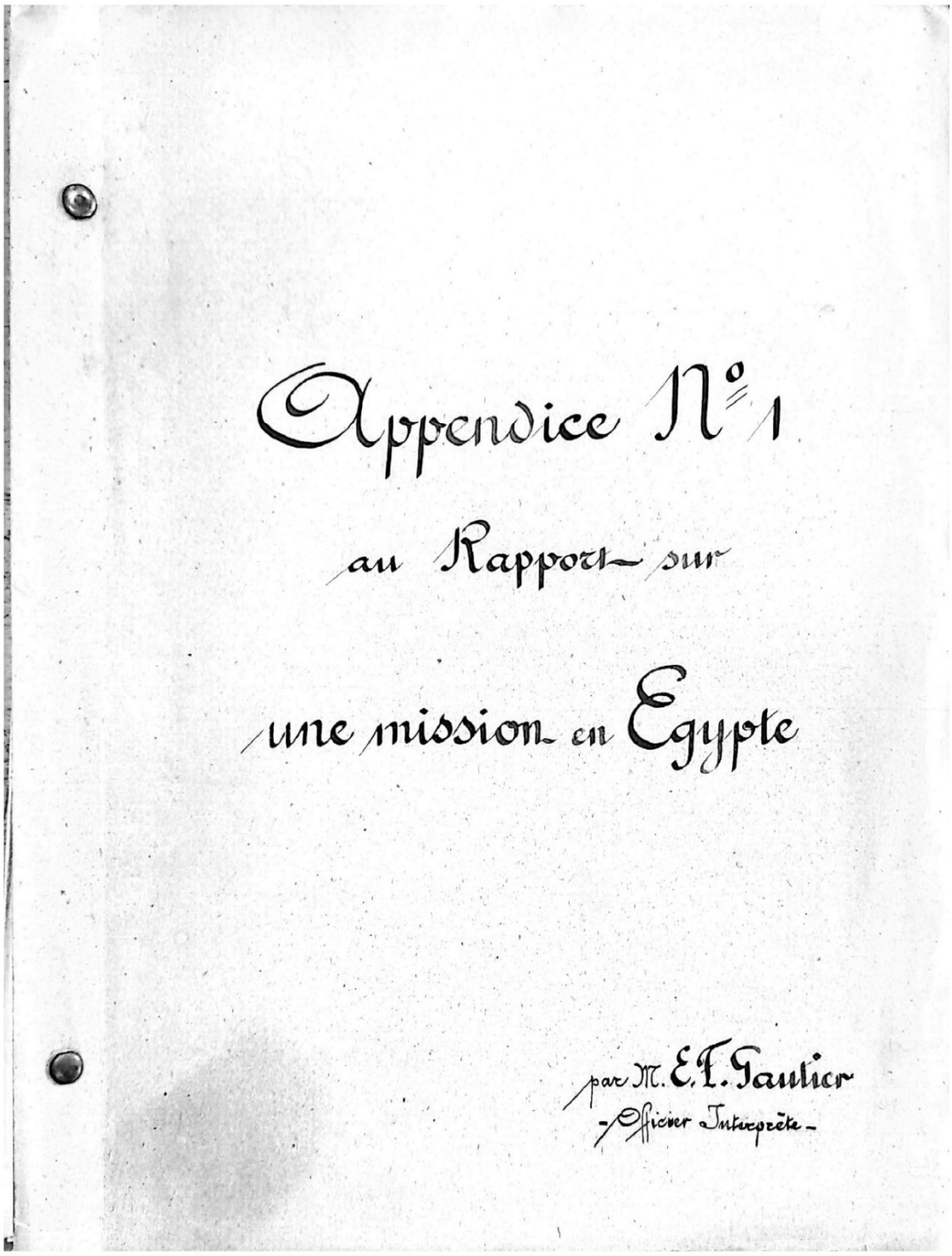

Appendice N° 1

au Rapport sur

une mission en Egypte

par M. E. F. Gautier

-Officier Interprète-

Scanné avec CamScanner

M. CHAPELIER me dit qu'il était parti pour PARIS pour demander un BABY HOLT. M. LOUCHEUR n'en avait pas. Mais vraiment est-ce admissible . En PALESTINE, en MACEDOINE, en FRANCE, l'armée anglaise, pour ne rien dire de la française et de l'amériaaine, emploie le BABY-HOLT par centaines. Et l'ALGERIE ne peut pas en obtenir un seul, à titre d'essai ?...-

Dans mon rapport précédent je me suis gardé soigneusement de toute conclusion technique, n'étant pas technicienà Mais au retour d'OUARGLA je crois devoir me départir de cette réserve. La question n'est plus technique mais de simple bon sens. Il me paraît inconcevable qu'il n'y ait pas à TOUGGOURT un BABY-HOLT avec son train d'une dizaine de voitures (à chenilles ou à larges roues). C'est une expérience que nous n'avons pas le droit de ne pas faire.

D'après M. le Lieutenant CHAPELIER, les bureaux parisiens en échange du tracteur HOLT, lui ont offert un tank SAINT-CHAMOND (pas un tracteur, un camion portant 5 tonnes, 105 chevaux) c'est à dire quelque chose de tout différent.

On raconte en ORIENT l'histoire d'un bey turc qui commanda un grog américain à son chaouch: "Tu prendras du sucre - Effendi, je n'ai pas de sucre - Et bien tu prendras quelque chose de sucré, du miel, - puis tu prendras du citron - C'est que, Effendi, je n'ai pas de citron - Eh bien ! tu prendras quelque chose d'acide, du vinaigre: la moindre difficulté t'arrête".

En Occident on a souvent entendu dire que l'industrie française n'a pas l'habitude de prendre en considération les besoins précis de ses clients.

C'est l'histoire de l'escadrille de BISKRA et des appareils CAUDRON à moteurs rotatifs.

Ne pourrait-on remonter ce redoutable courant et se procurer un BABY HOLT, dût-on aller le chercher à LONDRES qui n'est pas si loin, s'il n'y en avait toujours pas à PARIS.

Signé: GAUTIER.

Scanné avec CamScanner

الملحق السادس: نماذج لصور سجل محاضر أساتذة جامعة الجزائر بخط يد نموذج الدراسة

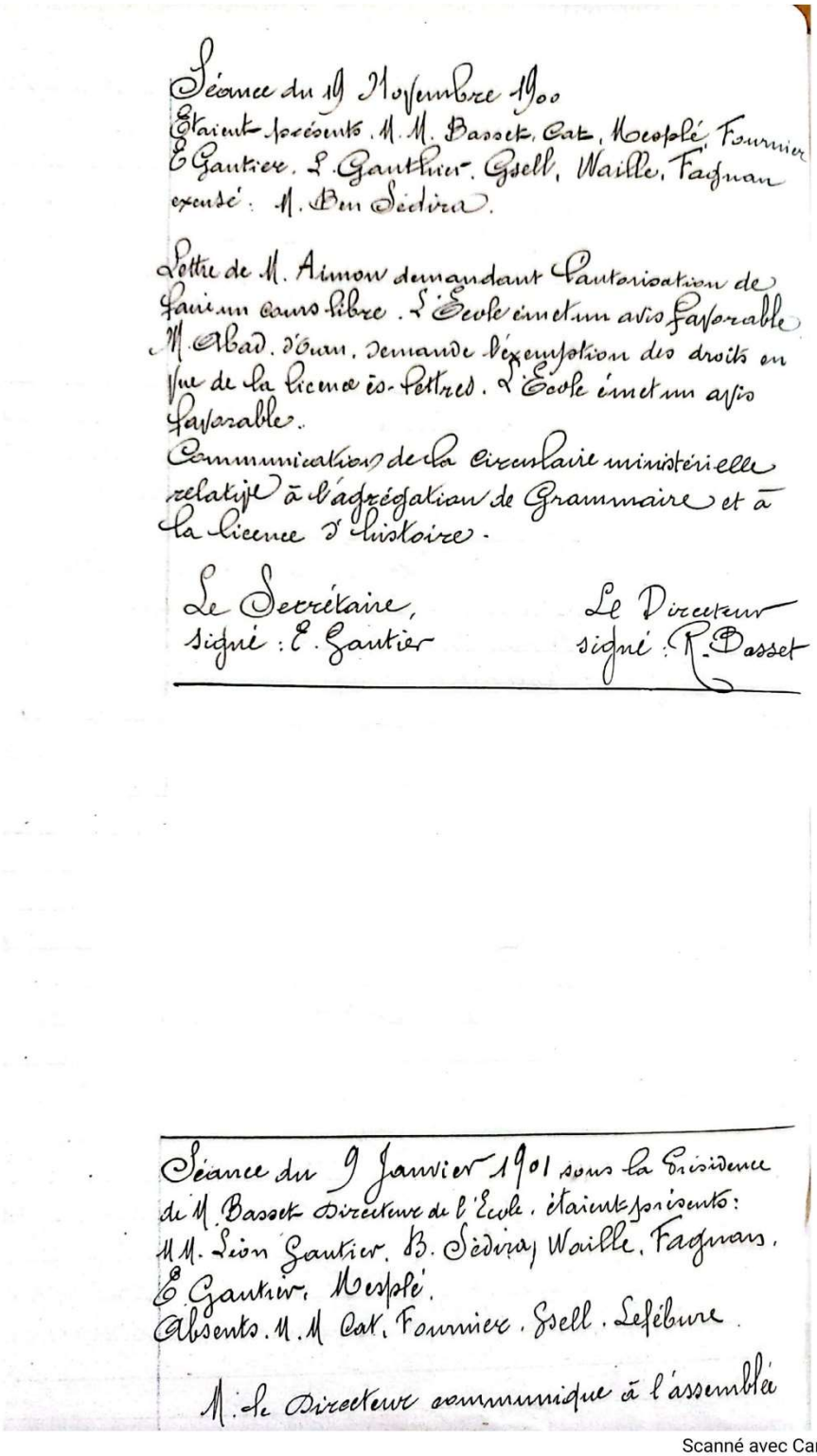

Séance du 19 Novembre 1900
Etaient présents. M.M. Basset, Cat, Mesplé, Fournier
E Gautier. L. Gauthier. Gsell, Waille, Fagnan
excusé: M. Ben Sédira.

Lettre de M. Aimon demandant l'autorisation de faire un cours libre. L'Ecole émet un avis favorable
M. Abad. d'Oran, demande l'exemption des droits en vue de la licence ès-lettres. L'Ecole émet un avis favorable.
Communication de la circulaire ministérielle relative à l'agrégation de Grammaire et à la licence d'histoire.

Le Secrétaire,
signé: E. Gautier

Le Directeur
signé: R. Basset

Séance du 9 Janvier 1901 sous la Présidence de M. Basset Directeur de l'Ecole. étaient présents:
MM. Léon Gautier. B. Sédira, Waille, Fagnan.
E. Gautier. Mesplé.
Absents. M.M Cat. Fournier. Gsell. Lefébure.

M. le Directeur communique à l'assemblée

Scanné avec CamScanner

Le Vœu adopté par le Conseil académique tend à ce que la session de Novembre des baccalauréats de l'enseignt secondaire moderne (1re partie) soit avancée à la fin d'Octobre de manière à être terminée le 1er Novembre. La seule raison invoquée à l'appui de cette modification est que l'arrivée d'un certain nombre d'élèves nouveaux, reçus à la session de Novembre, cause du désarroi dans la classe de philosophie. L'assemblée de l'Ecole, à l'unanimité déclare que le désarroi ne sera pas moindre si les élèves entrent le 3 novembre au lieu de 10, et que, en raison des conditions climatériques les candidats, ayant échoué en Juin - Juillet, se trouveraient restreindre, si cette mesure était adoptée, le temps matériel nécessaire pour la réparation de leur échec ; il émet le Vœu que, comme en ce qui concerne le baccalauréat en France, l'ouverture soit maintenue au 3 9bre.

Vo Le Conseil départemental d'Oran a émis le vœu que les épreuves écrites des brevets et diplômes de langue arabe et Kabyle aient lieu à Oran L'Ecole, considérant que, en ce qui concerne les brevets et diplôme d'arabe en novembre, cette mesure favoriserait exclusivement les instituteurs résidant à Oran aux dépens de ceux qui résident dans les différents centres de ce département et obligerait ces derniers à un double déplacemt également onéreux et désavantageux en raison de leur absence prolongée, demande le maintien de l'Etat actuel.

En ce qui concerne le diplôme de berbère aucun candidat du dépt d'Oran n'était inscrit pour passer cet examen, il n'y a pas lieu d'examiner la question. Pour le brevet de Kabyle les candidats du départt d'Oran forment une très faible partie dans l'ensemble.

Scanné avec CamScanner

de ceux qui se préparent à l'examen. De plus la mesure proposée aurait pour résultat de prolonger outre mesure la durée de la session de Juin et Novembre.

3e M. le Directeur donne également connaissance d'une lettre de M. le Gouverneur Général, relative à la suppression, à partir du 1 Janvier 1902, de la bonification coloniale due à la retraite des fonctionnaires civils et militaires. Suivant la demande de M. le Recteur, un rapport spécial dont est chargé M. E. F. Gautier lui sera adressé sur cette question.

Le Secrétaire,
Signé: E. F. Gautier.

Le Directeur,
Signé: R. Basset

Assemblée des professeurs de l'École des Lettres.

Mercredi 27 février 1901 1/2

Présidence de M. R. Basset. Directeur.
Sont présents: MM: Mesplé, Fagnan, Lefébure, L. Gauthier, B. Sédira, Fournier, E.F. Gautier
absents excusés: MM. Gsell et Bernard
absent: M. Cat.

M. le Directeur met en discussion la constitution du Jury d'examen pour la session du baccalauréat (mars 1901). L'École arrête la constitution du Jury ainsi qu'il suit:

Classique: MM. Cat. Mesplé et L. Gauthier
arabe: M. B. Sédira
anglais et Italien: M. Mesplé
allemand M. E.F. Gautier

2e partie = MM. Cat. Léon Gauthier et 1 Profr de Sciences
Lettres-math. M. Lefébure délégué.

Scanné avec CamScanner

L'École arrête ensuite sur la proposition de M. le Directeur l'affiche du second semestre.

M. le Directeur soumet aux délibérations de l'assemblée un vœu émis par les Facultés de Lyon et de Lille.

Les Facultés des Lettres de Lyon et de Lille ont émis un vœu tendant à ce que le baccalauréat fut enlevé à l'examen qui le porte actuellement et qui prendrait celui de Certif[t] d'études. Le baccalauréat ès Lettres deviendrait un examen qui se préparerait à la Faculté &c. &c. chose d'analogue au bacc[t] en droit. Après longue discussion, à la majorité l'École s'associe à ce vœu, en demandant que le nouveau baccalauréat ès-lettres ainsi créé demeure comme le baccalauréat ès-lettres actuel exigible des Candidats au baccalauréat en droit.

M. le Directeur soumet à l'approbation de l'assemblée le sujet proposé par M. Rieulon Candidat au diplôme d'études historiques.

L'Assemblée approuve.

Le Directeur.
Signé: R. Basset.

Le Secrétaire
signé E.F. Gautier

Scanné avec CamScanner

الملحق السابع: صورة لغلاف كتاب تطور الجزائر من 1830 إلى 1930

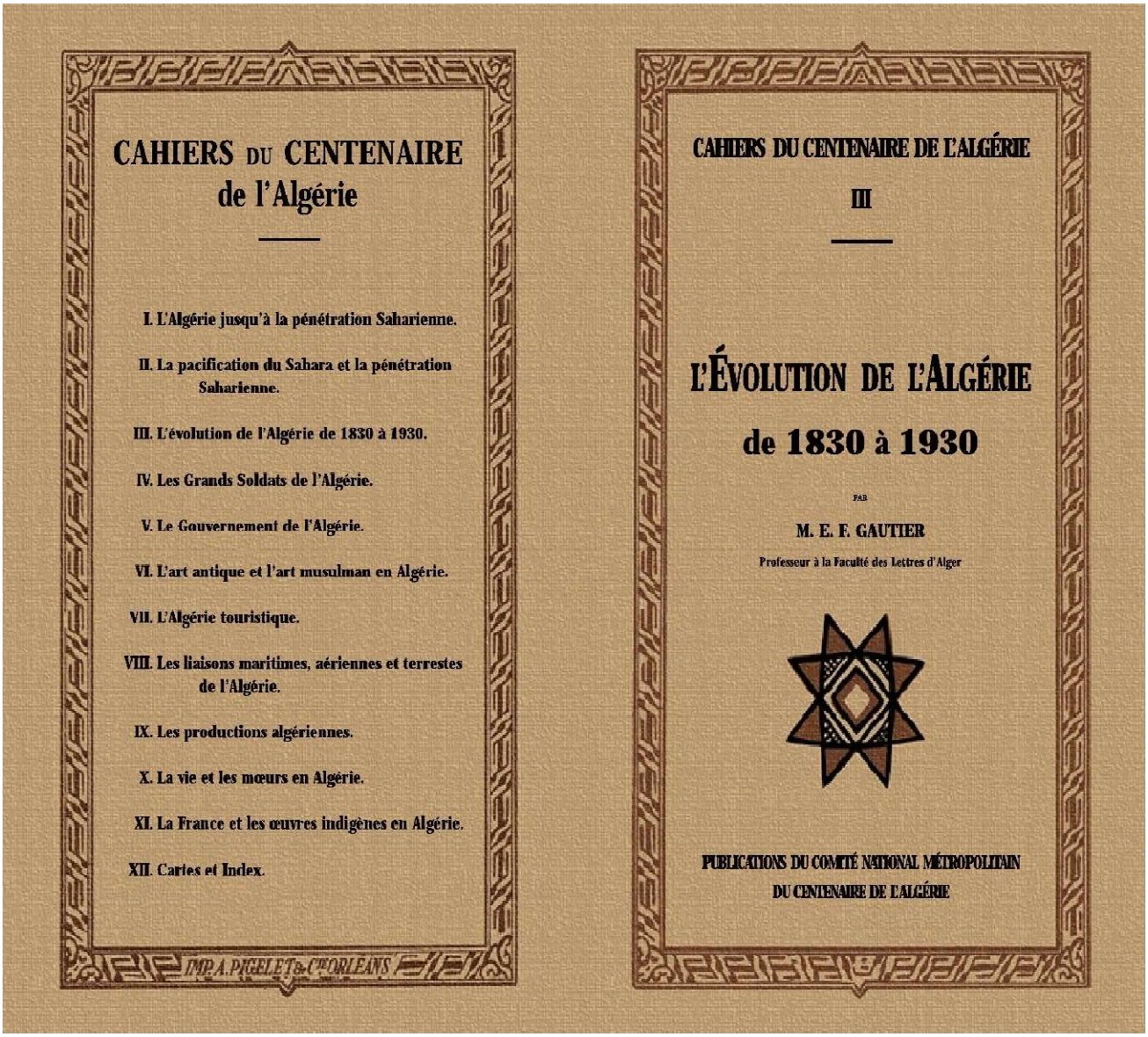

CAHIERS DU CENTENAIRE de l'Algérie

I. L'Algérie jusqu'à la pénétration Saharienne.

II. La pacification du Sahara et la pénétration Saharienne.

III. L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930.

IV. Les Grands Soldats de l'Algérie.

V. Le Gouvernement de l'Algérie.

VI. L'art antique et l'art musulman en Algérie.

VII. L'Algérie touristique.

VIII. Les liaisons maritimes, aériennes et terrestes de l'Algérie.

IX. Les productions algériennes.

X. La vie et les mœurs en Algérie.

XI. La France et les œuvres indigènes en Algérie.

XII. Cartes et Index.

IMP. A. PIGELET & Cie ORLEANS

CAHIERS DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE

III

L'ÉVOLUTION DE L'ALGÉRIE

de 1830 à 1930

PAR

M. E. F. GAUTIER

Professeur à la Faculté des Lettres d'Alger

PUBLICATIONS DU COMITÉ NATIONAL MÉTROPOLITAIN DU CENTENAIRE DE L'ALGÉRIE

الملحق الثامن: صورة لكتاب «اسلام شمال إفريقيا القرون المظلمة للمغرب» نسخة 1927.

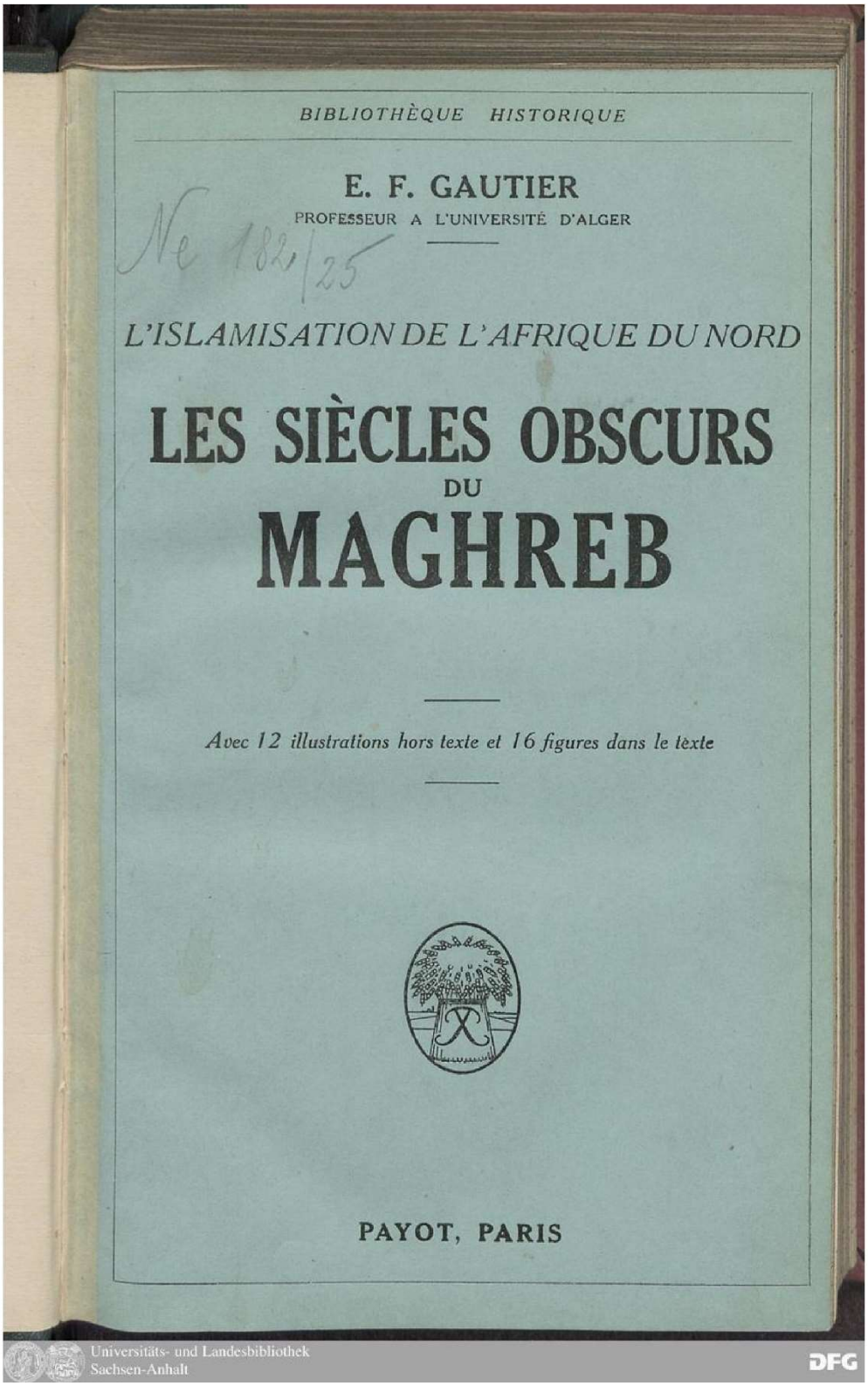

BIBLIOTHÈQUE HISTORIQUE

E. F. GAUTIER

PROFESSEUR A L'UNIVERSITÉ D'ALGER

Ne 182/25

L'ISLAMISATION DE L'AFRIQUE DU NORD

LES SIÈCLES OBSCURS DU MAGHREB

Avec 12 illustrations hors texte et 16 figures dans le texte

PAYOT, PARIS

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
DFG

الملحق التاسع: صورة لغلاف كتاب «ماضي شمال افريقيا القرون المظلمة» نسخة 1937

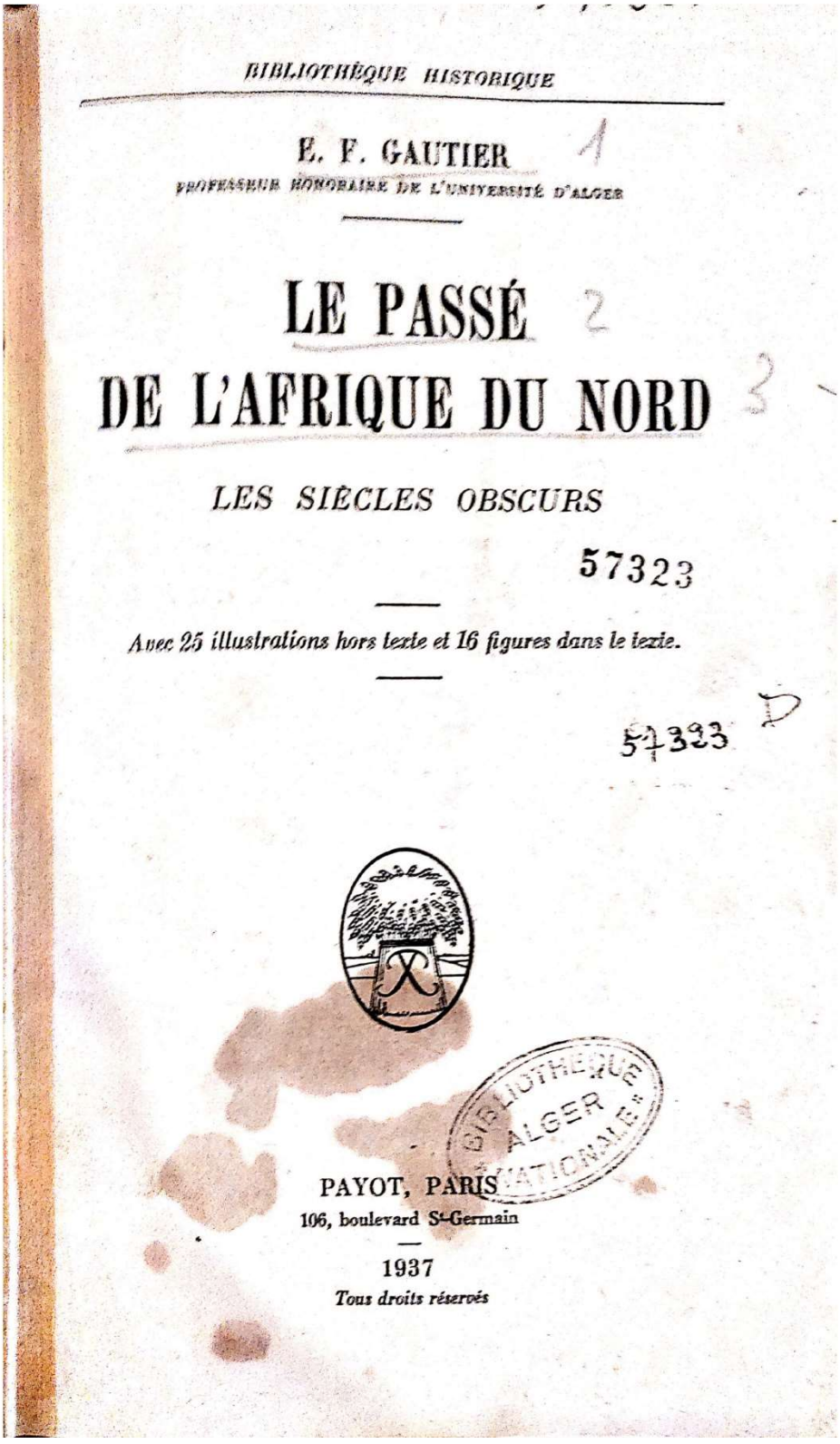

BIBLIOTHÈQUE HISTORIQUE

E. F. GAUTIER

PROFESSEUR HONORAIRE DE L'UNIVERSITÉ D'ALGER

LE PASSÉ DE L'AFRIQUE DU NORD

LES SIÈCLES OBSCURS

57323

Avec 25 illustrations hors texte et 16 figures dans le texte.

57323

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE ALGER

PAYOT, PARIS
106, boulevard St-Germain
1937

Tous droits réservés

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر

1 – الوثائق الأرشيفية (أرشيف ما وراء البحار أكس أون بروفونس)

➢ علبة رقم: «**GGA 10H 75**» تضمنت تقارير أرشيفية لإميل فليكس غوتييه.

1 - Gautier, É.-F. (1917). Rapport général sur une mission en Egypte 1er Partie .

2 - Gautier, É.-F. (1917). Rapport sur une mission en Egypte 2em Partie.

3 - Gautier, Émile-Félix. (1921). Oppenvice N:1 au rapport sur une mission en Egybt, 1917.

4 - Gautier, Émile-Félix. (1921). Notes prises au cours de géographie de Monsieur Gautier professeur a la Faculté des lettres d'Alger Année 1921.

➢ علبة رقم: «**GGA 44S 2**» تضمنت تقارير جلسات أستاذة جامعة الجزائر

1 - Basset, René. (1901, Février 27). Assemblée des professeurs de l'école des lettres.

2 - Basset, René. (1912, Janvier). Conseil de la Faculté Letter 10 Janvier 1912.

2 – المصادر المطبوعة باللغة العربية

أ – الكتب

1- ابن خلدون عبد الرحمان. (2004). مقدمة ابن خلدون (الإصدار 1، المجلد 2). (تحقيق: عبد الله محمد الدرويش) دمشق -سوريا-: دار البلخي.

2- البلاذري أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر. (1987). فتوح البلدان. (تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع) بيروت، لبنان: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر.

3- السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمان. (2017). الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (الإصدار 1). (تحقيق: سالم بن عمر بن سالم الظفيري) الرياض، المملكة العربية السعودية: دار الصميعي للنشر والتوزيع.

4- المدني أحمد توفيق. (1956). هذه هي الجزائر. مصر: مكتبة النهضة المصرية.

5- المدني أحمد توفيق. (1962). كتاب الجزائر (الإصدار 2). البليدة: دار البليدة للنشر والتوزيع.

6- الميلي مبارك بن محمد. (1964). تاريخ الجزائر في القديم والحديث (المجلد 3). بيروت: مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، طبع: بدران وشركاؤه.

7- الميلي مبارك بن محمد. (1986). تاريخ الجزائر في القديم والحديث. (تحرير: محمد الميلي) الجزائر: المؤسسة الوطنيّة للكتاب.

8- الوزان الحسن بن محمد. (1983). وصف افريقيا. (ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر) بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

9- سبنسر وليام. (2006). الجزائر في عهد رياس البحر. (ترجمة: عبد القادر زبادية) الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع.

10- فرحات عباس. (2005). ليل الاستعمار. (ترجمة: أبو بكر رحال) الجزائر: دار القصبة للنشر.

11- فرحات عباس. (2007). الشاب الجزائري. (ترجمة: أحمد منور) الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش.

12- كاثكارت، جيمس ليندر. (1982). مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب. (ترجمة: اسماعيل العربي) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

ب – المقالات في الجرائد

1 – ابن باديس عبد الحميد. (1936). ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان. جريدة الشهاب، 11(11).

3 – المصادر المطبوعة باللغة الأجنبية

أ – الجرائد الرسمية الفرنسية

1. République Française. (1921, Avril 10). Arrété 9 Avril 1921 création Institut géographie.
2. la République française. (1937, Juillet 23). décret création l'institut de recherches sahariennes. Journal officiel de la République française.
3. République Française. (1956, Avril Jeudi 5). Décret du 31 mars 1956 portant création d'un institut d'ethnologie a' l'université d'Alger (Décret).

ب – الكتب

1- Alazard, Jean; Albertini, Eugène; & Bel, Alfred. (1931). Histoire et historiens de l'Algérie. Paris : Librairie Félix Alcan,108 rue Boulivard Saint-Germain (VIe).

2- Albertini, Eugène; Baulig, Henri; Bel, Alfred; Blache, Jules; Raoul, Blanchard; Bourcart, Jacques; Bourdarie, Paul. (1937). Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à E. -F. Gautier. Tours : Arrault et cie, maîtres imprimeurs, 6 a 12 rue de la Préfecture.

3- Berbrugger Louis Adrien. (1845). De la Nécessité De Coloniser Le Cap Matifou. Paris : Imprimerie et Lithographie de Maulde et Renou, Rue Bailleul.
4- Berbrugger Louis Adrien. (1853). La Grande Kabilie sous les Romains. Paris : Au Bureau De la Revue Orientale, 68 rue de Babylon.
5- Berbrugger Louis Adrien. (1857). Les Epoques Militaire de la Grande Kabilie. Paris : Typographie Bastide, 7 rue de la Bours, Alger, et Challamel éditeur-Comm, 30 rue des Boulangers.
6- Bernard, Augustin ; Ozan, paul; D'Esperey, Maréchal Franchet ; Pierard, Ernest; Gautier, Émile-Félix. (1929). Une oeuvre française : L'Algérie. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 Boulevard Saint Germain.
7- Bertrand, Clauzel. (1831). Observation du Général Clauzel sur Quelques Actes Son Commandement à Alger,. Paris: A-J. Dénain, Libraire éditeur de l'histoire scientifique militaire de l'expédition d'Egypte, rue Vivienne, N0 16.
8- Bertrand, Clauzel. (1837). Explication du Marichal Clauzel. Bruxelles: Société Belge de Libraire, Etc Bauman, Cattoir et Compe.
9- Boutin, V.-Y. (1830). Aperçu historique, statistique et topographique sur l'état d'Alger (éd. Troisiéme). Quia Conti No 17, Paris: Ch. Picquet Géographe Ordinaire du Roi et de S.A.R . Me le Duc D'orléans, Quia Conti No 17.
10- Carette, Ernest. (1847). Description et division de l'Algérie. Paris, et Alger: Librairie de L.Hachette et Cie.
11- Colonel, De Polignac. (1896, Juillet à Décembre). Abrégé de l'historique de La Société de Géographie. Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, premier Année.
12- De Nicolaÿ, Nicolas. (1568). Les quatre premiers livres des navigations et pérégrinations orientales. Lyon: Gvillavme Roville, Avec priuilege du Roy.
13- De Reynaud, Edmond Pellissier. (1854). Annales Algériennes (éd. 2, Vol. 3 Volume). Paris : Libraire Militaire, J. Dumaine, Libraire-éditeur de l'empereur, 30 rue et passage

14- De Tassy, Laugier. (1725). Laugier de Tassy, Histoire du royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement, de ses forces de terre & de mer, de ses revenus, police, justice politique & commerc. Bibliothèque Du Prince Roland Bonaparte, Chez Henri Du Sauzet.
15- Desfontaines, Pierre-François Guyot. (1838). Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger (éd. Tom Second). (p. p. Malle, Éd.) Paris: Libraire de Cide, éditeur des Annales Des Voyages.
16- Desfontaines, Pierre-François Guyot. (1838). Voyages dans les Régences de Tunis et d'Alger. Relation d'un voyage sur les côtes de Barbarie, fait par ordre du Roi en 1724 et 1725 (éd. Tom Premier). (M. D. Malle, Éd.) Paris: Libraire de Cide, éditeur des Annales Des Voyages.
17- Esquer, G. (1912). Les archives Algériennes et les sources de l'histoire de la Conquête. Alger : Typographie Adolphe Jourdan.
18- Esquer, G. (1912). Les Débuts de L'administration Civile a Alger, Le Personel. Alger : Typographie Adolphe Jourdan.
19- Esquer, G. (1923). Les commencements d'un empire : la prise d'Alger. Alger : édition de L'Afrique Latine, 11 rue de Constantine.
20- Féraud, Laurent-Charles. (1876). Les interprètes de l'armée à Afrique (archives du corps). Alger : A. Jourdan Libraire Editeur, 4 Place du Gouvernement.
21- Gautier, Émile-Félix. (1902). Madagascar : essai de géographie physique. Paris: Augustin Challamel éditeur, rue Jacob 17, Librairie Maritime et Coloniale.
22- Gautier, Émile-Félix. (1902). Notes sur l'écriture Antaimoro. Paris: Ernest Leroux éditeur, 28 rue Bonapart VIe.
23- Gautier, Émile-Félix. (1908). Missions au Sahara, tome 1 : Sahara algérien. Paris: Libraire Armand Colin, 5 rue de Méziéres.
24- Gautier, Émile-Félix. (1910). la conquête du Sahara; essai de psychologie politique. Paris: Librairie Armand Colin, 5 rue de Méziéres.
25- Gautier, Émile-Félix. (1920). L'Algérie et la métropole. Paris: Payot & cie.
26- Gautier, Émile-Félix. (1922). Structure de l'Algérie. Paris: Société d'édition géographiques et scientifique, Bibliothèques, Librairr de la Société géographique, 184 boulevard, Saint-Germain.

27- Gautier, Émile-Félix. (1926). Le Moyen- Atlas. Paris: Librairie Larose, 11 rue Victor-Cousin,5.
28- Gautier, Émile-Félix. (1927). A Travers Le Sahara. Paris: Edition du Comité Algérie-Tunisie-Maroc, 21 rue Cassette.
29- Gautier, Émile-Félix. (1927). Französische forschungen zur AtlantisFrage. Petermanns Geographische Mitteilungen, 73e année.
30- Gautier, Émile-Félix. (1927). l'islamisation de l'Afrique du nord les siècles obscurs du Magreb. Paris: Edité par Payot, 106 rue Boulevard Saint-Germain.
31- Gautier, Émile-Félix. (1928). Le Sahara. Paris: Payot, 106 boulevard Saint Germain.
32- Gautier, Émile-Félix. (1930). L'évolution de l'Algérie de 1830 à 1930. Alger: Comité national métropolitain du centenaire de l'Algérie.
33- Gautier, Émile-Félix. (1930). Un siècle de colonisation études Au microscope. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 rue Boulevard Saint-Germa, 5.
34- Gautier, Émile-Félix. (1931). Contribution à l'Etude du Modelé Triasique en Algérie. Alger: Ancienne Maison Bastide Jourdan, Jules Carbonel.
35- Gautier, Émile-Félix. (1931). Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix. Paris: Payot, 106 rue Boulevard Saint Germain.
36- Gautier, Émile-Félix. (1932). Genséric roi des Vandales. Paris: Payot. 106 Boulevard Saint Germain.
37- Gautier, Émile-Félix. (1920). L'Algérie et la métropole. Paris: Payot & cie.
38- Gautier, Émile-Félix. (1935). La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique (éd. 5e revue et mise a' Jour). Paris: Librairie Armand Colin, 103 Boulevard Saint-Michel.
39- Gautier, Émile-Félix. (1935). L'Afrique noire occidentale. Esquisse des cadres géographiques. Paris: Librairie Laros, 11 rue Victor-Cousin.
40- Gautier, Émile-Félix. (1937). Le passé de l'Afrique du nord les siécles obscurs. Paris: Edité par Payot, 106 rue Boulevard Saint-Germain.

41- Gautier, Émile-Félix. (1939). l'Afrique Blanch. Paris: Librairie Arthéme Fayard, 18 et 20 rue du Saint-Gothard.
42- Gautier, Émile-Félix. (1955). Mœurs et Coutumes Des Musulmans. Paris: Payot, 106 boulivard saint germain.
43- Gautier, Émile-Félix; & Doutté, Edmond. (1913). Enquête sur la dispersion de la langue berbère en Algérie. Alger: Typographie Adolphe Jourdan, Imprimeur, Libraire, Editeur, Place du Gouvernement.
44- Gautier, Émile-Félix; & Froidevaux, Henri. (1907). Un manuscrit arabico-malcache sur les campagnes de La Case dans l'Imoro de 1659 à 1663 (éd. tome 29). Paris: Imprimerie Natinale, Librairie C.Klincksieck, rue de Lille, 11.
45- Gautier, Émile-Félix; & Reygasse, Maurice. (1934). Le monument de Tin-Hinan. Paris: Société d'éditions géographiques, Maritimes et Coloniales, 184 boulevard Saint-Germain (VIe).
46- Gautier, Émile-Félix; Rouire, Alphonse-Marie-Ferdinand; Combes, Paul; & Antony, Jully. (1895). Guide pratique du colon et du soldat à Madagascar. Paris: Libraire Africaine et Coloniale, Joseph André et Cie, 27 rue Bnaparte.
47- Rinn, Louis. (1891). Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie. Paris: Chalamel Ainé Libraire.
48- Robert, A. (1905). Contribution au Folk-Lore des Indigènes De L'Algérie. Paris : Ernest Leroux éditeur, 28 Rue Bonaparte.
49- Savornin, Justin. (1931). La Géologie algérienne et nord-africaine depuis 1830. Paris : Masson et cet éditurs, Libraires de l'académie de Médecine.
50- Venture de Paradis Jean-Michel. (1844.). Grammaire et Dictionnaire Abrégés de la Langue Berbére. (r. p. Jaubert, Éd.) Paris: Publies par La Société de Géographie, Imprimerie Royale.
51- Venture de Paradis Jean-Michel. (1898), Alger au XVIIIe siècle. (E.Fagnan, Éd.) 4 place du Government, Alger : Typographies Adolphe Jourdan Imprimeur Libraire éditeur.

ج – محاضر الندوات والملتقيات

1- Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord. (1903). Statuts Bulletin de la Société de géographie d'Algeret de l'Afrique du nord. Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nord, 1er Trimestre.
2- Comité des travaux historiques et scientifiques. (2022, 08 26). Comité des travaux historiques et scientifiques Institut rattaché à l'École nationale des chartes. Consulté le 06 20, 2025, sur https://cths.fr/an/savant.php?id=103128.
3- Congrès international des orientalistes. (1905). Actes du XIVe Congrès international des orientalistes Alger 1905. Tableau des Sections. Paris : Ernest Leroux éditeur, 28 rue Bonabarte VI.
4- Institut de recherches sahariennes. (1942). Bibliographie de Institut de recherches sahariennes. Alger : E. Imbert Imprimeur.
5- Institut de recherches sahariennes. (1943). Bibliographie de Institut de recherches sahariennes. Alger : E. Imbert imprimeur.
6- Institut des hautes études marocaines. (1925). Mélanges René Basset ; études nordafricaines et orientales (éd. Tome 2). Paris : Edition Ernest Leroux, 28 rue Bonaparte.
7- Société archéologique, historique et géographique du département de Constantine. (1853). Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine. Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine.
8- Société historique algérienne. (1904). Statuts de la Société historique algérienne. Revue africaine, 48.(255-254)
9- Société Historique Algérienne. (1932). Deuxième Congrès National des Sciences Historiques Alger 14 - 16 Avril 1930. Alger : Imprimerie Jules Carbonel.

د – المقالات في المجلات

1- Berbrugger, Adrien. (1856). Partie Officielle, Société Historique Algéerienne. Revue africaine, 1.(1)

2- Bernard, Augustin. (1894). Biblographie Des Ouvrages et Articles Publiés Par M. Emile Masqueray. RevueAfricaine, 38.

3- Bresnier, Louis Jacques. (1860, Février). Expédition de Chellala par la Bey d'Oran, Mohammed El-Kebir. Revue Africaine, 4 Année.(21)

4- Capitaine, Jugue. (1905). L'œuvre des Sociétés savantes algériennes et tunisiennes. Revue Africaine.(259-258)

5- Delamarche, Georges-Olivier. (1865). Un Not D'avertissement. Bulletin de l'Académie d'Hippone.(1)

6- Doutté, Edmond. (1905). L'œuvre scientifique de l'École des Lettres d'Alger. Revue africaine.(259-258)

7- Gautier, Émile-Félix. (1893, Avril 15). Mission Émile Gautier à Madagascar. Annales de Géographie, 2ém année.(7)

8- Gautier, Émile-Félix. (1893, Janvier 15). Exploration de M. Émile Gautier à Madagascar. Annales de Géographie, 2em année (6) .

9- Gautier, Émile-Félix. (1895). Exploration In Madagascar. Report of the Sixth International Geographical Congress London.

10- Gautier, Émile-Félix. (1895). Exploration In Madagascar. Report of the Sixth International Geographical Congress London.

11- Gautier, Émile-Félix. (1895). L'ouest malgache. Annales de géographie, 4em année.(16)

12- Gautier, Émile-Félix. (1895). Mission Emile Gautier à Madagascar. Annales de Géographie, 4em année.(15)

13- Gautier, Émile-Félix. (1895). Voyage à Madagascar. Comptes rendus des séances société géographie paris. Paris : société de géographie, 184 Boulevard Saint-Germain.

14- Gautier, Émile-Félix. (1895, Janvier). Madagascar apercu de géographie économique. Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris.

15- Gautier, Émile-Félix. (1895, Mai 28). Sur Les Terrains Sédimentaires de Madagascar. Bulletin du Muséum d'histoire naturelle.(5)

16- Gautier, Émile-Félix. (1895, Mai 28). Sur Les Terrains Sédimentaires de Madagascar. Bulletin du Muséum d'histoire naturelle.(5)

17- Gautier, Émile-Félix. (1895, Mars- Avril). Trente Mois A Madagascar. La Revu de Paris, 2em Année (Tome 2).

18- Gautier, Émile-Félix. (1895, Mars). Madagascar et son Avenir. Bulletin du Comité de Madagascar, 1er année.(1)

19- Gautier, Émile-Félix. (1897). Ambohimànge La ville Sainte. Notes, reconnaissances et explorations, 1er année.(1)

20- Gautier, Émile-Félix. (1897). Etude géologique sur le Ménabé et le Mahilaka. Notes, reconnaissances et exploration, 1er année.(2)

21- Gautier, Émile-Félix. (1897). Etude géologique sur le Ménabé et le Mahilaka. Notes, reconnaissances et exploration, 1er année.(2)

22- Gautier, Émile-Félix. (1897). Lettre de Madagascar. Annales de Géographie, 6em année.(27)

23- Gautier, Émile-Félix. (1898). Atlas de L'Ambongo. Notes, reconnaissances et explorations, 2em année.(4)

24- Gautier, Émile-Félix. (1898). Géologie du Cercle de la Mahavavy. Notes, reconnaissances et explorations, 1er année.(3)

25- Gautier, Émile-Félix. (1898). Géologie du Mahilaka, de L'Ambongo, du Mahara-Milanja, et du Bouéni. Notes, reconnaissances et explorations, 2em année.(4)

26- Gautier, Émile-Félix. (1898). L'Enseignement à Madagascar. Notes, reconnaissances et explorations, 2em année.(3)

27- Gautier, Émile-Félix. (1898). L'hypsométrie de la partie septentrionale de Madagascar. Annales de Géographie, 7em année .(34)

28- Gautier, Émile-Félix. (1898). Notes d'Histoire Malgache. Notes, reconnaissances et explorations, 2em année.(3)

29- Gautier, Émile-Félix. (1899, Aout 10). Les Gisements de Fossiles a Madagascar. Revue de Madagascar, 1er année.(2)

30- Gautier, Émile-Félix. (1900). L'œuvre Scolaire à Madagascar. Revue de Madagascar, 2em année (1er semestre).

31- Gautier, Émile-Félix. (1900, Février 1). L'âme Malgache. La Revue de Paris, 7 année (Tome 1).

32- Gautier, Émile-Félix. (1900, Janvier 15). L'âme Malgache. La Revue de Paris, tome 1.

33- Gautier, Émile-Félix. (1900, Janvier- Février). Les Hova sont-ils des Malais ? Essai d'une étude comparative entre les dialectes Hova et Sakalava. Journal Asiatique, tome 15.(1)

34- Gautier, Émile-Félix. (1900, Janvier- Février). Les Hova sont-ils des Malais ? Essai d'une étude comparative entre les dialectes Hova et Sakalava. Journal Asiatique, tome 15.(1)

35- Gautier, Émile-Félix. (1900, Novembre 1). L'Agriculture Européenne A Madagascar. Questions diplomatiques et coloniales : revue de politique extérieure.

36- Gautier, Émile-Félix. (1902, Juillet- Décembre). Sur Les Terrains paléozoïques de l'Oued Saoura et de Gourara. Comptes rendus hebdomadaires des séances de l'Académie des sciences (tome 135).

37- Gautier, Émile-Félix. (1903). Inscription hébraïque, gravures rupestres et monuments épigraphiques découverts au cours d'un voyage au Sahara. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 47 année.(5)

38- Gautier, Émile-Félix. (1903). La Valeur économique du Sahara. Bulletin de la Société de géographie commerciale de Paris, Tome 15.(1,2)

39- Gautier, Émile-Félix. (1903, Janvier 15). Lettre sur L'oued Saoura. Annales de géographie, 12e année.(61)

40- Gautier, Émile-Félix. (1903, Janvier 15). Lettre sur le Mouydir et l'Ahnet. Annales de géographie, 12.(61)

41- Gautier, Émile-Félix. (1903, Janvier 15). Sahara Oranais. Annales de Géographie, 12 année.(61)

42- Gautier, Émile-Félix. (1904, Août 15). Le Mouidir-Ahnet. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, 10.(2)

43- Gautier, Émile-Félix. (1904, Janvier- Février). Gravures Rupestres Sud-Oranaises Et Sahariennes. L'Anthropologie, Tome 15.(1)

44- Gautier, Émile-Félix. (1904, juillet 15). Le Mouidir-Ahnet. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, 10.(1)

45- Gautier, Émile-Félix. (1905). Exposé provisoire des résultats ethnographiques d'un voyage d'études transsaharien. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 49 année.(5)

46- Gautier, Émile-Félix. (1905). Oasis Sahariennes. Alger: Imprimerie Orientale Pierre Fontana.

47- Gautier, Émile-Félix. (1905, Janvier 15). Rapport sur une mission géologique et géographique dans la région de Figuig. Annales de Géographie, 14 année.(73)

48- Gautier, Émile-Félix. (1905, Janvier 15). Voyage de MMrs Gautier et Chudeau à travers le Sahara. Annales de Géographie,, 14 année.(73)

49- Gautier, Émile-Félix. (1906, Décembre 17). Contribution à l'étude géologique du Sahara. Bulletin de la Société géologique de France, 4ème série(tome 06).

50- Gautier, Émile-Félix. (1907). A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, Tome 15.(1)

51- Gautier, Émile-Félix. (1907). Études d'ethnographie Saharienne. L'Anthropologi.

52- Gautier, Émile-Félix. (1907). L'oeuvre géographique de Ch. Trépied. Annales de Géographie, 16em année.(90)

53- Gautier, Émile-Félix. (1907, Février 15). A Travers le Sahara Français, d'In Ouzel au Niger. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, Tome 15.(2)

54- Gautier, Émile-Félix. (1907, Janvier 15). Couverture fascicule Études Sahariennes (premier article). Annales de Géographie, 16 année.(85)

55- Gautier, Émile-Félix. (1907, Janvier-Février-Mars-Avril). Études d'ethnographie Saharienne. L'Anthropologi, Tome 18.(2-1)

56- Gautier, Émile-Félix. (1907, Mars 15). Études Sahariennes, Second article. Annales de Géographie, 16 année.(86)

57- Gautier, Émile-Félix. (1908, JANVIER-JUIN). Au Sujet d'une piéce d'or non déterminée, Provenant de Madagascar. Revue Archéologique, Quatrième Séri.(11)

58- Gautier, Émile-Félix. (1909). La Meseta sud-oranaise. Annales de Géographie, 18 année.(100)

59- Gautier, Émile-Félix. (1910). Entre Berrouaghia et Aumale. Annales de géographie, 19 année.(105)

60- Gautier, Émile-Félix. (1910, Février 15). Les Hauts Plateaux Algériens. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, Tome 21.(2)

61- Gautier, Émile-Félix. (1910, Juillet-Aout). Au Sahara Marocain. La revu de Paris, 17 année(Tome 4).

62- Gautier, Émile-Félix. (1910, Mars- Avril). La Conquête du Sahara Touarrg. Revu de Paris, 17 année(Tome 2).

63- Gautier, Émile-Félix. (1910, Septembre- Octobre). Les Méharites. La Revu de Paris, 17 année(Tome 5).

64- Gautier, Émile-Félix. (1911). Le Calendrier Malgache. Journal Asiatique, 10(Tome 17).

65- Gautier, Émile-Félix. (1911). Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (deuxième article). Annales de géographie, 20.(114)

66- Gautier, Émile-Félix. (1911). Profils en long de cours d'eau en Algérie-Tunisie (Premier Article). Annales de géographie, 20.(112)

67- Gautier, Émile-Félix. (1912, November- Décember). Un Insurrection A Madagascar. Revu de Paris, 19 année(tome 6).

68- Gautier, Émile-Félix. (1913). Répartition de la langue berbère en Algérie. Annales de Géographie, 22 année.(123)

69- Gautier, Émile-Félix. (1913). Répartition de la langue berbère en Algérie. Annales de Géographie, 22 année.(123)

70- Gautier, Émile-Félix. (1914). La Pointe de Sedd-Ul-Bahr. Émile-Félix Gautier, 23 année.(127)

71- Gautier, Émile-Félix. (1915, Janvier 15). Le rocher de sel de Djelfa. Annales de géographie, 23 année.(127)

72- Gautier, Émile-Félix. (1916). le Chott Tigri. Annales de Géographie, 25 année.(135)

73- Gautier, Émile-Félix. (1916). Le Chott Tigri. Annales de Géographie, 25 année.(136)

74- Gautier, Émile-Félix. (1916). Le général Galliéni. Annales de Géographie, 25 année.(136)

75- Gautier, Émile-Félix. (1916). Nouvelles Stations de Gravures Rupestres Nord Africaines. L'Anthropologie, Tome 27.

76- Gautier, Émile-Félix. (1917). La source de Thaddert à Figuig. Annales de Géographie, 26 année.(26)

77- Gautier, Émile-Félix. (1918). Les villes saintes de l'Arabie. Annales de Géographie, 27 année.(146)

78- Gautier, Émile-Félix. (1918, Janvier- Février). Le Front Anglais en Égypte et en Palestine. La Revu de Paris, 25 année(tome 1).

79- Gautier, Émile-Félix. (1919). Déserts comparés. Annales de Géographie, 28 année.(156)

80- Gautier, Émile-Félix. (1921). Les Premiers Résultats de la mission Frobenius. Revue africaine, 62.(306)

81- Gautier, Émile-Félix. (1921). René Chudeau (1864-1921). Annales de Géographie, 167.

82- Gautier, Émile-Félix. (1921, Mai-Juin). La Famine en Algérie. La Revue de Paris, 28 année(tome 3).

83- Gautier, Émile-Félix. (1922). Description Ggéographique. Les Territoires du Sud d'Algérie, Premiére Partie. Alger: Ancienne Maison Bastide-Jourdan, Jules Carbonel.

84- Gautier, Émile-Félix. (1922). Structure de l'Algérie. Paris: Société d'édition géographiques et scientifique, Bibliothèques, Librairr de la Société géographique, 184 boulevard, Saint-Germain.

85- Gautier, Émile-Félix. (1924). Un passage d'Ibn Khaldoun et du Bayan. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, 4(1er trimastre).

86- Gautier, Émile-Félix. (1924, Juillet-Aout). Documents d'archives Soudanais concernant le Général Galliéni. La Géographie : bulletin de la Société de géographie, 42.(2)

87- Gautier, Émile-Félix. (1925). Déserts comparés, Amérique et Afrique. Annales de Géographie, 34 année.(188)

88- Gautier, Émile-Félix. (1925). La Cuvette de Ouaizert. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome 5(1er Trimestre).

89- Gautier, Émile-Félix. (1925). Le Moyen Atlas. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome 5(3em Trimestre).

90- Gautier, Émile-Félix. (1925). Les Cavernes du Dir. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome 5(4em Trimestre).

91- Gautier, Émile-Félix. (1926). Medinat-ou-Dai. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Tome 6(1er Trimestre).

92- Gautier, Émile-Félix. (1927). Communication de E-F Gautier Perspectives nouvelles au Sahara. Bulletin de l'Association de géographes français, 4em année.(16)

93- Gautier, Émile-Félix. (1927). Considérations sur l'histoire du Moghreb. Revue africaine, 68.(330-329)

94- Gautier, Émile-Félix. (1927, Janvier). considération sur le voyage transsaharien des chambres de commerce Algériene. L'Afrique française : bulletin mensuel du Comité de l'Afrique française, 37.(1)

95- Gautier, Émile-Félix. (1927, Janvier-février). La Raison D'être de Fez. Libya Cia Rivista della Tripolitania, 3em année.(1)

96- Gautier, Émile-Félix. (1927, Novembre 15). L'Afrique Saharienne et Soudanaise. — Ce qu'en ont connu les Romains by André Berthelot. Annales de Géographie, 36 année.(204)

97- Gautier, Émile-Félix. (1929). L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain. Une Œuvre Française L'Algérie. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 Boulivard Saint-Germai.

98- Gautier, Émile-Félix. (1929). L'Algérie d'Aujourd'hui et de Demain. Une Œuvre Française L'Algérie. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 Boulivard Saint-Germai.,

99- Gautier, Émile-Félix. (1929). L'Autruche Algérienne (Vol. Tome 4). (A. d. Coloniales, Éd.) Paris: Société d'édition Géographiques Martimes et Coloniales.

100- Gautier, Émile-Félix. (1929). Les Syrtes. Bulletin de l'Association de géographes français, 6e année.(34)

101- Gautier, Émile-Félix. (1929). Réponse de M. E.-F. Gautier. Bulletin de l'Association de géographes français, 6e année.(36)

102- Gautier, Émile-Félix. (1930). L'Algérie du Centenaire. Comptes rendus des séances : Communications, Académie des Sciences Coloniales. 13. Paris: Socété d'Editions Géographiques Maritimes et Coloniales.

103- Gautier, Émile-Félix. (1930). L'Algérie du Centenaire. Comptes rendus des séances : Communications, Académie des Sciences Coloniales. 13. Paris: Socété d'Editions Géographiques Maritimes et Coloniales.

104- Gautier, Émile-Félix. (1930). Un siècle de colonisation études Au microscope. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 rue Boulevard Saint-Germa, 5.

105- Gautier, Émile-Félix. (1931). Le cadre géographique de l'Histoire en Algérie. Histoire et historiens de l'Algérie. Paris: Librairie Félix Alcan, 108 Boulevard Saint-Germain (VIe).

106- Gautier, Émile-Félix. (1931). Le modelé du Sénégal et de la Guinée. Bulletin de l'Association de géographes français, 8e année.(51)

107- Gautier, Émile-Félix. (1931). Le modelé du Sénégal et de la Guinée. Bulletin de l'Association de géographes français, 8e année.(51)

108- Gautier, Émile-Félix. (1931). Les côtes de l'Afrique Occidentale au sud de Dakar. Annales de Géographie, 40 année.(224)

109- Gautier, Émile-Félix. (1931). Trois Héros, Le Général Laperrine- Le Père De Foucauld- Prince de La Paix. Paris: Payot, 106 rue Boulevard Saint Germain.

110- Gautier, Émile-Félix. (1931, Mars- Avril). L’islam tel que nous le Voyons. Revu de Paris, 38 année(tome 2).

111- Gautier, Émile-Félix. (1931, Mars- Avril). L’islam tel que nous le Voyons. Revu de Paris, 38 année(tome 2).

112- Gautier, Émile-Félix. (1932). Gensériс, roi des Vandales. Paris: Payot. 106 Boulevard Saint Germain.

113- Gautier, Émile-Félix. (1932). Remarques sur la morphologie du Fouta Djallon. Bulletin de l'Association de géographes français, 9e année.(59)

114- Gautier, Émile-Félix. (1932). Une observation à propos de l'Etude géologique du Professeur Siegfried Passarge sur la région d'Oudref. Alger: 12 rue Emile-Maupas.

115- Gautier, Émile-Félix. (1932, Mai). En Cote d'Ivoire...Au Hasard des Rencontres. Le Monde colonial illustré.(105)

116- Gautier, Émile-Félix. (1932, Septembre). En Longeant Les Cot de l'A.O.F, Trois instantes par E.F. Gautier. Le Monde colonial illustré.(109)

117- Gautier, Émile-Félix. (1933). Compte rendu de la mission de M. Reygasse dans le Hoggar. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 77e année.(2)

118- Gautier, Émile-Félix. (1933). Note additionnelle au compte rendu de la mission de M. Reygasse au Hoggar. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 77e année.(2)

119- Gautier, Émile-Félix. (1933, Juillet-octobre). Les deux centres d'influences méditerranéennes qui rendent intelligible l'Afrique occidentale. Bulletin de l'Association de géographes français, 10e année.(72-71)

120- Gautier, Émile-Félix. (1934). Rapport sur la mission Gautier-Reygasse de 1934. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 78e année.(2)

121- Gautier, Émile-Félix. (1934, Janvier). L'exposition du Sahara au Trocadéro. L'Afrique française, 44 année.(1)

122- Gautier, Émile-Félix. (1934, juin). Une interprétation géographique de deux cartes géologiques de l'Afrique. Bulletin de l'Association de géographes français, 11e année.(80)

123- Gautier, Émile-Félix. (1934, Septembre- Octobre). Menaces sur l'Afrique. La Revue de Paris, 41 année. (Tome 5)

124- Gautier, Émile-Félix. (1934, Septembre- Octobre). Menaces sur l'Afrique. La Revue de Paris, 41 année. (Tome 5)

125- Gautier, Émile-Félix. (1935). Anciennes voies du Commerce transsaharien. Geografiska Annaler.(17)

126- Gautier, Émile-Félix. (1935). La Conquête du Sahara, essai de psychologie politique (éd. 5e revue et mise a' Jour). Paris: Librairie Armand Colin, 103 Boulevard Saint-Michel.

127- Gautier, Émile-Félix. (1935). L'Or du Soudan dans l'Histoire. Annales d'histoire économique et sociale, Tome 7.(32)

128- Gautier, Émile-Félix. (1935). Rapport sur une mission au Sahara. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 79e année.(3)

129- Gautier, Émile-Félix. (1935, Nouvembre 15). De Nouveau au Sahara. revue de Paris, 42 année.(22)

130- Gautier, Émile-Félix. (1936, Juin 6). La Revanche de Navarin. Revue bleue politique et littéraire, 74 année.(11)

131- Gautier, Émile-Félix. (1936, juin). L'Afrique noire occidentale. Bulletin de l'Association de géographes français, 13e année.(98)

132- Gautier, Émile-Félix. (1937). Binger. Annales de Géographie, 46 année.(259)

133- Gautier, Émile-Félix. (1941). Le Port de Conankry. Académie des sciences coloniales, Comptes-rendus des séances Communications. Tome 16, 1930-1931. Paris: Société d'édition géographiques, Martimes et coloniales.

134- Gautier, Émile-Félix. (1942). Ce qui s'est Fait au Sahara depuis Le 15 Avril 1927. Académie des sciences coloniales, Comptes-rendus des séances Communication. Tomme 18, 1931- 1940. Paris : Société d'édition géographiques, Martimes et coloniales.

135- Gautier, Émile-Félix; & Labordère, Marcel. (1909, Novembre-Décembre). A Propos de L'ounenza. La revue de Paris, 16 année (Tome 6).

136- Gautier, Émile-Félix; & Larnaude, Marcel. (1921, janvier 15). L'OUED Saoura. Annales de géographie, 30e année.(163)

137- Gonnessiat, François. (1918). Rapport sur la situation de l'université d'Alger pendant l'année scolaire 1916-1917. Alger: typographie Adolphe Jourdan imprimeur librairie l'université, place gouvernement.

138- Gustave, Rouland. (1857, Aout). Institution d'une Ecole préparatoire de médecine et de pharmacie à Alger [décret]. Bulletin administratif de l'instruction publique (92).

139- Hardy, Georges. (1942). L'université et l'Institut de recherches sahariennes (Vol. Tome 1). Alger : E. Imbert imprimeur.

140- Joly, Alexandre. (1911). Le Chaouiya des Ouled-Sellem. Revue africaine, 55.

141- Joly, Alexandre. (1912). Vocabulaire du Chaouiya des Ouled Sellem ou Français. Revue africaine.

142- Letourneux, Aristide-Horace. (1865). Extraits des procés-verbaux de séances et de la correspondance. Bulletin de l'Académie d'Hippone.(1)

143- Paoli, Louis. (1905). L'enseignement supérieur à Alger. Revue Africaine.(259-258)

144- Renier, Léon. (1858). Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine pour les années 1856-1857. Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 2e année.

هـ – الجرائد

1 - La Dépêche : journal quotidien. (31 Mai 1902). Hors Region, En Sorbonne. La Dépêche : journal quotidien.

2 - L'Écho d'Alger. (19 Janvier 1940). Le Professeur Gautier de l'université d'Alger est mort à Paris. L'Écho d'Alger : journal républicain du matin.

ثانيا المراجع

1 – الكتب باللغة العربية

1-أجرون، شارل روبير. (2007). الجزائريون المسلمون وفرنسا (المجلد 1). (ترجمة: حاج مسعود، وعمر بلعيربي) الجزائر: دار الرائد للكتاب.

2-أجرون، شارل روبير. (2007). الجزائريون المسلمون وفرنسا (المجلد 2). (ترجمة: حاج مسعود، وعمر بلعريبي) الجزائر: دار الرائد للكتاب.

3-أجرون، شارل روبير. (2013). تاريخ الجزائر المعاصرة من انتفاضة 1871 الى اندلاع حرب التحرير 1954 (المجلد 2). (ترجمة: محمد حمداوي، إبراهيم صحراوي، وعياش سلمان) الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

4-أحمد، حسن خضيري. (2005). صفحات من تاريخ المغرب الاسلامي (الإصدار 1). المملكة العربية السعودية: مكتبة المتنبي.

5-الادريسي، رشيد. (2020). إدموند دونتي (الإصدار 1). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع.

6-بن عيسى، كبير؛ بن يوب، محمد؛ وقناش، محمد. (2022). الكشاف التفصيلي لمقالات المجلة الافريقية 1856 – 1962. الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

7-بن نعمان، أحمد. (1997). فرنسا والأطروحة البربرية، الخلفيات الاهداف الوسائل والبدائل (الإصدار 2). الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر.

8-بوحوش، عمار. (1997). التاريخ السياسي للجزائر من البداية والى غاية 1962 (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

9-بوعزيز، يحيى. (2007). سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830- 1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

10-بوعزيز، يحيى. (2009). الموجز في تاريخ الجزائر (المجلد 2). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

11-بوعزيز، يحيى. (2009). الموجز في تاريخ الجزائر الحديث (الإصدار طبعة خاصة، المجلدات 1-2). الجزائر: دار البصائر للطباعة والنشر.

12-بيل، ألفريد. (1987). الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي الى اليوم (الإصدار 3). (ترجمة: عبد الرحمان بدوي) بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

13-جوليان، شارل أندري. (1983). تاريخ افريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب من الفتح الاسلامي الى سنة 1830 (المجلد ج2 النشرة 2). (ترجمة: محمد مزالي، والبشير بن سلامة) الدار التونسية للنشر.

14-جوليان، شارل. (1983). تاريخ افريقيا الشمالية من البدء الى الفتح الاسلامي 647م (الإصدار 4). (ترجمة: محمد مزالي، والبشير بن سلامة) تونس: الدار التونسية للنشر.

15-الخطيب، أحمد. (1986). حزب الشعب الجزائري (المجلد 1). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

16-الدوسقي، ناهد ابراهيم. (2011). دراسات في تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر. مصر: دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع.

17-ريسلير، كميل. (2016). السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر أهدافها وحدودها 1962 - 1830 (الإصدار 1). (ترجمة: نذير طيار) دار كتابات جديدة للنشر الالكتروني.

18-زوزو، عبد الحميد. (1984). نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة(1900-1830م). الجزائر: لمؤسسة الوطنية للكتاب.

19-الساحلي، حماد. (1992). فصول في التاريخ والحضارة (الإصدار 1). بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

20-سعد الله، أبو القاسم. (1982). محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال" (الإصدار 3). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

21-سعد الله، أبو القاسم. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1900 (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر.

22-سعد الله، أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (الإصدار 1، المجلد 8). بيروت، لينان: دار الغرب الاسلامي للنشر والتوزيع.

23-سعد الله، أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830 - 1954 (الإصدار 1، المجلد 5). بيروت، لينان: دار الغرب الاسلامي.

24-سعد الله، أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954 (الإصدار 1، المجلد 6). بيروت: دار الغرب الإسلامي للطابعة والنشر.

25-سعد الله، أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954 (المجلد 3). بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.

26-سعد الله، أبو القاسم. (2007). أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر (المجلد 1). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

27-سعودي، محمد العربي. (2001). المؤسسات المحلية في الجزائر الولاية – البلدية 1516 - 1962 (الإصدار 2). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

28-سعيدوني، ناصر الدين. (2000). عصر الأمير عبد القادر. السعودية: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

29-سعيدوني، ناصر الدين. (2008). ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني (الإصدار 2). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.

30-شنوف، عيسى. (2008). يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود. الجزائر: دار المعرفة للنشر والتوزيع.

31-الشنيتي، محمد البشير. (1985). الاحتلال الروماني لبلاد المغرب "سياسة الرومنة 146 ق.م – 40م (الإصدار 2). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

32-الشنيتي، محمد البشير. (2003). أضواء على تاريخ الجزائر القديم. الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع والترجمة.

33-شويتام، أرزقي. (2011). نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830 (الإصدار 1). الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

34-صائب، عبد الحميد. (2008). علم التاريخ ومناهج المؤرخين، في علم التاريخ نشأة وتدوينا ونقدا وفلسفة ومناهج كبار مؤرخي الإسلام. بيروت، لبنان: مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع.

35-عبد اللطيف، سفيان عبد اللطيف. (2019). أصول قبايل منطقة جيجل من خلال المصادر. جيجل – الجزائر: جمعية الوفاء والتواصل لولاية جيجل.

36-العزاوي، عبد الرحمان حسين. (2011). تاريخ المغرب العربي في العصر الاسلامي (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار الخليج للنشر والتوزيع.

37-العقاد، صلاح. (1993). المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر "الجزائر – تونس – المغرب الأقصى" (الإصدار 6). مصر: مكتبة الأنجلو مصرية.

38-عقون، محمد العربي. (2008). الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

39-عميرواي، أحميدة؛ زاوية، سليم؛ وزغداوي، محمد. (2007). آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830- 1954. الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفيمر 1954.

40-العروي، عبد الله. (2005). مفهوم التاريخ الالفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول (الإصدار 4). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

41-غانم، محمد الصغير. (1982). التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط (الإصدار 2). الجزائر، لبنان: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

42-غزال، استيفان. (2007). تاريخ شمال افريقيا (المجلد 5). (ترجمة: محمد التازي سعود) الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.

43-فراد، محمد أرزقي. (2012). تحرير تاريخنا الوطني من المدرسة الكولونيالية "بلاد زواوة نموذجا". الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

44-فرحاتي، فتيحة. (2007). نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م - 46 ق.م. الجزائر: منشورات أبيك.

45-قداش، محفوظ. (2011). تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (المجلد 1). (ترجمة: أمحمد بن البار) الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.

46-قنان، جمال. (2007). معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619 - 1830 (الإصدار طبعة خاصة بوزارة المجاهدين). الجزائر: المؤسسة الوطنية للطبع والنشر والاشهار.

47-لقبال، موسى. (1981). المغرب الاسلامي (الإصدار 2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

48-مالكي، أمحمد. (1994). الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي (الإصدار 2). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

49-مراد، علي. (2007). الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الاجتماعي والديني (1925 - 1940) (الإصدار 2). الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع.

50-مؤنس، حسين. (2000). معالم تاريخ المغرب والأندلس (الإصدار 5). القاهرة، مصر: دار الرشاد للنشر، والدار عربية للطباعة والنشر.

51-الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. (2000). أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير-الاستشراق- الاستعمار دراسة وتحليل وتوجيه (الإصدار 8). دمشق، سوريا: دار القلم.

52-نايت بلقاسم، مولود قاسم. (2007). شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 (المجلد 2). الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر.

53-نايت بلقاسم، مولود قاسم. (2007). شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 (المجلد 1). الجزائر: شركة دار الأمة للكباعة والنشر.

54-نثال، فرانز روز. (1983). علم التاريخ عند المسلمين (الإصدار ط:2). (ترجمة: صالح أحمد العِلى) بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

55-هرنشو، ف. ج. س. (1937). علم التاريخ. (ترجمة: عبد الحميد العبادي) سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

56-هلال، عمار. (2016). أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830- 1962 (الإصدار 2). الجزائر: ديوان الجامعية.

57-هلايلي، حنيفي. (2008). أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني (الإصدار 1). عين مليلة: دار الهدى للنشر والتوزيع.

2 - الكتب باللغة الأجنبية

1. Bresnier, Louis Jacques. (1855). Cours pratique et théorique de langue arabe. Alger : Bastide, Libraire éditeur.
2. Carbonell, Charles-Olivier. (1981). L'Historiographie, Que sais-je (éd. 1er Édition, 4em trimestre). Paris, France : Presses Universitaires de France.
3. Forest, Louis. (1897). La naturalisation des juifs algériens et l'insurrection de 1871 : étude historique. Paris : Société Française D'imprimer et de Libraire, Ancienne Maison Lecéne, Oudin et GLe, 15 rue de Clunny.
4. Gustave, Boissiére. (1883). L'Algérie Romaine (éd. 2, Vol. 1). Paris: Publisher, Hachette et cie, 79 Boulivard saint Germain.
5. Lacoste, Yves. (1966). Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire passé du tiers Monde. Paris: Librairie François Maspero.
6. Mélia, Jean J. (1950). L'Epopée intellectuelle de l'Algérie. Histoire de l'Université d'Alger. Alger : Maison des livres éditeur.
7. Mercier, Ernest. (1880). L'Algérie en 1880. Paris : Challamel Ainé éditeur librairie Algérienne et coloniale, 5 rue Jacob.
8. Mercier, Ernest. (1883). L'Algérie et les questions algériennes, étude historique, statistique et économique. Paris : Challamel Ainé éditeur librairie Algérienne et coloniale, 5 rue Jacob.

9. Mercier, Ernest. (1895). La condition de la Femme Musulmane dans l'Afrique septentrionale. Alger : Typographie Adolphe Jourdan imprimeur libraire éditeur 4 place de Gouvernement.
10. Mercier, Ernest. (1900). Le Bach ag'a Mokrani et les causes de l'insurrection indigène de 1871. Paris: 12 Galerie D'orléans, Palais Royal.
11. Mercier, Ernest. (1901). La question indigène en Algérie au commencement du XXe siècle. Paris : Augustin Challamel éditeur, Rue Jacob 17.
12. Mercier, Gustave. (1931). Le centenaire de l'Algérie, Exposé d'ensemble (éd. Tome Premier). Alger : Edition P.& G. Soubiron.
13. Offenstadt, Nicolas; Dufaud, Grégory; Mazurel, Hervé. (Mars 2006). Les mots de l'historien. Toulouse, France : Presses Universitaires du Mirail.
14. Plantet, Eugéne. (1889). Correspondance des Deys d'Alger avec la cour de Franc 1579-1833 (Vol. Tom premier : 1579 – 1700). Paris: Ancienne Libraire Germer Bailliére et Cie Félix Algan éditeur, 108 Soulevard Saint – Germain.
15. Zeller, Lila. (2021). L'histoire de l'historiographie de 1981 à nos jours, Étude comparée L'historiographie de Charles-Olivier Carbonell Et L'historiographie de Nicolas Offenstadt (Thèse de doctorat). 7. La Réunion, Faculté des lettres et des sciences humaines, La Réunion : Université de La Réunion.

❖ كتاب شارك في كتابته عدة مؤلفين

1- Gouvernement Générale d'Algérie. (1959). Université d'Alger « Cinquantenaire 1909- 1959 ». Alger : Imprimerie Officielle de la délégation Générale du Gouvernement en Algérie.

3 – الأطروحات الجامعية

أ – أطروحات الدكتوراه

1-برقية، عبد الحميد. (2021 – 2022). الاستشراق الفرنسي والجزائر فيما بين 1879 – 1962 دراسة تاريخية فكرية (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قالمة: جامعة 8 ماي 1945.

2-بكوش، محمد الصالح. (2009 – 2010). الترجمة والمترجمون في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي: 1830 – 1930 (أطروحة دكتوراه). كلية الآداب واللغات، قسم الترجمة: جامعة الجزائر.

3-بن عتو، حمدون. (2016 – 2017). الصورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائر خلال العهد العثماني 1518 – 1830 من خلال كتب الرحالة والجواسيس ورجال الدين "الكتابات الفرنسية والاسبانية نموذجا" (أطروحة دكتوراه العلوم). جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس.

4-بن عون، محمد الحاكم. (2018-2019). المسألة الدينية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي 1830 – 1954م (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ وعلم الآثار: جامعة باتنة 1.

5-دبي، رابح. (2010-2011). السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الرد عليها 1830-1962 دراسة نظرية تحليلية (أطروحة دكتوراه). الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم النفس وعلوم التربية والارطفونيا: جامعة الجزائر 2.

6-سلاطنية، عبد المالك. (د.ت). المستوطنات الفينيقية البونية في الحوض الغربي للبحر المتوسط (أطروحة دكتوراه العلوم). قسنطينة، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، الجزائر: جامعة منتوري.

7-صدوقي، أمحمد. (2022). النشاطات التاريخية في الجزائر ودورها في تجسيد المشروع الاستعماري (اطروحة دكتوراه). كلية العلوم الانسانية، الجزائر: جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله.

8-العكروت خميلي. (2016 – 2017). التعليم العالي في استراتيجية الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1879 – 1962) (أطروحة دكتوراه). كلية العلوم الانسانية، الجزائر: جامعة الجزائر 2 أبو الثاسم سعد الله.

9-مرجاني، عبد القادر. (2019- 2020). السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م (أطروحة دكتوراه). سيدي بلعباس، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم العلوم الانسانية: جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس.

10-مسرحي، جمال. (2017-2018). أوضاع الشرق الجزائري القديم من زوال المملكة النوميدية حتى الغزوات الوندالية 46 ق.م- 429م "دراسة تحليلية حول الواقع السياسي والاقتصادي في ضل الاحتلال الروماني". (أطروحة دكتوراه)، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: جامعة باتنة 1.

ب - رسائل الماجستير

1-بن زاوي، طارق. (2008-2009). استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية 406هـ-454هـ/1016م-1062م (رسالة ماجستير). الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية: جامعة الجزائر.

2-العكروت خميلي. (2008 – 2009). جامعة الجزائر بين الاهداف الاستعمارية وتكوين الطلبة المسلمين الجزائريين 1909- 1956 (مذكرة ماجستير). كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، الجزائر: جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة.

3-مسرحي، جمال. (2008-2009). المقاومة النوميدية للاحتلال الروماني في الجنوب الشرقي للجزائر "ثورات الأوراس والتخوم الصحراوية نموذجا" (مذكرة ماجستير). كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية: جامعة منتوري قسنطينة.

4 - المقالات في المجلات والملتقيات

أ - المقالات باللغة العربية

1-أبو المعاطي، شيماء محمد طارق السيد. (ماي, 2022). بني زيري في إفريقية بعد خروج الفاطميين بين الخضوع والتمرد (443 - 543هـ / 1052 - 1148م). مجلة بحوث، 2(5).

2-بلعمري، فاتح. (جوان , 2019). الجزائر سنة 1695 من خلال مصدر تاريخي نادر للمستشرق الفرنسي "بوتي دولاكروا Petis de Lacroix". المجلة التاريخية الجزائرية.

3-بن عون، محمد الحاكم. (20 جوان, 2017). مسألة الوقف في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي. مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 3(5).

4-بن قبي، عيسى. (16 ماي, 2005). بنية الاستراتيجية الاستعمارية في القضاء على النظم الاجتماعية والثقافية في الجزائر 1830-1962. مجلة المعيار، 5(10).

5-بن قربة، صالح. (2007). حملة حسان الأولى وسقوط قرطاج. تاريخ الجزائر في العصر الوسيك من خلال المصادر. الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

6-بوتشية، عبد القادر. (10 جوان, 2019). لافيجري والتنصير في الجزائر: ضخامة الامكانيات والجهود وضآلة النتائج والمردود. قرى العرب النصارى أنموذجا. آفاق علمية، 11(2).

7-بوجمعة، فريدة. (جوان, 2024). نماذج من نقوش الكتابة الليبية بالجزائر خلال الفترة القديمة. حولية الاتحاد العام للآثاريين العرب (270).

8- تونسي، محمد. (شتاء, 2025). الأهداف الاستعماريّة للاستشراق الفرنسي في الجزائر. مجلة دراسات استشراقية (41).

9- تونسي، محمد. (شتاء, 2025). الأهداف الاستعماريّة للاستشراق الفرنسي في الجزائر. مجلة دراسات استشراقية (41).

10- زاهي، محمد. (01 جانفي, 2019). وضعية المؤسسات الدينية خلال الفترة الاستعمارية 1830- 1870. مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، 2(1).

11- شتوان، بلقاسم. (16 ماي, 2005). أثر المشروع الاستعماري على المؤسسات الروحية والتعليمية في الجزائر 1830-1962. مجلة المعيار، 5(10).

12- صاحبي، محمد. (2023). إطلالة على طرائق تجميع الوثائق الجزائرية. حولية الاتحاد العام للآثاريين العرب، 26(1).

13- صدوقي، أمحمد. (2020). اللغة العربية في سياقات مؤتمر الاستشراق العالمي المنعقد بالجزائر، أفريل 1905 بين اسهامات رواد المدرسة الاستعمارية وردود الفعل الوطنية اتجاهها. جهود علماء الاستشراق والاستغراب في خدمة العربية (ملتقى وطني). الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

14- صدوقي، أمحمد. (جانفي, 2021). لجنة استكشاف الجزائر العلمي، بين نشاطاتها البحثية وارتباطاتها الاستعمارية 1837 – 1842. مجلة قضايا تاريخية (14).

15- صدوقي، أمحمد. (جوان, 2022). المدرسة التحضيرية العليا: مدرسة الآداب والحقوق أنموذجا (1879- 1909). مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال افريقيا، 5(3).

16- عقون، محمد العربي. (2011). العمارة الجنائزية النوميدية، ضريح إمدغاسن نموذج معماري نوميدي أصيل. ملجة أفكار وآفاق (2).

17- عواد، محمد حسين. (ماي – جوان, 1974). صناعة التاريخ. مجلة عالم الفكر (1)، صفحة 115.

18- فركوس، صالح. (2013). إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر (الإصدار 1). الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع.

19- قندوز، عبد القادر. (جوان, 2018). المشاريع الفرنسية لاحتلال الجزائر ما بين 1741و 1802. مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، 6(14).

20- كركار، عبد القادر. (05 فيفري, 2023). أزمة معاداة اليهود في الجزائر 1898وتنامي الفكر الانفصالي لدى المستوطنين. مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، 14(1).

21- كريمي، ياسمينة. (2023). بلدية وادي العلايق من خلال كشاف الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وافريقيا الشمالية الثلاثي الأول سنة 1909. مجلة الدراسات التاريخية، 23(2).

22- كشرود، حسان. (01 جوان, 2017). بايلك الشرق دراسة طبيعية وزراعية من خلال الرحالين بايسونيل ودي فونتين والدكتور توماس شو. مجلة قضايا تاريخية، 2(2).

23- محجوبي، زهرة. (1 جانفي, 2020). المخططات العسكرية الفرنسية لاحتلال الجزائر (1741 – 1830). مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، 2(1).

24- هلايلي، حنيفي. (06 جوان, 2005). المستشرقون الفرنسيون في خدمة الإدارة الاستعمارية بالجزائر 1830 – 1962. مجلة الآداب واللغات، 13(1).

25- شيخ، فطيمة. (20 مارس, 2017). قانون كريميو 24 أكتوبر 1870 أو تجنيس اليهود: الاختيارات الصعبة في ظل الهيمنة الاستعمارية. الحوار المتوسطي، 8(1).

26- عميراوي أحميدة. (15 ديسمبر, 2004). مذكرات تيدينا مصدر نادر في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني. مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 19(1).

27- بوخاوش، سعيد. (01 سبتمبر, 2013). من مظاهر سياسة الفرنسة ومحاربة اللغة العربية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي. مجلة اللغة العربية وآدابها، 1(2).

28- قروجي، صورية مولوجي. (31 مارس, 2015). عن الأثر العلمي للمترجمين العسكريين في البلدان المغاربية المستعمرة: الجزائر نموذجا. مجلة إنسانيات، 19(1).

29- بغداد، خلوفي. (ديسمبر, 2015). التعليم العالي بالجزائر أثناء الحقبة الاستعمارية. مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ (10).

30- حميدي، أبوبكر الصديق. (15 مارس, 2019). مصير الأوقاف الجزائرية في ظل الاحتلال الفرنسي أثناء القرن التاسع عشر. مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، 5(1).

31- رحمون، عبد الجليل. (20 سبتمبر, 2021). دور الجمعية التاريخية الجزائرية في تجسيد العزو الفكري الاستعماري. مجلة دراسات تاريخية، 9(1).

32- تواتي، فضيلة؛ وحسيني، عزيزة. (29 سبتمبر, 2021). الألقاب المشينة في الجزائر (حقيقتها، آثارها واجراءات تغييرها. المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والسياسية، 58(4).

33- دوة، بوزيد، (31 مارس, 2022). مقاومة يوغرطة للاحتلال الروماني (112-105 ق.م). مجلة التمكين الاجتماعي، 4(1).

34- شيخي، هاجر شيخي؛ وأوكيل، صبيحة. (ديسمبر, 2022). الزيتون والزيت في نوميديا وموريطانيا القيصرية خلال الاحتلال الروماني. مجلة روافد للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والانسانية، 06(03).

35- حارش، محمد الهادي. (21 ديسمبر, 2022). انتفاضة تاكفاريناس، قراءة في كتاب الحوليات لتاكيتوس. مجلة دراسات تراثية، 16(1).

36- عميراوي، ليندة. (25 ديسمبر, 2022). شارل دي فوكو في الجنوب الغربي الجزائري . المهمة المزدوجة -. الساورة للدراسات الانسانية والاجتماعية، 8(2).

37- كندري، حسين؛ وعكتش، عبد السلام. (01 ديسمبر, 2024). اثنوغرافيا المجتمع الجزائري من خلال مؤلفات "المؤرخ ارنست مرسييه "1875- 1905. مجلة روافد للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، 8(2).

38- لشهب، سمير؛ وجويبة، عبد الكامل. (20 ديسمبر, 2024). المستعرب الفرنسي " لويس جاك بريسنييه" (louis Jack Bresnier) وإسهاماته في حركة الاستشراق الفرنسي في الجزائر (1837-1869م). المجلة التاريخية الجزائرية، 8(3).

39- بن حامد، سعدية. (31 03, 2020). الاحتفالات القرنية الفرنسية في الجزائر قراءة في الأسباب والنتائج. مجلة البحوث التاريخية، 4(1).

40- عبيد، مصطفى، ومعتصم البشير بانقا إلهام. (30 06, 2021). اتجاه المساواة في الحركة الوطنية الجزائرية 1912 – 1923 م. مجلة البحوث التاريخية، 5(1).

41- لهلالي، إسعد لهلالي؛ ولهلالي، سلوى. (30 06, 2019). بروز الفكر الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية (1919-1926). المجلة التاريخية الجزائرية، 3(1).

42- بوحوص شهيناز. (10 10, 2022). القوانين الاستثنائية في الجزائر (1830-1882). مجلة آفاق فكرية، 10(02).

ب – المقالات باللغة الأجنبية

1- Abid, Larbi. (2006, 06 15). L'école de Médecine d'Alger 150 ans d'histoire : de 1857 à 2007. Annales de l'université d'Alger, 16.(2)
2- Ait Si Said, Radia. (1997, 12 01). L'histoire De L'universite D'alger 1909-1962. Annales de l'université d'Alger.
3- Balout, Lionel. (1943). Emil Félix Gautier (1864-1940). Bulletin de la Société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, Tomb 64.
4- Benkada, Saddek. (2000, Décembre 31). Un Patrimoine Culturel : Les Publications De La Société De Géographie Et D'archéologie D'Orane (1878-1988). Insaniyat, 4(3).
5- Boyer, Pierre. (1971). Émile Dermenghem (1892-1971). Bibliothèque de l'École des chartes, 129(livraison 2)
6- Capot-Rey, Robert. (Avril 1940). E.F Gautier géographe de l'Algérie et de Sahra. Supplément économique de la revue Algeria.
7- Cresti, Frederico. (1982). Description et iconographie de la ville d'Alger au XVIe siècle. Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée.(34)
8- Cristian, C. (1940). Chronique, E.F.Gautier (1864-1940). Revue Historique, Année 65(Tomes 188-189).

9- Despois, Jean. (1958). L'Institut de Recherches sahariennes et les Sciences de l'Homme. Annales Economies sociétés civilisations, 13 Année(3), pp. 523-526.
10- Dion, Isabelle. (2017). Histoires d'outre-mer. Les Archives nationales d'outre-mer ont 50 ans. Outre-Mers.(1)
11- Durand-Delga, Michel. (1991, Janvier 1). La Cartographie à Large Maille Dans Le Développement Des Recherches Géologiques En Algérie Des Origines à 1960. Bulletin du Service Géologique de l'Algérie, 2.(1)
12- Emerit, Marcel. (1948). Mémoires de Thédenat, natif d'Uzès en Langedoc écrites à Zurich en 1785. Revue Africaine, 92.
13- Foy, Maximilien Prosper. (1856- 1857). Notice Archéologique sur Le Madrazen. Annuaire de la Société archéologique de la province de Constantine.
14- Frémeaux, Jacques. (1994). Couverture fascicule Laugier de Tassy : Histoire du royaume d'Alger, un diplomate français à Alger en 1724. Outre-Mers. Revue d'histoire, tome 81(n°302).
15- Guy, Pervillé. (1975). Qu'est-ce que la colonization. Revue d'Histoire Moderne & Contemporaine, p. 338.
16- Jean, Bisson; Pierre, Rognon; Françoise, Grivot. (1978). Robert Capot-Rey (1897-1977) : Trente ans de géographie saharienne. Annales de géographie (479) .
17- Larnaud, Marcel. (1940). Emile-Felix Gautier (1864-1940). Revue Africaine, Tomes 84(1er-2em Trimester).
18- Larnaude, Marcel. (1940, Novembre-décembre). E.-F. Gautier (1864-1940). Bulletin de l'Association de géographes français.
19- Larnaude, Marcel. (1954). Le Sahara français. Annales de Géographie, Tomb 63.
20- Marçais, Georges. (Samedi 20 Septembre 1947). Institut d'études orientales d'Alger. La Kabylie française (le petit Kabyle), 61.(1237)
21- Marçais, Georges. (Samedi 27 septempre 1947). Institut d'études orientales d'Alger. La Kabylie française (le petit Kabyle).
22- Motylinski, Adolphe. (1907). Chronique d'ibn Saghir sur les imams Rostemides de Tahert. Actes du XIVe Congrès international des orientalistes, Alger, 1905. Paris : Ernest Leroux éditeur, 28 Rue Bonaparte (VI).

23- Zimmermann, Maurice. (1942). Nécrologie Emile-Félix Gautier 1864-1940. Les Études rhodaniennes, 17(3-4), pp. 180-182.

5 – المعاجم اللغوية

أ – المعاجم باللغة العربية

1-الجواليقي، أبي منصور. (1990). المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعْجَم (الإصدار 1). (ف. عبد الرحيم، المحرر) دمشق، سوريا: دار القلم للنشر والتوزيع.

2-عبد الكافي، إسماعيل عبد الفتاح. (2003). معجم مصطلحات عصر العولمة، مصطلحات سياسية واقتصادية، واجتماعية، ونفسية وإعلامية. إصدار موقع كتب عربية.

3-الفوزان، عبد الرحمان بن براهيم، مختار الطاهر حسين، ومحمد عبد الخالق محمد فضل. (بلا تاريخ). المعجم العربي بين يديك. (محمد عبد الرحمن آل الشيخ، المحرر) الرياض، المملكة العربية السعودية: طبع سلسلة العربية بين يديك.

4-مجمع اللغة العربي. (2004). المعجم الوسيط (الإصدار 4). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية للطباعة والنشر، القاهرة.

5-معلوف، لويس. (بلا تاريخ). المنجد في اللغة والأدب والعلوم (الإصدار 19). بيروت، لبنان: دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية.

ب – المعاجم باللغة الأجنبية

1- L'Académie française. (1798). Dictionnaire de L'Académie française (Liver pdf). 5, 1587. Baris, France: éditions eBooks France. Récupéré sur http://www.ebooksfrance.com/

2- l'Académie Française. (1878). Dictionnaire de l'Académie Française (Vol. Tome 1). Libraire de Frimin – Didot et CIE, Imprimeurs de L'Institut de France.
3- L'Académie française. (1932). Dictionnaire de L'Académie française. Tome Second, 8, 3842. Baris, France: Libraire Hachette.
4- Larousse universel. (1922). Larousse universel en 2 volumes : nouveau dictionnaire encyclopédique (Vol. Tome Premier). (C. Augé, Éd.) Paris, 17 rue Montparnasse : Libraire La Rousse.
5- Le Larousse. (S.d.). Le Larousse pour tout, nouveau Dictionnaire Encyclopédique (Vol. 1). (C. Augé, Éd.) Paris: Libraire La Rousse.

الفهرس العام

1 – فهرس الأعلام

أ. روبرت A. Robert, 69.
أ. فاجنان E. Fagnan, 38.
ابن عبد الحكم, 172.
أبو القاسم سعد الله, و, ص, 310, 354, 454, 455, 464.
أبو عبد الله الشيعي, 369.
أحمد المقراني, 289, 290, 352.
أحمد باي, 47.
أحمد بن موسى الكرزازي, 110.
أحمد طالب الإبراهيمي, 58.
أحمد مصالي الحاج, 363.
أدريان بربروجر Adrien Berbrugger, 52, 54, 58, 61, 87.
إدموند بيليسيه دي رينو Edmond Pellissier de Reynaud, 52, 53
إدموند دوتي Edmond Doutté, 113, 138, 313, 400.
إدوارد لافيريير Edouard Laferriere, 220.
أدولف موتيلنيسكي Adolphe Motylinski, 69.
أرابيون Arabion, 191.
ارنست كاريت Ernest Carette, 272.
ارنست مرسييه Ernest Mercier, 49, 51, 52, 55, 187, 290, 467.
أرومون غاربيال دو لوتز Aramon, Gabriel de Luetz, 33.
استرابون Strabon, 187.
أفلح بن عبد الوهاب, 69.
الأب بنيون, 35.
الأب دوفوكو Le Père de Foucauld, 116, 130, 237, 253, 254.
الإخوة بربروس, 60, 215
الأمير أحمد, 45.
الأمير خالد, 354, 362, 364.
الأمير سيدي مصطفى, 45.
الأمير عبد القادر, 46, 47, 51, 53, 60, 267, 282, 289, 290, 297, 349, 350, 461, 469.
الأميرال أبرهام ديكسن Abraham Duquesne, 242.
البارون بيشون Le Baron Pichon, 90.
الباي محمد الكبير, 41, 72.
ألبرت غريفي Albert Grévy, 50, 220.

ألبرتيني Albertini, 76.
ألبرتينيAlbertini, 77.
الجنرال بيجو Thomas Robert Bugeaud, 60, 219, 250.
الجنرال دي بورمون Général de Bourmont, 89, 243.
الحسن الوزان, 33, 316, 380, 381
الداي مصطفى باشا, 87
الدكتور تريبيد Ch. Trépied, 137.
الدوق دو ريفيقو Duc de Rovigo, 91, 244.
السلطان أحمدو توكولور, 157.
السلطان سليم, 215.
السيد كارنير M.Carnerd, 82
الشيخ أحمد المقراني, 250.
الشيخ بومعزة, 53.
ألفريد بيلAlfred Bel, 57, 76, 77, 455.
ألفريد شانزي Alfred Chanzy, 219.
ألفريد ميرلينAlfred Merlin, 83.
ألفونس ليموس دي فودوراد Alphonse Lemoce de Vaudoura, 87.
الفيكونت دي جانتيس Le vicomte de Gantés, 56.
القديس أوغستين, 367.
القديس سانت لويس, 122
الكابتان روزي Capitaine Rozet, 78.
الكاهنة, 121, 155, 196, 197, 208, 209, 285.
ألكسندر جولي Alexandre Joly, 311.
الكولونيل كاربوكياColonel Carbuccia, 111
الماريشال بيليسيه Maréchal Pélissier, 115.
الماريشال راندون Maréchal Randon, 52, 54, 220.
المسعودي, 172.
المعز بن باديس, 358, 466.
المقدم ديرين, 57.
الملك سيفاكس Syphax, 188, 189.
الملكة تين هينان, 132, 154, 167.
المنسى موسى Mansa Moussa, 112.
إميل ديرمنغيم Émile Dermenghem, 88.
إميل فليكس غوتييه Emile-Félix Gautier, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100, 101, 102, 103, 104, 105, 108, 109, 110, 111, 113, 114, 116, 118, 121, 122, 125, 129, 130, 132, 133, 134,

136, 139, 142, 143, 144, 145,
146, 147, 148,149, 150, 151,
152, 154, 155, 156, 158, 159,
160, 164, 166, 168, 169, 170,
171, 172, 173, 174, 175, 176,
177, 178, 179, 180, 181, 182,
183, 184, 185, 186, 188, 191,
192, 193, 194, 195, 196, 198,
199, 202, 203, 204, 205, 206,
207, 208, 209, 210, 211, 212,
213, 214, 215, 217, 218, 219,
220, 221, 222, 224, 226, 228,
229, 231, 232, 233, 234, 235,
236, 238, 239, 240, 241, 242,
244, 245, 246, 247, 248, 249,
251, 253, 254, 255, 256, 257,
258, 259, 260, 261, 262, 263,
264, 265, 266, 267, 268, 269,
270, 271, 272, 273, 274, 275,
276, 277, 278, 279, 280, 281,
282, 283, 284, 285, 286, 287,
288, 289, 290, 291, 292, 293,
294, 295, 296, 297, 298, 299,
300, 301, 302, 303, 304, 305,
306, 307, 308, 309, 310, 312,
313, 314, 315, 316, 317, 320,
321, 322, 323, 324, 325, 326,
327, 328, 330, 331, 332, 333,
335, 336, 337, 338, 339, 340,
341, 342, 343, 344, 345, 346,
347, 348, 349, 350, 351, 353,
354, 355, 356, 357, 358, 359,
360, 364, 365, 366, 367, 368,
369, 370, 371, 372, 373, 374,
375, 376, 377, 378, 379, 381,
382, 383, 384, 385, 386, 392,
393, 394, 395, 396, 397, 400,
405, 408, 410, 416, 419, 420,
422, 424, 434, 483, 484, 485,
486, 487, 488, 490.

إميل فيشر Émile Ficheur, 79.

إميل ماسكري Émile Masqueray, 65, 66, 74.

إميل موباس Emile Maupas, 116.

أندري باسييه André Basset, 84.

أندريه بيرثيلوت André Berthelot, 142.

أوبير ماير, 77.

أوريتاس, 186.

أوسيب دي سالEusèbe de Salles, 49.

أوغستين برنارد Augustin Bernard, 80.

أوغيست وارنيي Auguste Warnier, 52.
ايزلصيس Aezalces, 189.
إيلي دي بريموداي Elie de la Primaudaie, 87.
ايلي ليبلانك Ely Leblanc, 77.
باول بورد Paul Bourde, 149.
باولو جي وفيو Paolo Giovio, 33.
بايسونيل جان أندري Peyssonnel, Jean-André, 34.
برتران كلوزيل Bertrand Clauzel, 44, 45, 46, 47, 48, 73, 87, 91, 318.
بروسبير جيرارد Prosper Gérardin, 87
بروسيلار Brosselard, 55.
بروكوب Procope, 121, 172.
بروكوبيوس, 172, 177, 186.
بريفز Brives, 79.
بن سالم المقراني, 289, 290.
بوبلاي فورنيسي Boblaye Fournissait, 78.
بوتان Boutin, 42, 43, 218, 219, 241, 242, 482.
بوتش غيمبرا, 77.
بوتي دو لاكروا Petis de Lacroix, 36.
بوري دي سانت فانسن Bory De Saint Vincent, 52.
بوليب Polybe, 172.
بوليبوس, 172.
بوليبيوس Polypus, 187.
بويان Pouyanne, 79.
بيير بورد Pierre Bord, 75, 76.
بييردون Pierredon, 78.
تاكفاريناس Tacfarinas, 60, 192.
تورنبول باتريك Turnbull Patrick, 84.
تيت ليف Tite-Live, 172.
تيتوس ليفيوس, 172.
تيدنا Thédnat, 41, 42, 482.
تيرملي Trumelet, 52.
تيسو Tissot, 78.
تيمايوس Timaeus, 187.
ث. ستيغ Th. Steeg, 75.
ج. زيلر J.Zeiller, 77.
جان ميشيل فونتير دي بارادي Jean-Michel, Venture de Paradis, 280.
جنتي دي بواسييه, 87.
جنتيل Gentil, 79.
جنسريق Gensériс, 130, 131, 207, 402.
جورج فلامان Georges Barthélemy Médéric Flamand, 79.

جورج مارسييه Georges Marçais, 84.
جورج يافر Jorge Yver, 76, 78.
جوزاف غاليني Joseph Simon Gallieni, 96, 97, 140, 157.
جوزيف ديبارمي Joseph Desparmet, 65.
جول كامبون Jules Cambon, 62, 219.
جون أنتوني Jully Antony, 103.
جون ديسبوا Jean Despois, 81
جون ميرانت Jean Mirante, 49.
جيرارد Gérardin, 49.
جيلدون Gildon, 59, 60.
حسن باشا بن خير الدين, 33, 36.
حماد بن بلكين بن زيري, 358.
خليل قايد العيون, 362.
دو بولينياك Colonel De Polignac, 64.
دوبوك Duboco, 78.
دوبينيوز D'Aubignose, 49.
دوشيسن Duchesne, 96.
دوكيرلي Dukerley, 56.
دوماس Dumas, 52.
دومنيك لوسياني Dominique Luciani, 63, 311.
دوناتوس Donatus, 192.
دي كارسي, 40, 41, 481
دي كليرمونت تونار De Clermont Tonner, 49.
دي لوفردو De Loverdo, 49
ديبوا تانفيل Dubois Thainville, 42, 359.
ديسبري Després, 49.
ديسبوا Despois, 149.
ديكري, 42
ديلاسيل Delisele, 35.
روبرت برونشفيغ Robert Brunshvig, 82.
روبرت بيريه, 154.
روبرت كابوت-ري Robert Capot-Rey, 83, 84, 99.
روبرت مونتاني Robert Montagne, 148
روي الفونس ماري فرديناند Rouire, Alphonse Marie Ferdinand, 103, 403.
ريبلين Réplelin, 79.
ريغاس ماوريس Reygasse Maurice, 77, 84, 98, 132, 153, 154, 352, 410.
رينو Renou, 78.

ريني ديسفونتين René Desfontaines, 34, 35.
رينيه باصيهRené Basset, 57, 66, 68, 99.
سالوست, 172
سانت أرنو Saint-Arnaud, 115
سانت أرنوSaint Arnaud, 52
سبوريوس ألبينوس Spurius Albinius 189
ستيفان غزالGsell Stephane, 66, 67, 77, 187, 190.
سفيان عبد اللطيف, 299, 456.
سي اعمر أو سعيد بوليفة Ammar ou Saïd Boulifa, 66, 67, 310.
سيغفريد باسارج Siedfried Passarge, 132, 404.
شادو ريني Chudeau René, 109.
شارل جونار Charles Jonnart, 68, 88, 219.
شارل روبير أجرون, 247, 457.
شارل هنري تشرشل, 290.
شربونو Cherbonneau, 55, 56.
شعيب بن علي, 68.
شوانسييه Choisnet, 55.
شيراك Chirac, 35.
صدر بعل جيسكون Hasdruball Jiscon, 188.
طارق بن زياد, 357.
عبد الحليم بن سماية, 68.
عبد الحميد بن باديس, 315.
عبد الرحمان بن خلدون, 121, 122, 155, 172,171, 173, 209, 367, 410, 435.
عبد الرحمان بن رستم, 368.
عبد الله العروي, 30.
عقبة ابن نافع, 209.
غابريال إسكي Gabriele Esquer, 76, 78, 88, 89, 90.
غابريال كامبس Gabriel Camps, 339
غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux, 114, 314.
غاي جوليان Guey Julien, 83.
غايا Gaia, 189.
غايوس ماريوس Gaius Marius , 189.
غوستاف بواسييهGustave Boissiére, 189.
غوستاف مرسييه Gustave Mercier, 76.

ف. برنارد F. Bernard, 85.
فرحات عباس, 361, 382, 435
فرنسوا جيجيوتو François Guighigotto, 36.
فريتز ياغر Fritz Jaeger, 149.
فونتين Fontaine, 56.
فيرموس Firmus, 59, 60.
كارليا Charliat, 76.
كاريت Carette, 52.
كازيناف Cazenave, 76.
كانتينو.ج J.Cantineau, 84.
كبوسا Capaussa, 189.
كرولي Creuly, 55.
كريميو, 117, 227, 247, 351, 352, 353, 470.
كسيلة, 121, 196, 197, 208, 209, 285.
كلود كولو Claude Collot, 354.
كومبس باول Combes Paul, 103.
لابيرين Laperrine, 97, 130, 230.
لافورج.ب P.Laforgue, 84.
لاكوست يافاس Lacoste Yves, 208, 209, 210.
لاكيس La Case, 107.
لكومازيس Lacumazes, 189.
لوجيي دي تاسي Laugier de Tassy, 36, 37.
لويس برينييه Louis Jack Bresnier, 71, 72.
لويس جلانجود Louis Glangeaud, 79.
لويس غوستاف بينجر Louis Gustave Binger, 143.
لويس لاموريسيير Louis Lamoricière, 52, 244.
ليو فروبينيوس Leo Frobenius, 159.
ليون رينييه Léon Renier, 55.
مارتن.ه Martin.H, 84.
مارسيل ماريون Marcel Marion, 76.
ماركيس Marcais, 83.
ماسينيسا, 180, 186, 189, 191, 202, 267, 331, 346, 366.
ماسينيسا Massinissa, 189.
ماسينيسا الثاني Massinissa II, 191.
ماك ماهون Mac Mahon, 219, 250.
ماكس ريجي Max Régis, 116.
ماكسيميليان فوي Maximilien Foy, 56, 339.
مالك بن نبي, 369.
محفوظ قداش, 354, 459.

محمد المقراني, 51.
محمد بن أبي شنب, 62, 68, 69.
موريس توريز Maurice Thorez, 377.
موريس سارون Maurice Sauron, 36
مولاي علي, 45.
موني.ر Mauny.R, 84.
ميرسيول Mersiol, 76.
ن. لاكروا N. Lacroix, 81.
نابليون الثالث, 117.
نابليون بونابرت, 42, 144, 242.
نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay, 33, 381.
نيكيز Nicaise, 78.
هـ. بيير Pérès.H, 82.
هـ.كوي H.Koht, 76.
هاردوين Hardouin, 78.
هنري جاكوب Henri Jacob, 78, 79.
هنري فرويدفو Henri Froidevaux, 107, 403.
هيرودوت, 172, 187.
و. فيشر, 81.
وال ماوريس Wahl Maurice, 81.
وليام سبنسر William B. Spencer, 215.
وليام مرسييه Willem Marçais, 77.
ويلسون, 354.
يبداس, 186.
يوبا الأول Juba I, 191.
يوبا الثاني Juba II, 191.
يوغرطة, 260,189, 346, 366.

2 – فهرس الأماكن

إثيوبيا, 106, 132.

أدرار, 136, 156, 220, 222.

إسبانيا, 82, 118, 141, 215, 246, 260, 275, 276, 289, 366, 367.

أشير, 204, 358.

أغاديس Agades, 146.

أكادير, 39.

أكس أون بروفنس AIX-EN-PROVENCE, 71.

الأوراس, 64,50, 66, 74, 75, 102, 155, 175, 180, 183, 184, 186, 191, 192, 206, 259, 263, 272, 277, 278, 279, 293, 295, 299, 310,302, 311, 330, 332, 333, 392, 393, 465.

البرواقية, 137, 302, 331, 406.

الجزائر, 27, 28, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 84, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 94, 97, 98, 99, 100, 102, 108, 109, 110, 111, 112, 113, 114, 115, 116, 117, 118, 119, 120, 123, 124, 125, 126, 127, 129, 130, 133, 136, 137, 138, 140, 142, 144, 145, 146, 147, 148, 149, 152, 153, 154, 155, 157, 160, 161, 163, 165, 166, 167, 168, 169, 170, 171, 172, 175, 176, 177, 178, 179, 182, 183, 185, 186, 187, 191, 192, 195, 207, 211, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 223, 224, 225, 226, 227, 228, 229, 230, 231, 232, 233, 234, 236, 238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 249, 251, 252, 253, 254, 255, 257,

258, 260, 261, 262, 265, 266,
267, 268, 269, 270, 271, 272,
273, 274, 275, 276, 278, 279,
280, 281, 282, 283, 285, 286,
288, 289, 290, 291, 296, 297,
298, 299, 300, 301, 302, 307,
308, 309, 310, 311, 312, 313,
314, 315, 316, 317, 318, 319,
320, 321, 322, 323, 324, 325,
326, 327, 328, 329, 331, 332,
333, 334, 335, 336, 337, 338,
339, 340, 341, 342, 343, 345,
346, 347, 348, 349, 350, 351,
352, 353, 354, 355, 356, 357,
358, 359, 360, 361, 362, 363,
364, 365, 366, 367, 369, 370,
371, 372, 373, 374, 375, 376,
377, 378, 379, 380, 381, 382,
383, 384, 385, 386, 389, 390,
391, 392, 393, 394, 395, 396,
397, 400, 401, 402, 403, 404,
406, 408, 412, 416, 430, 434,
435, 454, 455, 456, 457, 458,
459, 460, 461, 463, 464, 465,
466, 467, 468, 469, 470, 471,
479, 480, 481, 482, 483, 484,
485, 486, 488.

الحضنة, 81, 157.

الداهمومي, 108.

الساورة, 97, 110, 123, 135, 141,
157, 163, 164, 305, 405, 407,
415, 470.

السنغال, 39, 64, 74, 108, 122, 140,
142, 149, 157, 160, 167, 408.

السودان, 31, 94, 101, 132, 140,
148, 150, 157, 167, 403, 417.

الشلف, 138, 319.

الصومال, 106.

الصين, 106.

الطائف, 140.

القنادسة, 149, 223, 233.

الكونغو, 150.

ألمانيا, 95, 98, 168, 280, 389, 417.

المدية, 45, 185, 225.

المغرب الأقصى, 39, 57, 102, 118, 133, 140, 147, 155, 161, 165, 168, 313, 345, 457.

النيجر, 97, 99, 108, 113, 136, 146, 150, 156, 166, 413.

الهند, 46, 68, 103, 104, 106.

الونزة, 116, 143, 407.

اليمن, 106, 140.

اليونان, 68.

أم البواقي, 114.

إيطاليا, 133, 165, 190, 246, 275, 276, 289, 366, 415.

باتنة, 464, 465.

باريس, 35, 47, 95, 97, 104, 106, 117, 128, 141, 143, 159, 162, 163, 166, 242, 390, 401, 407, 411, 414, 416.

بجاية, 204.

بروتيفي Protivy, 100.

بشار, 110, 113, 149, 157.

بلاد الشام, 76, 128.

بلاد فارس, 265.

بلدة كليرمون فيران Clermont-Ferrand, 94.

بني عباس, 216, 220, 222, 237, 254.

بني ونيف, 110, 157, 221, 223.

تازولت, 183, 184, 191.

تافيلالت, 39.

تبسة, 76, 116.

تشاد, 85, 161.

تلمسان, 35, 47, 48, 60, 211, 319, 328, 380.

تمبكتو, 39, 64, 109, 136, 153.

تمنراست, 161, 237, 254.

تناريف Tanarive, 96.

توات, 110, 111, 112, 118, 136, 144, 161, 163, 202, 305.

تونس, 31, 34, 35, 43, 45, 50, 64, 81, 82, 115, 117, 118, 132, 133, 138, 295, 328, 339, 345, 376, 404, 406, 457.

تيارت, 204, 226, 287.

تيميمون, 110, 112, 113, 135, 136, 220, 222.

جاو Gao, 109, 136, 156.

جدة, 101, 140.

جرجرة, 66, 67, 74, 290, 299, 327, 331.

جزيرة رينيون Réunion, 96.

جزيرة مدغشقر, 68, 94, 95, 96, 103, 104, 105, 107, 130, 133, 134, 140, 143, 144, 150, 151, 152, 159, 160, 162, 163, 164, 165, 168, 243, 400, 403, 405, 407, 408, 409, 414, 415, 482.

جمهورية غينيا, 108, 142, 148, 412

جيجل, 38, 216, 299, 456.

خنشلة, 1, 3, 66.

روما, 60, 131, 180, 182, 183, 184, 189, 190, 191, 204, 206, 212, 219, 232, 252, 272, 320, 345, 347, 356.

زنجبار, 106.

سانت بيار كيبرون Saint-Pierre Quiberon, 100.

سعيدة, 137, 221, 226, 331.

سور الغزلان, 137, 331.

سيدي بلعباس, 226, 464, 465.

سيدي فرج, 40, 41, 42, 43, 49, 89, 218.

صفاقس, 149.

عنابة, 33, 34, 38, 57, 78, 91, 119, 295, 359.

عين البيضاء, 114.

عين تموشنت, 204.

عين صالح, 97, 109, 135, 136, 220, 222, 254.

غانا, 142, 150, 167.

غرداية, 228, 254, 295, 298.

غليزان, 116.

غينيا, 108, 142, 148, 149, 150, 160, 167, 412.

فاس, 165, 328, 415.

فرنسا, 31, 39, 40, 41, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 59, 60, 62, 63, 65, 68, 70, 71, 75, 89, 91, 95, 96, 111, 115, 116, 118, 123, 124, 125, 126, 147, 157, 162, 189, 217, 218, 219, 220, 221, 222, 224, 225, 230, 232, 234, 237, 238, 239, 240, 241, 242, 243, 244, 245, 246, 247, 248, 250, 251, 252, 253, 254, 257, 260, 278, 279, 286, 289, 291, 292, 293, 297, 300, 301, 310, 313, 314, 315, 317, 318, 319, 320, 337, 341, 342, 352, 353, 354, 355, 356, 357, 359, 360, 361, 362, 363, 364, 370, 371, 375, 376, 377, 378, 381, 382, 383, 384, 385, 390, 391, 394, 396, 455, 456, 484.

فزان, 81, 85, 162, 192.

فكيك, 135, 140, 144, 157, 158, 161, 405.

فلسطين, 101.

قرطاج, 68, 122, 130, 131, 172, 179, 180, 181, 186, 187, 188, 189, 192, 196, 201, 285, 305, 312, 369, 374, 468, 483.

قسنطينة, 35, 38, 45, 47, 48, 55, 56, 73, 76, 78, 87, 114, 180, 319, 352, 380, 381, 465, 480.

قلعة بني حماد, 204.

كوت ديفوار, 142, 150, 160, 166, 416.

مالطا, 246.

مالي, 32, 142, 161.

متيجة, 65, 119, 126, 226, 234.

مدينة نانسي Nancy, 95.

مرسيليا, 36, 38, 49, 76, 383, 384.

مستغانم, 319.

مصر, 31, 68, 94, 97, 98, 101, 102, 124, 128, 129, 132, 140, 144, 145, 146, 147, 161, 165, 195, 197, 198, 200, 249, 260, 263, 292, 299, 303, 307, 327,

338, 339, 357, 367, 400, 408,
435, 456, 457, 461.

معسكر, 35, 38, 41, 46, 319

مملكة مالي, 112

منطقة القبائل الكبرى, 59, 61, 67, 68,
215, 220, 228, 239, 259, 275,
276, 278, 279, 289, 290, 295,
297, 301, 302, 310, 311, 312,
313, 314, 317, 323.

موريتانيا, 67, 84, 124, 161, 184,
185.

مونبوليي MONTPELLIER, 71

وادي ريغ, 66

وادي ميزاب, 66, 74, 84, 265

ورقلة, 66, 101, 123

وهران, 45, 46, 47, 57, 58, 72, 73,
91, 114, 116, 119, 120, 137,
139, 157, 179, 226, 234, 238,
243, 247, 319, 352, 380, 405,
406, 413, 480.

3 – فهرس الشعوب والقبائل

الأتراك , 33, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 42, 43, 45, 46, 47, 51, 53, 54, 60, 61, 73, 89, 101, 102, 167, 193, 198, 207, 212, 213, 214, 215, 216, 217, 243, 272, 278, 313, 320, 335, 337, 338, 341, 345, 355, 356, 359, 360, 361, 369, 370, 371, 372, 373, 380, 381, 383,391, 400, 455, 456, 461, 464, 469, 487.

البتر, 264, 281, 283.

البرانس, 264, 281, 283.

البربر, 35, 38, 48, 51, 63, 66, 69, 77, 84, 113, 114, 121, 122, 131, 138, 146, 147, 153, 158, 177, 181, 184, 188, 190, 192, 194, 195, 196, 197, 198, 199, 200, 201, 202, 204, 205, 207, 208, 209, 210, 211, 213, 214, 219, 226, 238, 259, 260, 262, 263, 264, 265,266, 268, 271, 273, 274, 275, 276, 277, 278, 279, 280, 281, 282, 283, 284, 285, 286, 287, 288, 289, 290, 292, 294, 295, 296, 298, 299, 300, 301, 302, 309, 310, 312, 313, 315, 317, 326, 332, 333, 338, 339, 343, 347, 348, 349, 357, 368, 369, 374, 395, 400, 406, 412, 455, 482, 487.

البسكريين, 38.

البوشمن, 179.

البيزنطيون, 131, 185, 186, 192, 195, 196, 198, 206, 210, 211, 271, 285, 357, 370, 373.

التوارق, 74, 111, 144, 148, 153, 230, 237, 259, 275, 277, 279, 283, 288, 294, 295, 296, 298, 303, 304, 306, 311, 330, 407, 412.

الجرمان الشرقيون, 131.

الرستميين, 69, 74, 121, 198, 261, 347, 368, 369.

الرومان, 59, 60, 61, 106, 142, 181, 182, 184, 185, 186, 187, 188, 189, 190, 191, 192, 193, 203, 205, 207, 210, 211, 242, 271, 272, 338, 370, 373, 395, 407

السنوسيين, 101.

السودانيين, 329.

الشاوية, 66, 74, 259, 275, 277, 278, 283, 295, 296, 301, 309, 311, 312, 330, 349.

الفرس, 276.

القرطاجيين, 180, 181, 186, 187, 188, 189, 192, 274, 307, 350, 370, 373.

المالاوي, 159

المزابيين, 38, 261, 275.

المور, 184, 207, 271, 275, 276, 280, 281, 285, 287, 294, 343, 349.

النوميد, 180, 271, 281, 285, 349.

الوندال, 130, 131, 185, 194, 206, 207, 370, 373, 402.

اليهود, 37, 50, 73, 89, 116, 135, 227, 247, 305, 317, 351, 352, 353, 458, 469, 470

أولاد رياح, 351.

أولاد سلام, 311, 312.

بنو مرين, 60.

بني سليم, 199, 200, 203, 205, 206, 263, 286.

بني ميزاب, 295, 317

بني هلال, 199, 200, 203, 205, 206, 263, 286.

زناتة, 66, 263, 265, 266, 267, 268, 277, 278, 283, 284, 286, 287, 298, 348, 349.

صنهاجة, 178, 263, 264, 265, 266, 268, 275, 277, 282, 283, 284, 286, 298, 349.

قبائل الجيتول, 185, 191, 271.

قبيلة الأنتيمور, 105.

قبيلة الفراشيش, 351.
قبيلة بني جناد, 311.
قبيلة بني سليمان, 331.
قبيلة بني عيسى, 311.
قبيلة بني يني, 311.
قبيلة فليسة, 311.
قبيلة كتامة, 369.

فهرس المحتويات

مقدمـــــة	أ
الفصل الأول: نشأة وتطور الاسطوغرافيا الكولينيالية في الجزائر	
أولاً: مفهوم الأسطوغرافيا الكولينيالية	**25 - 29**
1 – تعريف الأسطوغرافيا	25
1 – 1 – التعريف اللغوي للاسطوغرافيا	25
1 – 2 – التعريف الاصطلاحي للأسطوغرافيا	26
2 – مفهوم الاستوغرافيا الكولينيالية	27
2 – 1 – التعريف اللغوي للاستعمار	27
2 – 2 – التعريف الاصطلاحي للاستعمار	29
ثانياً: الأسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر قبل 1830	**30 - 39**
1 – مؤلفات الرحالة	30
2 – مؤلفات الممثلين الدبلوماسيين للدولة الفرنسية	33
3 – مؤلفات الأسرى والجواسيس	37
3 – 1 – تقارير دي كارسي	37
3 – 2 – مذكرات «تيدنا «Thédnat	38
3 – 3 – تقارير «بوتان «Boutin	39
ثالثاً: تطور الاسطوغرافيا الفرنسية في الجزائر 1830 – 1962	**41 - 88**

1 – الكتابة التاريخية الفرنسية 1830 – 1879	41
1 – 1 – مؤلفات القادة والضباط العسكريين	41
1 – 2 – مؤلفات موظفي الإدارة الفرنسية	45
1 – 3 – مؤلفات اللجان العلمية والثقافية	49
1 – 3 – 1 – لجنة استكشاف الجزائر	49
1 – 3 – 2 – الجمعية التاريخية الجزائرية	51
1 – 3 – 3 – الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة	52
1 – 3 – 4– أكاديمية هيبون	53
1 – 3 – 5 – الجمعية الجغرافية والأثرية لإقليم وهران	54
1 – 4 – مؤلفات الرحالة والمفكرين والأدباء	55
2 – الكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر 1879 – 1962	59
2 – 1 – لجنة ترجمة الكتب العربية	59
2 – 2 – مدرسة الآداب	60
2 – 3 – مؤتمر المستشرقين في الجزائر	65
2 –4 – جامعة الجزائر	67
2 –4 –1– كلية الحقوق	68
2 –4 –2– كلية الطب والصيدلة	70
2 –4 –3– كلية الآداب	71
2– 5 – لجنة الاحتفال بمئوية الاحتلال	72
2 – 6 – المعاهد الجامعية	75

1 – معهد الجيولوجيا	75
2 – المعهد الجغرافي	77
3 – معهد الدراسات الاستشراقية	79
4 – معهد الدراسات الصحراوية	80
5 – المعهد العالي للدراسات الإسلامية 1946	82
6 – معهد الإثنولوجيا	83
2 – 7 – تأسيس المكتبة الوطنية وأرشيف الجزائر	84
خلاصة	88
الفصل الثاني: التعريف بإميل فليكس غوتييه وبمؤلفاته	
أولاً: التعريف بإميل فليكس غوتييه	**91 – 97**
1 – مولده ونشأته	91
2 – سفره إلى مدغشقر ونشاطاته فيها	92
3 – انتقال غوتييه إلى الجزائر ونشاطاته فيها	94
ثانياً: دراسة بيبليوغرافية وصفية لمؤلفات إميل فليكس غوتييه	**97 – 164**
1 – التقارير الادارية	98
2 – الكتب	100
2– 1 – كتب إميل فليكس غوتييه عن مدغشقر وقارة إفريقيا بصفة عامة	100
2 – 2 – كتب إميل فليكس غوتييه عن الجزائر	105
3 – المقالات	130

خلاصة	165
الفصل الثالث: توجهات إميل فليكس غوتييه في تدوين تاريخ الجزائر	
أولاً: منهج غوتييه في تدوين التاريخ	**168 - 175**
1 – أراء غوتييه في مصادر تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا	169
2 – منهجيته في تدوين التاريخ	172
2 – 1 – دراسة وتحليل الآثار	172
2 – 2 – تنويع مصادر المعلومات	172
2 – 3 – التحليل والنقد والتفسير	173
2 – 4 – الهدم وإعادة البناء	174
2 – 5 – الاعتماد على الجغرافيا التاريخية والبشرية	175
ثانياً: أراء غوتييه في تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي	**176 - 217**
1 – فترة التاريخ القديم (من العهد القرطاجي إلى نهاية العهد البيزنطي)	176
1 – 1 – الرد على توجه غوتييه في كتابة تاريخ الجزائر القديم	183
2 – فترة التاريخ الإسلامي (العصور الوسطى)	190
2 – 1 – اعتبار التاريخ الوسيط فترة فراغ وعصور مظلمة	190
2 – 2 – وصف الفتح الإسلامي بالغزو الاستعماري	192
2 – 2 – 1– طول مدة الغزو الأول والمقاومة البربرية –اللاتنية	192
2 – 2 – 2– خطورة الغزو العربي الثاني ودوره في خراب بلاد المغرب	196

2 – 2 – 3– وصف العرب بالغزاة والهمج	199
2 – 3 – نقد الوصف السلبي لغوتييه لمرحلة التاريخ الاسلامي	202
3 – فترة الحكم التركي	211
3 – 1 – الرد على مواقف غوتييه من تاريخ الجزائر الحديث	214
ثالثاً: مواقفه من الاحتلال الفرنسي للجزائر وسياسته 1830 – 1939	**217 – 253**
1 – أراءه في احتلال فرنسا للجزائر ونظامها الإداري	217
2 – موقفه من السياسة الفرنسية في الجزائر	223
2– 1– مساندته لسياسة الاستيطان والادماج	223
2– 2 – دعمه لسياسة مصادرة الأراضي والتنصير	232
2– 3– مساندته للسياسة الفرنسة	237
3 – دحض أطروحات غوتيه حول حالة الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي	240
خلاصة	253
الفصل الرابع: إشكالية غياب الأمة وتباين مكونات المجتمع الجزائري في نظر إميل غوتييه	
أولاً: غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري	**256 – 272**
1 – غياب عناصر الوحدة في المجتمع الجزائري	257
2 – تباين واختلاف تشكيلة المجتمع الجزائري وتأثيراته السلبية	261
3 – الانقسام بين البدو والحضر	265

4 – الرد على رأي غوتييه فيما يخص مسألة غياب عناصر الوحدة لدى سكان الجزائر	268
ثانياً: إشكالية تباين أصول المجتمع الجزائري	**292 – 273**
1 – اختلاف وتنوع العرق البربري وادعاء أصوله الأوروبية	273
2 – إشكالية العداء بين مكونات المجتمع الجزائري ومسألة النسب الشريف	278
2 – 1 – العداء عبر التاريخ بين القبائل العربية والبربرية	278
2– 2 – مشكلة تغيير الأنساب وادِّعاء النسب الشريف خلال العصور الوسطى	285
3 – الرد على رأي غوتييه فيما يخص مسألة تباين أصول المجتمع الجزائري	287
ثالثاً: قضية اختلاف لغة الجزائريين وظاهرة اسلامهم القشوري	**319 – 293**
1 – مسألة اختلاف لغة السكان	293
2 – حتمية إحلال اللغة الفرنسية محل لغات «العنصر الأهلي» الضعيفة الآيلة للزوال	299
3 – غياب الوحدة الدينية، واشكالية تدين الجزائريين السطحي	301
4 – الرد على أطروحات غوتييه في مجال اختلاف اللغة والدين في الجزائر	308
4– 1 – نقد أراء غوتييه في مسألة التخلف اللغوي للمجتمع الجزائري	308

4- 2 – الرد على غوتييه فيما يخص مسألة تدين الجزائريين	315
خلاصة	319
الفصل الخامس: إشكالية التخلف الحضاري للجزائر وحتمية خضوعها للاستعمار في تصور إميل غوتييه	
أولاً: العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الانتاج الحضاري	**322 – 342**
1 – سلبية الوسط الطبيعي وأثره الاقتصادي والحضاري	322
2 – عقم الجزائر والجزائري عن الانتاج الحضاري	325
3 – انتشار نمط البداوة وتأثيره على التخلف الحضاري	327
4 – دَحْضُ ادعاءات غوتييه في مسألة العجز الفطري للإنسان الجزائري عن الانتاج الحضاري	334
ثانياً: غياب الشعور الوطني واستحالة تحقيق الوحدة السياسية حسب غوتييه	**342 – 364**
1 – غياب الشعور بالذات	342
2 – غياب الوحدة السياسية عبر التاريخ	345
3 – مظاهر غياب الشعور الوطني لدى الجزائريين في الفترة المعاصرة	349
4 – الرد على ادعاءات غوتييه حول غياب دولة وطنية في الجزائر عبر العصور	354
ثالثاً: حتمية خضوع الجزائر والجزائري لسلطة أجنبية	**364 – 384**
1 – حاجة الجزائري لأن يكون تحت وصاية سيد أجنبي	364

2 – مظاهر هيمنة الأجنبي على الجزائر عبر العصور	368
3 – المهمة الحضارية الفرنسية، انقاذ الجزائر من مصيرها المحكوم عليه بالظلامية	370
4 – دحض ادعاءات غوتييه في مسألة حتمية خضوع الجزائر للاستعمار الأجنبي	378
خلاصة	384
خاتمة	386
الملاحق	397
قائمة المصادر والمراجع	435
الفهرس العام	475
1 – فهرس الأعلام	476
2 – فهرس الأماكن	483
3 – فهرس الشعوب والقبائل	490
فهرس المحتويات	493
الملخص	501

الملخص

الملخص:

تعالج هذه الدراسة الموسومة «**توظيف تاريخ الجزائر لخدمة الاستعمار إميل فليكس غوتييه Émile-Félix Gautier أنموذجا**» في مضمونها المدلول العام لكلمة الاستوغرافيا بصفة عامة والاستوغرافيا الكولينيالية بصفة خاصَّة وتبرز نماذج، لأنواع الكتابات الفرنسية التي ظهرت إبَّان الحكم العثماني للجزائر خاصَّة تلك مؤلفات الجواسيس التي لعبت دوراً كبيراً في تسهيل احتلال الفرنسي، لننتقل بعدها إلى الحديث عن خصائص الكتابة الفرنسية في الجزائر من سنة 1830 إلى سنة 1870، والتي تميزت بسيطرة القادة العسكريين على عملية تدوين تاريخ الجزائر، كما ظهرت في هذه المرحلة العديد من الجمعيات التاريخية الفرنسية التي ضمت المهتمين بالتأليف وترجمة الكتب، سواء المكتوبة باللغة العربية أو لهاجات اللغة البربرية.

أمَّا في الفترة الممتدة من سنة 1870 إلى سنة 1962 فعرفت فيها الكتابة تغيرات كبيرة خاصَّة مع ظهور جامعة الجزائر التي دعمت حركة التأليف والبحث التاريخي من خلال مختلف معاهدها، كما برزت عدة أسماء في هذه الفترة منهم نموذج دراستنا «إميل فلكيس غوتييه» الذي يعتبر من أبرز نماذج المدرسة الكولينيالية الفرنسية في الجزائر باعتبار الآراء التي تبناها في الدفاع عن الاستعمار الفرنسي للجزائر وإثبات فشل الجزائريين في تكوين دولة عبر التاريخ، وبالتالي فإنَّ الأبحاث والدراسات التي انجزها عن الجزائر لا تخرج في نطاقها عن استغلال التاريخ لتبرير الهيمنة الفرنسية على الجزائر وتبرير سياستها القمعية على الجزائريين، علاوة على ذلك توضَّح الدراسة حجم الإمكانات التي سخرها الفرنسيون في مختلف المجالات من أجل استمرار احتلال الجزائر واستغلال خيراتها بما يخدم مصالح الاقتصاد الفرنسي بالدرجة الأولى، كما يتضح لنا أيضاً أنَّ الحضارة الغربية وإلى يومنا هذا رغم نهاية الاحتلال الاستيطاني المباشر، إلاَّ أنَّها لا تزال تسعى إلى استغلال الخلفيات التاريخية لتحقيق مآربها في استغلال خيرات هذه الدول وضمان بقائها مهيمنة على الاقتصاد العالمي.

الكلمات المفتاحية: الأسطوغرافيا – الأسطوغرافيا الكولينيالية – تاريخ الجزائر – المدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر – إميل فليكس غوتييه.

Résumé :

Cette étude, intitulée « **L'utilisation de l'histoire algérienne au service du colonialisme : Émile Félix Gautier comme modèle** », aborde le sens général du terme historiographie en général et l'historiographie coloniale en particulier. Il met en lumière des exemples des types d'écrits français qui ont émergé pendant la domination ottomane de l'Algérie, en particulier ceux des espions qui ont joué un rôle significatif dans la facilitation de l'occupation française. Il passe ensuite à discuter des caractéristiques de l'écriture française en Algérie de 1830 à 1870, marquée par la domination des chefs militaires dans le processus de documentation de l'histoire algérienne. Pendant cette période, de nombreuses sociétés historiques françaises ont vu le jour, regroupant ceux intéressés par l'écriture et la traduction de livres, qu'ils soient écrits en arabe ou en dialectes berbères.

Entre 1870 et 1962, l'écriture a subi des changements significatifs, notamment avec l'émergence de l'Université d'Alger, qui a soutenu l'écriture et la recherche historiques à travers ses différents instituts. Plusieurs noms ont émergé durant cette période, y compris celui de notre étude, Émile Falques-Gautier, qui est considéré comme l'un des exemples les plus marquants de l'école coloniale française en Algérie, étant donné les vues qu'il a défendues en faveur du colonialisme français en Algérie et son affirmation selon laquelle les Algériens n'avaient pas réussi à former un État tout au long de l'histoire. Par conséquent, ses recherches et études sur l'Algérie ne vont pas au-delà de l'exploitation de l'histoire pour justifier la domination française sur l'Algérie et ses politiques oppressives envers les Algériens. Cette étude illustre également l'ampleur des ressources que les Français ont consacrées à divers domaines afin de poursuivre leur occupation de l'Algérie et d'exploiter ses ressources, principalement pour servir les intérêts de l'économie française. Il est également clair pour nous que la civilisation occidentale, malgré la fin de l'occupation coloniale directe, continue d'exploiter les contextes historiques pour atteindre ses objectifs d'exploitation des ressources de ces pays et assurer sa domination continue sur l'économie mondiale.

Mots-clés : historiographie – historiographie coloniale – histoire de l'Algérie – école historique française en Algérie – Émile Félix Gautier.

Summary:

This study, titled «**The Utilization of Algerian History to Serve Colonialism: Émile Félix Gautier as a Model**» addresses the general meaning of the term historiography in general and colonial historiography in particular. It highlights examples of the types of French writings that emerged during the Ottoman rule of Algeria, especially those by spies who played a significant role in facilitating the French occupation. It then moves on to discuss the characteristics of French writing in Algeria from 1830 to 1870, which was marked by the dominance of military leaders in the process of documenting Algerian history. During this period, many French historical societies emerged, comprising those interested in writing and translating books, whether written in Arabic or Berber dialects.

Between 1870 and 1962, writing underwent significant changes, particularly with the emergence of the University of Algiers, which supported historical writing and research through its various institutes. Several names emerged during this period, including the subject of our study, Emile Falques-Gautier, who is considered one of the most prominent examples of the French colonial school in Algeria, given the views he espoused in defence of French colonialism in Algeria and his assertion that Algerians had failed to form a state throughout history. Therefore, his research and studies on Algeria do not go beyond exploiting history to justify French domination of Algeria and its oppressive policies towards the Algerians. This study also illustrates the extent of the resources that the French devoted to various fields in order to continue their occupation of Algeria and exploit its resources, primarily to serve the interests of the French economy. It is also clear to us that Western civilisation, despite the end of direct colonial occupation, continues to exploit historical contexts to achieve its goals of exploiting the resources of these countries and ensuring its continued dominance of the global economy.

Keywords: historiography – colonial historiography – history of Algeria – French historical school in Algeria – Émile Félix Gautier.